مسالك الأبصار

في ممالك الأمصار

لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري

(ت ٧٤٩ هـ)

السفر الرابع والعشرون

دول الحسنيين والحسينيين

والدولة العباسية والأموية بالشام والأندلس

تحقيق

الدكتور يحيى الجبوري

الأستاذ بجامعة آل البيت

٩٥٣
ف ض م س
ابن فضل الله العمري، شهاب الدين ابو العباس أحمد بن يحيى، ٧٠٠ - ٧٤٩هـ.
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: السفر الرابع والعشرون دول الحسنيين والحسينيين والدولة العباسية والأموية بالشام والأندلس / تاليف ابن فضل الله العمري؛ تحقيق يحيى وهيب الجبوري.-أبوظبي: المجمع الثقافي، 2003.
٥٣٢ ص
ببليوجرافية: ص ٥٠١ - ٥٢٣.
١- العالم العربي - تاريخ - العصر الإسلامي.
٢- التاريخ الإسلامي.
أ- يحيى الجبوري، محقق.
ب- العنوان.

أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380- هاتف: 6215300
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae

تم تحقيق هذا الكتاب بتكليف من المجمع الثقافي

مســـــالك الأبصـــار

في ممالك الأمـــصـــار

المقدمة

هذا هو السفر الرابع والعشرون من موسوعة كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري، ويتألف الكتاب من سبعة وعشرين سفرا سجل فيه تراث الأمة على مدى سبعمائة عام أو يزيد، فقد حفظ وسجل الجوانب الحضارية والعلمية والاجتماعية والسياسية، وتحدث عن الدول التي قامت ثم اندثرت وترجم لرجالها وعلمائها من الفقهاء والقراء والمحدثين والفلاسفة والأطباء والمؤرخين والشعراء والأدباء والمغنين، وتحدث فيه عن البلدان والمواضع وعادات الشعوب والأديان والنحل والفرق الإسلامية وغير الإسلامية .

واختص هذا الجزء بتاريخ الدول العربية الإسلامية من بني هاشم وبني أمية في الشام والعراق ومصر والأندلس، مصورا حياة الدول في جوانبها السياسية والإدارية والحضارية، في أحوالها الزاهية المزدهرة في عهود تقدمها، وكذلك أحوالها في حال تخلفها وتضعضعها وانحدارها نحو السقوط بسبب التناحر على السلطة واقتطاع الممالك وتجزيئها ثم اندثارها، وقد امتدت حياة هذه الدول قرابة سبعة قرون ابتداء من حكم معاوية بن أبي سفيان وانتهاء بسقوط الدولة العباسية على يد التتار سنة ٦٥٦هـ

مؤلف الكتاب :

مؤلف مسالك الأبصار هو ابن فضل الله العمري(*) القاضي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله بن المجلي دعجان بن خلف، يتصل نسبه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصفه خليل بن أيبك، وكان صديقه وأهم من ترجم له ترجمة مستفيضة ، بقوله :(هو الإمام الفاضل البليغ المفوَّه الحافظ حُجَّة الكُتَّاب، إمام أهل الأدب، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلاً، وتوصلاً إلى غايات المعالي وتوسلاً).

ولد بمدينة دمشق في شوال سنة سبع مائة، وسمع بالقاهرة ودمشق من جماعة، وتخرج في الأدب بوالده، وبالشهاب محمود، قرأ العربية أولا على الشيخ كمال الدين ابن قاضي شهبة، ثم على قاضي القضاة شمس الدين بن مسلم، والفقه على قاضي القضاة شهاب الدين ابن المجد عبد الله، وعلى الشيخ برهان الدين، وقرأ الأحكام الصغرى على الشيخ تقي الدين ابن تيمية، والعروض والأدب على الشيخ شمس الدين الصايغ، وعلاء الدين الوداعي، وقرأ جملة من المعاني والبيان على العلامة شهاب الدين محمود، وقرأ عليه جملة من الدواوين وكتب الأدب، وقرأ بعض شيء من العروض على الشيخ كمال الدين

(*) ينظر في ترجمته :
الوافي بالوفيات ـ الصفدي ٨ / ٢٥٢ ـ ٢٧٠ .
النجوم الزاهرة ـ ابن تغري بردي ١٠ / ٢٣٤ـ ٢٣٥ .
شذرات الذهب ـ ابن العماد ٨ / ٢٧٣ـ ٢٧٤ .
الدرر الكامنة ـ ابن حجر١ / ٣٣١ .
فوات الوفيات ـ ابن شاكر الكتبي ١ / ٧ ـ ٩ .
تاريخ ابن الوردي ـ ابن الوردي ٢ / ٣٤٢ .
البداية والنهاية ـ ابن كثير ٧ / ٢٤٧ .
حسن المحاضرة ـ السيوطي ١ / ٣٢٩ .

ابن الزملكاني، والأصول على الشيخ شمس الدين الأصبهاني، وأخذ اللغة عن الشيخ أثير الدين : سمع عليه (الفصيح)، و (الأشعار الستة)، و(الدريدية)، وأكثر (ديوان أبي تمام)، وغير ذلك، وسمع بدمشق من الحجار وست الوزراء وابن أبي الفتح، ورحل إلى بلاد كثيرة طلبا للعلم، فسمع في الحجاز ومصر والإسكندرية وبلاد الشام، وأجاز له جماعة .

شغل أعمالا كثيرة وتقلب في وظائف الدولة، فباشر كتابة السير للسلطان الناصر محمد بن قلاوون بالقاهرة ، نيابة عن والده محيي الدين الذي ولي كتابة سر دمشق، ثم لما ولي والده كتابة السر بمصر أيضا، صار هو يقرأ البريد على الملك الناصر محمد بن قلاوون، وينفذ المهمات، واستمر كذلك في ولاية والده الأولى والثانية، ثم إنه فاجأ السلطان بكلام غليظ، فقد كان قوي النفس، وأخلاقه شرسة، فتغير عليه السلطان فأبعده، وصادره وسجنه بالقلعة سنة ثمان وثلاثين وسبع مائة، ثم ولي كتابة السر بدمشق، وعُزِل ورُسم عليه أربعة أشهر، وطُلب إلى مصر، فشفع فيه أخوه علاء الدين، فعاد إلى دمشق، واستمر بطّالاً من أعمال الدولة، ولكنه انصرف إلى التأليف والتصنيف إلى أن مات .

علمه وأدبه :

انتهت إليه رياسة الإنشاء ، وكان يشبه القاضي الفاضل في زمانه، كان حسن المحاضرة والمذاكرة، سريع الاستحضار، جيد الحفظ، فصيح اللسان، جميل الأخلاق، يحب العلماء والفقراء، يقول الصفدي : (رزقه الله أربعة أشياء ، لم أرها في غيره ، وهي : الحافظة ، قلّما طالع شيئاً إلا وكان مستحضرا لأكثره، والذاكرة التي إذا أراد ذكرى شيء من زمن متقدم كان ذلك حاضرا، كأنه مَرَّ به بالأمس، والذكاء الذي تسلط به على ما أراد، وحسن القريحة في النظم والنثر،

أما نثره فلعله في ذروة كان أوج الفاضل لها حضيضا، ولا أرى أحدا يلحقه فيه جودة وسرعة عمل لما يحاوله في أي معنى أراد، وأي مقام توخاه، وأما نظمه فلعله لا يلحقه فيه إلا الأفراد، وأضاف الله تعالى إلى ذلك كله حسن الذوق الذي هو العمدة في كل فن)[١]

كان ابن فضل الله العمري ذا ثقافة واسعة، قل أن يتحصل عليها غيره في شتى العلوم والفنون، كان علمه بالتاريخ منقطع النظير، فهو على دراية واسعة بتواريخ ملوك المغول من لدن جنكيز خان وهلمَّ جرا، وكذلك بملوك الهند والأتراك، فضلا عن ملوك العرب من الخلفاء والأمراء، وكان متفردا بمعرفة المسالك والممالك وخطوط الأقاليم، ومواقع البلدان وخواصها، يشهد على ذلك كتابه (مسالك الأبصار) هذا، وكذلك علمه بمعرفة الاسطرلاب وحل التقويم وصور الكواكب، وبخطوط الأفاضل وأشياخ الكتابة .

انصرف العمري إلى الكتابة والتأليف، وترك وظائف الدولة، وأتيحت له حياة مستقرة مرفهة، فقد رتبت له مرتبات كثيرة بعد تركه عمل السلطان، وعاش في نعمة، وعمَّر دارا هائلة بسفح قاسيون بالقرب من الركنية في شرقيها، ليس بالسفح مثلها. ولو امتد به العمر لأعطى عطاء كثيرا فوق عطائه الغزير، فقد توفي وهو في أوج نضجه الفكري والعلمي في الخمسين من العمر، وكانت وفاته بالطاعون، فقد وقع الطاعون بدمشق سنة تسع وأربعين وسبع مائة، فَفَرِقَ من ذلك وعزم على الحج، واشترى الجمال وبعض الآلات، ثم إنه ترك ذلك وتوجه بزوجته ابنة عمه إلى القدس ومعهما ولداه، وصاموا هناك، فماتت زوجته بالقدس في شهر رمضان، وحضر إلى دمشق وهو طائر العقل، فيوم وصوله بَرَدَ وحصل له حُمَّى أضعفته، فتوفي رحمه الله يوم عرفة سنة تسع وأربعين وسبع

---

(١) الوافي بالوفيات ٨ / ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

مائة، ودفن عند والده وأخيه بدر الدين محمد بالصالحية.

صنف العمري كتبا كثيرة، وترك تراثا ضخما جليلا بلغت بعض كتبه مجلدات ضخام، ومن أهم كتبه وأوسعها كتابه هذا (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، في عشر مجلدات كبار، وفي سبعة وعشرين سفرا في التقسيم الأخير الذي منه هذه المصورات، وصنف : (فواضل السمرفي فضائل آل عمر) في أربع مجلدات ، و (الدعوة المستجابة) في مجلد، و (صبابة المشتاق) وهو ديوان كامل في المدائح النبوية ، و (سفرة السفر)، و (دمعة الباكي) ، و(يقظة الساهر)، و (نفحة الروض)، و (مختصر قلائد العقيان)، و(النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية)، و (الشتويات) وهو مجموع رسائل، و(الدائرة بين مكة والبلاد) ، و (ممالك عبَّاد الصليب)، و (التعريف بالمصطلح الشريف)، وأنشأ كثيرا من التقاليد والمناشير والتواقيع ومكاتبات الملوك، وغير ذلك، ونثره وأسلوبه واضح في كتاب مسالك الأبصار، وخاصة حين يترجم لعلم أويعلق ويفسر .

أما شعره، فقد نظم أشعارا كثيرة منها ما ذكرها في تضاعيف كتبه وفي هذا الكتاب خاصة، ومنها في كتابه صبابة المشتاق، وما ذكرته كتب التراجم التي ترجمت له، ومن أهمها كتاب الصفدي : الوافي بالوفيات والصفدي معاصره وصديقه، نظم العمري القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت والموشح والزجل، ومن مختار شعره قصيدة في المديح النبوي، نقتطف منها هذه الأبيات :

جنحتْ إليَّ مع الأصيلِ المُذْهَبِ ... والركبُ ممتدٌّ الخطى في المذْهَبِ
واليومُ مبيضُ الإزارِ وإنَّما ... جنبُ الإزارِ مُطَرَّزٌ بالغَيْهَبِ
وعلى الأصائلِ رِقَّةٌ فكأنَّما ... لبِسَتْ نحولَ العاشقِ المتلهِّبِ
هذي المدينةُ أشرقَتْ أعلامُها ... يهنيكمُ فُزْتُم بأشرفِ مطْلَبِ

هذي القِبابُ كأنَّهُنَّ عرائسٌ مجلوّةٌ سَفَرَتْ ولم تتنَقَّبِ
هذا رسولُ اللهِ جِدُّوا نحوَهُ تجدوا النَّوالَ الجَمَّ والخُلُقَ الأبي
هذا رسولُ اللهِ هذا أحمدٌ هذا النقيُّ الجيبِ هذا مطلبي
هذا صباحُ المُهْتَدي هذا ربيـ ـعُ المجتبي هذا شفيعُ المُذْنِبِ
هذا النَّبيُّ الهاشميُّ المجتبى من نسْلِ إبراهيمَ أكْرِمْ من أبِ
هذا المصفَّى من سُلالةِ آدمٍ الطيِّبُ بن الطيِّبِ بن الطيِّبِ
شَرُفَتْ به آباؤهُ وأتَتْ به أبناؤهُ والكلُّ مثلُ الكوكبِ
واختارهُ اللهُ المُهَيمِنُ ربُّهُ وحباهُ بالقُربى وعِزِّ المنصِبِ

وصف مخطوطة الكتاب :

يتألف هذا الجزء من ١٦٩ ورقة في ٣٣٨ صفحة، في الصفحة ٢٣ سطرا، وفي السطر حوالي ٩ـ ١١ كلمة، خطها نسخ واضح مقروء ، والعنوانات بخط كبير، بعض الكلمات غير معجمة، فيها شكل قليل، يكثر فيها التحريف والتصحيف واللحن، مما يدل على أن الناسخ غير ضليع بالعربية، أو أنه متعجل فيقع في الوهم والخطأ، ليس في هذا الجزء صفحة العنوان ويبدأ الجزء في الصفحة الثانية بعد البسملة بقوله : (على الله توكلت ، وهذا ذكر من تنبَّه من أهل هذا البيت، وملك ملكا، وإن كان القليل المنقص، والحقير المنغص، وكيف يرثون الأرض وما ترك جدهم لهم تراثا، أو تعطف عليهم الدنيا وقد طلقها أبوهم، وما ضرهم أن يكون لغيرهم الدنيا وتكون لهم الآخرة، وفيهم النبوة الدائمة، ولسواهم الدول الدابرة، وأول ما نبدأ بالحسنيين ثم بالحسينيين ، ثم بمن تعلق بهما). وينتهي الجزء في الصفحة ٣٣٨ وفيها نقص إذ لم ترد فيها الخاتمة ولا اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ ، وختامها بقطعة من شعر المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وهي قطعة غزل يقول

فيها :

طال عمرُ الليلِ عندي	مذ تولعتُ بصدٍّ
يا غزالاً نقضَ الودْ	دَ ولم يوفِ بعَهْدِ
أنسيتَ العهدَ إذْ	بتْنا على مفرشِ وردِ
واجتمعنا في وشاحٍ	وانتظَمْنا نظْمَ عِقْدِ
وتعانقنا كغصنين	ن وقدَّانا كقَدٍّ
ونجومُ الليلِ تحكي	ذَهَباً في لازِوَرْدِ

وفي آخر الصفحة تعقيبة تقول (وقد تقدم) مما يدل على أن هناك حذفا والكلام موصول .

المخطوطة كاملة من الداخل ليس فيها حذف أو بياضات إلا بعض الكلمات في مواضع قليلة، وفي الصفحة ٢١٩ بياض بقدر نصف الصفحة، هناك بعض الخرجات والتصويبات في الحواشي وليست كثيرة .

وعلى الرغم من جودة الخط وجماله ووضوحه، إلا أن الناسخ كان متعجلا، وهو قليل الدراية باللغة العربية، فقد جاء في المخطوطة شكل قليل، إلا أن كثيرا منه غير صحيح فلم نعتمده، وكلماتها معجمة ولكن هذا الإعجام غير مضطرد، ففيها كثير من الكلمات المهملة، والإعجام فيها لا يعتمد عليه ففيه كثير من التضليل فقد يكتب الياء ويريد التاء ، ويكتب النون ويريد الباء ، وهكذا، أما الأخطاء النحوية فكثيرة كثرة ملفتة للنظر، وقد نبهنا إلى بعضها وصححنا البقية دون تنبيه ، وكثير من الأشعار المستشهد بها فيها نقص أو تحريف أو خلل في الأوزان، وكذلك أسماء الأعلام فيها المحرف والمغيَّر .

الكتاب ومنهج مؤلفه :

تناول هذا الجزء الدول التي قامت في المشرق والمغرب، وبدأ بذكر دول الهاشميين وأولها دولة الحسنيين و الحسينيين وتبدأ بدولة المهدي محمد بن عبد الله بن الحسن، وأخيه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، ثم دولة بني طباطبا العلويين، وتداول الحكم من خلفاء هؤلاء اثنا عشر خليفة، ثم الدولة الطبرستانية من أولاد الحسن وأولاد الحسين بن علي بن أبي طالب، وهم ثلاثة خلفاء ، ثم دولة الأدارسة بالمغرب، وأول خلفائها إدريس المغرب ابن عبد الله بن الحسن المثنى ، وهم خمسة عشر خليفة، ثم الدولة العبيدية الفاطمية في مصر وأولهم المهدي بالله عبيد الله بن محمد الفاطمي، وتداول الحكم من الفاطميين في مصر أربعة عشر خليفة، ثم خليفتان من الحسينيين في الكوفة والحجاز وهما محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بالكوفة، ومحمد بن جعفر الصادق بالحجاز، وذكر بعد ذلك دولة الزنجي علي بن محمد العلوي الذي ظهر في البصرة، أما القرامطة فقد ذكر حركتهم وصفاتهم ومن ولي الأمر منهم وهم سبعة ظهروا بسواد الكوفة، وكل هؤلاء الخلفاء هم من بني هاشم، واستكمالا للهاشميين ، بدأ بعد هؤلاء بذكر دولة بني العباس الهاشميين، وهم سبعة وثلاثون خليفة أولهم أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد، وآخرهم المستعصم بالله عبد الله بن منصور المستنصر العباسي الذي به انتهت الدولة العباسية وقد قتله المغول واحتلوا البلاد وسبوا العباد، ثم يتسلل من بقي من العباسيين إلى مصر ، وينشئون الدولة العباسية في مصر، وكان الخلفاء تحت إمرة الولاة الحاكمين وليس للخلفاء إلا الاسم والرسم، وهم خمسة خلفاء أولهم المستنصر بالله أحمد بن محمد الظاهر العباسي، وبسقوط الخلفاء العباسيين في العراق ومصر تنتهي الدولة العباسية الهاشمية .

أما بقية الخلفاء الذين جرى ذكرهم في هذا الجزء ، فهم خلفاء الدولة العربية الأموية القرشية في الشام وفي الأندلس، وتبدأ الدولة الأموية بالفرع السفياني وهم ثلاثة خلفاء ، أولهم معاوية بن أبي سفيان وآخرهم معاوية بن يزيد، ثم تنتقل الخلافة إلى الفرع المرواني من بني أمية، وأولهم مروان بن الحكم، وآخرهم مروان بن محمد، وعدد من حكم من الأمويين بالشام أربعة عشر خليفة، يقضي على آخرهم بنو العباس.

ثم ينتقل بنو أمية إلى الأندلس، وتقوم لهم دولة يشيِّدها صقر قريش عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، ويتوالى على الحكم خمسة عشر خليفة آخرهم المعتد بالله هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، الذي انتهت حياته سنة ٤٢٨ هـ ، وبموته انتهت الدولة الأموية بالأندلس .

لقد حوى هذا السفر تراجم لأكثر من ١٢٧ خليفة، عرض المؤلف لظروف قيام كل دولة، وسير الخلفاء وحياتهم الخاصة والعامة، والأحداث التي جرت في كل دولة، وعرض للجوانب السياسية والاجتماعية والحضارية، وأسباب ازدهار الحكم، وعوامل سقوط الدول، والمؤلف في كل ذلك يروي الأخبار ويصور السير والأحداث، ويستشهد بالأشعار التي قيلت، ويبين خصائص كل دولة وصفات كل حاكم، مصورا الجوانب الرفيعة المشرقة، وكذلك الجوانب الفاسدة الهابطة من انحراف بعض الخلفاء وميلهم إلى اللهو والمجون والعنف والفساد، وعلى الرغم من كثرة الجوانب السلبية، وفساد الحكم ، والصراع على السلطة والقتل والغدر بين الأقارب والأباعد، على الرغم من كل ذلك، فقد تجلى لدى بعض الخلفاء الميل إلى الخير والعدل والزهد والتقوى، وكان منهم من يتأسى ويتابع عمر بن عبد العزيز في زهده وورعه وعدله، سواء من الخلفاء الأمويين أم من العباسيين

مثل يزيد بن الوليد بن عبد الملك من الأمويين، و عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم من الأمويين بالأندلس، و المهتدي بالله محمد بن هارون الواثق بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، من العباسيين على الرغم من تأخر عهدهم وضعف دولتهم .

إن هذا السِّفْر صورة صادقة للحياة العربية في ازدهارها وحضارتها وغناها وانتشارها، وصورة لحياة الأمم وسقوطها وتشتتها وانهيارها، وللمؤلف ابن فضل الله العمري منهج متميز في دراسته وعرضه للأحداث والأخبار، فهو يبدأ كل ترجمة بمقدمة يعرض فيها ملخصا لسيرة صاحب الترجمة، وأهم مميزاته، والظروف والأحداث التي مرت به، بأسلوب أدبي يغلب عليه السجع، وهو أسلوب جميل رفيع يدل على ثقافة عالية ودراية واسعة ومحفوظ كثير ، من الأشعار والأمثال والخطب ، التي يستعير بعضها ويضمِّنها في أسلوبه، ثم بعد هذه المقدمة التي قد تطول وقد تقصر، يذكر أهم صفات الخليفة وسيرته، والأحداث التي شغلته، وبعض رجال عصره، ينقل ذلك من المصادر التي سبقته أو التي عاصرته، ينقل أحيانا ما يختاره نقلا حرفيا، ويلخص في أحيان أخرى، ويصوغ بعضها بأسلوبه، ويشير في كل ذلك إلى الكتب التي أفاد منها، ونقل عنها، وقد ينفرد بمعلومات لا نجدها في كتب التاريخ والأدب، وهو في كل ذلك يلتزم جانب الحياد والموضوعية دون ميل أو تعصب، إلا في الحالات التي يرى أن الفساد قد عمَّ فيها وطمَّ ، وهو في منهجه هذا مثال الباحث الفذ الأصيل الذي يصلح قدوة لكثير من الباحثين المحدثين الذين تنقصهم الأمانة والعدل والموضوعية .

منهج التحقيق :

على الرغم من سعة هذا السفر وضخامته، وما فيه من تراجم كثيرة ونصوص وأشعار غزيرة، وأعلام بعضهم مغمور أو مجهول، لم أجد لهم ترجمة في المصادر المتاحة، وعلى الرغم من الصعوبات التي تعترض كتابا كهذا يتعلق بالتاريخ ورجاله وأحداثه وأزمانه، على الرغم من كل ذلك، فقد وجدت في هذا الكتاب متعة في قراء ته وتحقيقه وجلاء غامضه، لما فيه من جيد الأخبار، وجميل الأشعار وجودة المختار من تراجم الأعلام، وقد سرت في التحقيق على الوجه الذي يخدم النص تصويبا وتقويما، وغايتي في ذلك أن أحرِّرَ نصا هو أقرب إلى ما أراده مؤلفه، وقد سرت في التحقيق على الوجه الآتي :

١ـ صحَّحت النص وقوَّمت ما فيه من أخطاء لغوية ونحوية ووهم وتصحيف وتحريف، وقد جاء كثير من الألفاظ والعبارات محرفة أو خالية من الإعجام، أو أن إعجامها غير صحيح، أو كان فيه لحن أو سهو أو خطأ أو نقص، فاستدركت كل ذلك ، وأشرت لبعض التصويبات، وقد صححت الأخطاء وأشرت إلى التصويب في الهامش، وقد أغفل الإشارة حرصا على عدم إثقال الهوامش بالتصويبات المتشابهة، وهي كثيرة، ويبدو أن الناسخ كان قليل الدراية بالعربية، وقد تعزى بعض الأخطاء إلى السهو والعجلة ، وقد وضعت كل إضافة أو استكمال أو تصويب بين عضادتين [ ] .

٢ـ ضبطت الشعر بالشكل وكذلك أسماء الأعلام والكلمات التي بحاجة إلى الضبط دفعا للوهم واللبس، وقد جاءت بعض الكلمات مضبوطة في الأصل وخاصة في الشعر، ولكن بعضها غير صحيح الضبط، وقد يكون ضبطه

مدعى إلى اللحن .

٣ـ أكثر الكلمات في الأصل معجمة، وبعضها مهمل، ولكن الإعجام في كثير من الكلمات غير صحيح ، فأعجمت المهمل وصوبت المحرف والمصحف .

٤ ـ في بعض الأشعار نقص أوخلل في الوزن، فأتممت النقص وصححت الوزن، وأشرت إلى الأبيات التي لم أهتدِ إلى وجه الصواب فيها .

٥ ـ خرَّجت الشعر بالرجوع إلى الدواوين والمصادر بالقدر الذي أسعفت فيه المصادر، وبينت بحور الشعر لكل قصيدة أو قطعة أو بيت .

٦ ـ بيَّنت معاني الكلمات الغامضة والعبارات التي تحتاج إلى شرح وتوضيح .

٧ ـ ترجمت للأعلام الذين لهم صلة بالمضمون، وقد جاء ت بعض أسماء الأعلام محرفة، فصحَّحتها بالرجوع إلى كتب التراجم .

٨ ـ ترجمت للمواضع والبلدان، وعرفت بالجماعات أو الشعوب حين تدعو الضرورة لذلك .

٩ـ هناك نقص في بعض نصوص الكتاب نتيجة للاختصار أو التلخيص أو السقط، فأكملت النقص بالرجوع إلى كتب التاريخ المنقول عنها، وقد ترد عبارات هي خلاف المعنى المراد، فصحَّحت ذلك وأرجعت العبارات إلى أصلها ووجَّهتها الوجهة الصحيحة بالرجوع إلى المصادر، وقد نبَّهت إلى كل ذلك في الهامش .

وبعد، فبتوفيق من الله تعالى، لم آلُ جهدا، ولم أدخر وسعا في سبيل خدمة هذا السفر الجليل، وقد انصرفت إليه بكلي، وأعطيته عزيز وقتي وبقية

عمري، مقرنا ليلي بنهاري، راجيا أن أكون قد أدركت بعض ما سعيت إليه من خدمة تراث الأمة الجليل، فإذا بلغت الغاية أو بعضها فلله الحمد على ما أعان ووفق ، وإن قصرت وضللت، فسبحان من له الكمال وحده ، ومن الله العون، وبه التوفيق .

والحمد لله أولا وآخرا .

٣ جمادى الآخرة ١٤٢٢ هـ
٢٢ آب (أغسطس) ٢٠٠١
حقّقه يحيى وهيب الجبوري

صور من الأصل المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم على الله توكلت
وهذا ذكر من تنبه من أهل هذا البيت وملك ملكًا وإن كان
القليل المنقص والحقير المنغص وكيف يرثون الأرض وما ترك
جدهم لهم تراثًا أو تعطف عليهم الدنيا وقد طلقها أبوهم ثلثًا وما
ضرهم أن يكون لغيرهم الدنيا وتكون لهم الآخرة وفيهم النبوة الدا
ولسواهم الدول الدايرة وأول ما نبدأ بالحسنيين ثم بالحسينيين
ثم من تعلق بهما فدول الحسنيين أولها وفيهم من تقدم في
النسب ذكرهم ذكر دولة المهدي محمد بن عبد الله بن
الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب تقدم ذكره في موضعه من
النسب وكان يلقب النفس الزكية وكان أبو جعفر المنصور
قد بايعه في الدولة الأموية وأعطاه يمينه وأعطاه في عقد المبايعة
يمينه وكان برًا تقيًا طاهرًا زكيًا ولهذا كان يسمى النفس الزكية ولم
يقدر له ظهور في تلك الأيام الأول ولا على عهد السفاح فلما قبض المنصور
على أبيه خرج عليه بالمدينة واحتج عليه بمبايعته المتقدمة ودارت
بينهم كتب بديعة في أثنائه احتج وكان المنصور فيها الألد الخصم والأشد
عقدًا لا ينقصم وكان محمد بن عبد الله أبدًا شر دلابه جمل نعدا
جاعه خلفه فلم يلحقه أحد سواه فأمسك بذنبه فلم يزل يجاذبه حتى
انقلع فرجع بالذنب في يده وكان يطلب الخلافة أيام بني أمية ويزعم أنه
المهدي المبشر به وكان نهاية في العلم والزهد والشجاعة دائم سنين
مستترًا في جبال طي مرة يرعى الغنم ومرة يعمل في المهن وأمسك المنصور
أباه وعمه وطائفة من أهله لإحضاره وإحضار أخيه إبراهيم محمد وامرنهما
فحبسهم ... يقال إن المنصور كان قد بايع أباه عبد الله ومحمدًا ابنه بعده
وكانت له جارية معها ابن له صغير ترضعه ولد له في حال تستره

صورة الصفحة الثانية من بداية الكتاب

عصابتها المحمدية وسنذكر من هذا مما نثبته في موضعه ونبينه
في مواضعه ونبين زمن مطالعه وزهره بمطالعه ونسرح بموصد
رايته وقاربه وسامعه فاما ما ذكرنا من بني اسمعيل فانما اردنا به
في النسب الشريف النبوي زاده الله شرفا اتصال سببه وايضاح كيف
كان من مظهره ليعرف تقدم ابائه في النسب اللباب وخروج
ذريته البينة من قرار ذلك البحر العباب

وهذه الدولة العباسية

سقاها الله صوب رحمته ولقاها نضرة نعمته واول ما نبدأ
بذكر العباس بن عبد المطلب كان رحمه الله مهيبا جميلا رئيسا في الجاهلية
كريما مهيبا وكان لا يرفع ما يدنه حتى ياكل منها الطير والسباع
وكانت له ثياب للعاري ومايدة للجايع وسوط للسفيه وجاء
الاسلام وهو على ذلك وكان جهوري الصوت ربما صاح بالاسد
فتنفطر مرارته في كبده وصاح يوما واصباحاه فاسقطت الحوامل
وفي الحديث عم الرجل صنو ابيه وكان ابو بكر وعمر رضي الله عنهما
اذا راياه نزلا له الى الارض وسلما عليه واستسقى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه
وكان اسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين وقيل من اكبر انت ام
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انا اسن وهو اكبر مني وقال
اكبر من صبغني حجبت ستة ورايت بني عبد المطلب كانهم بروج فضة فقلت
من هولاء قيل بنو عبد المطلب فقلت هولاء غرس الله لا غرس البشر وكان
اجل بنيه حبر هذه الامة عبد الله بن العباس رضي الله عنهما وفي الحديث اللهم فقهه
في الدين وعلمه التاويل والبيت في ولده علي وسماه علي بن ابي طالب باسمه وكناه
بكنيته وكان يدعى زين العابدين وكان مجتهدا في العبادة وكان عبد الملك

صورة الصفحة ٩٢ وفيها الدولة العباسية

تجمعت الرماة عليه ورموا عن قوس واحد ويعون عنايه تمدلها
هذه الطيور اعناقها ولنجل له من احواله المسترقه اعناقها
وذلك لجمع تجمع بالديار المصريه بحضره الامامه ومكان لا ينعم على
احد فيه الا اوقات الهجير ظل الغمامه فقد ضجر هذا الذاهب المهج
في حب البندق بما يصبر وما يوجر وقد يبس قوسه وصار حظه
مما هو مفكوك ما يوتر وهو مما لا يستغلب من غير مرامي البندق
الا اهله مسرورا وممن يهون عليه اذا اخذ قوسه ان يفقد عينيه
ويكون موتورا وقد قنع من الملوك بالشفاعة وبان يتلطخ ببندقه
بالدم ويقنع بالشناعه وهو شكي في هذه المدة لحمل كبدانه وفقوده معقد لعدم
وقد برز الى البر زحماعه احدانه وهو الان مما يحنوه مثل هشيم
المحتضر وقوسه فلا لتوى عنقه لكن الى صوب مولانا لما ينتظر
وفي الحديث استعينوا على كل صنعه بصالح اهلها وهذا في صنعة
البندق هو الصالح الفاسد وله في كثره رمي البندق ما لا ينكره
الحاسد واعجب لا شيا ان اللحم بعده قد قل ومع هذا الحمص كاسد
وعلى هذا فقد طالت على هذا الشيخ القالح كما تقدم الخلوع بعد نضج
الحمص واما السلوان الذي ذاقوا به قناه فبعد عليه غلوه وقد مرقوا
جلده احتعاف ما قد لعلانق جراونه من السيور ودق ذكانا عما
مثل القضامه وجعل في معالف الطيور ولا يرد المولى له الشفيع
المشفع ويحفت ما به فكله حني عن قوسه بكاء ما يجف لها مدمع

وهذه الدولة الاموية

وانساق فيها ذكر ابن الزبير لا را ايامه تخللتها وشغلتها مدة ما
اخلتها واننا بهذه الدولة الاموية موخرة هنا وهي مقدمة

صورة الصفحة ٢٢٠ وفيها الدولة الأموية

الحصن اخرج مسوّرا فيه فتحيّل للخروج حتى خرج منه بليلا ن
وسار الى سليمان بن هود الجذامي وبقي عنده حتى مات في صفر
سنة ثمان وعشرين واربعمائة ودفن في ناحية لارده وسكن
بقاصوب صحبة الراعنه ومانت دولة بني امية في
الاندلس وسائر اقطار الارض بموته وخمد حسها
بخمود صوته فسبحان الحي الباقي وكل شي هالك
الملك الدائم ملكه بعد ذهاب ملكه الملوك والممالك
نعوذ به ونتوكل عليه ونسأله من خير ما لديه انه
لاحول ولا قوة الا به وقال
ابن بسام وقد ذكر قصر مدة المستظهر عبد الرحمن الذي تقدم
ذكره لم يستقر له فيها طاعة ولا انتظمت جماعة وكان
على حداثة سنه ذكيا يقظا لبيبا اديبا حسن الكلام
حد القريحة يتصرف فيما شا من الخطاب بذهنه وروايته
ونصوع وطبعا من الشعر مستجاده بطهارة اثواب
وعفة وبراءة من شرب النبيذ سرا وعلانية وكان
يسبح وحده وبدهنه فضلا اهل بيته الناصرين

ومن شعره

طال عمر الليل عندي مذ تولعت بصد
يا غزالا نقض الود ولم يوف بعهد
أنسيت العهد إذ بتنا على مفرش ورد
واجتمعنا في وشاح وانتظمنا نظم عقد
وتعانقنا كغصنين وقدانا كقد
ونجوم الليل تحكي ذهبا في لازورد

الانعام

الصفحة ٣٣٨ وهي الأخيرة من الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم [ص٢]

على الله توكلت

وهذ ذكر من تنبه من أهل هذا البيت، وملك ملكاً، وإن كان القليل المنقص، والحقير المنغص، وكيف يرثون الأرض، وما ترك جدهم لهم تراثا، أو تعطف عليهم الدنيا وقد طلقها أبوهم ثلاثاً، وما ضرهم أن يكون لغيرهم الدنيا، وتكون لهم الآخرة، وفيهم النبوة الدائمة ولسواهم الدول الدائرة، وأول ما نبدأ بالحسنيين ثم بالحسينيين، ثم بمن تعلق بهما.

فدول الحسنيين أولها، وفيها من تقدم في النسب ذكرهم .

١- ذِكْـر دَوْلَة المَهْدِيّ

محمد بن عبد الله[١] بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، تقدم

(١) محمد بن عبد الله النفس الزكية : الملقب بالأرقط وبالمهدي وبالنفس الزكية ، أحد الأمراء الأشراف من الطالبيين ، ولد ونشأ بالمدينة وكان غزير العلم ، فيه شجاعة وحزم وسخاء ، ولما ضعفت الدولة الأموية دعا لنفسه سراً وبايعه بعض بني العباس ، وقيل إن من دعاته أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور ، ولما قامت الدولة العباسية تخلّف هو وأخوه عن الوفود على السفاح ثم على المنصور ، فطلبه وأخاه فتواريا في المدينة ، فقبض على أبيه واثني عشر من أقاربهما ، وعذبهم ، فماتوا في حبسه بالكوفة بعد سبع سنين ، وقيل : طرحهم في بيت وطيَّن عليهم حتى ماتوا ، ولما علم محمد بن عبد الله بموت أبيه خرج من مخبئه ثائراً في مائتين وخمسين رجلاً ، فقبض على أمير المدينة وبايعه أهلها بالخلافة ، وأرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة ، فغلب عليها وعلى الأهواز وفارس ، وبعث الحسن بن معاوية إلى مكة فملكها ، وبعث عاملا إلى اليمن، وكتب إليه المنصور يحذره عاقبة عمله ويمنيه بالأمان وواسع العطاء، ثم انتدب المنصور لقتاله ولي عهده عيسى بن موسى ، فتقاتلا بعد عدة وقائع قتل فيها محمد بن عبد الله وحُزَّ رأسه وأرسل إلى المنصور سنة ١٤٥ هـ .

(مقاتل الطالبيين ص ٢٣٢ ، ابن الأثير ٥ / ٢٠١، الطبري ٩ / ٢٠١ ابن خلدون ٣ / ١٩٠، شذرات الذهب ١ /٢١٣ دول الإسلام للذهبي ١ /٧٣)

ذكره في موضعه من النسب، وكان يلقب النفس الزكية، وكان أبو جعفر المنصور قد بايعه في الدولة الأموية، وأعطاه يمينه، وأعطاه في عقد المبايعة يمينه، وكان برّاً تقياً طاهراً زكيا، ولهذا كان يُسَمَّى النفس الزكية، ولم يقدر له ظهور في تلك الأيام الأول، ولا على عهد السفاح، فلما قبض المنصور على أبيه خرج عليه بالمدينة، واحتج عليه بمبايعته المتقدمة، ودارت بينهم كتب بديعة في إقامة الحجج، وكان المنصور فيها الألد الخصم والأشد عقداً لا ينفصم، وكان محمد بن عبد الله أيِّداً[١]، شرد لأبيه جملٌ فعدا جماعة خلفه فلم يلحقه أحد سواه، فأمسك بذنبه، فلم يزل يجاذبه حتى انقلع، فرجع بالذنب في يده، وكان يطلب الخلافة أيام بني أمية ويزعم أنه المهديُّ المبشَّر به، وكان نهاية في العلم والزهد والشجاعة، وأقام سنين مستتراً في جبال طيء[٢]، مرة يرعى الغنم ومرة يعمل في المهن، وأمسك المنصور أباه وعمه وطائفة من أهله لاحضاره وإحضار أخيه إبراهيم فجحدوا معرفتهما، فحبسهم عليه، ويقال إن المنصور كان قد بايع أباه عبد الله ومحمدا ابنه بعده، وكانت له جارية معها ابن له صغير برضوى[٣] ولد له في حال تستره [ص٣] فردّى[٤] نفسه من الجبل، فقال فيه أبوه:

[السريع]

منخرق الخفين يشكو الوجى تبكيه أطْرافُ مَروٍ حِدادْ

---

(١) أيِّداً : قوياً شديدا ، الأيِّد : القوي الشديد الصلب .

(٢) جبال طيء : يريد جبلي أجأ وسلمى .

(٣) رضوى : جبل بالمدينة ، وهو من ينبع على مسيرة يوم، ومن المدينة على سبع مراحل ميامنة طريق مكة ومياسرة طريق البريراء لمن كان مصعداً إلى مكة . (ياقوت : رضوى)

(٤) ردّي بنفسه : رمى بنفسه من الجبل فهلك .

شـــــرودة الخـــــوفِ وأزرى بـــه ... كـــذاك مـن يـكــرهُ حَــرَّ الجِــلادْ
قــد كـــــــان في الموتِ لــهُ راحَــةٌ ... والمـوتُ حَـتْـمٌ في رقـابِ العـــبـادْ

رواها له ابن مسكويه، وقد رويت لغيره،، ولمَّا أتاه جيش المنصور تقدمه عيسى بن موسى(١)، خندق عليه الخندق النبوي، وكا يبرز ويرتجز، وهو يقول:

[الرجز]

لا عـارَ في الغُـلْـبِ عـلى الغَـلاَّبِ ... والليـثُ لا يخـــشى من الذئـابِ

فلما رأى تضاؤلَ أمرِهِ أقالَ الناسَ بيعَتَهُ، وكسر ذا الفقار(٢) وكان قد صار إليه، وأحرق الكتب التي كانت تردُ عليه بالبيعة خوفاً عليه من المنصور، ثم قاتل حتى غدا حجار الزيت، وحُزَّ رأسُهُ وحُمِلَ إلى المنصور، وقال المنصور لإسحاق بن منصور العقيلي، وكان ذا تجريب لا يكهم(٣)، وتدريب له يُلْهَم: أشِرْ عليَّ في خارجي خرج عليَّ؟ قال: صف لي الرجل؟ فقال: رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذو علم وزهد وورع، قال: من تبعَهُ؟ قال: ولد علي، وجعفر، وعقيل، وعمر بن الخطاب، والزبير بن العوام، وسائر قريش، وأولاد الأنصار، فقال: صف لي البلاد التي خرج فيها، فقال: بلد

---

(١) عيسى بن موسى بن محمد العباسي: أبو موسى أمير من الولاة القادة، وهو ابن أخي السفاح، كان يقال له (شيخ الدولة) كان من فحول أهله ذوي النجدة والرأي، ولاه عمه الكوفة وسواها سنة ١٣٢ هـ وجعله ولي عهد المنصور، فاستنزله المنصور عن ولاية عهده سنة ١٤٧هـ وعزله عن الكوفة وأرضاه بمال وفير، وجعله ولي عهد ابنه المهدي، فلما ولي المهدي خلعه، أقام بالكوفة إلى أن توفي سنة ١٦٧هـ.

(الكامل ٦ / ٢٥، الطبري ١٠ / ٨، دول الإسلام وفيات سنة ١٦٨ هـ)

(٢) ذو الفقار: سيف النبي صلى الله عليه وسلم، والفقار حزوز مطمئنة كانت في متنه، ثم صار السيف إلى علي بن أبي طالب وذريته من بعده.

(٣) لا يكهم: لا يبطؤ عن النصرة والحرب، كهم الرجل: بطؤ عن الحرب، والكهام: الجبان.

ليس فيه زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة، قال : يا أمير المؤمنين، اشحن البصرة بالرجال، فقال المنصور : هذا شيخ قد خرف، أسائله عن خارجي المدينة فيقول : اشحن البصرة بالرجال، فلم يكن إلا يسيرا حتى أتاه الخبر بخروج إبراهيم بن عبد الله بالبصرة، فقال المنصور : عليَّ بالعقيلي، فذكَّره بما كان قال، ثم قال له : هل كان عندك من هذا علم ؟ قال : لا، ولكني لما ذكرت لي خروج رجل إذا خرج مثله لم يتخلف عنه أحد، ثم ذكرت البلد الذي خرج به، فإذا هو لا يحتمل الجيوش، فعلمت أنه سيطلب غير [ص٤] بلده، ففكّرت في مصر، فوجدتها مضبوطة، وفي الشام والكوفة فوجدتهما كذلك، ثم فكرت في البصرة فوجدتها خالية، فخفت عليها، فقال له المنصور : أحسنت، وقد خرج بها أخوه، فما الرأي في صاحب المدينة، قال ارمه بمثله، إذا قال هذا : أنا ابن بنت رسول الله، قال الآخر : أنا ابن عم رسول الله، فقال المنصور لعيسى بن موسى : أما أني أخرج إليه أو أنت، فقال : بل أنا أفديك بنفسي، فخرج فنُصِر عليه، كما تقدم ذكره .

٢- ذِكْر دَوْلَة أخِيهِ إبرَاهيمِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ الحَسَنِ[١]

وكان خروجه بالبصرة، وكان لعيسى بن موسى عليه النصرة، وكان

(١) الطالبي : إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ،، أحد الأمراء الأشراف الشجعان ، خرج بالبصرة على المنصور فبايعه أربعة آلاف مقاتل ، وخافه المنصور فتحول إلى الكوفة ، وكثرت شيعة إبراهيم فاستولى على البصرة والأهواز وواسط ، وممن آزره أبو حنيفة ، أرسل له أربعة آلاف درهم لم يكن معه غيرها، وهاجم إبراهيم الكوفة ، فكانت بينه وبين جيوش المنصور وقائع هائلة، إلى أن قتله حُمَيد بن قحطبة ، كان إبراهيم شاعرا عالما بأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم ، كان مقتله سنة ١٤٥هـ .

(مقاتل الطالبيين ص ٣١٥ ط الحلبي ، الطبري ٩ /٢٤٣ ، ابن الأثير ٥ /٢٠٨ دول الإسلام ١/ ٧٤)

مدره[1] خصام، وبدرة صمصام[2] بقلب قُلَّب، ولسان ليست عارضته بخُلَّب[3]، وجبل يدق على الكيد، ويقوى على الأيد، لولا إفراط شغفه بالنساء، وكلفه بذوات السناء، وما اقتفاه[4] من سنة مصعب بن الزبير في المغالاة في مهورهن، وترك بوارق السيوف لإيماض ثغورهنّ، وإلا فقد كان طعم علقم إذا غضب، ومس أرقم[5] إذا وثب، ومن كنوز المطالب أنه كان تلو أخيه في شدة البدن والعبادة، وحب العزلة وطلب العلم، وهو أشعر من أخيه، وظهرت له شجاعة وطول صبر على الاغتراب براً وبحراً، حتى إنّهُ دخل على المنصور في هيئة منتصح، وقد أخفى شكله، وقال له : مالي عندك إن جئتُك بإبراهيم بن عبد الله، فوعده بإحسان جزيل، فطلب منه أن يكتب إلى ولاة البحر الفارسي بالإعانة في مقاصده حيث توجه، فكتب له الكتب وأوصى الولاة به فتمكن بذلك من الهرب، وبث الدعوة إلى أن أحكم أمره، ثم أتى البصرة، حتى أبطل بناء بغداد، وأعد الجهازات للهرب إلى خراسان، لما رأى من إفراط إقبال الناس عليه وإعراضهم عنه، إلى أن هزمه عيسى بن موسى، وقتله في المعركة، فعاد المنصور إلى بناء مدينته، وقال : الآن عرفت رأسي أنه لي، ولم يخطب له بإمرة أمير المؤمنين إلا بعد مقتل [ص٥] أخيه، وكان خروجه وخروج أخيه في سنة خمس وأربعين ومائة . ومن كتاب تجارب الأمم أنه قاسى شدائد في اختفائه، حتى إنه أكل على موائد المنصور، ووجد في بيت مال البصرة ألفي ألف درهم، فتقوّى بها، وصارت له فارس والأهواز، وكان الملتقى بينه وبين

(١) المدره : السيد الشريف، وزعيم القوم ، وخطيبهم المتكلم عنهم .

(٢) الصمصام : السيف الصارم لا ينثني .

(٣) العارضة : البديهة والرأي الجيد، والخُلَّب : الخادع ، ومنه السحاب الخُلَّب الذي يومض برقه ولا يمطر

(٤) اقتفاه : تبعه واختص به .

(٥) الأرقم : ذكر الحيات أو أخبثها .

جيش المنصور على باخمرا[١] من بلاد الكوفة، فانهزم حميد بن قحطبة، وناشده عيسى بن موسى في الثبات، فلم يثبت، ولم يبق معه إلا ثلاثة، واتفق من الحديث الغريب أن المنهزمين من جيش المنصور رأوا قدامهم نهراً لم يقدروا على خوضه، فرجعوا فظن أصحاب إبراهيم أنهم قد ردوا عليهم، فانهزموا بعد أن حصلوا على الظفر، ومن شعره قوله في رقية بنت الديباج العكانية وكان قد تزوج بها، وكان كلفاً بها :

[الطويل]

رقـيَّةُ هَـمُّ النفسِ لا ذُقْتَ فَقْدَها ... فها أنا ذا شوقٍ لها وهي حاضرُ
وقالوا غدتْ شُغْلاً لهُ عن أمورهِ ... ولو أبصروها لم يردوا معاذرُ

وقوله وقد اعتلَّ أخوه :

[الطويل]

شكوتَ فَعَمَّ السُّقْمُ من كان مؤمناً ... كما عَمَّ خلقَ اللهِ نائلُكَ الغَمْرُ
فيا ليتني كنتُ العليلَ ولم تكنْ ... عليلاً وكان السُّقْمُ لي ولكَ الأجرُ

وقوله في رثاء أخيه :

[البسيط]

أبا المنازلِ ما هلكُ الفوارس من ... يُفْجعْ بمثلكَ في الدنيا فقد فُجعا
اللهُ يعلمُ أنِّي لو خشيتُهُمُ ... أوانسُ القلبِ من تلقائهم فزعا

---

(١) باخمرا : موضع بين الكوفة وواسط ، وهو إلى الكوفة أقرب ، بها كانت الوقعة بين أصحاب أبي جعفر المنصور وإبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، فقتل إبراهيم هناك ، فقبره به إلى الآن يزار ، وإياها عنى دعبل بن علي الخزاعي بقوله :

وقبر بأرض الجوزجان محلُّه ... وقبرٌ بباخمرا لدى الغربات

(ياقوت : باخمرا)

لم يقــتـلوك ولـم أُسْلِم أخـي لهُـمُ … حتى نعيشَ جميـعـاً أو نموتَ معـا

وقوله فيه :

[الطويل]

ســأبكيكَ بالبــيضِ الرقاقِ وبالقَنـا … فـإنَّ بهـا مـا يُدْرِكُ الواتِرُ الوتْـرا
وإنَّـا أُنـاسٌ لا تفـيضُ دمـوعُـنـا … علـى هالكٍ منَّا وإن قـصمَ الظَّـهْـرا
ولسنا كـمـنْ يبكي أخاهُ بعـبـرة … يُعَصِّرُها من جَفْنِ مقْلَتِه عَصْرا[ص٦٠]
ولـكـنـني أشـفـي فـؤادي بغـارةٍ … تلهـبُ في قطْريْ كتائبِها جَمْـرا

ومن نثره قوله : « وقد قيل لقد تهتكت في النساء، حبُّ النساء سُنَّةٌ نبوية، لم تعطِّل رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن إدراك الظفر، ولم تَحُلْ بينَهُ وبين بلوغِ الوطر، وإنَّ أعجزَ الناسِ من قعدتْ به لذاتُ الدنيا عن البلوغ إلى مراقي العليا، و[ما] انهضم من جمع بين إدراك لذاته والفوز بالبلوغ إلى غاياتـهِ، عقد الله عنا ألسنة العوام، وأغمد عنهم سيوفنا بالطاعة وحسنِ الالتئام » .

وقوله في خطبة خطبها يوم عيد : « اللهمَّ إنَّك اليوم ذاكرٌ أبناءً بآبائهم، فاذكرنا عندك بمحمد صلى الله عليه وسلم، يا حافظ الآباء في الأبناء احفظ ذرية نبيك »، قال : فلم يقلها حتى اشتد بكاء الناس .

وقوله وقد قيل له حين أشرف على القتل: ألا تفر وأمامك فارس والأهواز، وهما تحت طاعتك ؟

فقال : « من فَرَّ من أهلِ بيتي حتى أفرَّ، أتريدون أن أكونَ أول من فتح هذا الباب على الفاطميين ؟ لا والله، إنْ خُلِقْتُ إلا لسَلِّ السيوفِ، وشقِّ الصفوفِ، وتجرع الحتوف، والمعاد إلى الله، وهو أعدلُ الحاكمين » .

وقولـه : «كلُّ منطقٍ ليس فيهِ ذكرٌ فهو لغوٌ، وكلُّ نظرٍ ليس فيه عبرةٌ فهو غفلة، وكلُّ سكوتٍ ليس فيهِ تفَكُّرٍ فهو سَهْوٌ، فطوبى لمن كان منطقُهُ ذكراً، ونظرهُ عِبَراً، وسكوتُهُ تفَكُّراً، ووسِعَهُ بيتُهُ، وبكى على خطيئتهِ، وسَلِمَ المسلمونَ منهُ».

ذِكْر بَني طَبَاطَبَا

ومنهم الأئمة باليمن، وليس بغير اليمن إلا الخارج بالكوفة، وهو المبدا بذكره:

٣- مُحَمَّدُ بنُ إبرَاهِيم العَلَوِيّ

بهذا يعرف، وهو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم[١] طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، بويع بالخلافة يوم الخميس العاشر من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين ومائة، وكان إمام صدق لو قام، وغمام وَدْق لو دام، أزهد من أويس[٢]، وأحلم[ص ٧] من

(١) ابن طباطبا: محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أمير علوي ثائر، من أئمة (الزيدية) كان مقيماً بالمدينة، وحج سنة ١٩٦هـ والحرب قائمة بين الأمين والمأمون، فأقبل عليه الناس بمكة وكثر ترددهم، فخاف الفتنة، فاستتر، وكان من حجاج تلك السنة رجل من كبار الشيعة يدعى (نصر بن شبيب)، فاجتمع بمحمد وعرض عليه الخروج على بني العباس، فوعده باستشارة من بالكوفة من أنصاره، واستقر الأمر في العراق بظفر المأمون سنة ١٩٨هـ، وأخذ الناس يتحدثون بأن وزيره الحسن بن سهل (والد بوران زوجة المأمون) قد تغلب عليه واستبد بالأمور دونه، فدخل محمد الكوفة وبايعه أهلها سنة ١٩٩هـ، ولكنه لم يلبث أنْ مرض بخاصرته، فأوصى بالأمر من بعده إلى علي بن عبيد الله بن الحسين، وكانت مدة خروج ابن طباطبا قرابة شهرين، وكان من أكمل الناس ومن أشجعهم، ومات بالكوفة ــ وقيل مات مسموما ــ ودفن بالكوفة سنة ١٩٩هـ، وكان عمره ٢٦ سنة.

(مقاتل الطالبيين ٥١٨ ــ ٥٣٢، البداية والنهاية ١٠ / ٢٤٤، الطبري ١٠ / ٢٢٧، ابن خلدون ٣ / ٢٤٢، تاريخ اليمن ــ للواسعي ص ١٨)

(٢) أويس: هو أويس القرني بن عامر بن جزء بن مالك، من بني قَرَن بن ردمان بن ناجية بن مراد، أحد النساك العباد المتقدمين، من سادات التابعين، أصله من اليمن، كان يسكن القفار والرمال، وأدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، فوفد على عمر بن الخطاب ثم سكن الكوفة، وشهد موقعة صفين مع علي بن أبي طالب، وقيل إنه قتل فيها سنة ٣٧هـ.

(طبقات ابن سعد ٦ / ١١١، ابن عساكر ٣ / ١٥٧، ميزان الاعتدال ص ١٢٩ حلية الأولياء ٢ / ٧٩، وقيل إنه مات في غزوة أذربيجان أيام عمر بن الخطاب)

قيس[١]، وأكرم من حاتم[٢]، وأشجع من قاسم[٣]، وأشبه بآبائه من الغراب بالغراب، وفي آبائه من الناب بالناب، عليه من سيماء سلفه شمائل، ومن بقايا سيف جده ذي الفقار مثله، إلا أنه لم يعلق بحمائل، إلا أنه كان غراً شابا برونق شبابه مغرى، ما عركته الأيام عرك الأديم، ولا عرفته كيف يخادع اللئيم، حتى يحذر من يأمن، ويتشاءم بمن يتيامن، فلا يدخل عليه داخل، ولا يُغتال من داخل .

قال الطبري: ووافاه في ذلك اليوم أبو السرايا السري بن منصور[٤]، ولقبه

(١) في الأمثال : (أحلم من ابن الأحنف) (مجمع الأمثال ١ / ٢١٩) وعرف كذلك قيس بن عاصم بالحلم، وقيس بن عاصم من بني منقر من تميم من أمراء العرب وعقلائهم الموصوفين بالحلم والشجاعة ، كان شاعرا ، حرّم على نفسه الخمر في الجاهلية ، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد تميم سنة ٩ هـ، قال النبي لما رآه : (هذا سيد أهل الوبر)واستعمله على صدقات قومه ، سكن البصرة وتوفي فيها سنة ٢٠ هـ .

(المحبر ص ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، إمتاع الأسماع ١ / ٤٣٤ الإصابة ترجمة ٧١٩٤ النقائض ص ١٠٢٣ ط ليدن)

(٢) هو حاتم الطائي أشهر من أن يُعّرف .

(٣) لم أجد هذا المثل في كتب الأمثال .

(٤) أبو السرايا : السري بن منصور الشيباني ، ثائر شجاع من ولد هانيء بن قبيصة الشيباني ، جمع في أول أمره عصابة يقطع بها الطريق ، ثم لحق بيزيد بن مزيد الشيباني بأرمينية ومعه ثلاثون فارسا ، فجعله من القواد ، واشتهر بشجاعته ، ولما نشبت فتنة الأمين والمأمون ، انتقل إلى معسكر هرثمة بن أعين ، وصار معه نحو ألفي مقاتل ، وخوطب بالأمير ، ولما قُتل الأمين نقص هرثمة من أرزاقه وأرزاق أصحابه، فخرج في نحو مائتي فارس ، فحاصر عامل عين التمر ، ثم استولى على الأنبار ، وذهب إلى الرقة وقد كثر جمعه ، فلقيه ابن طباطبا العلوي (محمد بن إبراهيم) وكان قد خرج على بني العباس ، فبايعه أبو السرايا ، وتولى قيادة جنده ، واستوليا على الكوفة ، فضرب أبو السرايا بها الدراهم ، وسيّر الجيوش إلى البصرة ونواحيها ، وعمل على ضبط بغداد ، وامتلك المدائن وواسطاً ، واستفحل أمره، وأرسل العمال والأمراء إلى اليمن والحجاز وواسط والأهواز، وحاربه العباسيون بجيوش كثيفة ، إلى أن قتله الحسن بن سهل وبعث برأسه إلى =

الأصفر، فقام بحربه وتدبيره، وكان سبب قيامه ومبايعة أهل الكوفة إياه، أن المأمون عزل طاهر بن الحسين[١] عما كان عليه من أعمال البلدان التي افتتحها، وصرفها إلى الحسن بن سهل[٢]، فتحدث الناس بأن ابن سهل غلب على المأمون، وحجر عليه، واستبد عليه بالأمور، فهاجت الفتنة بالأمصار، وكان أول من خرج وثار ابن طباطبا، فبايعه أهل الكوفة، واستوسق له[٣] أمرها، وأتته الوفود، وكثرت له الجموع، وكان عامل الكوفة من قبل سليمان بن جعفر[٤]،

= المأمون ، ونصب رأسه على جسر بغدادسنة ٢٠٠ هـ .

(مقاتل الطالبيين ص ٣٣٨ الطبري ١٠ / ٢٢٧ ابن الأثير ٥ /٤١٦ ـ٤٢١ ط بيروت البداية والنهاية ١٠ /٢٤٤)

(١) طاهر بن الحسين :بن مصعب الخزاعي ، ذو اليمينين ، من كبار الوزراء والقواد، وهو الذي وطّد الحكم للمأمون العباسي ، سكن بغداد واتصل بالمأمون في صباه ، وكانت لأبيه منزلة عند الرشيد، جعله المأمون قائدا لجيشه ، فزحف على بغداد ، وظفر بالأمين وقتله سنة ١٩٨هـ ، وعقد البيعة للمأمون ، فولاه المأمون على شرطة بغداد ، ثم ولاه الموصل وبلاد الجزيرة والشام والمغرب، ثم خراسان ، وكان في نفس المأمون منه شيء لقتله الأمين في غير مشورته ، فلما استقر في خراسان قطع خطبة المأمون يوم جمعة، فقتله أحد غلمانه في تلك الليلة بمرو ، وقيل مات مسموما سنة ٢٠٧ هـ .

(وفيات الأعيان ١ /٢٣٥، الطبري ١٠ /٢٦٥ ،ابن الأثير ٦ /١٢٩، البداية والنهاية ١٠ / ٢٦٠، شذرات الذهب ٢ /١٦، تاريخ بغداد ٩ /٣٥٣)

(٢) الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي : أبو محمد ، وزير المأمون ، وأحد كبار القادة ، اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب والفصاحة والكرم ، وهو والد(بوران) زوجة المأمون، وكان المأمون يجله ويبالغ في إكرامه، وللشعراء فيه أماديح ، أصيب بمرض السويداء سنة ٢١٠هـ فتغير عقله حتى شُدَّ بالحديد ، ثم شفي منه قبل زواج المأمون بابنته سنة ٢١٠هـ وهو أخو ذي الرياستين الفضل بن سهل ، كانا من أهل بيت الرياسة في المجوس ، وأسلما هما وأبوهما أيام الرشيد ، توفي الحسن بن سهل في سرخس من بلاد خراسان سنة ٢٣٦ هـ .

(وفيات الأعيان ١ /١٤١، تاريخ بغداد ٧ /٣١٩ ، تاريخ ابن الوردي ١ /٢١٧)

(٣) استوسق : اجتمع وانضم ، واستوسق له الأمر : أمكنه .

(٤) سليمان بن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي: والي مكة في أيام هارون الرشيد ، ثم والي=

وخليفته عليها خلاد بن محجن الدؤلي، فلما سمع ابن سهل بثورة ابن طباطبا، كتب إلى سليمان المذكور يعنفه ويضعفه، وجهز جيشاً من عشرة آلاف فارس وراجل، وأمَّر عليهم زهير بن المسيب[1] وأمره بقتال ابن طباطبا، فسار زهير بجيوشه حتى نزل قرية ساهي، قريباً من الكوفة، فخرج إليه محمد ابن طباطبا، ومعه أبو السرايا، واقتتلوا قتالاً شديداً، أذابوا فيه جندلاً وحديداً، ثم انهزم زهير هزيمة شنيعة، واستباح ابن طباطبا عسكره جميعه، وأخذ ما كان معه من مال وسلاح وكراع، ثم إن أبا السرايا ندم على إقامة ابن طباطبا فسمَّه، فأصبح ميتاً، ومن كنوز المطالب أنه مرض وأتاه أبوالسرايا يعوده، وقال له : أوصني، فأوصاه وصية بليغة[2]، وذكرها وذكر له شعرا منه قوله :

[الوافر]

أينقصُ حقُّنا في كلِّ وقتٍ على قُرْبٍ ويأخذُهُ البعيدُ[ص ٨]

فياليت التقربَ كان بعداً ولم تجمع مناسبنا الجدودُ

قال الشريف الغرناطي[3] : ثم قام من بعده رجل من بني الحسين يأتي ذكره

= البصرة سنة ٢٤٨هـ، وهو من الخطباء الفصحاء، قال الجاحظ : (كان أهل مكة يقولون : إنه لم يرد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام، إلا وسليمان أبين منه قاعداً، وأخطب منه واقفاً).

البيان والتبيين ١/ ١٨١، وفيات الأعيان ١/ ٢١٩ في ترجمة أبي حاتم السجستاني، خلاصة الكلام ص ٧٠)

(١) زهير بن المسيب الضبي : أحد القادة في العصر العباسي، وأحد من حاصر بغداد لقتال الأمين مع طاهر بن الحسين، توفي سنة ٢٠١ هـ. (ابن الأثير ٥/ ٣٩٣)

(٢) انظر الوصية في مقاتل الطالبيين ص ٤٣٤ تحقيق السيد أحمد صقر الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٧.

(٣) الشريف الغرناطي : محمد بن أحمد الحسيني، المعروف بالشريف، قاض أندلسي من الأدباء الفضلاء، ولد ونشأ بسبتة وولي ديوان الإنشاء بغرناطة له ديوان شعر، وشروح في الأدب والنحو، توفي سنة ٧٦٠ هـ.

(قضاة الأندلس ص١٧١، الإحاطة ٢/ ١٢٩، بغية الوعاة ص ١٦، مطالع البدور ١/ ٢٢٢)

إن شاء الله تعالى .

وقال مؤلف كنوز المطالب، وقد ذكر بني الحسن المثنى، فذكر منهم إبراهيم الغمر، قال : ولُقِّب بهذا لسعة جوده، وكان فيمن حُمِل مصفداً بالحديدمن المدينة إلى الأنبار، وكان يقول لأخويه عبد الله والحسن : أعوذ بالله من منى طبهن منايا، تمنينا ذهاب سلطان بني أمية، واستبشرنا بسلطان بني العباس، ولم يكن قد انتهت بنا الحال إلى ما نحن عليه، والعقب منه، فمنى ابنه إسماعيل الديباج، ولقِّب بهذا لجماله، كما لُقِّب محمد بن عبد الله[١] بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكذلك كان يقال لمحمد بن عبد الله بن الحسن، والعقب منه في رجلين، وهما : إبراهيم طبا طبا، والحسن تج[٢] .

فأما طباطبا ففي بنيه كان طلب الإمامة والنباهة، والعلم والشعر والأدب، وذكر بنيه فقال : أصل هذه الشجرة أبو محمد القاسم الرسي بن طباطبا[٣]، والرس[٤] ضيعة كانت له بالمدينة، لم يسمح له المنصور بالمقام بها، في كفاف

(١) محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان المعروف بالديباج : أخو بني الحسن لأمهم، حُبس وقُيِّد مع أولاد الحسن ، حبسهم المنصور سنة ١٤٤هـ، ثم جلد محمد بن عبد الله وضرب رأسه نحوا من ثلاثين سوطاً وأصاب إحدى عينيه فسالت ، وقد قتله مع من قتل من بني الحسن سنة ١٤٤هـ.

(مقاتل الطالبيين ص ١٨٢، الطبري ٩/١٩٣، ١٩٨ ابن الأثير ٥/١٤٤–١٤٦ ط بيروت)

(٢) كذا جاءت في الأصل ولعل في الكلمة نقصا .

(٣) القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الحسني العلوي : أبو محمد المعروف بالرسي ، شقيق ابن طباطبا (محمد بن إبراهيم) كان يسكن جبال (قدس) من أطراف المدينة ، وأعلن دعوته بعد موت أخيه سنة ١٩٩هـ ومات في الرس (وهو جبل أسود بالقرب من ذي الحليفة على ستة أميال من المدينة، له مؤلفات وأشعار ، ومن ولده حسين بن الحسن بن القاسم الزيدي صاحب اليمن، توفي القاسم سنة ٢٤٦ هـ .(تاريخ اليمن ص ١٨، اتحاف المسترشدين ص٤١، المرزباني ص٣٣٥)

(٤) الرس : قيل إن الرس ديار لطائفة من ثمود ، وكل بئر رسّ ، والرس والرسيس واديان بنجد .

(ياقوت : الرس)

من العيش، حتى طلبه ففر إلى السند[1] وقال :

[البسيط]

لم يروه ما أراقَ النعيُ من دمنا ... في كل أرضٍ ولم يقصد من الطلبِ
وليس يشفي غليلا في حشاه سوى ... ألا ترى فوقها ابناً لبنت نبي

وكتب صاحب السند إلى المنصور يخبره أنه وجد في بعض خانات المولیان مكتوباً بقول القاسم بن إبراهيم طباطبا العلوي : " انتهيت إلى هذا الموضع بعد أن مشيت حتى انتعلت الدم، وقد قلت :

[الطويل]

عسى منهلٌ يصفو فيروي ظميه ... أطال صداها المنهل المتكدر
عسى جابرُ العظم الكسير بلطفه ... سيرتاح للعظم الكسير فيُجْبَرُ
عسى صورٌ أمسى لها الجورُ دافناً ... سيبعثها عدل يجيءُ فيظهرُ
عسى اللهُ لا ينأى من الله إنه ... ييسِّرُ منه ما يعزُّ ويعسرُ[ص ٩]

فكتب إليه المنصور : قد فهمت كتابك، وأنا وعليٌّ وأهله كما قيل:

[الطويل]

يحاول إذلال العزيز لأنهُ ... بدأنا بظلم واستمرتْ مرائرُهْ

ولما أنشد مؤلف الكنوز للقاسم بن طباطبا قوله:

[الوافر]

أرقتُ لبارقٍ ما زال يسري ... ويبكيني بمبسمِ أمِّ عمروِ
فلم يترك وعيشكَ لي دموعاً ... بأجفاني ولا قلباً بصدرِ

(١) السند : بلاد بين بلاد الهند وكرمان وسجستان . (ياقوت السند)

قال : والعقب منه في ثمانية، أولاهم بالتقدم :

الحسين الزاهد ومن نسله أئمة صعدة، قلت : هم الأئمة باليمن إلى زماننا، وأصل شجرتهم المباركة :

٤- الهَادِي يَحْيَىٰ بنُ الحُسَيْنِ بنِ القَاسِم بنِ طَبَاطَبَا[١]

خُطِبَ له بإمرة المؤمنين في حال أبيه، وكان يقال له في الدعاء على المنبر : اللهم اهدِ لطاعتك وأقم بالعدل في بريتك الإمام الهادي أمير المؤمنين يحيى بن الأمير الزاهد العالم الحسين بن أبي محمد القاسم، ثمرة الشجرة النبوية، وبركة الذرية الفاطمية .

وبويع بعده لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وثمانين ومائتين، والخليفة إذ ذاك المعتضد[٢]، وكان أول ما عرف من أدبه، وعُلِمَ من شرف مطلبه أن أهديت إليه جارية تليق به، فقال :

[الكامل]

كُفِّي لِحاظَكِ ليس هذا وقتُها بل وقتُ كلِّ مُهَنَّدٍ وسِنانِ
أمطاعنَ الآسادِ في غاباتِها حاشا ترودُ مرابضَ الغزلانِ

ثم أعادها إلى سيدها، وقال له : هذه بضاعتك ردتْ إليك، وهذا نظير ما

---

(١) الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى (ت٢٩٨هـ) مؤسس المذهب الزيدي في اليمن ، دفن في صعدة .

(٢) المعتضد : المعتضد بالله العباسي أحمد بن طلحة بن جعفر بن الموفق بالله بن المتوكل ، كان شجاعا حازما جدد هيبة بني العباس ، حارب الزنج والأعراب وأقام العدل وأصلح الدولة، حكم تسع سنوات وتوفي سنة ٢٨٩ هـ .

(ابن الأثير ٧/١٤٧ـ١٦٩ ،الطبري ١١/ ٣٩٣ ، فوات الوفيات ١/٤٥ ، النجوم الزاهرة٣/١٢٨)

رُمْتَـهُ من الفائدة في إهدائها، وله مصنفات في الفقه وأدب طائل، قال وهو يخطب : من كمالِ[1] إيمانك أن تكون مأموماً لرجل اجتمعت فيه شروط الإمامة، التي أولها النسب العلوي، فما استحقنا من قبلنا إلا بما رووه عن جدنا صلى الله عليه وسلم : ﴿قدموا قريشاً ولا تقدموها﴾[2] فكيف لا تقدم قريش أبناء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل غمطوهم حقهم، ومنعوهم فيئهم، وتقدموا بهم عليهم [ص ١٠] ، وله شعر، منه قوله :

[الطويل]

بني حسنٍ إني نهضتُ بثأرِكُم وثأرِ كتابِ اللهِ والحقِّ والسنَنْ
وصيَّرتُ نفسي للحوادثِ عُرضَةً وغبتُ عن الإخوانِ والأهلِ والوطَنْ
لأدركَ ثأراً أو لأقمَعَ ظالماً أشدَّ على الإسلامِ من عابدِ الوَثَنْ
فإنْ يَكُ خَيراً فهو خيرٌ لكلكمْ وإنْ تكنِ الأخرى فإنّا ذوو محَنْ[3]

وتوفي بصعدة[4] في ذي الحجة سنة ثمان ومائتين . وولي بعده ابنه :

٥ - مُحَمَّدُ المُرتَضَىٰ[5]

وكان خطيباً شاعراً، ولما قام بالأمر اضطرب عليه الناس، ومن شعره قوله :

---

(١) في الأصل : (كمالك) وهو من وهم الناسخ .

(٢) لم أجد الحديث في كتب الصحاح .

(٣) في الأصل : (فهو خيراً).

(٤) صعدة : مخلاف باليمن بينه وبين صنعاء ستون فرسخا، وبينه وبين خَيْوان ستة عشر فرسخا، وهي مدينة عامرة آهلة يقصدها التجار من كل بلد . (ياقوت : صعدة) .

(٥) محمد المرتضى بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم العلوي الطالبي الملقب بالمرتضى ، إمام زيدي فقيه عالم بالأصول من أهل صعدة في اليمن، وهو ابن الهادي صاحب الوقائع مع القرامطة، ورئيسهم علي بن الفضل ، انتصب للأمر بعد وفاة أبيه ، وخوطب بالمرتضى لدين الله ، واستمر نحو ستة أشهر ، ثم اعتزل،وتخلى لأخيه الناصر أحمد ، وانصرف إلى الاشتغال بالعلم، وتوفي=

[الرمل]

كـدر الوِردُ علينا والصدرْ … فعلَ من يدرك حقاً وكفر (١)
أيها الأمةُ عودي للهدى … ودعي عنكِ أحاديثَ السَّمرْ
عدمتني البيضُ والسمرُ معاً … وتبدلتُ رقادي بسَهَرْ
لأجُنَّنَّ على أعدائنا … نار حَربٍ بضرامٍ وشَرَرْ

وتوفي في عاشوراء سنة عشرين وثلثمائة .

وولي بعده أخوه :

٦ - أحْمَدُ النَّاصِرُ ابن الهَادِي(٢)

وله شعر فائق، منه قوله يخاطب أسعد بن يعفر التبعي ملك صنعاء :

[الطويل]

أعاشقَ هندٍ شَفَّ قلبي المهنَّد … به أبصرت عيني المعالي تُشَيَّدُ
إذا جمعت قحطانُ أنسابَ مجدِها … فيكفي معَدّاً في المعالي محمَّدُ
به استبعدتْ أقيالها في بلادها … وأصبحَ فيها خالقُ الخلْقِ يُعْبَدُ
وسرنا لها في حالِ عُسْرٍ ووحدةٍ … فصرنا على كرسي صعدةَ يُصْعَدُ
فإنْ رجعوا للحقّ قُلْنا بأنّنا … لدينِ الهُدى وجْهٌ ومنهمْ لنا يَدُ

= بصعدة ودفن إلى جنب أبيه سنة ٣١٠ هـ وقيل سنة ٣١٥هـ .
(ابن الأثير ٨ / ٢١ ـ ٢٢ ، تاريخ ابن الوردي ١ / ٢٥٣، الفخري ص ٢٤١، المنتظم ٦ / ١٠٩)

(١) في الأصل :(فعل من يدك) وهو من وهم الناسخ

(٢) أحمد الناصر بن يحيى الهادي بن الحسين : إمام زيدي يماني ، من علمائهم وشجعانهم ، ولي الإمامة سنة ٣١٠ هـ بعد اعتزال أخيه محمد بن يحيى ، وجهز جيشا في ثلاثين ألفا ودخل عدن وقاتل القرامطة ، فظفر بهم ، واستمر موفقا إلى أن توفي بصعدة سنة ٣٢٥ هـ له تصانيف في الفقه والأصول .

ولكن أبوا إلا الجاجاً وقد رأوا بأنَّ عليهم كلَّ حينٍ نُسَوَّدُ
ولا منبرٌ إلا لنا فيه خطبَةٌ ولا عَقْدُ مُلْكٍ دوننا الدهرَ يُعْقَدُ

وتوفي في صفر سنة ثلاث وعشرين وثلاث مائة، وولي بعده ابنه الحسين [ص ١١] المنتجب، ومات سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وولي بعده أخوه القاسم المختار بن الناصر، وقتله أبو القاسم ابن الضحاك الهمداني في شوال سنة أربع وأربعين وثلاث مائة، وولي بعده أخوه محمد الهادي، ثم أخوه العباس الرشيد، ثم استولى عليهم بنو حمزة الآتي ذكرهم، وشردوا هؤلاء إلى جبل قطابة(١) باليمن، ولم يزل لهم به إمام قائم، وبنو حمزة تحاربهم، حتى قام منهم أحمد بن الحسين(٢) المرطي سنة خمس وأربعين وست مائة، وأخذ صعدة كرسي آبائه، وأذهب دولة بني حمزة، واستولى على قريب [من] عشرين حصناً، وخطب خطبة عاب فيها بني العباس لتعطيلهم الحج على سعة ما لهم وملكهم، ثم قالوا : إنَّا لا نملك إلا هذه الرقعة القريبة، وقد علت همَّتُنا لأن نقيم مسار الإسلام، ونعزم على الحج في هذا العام، فاستعدوا له كل الاستعداد،

---

(١) قطابة :جبل ، لم أجده عند ياقوت ، وقطابة (بالباء الموحدة) قرية بمصر ، ينسب إليها محمد بن سنجر القطابي ، وقِطاب : اسم موضع في شعر الراعي : ترعى الدكادك من جنوب قطابا والقطبيات : اسم جبل في شعر عبيد بن الأبرص :

أقفر من أهله ملحوب فالقُطَّبيات فالذنوبُ (ياقوت : قطابة)

(٢) أحمد بن الحسين المهدي لدين الله بن القاسم بن عبد الله القاسمي،إمام من أئمة الزيدية الثائرين، كان عالما جوادا شجاعا داهية ، بايعه الزيدية في اليمن سنة ٦٤٦ هـ ، ولقب بالإمام (المهدي لدين الله)، وأظهر الدعوة في ثلا، فحاربه السلطان نور الدين الرسولي حروبا شديدة ، ومات الرسولي في آخرها ، واستولى القاسمي على معظم البلاد العليا في اليمن، وانتظمت له أمورها ، ثم غدر به ثلاثة من قدماء أنصاره فقتلوه ، استعملهم الملك المظفر وساعدهم بالمال ، سنة ٦٥٦هـ.

(العقود اللؤلؤية ١ / ٧٥ ـ ١٣٥ ، بلوغ المرام ٤٨ ، إتحاف المسترشدين ص ٦٠)

فاحتاج المظفر بن رسول[١] صاحب اليمن إلى مداراته، وكتب إلى المستعصم، يحركه على إقامة الحج، وله شعر منه قوله :

[الكامل]

ولقد أقول لهم غداة المنحنى والخيل تعثر بالقنا المتحطِّمِ
أنا أحمدٌ سأقيمُ سُنَّةَ أحمدٍ ووصاته بين الحطيم وزمزم

٧- ذِكْرُ دَوْلَةِ القَائِمِ بالمدِيْنَةِ أبي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بنِ الحَسَنِ[٢]

ابن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب ثار بالمدينة وتغلب عليها، وبويعَ بها، وسوَّد السيرة وأساء في قُبح الفعال مسيره، وقتل كثيراً من أهل المدينة، وسبى نساء ها، ونهب أموالها، وأظهر الفسقَ والفجور، وأنواع اللهو وشرب الخمور، وتظاهر بهذه الفضايح في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاراً وزنى فيه، وما تخفى استتاراً، وأباد الناس بالسيف والجوع، ولم يدع إلا من بان أنه الموجوع، ومنع الجماعة والجمعة، ودنس شرف تلك البقعة، ولم يُرَ في أيامه صلاةً قائمة في المسجد تؤدى نافلة ولا فرضاً، ولا من يذكر الصاحبين [ص١٢] رضي الله عنهما إلا بما

(١) المظفر الرسولي : يوسف بن عمر بن علي بن رسول التركماني اليمني، ثاني ملوك الدولة الرسولية في اليمن وقاعدتها صنعاء ، ولد بمكة ، وولي بعد مقتل أبيه سنة ٦٤٧هـ بصنعاء ، ،وأحسن صيانة الملك وسياسته ، وقامت في أيامه فتن وحروب ، فخرج منها ظافرا، وكانوا يشبهونه بمعاوية في حزمه وتدبيره ، توفي بقلعة تعز سنة ٦٩٤ هـ .

(العقود اللؤلؤية ١ / ٨٨ ـ ٢٨٤ ، ابن الوردي ٢ / ٢٤٠ ، النجوم الزاهرة ٨ / ٧١)

(٢) وأسر الحرث بن أسد بالحار : محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي ، وحمله إلى المدينة فتوفي بالصفراء ، فقطع الحرث رجليه ، وأخذ قيدين كانا فيهما ورمى بهما. (مقاتل الطالبيين ص ٥٣٠)

لا يرضي، فضاق الخلق ذرعاً، ولم يطيقوا له دفعاً، فغزاه المعتمد[1]، فظفر به وقتله، وكانت مدته في هذا النسق سنة وأشهراً، فسبحان من لا يعجل بمؤاخذة من اجترأ، وفي الحديث : (إن الله ليمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يكن يفلته)[2]، ولهذا كل ظالم يطرقه ضحى، إن لم يبيته .

٨- ذِكْر دَوْلَةِ السَّفَّاكِ إسْمَاعِيلْ[3]

ابن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون، ذكره مؤلف الكنوز، وحل في ذكره

---

(١) المعتمد على الله : أبو العباس أحمد بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد توفي سنة ٢٧٩ هـ . (ترجمته في الطبري ٩ / ٤٧٤ ـ ٦٢٠ ، تاريخ المسعودي ٤ /١٩٨ ـ٢١١، البداية والنهاية ١١ / ٢٣ ـ ٦٥)

(٢) الحديث في صحيح مسلم ، برّ ١٣، وابن ماجة : فتن ٢٢ برواية : إن الله ليملي للظالم .

(٣) قال الطبري في حوادث سنة ٢٥١هـ : (وفيها ظهر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بمكة، فهرب جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى العامل على مكة ، فانتهب إسماعيل بن يوسف منزل جعفر ومنزل أصحاب السلطان ، وقتل الجند وجماعة من أهل مكة، وأخذ ما كان حمل لإصلاح العين من المال، وما كان في الكعبة من الذهب، وما في خزائنها من الذهب والفضة والطيب وكسوة الكعبة، وأخذ من الناس نحوا من مائتي دينار، وانهب مكة ، وأحرق بعضها في شهر ربيع الأول منها ، ثم خرج منها بعد خمسين يوما، ثم صار إلى المدينة، فتوارى علي بن الحسين بن إسماعيل العامل عليها، ثم رجع إسماعيل إلى مكة في رجب ، فحصرهم حتى تماوت أهلها جوعا وعطشا، وبلغ الخبز ثلاثة أواق بدرهم ، واللحم رطل بأربعة دراهم، ، وشربة الماء ثلاثة دراهم، ولقي أهل مكة منه كل بلاء، ثم رحل بعد مقام سبعة وخمسين يوماإلى جدة، فحبس عن الناس الطعام ، وأخذ أموال التجار، وأصحاب المراكب، فحمل إلى مكة الحنطة والذرة من اليمن، ثم وافت المراكب من القلزم ، ثم وافى إسماعيل بن يوسف الموقف ، وذلك يوم عرفة ، وبه محمد بن أحمد بن عيسى المنصور الملقب كعب البقر ، وعيسى بن محمد المخزومي، صاحب جيش مكة، وكان المعتز وجههما إليه، فقاتلهم فقتل نحو من ألف ومائة من الحاج، وسلب الناس، وهربوا إلى مكة، ولم يقفوا بعرفة ليلا ولا نهارا، ووقف إسماعيل وأصحابه، ثم رجع إلى جدة فافنى أموالها) (الطبري ١١ / ١٣٦، ابن الأثير ٥ /٥٨) .

الرموز، قال : كان يلقب نفسه السفاك، ويرضى هذا الاسم لنفسه، ويقول : ابتُدِيَتْ دولة بني العباس بالسفاح، ويبتدي دولة بني علي بالسفاك، وكان يرحل وينزل في أكناف الحجاز، وثار في جموع جمعها، وجنود معه أطمعها، وزحف على المدينة ليطرد عنها ولاة المعتز، فحموها، فأتى مكة وملكها، وخطب لنفسه بها بالخلافة، وسفك الدماء، ومنع الحجاج الوقوف، ووقف بالمأزمين(١)، وقال : من تبرأ من العمين وسب بني العباس وبني أمية خُلِّي، وإلا فالسيف، وقيل له أسرفت في قتل المسلمين، فقال : لو اعتقدت أنهم مسلمون ما قتلت منهم أحداً، ثم كان ينشد شعراً منه :

[الوافر]

بنو العباس لو أني بسيفي قتلتُ جميعهم لم أشفِ نفسي

٩- ذِكْر دَوْلةِ الكَبِيرِ ومنهم أهْلُ اليَنْبُعِ

وسنذكر من أين نُميَ أصلهم، وهم من ولد أبي الكرام عبد الله بن موسى(٢) الجون بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى، وكان عبد الله هذا له

---

(١) المأزمان : موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة، وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عُرَنة ، وهو إلى مَنْ أقبل على الصخرات التي يكون بها موقف الإمام إلى طريق يفضي إلى حصن وحائط بني عامر عند عرفة ، وبه المسجد الذي يجمع فيه الإمام بين الصلاتين الظهر والعصر ، وهو حائط نخيل . (ياقوت : المأزمان)

(٢) عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب : وأمه أم سلمة بنت محمد بن طلحة بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، وكان قد توارى في أيام المأمون ، فكتب إليه بعد وفاة الرضا يدعوه إلى الظهور ليجعله مكانه ويبايع له، واعتد عليه بعفوه عمن عفا من أهله، فأجابه عبد الله برسالة طويلة منها : (فبأي شيء تغرني ؟ ما فعلته بأبي الحسن بالعنب الذي أطعمته إياه فقتلته)، ولم يزل عبد الله متواريا إلى أن مات في أيام المتوكل ، وقيل : نُعي=

صيت بالحرمين، فلما حج الرشيد وزار، أبصر ميل الناس إليه فحمل، حقد هذا عليه، ثم أتى الرشيد قبر النبي صلى الله عليه وسلم، قال كالمتكبر على رؤوس الأشهاد : السلام عليك يا ابن عمٍّ، فعارضه لوقته أبو الكرام، وقال : السلام عليك يا أبةِ، فكاد الرشيد يتميز من الغيظ، وقال : بهذا ارتكبنا من بني علي ما ارتكبناه، ثم طرده، فمات لا يُعرف له مكان .

ومن بنيه الكراميون [ص ١٣]، ومنهم الصالحيون، وصالح وابنه شاعران جليلان، فأما صالح بن أبي الكرام، فهو الجوَّال، وسُمِّي بذلك لأنه جال أقطار الأرض لخوفه، ونشأ بالمدينة والإمامة في رأسه والدعا[ة] تأتيه، ولم يمكنه الخروج لجزيرة العرب، فخرج بخراسان، فحُمِل إلى المأمون، فلما دخل عليه لامه، وقال : ما حملك على الخروج عليَّ، وأنت القائل :

[**الطويل**]

إذا كان عندي قوتُ يومٍ وليلةٍ وخمرٌ تقضِّي همَّ قلبي إذا اجتمعْ
فلستَ تراني سائلاً عن خليفةٍ ولا عن وزيرٍ للخليفةِ ما صنعْ

ثم حبسه .

وأما ابنه محمد بن صالح، فهو شاعر مذكور، وبطل مشهور، وكان يُعرَفُ بالأعرابي للزومه البادية، ومن شعره :

= عبد الله بن موسى إلى المتوكل صبح أربع عشرة ليلة من يوم مات ، ونُعي له أحمد بن عيسى فاغتبط بوفاتهما وسر، وكان يخافهما خوفا شديدا ويحذر حركتهما ، لما يعلمه من فضلهما ، واستنصار الشيعة الزيدية بهما ، وطاعتها لهما لو أرادوا الخروج عليه ، فلما ماتا أمن واطمأن ، فما لبث بعدهما إلا أسبوعا حتى قتل .

(مقاتل الطالبيين ص ٤٩٨ ـ ٥٠١)

[الكامل]

طربَ الفؤادُ فعادهُ أحزانُهُ

وكان قد أُخِذَ أيام المتوكل لخروجه، فحُبِس ثم أُطلِقَ، لقصيدة عرضها له الفتح بن خاقان، ومما كتب به من حبسه إلى امرأته، قوله :

[الطويل]

لو انَّ المنايا تُشْترى لاشتريتُها | لأمِّ حُمَيْدٍ بالغلاء على عمدِ
ولكنَّ بي أني أعيشُ بغبطةٍ | وقد مُتُّ أن يحظى بها أحدٌ بعدي

وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكره في الشعراء، وفي هؤلاء الصالحين مُلْكٌ متوارث بغابة[١] وقد ذكرناه مكانه .

ومنهم السليمانيون، من ولد سليمان بن أبي الكرام المذكور، ومنهم الهواشم من ولد أبي هاشم محمد بن الحسين بن محمد الأكبر بن موسى الثاني بن أبي الكرام، ومن هؤلاء السليمانيين والهواشم ملوك مكة والينبع[٢]، ومنهم ـ أعني بني أبي الكرام ـ العمقيون من ولد علي العمقي بن أحمد بن أبي الكرام، ومنهم الحرانيون من ولد القاسم والحسن ابني محمد بن أبي الكرام،

---

(١) في الأصل : (غانة)، والصواب غابة بالباء الموحدة ، وغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة، وهو المذكور في حديث السباق : من الغابة إلى موضع كذا ، ومن أثل الغابة ، وقد يصحف فيقال الغاية ، وقال الواقدي : الغابة بريد من المدينة على طريق الشام ، وصُنع منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرفاء الغابة .

(ياقوت : غابة)

(٢) لعله يريد مدينة ينبع ، وهي :عن يمين رضوى لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر ، على ليلة من رضوى، من المدينة على سبع مراحل ، وهي بين مكة والمدينة، وينبع من أرض تهامة، غزاها النبي صلى الله عليه وسلم فلم يلقَ كيداً .

(ياقوت : ينبع)

ومنهم الأحمديون من ولد أحمد بن موسى الجون، ومنهم الإدريسيون من ولد إدريس بن أبي الكرام، وقد ذكروا، ومنهم المترفيون من ولد علي المترف بن أحمد بن أبي الكرام، ومنهم الفاتكيون، من ولد الفاتك بن سليمان بن عبدالله الكامل [ص ١٤]، ومنهم المصحفيون، من ولد محمد المصحفي بن سليمان المذكور، ومنهم الحنظليون، من ولد أبي حنظلة محمد بن يحيى بن عبد الله الكامل .

فأما أصحاب الدول من السليمانيين والهواشم فسنذكرهم، فأما السليمانيون، فأول مذكور من أمرائهم :

١٠ - أبو عَزِيْز قَتَادَةُ بنُ إدْرِيْس

ابن مطاعن[١] بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن سليمان المذكور، وهو أساس البيت، جوار البيت المحرم، ومبتني المجد بفناء الحرم المكرم، قال الشريف الإدريسي النسابة : لا أعرف من يساوي أبا عزيز في القُعْدُد[٢] إلى أبي طالب، ورث دولة القواسم وليس منهم، إلا من جهة النساء، وكلهم إلى أبي الكرام، وساد الكراميين، وملك معظم الحجاز، واقتنى مماليك من الأتراك رماة أذل بهم

---

(١) قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني العلوي : جد الأشراف (بني قتادة) بمكة ، ولد بينبع ، ونشأ شجاعا عاقلا، ترأس عشيرته واستولى على ينبع والصفراء ، وكثرت الفتن بمكة بين المتنازعين على إمارتها ، فقصدها بجمع قوي فملكها سنة ٥٩٨ هـ ، واتسع ملكه إلى المدينة واليمن ، وكان في بدء أمره فاضلا محسنا، ثم بغى وجدد المظالم والمكوس، وكان يقول : أنا أحق بالخلافة ،له شعر جيد وأخبار كثيرة ، خنقه ابنه الحسن بمكة وهو مريض سنة ٦١٧هـ .

(تاريخ ابن الوردي ٢ / ١٤٣ ، خلاصة الكلام ص ٢٤ ، دائرة معارف البستاني ٧ / ٤١)

(٢) القعدد : القريب النسب ، يقال رجل قعدد، إذا كان قريب الآباء إلى الجد الأكبر .

العرب، وذكر الريحاني : أن العرب لما فتكت بالركب العراقي سنة ثلاث وستمائة بنجد لما[١] بين الحرمين، كتب الإمام الناصر إلى أبي عزيز كتاباً بخط ابن زيادة : "وغير خفي عن سمعك، وإن خفي عن بصرك فتك الأجاودة في آرام بكل ريم، وعيث بني حرب بين الحرمين حين غمُّوا قلب كل محرم بالغميم "، فأعجب هذا أبا عزيز فقال :

[الوافر]

[أ]يا رامٍ فتنتَ بكل ريمٍ كما غمُّوا فؤادي بالغميمِ
وفي وادي العقيقِ رأوا عقوقي كما حطموا ضلوعي بالحطيمِ

ثم بدت الوحشة بين أبي عزيز والناصر، وأسرَّها البغاددة[٢]، فلما أتى أمير الركب إليه بالخلع، سامه التوجه معه، فقال له : حتى أنظر، فلما نكر عليه، فأنشده :

[الطويل]

ولي كفُّ ضرغامٍ أصولُ ببطشِها وأشري بها بين الورى وأبيعُ[٣]
تظلُّ ملوكُ الأرضِ تلثمُ ظهرَها وفي بطنها للمجدبينَ ربيعُ
أأجعلُها تحت الرحى ثم أبتغي لها خلصاً إني إذاً لرقيعُ
وما أنا إلا المسكُ في كلِّ بلدةٍ يضوعُ وأما عندكم فيضيعُ[ص ١٥]

فقال له أمير الركب : هذا لا أبلِّغُهُ عنك، وأشار عليه بتجهيز ولدٍ له في مشايخ من الشرفاء، يدخلون بغداد، وأكفانهم بأيديهم منشورة، وسيوفهم مسلولة، ويقبِّلون العتبة، ويتوسلون برسول الله صلى الله عليه وسلم في

(١) في الأصل : (لم بين الحرمين) .
(٢) البغادة : نسبة إلى أهل بغداد .
(٣) في الأصل : (وأشتري) ولا يستقيم بها الوزن .

الصفح، فلما دخلوا على هذه الهيئة، والخلائق تضج بالبكاء، فعوملوا بكل حسنى، فلما بلغ ذلك أبا عزيز، كان يقول : لعن الله أول رأي عند الغضب، وتوفي أبو عزيز في عز سلطانه بمكة، سنة سبع عشرة وست مائة، وكانت مدته نحو تسع عشرة سنة، وهي السنة التي استولى فيها المسعود بن الكامل على مكة، وفر منها أمامه إمامُها حسن بن أبي عزيز[١] ، وكان قد واطأ جارية لأبيه، حتى أدخلته إليه فخنقه، وأعانته الجارية، لأنها كانت قد طمعت منه بمال وعدها، وآمال جحدها، وخرج فقعد مكان أبيه والقلوب منه نافرة، والنفوس له عن البغضاء سافرة، وأكبَّ عليهِ أخوه راجح بن أبي عزيز ووجوه الأشراف، أمير الركب العراقي، في حين قدم وقال كل منهم فيه بما علم، فغلق أبواب مكة وجمع للامتناع، ثم انسلَّ من الجمع فريداً ونسل من جناح بني أبيه في البر المقفر طريداً، وأتى بغداد فمرض بها، وكان لا يزال يرى أباه يتردد إليه في منامه، ويضع يده في خناقه، فينتبه مذعوراً، ويسمعه من معه في البيت يصيح وهو كالمتخبط، ويقول : بالله لا تفعل، ومات سنة ثلاث وعشرين وست مائة، وقام بعده أخوه راجح بن أبي عزيز[٢]، وكان لوفور عقله راجحا، ولحسن فعله حيث

---

(١) حسن بن أبي عزيز : هو حسن بن قتادة بن إدريس العلوي الحسني ، أمير مكة وأحد الفتاك العتاة، أرسله أبوه مع عسكر بقيادة عم له للاستيلاء على المدينة ، فقَتَلَ عمه في الطريق ، وعاد إلى مكة فخنق أباه، وكان له أخ ينوب عن أبيه بقلعة ينبع ، فاستحضره وقتله، واستقر في ملك مكة سنة ٦١٨هـ ، ونازعه أخوه (راجح) مستعينا بأمير الحاج ، فظفر الحسن بأمير الحاج وقتله ، ثم قتل أخاه راجحا، ولم تحمد سيرته فتفرق عنه أعمامه وكثير من أنصاره، وهاجمه الملك المسعود بن الكامل (صاحب مصر) سنة ٦٢٠هـ ففر الحسن إلى الشام والجزيرة والعراق، ودخل بغداد فمات فيها سنة ٦٢٣هـ .

(ابن الوردي ٢ /١٤٣ ، خلاصة الكلام ص ٢٤ ، دائرة معارف البستاني ٧ /٤١)

(٢) راجح بن أبي عزيز : هو راجح بن إدريس بن مطاعن ، شريف ممن تولوا إمارة مكة ، انتزعها من عمال مصر سنة ٦٢٧هـ واستعادوها منه ، وتوالى ذلك مرارا، حتى وليها ثماني مرات ، وكان مواليا لبني رسول أصحاب اليمن، وساعده عمر بن علي على امتلاكها أول مرة ، وحفلت أيامه=

يمم ناجحاً، أخذ نفسه بسلوك الطاعة، ولزوم الجماعة، ثم ولي أبو سعيد الحسين بن علي بن أبي عزيز، وكان جواداً أبياً شهماً وفياً أديباً فصيحاً عربياً، ثم أتى دمشق جماز بن حسن بن أبي عزيز، وأبوه حسن المتقدم الذكر، وقد طن في رأسه طلب ملك أبيه بعد كلام [ص ١٦] شجر بينه وبين قريبيه، وكان قد انحمل على ابن عمه أبي سعيد الحسين بن علي بن أبي عزيز، وكان قد امتد أمره إلى مكة(١)، وطلب من الناصر بن العزيز أن يجهزه بمال وعسكر ليخطب له بمكة، فامطله حتى ضجر، ثم بعثه مع الركب، فأفسد حال ابن عمه أبي سعيد، ثم آل الأمر إلى أنه وثب عليه فقتله واستولى على مكة، وخطب بها للناصر سنة إحدى وخمسين وست مائة، ثم كان يقول : كنت أود لي بملك أبي سعيد، مثل قوله :

[الطويل]

إلى الخيف من وادي منى والمحصبِ أحنُّ بقلبٍ فوق جمرٍ مقلبِ

وأشتاقُ من أرضِ الحجونِ معالماً ببطحائها والسوقِ مذ كنتُ مذهبي

وبي رشأ أحلى بقلبي من الغنى لدى قلبِ ذي بخل [وحرص](٢) مجربِ

وأما الهواشم فأولُ مذكور منهم محمد بن جعفر بن أبي هاشم(٣)، وهو

= بالفتن بينه وبين ملوك مصر واليمن وبعض الأشراف، ووثب عليه ابنه (غانم)بجمع من العبيد فقيده وزعم أنه مجنون وحجر عليه ، فسأله راجح أن يخلي سبيله وعاهده على أن لا يعارضه في مكة، فأعطاه جملا فخرج من مكة هاربا ، واستقر غانم بها وكاتب الخليفة المستعصم بذلك فأقره عليها سنة ٦٥٤هـ وقيل عاد راجح بعد ذلك وتوفي وهو في الإمارة سنة ٦٥٤ هـ .

(الحوادث الجامعة ص ٢٧٣ ، خلاصة الكلام ص ٢٥ ــ ٢٧)

(١) في الأصل : (امتد إلى أمره مكة)

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة من عندنا ليستقيم بها الوزن والمعنى .

(٣) محمد بن جعفر بن محمد أبو هاشم : شريف حسني من الهواشم ، ولاه الصليحي (صاحب اليمن) إمارة مكة سنة ٤٥٦ هـ ، وانتزعها منه حمزة بن وهاس، واستعادها أبو هاشم بعد مدة=

سيِّدُ سادة، ورأسُ سيادة، ومثقف رأي لم يعدم سدادة، ومسدد سهم لم يحظَ حظه سعادة، قال ابن الحصين : دخلت مكة سنة أربع وخمسين وأربع مائة، والفتنة قائمة بين الحسنيين والسليمانيين منهم، ولم يكن للسليمانيين رأسٌ يقوم بهم بعد الأمير شكر، فتقدم محمد بن جعفر، وأوقع بين بني سليمان، واستولت الهواشم على مكة، وطردوا السليمانيين إلى اليمن، واستقلَّ بالأمر وخطب للمستنصر الفاطمي، ثم خطب للقائم العباسي، وأبدل بياض الشعار الفاطمي بسواد الشعار العباسي(١)، وقال وهو يخطب : الحمد لله الذي هدانا أهلَ بيته للرأي المصيب، وعوض بيته بلبسه السواد بعد لبسه المشيب، وأمال قلوبنا إلى الطاعة ،ومبايعة إمام الجماعة، ثم تكلم بعد هذا بما يناسب، فلما انتهى قام محمد بن إبراهيم الأسدي(٢) أمام قبة العباس وأنشد :

[الوافر]

بني العباس عاد الأمرُ فيكم وإرثُ أبيكم أضحى مستقيما
فزمزمُ ليس تروي غيرَ تالٍ مديحكمُ وفخركُمُ القديما

= قصيرة ، واستمر إلى أن توفي ، كان على غاية القوة ضرب فارسا بالسيف فقطع درعه وجسده وفرسه، وهو أول من أعاد الخطبة العباسية بمكة، بعد أن قطعت نحو مائة سنة ، قال ابن ظهيرة : بالغ ابن الأثير في ذمه ، وقال لما ذكر وفاته : (ما له ما يمدح به) ، ولعل ذلك لنهبه الحاج وقتله خلقا كثيرا منهم سنة ٤٨٦ ، ولأخذه حلية الكعبة سنة ٤٦٢ ، وكانت وفاته عن نيف وسبعين سنة ، سنة ٤٨٧ هـ .

(الكامل حوادث سنة ٤٨٧ ، ابن ظهيرة ص ٣٠٧ ، صبح الأعشى ٤ / ٢٧٠ ، خلاصة الكلام ص١٨)

(١) كذا بالأصل ، والصواب أن يقول : أبدل ببياض الشعار الفاطمي سواد الشعار العباسي ، لأن الباء تدخل على المتروك ، وهو يقصد أنه لبس السواد بعد البياض كما سيأتي .

(٢) محمد بن إبراهيم الأسدي : شاعر من أهل مكة ، لقي أبا حسن التهامي في صباه وتصدى لمعارضته، وسافر إلى اليمن والعراق ، وخدم الوزير أبا القاسم النغربي ، ثم رحل إلى خراسان وتوفي بغزنة سنة ٥٠٠ هـ .

(معاهد التنصيص ٣ / ٢٠١ ، المنتظم ٩ / ١٥٣)

فأظهر له القبول، ثم طلبه خفية، وقال له : ما يدخلك بين بني فاطمة وبني العباس، ثم طرده، ثم هجم المدينة وأخذها وخطب للقائم بها، وسُمِّي أمير الحرمين، وتوفي سنة سبع وثمانين وأربع مائة

وكانت مدته ثلاث وثلاثين سنة، ثم قام بعده ابنه قاسم، قال مؤلف الكنوز : فزاد في الاضطراب في الخطبة على أبيه، وقطع مدته بما أسأل الله مسامحته فيه، ومات سنة ثمان عشرة وخمس مائة بعد عمر مُتِّع به في القصف والتقلب بلغ إحدى وثلاثين سنة، ثم قام بعده أبو فليتة، فأحسن السياسة، وأحسب[١] في الرياسة، وأسقط المظالم، وأسخط بمراضي الله الظالم، وكان جواداً لا يحتجب، وشجاعاً لا يغفل عما يجب، وقال يوماً : اعلموا يا بني حسن، إني وجدت الرقاب ثلاثاً، رقبة ملكتها بالمن، ورقبة ملكتها بالصفع، ورقبة لم ينفع فيها إلا السيف، فقالوا : والله إنك لأعرف بما تقول وتفعل، وتوفي قتيلاً بسكاكين الباطنية سنة ست وخمسين وخمس مائة، ومدته عشرون سنة، ثم قام بعده ابنه عيسى، كان صديقاً للملك الناصر بن أيوب صداقة لا ينفصم عراها، ولا يوقظ كراها، وفي أيامه كان أخذ الأصطول الناصري لأصطول صاحب الكرك الفرنجي، الذي قصد ما رده الله بغيظه دونه، وأُخِذَ ونُحر من فيه بجمرة العقبة حيث تنحر البُدن، ثم عزله الإمام الناصر لتقصيره في خدمة أمِّه لَمَّا حجَّتْ، وولى أخاه المكثر، ولم يتقدم في أهل بيته أجلَّ منه ولا أجل سناً فما يؤثر عنه، هذا على قصر مدته، وتخاذل زمانه، وبنى قلعة مكة على جبل أبي قُبَيْس[٢]، قال الريحاني : كان ذا شهامة بعيد الصيت والغور، وشعره كثير،

---

(١) أحسب : أجزل العطاء حتى يقول الآخذ حسبي .

(٢) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكةمن شرقيها يقابله قعيقعان من غربيها ، وهو أحد الأخشبين .

(ياقوت : أبو قبيس)

ومن حر الكلام قوله :[ص ١٨]

[الكامل]

لا تصبحنَّ أخاً يُريدُ لنفسه ما لا تُريدُ ولا يُعادُ قديرا
إلا إذا أبصرتَهُ متجنباً فاركب له حدَّ الحُسامِ طريرا

وتوفي سنة تسع وثمانين وخمس مائة، قال الريحاني : وبموته انقرض ملك الهواشم، وصار في بني مظاعن من السليمانيين المذكورين من قبل، فأما من ملك قبل هؤلاء، فمن بني داود بن الحسن المثنى، وهم أول من ملك، ثم الهواشم، ثم السليمانيون .

وأول قائم من بني داود :

١١ - النَّاهِضُ بأمْرِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بنُ سُلَيْمَان بنِ دَاوُد[١]

نهض لملك أدركه، وبلد ملكه، ظهر بالحجاز وخطب لنفسه بالإمامة بالموسم على رؤوس الأشهاد، وقال : الحمد لله الذي أعاد الحق إلى نظامه، وأبرز زهر الإيمان من كمامه، وكمل دعوة خيرة الرسل بأسباطه[٢] لبني أعمامه صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين، وكف عنهم ببركته أيدي المعتدين، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين :

[المجتث]

لأطلبنَّ لسيفي ما كان للحقِّ دَيْنا
وأسْطُونَّ بقومٍ بغوا وجاروا علينا

---

(١) محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى ، توفي سنة ٢٠٠ هـ .

(٢) السبط : ولد الابن والابنة، والسبط من اليهود: كالقبيلة من العرب، والجمع أسباط، وفي القرآن الكريم " وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمما " .

يـــــهــــــــــدون كــــــلَّ بــــــلاءٍ مـــــن الـــعـــــراقِ إلـيــنـــــــا

ثـــم :

١٢ - أبو الفُتُوحِ الحَسَنُ بنُ جَعْفَر(١)

ابن الحسن بن محمد بن سليمان، ، كان جميل الوفاء، جليل القدر في الشرفاء، كتب إليه القادر سنة إحدى وثمانين وثلاث مائة بولاية مكة، فأنفذ كتابه إلى العزيز فوقَّع له العزيز بولاية مكة، وأرسل له بمال وخلع للشرفاء،فحضرتهم عند الكعبة، وقسم فيهم المال، وقال عندما ألبس الكعبة الكسوة البيضاء : الحمد لله يا بني فاطمة الزهراء، وأصحاب السنة الغراء، على أن زيَّن بيته بلبسه السرور بعد لبسه الحزن، وجعل ملك الحرمين لبني بنت رسوله من بني [ص ١٩] الحسين وبني الحسن، فأرضى الفريقين، واتصلت إمارته، وأتاه كتاب الحاكم بالبراءة ممن غصب وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم ميراثه في الخلافة، ومنع فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حقها في فدك(٢)، فغضب أبو الفتوح وقال : قوم قام بهم منار الإسلام بعد نبيِّه عليه السلام، يذكرهم بما لا يجب، أهكذا فعلت النصارى بالحواريين(٣)، بل جعلوا قبر كل واحد منهم مزاراً لحجٍ وعبادة، والله لو أمرني أن

(١) أبو الفتوح الموسوي : الحسن بن جعفر بن محمد الموسوي ، نسبة إلى موسى الكاظم ، الحسني الطالبي ، شريف من الأمراء ، ولي مكة سنة ٣٨٤ هـ للعبيديين أصحاب مصر ، ثم خلع طاعته وادعى الخلافة ، وخطب لنفسه ، وحدثت أمور اضطرته إلى الرجوع عن ذلك ، وطالت مدة إمارته فكانت ثلاثة وأربعين عاما ، وتوفي بمكة سنة ٤٣٠ هـ .

(خلاصة الكلام ص ١٦ ـ ١٨)

(٢) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، وقيل ثلاثة ، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سنة سبع صلحا، فيها عين فوارة ونخيل كثيرة .

(ياقوت : فدك)

(٣) الحواريون : أنصار عيسى عليه السلام .

ألعن قوماً على غير الملّة لما ارتضيتُ أن أكون لعّاناً ووالله إن من حقوق جدنا علي بن أبي طالب وصفه بالعجز، قام بهذا وخطب على رؤوس العلوية، فقام إليه رجل منهم وقال : أيها الأمير، هذا مقال من يجب عليه أن لا يرجع عما قاله، قال صدقت، ثم شرع في مباينة الحاكم، وأتاه الوزير أبو القاسم يحرضه على طلب الخلافة، فخطب لنفسه بها وتلقب بالراشد، وأتى الرملة(١) فبايعه بنو الجراح أمراء طيء، ودعي أمير المؤمنين، فما زال الحاكم يتحيل على العرب بالرغبة والرهبة، حتى انفردوا عنه، فرجع إلى مكة، ولم يجد بدّاً من إعادة الخطبة للحاكم، فقيل له أترضى بأن تكون تابعا بعد أن كنت متبوعاً، فقال : ما أحب أحد الحياة في عافية إلا رضي ببعض الدرجة، وامتد عمره إلى سنة ثلاثين وأربع مائة، وإمارته مدتها ستة وأربعون سنة، وهو القائل :

[المجتث]

أهوى الكؤوسَ فمنها ... إلى السرورِ أسيرُ
عجبتُ منها شموساً ... حفّتْ بهنَّ بدورُ
عجبتُ منها خدوداً ... لاحت عليها ثغورُ

حُكي أنَّ الوزير أبا القاسم كانت عنده محاككة(٢) وموافقة، فقال يوماً لأبي الفتوح بمحضر من الأشراف وأمراء العرب : ما رأيت أشعر منك في قولك، وأنشد هذه الأبيات، فخجل أبو الفتوح، وعلم أنه أراد إعلامهم أنه يشرب الخمر، فقال لأحد حجابه : عليَّ بالمصحف، فلما حضر فتحه [ص٢٠] وقال :

---

(١) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين ، كانت رباطا للمسلمين ، وهناك مواضع أخرى سميت بهذا الاسم ، من ذلك محلة في بغداد على شاطىء دجلة مقابل الكرخ ، وقرية لبني عامر من بني عبد القيس بالبحرين ، والمراد هنا رملة فلسطين .

(ياقوت : الرملة)

(٢) المحاككة : من الحكاك وهوحكاك الشر والنزوع إليه

وحق ما احتوى عليه، ما شربتها قط، ولا حضرت عليها، وتوحش لأبي القاسم، ففر منه، ولأبي الفتوح شعر كثير، منه ما أنشده الباخرزي في الدمية وهو:

[**الخفيف**]

وصلتني الهمومُ وصلَ هواكِ   وجفاني الرقادُ مثلَ جفاكِ
حكى لي الرسولُ أنَّكِ غضبى   كفى اللهُ شرَّ ما هو حاكي

ثم ولي بعده ابنه شكر(١)، وكان نصلاً لا يثلمه الضراب، ورمحاً لا يحطمه الحراب، وجرت له خطوب ملك في أثنائها المدينة، وجمع بين الحرمين، ولما وقعت الحرب بينه وبين عمِّه من بني موسى الجون، الذين كرهوا دعوة المصريين، وأرادوا الخطبة لبني العباس، وعاضدهم بنو الحسين وبنو جعفر، قال :

[**الطويل**]

بني عمِّنا الأدنين قُرباً تأمَّلوا   غرايبَ ما يأتي به البغْي في الأهْلِ
نسيتمْ دماءً بالمدينةِ أُهْدِرتْ   وما كان في فجٍّ من الأسْرِ والقَتْلِ
فميلوا لهم لا درَّ للهِ درُّكم   وعاطوهمُ كأسَ المودَّة والوصْلِ
وخَلُّوا بني بنتِ النَّبيِّ بجانبٍ   ولا تقصروا حتى تروا فُرقَةَ الشَّمْلِ
وتأخذكمْ أيدي الشتاتِ وتخرجوا   من الحرمِ الشامي والحرم القبْلي
وأمَّا أنا ما دامَ للسيفِ قائمٌ   فلا أشتري عزَّ العشيرة بالذلِّ
ولا أرتقي إلا ذُرى كلِّ منبرٍ   ولا أرتضي إلا الذي يرتضي مثلي

---

(١) شكر بن الحسن بن جعفر بن محمد الحسني : من نسل موسى الكاظم، أمير تولى مكة استقلالاً، بعد موت أبيه (أبي الفتوح) سنة ٤٣٠ هـ وحارب أهل المدينة وملكها ، فجمع بين الحرمين ، واستمر إلى أن مات سنة ٤٥٣ هـ .

(شفاء الغرام ــ الفاسي ٢ / ١٩٥)

أمَهِّدُ للأبناءِ ما يتبعونهُ وأتبعُ آبائي الذين مضوا قبلي

ثم لما خاف غلبة الرجال أسلم الحجاز ذاهباً إلى مصر، وقال:

[البسيط]

قَوِّضْ خيامَكَ عن أرضٍ تُضامُ بها وجانبِ الذُلَّ إنَّ الذُلَّ مجتَنَبُ

وارحَلْ إذا كانتِ الأوطانُ منقصةً فالمندلُ العَرفُ في أرجائه حطَبُ[1] [ص٢١]

ولم يزل في خطوب وحروب تنوبُ إلى أن مات في رمضان سنة ثلاثٍ وخمسين وأربع مائة، ومدته نحو ثلاث وعشرين سنة، وبه انقرضت دولة الداوديين بالحجاز، وفر بيت أهل الإمارة منهم إلى اليمن، ولها منهم أمراء.

ذِكْر الدَّوْلَة الطِبْرِسْتَانِيَّة[2]

تداولها ستة رجال، منهم ثلاثة من بني الحسن، وثلاثة من بني الحسين، فأما الدولة الحسنية، وهي كانت الأولى بها أسست الوطاة[3] العلوية هنالك، وأولها:

١٣ - الدَّاعِي إلى الحَقِّ[4]

أبو محمد الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد الجواد

---

(١) المندل: العود الطيب الرائحة.

(٢) طبرستان: بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم، والغالب على هذه النواحي الجبال، فمن أعيان بلدانها: دهستان، وجرجان، واستراباذ، وآمُل، وهي قصبتها، وسارية، وهي مثلها، وربما عُدَّتْ جُرجان من خراسان، وطبرستان في البلاد المعروفة بمازدان، وهذه البلاد مجاورة لجيلان وديلمان، وهي بين الري وقومس والبحر، وبلاد الديلم والجبل. (ياقوت: طبرستان)

(٣) الوطاة: الذين وطأوا للأمر وهيأوه.

(٤) الداعي إلى الحق: الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب، أحد الأئمة الزيدية في العلم والجهاد، دعوته أيام المتوكل العباسي، وكان ظهوره سنة=

بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان أمضى من صارمه، وأخلع للدعة من خاتمه، نهض للملك حتى أخذه، وأمسك بطرف ردائه وجبذه[1]، ومنّى نفسه بالعراق وشمَّر لها اضبعه[2] ونغر لأجلها فاه[3] وحرش سبعه، وسلَّ لها عزمه، من حد باتكة[4]، وأعمل فيها خدعة ناسكة لا فاتكة، حتى لولا ميل المقادير، وإنْ كلٌّ بتقدير، لأطاحها عن بني العباس وابتزها، وألبسهم ذلها ولبس عزها، وخُطِبَ له بالخلافة في أول خلافة المستعين[5] سنة خمس ومائتين بالري والديلم، وكان مهيباً عظيم الخَلْق عطس يوما عطسة ففزع رجل وهو في المنارة قائما يؤذن فيها، فوقع منها فمات، وكان أقوى البغال لا تحمله أكثر من فرسخين، وغيل[6] في آخر عمره بدنه، حتى كان يُشق بطنه ويخرج منه الشحم، ثم يخاط، وكان أول أمره بالعراق في ضيق حال، وكان كثيرا ما يسأل عن البلاد الممتنعة الوعرة التي أهلها أهل سلامة وقبول لما يدعون إليه، فدُلَّ على بلاد الديلم وطبرستان، فأتاها وفيها قوم لم يكونوا أسلموا،

= ٢٥٠ هـ على طبرستان ونواحي الديلم، فبسط نفوذه عليها، وجرت بينه وبين العباسيين وقعات كثيرة أبدى فيها بسالة نادرة، وهو مؤسس الدولة العلوية في طبرستان، كان عالما مهيبا فاضلا، توفي سنة ٢٧٠ هـ.

(أعيان الشيعة ٥ / ٨٠ ـ ٩١، أعلام المؤلفين الزيديين ـ عبد السلام بن عباس الوجيه ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ ط مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عمان ١٩٩٩م، معجم المؤلفين ١ /٢٢٧)

(١) جبذ الشيء: جذبه وأخذه.

(٢) أي كشف عن ضبعه والضبع ما بين الابط إلى نصف العضد من أعلاها، وهما ضبعان.

(٣) نغر: أي صاح.

(٤) الباتكة: القاطعة.

(٥) المستعين بالله أبو العباس أحمد بن المعتصم بن الرشيد وهو أخو المتوكل، عزله الأتراك وحبسوه ثم قتلوه سنة ٢٥٢هـ.

(السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص٣٠٥)

(٦) غيل: فسد.

فأسلموا على يده، وتمذهبوا [ص ٢٢] بمذهبه، حتى أسس التشيع هناك، وكان جوادا ممدَّحا، وله شعر فائق، فمنه قوله :

[الوافر]

وما نثر المشيبُ عليَّ إلا مباشرة السيوف لذا الصفوفِ
فأنت إذا رأيتَ عليَّ شيئا فمكتسبٌ من الوان السيوفِ

وله فطنة مليحة في الانتقاد على الشعراء، وحُكي أنَّ رجلاً من بني أمية أتى إليه وهو في مجلسه فسأله عن نسبه، فقال له : رجل من بني أمية، فقال رجل من أهل المجلس : لا أهلاً بك ولا بمن أنت منهم، ثم لم يبق أحد حتى أخذ في سبه، وسب بني أمية، وقال رجل : دعني وإياه فلأضربن عنقه، فقال الداعي إلى الحق : لبئس الجلساء أنتم، ثم التفت إلى القائل وقال : دعني وإياه، وقال له يا هذا أتظنك بقتله تدرك ثأر من سلف ؟ لا والله لا على هذا ولا علينا مما شجر بين أولئك، ثم قال للأموي : أيها الرجل، ماذا تريد ؟ فقال : وفاء ديني وكفاف أهلي، فقال : حبًّا وكرامة، كم دينك ؟ وكم كفاف أهلك ؟ فقال : ألف دينار وخمس مائة لهذا وخمس مائة لهذا، فقال : بل لكل منهما ألف دينار، ثم أمر له بألفي دينار، فأخذها وكساه وحمله وجهزه إلى مأمنه .

ثم قام بعده أخوه :

١٤ – القَائِمُ بالحَقِّ(١)

أبو عبد الله محمد، وكان ممن يُحمد، ظهر بحلية تنسك، ووقوف مع الحق

(١) القائم بالحق : محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل ، تولى الدعوة بعد أخيه في الديلم ، ولقب بالداعي الصغير ، والقائم بالحق .
(أعلام المؤلفين الزيدية ص ٣٢٠)

وتمسك، وكان يهب على ضيق ذات يده، ومضيق رقعة ملكه وبلده بدراً وألوفاً، ويرهب أعداءً وصفوفاً، كان يغزو وهو في الوطن، ويسكن وتحت سكونه حركات الفطن، وكان قائماً بالحق قائلاً له وقائلاً في ظله، لا يفارق ظله، وأوت الرعايا منه إلى أب برٍّ تميل على جوانبه، وإمام عادل لا يكف عن الأرض مطر سحائبه،

فكأنما كانوا في أيامه لمنِّها في الحلم، ولأمنها في الأشهر الحرم، هذا مع شراسة خلق، وشكاسة عضب لا ينجاب لها أفق يحتاج من حضره وقد حضره ذلك الخلق الشرس والغضب اليبس [ص ٢٣] أن يغيب عنه وجهه مقدار حلب لقاح، أو ما يجف الندى عن الإقاح، وقد تجلت تلك الغيابة العارضة، وهدأت شقاشق تلك الغمامة العارضة، وعاد إلى أحسن خلقه، وأعاذ بإحسان نبته من أساءة خرقه، وتسفر تلك الرياض الدمائث، ويتضوع كالمسك في ند مائث[١]، ومن كنوز المطالب أنه وصل إلى الري في جموع عظيمة هال أمرها، وآل الأمر إلى أن هزمه كوبكين صاحب الري، ثم جلس كوبكين لضرب أعناق الأسرى، فوثب منهم ديلمي على السياف فاستلب سيفه من يده وعلاه به فقتله، ومر هارباً، فلم يلحق وكوبكين ينظر إليه ويضحك، ثم هبَّت للقائم بالحق سعادةٌ ملَكَ بها جرجان وبعض خراسان، وظهرت أشعته في تلك الأقطار، ثم هزمه عسكر السامانية، فقتلوه سنة ثمان وثمانين ومائتين، ثم كانت بعده ثَمَّ حروب يطول شرحها، وللقائم هذا أدب، ومن شعره قوله :

[الخفيف]

إنْ يكُنْ نالكَ الزمانُ بصَرْفٍ ... أضرمتْ ناره عليكَ فجلَّتِ
فاخفضِ الجأشَ واصبرنَّ رويداً ... فالرزايا إذا تجلَّتْ تجلَّتِ

---

(١) المائث : اللين السهل .

ولما كسر أسر ابنه أبو الحسن زيد، ولم يزل مكرماً عند إسماعيل، وكتب إليه المكتفي يحمله إليه فدافعه، وله شعر منه قوله :

[الكامل]

ولقد تقولُ عصابةٌ ملعونةٌ ضوضاءُ ما خُلقتْ لغيرِ جهَنَّمِ
من لم يسبُّ بني النبيِّ محمدٍ ويرى قتالَهُمُ فليس بمسلمِ
عجباً لأمَّةِ جدنا يجفوننا ويجيرُنا منهم رجالُ الدَّيلمِ

وتوفي ببخارى سنة أربع عشرة وثلاث مائة .

ثم قام بعده ببرهة ابن ابنه :

١٥ - المَهْدِيُّ أبو مُحَمَّد[١]

الحسن بن زيد بن محمد القائم بالحق، وقام من بني الحسين من قاومه ودان بحربه وداومه، واشتجرت بينهما حروب، وخطوب على ضروب، صرَّح فيها السيف وما ورَّى[٢]، وروى فيها السهم كبد قوسه [ص ٢٤] الحرّى وتصاول فيها الفحلان، وكان أن ينصرعا، وتناضل النصلان وما بقي إلا أن يتقطَّعا، ثم دالت الدولة للقائم من بني الحسين، وقال القائل ما بَعُدَ غائب نقل إلى القلب من العين، وذلك بعد حروب تلاقى بها مرج البحرين، ومرَّ جلم[٣] الحديد على

---

(١) المهدي : الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، الداعي إلى الحق ، أحد الأئمة الزيدية في العلم والجهاد، دعوته أيام المتوكل العباسي ، وكان ظهوره سنة ٢٥٠هـ على طبرستان ونواحي الديلم ، فبسط نفوذه عليها ، وجرت بينه وبين العباسيين وقعات كثيرةأبدى فيها بسالة نادرة ، وهو مؤسس الدولة العلوية في طبرستان ، وكان عالما مهيبا فاضلاً ، توفي سنة ٢٧٠هـ .

(أعيان الشيعة ٥ / ٨٠ ـ ٩١ ، أعلام المؤلفين الزيدية ص٣١٩ ـ ٣٢٠، معجم المؤلفين ١ /٢٢٧)

(٢) من التورية : ورى عن الشيء أظهره وأراد غيره .

(٣) الجلم : ما يُجَزُّ به .

النحرين، وذُبحَتْ الرجال ذبحَ الغَنَم، وأشارت أطراف الرماح بالعَنَم، ومرَّت الأعلامُ على كل شاهق كالعلم، وخلفت حوافر الخيل وجود الأرض كالعدم، ثم تولى البيت الحسني بإحسان أنساهم مصابهم وألهاهم عن عظيم ما أصابهم، وأجري لكل منهم ما كان له في دولتهم الماضية، ولم يبق منهم إلا راض أو راضية، وسنذكر دولة هؤلاء الحسينيين مع بني أبيهم، ومن شعبة هؤلاء الحسينيين الذين ذكرناهم فرقة ثمانية ما هذا موضع ذكرهم، وأنشد له البيهقي هجاءً في أهل الري، وأنشد له في الغزل قوله :

[الكامل]

كفي لحاظكِ إنهنَّ سهامُ ... رَمَتِ الفؤادَ وكان ليس يُرامُ
ما ذلَّ مثلي قطُّ مُذْ خُلِقَ الورى ... إلا لمثلكِ والغرامُ إمامُ

ذِكْرُ دَوْلَةِ الأخضَرِيِّيْن

وهم من ولد إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى، وهم قوم توارثوا الإمامة باليمامة، ولم تلم بي من تفضيل أخبارهم إلمامة، وصار لهم بقُم وقاشان(١) ذكر نابه، ووصف متشابه.

ذِكْرُ دَوْلَةِ الأَدارِسَةِ بِبِلادِ المَغْرِبِ

وأول من هبَّت له بها ريح، ونشبت مصابيح، حتى وسعت اللجج قربها، وقطعت الحجج قضها، ووثبت ببقايا بني أمية بقيتها، وفلت الأرض حتى

(١) قم : مديمّة تذكر مع قاشان ، وهي مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها ، وأول من مصَّرها طلحة بن الأحوص الأشعري ، وقم بين أصبهان وساوة، وهي كبيرة حسنة طيبة ، وأهلها كلهم شيعة إمامية ، وكان بدء تمصيرها في أيام الحجاج سنة ٨٣ هـ . (ياقوت : قم)

قاشان : مدينة قرب أصبهان تذكر مع قم ، ومنها تجلب الغضائر القاشاني ، وأهلها كلهم شيعة إمامية ، وبين قم وقاشان اثنا عشر فرسخا، ومن قاشان إلى أردستان أربع مراحل . (ياقوت : قاشان)

حصلت لقيتها هو :

١٦ - إِدْرِيْسُ المَغْرِبِ[١]

ابن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي [ص ٢٥] ابن أبي طالب، وإليه تنسب الأدارسة وهو الجد الأكبر والعقاب المحلق الأكدر، حلَّق فانتهز فرصة، وحصل قنصه، وقد تقدم ذكر دخوله المغرب وبهذا عُرف، فرَّ من وقعة فج وقال :

[السريع]

غــرَّبــتُ كــي أغــربَ فــي ثــورةٍ　　أشــفــي بــهــا كــلَّ فــتــى ثــائــرِ
لا خيــرَ في العــيشِ لمــنْ يغــتــدي　　فــي الأرضِ جــاراً لأذى جــــائــرِ
والأرضُ مــا وسَّــعــهــا ربُّــهــا　　إلا لــتــبــدو هــمــةُ الســائــرِ
لا بلغــتْ لــي مــهــجــةٌ سُؤْلَهــا　　إنْ لــم أُوَفِّ الــكَــيْــلَ لــلــغــادرِ

(١) إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن بن علي بن أبي طالب : مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب وإليه نسبتها، وأول ما عُرف عنه أنه كان مع الحسين بن علي المثلث في المدينة أيام ثورته على الهادي العباسي سنة ١٦٩هـ ، فهرب إدريس إلى مصر فالمغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ ، ونزل بمدينة وَليلَى (على مقربة من مكناس)، وكان كبيرها يومئذ إسحاق بن محمد ، فعَرَّفه إدريس بنفسه، فأجازه وأكرمه، ثم جمع البربر على القيام بدعوته ، وخلع طاعة بني العباس ، فتم له الأمر سنة ١٧٢هـ ، فجمع جيشا كثيفاً وخرج به غازيا فبلغ بلاد تادلة (قرب فاس) ففتح معاقلها وعاد إلى وليلى ، ثم غزا تلمسان فبايع له صاحبها ، وعظم أمر إدريس فاستمر إلى أن توفي مسموماً في وليلى ، وهو أول من دخل المغرب من الطالبيين ، ومن نسله الباقي إلى الآن في المغرب شرفاء العلم (العلميون) والشرفاء والوزانيون والشرفاء الريسيون وغيرهم ، توفي سنة ١٧٧ هـ وقيل سنة ١٨٠هـ.

(ابن خلدون ٤ / ١٢ ، الاستقصا ١ / ٦٧ ، البيان المغرب ١ / ٨٢ ، ٢١٠ إتحاف أعلام الناس ٢ / ٢ـ١٧) .

فسار حتى أتى بلادَ البربر، فتابعوه وبايعوه، فقال فيهم :

[الطويل]

وأصبحتُ في شَمَّاءَ بالغَرْبِ عندَ مَنْ ... يذبُّونَ عَنِّي بالمثقَّفَةِ المُلْدِ[١]

رعوني لمَّا ضيَّعَتْني أقاربي ... وما اطَّرحوا ما كان أوصى به جَدِّي

فلم يزل الرشيد يستطلع علمه، فدسَّ عليه حجَّاماً سمَّهُ في سَنون[٢] استنَّ به، فسقطت أسنانه ومات في سنة ثمانين ومائة، وعمره ثمانية وخمسون سنة، وإلى ميتته هذه أشار أشجع السلمي في قوله :[٣]

[الكامل]

أتظنُّ يا إدريسُ أنَّكَ مُفْلِتٌ ... كيدِ الخليفةِ أو يقيكَ حِذارُ

هيهاتَ إلا أنْ تكونَ ببلدةٍ ... لا يُهْتدى فيها إليكَ نهارُ

ثم قام بعده ابنه :

١٧ - إدْرِيْسُ بنُ إدْرِيْس[٤]

وهو الغر الذي خُتِلَ ودُسَّ عليه الكيد حتى قُتِل، وكان قد علا أمره،

(١) الملد : الناعمة اللينة ، وهي من صفات الرماح .

(٢) في الأصل : ستون ، والصواب سنون، والسَّنون (بالنون) ما يُسْتَنُّ به من دواء لتقوية الأسنان وتنظيفها، وا ستنَّ : استاك .

(٣) شعر أشجع السلمي ص ٢٧٣ مع خلاف في الرواية ومقاتل الطالبيين ص ٣٥٧ والطبري ٣ / ٥٦١ .

(٤) إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن أبو القاسم : ثاني ملوك الأدارسة في المغرب الأقصى ، وباني مدينة فاس، ولد في وَليلَى (بجبل زرهون) وتوفي أبوه وهو جنين ، فقام بشؤون البربر راشد (مولى أبيه إدريس الأول وأمينه)، وقتل راشد سنة ١٨٦هـ ، فقام بكفالة إدريس أبو خالد العبدي حتى بلغ الحادية عشرة ، فبايعه البربر في جامع وليلى سنة ١٨٨هـ ، فقام بكفالة إدريس فتولى ملك أبيه وأحسن تدبيره، وكان جوادا فصيحا حازما ، أحبته رعيته ، واستمال أهل تونس وطرابلس الغرب والأندلس إليه (وكانت في يد العباسيين بالمشرق يحكمها ولاتهم)،=

وأضاء جَمْرُه، وتهَمَّمَ يغزو أفريقية، وكان مؤيَّداً بجده لأمه راشد[١] مولى أبيه، وهلول بن عبد الله رأس ثقاته، فعمل إبراهيم بن الأغلب على راشد، حتى هلك واستفسد باطن هلول، وقال :

[الطويل]

ألم ترني بالكيدِ أوديتُ راشداً وإني بأخرى لابن إدريسَ راصدُ
تناولهُ عزمي على نأي دارِه بمختومةٍ في طيِّهنَّ المكايدُ

ثم لم تزل مكايد ابن الأغلب تخب إليه وتضع، حتى قتله ثقاته وبعثوا رأسه [ص ٢٦] إليه، فبعثه إلى الرشيد، فكتب لابن الأغلب بإفريقية، فتوارثها بنوه، ولإدريس المثنى شعر :

بانَ الأحبَّةُ واستبدلتُ بعدَهُمُ سَقْماً وشَمْلاً غيرَ مجتمعِ
وما استرحتُ إلى ناسٍ ليسلبني إلا تحولَ لي يأسي إلى الطمعِ

= اختط مدينة فاس سنة ١٩٢هـ وانتقل إليها ، وصفا له ملك المغرب ، وتوفي بفاس سنة٢١٣هـ. (الاستقصا ١/ ٧٠ ـ ٧٥ ، ابن خلدون ٤ /١٣ ، البيان المغرب ١ /١٠٣ ، جذوة المقتبس ص٩٥)

(١) راشد مولى إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى وأمينه ، كان في خدمته بالمدينة ثم بمكة، وخرج معه من مكة هاربين مستترين بعد وقعة (فخ) التي قتل فيها الحسين بن علي بن الحسن المثلث سنة ١٦٩ هـ ، فمرا بمصر وافريقية ودخلا المغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ فأقاما بمدينة وليلى بقرب مراكش ، ودعا إدريس إلى نفسه ، فعظم أمره ، وملك وليلى وبلادا أخرى ، وراشد عون له ، ولما توفي إدريس علم من جارية لإدريس اسمها (كنزة)أنها حامل ، فتولى إدارة الملك باسم (الجنين) إلى أن ولدت كنزة ، فسمى ولدها إدريسا على اسم أبيه ، وجدد له بيعة البربر وقام بأمره ورباه ، وكان الأغالبة في القيروان يتربصون بالرضيع إدريس ، وكانت لهم يد في قتل أبيه بالسم ، فما زالوا على ذلك حتى تمكن (إبراهيم بن الأغلب من دس بعض البربر فقتلوه غيلة ، بعد نشوء إدريس وتسلمه عرش أبيه بقليل ، سنة ١٨٨ هـ .

(ابن خلدون ٤ /١٣ ، الاستقصا ١ /٦٧ ـ٧١)

وكـيفَ يصـبـرُ مـن ضـمَّـتْ أضـالعُـهُ　　على وسـاوسِ هَـمٍّ غـيـرِ منقطِعِ
إذا الهــمــومُ توافَتْ بعـدَ هـدْأتِها　　عــادتْ عليـهِ بكأسٍ مرَّةِ الجَزَعِ

وترك إدريس عشرة بنين كان كلٌّ واحدٍ منهم يخالفُ الآخر وينازعهُ سلطانَهُ، وكان أجلهم القاسم، وفي القاسميين كان معظم الإمامة فيهم، وكان:

١٨ - القَاسِمُ بنُ إِدْرِيْس

القائم بعد أبيه، خُطب له ببلد سبتة وما يليه، وجرت بينه وبين عمال بني أمية حروب، وتساهم هو وإياهم غمرات كروب، وإليه ينسب الحوطيون شرفاء فاس، والكريون وبنو فنون جلة كومية، وأشهرهم في القديم جنون بن أبي العيش عيسى بن جنون بن محمد بن القاسم، صاحب بصرة المغرب[١]، وكان له خمسة وعشرون ذكرا، منهم الحسن الأعور، وادعى النبوة في بلاد البربر، وعظم أمره فيهم، وذكر ابن حيان وقائعه مع عسكر المستنصر الأموي[٢] حتى

---

(١) بصرة المغرب: البصرة بصرتان، العظمى بالعراق، وأخرى بالمغرب في أقصاه، قرب السوس، خربت، قال ابن حوقل: والبصرة مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالمنيع، ولها عيون خارجها، عليها بساتين يسيرة، وأهلها ينسبون إلى السلامة والخير والجمال وطول القامة، واعتدال الخلق، وبينها وبين المدينة المعروفة بالأقلام أقل من مرحلة، وبينها وبين مدينة يقال لها تُشُمُّس أقل من مرحلة أيضا، وبين فاس والبصرة أربعة أيام، والبصرة مدينة كبيرة، وهي أوسع تلك البلاد مرعى، وأكثرها ضرعا. (ياقوت: البصرة)

(٢) المستنصر الأموي: الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله، خليفة أموي أندلسي، ولد بقرطبة، وولي الخلافة بعد أبيه سنة ٣٥٠هـ، فطمع به ملك الإسبان (أردون بن الفونس) فتهيأ للإغارة على قرطبة، فسبقه المستنصر وغزا الإسبان بنفسه، فعاقدوه على السلم، واشترط دك حصونهم القريبة من ثغوره، وعاهدوه على أن لا يمالئوا عليه أحدا من ملوك المسيحيين الذين يدخلون معه في حرب، فقوي وكثرت فتوحاته، كان عالما بالدين ملما بالأدب والتاريخ يقرب العلماء له شعر، جمّاعة للكتب له مكتبة كبيرة نفيسة تضم أربع مائة ألف مجلد، وإليه قصد=

امتنع بحصن الكرم، وبويع المستنصر ثم آل الأمر إلى أنه وفد على المستنصر طائعا بقرطبة، واحتفل له المستنصر وتلقاه، وجلس له، وأنشدت الشعراء، ومنهم ابن شخيص، وقال :

[الطويل]

أمية قد عادت بنو حسن لكم كما كان فيما قد مضى حين سلموا

فعودوا عليهم بالذي قد تعودوا من الحلم والرحمى فذلك أكرم

قال : وكان معه جمعٌ من الحسنيين فيهم صبي لم يبلغ الحلم فلما رأى ما عوملوا به من الإكرام، بكى فقال له بعض أقاربه : ما يبكيك [ص٢٧] وأنت ترى هذه النعم ؟ فقال : النقم في عزنا حيث كنا، خير من هذه النعم في ذلنا لبني أمية، قال : وافترقت الأدارسة فرقتين، فالمحمديون من ولد محمد بن إدريس المثنى، مالوا إلى ابن عمهم المهدي عبيد الله بأفريقية، والعمريون من ولد عمر بن إدريس، مالوا إلى الناصر الأموي، وكتب إليه رئيسهم كتابا قال فيه : وقد أنعم الله علينا يا أمير المؤمنين بأن صرف همَّتكَ إلى ناحيتنا، ووكل عزمك بعَدْوَتِنا، ولقد كنا نتمنّى ذلك ونستبطئه منك إلى أن تمم الله عزمك، ويسرك إلى توفيقه، مما نرجو أن نرتقي فيه بك إلى أفضل المحطّ(١) وأشرف المنازل، وقال فيه : إن بلد البربر تغلّب عليه قوم ملكوا أنفسهم من زمن عمر بن عبد العزيز وجرت عادتهم بجحد السلاطين، ودفع الأئمة، إلى أن دخل إليهم جدنا إدريس بن عبد الله، هاربا من عبد الله الملقب المنصور، بعد أن قتل أخويه محمدا وإبراهيم، وشرَّد أهلهم ، فلما صار إليهم جدنا، واستجار بهم، أجاروه ورعوا

= أبو علي القالي وأهداه كتاب الأمالي، توفي مفلوجا بقرطبة سنة ٣٦٦ هـ .

ابن الأثير ٨/ ٢٢٤، ابن خلدون ٤/ ١٤٤، نفح الطيب ١/ ١٨٠ أزهار الرياض ٢/ ٢٨٦ ـ ٢٩٤، المغرب ١/ ١٨١، جذوة المقتبس ص ١٣)

(١) في الأصل : المحطط .

حقه، ووضعوا له ببلدهم فرضا من غير أن يضبطهم ضبطا بسلطان، وقد تناسلنا منه، وقمنا بعده، وسلكنا سبيله، فالبربر إلى اليوم على عادتهم الأولى، إن هممنا بتشديد السلطان عليهم هربوا عنا، ونفروا منا، واتخذوا الحصون علينا، فمرة نذهب إلى محاربتهم، وتارة نعدل إلى مداراتهم، ولا نطمع مع الأيام في ضبطهم وكف عاديتهم، ونحن مستبشرون بما خاطبنا به أمير المؤمنين، من أنه قد فرغت أسبابه من الأندلس، وأنه على عزم التوجه لرد ما كان لآبائه، ثم كتب في آخره :

[الطويل]

إليكَ أميرَ المؤمنينَ رفعناها ... رؤوساً ترومُ الأمنَ والمَنَّ والجاها
نفتنا بنو العباسِ عن شرقِ أرضها ... وآل حسين [قد] قَلَتْنا بقُرباها[1]
ولم يبقَ إلا أن تكسَّر أمسيَّةٌ ... بأحلامها لا أبعد اللهُ مثواها

ثم قدر الله أن كان خراب دولة بني أمية على أيدي هؤلاء الأدارسة[ص٢٨] العمريين، على ما هو مذكور في موضعه، وكان السبب أنْ ولي أحمد بن حمود سبتة[2] وقبائل العَدْوة[3]، فتلقفها تلقف الأكياس وقال :(وتلك الأيام نداولها بين الناس)[4]، لأمر أريد بظهور الدولة الحمودية، وأولها :

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها الوزن ، قلتنا : أبغضتنا .

(٢) سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، ومرساها أجود مرسى على البحر ، وهي على بر البربر ، تقابل جزيرة الأندلس، على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة ، وهي مدينة حصينة تشبه المهدية التي بأفريقية ، على ما قيل ، لأنها ضاربة في البحر ، داخلة دخول كف على زند ، وبينها وبين فاس عشرة أيام . (ياقوت : سبتة)

(٣) العدوة : المكان المرتفع ، وشاطيء الوادي وجانبه ، وفي التنزيل العزيز : (إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى) (الأنفال ٤٢) .

(٤) آل عمران ١٤٠ .

١٩ - دَوْلَةُ النَّاصِرِ عَليٍّ بن حَمُّـودْ[١]

ابن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقال الشريف أبو العباس أحمد بن الحسن الحسني الغرناطي : هو علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن أبي العيش بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي الطالبي الفاطمي الإدريسي السرغيني، وهو الصحيح وميمون بن حمود هو ثا[ئر] سرغين، وأمه البيضاء القرشية، واسمها حيونة بنت عم أبيه، ولد سنة أربع وخمسين وثلاث مائة، كان هو وأخوه القاسم من جند سليمان بن الحكم، فنهضا عليه فقتلاه في المحرم سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة، وانقطعت الدولة الأموية بالأندلس بمقتله، وخلا وشيجها من منبت أسله[٢]، وبويع له يوم تغلبه بالبرابر على قرطبة وذلك في يوم الجمعة الحادي والعشرين من المحرم سنة سبع وأربع مائة، وقولنا الأول عن صاحب بلغة الظرفاء[٣]، والثاني عن الغرناطي، قال : وتسمى بالناصر،

(١) الناصر لدين الله : علي بن حمود بن ميمون بن أحمد الإدريسي الحسني العلوي ، أول ملوك الدولة الحسنية الحمودية بقرطبة ، كان في منشئه من جملة أجناد سليمان بن الحكم الأموي ، وولاه سليمان مدينتي سبتة وطنجة سنة ٤٠٣ هـ ، فكاتب العصاة من أهل البادية ، فبايعوه بالخلافة ، فزحف بهم إلى قرطبة ، فدخلها عنوة بعد قتال ، وقبض على سليمان بن الحكم ، وأبيه الحكم بن سليمان الناصر ، فقتلهما في يوم واحد(٢١ محرم سنة ٤٠٧هـ) وتلقب الناصر لدين الله ، واستتب له الأمر سنة وعشرة أشهر ، وخرج عليه الموالي الذين قاموا بنصرته ، فخلعوه، ودخل عليه بعض الصقالبة منهم ، وهو في الحمام فقتلوه سنة ٤٠٨ هـ .

(ابن الأثير ٢ / ٩٢ ، البيان المغرب ٣ /١١٣ ، ١١٩، الذخيرة ١ / ٧٨ ، جذوة المقتبس ص ٢١)

(٢) الوشيجة : عرق الشجرة ، والقرابة المشتبكة المتصلة . الأسل : الرماح والنبل ، وأصله : نبات ذو أغصان كثيرة شائكة الأطراف ، والأسلة : كل عود طويل لا عوج فيه، وطرف الشيء المستدق .

(٣) هو علي بن محمد بن أبي السرور الروحي ، وكتابه : بلغة الظرفاء في ذكر تواريخ الخلفاء ، طبع بمصر سنة ١٣٢٧هـ

وتوفي قتيلاً في حمام القصر بقرطبة صبيحة يوم الأحد ثاني ذي القعدة سنة ثمان وأربع مائة، وهو ابن تسع وأربعين سنة، وكانت مدته سنة وأحد عشر شهراً، غير أيام، وكان أسمر أعين تلفاعة(١)، لا ينظر شيئا بعينه إلا أسرعت الآفة إليه، انتهى كلامه .

قلت : وكان غشوما ظلوما سفاكا للدماء، نهّابا للأموال، منتهكا للحرمات، فاشتد على أهل قرطبة [ص ٢٩] البلاء، فلزموا البيوت، وتغيبوا في المطامير(٢)، وتعلقوا بذوائب الجبال، إلا اليسير، وانبسطت أيدي البربر على الخلق، واتسع الخرق، فأغلقت الحوانيت، وانقطعت الطرق والسباريت(٣)، حتى وثب عليه الصقالبة في الحمام، فعجلوا له الحِمام، فقتله الله بأضعف خلقه، في وسط داره، بأقرب فتيانه، من غير روية ولا تدبير، إلا ما ألقى الله في نفوسهم، واجتمع في قتله ثلاثة مُرْد من المقربين إليه، كان قد عشق أحدهم وراوده عن نفسه، فامتنع ورد عن نفسه ودفع، فأبى إلا أن يعتلجه(٤)، وذاك إلا أن يجزيه أجر ما صنع، فتقدم واحد منهم اسمه منجح، فضربه على دماغه بكوب نحاس، فصرعه، وابتدره الاثنان : لبيب وعجيب، فوجأوه بخناجرهم وقطعوه فباد الزاجرهم(٥)، وكف الله عاديته، وصرف رائحته وغاديته، وذلك يوم الأحد غرة ذي القعدة سنة ثمان وأربع مائة، وفرَّ قتلته ونجوا، وقيل قُتلوا، وقد ذكر ابن بسام، أن المستعين الأموي(٦) لما تمالأ عليه بنو عمه، وأمل علي بن حمود

---

(١) الأعين الحسن العين ، والواسع العين ،وكنى بها هنا عن الحسد ، والتلفاعة : المشتمل على الشيء والملتف به ، كناية عن احتياز الشيء وأخذ مال الآخرين .

(٢) المطامير : المخابىء والكهوف ، والمطمورة : السجن .

(٣) السباريت : القفار، جمع سبروت ، يقال : أرض سبروت ، خالية قفر .

(٤) يعتلجه : يشتد عليه ويصرعه .

(٥) في الأصل : كباد الزاجرهم ، ولم أجد لها وجها .

(٥) المستعين الأموي : سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموي، أبو أيوب، من=

ليستجيش به، وجعل له العهد بعده، ثم قال : وولاه طلب دخله هيج الحفائظ القرشية، وحرك الطوائل الطالبية فرماهم يمنى بنى عمه من هذا على ثالثة الأثافي، طوى كشحه منها على مستكنّة[1] أرجأها لوقتها، قلت : فهذا كان سبب ثورته واستشاطه غضب سورته، وبقي تلك المدة، ثم قام أخوه :

٢٠ - المَأْمُونْ[2]

أبو محمد القاسم، وبويع بعد أخيه، وما[3] أقدره العجز عن شد

= ملوك الدولة الأموية في الأندلس، بويع بعد مقتل عمه هشام بن سليمان سنة ٣٩٩ هـ ، وتلقب بالمستعين بالله ، ودخل قرطبة سنة ٤٠٠هـ ، حارب المؤيد بن الحكم فامتلك الزهراء وسرقسطة وقرطبة ، وكان في جملة جنوده القاسم وعلي ابنا حمود ، فولى القاسم الجزيرة الخضراء ، وولى عليا طنجة وسبتة، فلم يلبث علي أن استقل وزحف إلى مالقة فتملكها ، ثم إلى قرطبة فدخلها وقتل المستعين بيده، وبمقتله انقطع ذكر بني أمية على منابر الأندلس مدة سبع سنين ، وكان أديبا شاعرا قتل سنة ٤٠٧ هـ.

(البيان المغرب ٣ / ٩١ ، فوات الوفيات ١ / ١٧٥ ، المعجب ص ٤٢ ـ ٤٥ ، الذخيرة ١ / ٢٤ ، جذوة المقتبس ص ١٩

(١) المستكنة : الحقد ، والعبارة اقتباس من بيت زهير بن أبي سلمى :

وكان طوى كشحا على مستكنة   فلا هو أبداها ولم يتجمجم

(اللسان : كنن ، وديوان زهير ص ٢٢ برواية : ولم يتقدم)

(٢) المأمون : القاسم بن حمود بن ميمون الإدريسي الحسني ، ثاني ملوك الدولة الحمودية بقرطبة ، ولاه سليمان بن الحكم الأموي على الجزيرة الخضراء ، وثار أخوه (علي بن حمود) على سليمان فملك الأندلس، وبويع بالخلافة ، فأقام القاسم إلى أن توفي علي سنة ٤٠٨ هـ ، فولي الخلافة بعده، واستقر بقرطبة وحسنت سيرته وأمن الناس في أيامه ، ثم انتفض عليه ابن أخيه (يحيى بن علي) بمالقة سنة ٤١٢هـ ، فخرج من قرطبة بلا قتال ، وأقام باشبيلية مدة جمع بها شتاته واستمال طوائف من البربر ، وهاجم بهم قرطبة ، فدخلها سنة ٤١٣هـ ،ولم ينتظم له الأمر ، فخرج إلى شريش ، فقبض عليه يحيى وسجنه بمالقة ، إلى أن مات خنقاً سنة ٤٣١هـ .

(ابن الأثير ٩ / ٩٤، الذخيرة ١ / ١٢، البيان المغرب ٣ / ١٢٤، ١٣٣, ١٩٠، جذوة المقتبس ص٢٢)

(٣) في الأصل : ومكا ، من سهو الناسخ .

أواخيه[١]، قال الغرناطي : وأمه أم أخيه البيضاء، وكان أسمر أعين أكحل مصفرّ الوجه، خفيف العارضين، قلت : وكان سيفا مخذما وصلا أرقما، ونسرا قشعما، مشمرا عن ساق، مشددا بعزائم لا يحل عليها نطاق، وكان وقورا حسن السمت، محسن التكلم والصمت، حنكته التجارب، وحركته لبلوغ المآرب، وتسويغ للشارب، [ص ٣٠] كان بأشبيلية، فأُرسل إليه بعد مقتل أخيه، فجاء فعقدوا له البيعة يوم الثلاثاء، ثاني عشر ذي القعدة سنة ثمان وأربع مائة، فأقام ثلاث سنين وأربعة أشهر وعشرين يوما، ثم خلعه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود وكان سبب خلعه أن يحيى بن علي، كان ولي عهد أبيه، وكان أبوه قد ولاه المغرب، فلما مات أبوه بقرطبة، دعا البربر أخاه القاسم بن حمود، وأدخلوه إلى القصر وبايعوه، فأنف ولي العهد يحيى من ذلك وتظافر هو وأخوه إدريس واتفقا على أن يعبر يحيى إلى الأندلس، طالبا لحقه راغبا في التلطف له بحذقه، فعبر البحر إلى أشبيلية سنة أربع عشرة [٢] وأربع مائة، ثم سار إلى قرطبة ففرَّ منها القاسم والمأمون، ودخل يحيى قرطبة، وبويع له بعهد أبيه، وخطب له بها، ثم اضطرب عليه البربر، ففر من قرطبة إلى مالقة، ورجع عمه القاسم إلى قرطبة وجُدِّدتْ له البيعة، ثم رجع يحيى ففرَّ أمامه القاسم من قرطبة إلى أشبيلية، فأقام بها إلى [أن] أخرجه منها أبو القاسم محمد بن عباد إلى شريش فملكها، فأتاه يحيى وحاصره، وظفر به وسجنه بها وتخلص الأمر ليحيى .

٢١ - ذِكْرُ دَوْلَةِ المُعْتَلِيّ أبي إسْحَاق يَحْيَىٰ بن عَلِيّ بن حَمُّوْد[٣]

وقيل يكنى بأبي محمد، وأمه لبونة بنت محمد بن الحسن بن فنون

(١) الأواخي : جمع الآخية ، عروة تثبت في أرض أوحائط وتربط فيها الدابة ، كناية هنا عن التمكن.

(٢) في الأصل : أربعة عشرة ، وهو لحن .

(٣) يحيى بن علي بن حمود العلوي الحسني : من ملوك الدولة الحمودية ، ممن صار إليهم ملك=

الفاطمية، ولدته بقرطبة سنة ست وثمانين وثلاث مائة، وبويع له بقرطبة بعد عمه القاسم يوم السبت الثامن من ربيع الآخر سنة أربع عشرة وأربع مائة، وكانت مدته سنة وسبعة أشهر، ثم بويع عمه القاسم، كما تقدم ذكره، ثم رجع إليه يحيى وبويع، واستوسق[1] له [ص ٣١] الأمر، واستوثق له عهد البيعة وأمر بعز قاهر، وعزم تتخازر له طرف الرق الشاهر، وبأس لو صك به الماء للفح، أو حيا الصخر بأمر منه لجرح، ثم قُتل عند قرمونة وتُرك فأكله السباع، وشبعت بطون ليست بجياع .

قال الغرناطي : كان سمينا معكن البطن بارز الثديين صابي البياض، خيرا من مخدرة، وعادت دولة بني أمية إلى قرطبة، وفاضت في الأندلس، وسيأتي ذكر هذا في ذكر أوائل القروم الشُّمْس .

= الأندلس بعد الأمويين، نشأ في دولة أبيه بقرطبة ، وتوفي أبوه سنة ٤٠٨ هـ، فبايع الناس لعمه القاسم بن حمود ، فأقام يحيى بمالقة يتربص الفرص ، فبلغه سنة ٤١٢هـ أن عمه سار إلى أشبيلية، فخالفه يحيى في الطريق ، ودخل قرطبة ، فدعا الناس إليه فبايعوه ، وتلقب بالمعتلي بالله ، وعاد القاسم فاحتل قرطبة سنة ٤١٣ هـ ، وخرج يحيى إلى مالقة ومنها إلى الجزيرة الخضراء، فغلب عليها ، وحدثت أمور انتهت بعودة الملك إليه بمالقة، وضم إليها قرطبة ، ثم أخذت منه قرطبة ، ولم ترجع بعد ذلك لأحد من بني حمود، وانحصر ملكه بمالقة وشريش والمرية وسبتة، وأقام في قرمونة طامعا في أخذ أشبيلية ، فجهز القاضي محمد بن إسماعيل (ابن (عباد) جيشا خرج من أشبيلية ، وفاجأ أسوار قرمونة ليلا ، ونهض يحيى بن علي على غير أهبة ، قيل وهو سكران فاندفع إلى خارج السور في نحو ثلاث مائة من فريسانه، فنشبت المعركة وكان المهاجمون قد أعدوا كمينا قرب السور ، فأحاطوا بيحيى وقتلوه واحتزوا رأسه وأرسلوه إلى ابن عباد في أشبيلية ، وكان آل عباد يحفظون رؤوس العظماء من قتلى أعدائهم ، فلما ذهبت دولتهم أخرجت تلك الرؤوس ، وفيها رأس يحيى بن حمود غير متغير ، فأخذه بعض أحفاده ودفنوه سنة ٤٢٧ هـ . (ابن الأثير ٩ / ٩٤ ـ ٩٥ ، الذخيرة ١ / ٢٧١ـ ٢٧٢ ، ٣٦٣ ، البيان المغرب ٣ / ١٣١، ١٤٤ ، ١٨٨ ، جذوة المقتبس ص ٢٣ ، المعجب ص ٥٠ ـ ٥٤).

(١) استوسق له الأمر : انتظم واجتمع ، وتمكن منه .

٢٢ - ذِكْرُ دَوْلَةِ المُتَأيِّـدِ أبي العُلَىٰ(١)

إدريس بن علي بن حمود، وكان أبوه قد ولاه سبتة وأعمالها، فلما مات أخوه المعتلي، ثار بسببه ودعا إلى نفسه على بغتة، وأخذ الناس بالبيعة، فأخذتهم بهتة، وأعطوه أيمانهم البتة، وعبر البحر إلى مالقة، فاجتمع عليه أهلها، وبايعوه وعقدوا له ولاء هم، وتابعوه وخُطِب له، وخوطب بالخلافة، وتسمى بالمتأيِّد وبايعه أهل المرية ورندة والجزيرة الخضراء، وكان شهما سريا، سهما يفري فريا، كريما معطاء عظيما، يوسع الناس عطاء، حسن الرأي والسيرة بالرعية، وقافا مع الأحكام الشرعية، ولم يزل على أحسن أحواله مستقلا، ولطود ما حمل مقلا، إلى أن مات في السادس عشر من المحرم سنة إحدى وثلاثين وأربع مائة، وجُعِلَ في تابوت وحُمِل إلى سبتة، فدفن بها، وغُيِّبَ كوكبُه الدري في تربها، وكانت مدته أربع سنين وشهرا وأياما .

٢٣ - ذِكْرُ دَوْلَةِ القَائِمِ أبي زَكَرِيَّاء(٢)

يحيى بن إدريس بن علي بن حمود، بويع له بالخلافة في اليوم الذي

---

(١) المتأيِّد بالله : إدريس بن علي بن حمود الحسني الإدريسي ، رابع خلفاء الدولة الحمودية في الأندلس، بويع بمالقة بعد مقتل أخيه المعتلي بالله (يحيى بن علي) سنة ٤٢٧هـ ، وأقام إلى أن توفي بها ، ودفن في سبتة سنة ٤٣١ هـ .

(البيان المغرب ٣ / ٢٨٩، الذهبي ـ سير أعلام النبلاء ، الطبقة ٢٢)

(٢) القائم الحمودي : يحيى بن إدريس بن علي بن حمود ، أبو زكريا الملقب بالقائم ، من خلفاء الدولة الحمودية في الأندلس، بويع بعد وفاة أبيه سنة ٤٣١هـ بمالقة ، وخُطِب له فيها ، وفي أكثر أعمال أبيه ، وكان ضعيف الرأي سيء الحال ، فثار عليه ابن عمه (حسن بن علي) فخلع نفسه، وسلَّم إليه الخلافة سنة ٤٣٢ هـ ، ومدته أربعة أشهر إلا أياما ، وأقام بمالقة إلى أن توفي ، وقال ابن حزم : قتله ابن عمه حسن بن يحيى سنة ٤٣٤ هـ .

(البيان المغرب ٣ / ١٨٩ ، جمهرة الأنساب ص ٤٥ ، الجداول المرضية ص ١٩٥)

مات[ص ٣٢] فيه أبوه المتأيِّد، وكان غير مسدد، ولا مشدد، خفيف الحصاة مخوف النادرة، ولا يضع سيفه ولا عصاه، طائش الثبات في حركاته، طائر الأناة في شكاته، تقدم بتقديم وزير أبيه وكاتبه أبي جعفر بن أبي موسى، يوم الاثنين سادس عشر المحرم سنة إحدى وثلاثين وأربع مائة، وتمَّت له البيعة، وخُطِب له بمالقة وأعمالها، وسائر أعمال أبيه، وكان رأيه لا تعلو به قوادم، ولا يقرع سن نادم، فنازعه عمه الحسن، فحاصره حصارا ضيَّق عليه مهب أنفاس الهواء، وضيَّع صبره في طول الثواء، فطلب منه الصلح على أنه ينخلع ويبايعه، ويسلم له منبر الخلافة ولا ينازعه، وذلك في جمادى الأولى[١] من السنة المذكورة، وكانت مدة القائم أربعة أشهر إلا أياما، ثم بقي يحيى بن إدريس خاملا لا يُرفع له رأس، ولا يجتمع عليه ناس، إلى أن توفي في ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وأربع مائة .

٢٤ - ذِكْرُ دَوْلَةِ المُسْتَنْصِرِ أبي مُحَمَّدٍ[٢]

الحسن بن يحيى المعتلي بن الناصر علي بن حمود، صاحب سبتة، لما وصله التابوت بأخيه إدريس دفنه من ساعته، وأخذ على البيعة أيدي جماعته، ثم ركب البحر في يومه إلى مالقة، فملكها وضبطها بعد ما انخلع له ابن أخيه يحيى القائم، واستوزر كاتب أخيه أبي جعفر [بن] أبي موسى بن بقية

---

(١) في الأصل : جمادى الأول .

(٢) المستنصر الحمودي : الحسن بن يحيى بن علي بن حمود ، من خلفاء دولة بني حمود في الأندلس، كانت إقامته في سبتة ، أميراً عليها من قبل عمه إدريس بن علي، ولما مات عمه (بمالقة) بويع بسبتة سنة ٤٣١ هـ ، ورحل إلى مالقة فحاصر ابن عمه (يحيى بن إدريس) فخلع هذا نفسه ، فجدّدت بيعة الحسن ، وتلقب بالمستنصر ، وجاءته بيعة غرناطة، وجملة من بلاد الأندلس، واستمر إلى أن توفي ، وقيل مات مسموما سنة ٤٣٤هـ .

(البيان المغرب ٣/١٩٢، ٢١٦ ، ٢٩٠ ، الجداول المرضية ص ١٩٥)

[وكانت ضغينة] على أخيه[١] في صدره منه يجدها، ومحنة تقدمت له به لا يجحدها، فإنه كان هو المقدم لابن أخيه، فأسرَّها له في نفسه ضغينة حقدها، ونيَّة أقبرها له في باطنه وألحدها، وطاوله بها إلى السنة الثالثة، ثم قتله، وأنزل به الحادثة، وكان ذلك في يوم عيد الفطر سنة ثلاث وثلاثين وأربع مائة [ص ٣٣] فأشام عيده، وشام من بارق المهند وعيده، بعد أن استخرج منه أموالا بسط عليه في المطالبة فيها أنواع العذاب المهين، وأبرز له فيها كوامن الداء الدفين، ثم بايعه أهل غرناطة، وبلاد أخرى من الأندلس، وانقادت له بطاعة قلوبها، وعقد نياتها التي بين جنوبها، فثبَّت المملكة وشد أواصرها، ورفع قصورها ومقاصرها، ورد كيد عدوها في نحره، وأغرق راكب ثبج العزاء[٢] في نحره، وعدل في أحوال الرعية، وجبى الأموال وقسمها بالسوية، ثم توفي في جمادى الأولى[٣] سنة أربع وثلاثين وأربع مائة، وكانت مدتها أربع سنين كأنها يوم واحد، لأسف الناس على قصر مدتها وطيبها، وأوقاتها التي كأنما غربت شمس النهار بغروبها، ولم يترك من ورثته إلا ولدا صغيرا[٤]، فاعتقله نجا الصقلبي، وغلب على مالقة وأعمالها، واستبد بتدبير المملكة، إلى أن شُحِط بها قتيلا في دمه، ووضع رأسه الشامخ تحت مواطىء قدمه .

حُكي أن بعض ندماء المستنصر حضر إليه، واليوم قد طَرَّ بالليل شارته، والأصيل قد كرع في الراح شاربه، والشمس قد اعتلت وما بها سقم لشلوه، والنهار قد قارب وحضر عود النجوم ليبكوه، فدام عنده في جنة تنعم في وطوفها، ومنة تكرم بصنوفها، حتى أقبل الليل ثم ذهب، وأطوله كاللمح

(١) نقص في الأصل ، و ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق

(٢) ثبج الشيء : وسطه إذا تجمع وبرز ، والعزاء : الأرض الصلبة .

(٣) في الأصل : جمادى الأول .

(٤) في الأصل : إلا أخا صغيرا إلا ولدا، ولعلها : إلا ولدا صغيرا .

بالبصر، وأبعده قمر نشر بين العشاء والسحر، فما كان بأسرع من أن أصبح، وطرحت العين لحظها كل مطرح، فلما أراد المقام، دعا بالصبوح فسقاه، وفدَّاه بأبويه ووقَّاه، فقال : دامت لك الدنيا ودمت لأهلها، ثم أُرْتِجَ عليه فقال المستنصر : حتى تجود لهم بما تحويه، فقام النديم ثم قال : ماذا أقول وهذه نية صدق ظهرت، وبارقة بر ستكون لما بعدها [ص ٣٤] فقال له حسبك، لقد أبلغت، ثم أمر له بألف دينار، وحمله على بغلة من مراكيبه، وصرفه مكرما إلى منزله، مكررا له فضل تطوله .

٢٥ - ذِكْرُ دَوْلَةِ أخيْـهِ العَـالِي[١]

أبي العلى إدريس بن يحيى بن علي بن حمود، وهو الذي سجنه نجا الصقلبي، وغصبه من أصل جده النبي، ونسبه الأبوي مشتق من فعله الأبي، ومحتده الأصيل، يعرف بعطائه الذهبي، وكرمه العلوي ينطق به لسان قراه اللهبي، وأنه يصحح طرف النجم السقيم، ورايته تدمر كل شيء أتت عليه كالريح العقيم، برقه لا يخلف وعدا ولا وعيدا، وأفقه يمطر تارة فضة وذهبا، وتارة حجارة وحديدا، وبويع في اليوم الذي قتل فيه السطيفي وذلك أن نجا لما اعتقل هذا العالي، واستبد بالأمر، خرج من مالقة في جنوده، واستخلف عليها رجلا من خاصته يعرف بالسطيفي، وقصد الجزيرة الخضراء ليقبض على محمد والحسن ابني القاسم بن حمود ولم يظفر بهما، فرجع إلى مالقة خائبا وقد حان حَيْنُه أن يزور ثرى الأرض دفينه، فاغتاله ليلا في خبائه بعض عبيد القاسم بن

(١) السامي الحمودي : إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حمود ، من ملوك الحموديين في مالقة وسبتة بالأندلس، ولي بمالقة بعد وفاة عمه محمد بن إدريس ، ولقب بالسامي بالله ، ثم لم يلبث أن أخمل نفسه وخرج كأنه تاجر ، فقُبِض عليه في ريف غمارة ، وسيق إلى سبتة فقتل فيها سنة ٤٤٨هـ .

(البيان المغرب ٣ /٢١٨، الإحاطة ١ /٢٦٩ ، جمهرة الأنساب ٥١)

حمود، فقتله واحتز رأسه، ورفعه على عود وأطيف به في تلك البلاد كأنه هدي تزف، لا يمل بالتشفي رؤيته طرف، ثم أدخل مالقة فثارت العامة على السطيفي فقتلوه، ونُصبت رؤوسهما وعلقت، وركبا على خشبتين، وركبا منهما مطيتين بوارك لا تسير بهما، ولا تدني نوى مغتربهما، إلا أنهما من جذوع الرواحل، لا تطوى بها المراحل، أو قواعد وعمد، إلا أنها ليست ممدودة كأنهما عليها خُشُبٌ مسندة، قيدت لهما من مرابط النجار [م٣٥]، ونيطت بهما لما يجمع بينها وبينهما من قُرب النِّجار، وأُخرج إدريس العالي من السجن، وبويع يوم الخميس سادس إحدى شهري جمادى سنة أربع وثلاثين وأربع مائة، ثم بويع بغرناطة قرمونة وما بينهما من البلاد، أنارت بالعدل مشارق زمانه، وأنالت من الفضل بوارق إحسانه، ثم أمطرتهم ديمة دراكا، وأرتهم غُرَّ الثنايا، فما استسقوا بشاما ولا أراكا(١) .

قال الشريف الغرناطي : وكان عدلا خَيِّرا، لم يزل على أحسن الأحوال، إلى أن ثار عليه ابن عمه محمد المهدي، فجرت بينهما حروب، كان الظهور فيها لابن عمه، فانخلع له، فسلم له الأمر، وذلك في رجب سنة ثمان وثلاثين وأربع مائة، وكانت مدته ثلاث سنين وستة أشهر، ومات بعد ذلك بيسير .

٢٦ - ذِكْرُ دَوْلَةِ المَهْدِيِّ(٢)

أبي عبد الله محمد بن إدريس المتأيِّد، بويع له بمالقة يوم خلع ابن أخيه

(١) البشام : شجر طيب الريح والطعم يستاك به ، والأراك : شجر المسواك ، واحدته أراكة نبات كثير الفروع خوَّار العود له ثمار حمر دكناء تؤكل ، ينبت في البلاد الحارة .

(٢) المهدي الحمودي : محمد بن إدريس بن علي بن حمود الحسني أبو عبد الله ، من ملوك الدولة الحمودية بمالقة وسبتة ، ثار بمالقة على ابن عمه إدريس بن يحيى وخلعه سنة ٤٣٨هـ ، وتولى الأمر ، وتلقب بالمهدي ، وخطب له الحجاب ، وكان سفاكا للدماء مع حزم وتدبير ونبل ، واستمر إلى أن مات بمالقة ، وقيل من أثر سمّ سنة ٤٤٤ هـ =

العالي، وكان نبيه المعالي، وكانت بيعته في رجب سنة ثمان وثلاثين وأربع مائة، فتمت له الأمور، وتابعته البلاد فضبطها وكف عن أطرافها جور العدى وشططها، وأحسن تدبيرها، وكان سنوسيا نبيلا، رئيسا جليلا، فطنا بالصواب، لا يخطىء مواقعه، ولا يخلي من صفو المناهل مشارعه، أذكى قلبا من السراج، وأشف بصرا من الزجاج، محصنا للمُلْكِ، مسكنا للفتن، مؤثرا للخير، مثمرا للجاني [أي مصلحا له] معمرا للنواحي، مصلحا لأمور الجند، منجحا لمقاصد الأمل، كانت أيامه هادئة مطمئنة، لا تنجم في دولته فتنة، ولم يزل كذلك إلى أن مات بمالقة، سنة أربع وأربعين وأربع مائة، وكانت مدته ست سنين وستة أشهر، وكلها محمودة ممدوحة ممنونة ممنوحة، كأنها أعياد، أو في جفون الزمن الوسنان رقاد، ينهل نداها سلكبا، ويجل قدر [ص ٣٦] دولتها فلا يمر بها السحاب إلا راحلا لا راكنا .

٢٧ - ذِكْرُ دَوْلَةِ المُوَفَّقِ

أبي علي إدريس بن علي بن إدريس بن علي بن حمود بن أخي المهدي، وكان ندي الندى، يفوت كربة كل سخي، وعيش زمانه كل رخي، وعزم ضاربه كل نخي، لا يتأخر جوابه عن المصطرخ، ولا تأفل أهلةُ شهوره الحسان ولا تنتسخ، إلا أنَّ الأقدارَ لم تسعده بمطلعها، ولم تبعده من اجتذاب منازعتها، بويع سنة أربع وأربعين وأربع مائة، ولم يخطب له خطيب، ولا هتف باسمه داعٍ في بعيد ولا قريب، وبقي أشهراً كان زمانه فيها بالطاعة والعصيان مستمراً، ثم ثار عليه إدريس العالي بن يحيى بن علي بن حمود المخلوع المقدم ذكره، فخلعه وقسره عليه كالليث القسورة وما خدعه، وانتزع الملك، ثم عادت دولة العالي، وما بقيت إلا أياما وليالي، ثم أتاه الموت، وأجاب الصوت، فترك منبره، ونزل المقبرة . ثم كانت :

٢٨ - دَوْلَةُ المُسْتَعْلِي(١)

أبي عبد الله محمد بن إدريس المتأيد بن الناصر علي بن حمود، وكان ممن يسود ولا يسود، يتساقط ضعفا، ويتقدم خلفا، بويع سنة ست وأربعين وأربع مائة، وخُطِب له بمالقة ومرية وزبدة وغيرها من البلاد، فتمهَّد له الأمر وما كاد، وأراد التشبه بسيرة أبيه فما أطاق، ولا قدر أن يفتح بها فماً، ولا يشد له بها نطاق، وضيق عليه باديس بن حيوس الصنهاجي صاحب غرناطة، فقهره وخلعه، وابتزه ملكه وما جمعه، وذلك في سنة تسع وأربعين وأربع مائة، وكانت مدته سنة واحدة، تُنَبِّه عيونها وهي راقدة، ثم سار إلى المرية، قال [ص٣٧] الغرناطي : فأقام سنة أذلَّ من سائل، وأحقر من جاهل، فاستدعاه أهل مليلة ليملكوه، فعبر البحرفبايعوه في شوال سنة تسع وخمسين، ثم بايعه بنو ورتيدي وقلوع حاره ونواحيها، وأقام بها مملكاً إلى آخر سنة ستين، ومات، وكانت مدته بها سنتين وثلاثة أشهر، وانقرضت دولتهم، وفني ملكهم، فسبحان من لا يفنى ملكه، بيده أخذ كل شيء وتركه .

٢٩ - ذِكْرُ دَوْلَةِ المَهْدي مُحَمَّدِ بن تُومَرْت(٢)

ويكنى بأبي عبد الله، وهو المدعو له على منابر الغرب وبإفريقية خاصة إلى

= (البيان المغرب ٣/ ٢٩٢،٢١٧ ، المعجب ص ٦٦ ـ ٦٨)

(١) المستعلي الحمودي : حمد بن إدريس بن يحيى بن علي ، آخر ملوك الدولة الحمودية أيام ملوك الطوائف بالأندلس، بويع بعد وفاة أبيه سنة ٤٤٦هـ وتلقب بالمستعلي بالله ، وكانت إقامته بمالقة ، وخلع بمحمد بن القاسم بن حمود سنة ٤٤٩ هـ وظل فيه إلى أن تغلب عليها إدريس بن حيوس في السنة نفسها ، فأخرج المستعلي منها إلى المرية ، ثم استدعاه أهل مليلة إليهم وبايعوه سنة ٤٥٦هـ وأقام فيها إلى أن مات سنة ٤٦٠ هـ ، وبه على الأرجح ختم عهد الحموديين في الأندلس .
(البيان المغرب ٣/ ٢١٨ ، نفح الطيب ١/ ٢٠٦)

(٢) المهدي بن تومرت : محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي البربري ، أبو عبد الله الملقب=

الآن، تقول الخطباء : الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، وقال لي الإمام أبو عبد الله محمد بن الصايغ القرشي : إنه ربما دعي له إلى اليوم على منابر الأندلس، ولكن لا يزاد على قول المهدي المعلوم، وهو حسني من ولد الحسن بن علي عليهما السلام، ومن الكنوز : أنه إدريسي، قال مؤلفه : هو من بني إدريس بن إدريس، وقال : وبنو عبد الله بن إدريس بن إدريس في السوس، عدد وخلق، قلت : ولم أقف على نسبه الموصول، ولا عرفت فرعه اليانع من أي الأصول .

وكان ابن تومرت داهية لا يعد معاوية بن أبي سفيان تربه، ولا مثله المغيرة بن شعبة، يقصر عنه دهاء عمرو، وسميُّه ابن العاصي في آخر الأمر، أو قيس به زياد لما زاد، أو أبو جعفر المنصور لخاف على جعفره من مكاثرة الأمداد، وكانت

= بالمهدي ، ويقال له مهدي الموحدين ، صاحب دعوة السلطان عبد المؤمن بن علي ملك المغرب، وواضع أسس الدولة المؤمنية الكومية ، وهو من قبيلة (هَرْغة) من (المصامدة) من قبائل جبل السوس بالمغرب الأقصى ، وتنتسب هرغة إلى الحسن بن علي ، رحل إلى المشرق طالبا للعلم فانتهى إلى العراق ، وحج وأقام بمكة زمنا ، واشتهر بالورع والشدة في النهي عما يخالف الشرع ، فتعصب عليه جماعة بمكة ، فخرج منها إلى مصر ، فطردته حكومتها ، فعاد إلى المغرب ونزل بالمهدية ، فكسر ما رآه فيها من آلات اللهو وأواني الخمر ، وانتقل إلى بجاية ، فلقي بها عبد المؤمن بن علي القيسي (الكومي) وكان شابا نبيلا فطنا ، فاتفق معه على الدعوة إليه ، واتخذ أنصارا رحل بهم إلى مراكش ، وعبد المؤمن معه ، فحضر مجلس علي بن يوسف بن تاشفين ، وكان ملكا حليما ، فانكر عليه ابن تومرت بدعا ومنكرات ، ثم خرج من حضرته ونزل بموضع حصين من جبال تينملّل ، فجعل يعظ سكانه حتى أقبلوا عليه ، فحرضهم على عصيان ابن تاشفين ، فقتلوا جنودا له وتحصنوا ، وقوي بهم أمر ابن تومرت وتلقب بالمهدي القائم بأمر الله ، وعاجلته المنية في جبل تينملل قبل أن يفتح مراكش ، ولكنه قرر القواعد ومهدها ، فكانت الفتوحات بعد ذلك على يد صاحبه عبد المؤمن ، كان ابن تومرت أديبا فصيحا ، له مؤلفات ، توفي سنة ٥٢٤ هـ .

(ابن خلكان ٢ /٣٧، الاستقصا ١ /١٩٩، ابن خلدون ٦ / ٢٢٥، جذوة الاقتباس ص ١٣٨، ابن الأثير ١٠ /١٠ ـ ٢٠٥)

همَّتُه لا تحدثه بما دون النجم، وعزمته لا يلين عودها بالعجم، أبصر بمقاصده [من] زرقاء اليمامة، وأجدى على مؤمِّله من أنواء الغمامة، وكان قد ساح في الأرض ورأى دنسها، وشمَّر ذيله لما عرف نجسها، فأورد [ص ٣٨] خيله المجرَّة(١)، وصعد أبنية البروج المشمخرَّة، ونازع النجوم في رتبها، ونصل سها(٢) بشهبها، وافترس الأسد بالأسد، واقتبس جمرة المريخ في سنان ذابله وقد وقد، وكان قد قدم الصعيد في الدولة العبيدية، والرفض(٣) قد ملأ الملا واعتلى العلى، وعم الديار المصرية، حتى طبق مفاصلها وطرَّق بالبدعة الشنيعة مواصلها، فنزل بمسجد هناك، رأى مكتوبا عليه :(لعن الله الصحابة) رضوان الله عليهم، فنزله، وهو من الحق تغلي مراجله، وود لو قد يساور كاتبه ويعاجله، فكتب عليه :

[**البسيط**]

إني وفي النفسِ أشياءٌ مخبَّأةٌ | لألبسَنَّ لها درعا وجلبابا
حتى أطهِّرَ هذا الدين من نَجَسٍ | وأوجِبُ الحَقَّ للساداتِ إيجابا
واللهِ لو ظفرتْ كَفِّي ببغيتِها | ما كنتُ عن ضربِ أعناقِ الورى آبى

ثم قام وهو لا يتهدَّى ولا يعرف أي بحر يجاوره ويتعدَّى، ثم أتى مكة وشهد الموسم بمنى، وشاهد من فيه الغناء لا الغِنى، واتخذ لعبة من الزجاج المذهب ووضعها على جمرة العقبة(٤)، وقعد أيامها وعينه مرتقبة، وبقي كلَّ ما

(١) المجرة : مجموعة كبيرة من النجوم تركزت حتى تراءت من الأرض كوشاح أبيض يعترض السماء .

(٢) السها : كوكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى أو الصغرى ، وفي المثل : (أريها السها وتريني القمر) . والأسد والمريخ : من أسماء البروج .

(٣) الرفض : من الرافضة فرقة من الشيعة تجيز الطعن في الصحابة ، والرافضي : من يذهب مذهب الرافضة .

(٤) جمرة العقبة : الجمرة الحصاة التي ترمى، والعقبة هي التي بويع بها النبي صلى الله عليه وسلم=

مرَّ به مارٌّ قال له : هذه صورة فاكسرها، فلا يجيبه، ويقول : لعل لهذه صاحبا إذا كسرتها طالبني بثمنها، إلى أن مرَّ به مغربي من أهل الجبل الذي آوى إليه، فلما قال له ما تأ بّى أن كسرها وما تأ تّى، فقال ابن تومرت : هؤلاء أريد لسرعة تلقيهم لما يقال لهم بالقبول، وترك القائل لهم وما يقول، وقضيته معروفة لم يخلُ منها مجالسة جليس، ولا مؤانسة أنيس، ولا سمع مرؤوس ولا رئيس لما فيها من دقائق التلطف في المراد، والتوصل إلى ما في النفس والتهيؤ[١] للاستعداد، بهمة تقسر المآرب، وتعتذر على المطالب، وكان ابن تومرت واحد زمانه، وفريد عصره حتما وحزما وعزما وجزما وعلما [ص٣٩] وحلما وعدلا، لا يدع ظلما ولا جورا، إلا ما يسمى في عيون الغيد حورا، ويدعى في ريق الغواني ظَلما، مع الزهد والورع والقنع، ولو شاء لما اقتنع، والعفاف وما تلبس منه وادَّرع، وكان لا يمل صاحبه ولا يسأمه، ولو تركه مغيرا لوجه ساحبه .

قال مؤلف الكنوز : كان ربعة قصفا[٢]أسمر عظيم الهامة حديد النظر، كثير الإطراق سجَّاعا عالما، مقبلا على العبادة، لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصا وركوة[٣]، ومن الأشعار لابن العديم قال : لحق إلى المشرق ولقي الغزالي[٤] وأخذ معه فيما يرومه فصعَّبه عليه، وقال له : لو كان هذا أمرا ممكنا لما سبقت إليه، فلما خرج الغزالي رحمه الله لوداعه قال ابن تومرت فيه :

= بمكة ، فهي عقبة بين منى ومكة بينها وبين مكة نحو ميلين وعندها مسجد وعندها ترمى جمرة العقبة (ياقوت : العقبة)

(١) في الأصل : التهييء .

(٢) الربعة : الوسيط القامة ، القصف : الأهيف الرشيق .

(٣) الركوة : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء ، والدلو الصغير ، والجمع رِكاء .

(٤) الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، حجة الإسلام ، فيلسوف متصوف له نحو مائتي مصنف ، توفي سنة ٥٠٥ هـ .

[المتقارب]

أخــــذت بأعــــضــــادهم إذ نأوا وخـلّـفَـك الـقــوم إذ ودَّعــوا
فكم أنت تُنهى ولا تنتـــهي وتســـمع وعظا ولا تســـمعُ
فـيـا حـجرَ الشـحذِ حـتى متى تـسـنُّ الحـــديدَ ولا تـقـطَـعُ

قال : وأقام بمكة مدة يلاحظ أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتمثل طريقته، وينسج على منواله، فأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان قد اطلع على الجفر(١)، وعلوم أهل البيت، وأتى مراكش فرأى زينب بنت أمير المسلمين علي بن تاشفين(٢)، وحولها جوارٍ لها يرفلن بالحلي والحلل، وهن حاسرات، فأنكر عليهن وضربهن بعصاةٍ، فلما بلغ هذا أباها، عقد له مجلسا، وجمع فيه العلماء وأحضره، فتكلم بكلام أنكى به ابن تاشفين، فأشار عليه مالك بن وهب بسجنه، وقال : هذا لا يجري منه خير على الدولة، فقام الوزير وقال : هذا أضعف من أن يخاف منه، فخلصه الله منه، فقال لأصحابه : إن ابن وهب لا يبرح يضرب الأمثال فينا لعلّي حتى يبدو له رأي آخر، والرأي أن يعتصم بالجبل، فصعدوا إلى دَرَن(٣) وبايعه أصحابه على أنه

---

(١) الجَفْر : علم يبحث فيه عن الحروف ودلالتها على أحداث العالم .

(٢) ابن تاشفين : علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني ، أمير المسلمين بمراكش ، وثاني ملوك دولة الملثمين المرابطين ، ولد بسبتة وبويع بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٠ هـ بعهد منه ، ملك من البلاد ما لم يملكه أبوه لأن البلاد كانت ساكنة والأموال وافرة والرعايا آمنة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة، كان حليما وقورا صالحا عادلا ، وفي أيامه ظهر محمد بن عبد الله المهدي ابن تومرت فعجز عن دفع فتنته ، واضطربت أموره ، فمات غما في مراكش ، ولم يشهر خبر موته إلا بعد ثلاثة أشهر منه سنة ٥٣٧ هـ .

(الحلل الموشية ص ٦١ ــ ٩٠ ، الاستقصا ١ / ١٢٣ ــ ١٢٦ ، رقم الحلل ص ٥٣ ، جذوة الاقتباس ص ٢٩١)

(٣) دَرَن : جبل من جبال البربر بالمغرب ، فيه عدة قبائل وبلدان وقرى . (ياقوت : درن)

المهدي المبَشَّرُ به، وذلك سنة [ص ٤٠] خمس عشرة وخمس مائة، فلما صعد الجبل رأى زرقة في أبنائهم، فقال : من أين هذه الزرقة في بنيكم ؟ قالوا علوج ابن تاشفين، تأتينا فتأخذ النساء وتنهب الأموال، فقبَّح هذا وأكبره، وأمرهم بمنع ما كانوا يؤدونه، وقتل من أبى منهم، وظهرت على يده خوارق، يقول أولياؤه إنها كرامات، ويقول أعداؤه إنها مخاريق ميز في أهل الجبل المنافقين، وقال : قد عُرِّف بهم، يعني يكشف، ثم أخذ يضرب عنق كل متلو عليه فيشتد له أمر الجبل، وطفق يغزو بهم بلاد ابن تاشفين، وكانت عليه أول مرة، فطيَّب قلوب أصحابه، وعرَّفهم أن الكَرَّة لهم .

قلت : وله التصانيف المفيدة النافعة لمن تعلم الجامعة، في بعضها محاسن ما تقدم، واستفسد بالغرب أمما، بل استصلح واستبهم أمره بالكتمان حتى استصبح، ثم حارب لمتونة(١)، واستحوذ على ملكهم بلا مؤونة، لكنه مات وما فتح بلدا شهيرا، ولا معقلا منيعا اتخذه ظهيرا، وكان قد عهد إلى عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي(٢)، وكان أخص أصحابه المعتبرة لصحابته، وأقرب

---

(١) قبيلة من قبائل المغرب .

(٢) عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان : أبو محمد الكومي ، أمير المؤمنين ، مؤسس دولة الموحدين في المغرب وإفريقية وتونس ، نسبة إلى كومية من قبائل البربر ، ولد ونشأ في تاجرت قرب تلمسان ، وطلب العلم ، وحج والتقى بابن تومرت فتصادقا ، ولما ولي ابن تومرت ملك المغرب الأقصى جعل لعبد المؤمن قيادة جيشه ، واختصه بثقته، ولما توفي ابن تومرت اتفق أصحابه على خلافة عبد المؤمن ، فتم له الأمر سنة ٥٢٤هـ ، ودُعي بأمير المؤمنين سنة ٥٢٦هـ ، ونهض للغزو والفتوح فقاتل الملثمين (بني تاشفين) وقتل آخرهم إبراهيم بن تاشفين ، ودخل مراكش وجاءته بيعة أهل الأندلس ، كان عاقلا حازما شجاعا موفقا ، محبا للغزو والفتوح ، عظيم الاهتمام بشؤون الدين ، خضع له المغربان الأقصى والأوسط ، توفي في رباط سلا في طريقه إلى الأندلس مجاهدا سنة ٥٥٨ هـ.

(ابن خلدون ٦ / ٢٢٩ ، الاستقصا ١ / ١٣٩ ، ابن الأثير ١٠ / ٢٠١، ١١ / ٢٠٩ ، ابن خلكان ١ / ٣١٠ ، الحلل الموشية ص ١٠٧ ــ ١١٩، الخلاصة النقية ص ٥٥)

مكانهم منه إلى ظل سحابته، وكان إذا رآه مقبلا قال، إما له وإما متمثلاً، شعر:

[البسيط]

تكمَّلتْ فيك أوصافٌ خُصِصْتَ بها فكلنا بك مسرورٌ ومغتبطُ
السنُّ ضاحكةٌ والكفُّ مانحةٌ والصدرُ متسعٌ والوجهُ منبسطُ

فاستخفه الطيش وتسمَّى بأمير المؤمنين، وما هو من قريش، وتداول بنو عبد المؤمن ملكاً سموه الخلافة، وعظم شأنهم، وملكوا من حدود مصر إلى البحر المحيط في نهاية المغرب وجزيرة الأندلس، وإنما أجهد ابن تومرت نفسه، وركب الأخطار، حتى سبَّبَ لهم هذا المُلْك العتيد، ونظم لهم هذا السلك الفريد، أذاعوا عنهم تلك السمعة التي أحوجت السلطان صلاح الدين رحمه الله، إلى أنه كاتبهم وراود كاتبه الفاضل بأن يخاطب قائمهم إذ ذاك بإمرة المؤمنين، فتأبّى عليه وامتنع، وقال: مثل [ص ٤١] هذا ما وقع ولا يقع، وقال: متى كتبنا لهم بهذا حتى قرىء الكتاب على منبر من منابر الغرب، جعلونا لهم خالعين، ولهم لا لبني العباس طائعين، واقتصر على أنه كتب نسخة إلا موضع هذه الكلمة، وخاطبهم وما أطلق ولا أمسك قلمه، بل هو في الرتبة الوسطى، لا يتمحَّصُ فيها أنه أصاب ولا أخطأ، ثم توسل إلى صلاح الدين بأن لا يكون الكتاب بخطه، وقال له والخادم يستجير هو وذريته بالمولى من هذا، وكان مضمون الكتاب الاستنجاد بابن عبد المؤمن، وطلب الإمداد على الفرنج بما يمكن، ثم جهِّز على يد ابن منقذ، فما كان بمنقذ، فاستصرخ به وما هو بمصرخه، ولا بواضع وزر همِّه، ولا مفرخه، وإن كان هذا ما هو موضع ذكر بني عبد المؤمن، وإنما ذكرُ ابن تومرت اقتضاه، وهو الذي سلمهم السيف وانتضاه.

فهذه مشاهير دول بني الحسن بن علي عليهما السلام، سوى من تقدم

ذكره فيما تقدم من ذكر ولد الحسن، أو من لايؤبه إليه، ولا امتد لملكه رسن، وأمراء مكة هم أمراء لا خلفاء ولا ملوك،

وما لذكرهم في هذه الطريق سلوك، وسيأتي في ذكر مملكة مصر والشام من التلميح بحديثهم ما فيه مقنع، ولمن أمال إليه صغوه مسمع .

٣٠ - فأما دَوُل بني الحُسَيْنِ بنِ عَلِيٍّ

كرم الله وجهـهما، فمنها دولة زيد بن علي بن الحسين بن علي(١)، وهو الخارج على هشام، ثم دولة ابنه يحيى الخارج على أثره، وكلاهما قتل، أما زيد فقُتِل وصُلِب، وأما يحيى فقُتِل ثم أحرق هو وجثة أبيه، كما تقدم ذكره، وأما بقية دولة الحسينيين فأبعدها صيتا، وأوقدها سهاما، كانت لنار الحرب كبريتا هي الدولة العبيدية، التي طاولت الأيام، وحاولت عمر الدوام، واستولت على الغرب ومصر والشام والحجاز [ص ٤٢] واليمن إلى أطراف العراق، ولزَّت الدولة

(١) زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب : الإمام أبو الحسين العلوي الهاشمي ، يقال له (زيد الشهيد) ، من خطباء بني هاشم ، قال أبو حنيفة : ما رأيت في زمانه أفقه منه ، ولا أسرع جوابا ، ولا أبين قولا ، كانت إقامته بالكوفة ، وقرأ على واصل بن عطاء (رأس المعتزلة) واقتبس منه علم الاعتزال ، وأشخص إلى الشام فضيق عليه هشام بن عبد الملك وحبسه خمسة أشهر ، وعاد إلى العراق ثم المدينة ، فلحق به بعض أهل الكوفة يحرضونه على قتال الأمويين ، ورجعوا به إلى الكوفة سنة ١٢٠هـ ، فبايعه أربعون ألفاعلى الدعوة إلى الكتاب والسنة وجهاد الظالمين ونصر أهل البيت ، وكان العامل على العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي ، فكتب إلى الحكم بن الصلت وهو في الكوفة أن يقاتل زيدا ، ففعل ونشبت معارك انتهت بمقتل زيد في الكوفة ، وحُمل رأسه إلى الشام ، فنُصب على باب دمشق ، ثم أُرسل إلى المدينة فنُصب عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فسرقه أهل مصر ودفنوه سنة ١٢٢ هـ .

(مقاتل الطالبيين ص ١٢٧ ، تاريخ الكوفة ص ٣٢٧ ، فوات الوفيات ١ / ١٦٤ ، الطبري وفيات سنة ١٢١و١٢٢هـ تهذيب ابن عساكر ٦ /١٥، ابن الأثير ٥ / ٨٤ ، الذريعة ١ / ٣٣١ — ٣٣٢، الفرق بين الفرق ص ٢٥)

العباسية منها بضرة، إلا أنها غير حسناء، وابتزت بصفيحة صقيل إلا أنها ليست بخشناء، فأما المغرب إلى آخر حدود مصر، فما زعزع لهم فيها سرير، ولا نزع لهم فيها طاعة أمير، وأما الحجاز واليمن والشام فكانت تكون بينهم وبين الدولة العباسية، أو الناجمين فيها دول الأيام، ثم أصحب اليمن لدعاتهم، وسُهِّل ما استصعب لدعاتهم، وكانوا في أول الحال ملوك استقلال، ثم غلبت عليها الوزراء، ورمت حينها من الاعتلال، ونحن نذكر دول الحسينيين ممن اشتهر وتراءى فجر ملكه وظهر، ،ولا أقول إلا موجزا، ولا أعد من أخبارهم إلا بما أؤمِّل أن أكون له منجزا، وأبدأ بالدولة العبيدية، وها أنا أذكرها وأصفها، وإن كنت لا أشكرها، وأصف بعض أيامها وإن لم يبقَ منها إلا تذكرها، وبالله التوفيق ومنه المدد، والهدى إلى الجدد.

ذِكْرُ الدَّوْلَةِ العُبَيْدِيَّة

نشأت بالغرب، ثم كانت بمصر، ولبثت أحقابا، وعبثت عفوا وعقابا، وعطلت فيها الشرائع، وبطلت الذرائع، وشدد فيها على المحدثين والمؤرخين وعلماء الأنساب، لئلا يظهر بهرج نسبهم الدعي، وزيف مذهبهم غير الشرعي، نسبوا علم الرفض، ودعوا الناس إلى هذا الشنار، وادعوا أنهم أئمة ولكنهم يهدون إلى النار، فلقد كانت ظلامات رفض، وظلمات بعضها فوق بعض، على أن من ردد في معتقدهم النظر، علم أنما غاب عنه منهم أكثر مما حضر، فإنهم طائفة ممن يعتقد الحلول[١]، وتعتضد بما لا يعقد عليه من المعتقد المحلول، ممن تقول بتناسخ الأرواح[٢]، وتناسي بعض النفوس لهياكل الأشباح، ولهم على

(١) الحلول : اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر ، ومذهب الحلول : القول بأن الله سبحانه حالٌّ في كل شيء ، والحلولية فرقة من المتصوفة تعتقد مذهب الحلول .

(٢) التناسخ : تناسخ الروح ، عقيدة شاع أمرها بين الهنود وغيرهم من الأمم القديمة ، مؤداها أن روح=

زعمهم أئمة خفاء وظهور، وإن الزمان في كل سبعة يدور، وقد صنف [ص٤٣] القاضي أبو بكر الباقلاني كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار[١] في سوء معتقدهم ومرادهم، ووقفت على سجلات وتواقيع عن بعض أئمتهم، بعضها يحط صلوات، وبعضها بإقطاع في الجنة، أو رفع درجات، ولكثرة كلام الناس فيهم، نقنع باليسير، ولا حاجة إلى التفسير .

فأما نسبهم، فللناس فيه اختلاف كثير، فأما هم فادَّعوا أنهم من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق، وأما الناس، فمنهم من أفرط حتى قال إنهم من ولد رجل يهودي من أهل سلمية، ومنهم من قال: إنهم من ولد رجل خياط من بعض عامة المسلمين، وقال بعضهم : كان الداعية لهم داعيا لرجل شريف من آل البيت، فمات وقد اجتمعت زمر الشيعة، ولم يبق إلا الظهور، فلم يمكنه إطلاعهم على موت ذلك الشريف، لئلا تتقلل عزائمهم، وينفض جمعهم، فأخذ صبيا أراهم إياه، وقال لهم : إن الإمام مات وهذا ابنه، وقد أوصى إليه، ثم من قال إن ذلك الصبي ابن امرأة كان الداعية قد تزوج بها، وثبت في بغداد محضر بأنهم أدعياء، وأُتيَ به إلى الشريفين المرتضى والرضي الموسويين[٢]، فأبيا أن يشهدا فيه، وكان هذا أقوى حجج العبيديين على دعواهم، وكذلك لهم

= الميت تنتقل إلى حيوان أعلى أو أقل منزلة ، لتنعم أو تعذب ، جزاء على سلوك صاحبها الذي مات ، وأصحاب هذه العقيدة لا يؤمنون بالبعث .

(١) القاضي الباقلاني : محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة ، له تصانيف كثيرة منها إعجاز القرآن ، ومناقب الأئمة ، وكشف أسرار الباطنية (لعله هو كشف الأسرار وهتك الأستار) ، توفي سنة ٤٠٣ هـ .

(ابن خلكان ١ / ٤٨١ ، قضاة الأندلس ص ٣٧ ـ ٤٠ تاريخ بغداد ٥ / ٣٧٩ ، الوافي بالوفيات ١٧٧/٣)

(٢) الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى الرضي نقيب الأشراف توفي سنة ٤٠٦ هـ ، والشريف المرتضى :علي بن الحسين بن موسى الرضي ، توفي سنة ٤٣٦ هـ .

شهادة صريحة شهد بها الشريف الرضي في قوله :

[الخفيف]

ما مقامي بأرضِ بغدادَ رشْدٌ … وبمصرَ الخليفةُ العلويُّ
من أبوه أبي ودعواه دعواي … ومن جده وجدي النبيُّ
ألبسُ الذُّلَّ في ديار الأعادي … وابن عمِّي له المكانُ العَليُّ
إن عرقي بعرقه سيد النا … سِ جميعا محمدٌ وعليُّ

وأما حجة الخصم عليهم، فامتناع آل أبي طاهر من تزويج المعز أبي تميم معد، وكان السبب(١) في خطبته إليهم أنهم أعرق بيت في أهل مصر شرفا، فلما قدم المعز مصر ألقيت إليه ورقة فيها : [ص٤٤]

[السريع]

إن كنت من أبناء أهلِ العبا … فاخطب إلى آلِ أبي طاهرِ
فإن رآكَ القومُ كُفؤاً لهم … في باطنِ الأمرِ وفي الظاهرِ
و(٢) . . . . . .

فخطب إليهم فاعتذروا إليه، وقالوا إنه لا بنت لنا، فسكت على مضض يتجرعه ولا يكاد يسيغه، وجردٍ كان لا يتوقعه ولا يزيغه، ثم ألقيت إليه بعدها أوراق فيها مذمة وعار وملمَّة، لا يُعرف لها شعار، ومن جملة [ذلك] :

[السريع]

إن كنتَ فيما تدَّعي صادقاً … فانسب لنا نفسك كالطائعِ

(١) في الأصل : وكان السبت ، وهو من سهو الناسخ ، وفي الكتاب أمثال هذا السهو صححناه في موضعه .

(٢) بعد البيت في الأصل بياض بمقدار سطرين .

فـإنَّ أنسـابَ بنـي هـاشـمٍ   يقـصـرُ عنهـا طمعُ الطامعِ
وأنت فـيـمـا تدعي عـاجـزٌ   فـاذكـرْ أبـاً بعـدَ الأبِ الـرابـعِ
أو فـدعِ الأنسـابَ مسـتـورةً   وادخـل بنـا فـي النسـبِ الواسـعِ

فصعد المنبر، وأخذ في إحدى يديه سيفاً وفي الأخرى دينارا، ثم قال : أما بعدُ فقد كُتبتْ لنا ورقة، يُسألُ فيها عن نسبنا، وهذا نسبي، وأشار إلى السيف، وهذا حسبي، وأشار إلى الدينار، فمن أقر بنسبي أدخلته حسبي، ومن لم يُرِدْ حسبي قتلته بنسبي، والسلام، ثم نزل .

وكانوا يكرمون الغرباء، ويُنعمون إنعاما يعمُّ الناس، ويخصون الأدباء مع ما كان فيهم من احتقاب إفك[١]، واختضاب سيف بسفك، واتخاذ شيعة تسترك عقود الأنام، وتأخذ بالألباب أخذ النعاس بعين النيام، وفيهم يقول ابن قادوس[٢]، ويعرِّضُ بالعباسيين وشعارهم، وهو :

[الكامل]

أنـتم بـنو الـزهـراءِ أوضـح نـورُكـم   للناس بهجـا نائلٍ ورشـادِ
وهـمُ لِـمـا خـوِّلتمُ في مـأ ثـمٍ   جمعوا العبوسَ إلى لباسِ حِدادِ[ص٤٥]

وقد ذهب بعض الناس إلى أن هذه الدولة من بني أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم، وقيل بل هم من حمير ثم من صنهاجة، والخلاف فيهم كثير، وها أنا

(١) احتقاب إفك : اقتراف ذنب وحمل الإثم .

(٢) ابن قادوس : محمود بن إسماعيل بن حميد الدمياطي ، أبو الفتح المعروف بابن قادوس ، منشىء من الشعراء ، كان كاتب الإنشاء بمصر ، نعته ابن ميسر بالقاضي المفضل قاضي الكفاة ، وكان القاضي الفاضل يلقبه بذي البلاغتين (الشعر والنثر) ، له ديوان شعر في مجلدين ، توفي بمصر سنة ٥٥٣ هـ .

(أخبار مصر ـ لابن ميسر ٢ / ٩٧، الخريدة قسم مصر ١ /٢٢٦ .، حسن المحاضرة ١ / ٢٥٨، كشف الظنون ٧٦٧)

أذكر أمر هؤلاء من أوله :

كان ابتداء أمرهم على يد أبي عبد الله الشيعي الملقب بالمحتسب(١)، واسمه : الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الداعي ببلاد المغرب، والقائم بدولتهم، أصله من الكوفة، وقيل من رام هرمز من كور الأهواز، قال الشريف أبو العباس أحمد بن الحسن الحسني الغرناطي : وكان رافضيا خبيثا ذا عقل ودين صليب، وعلم بارع، وورع حاذق، كدهن على ورم، وكان [له] أخ اسمه أحمد، أسن منه وأعلم وأورع، يقال له أبو العباس المخطوم وكان بدء أمره بمكة، وتمامه بأيكجان من بلاد كتامة، حجَّ فالتقى في مكة بقوم من كتامة سبعة، كانوا يتشيعون للحواني داعية المغرب قبله بأزيد من مائة سنة، فلما سمعوا كلامه أحبوه وتقربوا إليه واتبعوه، فخرج معهم إلى بلادهم أيكجان نصف ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين، فقال لهم : أين فج الأخيار ؟(٢) فعجبوا من علمه، فقالوا له : عند بني سكان، فقال : لهم نقصد وعندهم ننزل، فلما قارب المكان قال لهم : هذا فج الأخيار، وقال له موسى بن حريث : من أين علمته ونحن ما

---

(١) أبو عبيد الله الشيعي : الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا ، المعروف بالشيعي ، ويلقب بالمعلم، ممهد الدولة للعبيديين ، وناشر دعوتهم في المغرب ، كان من الدهاة الشجعان ، من أعين الباطنية وأعلامهم ، من أهل صنعاء ، وقيل من رامهرمز ، اتصل في صباه بالإمام محمد الحبيب (أبي المهدي الفاطمي)، وأرسله محمد إلى أبي حوشب، فلزم مجالسته وأفاد من علمه ، ثم بعثه مع حجاج اليمن إلى مكة ، وأرسل معه (عبد الله بن أبي ملا) ، فلقي في الموسم رجالا من كتامة فأخذوا عنه المذهب ، ورحل معهم إلى المغرب ، ودعا كتامة إلى بيعة المهدي ، ثم استثقل المهدي وطأة الشيعي وتحكمه وانقياد كتامة إليه ، فأمر اثنين من رجاله بقتله وقتل أخ له يعرف بأبي العباس ، وكان ذلك في مدينة رقادة سنة ٢٩٨ هـ .

(ابن خلكان ١ / ١٦٢ ، ابن خلدون ٣ / ٣٦٢ ، البن الأثير ٨ / ١٠ ـ ١٧ ، البداية والنهاية ١١ / ١٨٠)

(٢) في الأصل : فج الأخبار ، بالباء الموحدة من تحت ، وكذلك ما بعدها ، ولعل الصواب بالياء المثناة، لأنه يمدحهم بقوله : (أنتم الأخيار).

ذكرناه لك ؟ فقال :

أنتم الأخيار وبكم سُمِّي، فلما نزل به تسامع به الناس ودخلوا إليه، فكان يخبرهم بفضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من ولده عليهم السلام، فكثر جمعه، وجيَّشَ جيشا، وقاتل أهل أفريقية، فافتتح ميلة ثم سطيف ثم طيبة ثم بلزمة ثم دار ملوك ثم بيحس ؟ ثم باغاية ثم قسطيلة ثم قفصة ثم الاربُس[1]، وهرب زيادة الله بن الأغلب من رقادة[2]، فدخلها الشيعي يوم الاثنين السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ومائتين، ثم جمع جموعه [ص ٤٦] وعبَّأ عساكره، وخرج يريد سجلماسة[3] يوم الخميس العشرين من رمضان منها، واستخلف على رقادة وسائر أفريقية أخاه المخطوم وأبا زاكي تمام بن معارك الأيكجاري، وكان هذا أبو زاكي تمام بن معارك أول من لاقى الشيعي، فقال له ما اسمك يا فتى ؟ فقال : تمام، [فقال] : بك تتم أمورنا، فما اسم أبيك ؟ قال : معارك، فقال الشيعي : لكن بعد عرك عظيم، فلما أتى سجلماسة أرسل يقول لصاحبها اليسع بن مدرار : إننا ما جئنا لقتال، ولكن بحاجة ولك الأمان والبر والإنعام، فرمى اليسع الكتاب، وضرب

---

(١) ميلة : مدينة صغيرة بأقصى أفريقية بينها وبين بجاية ثلاثة أيام ، سطيف : مدينة في جبال كتامة بين تاهرت والقيروان من أرض البربر ببلاد المغرب ، طيبة : قرية كانت قرب زرود ، بَلَزْم : أعظم مدينة في جزيرة صقلية في بحر المغرب على شاطىء البحر ، باغاية : مدينة كبيرة في أقصى أفريقية بين مجَّانة وقسنطينية الهواد ، قسطيلة : مدينة بالأندلس ، قفصة : بلدة صغيرة في طرف أفريقية من ناحية المغرب ، الأربس : مدينة وكورة بافريقية ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام .
(ياقوت : كل موضع باسمه)

(٢) رقادة : بلدة كانت بأفريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام ، بناها إبراهيم بن الأغلب .
(ياقوت : رقادة)

(٣) سجلماسة : مدينة في جنوب المغرب من طرف بلاد السودان ، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب . (ياقوت : سجلماسة)

أعناق محضريه، فكتب إليه ثانيا، ثم ثالثا، ففعل كفعله الأول فيهما، فناجزه الحرب، فانهزم اليسع ودخل المدينة مهزوما، ثم خرج منها فارا، فدخلها الشيعي، وأخرج المهدي، وأطلق الخيل في طلب اليسع، فأدركوه فأخذوه هو ومن كان معه، وأتوه به، فأمر باليسع فضرب بالسياط، وطيف به في العسكر، ثم أمر به وبمن كان معه فضربت أعناقهم، وذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة، ثم أقعد المهدي وأخذ له البيعة على الناس، وقدم به دار الملك رقادة، فدخلها في جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين ومائتين، وأقام بها الشيعي إلى أن قتل هو وأخوه العباس المخطوم، قال : وكان سبب قتلهما أنهما ندما على إقامة المهدي وأرادا خلعه .

قلت : ولنذكر هنا ما قاله الغرناطي، وقد ذكر فرق الشيعة بعد قتل الحسين عليه السلام، فقال : تفرقوا أربع فرق، هم الأصول : علوية، وفاطمية، وحسنية، وحسينية، فالعلوية رأت الإمامة في ولد علي عموما دون تخصيص، وهم الكيسانية، وهم القائلون بإمامة محمد بن الحنفية، كما نبهنا عليه، والفاطمية رأت الإمامة في ولد الحسن والحسين ولدي فاطمة عليهما السلام، وهم الزيدية، والحسنية : وهم الذين رأوا الإمامة في الحسن ثم في ولده، ثم في عبد الله [ص٤٧] بن الحسن بن الحسن والد إدريس صاحب المغرب، ثم في الأدارسة بنيه أبدا، والحسينية : وهم الذين رأوا الإمامة في ولد الحسين، ثم في ولده علي زين العابدين، ثم في ولده محمد الباقر، ثم في ولده جعفر الصادق، ثم افترقوا، فرأت فرقة أن الإمامة في ولد موسى الكاظم، ثم من بعده في ولد علي الرضا، ثم في ولده علي الجواد، ثم في ولده علي بن علي الهادي، ثم في ولده الحسن العسكري، ثم في ولده محمد المنتظر، وكان حينئذ في بطن أمه، وهم الإمامية، ورأت فرقة : أن الإمامة في إسماعيل بن جعفر الصادق، وهم الإسماعيلية، وأهل هذه الدولة منهم، وها أنا أذكرهم ، فأولهم : هذا القائم بالمغرب :

٣١ - المَهْدِيُّ بالله (١)

أبو محمد عبيد الله بن محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان رجلا حازما عازما عارفا عالما، أتقن جانبا من علم الأوائل، وأجاد في فن الروحاني، وحذا شعبة من السحر، وأورثه بنيه، وكان لا يودع إلا الأئمة منهم، وكان يُشبَّه في أمره بالسفاح، لقيامه بدولة أقامها بالصفاح، وكان أبو عبد الله الشيعي داعيته وساعيته حتى حاز الملك و كاده(٢)، وكان رجلا حازما بريئا من التكلف ، غنيا بما يظهره من التعفف، لا يتعمق في متاع الحياة الدنيا، ولا يتعرض إلى زايد عما يحتاج إليه مدة ما يحيا، وكان يجلس على اللبود، ويأكل الخشن من الطعام، ويكتفي بجارية واحدة وغلام، وكان يُظهر مظاهر الزهاد، ويقف مع ظاهر النساك على رؤوس الأشهاد، مع ما في باطنه من الداء الدوي، والمعتقد البئيس الردي، والإعلان بالسب، والإمعان في الطعن فيمن دب، وإظهار الإيمان، وإبطان الكفر، وتمزيق أهل جلدة الإسلام بالناب

---

(١) المهدي الفاطمي : عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم الفاطمي العلوي ، من ولد جعفر الصادق ، مؤسس دولة العلويين في المغرب، وجد العبيديين الفاطميين أصحاب مصر ، وأحد الدهاة ، في نسبه خلاف طويل ، كان يسكن سلمية بالشام ومولده بها (أو بالكوفة) وكان أبوه قد أرسل الدعاة وأعظمهم أبو عبد الله الشيعي فمهد له بيعة المغرب ، فوصل سجلماسة وتمت له البيعة ، واتخذ رقادة عاصمة له ، وبعث الولاة في أنحاء المغرب ، وحاول امتلاك مصر ، كان يتولى أموره بنفسه فلم يتخذ وزيرا ولا حاجبا ، واختط مدينة (المهدية) واتخذها قاعدة لملكه ومات بها سنة ٣٢٢ بعد أن حكم أربعا وعشرين سنة .

(ابن خلدون ٤ / ٣٠ ــ ٤٠ ، ابن الأثير ٨ / ٩٠ ، اتعاظ الحنفا ١٧ ــ ١٠٧ ، تاريخ الخميس ٢ / ٣٨٥ ، ابن خلكان ١ / ٢٧٢ ، كنز الدرر ٦ / ١٠٨ ــ ١٠٩)

(٢) في الأصل العبارة فيها تقديم وتأخير : (وكان أبو عبد الله الشيعي داعيته وكادَّه حتى حاز الملك وساعيته) .

والظفر، مع عدل بسط بساطه، وكان به فتور [ص ٤٨] فكأنما حلَّ من عقال نشاطه، وكانت الكتب لا تنفذ في أيامه إلا باسم ولده محمد القائم، وكان لا يسمى المهدي فيها، وبعث دعاته إلى الأرض، وبث فيها عقاربه، وبعث أقاربه، بل أراقمه، ونفث سمه من سوء الاعتقاد أو ما قاربه .

قال ابن سعيد : وعبيد الله المهدي أول خلفائهم، تشبه بالسفاح أول خلفاء بني العباس، فإن السفاح خرج من الحُمَيمة بالشام(١) طالبا للخلافة، والسيف يقطر دما من أصد(٢) ، وأبو سلمة الخلال(٣) يؤسس له الأمن، ويثبت دعوته، وعبيد الله المهدي خرج من سلمية بالشام(٤)، وفي رأسه طلب الأمر، والعيون قد أذكيت عليه، وأبو عبد الله الشيعي يسعى في تمهيد دولته، وكلاهما تم له الأمر، وبايعه صاحب دعوته، وقتل عبيد الله أبا عبد الله الشيعي القائم بدولته، وأصبح أبو سلمة مقتولا في حضرة السفاح، فنُسِب قتلُه إليه، قلت : بل هو الصحيح أنه دسَّ عليه من قتله، ونصب له المكيدة حتى ختله، وذكر الشريف أبو العباس أحمد بن الحسن الحسني الغرناطي خلافا كبيرا في أمر المهدي المذكور، في تاريخه، ثم قال : ولد بسلمية، وقيل ببغداد سنة ستين

---

(١) الحُميمة : بلد من أرض الشراة من أعمال عمَّان في أطراف الشام ، كان منزل بني العباس .
(ياقوت : الحميمة)

(٢) الأصد : الثوب، وهو قميص صغير بلا أكمام .

(٣) أبو سلمة الخلال : حفص بن سليمان الهمداني أول من لقب بالوزارة في الإسلام ، أنفق أموالا كثيرة في سبيل الدعوة العباسية ، ووطد الحكم للعباسيين استوزره السفاح ، كان ذا حلم وسياسة وتدبير ، قتل غدرا سنة ١٣٢هـ .
(ابن خلكان ١ /١٦٣ ، الفخري ص ١١١ ، البداية والنهاية ١٠ /٥٥)

(٤) سَلَمية : بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة ، بينهما مسيرة يومين ، وكانت تعد من أعمال حمص ، وقيل : سلمية قرب المؤتفكة، وفي طريقها إلى حمص قبر النعمان بن بشير الأنصاري .
(ياقوت : سلمية)

ومائتين، وبويع له برقادة يوم الخميس الموفي بعشرين من ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين، وهو ابن سبع وثلاثين سنة، وهو باني المهدية وغيرها، ولما ظهر أمر الشيعي القائم بالمغرب بدعوته، جعل الخليفة عليه عيونا بمصر، فوقع المهدي بمصر في زي التجار بيد صاحبها عيسى النوشري(١)، فقال له : أنت الذي طلبه أمير المؤمنين ؟ فقال : إنما أنا رجل تاجر، فاتقِ الله في دمي، فخلى سبيله، فخرج في قافلة يريد أفريقية، ثم أنه فقد كلبا كان يصيد به، فرجع في طلبه، وإن صاحب مصر ندم على تخليته، فخرج في طلبه فاذا [هو] راجع في طلب كلبه، فقال : لو كان هذا هو المطلوب لطلب النجاة لنفسه، ولم يرجع في طلب كلب، فانصرف وتركه، فسار حتى نزل [ص ٤٩] طرابلس، وكان زيادة الله بن الأغلب قد أرصد عليه عيونا، فخاف عبيد الله على نفسه، فأخذ طريق قصطيلية حتى أتى سجلماسة في يوم الأحد السابع من صفر ستة وتسعين ومائتين، ومعه ابنه أبو القاسم محمد القائم، فوشى به واشٍ إلى صاحبها اليسع بن مدرار، فأحضره بين يديه واستفهمه عن حاله، فقال : أنا رجل تاجر، فقال له : لا إنما أنت المهدي الذي يدعو إليه هذا الشيعي، فأظهر البراء ة منه، وأنكر ذلك، فجعله في دار ورسم به، وأجرى عليه الأرزاق، وبلغ الشيعي خبره، فبعث أبا زاكي بمال وطُرف من طُرَف الملوك، فأوصلها إليه مستخفيا، وسلم عليه ثم رجع إلى الشيعي فأعلمه بصحة الخبر، فسار إلى سجلماسة بجيوشه حتى استخرجه منها، كما تقدم ذكره، ثم ما زال يكلأه حتى تم أمره، وانقاد له الملك عنوةً، وركب من منابره الغارب والذروة، وأطاعه الناس رَهَبا ورَغَبا، وبايعه

---

(١) عيسى النوشري : أبو موسى ، من ولاة الدولة العباسية المقدمين ، استعمله المنتصر على دمشق ، ثم ولي عدة ولايات ، ولما انقرضت الدولة الطولونية بمصر ولاه المكتفي بالله إمارة مصر، كان شجاعا عارفاً بتدبير الأمور ، ولم يزل في ولاية مصر إلى أن توفي سنة ٢٩٧ هـ .

(النجوم الزاهرة ٣ / ١٤٥ ، الولاة والقضاة ص ٢٥٨ ـ ٢٦٢)

الخلق والسيف على عنق من أبى، ثم ما برح جده يعلو، ووِرده يحلو، حتى كان قائم دولة شاطرت المعمور، وشارطت السنين لا الشهور، ثم كان والد أملاك، وقاعدة ممالك باهرتْ الأفلاك، ولولا علم الله السابق ولطفه، لبلغت دولتهم أقصى الشرق في مذهبها، وعجلت الآية الكبرى بطلوع الشمس من مغربها .

وذكر القرطي في تاريخ القوم أن المهدي فيما كتب إلى القرامطة قبل انفراقهم عنه : وأنا أحلف أيها المؤمنون بأجل مما يحلف به لما اتبعته مما أطعنا الله عليه من غيبه الذي استأ ثرته، وآثر بعلمه أولياء ه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أنه لابد من أن يحل ولاتنا بخضراء بني أمية بالشام، وبخضراء بني العباس بالعراق ويكون لنا من الخلفاء مثل من كان لبني أمية، قال : فقد والله إنْ كان جميع ما ذكره هو ما دوِّن من كلامه ما وقَّع به لقاضي قضاته أبي المنهال، وقد أعاده إلى القضاء بعد عزله، وهو : إنما عزلتك للينك ومهانتك، ورددتك لدينك وأمانتك، وتوفي نصف ربيع الأول سنة [ص ٥٠] اثنتين وعشرين وثلاث مائة، ثم ابنه :

٣٢ - القَائِمُ بِأمْرِ اللّه (١)

أبو القاسم محمد، وكان لا يرضى إلا قائم السيف صاحبا، ولا يعدل عن

---

(١) القائم الفاطمي : محمد بن عبيد الله ، أبو القاسم القائم ابن المهدي العبيدي ، صاحب المغرب ، ويسمى نزارا ، ولد في سلمية بالشام ودخل المغرب مع أبيه ، ولما استقر أبوه في ملك المغرب جهزه إلى مصر مرتين ، فملك في الأولى الاسكندرية والفيوم ، وفي الثانية وصل إلى الجيزة ، وقاتله جيش المقتدر العباسي، فعاد القائم إلى المغرب ، وبويع بعد موت أبيه سنة ٣٢٢ هـ وهو ثاني ملوك الدولة الفاطمية العبيدية ، وأول من تلقب بأمير المؤمنين فيها ، قال الذهبي : كان شجاعا مهيبا قليل الخير فاسد العقيدة ، أصيب بوسواس وزال عقله ، فأظهر سب الأنبياء ، وأباد عدة من العلماء ، كان يراسل قرامطة البحرين ، ويأمرهم بإحراق المساجد والمصاحف ، مات محصورا بالمهدية سنة ٣٣٤هـ .

(ابن خلكان ٢ /٢٧، النجوم الزاهرة ٣ /٢٨٧، سير أعلام النبلاء الطبقة الثالثة عشرة)

الليل والخيل والبيداء مصاحبا، بعزم لا يُقصف سمهريُّه، ولا يُقصى عن عاتقه مشرفيُّه، وكان قد وجَّه إلى بغداد قصيدة يفخر ببيته، ويسمع بها مبلغ صوته، ويذكر فيها ما فتح من البلاد التي ملك، وقدح بسنابك جياده في كلما سلك، فأجابه الصولي بقصيدة على وزنها ورويها، بصَّرَ بحسنها ووريها، وصبر القائم على منافذ طعانها، ومآخذ لعانها، وكان منها قوله :

[**الطويل**]

ولو كانت الدنيا مثالا لطائر لكان لكم منها بما حزتمُ الذَّنَبْ

وسيأتي ذكر هذا البيت في موضعه من الإنصاف بين المشرق والمغرب، فحرَّك هذا همَّةَ القائم بالله على قصد جهة المشرق، [وقال]: والله لا أراك حتى أملك صدر الطائر ورأسه إن قدرت، وإلا أهلك دونه، فكابد على مصر من الحروب أهوالا، وجاهد فيها رأيهُ وأنفق أموالا، ومات ولم يظفر بحضرتها، ولا اقتات طرفه بنظر نضرتها، مع كونه عاش في أطرافها، وعام في بحرها العباب وما التحف بطرفها .

حكى مؤلف الكنوز : أنه اشتد حزنه على موت أبيه، وأقام مدة يخفيه، ولم يرق بعده شهرا، ولا ركب من قصره مذ صار إليه الأمر إلا مرتين، مرة صلى على جنازة، ومرة صلى بالناس العيد، وبدأ أمره بأن أمر عماله بعمل السلاح، والاستعداد للقاء، وجهز بعوثه إلى بلاد فاس وما حولها من بلاد المغرب، فدوَّخها، ومولده بسلمية سنة ثمان ومائتين، وبويع يوم أبيه، وتوفي يوم الأحد ثالث عشر شوال سنة أربع وثلاثين وثلاث مائة، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر .

ثم ابنه :

٣٣ - المَنْصُورُ باللّهِ (١)

أبو الطاهر إسماعيل، وكان قد أوصى إليه أبوه بقصد مصر واستضافتها، وإعداد القِرى لقري إضافتها، فشغلته الفتن التي قامت بأفريقية واستأصلت [ص ٥١] لولا عوارضها المستبقية، فإنها ثارت ثوايرها في كل قطر، وطارت بواترها في ظل السيوف البتر، وكان جهد المنصور أن يرقع خروقه، ويخيط بإبر الرماح فتوقه، ولم تُعَدَّ همَّته قدر الاستصلاح، ولم تعلُ عزمته على الدفع بالراح، وكان أقصى اجتهاده أن يذود عن حوضه الغرائب، ويذوب خوفا يخرج من بين الصلب والترائب، إشفاقا على ملكه من تجاذب الأطراف و تجابذ الأطراف، خشية أن ينتزع، وحذرا من قاصد بسيفه أن يزع .

قال ابن سعيد : وهذ المنصور مشبَّه بالمنصور، لأن كلاً منهما اختلت عليه الدولة، وأصفقت عليه الحروب، وكان يسلُّ من الخلافة، فهبَّ له ريح النصر، وتراجع له أمره حتى لم يبق مخالف، وحين [أراد] لبنيهِ ختانا لم تسمو همَّة ملكٍ إليه(٢)،أمر بأن يُكتب له أولاد قواده وأجناده، وسائر رجاله وعبيده وأهل بلاده، وكساهم وكانو زهاء مائة ألف، ثم فرَّق فيهم أموالاً جزيلة وبدأ بالختان

(١) المنصور الفاطمي : إسماعيل بن محمد بن عبيد الله المهدي، أبو الطاهر ، المنصور بنصر الله ، ثالث خلفاء الدولة الفاطمية العبيدية بالمغرب ، مولده بالقيروان ، قام بالأمر بالمهدية (بافريقية) بعد وفاة أبيه (القائم بأمر الله) سنة ٣٣٤هـ ، بنى مدينة بقرب القيروان سماها المنصورية ، ونقل إليها حاشيته وجنده ، كان حازما خطيبا بليغا ، استطاع أن يقضي على الفتن القائمة في البلاد وخاصة فتنة أبي يزيد النكاري مخلد بن كيداد من أهل قسطيلة، وتوفي المنصور بالمنصورية ودفن بالمهدية سنة ٣٤١ هـ .

(ابن خلدون ٤ /٤٣، ابن خلكان ١ /٧٦ ، ابن الأثير ٨ /١٥٠، ١٦٤، البيان المغرب ٢١٨/١)

(٢) كذا وردت العبارة في الأصل وفيها اضطراب وغموض، ومقصوده : حين أراد ختان بنيه أمر بإكساء أولاد القواد والأجناد والعبيد .

لست بقين من ذي الحجة سنة أربعين وثلاث مائة، ودام إلى سابع المحرم من السنة المقبلة، والجزر تنحر وسائر الذبائح والولائم تعمل، ويقال إنه أنفق نحو ألف ألف دينار في هذه الأيام، ولم يُرَ كصبره يوم القيروان وهو يعامل أبا يزيد النكاري، وقد ذكر حسن موقفه شاعره محمد بن الحارث[1]، فقال:

[الطويل]

ولم أرَ كالمنصور بالله ناصراً ... لدينٍ وأحمى منه ملكاً وأمنعا
ألم ترَ يومَ القيروان وقوفَهُ ... وقد كادتِ الأكبادُ أن تتقطَّعا
وأبرزَ عن وجهٍ من الصبرِ أبيضٍ ... يقابلُ وجهاً للكريهةِ أسفعا
إذا استقبلَ الأبصار وهي طوامحٌ ... ثناها فلم تستكمل اللحظَ خُشَّعا

وولد بالمهدية سنة اثنتين وثلاث مائة، وولي وله اثنتان وثلاثون سنة [ص٥٢]، وتوفي يوم الجمعة سلخ شوال سنة إحدى وأربعين وثلاث مائة، وله من العمر تسع وثلاثون سنة، وكانت ولايته سبعة أعوام.

ثم كانت خلفاؤهم بمصر، وأولهم:

٣٤ - المُعزُ لدِيْنِ اللّهِ

أبي تميم معد[2] بن أبي الطاهر إسماعيل المنصور، وهو الذي ظفر بحضرة

(١) محمد بن الحارث الخشني: مؤرخ من الفقهاء الحفاظ من أهل القيروان، كان شاعرا بليغا، له كتب كثيرة وكان مولعا بالكيمياء، توفي سنة ٣٣٦هـ.
(معجم الأدباء ٦/ ٤٧٢، جذوة المقتبس ص ٤٩، تاريخ علماء الأندلس ١/ ٤٠٤)

(٢) المعز لدين الله: معد بن إسماعيل (المنصور) بن القائم بن المهدي عبيد الله الفاطمي، أبو تميم صاحب مصر وأفريقية، ولد بالمهدية (بالمغرب)، وبويع له بالخلافة في (المنصورية) بعد وفاة أبيه سنة ٣٤١ هـ، فجهز وزيره القائد وأصحبه بجيش كثيف ليفتح ما استعصى عليه من بلاد المغرب، وانقادت له أفريقية كلها ما عدا سبتة، ولما مات كافور الإخشيدي صاحب مصر، أشار=

مصر وملكها، وحصل له حظوة ملكها وأدركها، ووصلت إليه جيوشه، وحصلت على معاقد شرفاتها عروشه، وقدم أمامه القائد جوهر فاختط القاهرة وبنى له بهما القصرين، وإلى الآن بعض آثارهما الظاهرة، وقسم بناء المدينة على من كان في جملة المعز من القبائل، واتخذ الكافوري بستانا ترق به الجداول، وتزف الخمائل، وشرع أبواب المدينة، ولم يكمل لها سورا يدور بنطاقها، ولا أقام لها جُدُراً يستند إليه ظهور أسواقها، ثم مدنت بعد ذلك التخطيط، وأدير بها سور اللبن المحيط، وذلك لما أناخت القرامطة بساحتها، وأنامت المعز وهو يعتقد أن روحه في راحتها، ثم بنى في الأيام الصلاحية السور الحجر الدائر، وضرب عليها مثلها الساير، ثم لما كمل القائد جوهر بناء ما شرعه، أتم قصر المعز وموضعه، استخلف المعز بالغرب بعض أشياعه، وقدم مصر وقد شرق صدر البر والبحر بأتباعه، وأتى الإسكندرية وخيَّم بظاهرها، وجثم أسده الهصور يزأر، إلا على زائرها، وتلقاه إليها أهل مصر من القواد والوزراء والقضاة والعلماء ووجوه الناس، فبسطهم بالإيناس، وتلقاهم بالرحب والسعة، وأمر لهم بالخِلَع والأنزال الموسعة، ثم سار حتى أتى مصر ودخل القاهرة، ونزل بقصره بها في يوم الثلاثاء لتسع عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاث مائة، وتوفي في يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاث مائة .

وذكر ابن الأثير : أن ملك الروم كان أرسل إلى المعز رسولا بالمهدية، ثم كان

= المعز إلى قائده جوهر بالسير إلى مصر فدخلها فاتحا سنة ٣٥٨هـ ، واختط مدينة القاهرة وسماها القاهرة المعزية سنة ٣٥٩ ـ ٣٦١هـ وأقام الدعوة للمعز بمصر والشام والحجاز، ثم دخل المعز القاهرة سسنة ٣٦٢ هـ ، فكانت مقر ملكه وملك الفاطميين إلى آخر أيامهم ، كان المعز عاقلا حازما شجاعا ، ينسب إليه شعر رقيق ، توفي سنة ٣٦٥ هـ .

(المنتظم ٧ / ٨٢ ، وفيات الأعيان ٢ / ١٠١ ، ابن خلدون ٤ / ٤٦ ، الخلاصة النقية ص ٤١ ، ابن الأثير ٨ / ١٦٥ ـ ٢٢٠ ، ابن إياس ١ / ٤٥)

يتردد إليه، فأتاه وهو بمصر فخلا به بعض الأيام، فقال له المعز : [ص ٥٣] أتذكر إكرام[ـي لك إذ][١] أتيتني رسولا وأنا بالمهدية، فقلت لك : لتدخلنّ عليَّ بمصر وأنا خليفة ؟ فقال له الرسول : إن أمنتني على نفسي ولم تغضب قلت لك ما عندي، فقال له المعز : قل وأنت آمن، فقال له : لما بعثني الملك إليك ذلك العام، وأنت من عظمتك في عيني وكثرة أصحابك ما كدت أموت منه، ووصلت إلى قصرك فرأيت عليه نورا عظيما[٢] أشخص بصري، ثم دخلت عليك فرأيتك على سرير (....)[٣]، فلو قلت لي إنك تعرج إلى السماء لظننت ذلك، ثم جئت إليك الآن فما رأيت من ذلك شيئا، وأشرفت على مدينتك فرأيتها مظلمة، ودخلت عليك فما وجدت لك من المهابة ما وجدته ذلك العام، فقلت : كان ذلك أمرا مقبلا، وهذا أمر مدبر، ولا أخالك إلا ميتا، فلم تلبث بعدها المعز الحمى ومات، وقد كان المعز احتفر له سردابا، وقال لأصحابه : إن بيني وبين الله عهدا، وإني ماضٍ إليه، وقد استخلفت عليكم ابني نزاراً، ثم تغيب سنة في السرداب ثم ظهر وهو متعلل، فمات، وكان أحد المغاربة إذا رأى سحاباً نزل وأومأ إليه بالسلام، ظناً منه أن المعزَّ فيه، وكانت ولايته ثلاثا وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام .

ثم ابنه :

٣٥ - العَزِيزُ باللّهِ

أبي المنصور نزار[٤]، وكانت أيامه أيام دعة، وتمام سعة، والناس فيها في

(١) ما بين المعقوفتين ، زيادة يقتضيها السياق .

(٢) في الأصل : (نور عظيم) وهو لحن .

(٣) في الأصل بياض بقدر كلمة ، ومكانها (ظ) .

(٤) العزيز بالله : نزار بن معد (المعز لدين الله) ابن المنصور العبيدي الفاطمي ، أبو منصور صاحب=

هدوء لا يقلقل له مضجع، ولا يساء به قلب ولا مسمع، وما برح أهل مصر في كل جيل يضرب به المثل، فيقول لما يستطيب من الأيام : كأنها أيام العزيز، لأنه كان لين الجانب يعنيه، حسن المناقب عن خشن المقانب يغريه، كرم سجيته بالندى الغمر، ويعزه في الندى هزة الخمر، ووقفت على تاريخ ضبط له، فما رأيت في رسوم ما يحيي من الرعايا مثل عدل أمر به، وظلم بطله، وأمن أراح سيفه، وأنام بطله، وتفسح العزيز في بلاده، وتلقح على العراق ليوطئه سنابك جياده، ودُعي له على منابر الشام، وذكر له على منابر المساجد، وحيي بالسلام، وبلقبه لقِّب السلطان الديِّن ابنه العزيز عثمان، ترجِّياً [ص٥٤] أن تكون أيامه شبيهة بأيامه في الرخاء والأمان، فكانت مثلها في الأمان لا في الرخاء، ونظيرها في الامتنان والسخاء، فإن في أيام العزيز عثمان حدث بمصر غلاء، وارتفع السعر وكان له علاء، ثم عظم أيام عمه العادل، مما ليس هذا بموضع ذكره، ولا تشويش هذا التصنيف بنكره .

قال ابن سعيد : وسفرته من أفريقية إلى مصر وما ظهر منه من حسن التدبير، وهبوب النصر والحزم في الاستيلاء . كسفرة المأمون من خراسان إلى بغداد . قال الروذباري في تاريخهم : حضرت الخطبة للحاكم ابن العزيز، فما قدر أحد يفهم ما يقول الخطيب، لضجيج الناس وبكائهم على العزيز، كان محسنا إلى الخاص والعام، شاملا بالبر للقريب والبعيد، مبذول اليد بالكرم، مسبل الذيل بالفضل، كثير العفو، قليل الانتقام، عوادا بالجميل، منيبا إلى الحق، غير متظاهر بما يذم،

= مصر والمغرب، ولد بالمهدية وبويع بعد وفاة أبيه سنة ٣٦٥ هـ وكانت في أيامه فتن وقلاقل ، وكان كريم الأخلاق حليما يكره سفك الدماء ، مغرى بصيد السباع أديبا فاضلا ، توفي في مدينة بلبيس سنة ٣٨٦ هـ .

(ابن خلدون ٤ / ٥١ ، ابن خلكان ٢ / ١٥٢ ، خطط المقريزي ٢ / ٢٨٤ ، ابن الأثير ٨ / ٢٢٠ ، ٩ / ٤٠ ، بلغة الظرفاء ص ٧١ مورد اللطافة ـ ابن تغري بردي ص ٤ ـ ٦)

ولا داع إلى ما يكره، وتوفي سنة ست وثمانين وثلاث مائة، وولد بالمهدية يوم الخميس الرابع عشر من المحرم سنة أربع وأربعين وثلاث مائة، وولي العهد بمصر يوم الخميس عاشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاث مائة، وولي الخلافة في اليوم الثاني، وله اثنان وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما، وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف شهر .

ثم ابنــه :

٣٦ - الحَاكِمُ بأمْرِ اللّهِ

أبو علي المنصور(١)، ولي وكان صغيراً، وأوتي مُلكاً كبيراً، ولما طُلِبَ للبيعة [كان] قد صعد شجرة جميز في داره بالقصر يلعب فيها مع الصغار، وملك وما كلف خيلَه اضطراد ولا جشَّمها المغار، ثم كبر وظهرت منه أمور ينكرها العاقل، ويكرهها الناقل، لكثرة ما كان عليه أمره من الاختلال، وفكره السقيم من الاعتلال، فإنه كان في كل حين يحدث حكما محدثا، وعلما كأنما كان بها محدثا، فانه كان مع إفراطه في التهور، وخباطه في أموره التي تدل على

---

(١) الحاكم بأمر الله : منصور بن نزار بن معد بن إسماعيل بن محمد العبيدي، متأله غريب الأطوار ، من خلفاء الدولة الفاطمية بمصر، ولد بالقاهرة وسلم عليه بالخلافة في مدينة بلبيس بعد وفاة أبيه سنة ٣٨٦ هـ ، وعمره إحدى عشرة سنة، عني بالفلسفة والنظر في النجوم ، وعمل مرصداً ، واتخذ بيتا في المقطم ينقطع فيه عن الناس ، وأعلنت الدعوة إلى تاليهه سنة ٤٠٧ هـ ، في مساجد القاهرة ، وفتح سجل تكتب فيه أسماء المؤمنين به ، فاكتتب من أهل القاهرة سبعة عشر ألفاً كلهم يخشون بطشه ، وفي سيرته متناقضات عجيبة ، أسرف في سفك الدماء فقتل كثيراً من وزرائه وأعيان دولته وغيرهم ، قُتِل غيلة ، وقيل إن أخته (ست الملك) دست له رجلين اغتالاه وأخفيا أثره سنة ٤١١ هـ .

(خطط المقريزي ٢ / ٢٨٥- ٢٨٩ ، النجوم الزاهرة ٤ / ١٧٦ ــ ٢٤٦ ، ابن الأثير ٩ / ١٠٨ ، ابن إياس ١ / ٥٠)

عدم التصور، ربما حدث بأنواع من [ص٥٥] الحدثان، وتكلم بأسجاع مثل سجع الكهان، وعبدة الأوثان، وبلغ مدة في الكبرياء، ثم بقي مدة لا يأنف من مخالطة الأدنياء، وكان يركب حمارا له ويدور، وقدامه عبدان بأيديهما حربتان، ويشق القاهرة ومصر، ويخالط العامة، ويخرج إلى الحاجر، ويطلع إلى الجبل، ثم ربما ردَّ العبدين وسار وحده، وغاب اليوم واليومين والمدة، ثم يلاقيه الموكب إلى مكان يكون قد واعد إليه العبدين، في وقت يوقته، وميعاد لا يفوته، ثم كشف الغطاء وباح، وقال علوه واستراح، وادَّعى فيه الألوهية، وقال مقالة فرعون، ونصب نفسه للناس طاغوتا، وأخذ بعض الناس بالقول أخذا مبغوتا، وأمر بعض أشياعه بأن يحتال له في إظهار هذه المقالة، وضم إليه قوما من الرجال القالة، فأتى ذلك الداعي الشيطان الرجيم، وأمر بأن يكتب: (بسم الله الحاكم الرحمن الرحيم)، وجرى في هذا من الفتن ما ذهبت به نفائس ونفوس، وانتهبت به أموال ورؤوس، ودارت به دوائر سعود ونحوس، وأماير نعيم وبؤس، مما هو ملء التواريخ، وتتضع له غُرُّ الذرى الشماريخ، تبارك الله وتعالى جده، ولا إله غيره، وتقدس اسمه عما يقول الظالمون، ويجهل الجهال، أو يزل العالمون، ثم لما عظم البلاء به، فتفاقم وسقم به الملك أو تساقم، خافت أخته أمَةُ العزيز المعروفة بست المُلْك، أن يقفر منهم دست الملك، فتلطفت في تلك الحيلة، وأكمنت له رجالاً حتى قتلته غيلة، وكان قد خرج في بعض مخارجه، وتعرض في نواحي حلوان، وطلب جهة برّ لا يأنس بها آنس ولا غيره من الحيوان، ثم طالت غيبته، وخالف عادته في ملاقاته، في الوقت الذي كان يوقته، فتعهد المكان الذي واعد فيه للملتقى، وتُفُقِّد فَفُقد إلى يوم اللقا، ووُجد هناك حماره وجبابه مزررة، كأنها عليه وما فُكَّتْ أزراره، إلا أن فيها آثار ضربات بالسكاكين، ولا عليها دم ولا [ص ٥٦] آثار لوث يبين، فقال الناس مات، وقال أهل شيعته غاب وهو آيب .

قلت : وإلى يومنا هذا، وأظن إلى يوم النشور، ثَمَّ من يقول بغيبة

الحاكم، وإنه لابد أن يرجع ويكون له ظهور، وفيما بين البقاع وبيروت أمم تدين بهذا الدين، وتعتقد ألوهية ذاك اللعين، وكان الحاكم كريما سفاكا، لا يمنع مورده عن الظماء، ولا مهده عن الدماء، لكنه في جميع أموره ثارات، ومرة في اختلاف الأحوال ينفذ فيها العبادات، وولد بمصر في ليلة الخميس الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلاث مائة، وولي بعهد من أبيه، وبويع يوم الخميس سلخ رمضان سنة ست وثمانين وثلاث مائة، وله أحد عشر سنة، وكانت خلافته إلى أن فقد خمسا وعشرين سنة .

قال صاحب بلغة الظرفاء : وسبب عدمه أنه خرج في ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال، بعد أن طاف ليلته كلها على رسمه، وأصبح عند قبر الفُقَّاعي، ثم توجه إلى شرقي حلوان، ومعه ركابيان، فأعاد أحدهما مع تسعة من العرب السويديين، وأمر لهم بجائزة، ثم أعاد الركابي الآخر، ولما عاد ذكر أنه خلفه عند القبر والمقصبة، وبقي الناس على رسمهم يخرجون يلتمسون رجوعه بدواب الموكب كل يوم خميس، إلى سلخ الشهر المذكور، ثم خرج يوم الأحد ثاني ذي القعدة مظفر صاحب المظلة، وحظي الصقلبي، ونسيم متولي السير، وابن سبكتكين التركي صاحب الرمح، وماضي القرشي، مع جماعة كلهم من خواص دولته، فبلغوا دير القصير، والموضع المعروف بنسيوان؟ ثم أمعنوا في الدخول في الجبل، فبينما هم كذلك، إذ بصروا بالحمار الذي كان راكبه على قرنة الجبل، وقد ضربت يداه بالسيف، فأثر فيهما، وعليه سرجه ولجامه، فتُتُبِّع الأثر، فاذا أثر الحمار في الأرض، وأثر راجل خلفه، وراجل قدامه، فما برحوا في طلب الأثر إلى أن انتهوا إلى البركة التي في شرقي حلوان، فنزلها [ص ٥٧] راجل من الرجالة، فوجد فيها ثيابه، وهي سبع جبب، وجدت مزررة لم تُحَل، وفيها أثر السكاكين، فأخذها ماضي وجاء بها إلى القصر، فلم يشك في قتله .

قلت : وقد قيل إن أخته لما خافت على ذهاب الملك لاختلال الأحوال به رتبت له رجالا تقتله، ثم رتبت رجالا لتقتل قتلته، ثم رتبت رجالا لتقتل قتلته، هكذا سبعة أدوار، لتخفي قتله فخفي، [وكانت] امرأة حصيفة وافرة العقل، رأت الهلاك في الأعضاء، فقطعت عضوا لحفظ سائر الأعضاء .

ثم ابنه :

٣٧ - الظَّاهِرُ بإِعْزَازِ دِيْنِ اللَّهِ

أبو الحسن علي(١)، وكان صغيرا، قدَّمتْه عمَّتُه، ورأت أن تحفظ لأبيه نعمته، فبدأت به قبل كبار بيته، ورعت للحي حق ميته، ثم كان له الاسم، ولها التصرف الوافر القسم، وكانت ذات رأي سؤوس(٢) وحفظ لما تدبر وتسوس، فقامت قيام أردشير، ونهضت نهوض خاقان صاحب السرير، وأفكرت فكر بلقيس، وفعلت ما يعجز عنه إبليس، حتى مشت الأمور، ومرت أخلاف(٣) الدهور، ثم كان الظاهر من ذوي السياسات المحمودة، والرياسات المشهودة، والمنافسات على الهمم التي أفنت ماله، وأبقت جوده .

(١) الظاهر الفاطمي : علي بن منصور (الحاكم بأمر الله) ابن العزيز بن المعز الفاطمي العبيدي ، أبو الحسن من ملوك الدولة الفاطمية ، كانت له مصر والشام وخطبة أفريقية، ولي بعد وفاة أبيه سنة ٤١١هـ ، وبعهد منه ، وكانت عمته (ست الملك) أخت الحاكم بأمر الله هي القائمة بأمور الدولة ، لصغر سنه ، واستمرت إلى أن توفيت سنة ٤١٥هـ ، واضطربت أحوال الديار المصرية والبلاد الشامية في أيامه ، وتغلّب حسان بن مفرِّج الطائي شيخ عربان جبل نابلس على أكثر الشام ، ودامت دولة الظاهر قرابة ستة عشر عاما ، وكان محبا للعدل ، فيه لين وسكون ، مع ميل إلى اللهو ، مولده ووفاته بالقاهرة سنة ٤٢٧ هـ.

(ابن خلدون ٤ / ٦١ ، ابن الأثير ٩ / ١١٠ ، ١٥٤، ابن خلكان ١ / ٣٦٦ ، اتعاظ الحنفا ص ٢٧١)

(٢) سؤوس : حسن السياسة .

(٣) مرت : درت ، والأخلاف :جمع خلف ، ضرع الناقة ، كناية عن حسن التدبير وجودة السياسة .

قال مؤلف الكنوز : كان حسن السيرة، كريم النفس، إلا أنه يخلي بلدانه، وولي وهو يحاكي البدر صورة، وكانت الأمور أولا بيد عمّته ست الملك، وهي التي عدلت بالخلافة إليه عن ولي العهد أبي هاشم العباس بن داود بن المهدي، وجيء إليه بأبي هاشم، فبايع والسيف على رأسه، ثم حُبِس وكان آخر العهد به، وكان يشار بالخلافة إلى عبد الرحيم بن الياس بن أحمد بن المهدي، فأدخل عليه الشهود وهو يتشحط في دمائه، فأشهد عليه أنه فعل ذلك بنفسه، ثم قضى نحبه، واستند ابن دواس(١) وعمار بن محمد الوزير(٢)، وهما عن رأي ست الملك، حتى خرج من القصر خصي بسيف مسلول، فدعا بوجوه الدولة، والوزير

---

(١) ابن دواس : حسين (وقيل كليب) ابن دواس الكُتامي . سيف الدولة ، مدبر قتل الحاكم بأمر الله الفاطمي ، كان من شيوخ كتامة ، ومن كبار القواد خدم العزيز بالله (أبا الحاكم)، واستمر في تقدمه في أيام الحاكم ، إلى أن تغيَّر الحاكم عليه وعلى غيره ، ورآه يكثر من زيارة أخته (ست الملك) وتوعدها بالقتل إن زارها أحد ، فانكمش ابن دواس منزويا عنها وعنه ، ولما أزمعت ست الملك أن تقتل أخاها الحاكم ، ذهبت متنكرة إلى دار ابن دواس، وطلبت مساعدته على ذلك ، ووعدته إذا نجحت المؤامرةأن يكون صاحب جيش الظاهر (ابن الحاكم) ومدبره ، وشيخ الدولة والقائم بأمره ، فاستحضر ابن دواس عبدين من ثقاته فكمنا للحاكم في مكان بالجبل أرشدتهما إليه ست الملك ، وقتلاه ، وصار ابن الحاكم خليفة وهو صبي ، وجاء ابن دواس يستنجزها وعدها، فبالغت في إكرامه ، ولما خرج ارسلت للعبيد من قال لهم: هذا قاتل سيدكم ، فأهووا عليه بالسيوف فقطعوه، وقيل : أمرت خادما له فقتله سنة ٤١١ هـ .

(خطط المقريزي ٢ / ٢٨٩ ، النجوم الزاهرة ٤ / ١٨٥ـ ١٩٢ ، ابن الأثير ٩ / ١٠٩ ـ ١١٠ ، شذرات الذهب ٣ / ١٩٣)

(١) عمَّار بن محمد الوزير : أبو الحسين ، من وزراء الدولة الفاطمية بمصر ، تولى ديوان الإنشاء في أيام الحاكم بأمر الله ، وجعلت له الوساطة بين الخليفة وبين طوائف المشارقة الأتراك ، ولقِّب بالأمير الخطير رئيس الرؤساء ، واستمر في الحكم إلى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي ، فخلع عليه للوساطة ، ثم عزل بعد سبعة أشهر ، وقتل سنة ٤١٢ هـ وقيل قتلته ست الملك لإخفاء سرها في قتل أخيها الحاكم .

(النجوم الزاهرة ٤ / ١٨٩ ـ ١٩٢ ، الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٣)

قاعد، وابن [ص ٥٨] دواس، إلى أن جاء فقال : أمر مولانا أن يقتل بهذا السيف قاتل مولانا الحاكم، فنادوه بالسمع والطاعة، ثم صبَّه علي بن دواس فلم يختلف فيه اثنان، وتفرَّد الوزير بالأمور والخاطر معمور به، ثم استدعي به للعادة وقد رتب له في دهليز القصر من قتله . وتحدث حسن بن موسى الكاتب، والأمر لست الملك، ولسانها ويدها أبو القاسم علي بن أحمدالجرجرائي الأقطع(١)، داهية الأرض، ثم استقل لما ماتت، وعمَّر حتى وزر للمستنصر، وولد بمصر يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان سنة خمس وتسعين وثلاث مائة، وبويع يوم عيد النحر سنة إحدى عشرة وأربع مائة، وله من العمر ثلاثون سنة، وكانت خلافته ست عشرة (٢) سنة، قال صاحب بلغة الظرفاء : كانت خمس عشرة سنة(٣) [في الأصل : خمسة عشر سنة] وثمانية أشهر إلا أياما .

ثم ابنـه :

٣٨- المُسْتَنْصِرُ بالله

أبو تميم معد بن الظاهر(٤)، وهو الذي تباينت أحواله وتناوبت أفراحه

---

(١) علي بن أحمد الجرجرائي : أبو القاسم نجيب الدولة ، وزير من الدهاة ، ولد بجرجرايا (بسواد العراق) وسكن مصر ، وتنقل في الأعمال السلطانية بالريف والصعيد ، وكثر التظلم منه في أيام الحاكم ، فقبض عليه واعتقل سنة ٤٠٣هـ وأطلق ، ثم صدر الأمر بقطع يديه فقطعتا ، ثم ولي ديوان النفقات ولقب بنجيب الدولة ، واستوزره الظاهر الفاطمي ، وأقره بعده المستنصر ورفع مكانته ولقب بالوزير الأجل الأوحد صفي أمير المؤمنين ، توفي سنة ٤٤٦ هـ .

(الولاة للكندي ص ٤٩٧,٤٩٩ ، الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٥، وفيات الأعيان ١ /٣٦٧ في ترجمة الظاهر ب الحاكم ، سير أعلام النبلاء الطبقة ٢٣)

(٢) في الأصل :(ستة عشر سنة)، وهو لحن .

(٣) في الأصل : (خمسة عشر سنة) ، وهو لحن .

(٤) المستنصر الفاطمي : أبو تميم معد بن علي (الظاهر لإعزاز دين الله) ابن الحاكم بأمر الله ، من=

وأهواله، وطالت مدته، فكانت ستين سنة، وتنوعت سنين سيئة وسنين حسنة، ولم يُسمع بمثلها لخليفة ولا لملك مشهور في هذه الملة، ولا امتدت لأحد ممن كان بعده ولا قبله، وكاد في وقت تملك الأرض كلها، وتكفل البلاد وأهلها، وخُطِب له ببغداذ، وكان نصيبه إرقالٌ وأغذاذ، حتى كان يُعَدُّ مع الاسكندر، ويُحسَب أنَّه تُبَّعُ حِميَر، ثم ضعف أمره حتى كاد لا تطيعه أمته، ولاتجاب برجع الصدى كلمته، وكان كالطيف له وجود ولا حقيقة له، وكالعدم هو شيء وما قدر أحد أن يمثله، ولما مُلِّكت له بغداد، ونسخ براياته البياضُ السوادَ، قال أبو دلف الخزرجي :

دار السلام مَشَاءِ بدعوة ابن الرسولِ — جاء النهار وولَّى ظلامُ تلك الذحولِ

ما إنْ رأيتُ خضابا جماله في النصولِ — نورٌ من اللهِ وافى يهدى لكلِ جهولِ

وجاءه الحسن بن الصباح القائم بالدعوة الراديَّة ؟ من خراسان، في زي [ص٥٩] التجار، ودخل عليه فقرر معه ما يمثل، وقال له في آخر كلامه : ومن ولي عهد المسلمين ؟ فقال : ولد في نزار، فمضى ابن الصباح إلى بلاد العجم، وأقام الدعوة التي دامت إلى عصرنا هذا، وقامت بعد ذلك بالشام بقلاع الدعوة.

قال ابن سعيد : إنه جاوز في أمد الخلافة ستين سنة، ولم يبلغ هذه المدة خليفة بالمشرق، وكانت له من خزائن الأموال، وعظم الأمر ونفوذه، واتساع

= خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، مولده ووفاته فيها، بويع وهو طفل بعد موت أبيه سنة ٤٢٧ هـ ، وقام بأمر الدولة وزير أبيه أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي، ثم تغلبت أمه على الدولة، فكانت تصطنع الوزراء وتوليهم ، ومن استوحشت منه أوعزت بقتله فيقتل ، حدث في زمنه غلاء شديد بمصر حتى بيع رغيف الخبز بخمسين دينارا، ودام الجوع سبع سنين ، وكان كالمحجور عليه في أيام بدر الجمالي وابنه شاهنشاه بن بدر ، إلى أن توفي سنة ٤٨٧ هـ .

(النجوم الزاهرة ٥ / ١ ــ ٣ ، اتعاظ الحنفا ص ٢٧٧ ، ابن خلكان ٢ / ١٠٣، ابن إياس ١ / ٥٩ ، ابن خلدون ٤ / ٦٢ ابن الأثير ٩ / ١٥٤، ١٠ / ٨٢)

الخطبة وفيضها على أقطار المشرق والمغرب ما يطول ذكره، ثم انعكس عليه ذلك، فاقتنصت البلاد منه واضطرمت الفتن بحضرته بالقاهرة، وافتقر وضعف أمره، وآل حاله إلى أن قال لشخص من خواصه طالبه بشيء : والله لقد أصبحت لا ينفذ لي أمر [من] مكاني إلى باب قصري، ولاأملك مالا إلا ما تراه عليَّ وتحتي، ورأيت بخط قاضي القضاة أبي العباس أحمد بن خلكان[١]، أن المستنصر كان في الغلاء قد صار لا يملك إلا فرسا واحدا، وقنيت دوابه الناس، وكان إذا أراد الركوب استعار بغلة صاحب الإنشاء ليركبها حامل المظلة معه .

قال صاحب بلغة الظرفاء : ولد سادس عشر جمادى الآخرة سنة عشرين وأربع مائة، وبويع له في نصف شعبان سنة سبع وعشرين وأربع مائة، وهو في سن التمييز، وتوفي ليلة الخميس الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربع مائة، وله من العمر تسع وستون سنة وخمسة أشهر .

ثم ابنه :

٣٩ - المُسْتَعْلِيُّ

أبو القاسم أحمد[٢]، وهو قد كان مستعليا ببذل نشبه، لا بأصل نسبه،

---

(١) ابن خلكان : أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الأربلي ، أبو العباس، المؤرخ الأديب الحجة صاحب وفيات الأعيان، وهو أشهر كتب التراجم وأحسنها ضبطا وإحكاما ، ولد في إربل وانتقل إلى مصر فاقام فيها مدة، وتولى نيابة قضائها ، وسافر إلى دمشق ، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام ، وعزله بعد عشر سنين ، فعاد إلى مصر فاقام سبع سنين ، ورد إلى قضاء الشام، ثم ولي التدريس في كثير من مدارس دمشق ، وتوفي فيها ودفن في سفح قاسيون سنة٦٨١هـ .
(النجوم الزاهرة ٧ /٣٥٣، فوات الوفيات ١ /٥٥ ، البداية والنهاية١١ /١١٣ ، روضات الجنان ١ /٨٧)

(٢) المستعلي بالله : أحمد بن معد(المستنصر بالله) ابن الظاهر علي بن منصور ، أبو القاسم ، من ملوك الدولة الفاطمية بمصر ، بويع بالخلافة سنة ٤٨٧هـ ، بعد وفاة أبيه المستنصر ، وكانت في=

قيل : إنه دَعِيٌّ في أولئك الأدعياء، ومدخول النسب في أولئك الأشقياء، قيل في أمِّه قولاً، وإن كان لا يصرِّحُ بمثله، ولا يلوِّحُ به، إلا ليتحرزمن قبح فعله، وكان الحجر عليه مضروبا، وليس بيتيم ولا سفيه ومضرورا، وله من الملك محق ما يكفيه، لكنه لغلبة الوزراء وعزل بصيرته في دفع الضراء، وولد في العشرين من المحرم سنة سبع وستين [ص ٦٠]، سنة كأنما كانت بأنواع الضوائق مئين .

ثم ابنه :

٤٠ - الآمِرُ بأحْكَامِ اللَّهِ

أبو علي المنصور[١] ولي وهو ابن خمس، وبويع وما أُنزل أبوه الرمس، وقام

= أيامه وقائع كثيرة ، بين أمير جيشه الأفضل شاهنشاه وجموع الصليبيين في عسقلان وغيرها من بلاد الشام ، وملك الصليبيون بيت المقدس فاستمروا فيه ثلاث سنين ، حكم سبع سنوات وتوفي سنة ٤٩٥ هـ .

(ابن خلدون ٤ / ٦٦ ، ابن إياس ١ / ٦٢ ، ابن خلكان ١ / ٥٧ ، مرآة الزمان ٨ / ٢)

(١) الآمر بأحكام الله : منصور بن أحمد (المستعلي بالله) ابن معد(المستنصر) أبو علي العبيدي الفاطمي ، من خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، ولد في القاهرة وبويع له بعد وفاة أبيه سنة ٤٩٥هـ وعمره خمس سنين ، فقام وزير أبيه الأفضل بن بدر الجمالي بشؤون الدولة ، وفي أيامه استفحل أمر الصليبيين في الساحل الشامي ، فاستولوا على عكا وطرابلس وبانياس وصور وبيروت، ولما كبر الآمر عمد إلى التخلص من وزيره الأفضل ، فدس له جماعة فقتلوه سنة ٥١٥هـ وتظاهر بالحزن عليه ، وولى بدلا منه محمد بن فاتك البطائحي ، فاستثقله فقبض عليه واستصفى أمواله ثم قتله سنة ٥٢١ هـ ، وساءت سيرة الآمر فظلم الناس وأخذ أموالهم وسفك الدماء وارتكب المحظورات ، كان مؤثرا للذاته طموحا إلى المعالي ولكنه قاعد عنها، بقي في الخلافة تسعا وعشرين سنة ثم اعترضه بعض الباطنية (الفداوية) وهو مار على جسر الروضة بين الجيزة والقاهرة فضربوه بسيوفهم فمات بعد ساعات ، ولا عقب له ، قيل : وابتهج الناس بقتله سنة ٥٢٤ هـ .

(وفيات الأعيان ٢ / ١٢٠، النجوم الزاهرة ٥ / ١٧٠ــ ١٨٥، ابن إياس ١ / ٦٢، ابن الأثير ١٠ / ١١٤، ٢٣٧، خطط المقريزي ٢ / ٢٩٠ ــ ٢٩١ حلي القاهرة ص ٨٣ ، بلغة الظرفاء ص ٧٨ منقريوس ١ / ٣٤٤ ـ ٣٤٧)

بدولته الأفضل ابن أمير الجيوش(١) وزير أبيه، وكان هو وزيره والذي يربيه، وكان أبا براً، إلا أنه أبى أن يفك عنه حجرا، ولم يزل يربيه على الشهامة، ويرتبه ترتيب الإمامة، إلى أن اشتدت ساعده، فرماه وأصابه من حيث لا يرى فأصماه، وكان الآمر أسمرَ(٢) شديد السمرة، شهما لا تخمد له جمرة، عليَّ الهمة، بليَّ العَزْمَة، لا يبعد عليه منال، مهما رام نال، وكان الأفضل مدة وزارته له، قد عامل الرعية بإحسان، وأبرز أيامه فيما يروق من الاستحسان، وكان من قلوب الرعايا بمحل، ما ثوى في غيره ولا حل، فلما مات وجدت لفقده، وجدَّت في البكاء عليه والوقوف على لحده، وخلف من خزائن الأموال المملوءة ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، وكذلك وجد له من الجواري وحلى النساء، ما لو كوشف به الليل لمحا آية المساء، ويحكى من حسن اهتمامه بعمارة الأرض وتغليقها، ببذل البذار وتنميقها، بما لا يزال ولاة الأعمال منه على جانب الحذار، أنه استجلب أردبين قمحا غرائب الزريعة، أراد أن يجعلهما للاختبار الذريعة، فأخرهما حتى فرغ أوان الزرع، ولم يبق لمحراث في الأرض قرع، ثم بعث بالأردبين أحدهما إلى الصعيد، والثاني إلى أسفل مصر، وكتب إلى والي كل عمل منهما، بأن يبذر إردبَّه ويستكمل زرعه، ولا يؤخر منه حبة، فأجابه أحدهما بأنه قد فعل، وأجابه الآخر بأنه اجتهد على تحصيل أرض فارغة لبذارها فما حصل، فعرف اهتمام الأول بتغليق عمله، وإهمال الثاني، حتى

---

(١) الأفضل شاهنشاه : أحمد بن بدر الجمالي ، أبو القاسم الملقب بالملك الأفضل ، وزير مولده بعكا ، خلف أباه في إمارة الجيوش المصرية ، أرمني الأصل داهية جيد الرأي حسن السياسة ، وطَد دعائم الملك للآمر بأحكام الله ، ثم نقم عليه الآمر فدس له من قتله على مقربة من داره بالقاهرة ، وكان أول من استوزره المستنصر جد الآمر ، كانت ولايته ٢٨ سنة قتل سنة ٥١٥ هـ .

ابن الأثير ١٠ / ٢٠٩ ، ابن خلكان ١ / ٢٢١ ، ابن خلدون ٤ / ٧٠ ، النجوم الزاهرة ٥ / ٢٢٢ ، البداية والنهاية ١٢ / ١٨٨ ـ ١٨٩ ابن الوردي ٢ / ٢٨ ، مرآة الجنان ٣ / ٢١١)

(٢) في الأصل : (أسمراً) وهو لا ينصرف .

وجد لذلك الأردب مكانا من معطله، فأنعم على الأول وشكره، وقبض على الثاني وسمَّره، ثم لما مات وزَّر الآمر المأمون بن البطائحي، وأقامه وفوَّض إليه الزعامة، وكان هو المتقلد [ص ٦١] بالتفويض، وبه نجز الأمر يزجر ويغيض، وهو يراجع في الأمر الآمر، ويرجع إلى ما يأمر به ويستأمر، والآمر يركب وينزل ويتصيَّد، ويتخلَّى عن موضعه ويتفرَّد، وكان يتحدث في أمور ما يكون، وما يتجدد من الحركات والسكون، وحكى بعض من كان له به اجتماع، أنه أراه كتابا فيه صور مصورة، ومنيَّات مختلفة، وفيها صورته قد قتل وهو على فرس أشهب، وألقي إلى جانب جسر أكهب(١)، ثم قال لي أتعرف هذه الصورة ؟ فقلت : لا، فقال : بل تعرف هذه الصورة، وما أظنه إلا وقد آن الوقت، فما مضت سنة حتى رأيت الآمر راكبا بالجيزة على فرس أشهب مارًّا مع الجسر كأنه ذلك المصور ثم تفرد، وانقطع عنه الموكب، فخرج عليه جماعة رجال في سلاح كانوا قد اتَّعدوا على قتله، فرقبوه حتى تفرد عنه جسر الجيزة وقطعوه بأسيافهم. قال الحاكي : فجئت حتى كنت فيمن وقف عليه على تلك الصورة، ما أخطأ منها شيئا، وحكي أن الآمر بينا هو في موكبه قبلي بركة الحبش(٢)، إذ تقدَّمهم، فمرَّ رجل على باب بستان له، وحوله عبيد وموال له، فاستسقاه ماء، فسقاه، فلما شرب قال : يا أمير المؤمنين، قد أطمعتني في السؤال، فان رأى أن يكرمني بنزوله لأضيفه، فقال : ويحك، معي الموكب، فقال : وليكن يا أمير المؤمنين، فنزل فأخرج الرجل مائة بساط، ومائة نطع، ومائة وسادة وفرشها، فصارت مدَّ البصر، ثم أخرج مائة طبق بوارد، ومائة طبق فاكهة، ومائة جام

---

(١) الأكهب : الأغبر المشرب بسواد .

(٢) بركة الحبش : هي أرض في وهدة من الأرض واسعة طولها نحو ميل مشرفة على نيل مصر ، خلف القرافة ، وقف على الأشراف، وهي من أجلِّ متنزهات مصر، وعندها بساتين تُعرف بالحُبش، والبركة منسوبة إليها. (ياقوت : بركة الحبش)

حلوى، ومائة زبدية أشربة سكرية كلها، فبهت الآمر، ثم قال له : أيها الرجل خبرك عجيب، فهل علمت بهذا فأعددت له ؟ فقال : لا والله يا أمير المؤمنين، وإنما أنا رجل تاجر من رعيتك، لي مائة حظية، فلما أكرمني أمير المؤمنين بنزوله عندي أخذت من كل واحدة شيئا من فرشها، ورأيت أكلها وشربها [ص٦٢] ولكل واحدة في كل يوم طبق طعام، وطبق بوارد، وطبق فاكهة، وجام حلوى، وزبدية شراب، فسجد الآمر شكرا وقال : الحمد لله الذي في رعايانا من يسع حاله هذا، ثم أمر له بما في بيت المال من الدراهم، ضرب تلك السنة، فكان ثلاثة آلاف ألف وسبع مائة ألف درهم، ثم لم يركب حتى أحضرها فأعطاها للرجل، وقال له : استعن بهذه على حالك ومروأتك، ثم ركب وانصرف .

ومن الكنوز قال : وحكاياته مع البدوية التي عشقها وتزوج بها عند أهل مصر شبيهة بالخراف، قال ابن الفوطي : هي العالية، وكانت قد وصفت للآمر، فتزيّا بزي العرب حتى رآها، ثم أرسل لها خاطبا لها إلى أهلها وتزوج بها، فلما وصلت إليه صعب عليها فراق البرِّ، فبنى لها بالجزيرة البناء المعروف بالهودج، وكانت متعلقة الخاطر بابن عم لها ربيت معه يعرف بابن ميَّاح، فكتبت إليه :

[الرمل]

يابنَ ميَّاحٍ إليك المشتكى		من مليكٍ بعدكم قد مَلِكا
كنتُ في حُبِّي مطاعاً آمراً		نائلاً ماشئتُ منكم مُدْركا
فأنا الآنَ بقَصْرٍ موصدٍ		لا أرى إلا حبيساً ممسكا
كم تثنينا بأغصانِ اللوي		حيث لا يخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمي		حيثما شاء طليقٌ سلكا

فكتب إليها :

[الرمل]

بنتَ عمرو والتي عذبتها ... بالهوى حتى علا واحتنكا
بُحتِ بالشكوى وعندي ضعفها ... لو غدا ينفعُ منا المشتكى
مالكُ الأمرِ إليه يُشتكى ... هالكٌ وهو الذي قد أهلكا
شأن داود غدا في عصرنا ... مبدياً يا ليته قد ملكا

فبلغت الآمر، فقال : لولا أنه أساء الأدب في البيت الرابع [ص ٦٣] لرددتها إلى حيِّها وزوجتها به .

وولد الآمر يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم سنة تسعين وأربع مائة، وقتل يوم الثلاثاء ثالث ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمس مائة، وله من العمر أربع وثلاثون سنة، وكانت خلافته تسعا وعشرين سنة، ولم يعقب . ثم ابن عمه :

٤١ - الحَافظُ لدِيْنِ اللّه

أبو الميمون عبد المجيد[١] بن أبي القاسم محمد بن المستنصر معد، وأبوه لم

---

(١) الحافظ لدين الله : عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله العبيدي ، أبو الميمون من خلفاء الدولة الفاطمية (العبيدية) بمصر، ولد في عسقلان وتملك الديار المصرية سنة ٥٢٤هـ ، بعد موت الآمر بأحكام الله ، واستقام له الأمر زمنا، وكان كثير الفتك بوزرائه وخاصته ، استوزر أحمد بن الفضل الجمالي ، وساء ه منه أن يتصرف بالأمور دونه فقتله ، واستوزر أبا الفتح يانساً الحافظي فرأى استبدادا منه في الرأي فسمَّه، وفوَّض الأمر إلى ابن له يدعى سليمان، فمات لشهرين من ولايته، وأقام ابنا آخر له اسمه حسن ، فارتفعت إليه وشاية به فقتله بالسم ، واستوزر أميرا أرمنيا يدعى تاج الدولة بهرام . ثم قتله، وباشر بعد ذلك أمور الدولة بنفسه ، فلم يولِ وزارته أحدا إلى أم مات بمصر سنة ٥٤٤ هـ .

(ابن الأثير ١١ / ٥٣، شذرات الذهب ٤ / ١٣٨، وفيات الأعيان ١ / ٣٠٩، ابن إياس ١ / ٦٤، اتعاظ الحنفا ص٢٨٤، حلى القاهرة ص ٨٦)

ينل، وعلى كاهل المنبر لم يعتل، وبويع له في اليوم الذي مات فيه الآمر بولاية العهد، ولم يصرح له بالخلافة ليروا رأيهم فيما بعد، واستولى على ملكه أبو علي أحمد بن الأفضل أمير الجيوش، وارتقى منه مرتقى عليًّا، وكان إماميا لا إسماعيليا، فأسقط اسم الحافظ عن المنابر ودعا لأئمة الإمامية والمهدي المنتظر، وأرى الإسماعيلية الموت وكل سرب محتضر، ثم تقدم إلى المؤذنين بأن لا يذكر أحد آل إسماعيل في الأذان، ويبطلوا ما كان زاد فيه من قولهم : محمد وعلي خير البشر، ثم قُتل أحمد بن الأفضل ورجع الأمر إلى الحافظ، وسُلِّم الملكُ منه إلى الحافظ، وبويع البيعة العامة، وصرح باسم الخلافة، ولقِّب ذلك اليوم بالحافظ، وسُلِّم عليه بإمرة المؤمنين، وهو أول يوم لقب بهذا اللقب، وسلم عليه ذلك السلام، وأنجز له منه أمله المرتقب، وكان الحافظ لا قدر عنده لمال، ولا صدر بعض بآمال، لأنه كان يسابق بداية الأمل، فبدأ به على كل عمل بما نقل له كل كثير المواهب، ويصغر كبير النعم الذواهب، ولما استقل أعاد الدعوة الإسماعيلية، وشد حبلها المنتكث، وقوي سم أفعوانها المنبعث، وأزال دعوة الإمامية وما طيب سميه إلا بسميه .

ومن الكنوز قال : كان موصوفا بالبطش والتيقظ حتى إنه سطا على ولده وولي عهده، قال : وللشعراء [ص ٦٤] فيه أمداح فيها غلو لا يحل سماعه، ولا روايته، وكان لهم نفاق[١] في مدته، وجعل لهم صناعا ورواتب، وأنزلهم في مراتب على قدر أقدارهم . قال القوطي : كان شديد المنافسة لا يريد لأحد فعلا غيره، كان وهم بما رده الله دونه من نقل ساكن المدينة الشريفة زادها الله به تشريفا، فخسف الله بمن جُهِّز لذلك في سرابهم[٢] الذي حفروه، وقيل بل

---

(١) نفاق : أي رواج .

(٢) السرب : المسلك في خفية، وحفير تحت الأرض لا منفذ له ، وفي التنزيل (فاتخذ سبيله في البحر سَرَبا) (الكهف ٦١).

هلكوا بريح خرجت عليهم، وأنشد أمثلة مما قيل فيه أكثرها لأبي الحسن الأخفش المغربي وأقربها قوله:

[الرمل]

فترى الناسَ جميعا خُلِقوا   من ضلالٍ وهو من نور الهدى
فادخلوا البابَ وقولوا حطَّةً   سَمِعَ اللهُ لمن قد حَمِدا

وولد في سنة سبع وستين وأربع مائة، ومات في نصف جمادى الآخرة سنة ثلاث، وقيل أربع وأربعين وخمس مائة، وكان في سنة موته قد بلغ النيل في زيادته الباب الحديد، فطولع بذلك، فقال : أعدوا لي الأكفان، ثم أخرج كتابا عنده من كتب الحدثان فيه : إذا وصل الماء إلى الباب الحديد فليتجهَّز إلى الله الإمام عبد المجيد، وكان الأمر هكذا، لم يلبث أن مات .

ثم ابنه :

٤٢ - الظَّافِرُ بأمْرِ اللَّهِ

أبو الطاهر إسماعيل[(١)]، وكنَّاه مؤلف الكنوز أبا منصور، وهكذا كناه الجليس في شعر ذكره فيه، وكان في ميعة الشباب مغرى بمتعة الشباب، مولعا بحب الأحداث، وموضعا لا يبالي بغرة الأحداث، ووزرله علي بن السلار،

(١) الظافر بامر الله : إسماعيل بن عبد المجيد الحافظ، بن محمد المستنصر، بن الظاهر بن الحاكم بأمر الله العلوي الفاطمي ، أبو المنصور، من ملوك الدولة الفاطمية بمصر والمغرب، ولدفي القاهرة، وولي بها الخلافة صغيرا بعد وفاة أبيه (الحافظ لدين الله)سنة ٥٤٤هـ ، وبعهد منه، ولم يطل زمنه ، كان كثير اللهو ولوعا باستماع الأغاني ، من أحسن الناس صورة، وفي أيامه أخذت عسقلان، فظهر الخلل في الدولة ، وإليه ينسب الجامع الظافري في القاهرة ، قتله أحد رجاله غيلة بها سنة ٥٤٩ هـ .

(النجوم الزاهرة ٥ /٣١٩، ابن الاثير ١١ /٥٣ ــ ٧٢،ابن خلدون ٤ /٧٣، ابن خلكان١ /٧٧، ابن إياس ١ /٦٤ ــ٦٥ ، خطط المقريزي ١ /٣٥٧)

وحمله أوق أثقاله[١]، وقلده طرق أعماله، وسوَّغه فوق ما في احتماله، ثم قتله على يد ابن امرأته عباس بن تميم الصنهاجي واستبدله عوضه، وألقى إليه أمر الملك وفوَّضهُ، ثم كَلِفَ الظافر بابن وزيره وشغف به شغفا حل في شغاف ضميره، فكان لا يرى السرور إلا في مداناته، ولا الراحة إلا في الوجد به ومعاناته، ثم حفر سرابا[٢][ص ٦٥] بين داريهما، وكانا فيه يلتقيان ويفعلان وما يبقيان، وشاع خبرهما، وبقي الوزير منكس الرأس لا يرفع طرفا حياء، ولا يجد الدنيا عليه إلا ظلاما لا ضياء، فأعمل في اغتياله الحيل، وأسرع إليه، وما طالت به الطِّيَل، وتوصل إليه بابنه فقتله، واتخذ ذلك السراب موضع دفنه .

ومن الكنوز : إنه لما تم لعباس الأمر في قتل الظافر ركب القصور وقال : بلغني أن أخوي الظافر يوسف وجبريل، وابن أخيه أبا البقاء بن حسن بن الحافظ قتلوه بمواطأة مفلح زمام القصر، ثم أحضرهم وضرب أعناقهم، وحمل من القصر ما أراد، ولم يخفَ عن الناس أنها من فِعْلاته، وصنعت المراثي فيهم واستنجد بابن رزَّيك وهو يمنيه ابن خصيب، وممن كتب إليه في هذا الجليس بن الحباب .

وحُكي أن عباساً جلس للمنادمة، فلما أخذت الكأس منه قال : تبًّا لمن يعتقد إمامة هؤلاء، ويقول إنه لا يكون إمام إلا بوصية، والله لقد قتلت الظافر ولا علم عنده بذلك حتى يوصي، ولقد استعرضت أقاربه كالغنم إهانةً وذبحاً، وقدمت هذا الملقب بالفائز وعمره خمس سنين، وعلى يدينا ذهبت دولتهم بالمغرب، وكذلك تذهب بالمشرق، فقتله الله وقتل ولده بالظافر، وكان قتله في نصف المحرم سنة تسع وأربعين وخمس مائة، ومدة خلافته خمس سنين وستة أشهر وأيام .

---

(١) الأوق : الثقل والشؤم .

(٢) السرب : المسلك في خُفية ، وحفير تحت الأرض لا منفذ له ، وفي التنزيل العزيز : (فاتخذ سبيله في البحر سَرَبا)

ثــم ابنــه :

٤٣ - الفَائِزُ بنَصْرِ اللّه

أبو القاسم عيسى[١] وكان لا يخب إلى غاية قلوصا ولا عَنْسا[٢]، لا يخرج به ولا يوسى، ولا يزجر بطير سعودا ولا نحوسا، وبويع بعد أبيه، فطلب الوزير عباس بن تميم قاتله وسن شفاره، وقصد مقاتله فهرب قدّامه، فقتله الفرنج وطلب النجاة، فلم ينجُ، واستوزر الفائز أبا الغارات طلائع بن رُزّيك[٣]، وخاطبه بالتمليك، وسمّاه الملك الصالح، وأنزله منه بمكانة لا يؤثر فيها قدح

(١) الفائز بنصر الله : عيسى بن إسماعيل الظافر، بن الحافظ، أبو القاسم العبيدي الفاطمي، من ملوك الدولة الفاطمية بمصر ، بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٥٤٩ هـ، وهو طفل ، فتولى عباس بن أبي الفتوح (وزير أبيه والمتهم بقتله) تدبير شؤونه، وكتب نساء القصر إلى طلائع بن رزيك (وكان واليا على الأشمونين والبهنسة) يشتكين ويستغثن ، فاقبل ابن رزيك ، وخافه ابن أبي الفتوح، فعبر النيل ، فاعترضه بعض الإفرنج فقتلوه، وقام ابن رزيك بالوزارة وإدارة الملك ، ومات الفائز صغيرا، ومولده ووفاته بالقاهرة سنة ٥٥٥ هـ .

(ابن خلكان ١ / ٣٩٥، دول الإسلام للذهبي ٢ / ٥١، ابن الأثير ١١ / ٧٢ـ ٩٦، ابن خلدون ٤ / ٧٥، ابن إياس ١ /٦٦).

(٢) القلوص : الناقة الفتية المجتمعة الخلق ، والعنس : الناقة القوية، شبهت بالصخرة لصلابتها .

(٣) طلائع بن رزيك : الملقب بالملك الصالح أبي الغارات ، وزير عصامي ، يُعد من الملوك ، أصله من الشيعة الإمامية في العراق، قدم مصر فقيرا ، فترقى في الخدمة، حتى ولي منية ابن الخصيب(من أعمال الصعيد المصري) ، وسنحت له فرصة فدخل القاهرة بقوة ، فولي وزارة الفائز سنة ٥٤٩هـ، واستقل بأمور الدولة ، ونعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين، ومات الفائز سنة ٥٥٥هـ وولي العاضد ، فتزوج بنت طلائع فكرهت عمة العاضد استيلاء طلائع على أمور الدولة وأموالها، فأكمنت له جماعة من السودان في دهليز القصر فقتلوه وهو خارج من مجلس العاضد ، وكان شجاعا حازما مدبرا جوادا ، عارفا بالأدب شاعرا ، وكان لا يترك غزو الفرنج في البر والبحر ، ولعمارة اليمني وغيره مدائح ومراث فيه ، كان مقتله سنة ٥٥٦ هـ.

(مرآة الزمان ص ٢٣٧ ، خريدة القصر قسم شعراء مصر ١ / ١٧٣ ، المقريزي ٢ / ٢٩٣، ابن خلكان ١ /٢٣٨، دول الإسلام ٢ / ٥١)

القادح [ص ٦٦]، وكان له اسم المُلك، وهو المالك الحائز، وله لا لأمرة الأمر الجائز، والغنى والغناء، وسواه العائز، وكان الفائز معه كالظل كيف ما مشى يتبعه، وكالجليس مهما قال يسمعه، أطوع له من الشراك، وأسرع من فيه الظبي في الأشراك، وكان ابن رزيك من أجل وزراء تلك الدولة، وأسبغهم إنعاما، لا يقصِّر طوله، وكان عارفا بالأدب، مكرما لأهله، منعما عليهم بفائض سجله، وله شعر لا يؤخر جواد قريحته، ولا يشم دخان الند[١] إلا من ريحته، ولا تتفجر المعاني إلا من فجر صبيحته، ولا تصاب المفاصل إلا بصقال صفيحته[٢]، ووفد في زمانه الفقيه عمارة اليمني[٣]، ونوَّله ما يرتجيه من غاية الأماني، وفيه يقول :

[الطويل]

دعوا كل برقٍ شمتمُ غيرَ بارقٍ ... يلوحُ على الفسطاط بارقُ نشرهِ
وزوروا المقامَ الصالحي فكلُّ مَنْ ... على الأرضِ يُنْسى ذكْرُهُ عندَ ذكْرِهِ
ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغِنى ... فتحنو على مجدِ المقامِ وفخْرِهِ

(١) النَّد : ضرب من الطيب يتبخر به .

(٢) الصفيحة : السيف .

(٣) عمارة اليمني : عمارة بن علي بن زيدان الحكمي المذحجي ، مؤرخ ثقة وشاعر أديب فقيه من أهل اليمن، ولد في تهامة ورحل إلى زبيد، وقدم مصر برسالة من القاسم بن هشام (أمير مكة) إلى الفائز الفاطمي سنة ٥٥٠ هـ في وزارة طلائع بن رزيك، فأحسن الفاطميون إليه وبالغوا في إكرامه، فأقام عندهم ومدحهم ، ولم يزل مواليا لهم حتى دالت دولتهم، وملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية ، فرثاهم عمارة ، واتفق مع سبعة من أعيان المصريين على الفتك بصلاح الدين، فعلم صلاح الدين بهم فقبض عليهم وصلبهم بالقاهرة وعمارة في جملتهم ، له ديوان شعر وتصانيف، كان مقتله سنة ٥٦٩ هـ.

(ابن خلكان ١ /٣٧٦، صبح الأعشى ٣ / ٥٣٢، السلوك للمقريزي ١ /٥٣، مفرج القلوب ١ /٢١٢-٢١٦)

ولكـن سلـوا منه العُلـى تظفـروا بهـا ... فـكـلُّ امـريء يُـرجى على قـدْرِ قَـدْرِهِ

وأراده الصالح على الدخول في مذهبهم للدخول، وراوده من يلزمه به أن يقول، وكتب إليه :

[الكامل]

قُـل للفـقـيـه عـمـارة يا خـيـرَ مَـنْ ... أضـحى يؤلِّفُ خطبـةً وخطابا

أقـبِـلْ إلينـا لا تحِـدْ عـن هَـدْيـنـا ... قُـلْ حطَّـةً وادخلْ علينا البـابا [1]

تجِـدْ الأئمَّـةَ شـافـعـينَ ولا تجِـدْ ... إلا لـدينـا سُنَّـةً وكـتـابـا

وعلـيَّ أن يعلـو مـحلُّـك في الورى ... وإذا شـفـعت إليَّ كنتَ مـجابا

وتعـجُّـل الآلافَ وهـي ثلاثـةٌ ... ذهبٌ وحـقِّـكَ لا تُعَـدُّ ثـوابـا

وكان الفقيه عمارة شافعي المذهب، لا يحول عنه ولا يذهب، فكتب إليه ما يدلُّ على حسنِ معتقده، ونقض ذلك الزخرفَ من يده :

[الكامل]

يا خـيـرَ أمـلاكِ الزمـانِ نصـابـا ... حاشاك من هذا الخطابِ خِطابا [ص٦٧]

لـكـن إذا مـا أخـربت علمـاؤكم ... معـمورَ معـتـقدي فـصار خرابا

فـاشـدُدْ يديـكَ على قديـم مودَّتـي ... وامنُـنْ عليَّ وسـدَّ هـذا البـابا

فسكت عنه لسان إكراهه، وسكن مثل هذا القول وأشباهه، وبقي عمارة أدنى جليس إلى رُتَبِهم، وأنيسٍ على مباينته لمذهبهم، وأتى يوما إلى حضرة الصالح بن رُزَيِّـك فأسدى إليه صنيعا قبَّل به يده، ثم خرج فرأى ممَّن يؤمله من قبَّل ومجَّده، فقال :

---

(١) قل حطة : الحطة طلب المغفرة وهو من قوله تعالى :(وادخلوا الباب سجَّداً وقولوا حِطَّةٌ نغفر لكم خطاياكم) (البقرة ٥٨).

[الكامل]

ملكٌ إذا قابلتُ نورَ جبينه فارقْتُهُ والنورُ فوقَ جبيني
وإذا لثمتُ يمينَهُ وخرجتُ من أبوابه لثم الملوكُ يميني

ولّما طال بعمارة العُمْر، وذاق طعمَ عيشها المر، رثى بني رُزَيِّك بمراثٍ عوتب عليها، فقال إيهاً وأنشد : [البسيط]

زالت ليالي بني رُزَيكَ وانصرمت والحمدُ والذمُّ فيها غيرُ منصرمِ
كان صالحهم يوماً وعاد لهم في صدرِ ذا الدستِ لم يقعد ولم يقمِ
ولم يكونوا عدواً لان جانبهم وإنما غرقوا في سيلكَ العَرِمِ
فلو فتحتُ فمي يوماً بذمهمُ لم يرضَ برُّكَ إلا أنْ تسُدَّ فمي
ولو ذكرتُ لياليهم ونُضْرَتَها وحسنَها لم يكن بالدهرِ من قدمِ

ثم ابن عمِّه :

٤٤ - العَاضِدُ لِدِيْنِ اللّه

أبو محمد عبد الله بن يوسف(١) ابن الحافظ عبد المجيد، بويع له بعد الفائز سنة خمس وخمسين وخمس مائة، ولم يكُ أبوه [في] الخلافة، ولا دارت في

(١) العاضد لدين الله : عبد الله بن يوسف بن الحافظ العلوي الفاطمي، أبو محمد ، آخر ملوك الدولة الفاطمية (العبيدية) بمصر والمغرب، بويع له بمصر سنة ٥٥٥ هـ بعد موت الفائز ، وكان الضعف قد ظهر على رجال هذه الدولة ، واستبد الوزراء والمستشارون من الترك وغيرهم بالأمر ، وفي أيامه قوي السلطان صلاح الدين (يوسف بن أيوب)، وتولى وزارته وتصرف في شؤون الملك، ثم قطع خطبته ، وأمر بالخطبة للمستضيء بالله العباسي ، وكان العاضد في مرض موته ، فمات ولم يعلم بذلك، فهو آخر من دعي بأمير المؤمنين من العبيديين الفاطميين بمصر، وآخر من ولي الخلافة منهم ، وكانت مدتهم ٢٦٨ سنة ، وتوفي العاضد سنة ٥٦٧هـ .

(النجوم الزاهرة ٥ /٣٠٧، ٣٣٤ ــ٣٥٧، ابن الأثير ١١ /٩٦، ١٣٧، ابن خلدون ٤ /٧٦، ٨١، ٨٢، ابن خلكان ١ /٢٦٩، اتعاظ الحنفا ص ٢٨٧ــ ٢٩٣ ابن رياس١ /٦٧)

جلده، ولا كان يظنها تصل إليه ولا إلى ولده، وبايعه الناس وهو طفل لا قدر عليه ولا كفل، وقام بأمره الصالح طلائع، وقرر له المصالح الروائع، ودام على مراعاة حاله ونهايته في التدبير نهاية العمل عليه في التدمير، وقيل إن العاضد لما فعل كان كالمتعاضد(١) حتى أكمنت له المنايا كمون الشجاع، ووثبت له وثبة الأسد المفترس إذا جاع، وغالته [ص ٦٨] حيث لا يقدر على الارتجاع، ولا يقتدر على الانتجاع، ولبدتْ له في دهليز قصره، وفي موضع حصره، فقتل في الدهليز، وقيل : من أين أُتي في هذا الكنف الحريز، وما أُتي إلا من ذلك الكنف، ولا لحقه لولا تلك الحياة التلف، ولا خُطَّ طائرُه إلا من موضع أسف، وأظهر عليه العاضد الأسف، وكمدوا لبدره كيف انخسف، ثم استوزر العاضد ابنه رُزيك بن طلائع(٢)، ولقَّبَهُ بالملك العادل، وقال : هذا لهذا يعادل، ثم قتل رزيك بعد سنتين، وكان هو وأبوه بالنسبة إلى ملوكهما حسنتين لا سيئتين فإنهما كانا ممن يتوسع في العطايا، ويترفع عن المؤاخذة بالخطايا، وكان قتله بأيدي العرب لما أخرجه شاور قريبا من القاهرة، وأسف العاضد عليه، وخاف أن يتكلم إن تكلَّم، فوزَّر شاور(٣) ولُقِّب أمير الجيوش، وكان داهية ثلاَّلا للعروش،

---

(١) قلت في النص غموض ، والمراد أن عمة العاضد كرهت استيلاء ابن رزيك على الحكم فدبرت قتله، وكان العاضد موافقا لتدبيرها، انظر هامش ترجمة طلائع بن رزيك

(٢) رزيك بن طلائع وزير عراقي الأصل ، نشأ بمصر في بيت أبيه (الصالح بن رزيك) وولي أبوه الوزارة للفائز الفاطمي سنة ٥٤٩هـ ، ثم للعاضد سنة ٥٥٥هـ ، ،دست عمة العاضد من قتل الصالح، وكان العاضد صغير السن ، فحلف أنه برىء من قتله، واستوزر رزيك بعد أبيه سنة ٥٥٦هـ ، فكان أول ما باشره هذا قتل عمة العاضد وشركاءها في قتل أبيه، وعزل شاور بن مجير السعدي والي قوص، فثار عليه هذا، وضعف رزيك عن لقائه ، فاعتقله شاور وقتله في محبسه بحجة أنه أراد الهرب سنة ٥٥٧ هـ . (ابن خلدون ٤ / ٧٦).

(١) شاور بن مجير بن نزار السعدى : أبو شجاع من بني هوازن ، أمير من الولاة فيه نجابة وفروسية ، يلقب بأمير الجيوش، ولي الصعيد الأعلى بمصر، في أيام العاضد، ثم قام بثورة استولى بها على وزارة مصر، بعد أن قتل رزيك بن صالح سنة ٥٥٧هـ ، واتهم بممالأة الإفرنج وأنه استعان بهم=

فلاًّلا للعزائم ولم يُخْلِ الفروش، قلاَّبا للدول غلاَّبا على الملوك والخول، إلا أنه كان قصير الباع في الدفاع، حقير الرباع في اليفاع، لكنه كان ذا كيد ينصبُ أشراكه، ويلقي له عمامته وشراكهُ، لم يخفِ نقيصةً تنسب إليه فيما فعل، ولا فيما وضع له نفسه وجعل، ومدحه عمارة على كرهه له ولأيامه، وأنفته منه ومن أنعامه، ولكنه خافه فداراه، وكان يود ألا يراه وما تراه، ومما قال فيه:

[الكامل]

ضجر الحديد من الحديد وشاورٌ ... في نصرِ دينِ محمدٍ لم يضجَرِ
هانتْ عليهِ النفسُ حتى إنه ... باعَ الحياةَ فلم يجدْ منْ يشتري
حلف الزمانُ ليأتيَنَّ بمثلهِ ... حنثتْ يمينُكَ يا زمانُ فكفِّرِ

وكان بعد ذلك في تقريب عمارة، ويخصه بمحل القرب والإشارة، ثم غلب ضرغام بن سور على الوزارة وابتزها وقطع دونها غلاصم المطامع واحتزَّها، وأخرج شاور من القاهرة يتعثر بأذياله ويتخيَّر [ص ٦٩] طريق احتياله، ولقب ضرغام بالملك المنصور، وكتب له السجل الأشرف المنشور، ووجَّه شاور وجهه إلى الحضرة النورية، فوفد عليها وفادة حسان[١] على أهل جلّق، ورأى نورها رؤية الحطيئة لنار المحلق[٢]، ثم خرج في الصحب الأسدية الشيركوهية إلى

= على دفع أسد الدين شيركوه عن دخول مصر، فاتفق مع العاضدعلى قتله، وعهدا إلى صلاح الدين (وكان لا يزال قائدا) فتولى قتله أمام قبر الشافعي بالقاهرة، وبعث برأسه إلى العاضد، توفي شاور سنة ٥٦٤ هـ.

(ابن الأثير ١١/ ١٢٥، ابن خلدون ٤/ ٧٧ـ ٧٩ ، ابن خلكان ١/ ٢٢٠ ، كتاب الروضتين ١/ ١٣٠)

(١) يريد به حسان بن ثابت الشاعر، وأهل جلق هم الغساسنة .

(٢) المحلق بن ختم الكلابي العامري اشتهر بأبيات قالها فيه الأعشى من قصيدة فيها قوله :(نفى الذم عن رهط المحلق جفنة)وغلب لقب المحلق على اسمه .

(ديوان الأعشى ص١٤٩، العقد الفريد ٥/ ٣٢٩)

مصر، وخرج ضرغام وتلاقيا على بِلْبِيس[1] وأجلت الوقعة عن قتل ضرغام وانتصار الأسد الهمام، وانهزم جيش ضرغام إلى القاهرة، ودخل شاور القصر ووزر الوزارة الآخرة، وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمس مائة، ونكث عهود شيركوه ومواثقه وساسي تجشمه المشقة وطريقه، ثم خاف شاور فراسل الفرنج مستنصرا، فجاءه الملك مري في خلق كبير، فتحصن شيركوه في قلعة بلبيس، واجتمع شاور ومري عليه، وأحدق به العدو وحصره، وأنجز الله وعده وأيد شيركوه[2] ونصره، وخرج سالما إلى دمشق، ثم لم يعلم به حتى وصل إلى إطفيح[3] وعدَّى إلى الجيزة، وأقام بها مدة وأنفذ شاور إلى مري واستصرخه، وملأ زقه الفارغ ونفخه، وبذل له مالا عظيما ووعده بمشاطرة

(١) بلبيس : بكسر الباءين وسكون اللام، مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، فتحت سنة ١٨أو ١٩ على يد عمرو بن العاص .

(ياقوت : بلبيس)

(٢) شيركوه : الملك المنصور شيركوه بن شاذي بن مروان، أبو الحارث، أول من ولي مصر من الأكراد الأيوبيين، وهو أخو نجم الدين أيوب ، وعم السلطان صلاح الدين، كان من كبار القواد في جيش نور الدين (محمود ابن زنكي) بدمشق ، وأرسله نور الدين على رأس جيش إلى مصر سنة ٥٥٨هـ، نجدة لشاور بن مجير السعدي، وذهب إليها ثانية سنة ٥٦٢هـ لنجدة ابن أخيه صلاح الدين ، وقد حاصره شاور في الإسكندرية ، فأصلح ما بينهما ، وقويت صلته بالمصريين ، وعلم بأن شاور يأتمر لقتله هو ومن معه من كبار القواد، فتعاون مع صلاح الدين على قتل شاور، فقتله وأرسل رأسه إلى الخليفة العاضد، فدعاه العاضد وخلع عليه ولقبه بالملك المنصور، وولاه الوزارة، كان عاقلا مدبرا شجاعا، ولم يقم غير شهرين وخمسة أيام ، وتوفي فجاة ، ودفن بالقاهرة سنة ٥٦٤ هـ .

(النجوم الزاهرة ٥ / في صفحات متعددة، ابن خلكان ١ /٢٢٧، ابن عساكر ٦ /٣٥٨ ، ابن خلدون٥ /٢٠٢، مورد اللطافة ـ ابن تغري بردي ص ٢٣ـ ٢٤)

(٣) إطفيح : بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطىء النيل في شرقيِّه، وفي قبلته مقام موسى بن عمران عليه السلام، فيه موضع قدمه، ينسب إلى إطفيح بعض العلماء .

(ياقوت : إطفيح)

البلاد، فحمى لأجله ووافاه بخيله ورَجْله، ثم عدَّى إلى الجيزة واندفع شيركوه إلى الصعيد[١] فلحقوه في الناس قريب منية ابن خصيب، ووقف لهم شيركوه وواقفهم، فانكسر شاور والفرنج، وأخذ صاحب قيسارية أسيرا، ووصل إلى شاور بالفرنج إلى القاهرة مهزومين، وسار شيركوه إلى الاسكندرية فدخلها وأقام بها مدة، وسمع بها شاور والملك مري، فجيَّشوا جيوشا عظيمة وأتوا الإسكندرية في طلبه، فنزل بها ابن أخيه صلاح الدين في شرذمة قليلة وأصعد هو وعسكره إلى الصعيد، فجبى منه مالا جليلا، وأقام شاور على الإسكندرية خمسة وسبعين يوما، ثم رجع شيركوه حتى نزل على [ص٧٠] القاهرة ونازلها، وضيق على من فيها، فصالحوه على أنه يرتفع عنها، ويرتفع شاور عن الإسكندرية، ثم خرج صلاح الدين واجتمع بعمه شيركوه، وأتى شاور القاهرة وأقام مدة فوافاه الملك الرومي صاحب الشام والسبتار في جمع عظيم، فنزلوا على بلبيس وفتحوها عنوة وقتلوا رجالها وعجلوا آجالها، وسبوا نساء ها وأطفالها، وأبكوها بكاء التوجع والتوعج فعدت آمالها، وسمع شاورفخرج إلى مصر وأحرقها ونهبها، ونكر محاسنها وأذهبها، وترك الرومي على القاهرة وعوَّل على فتحها، ثم عدل على صلحها، فبذل له أهلها مائتي ألف دينار، فما قنع بها، وطلب ألفي ألف، فرأى العاضد ووجوه دولته أن يستعينوا بشيركوه، فأتى هو وجيوشه العاضد وأدركوه وراسلوا نور الدين فأمدهم بجيوش ما سمعوا بخبرها، حتى رأوا طلائع عسكرها، فلما سمع به الفرنج ارتحلوا لا يلوون على شيء، ودخل شيركوه القاهرة، وخلع عليه العاضد خلعا سنية، وأضافه ضيافة تامة، وأقام له الأتراك، ونزل بظاهر القاهرة، ثم كان شاور يتردد إليه، فخرج إليه يوما مسلما فأوقع به صلاح الدين ومن معه، وقتل ابنه شجاع الملقب بالكامل، وكان خيرا

---

(١) الصعيد : بمصر بلاد واسعة كبيرة فيها مدن عظام ، منها أسوان وقوص وقفط وإخميم ، والبهنسا وغير ذلك . (ياقوت : الصعيد)

من أبيه يأمره بالخير، وأشار عليه ألايستنجد بالفرنج، فقال : دعني من رأيك فإنني أخاف ألا أملك، فقال له : أن تهلك وأنت وحدك خير من أن تهلك أهل مصر كلهم، وكذلك قُتل ابنه احرطي الملقب بالمعظم، وأخوه فارس المسلمين، وطيف برؤوسهم على الرماح، وخلع على شيركوه بالوزارة في سابع عشر جمادى الأولى سنة أربع وستين وخمس مائة، وتوفي يوم الأحد الثالث والعشرين من رجب منها، ثم وزر بعده صلاح الدين يوسف، ثم قطع خطبة[ص٧١] العاضد بعدها، وخطب للمستضيء، ولم يعش العاضد بعدها إلا أياما يسيرة ثم مات، ومشى صلاح الدين وعليه طيلسان وعمامة في الجنازة، وقعد للعزاء وبكى بكاء لم يشفِ به الحزازة، فانه ندم على ما كان من خلع رداء تلك الدولة خوفا من نور الدين لا يقصده ويطلب ما يحتج به فلا يجد ما كان يجد بالعبيديين من الحجة في ملاواته[١] والتستر بهم من سهام مناواته، ثم كان يقول : لو علمت بسرعة أجله ما روعته بالخلع، واختُلِف في موته، فقيل : إنه علم بالخلع فسمّ نفسه، والجمهور على أنه كان عليلا وأخنى عنه ضر الخلع، ومات حتف أنفه، وأُخذ أهل القصر وحُبِسوا، وفُرِّق بين الرجال والنساء قطعا لنسلهم واجتاثا[٢] لشجرتهم الخبيثة من أصلهم، وكانت مدة ملكهم منذ فتحوا مصر إلى أن خُلِع العاضد مائتين وخمس عشرة سنة، وكان صلاح الدين يشكر العاضد ويصف كرمه ويقول : استمددته بمال لسداد دمياط فأمدني بألف ألف دينار من العين والعروض، وكان لا يزال يتذكره ويتندم على فعله، حيث لا يمكنه استدراك الفارط، ولا يقدر على استرجاع الفائت، ومرَّ عمارة بالقصر[٣] فرآه خاوي الأركان خالي الأقطار من السكان، وكان يعهده لسجود

(١) ملاواته : مخالفته ومماطلته .

(٢) في الأصل : اختثاثا ، والصواب : اجتثاثا ، أي قطعا واستئصالا .

(٣) هو عمارة اليمني ، وقد مرت ترجمته .

الجباه قبلا، ولعقود الشفاه ينظم قُبُلا، وتذكر سالف إحسانهم، وتبصر طائف طيف زمانهم، فما ملك عبرته ولا مل حسرته، وقال:

[**البسيط**]

رميتَ يا دهرُ كفَّ المجد بالشللِ ... وجيده بعد حسن الحلي بالعطلِ
سقيت في منهج الرأي العثور فإنْ ... قدرت من عثرات الدهر فاستقلِ
خدعت مارنك الأقنى بأنفك لا ... ينفك ما بين أمر الشين والخجلِ[ص٧٢]
هدمتَ قاعدة المعروف عن عجلٍ ... سُقيت مُهْلاً أما تمشي على مَهَلِ (١)
لهفي ولهفُ بني الأملاك قاطبةً ... على فجيعتها في أكرمِ الدولِ
قدمتُ مصرَ فأولتْني خلائفَها ... من المكارمِ وما أربى على أملي
قومٌ عرفتُ بهم كسبَ الألوفِ ومن ... تمامها أنَّها جادتْ ولم أسَلِ
وكنتُ من وزراء الدست حيثُ سما ... رأسُ الحصانِ بهاديه على الكَفَلِ
ونلتُ من عظماءِ الجيشِ مكرمةً ... وخلَّةً حُرِسَتْ من عارضِ الخَلَلِ
يا عاذلي في هوى أبناءِ فاطمةٍ ... لكَ الملامة إنْ قصَّرتَ في عَذَلِ
باللهِ جُزْ ساحةَ القصرينِ وابكِ معي ... عليهما لا على صفِّينَ والجَمَلِ
وقل لأهليهما واللهِ ما التحمتْ ... فيكم جراحي ولا قرحي بمندملِ
ماذا تُرى كانت الإفرنجُ فاعلةً ... في نسلِ آلِ أمير المؤمنين علي
وقد حصلتم عليها واسم جدكمُ ... محمَّدٍ وأبوكم غيرُ منتحَلِ
مررتُ بالقصْرِ والأركانُ خاليةٌ ... من الوفودِ وكانت قِبْلَةَ القُبَلِ
فملْتُ عنها بوجْهٍ خَوفَ منتقدٍ ... من الأعادي ووجهِ الودِّ لم يَملِ
أسبلتُ من أسفي دمعي غداةَ خَلَتْ ... رحابكم وغدتْ مهجورةَ السُبُلِ

(١) المُهل: المعدن المذاب والقطران والقيح.

أبكي على خَضِراتٍ من مكارمكمْ حالَ الزمانُ عليها وهي لم تَحُلِ
دارُ الضيافةِ كانت أُنْسَ وافدكُم فالآنَ أوحَشَ من رَسْمٍ ومن طَلَلِ
وفطرةُ الصومِ إنْ أضحتْ مكارمكم تشكو من الدهر حيفاً غير محتملِ
وكسوةُ الناسِ في الفصلينِ قد درسَتْ ورثَّ منها جديدُ عندهم وبلي
وموسمٌ كان في يومِ الخليجِ لكم يأتي تجملكم فيهِ على الجُملِ
وأولُ العامِ والعيدينِ كم لكمُ فيهنَّ من وبْلِ جَودٍ ليسَ بالوشَلِ
والأرضُ تهتَزُّ في يومِ الغَديرِ كما تهتزُّ ما بينَ قصريكم من الأسلِ
والخيلُ تعرضُ في وشيٍ وفي شَبَهٍ مثلُ العرائسِ في حَلْيٍ وفي حُلَلِ
وما حملتم قِرى الأضيافِ من سَعَةِ الأطباقِ إلاّ على الأكتافِ والعجلِ[ص٧٣]
وما خصَصْتُمْ ببرٍّ أهلَ ملّتكُم حتَّى عَمَمْتم به الأقصى من المِلَلِ
كانت رواتبكم للوافدين وللـ ـضيفِ المقيمِ وللطاوي من الرسُلِ
ثم الطرار بتنّيْسِ التي عظُمَتْ من الصِّلات لأهلِ الأرضِ والدوَلِ
وللجوامعِ من أخماسكم نِعَمٌ لمن تصَدَّرَ في علمٍ وفي عَمَلِ
وربَّما عادتِ الدنيا فمعقِلُها منكم وأضحت لكم محلولة العُقَلِ
والله لا فاز يوم الحشرِ مبغِضُكُم ولا نجا من عذابِ النارِ غيرُ ولي
ولا سُقي الماءَ من حَرٍّ ومن ظمأ من كفِّ خيرِ البرايا خاتمِ الرُّسُلِ
أيمّتي وهُداتي والذخيرةُ لي إذا ارتهنتُ بما قدَّمتُ من عملي
تاللهِ لم أوفِهِمْ في المدح حقَّهُمُ لأنَّ فضلَهُمُ كالوابلِ الهَطِلِ
ولو تضاعفتِ الأقوالُ واستبقتْ ما كنتُ فيهم بحمد الله بالخَجِلِ
بابُ النجاةِ فهم دُنْيا وآخرة وحُبُّهم فهو أصل الدينِ والعَمَلِ
نورُ الهُدى ومصابيحُ الدجى ومحلُ الغيثِ إنْ وَثَبَ الأنواء في المحلِ

أئِمَّــةٌ خُـلِـقـوا نـوراً فنـورُهُــمُ مـن نـورِ خـالصِ نـورِ اللـهِ لـم يَغُــلِ
واللـهِ لا زلـتُ عـن حُبِّـي لهـم أبـداً مـا أخَّـرَ اللـهُ لـي في مُدَّةِ الأجَـلِ

وذكـر ابن الأثيـر أنـه لما اشـتـد مرضُ العـاضـد، أرسل إلى صـلاح الدين يستدعيه ليوصيه، فظن أن ذلك خديعة، فلم يمضِ إليه، فلما توفي علم صدقه فندم عليه وعلى تخلفه عنه .

وحكى مؤلف الروضتين قال : اجتمع بي الأمير أبو الفتوح ابن العاضد وهو محبوس مقيَّد سنة ثمان وعشرين وست مائة، فأخبرني أبو الفتوح قال : إن أبي لما مرض استدعى صلاح الدين فحضر، ثم جمعنا وأحضرنا، يعني أولاده، ونحن صغار، فأوصاه بنا، فأكرم إكرامنا واحترامنا، قال قاضي القضاة جمال الدين محمد بن واصل لما جرى لمؤتمن الخلافة ما جرى، وقيل : وكل صلاح الدين بالقصر قراقوش الأسدي(١)، وجعله بزمام [ص ٧٤] القصر مقامه، فرتب في القصر، فما كان يدخل إلى القصر شيء ويخرج إلا بمرأى منه ومسمع، فضاق خناق أهل القصر بسببه، فلما مات العاضد، عرض صلاح الدين من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدد والآلات، والذخائر النفيسة، فأطلق من ثبتت حريته، ووهب الباقي، وأخلى الدور، وأغلق القصور، وأخذ ما صلح له

(١) قراقوش الأسدي : قراقوش بن عبد الله، أبو سعيد بهاء الدين، أمير نشأ في خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي، وناب عنه في الديار المصرية، كان هماما مولعا بالعمران، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ، وبنى قلعة الجبل ، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، ولما أخذ صلاح الدين مدينة (عكة) من الفرنج ولاه عليها، ثم لما عادوا واستولوا عليها أسروه، فافتكه السلطان صلاح الدين بعشرة آلاف دينار، وفرح به فرحا عظيما ، وتنسب إليه أحكام عجيبة في ولايته ، قال ابن خلكان : الظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان يعتمد في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه ، و(قره قوش) كلمة تركية معناها (العقاب) الطائر المعروف، توفي قراقوش بالقاهرة سنة ٥٩٧ هـ .

(ابن خلكان ١ / ٤٢٩، ذيل الروضتين ص ١٩ ، النجوم الزاهرة ٦ / ١٧٦)

ولأهله وأمرائه وخواص مماليكه وأصحابه من نفائس الذخائر والجواهر والملابس، ومن جملة ذلك الدرة اليتيمة والياقوتة الغالية القيمة، والمصوغات العنبر، والأواني الفضية، والصواني الصينية، والمنسوجات المغربية، والممزوجات الذهبية، وغير ذلك مما لم يقع عليه الإحصاء، وأسرف في العطاء والبذل، وأطلق البيع بعد ذلك فيما دون ذلك، واستمر البيع مدة عشر سنين، وكانت خزانة الكتب تزيد على مائة ألف وعشرين ألف مجلدة، وفيها من النفائس التي لا يكاد يوجد مثلها، ومنها ما هو مكتوب بالخطوط المنسوبة التي لا توجد في خزانة أحد من الملوك، فتملك صلاح الدين الأملاك التي كانت لهم، وضربت الألواح على رباعهم ودورهم، ثم ملك بعضها خاصته وأمراؤه، وبعضها أذن ببيعه، ووهب الفاضل من الكتب عن آخرها، وأزال مبسم تلك الأنام، ومحا رسوم تلك البنية، فتكدرت مواردهم المشرعة، وتعفَّتْ آثارُهم بالكليَّة، إن في ذلك لموعظةً وذكرى لأولي الألباب .

قال ابن مماتي[1] : ولم تشهد التواريخ بانقضاء دولة كانقضاء دولتهم على حالة سكون وأحمد قضية تكون، قال : واتفقت بعدهم غرائب، فمنها أن بعض أمراء المصريين صار نوَّابا على باب داره في خدمة من أعطيت له، وآخر صار أمينا في بعض ما كان في إقطاعه، قال ابن مماتي : وجرى [ص ٧٥] يوما

---

(١) ابن مماتي : أبو المكارم أسعد بن مهذب الملقب بالخطير ابن مينا بن زكريا بن مماتي، وزير وأديب ، كان ناظر الدواوين في الديار المصرية ، كان نصرانيا فأسلم هو وجماعة في ابتداء الدولة الصلاحية، قال القفطي : من أقباط مصر في عصرنا كان جده جوهريا يصبغ البلور صبغة الياقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر ، له قوانين الدواوين ، ونظم سيرة صلاح الدين ، ونظم كليلة ودمنة، والفاشوش في أحكام قراقوش ، وهو ينسب إلى السيوطي خطأ وغير ذلك ، توفي سنة ٦٠٦ هـ .

(وفيات الأعيان ١ /٦٨ ، معجم الأدباء ٢ / ٤٠٤ ، إنباه الرواة ١ / ٢٣١ ، النجوم الزاهرة ٦ /١٧٨ ، خريدة القصر قسم شعراء مصر ١ / ١٠٠ ، حسن المحاضرة ١ /٣٢٥ ، شذرات الذهب ٥ /٢٠)

حديث المصريين في مجلس القاضي الفاضل، فسألته : كم كانت عدتهم في عرض ديوان الجيش لما كان متوليه أيام رزيك بن صالح ؟ فقال : كانت أربعين ألف فارس ونيِّفاً وثلاثين ألف من السودان . وحكى أن الأمير الكبير باركوج اشترى من الديوان السلطاني عدة آدر وخرابات بمصر ليستعين بأنقاضها على عمايره، وكان من جملتها دار كبيرة وصفت له وذكرت عنده، فتوجه إليها، وتسرع الغلمان لإزعاج من فيها، فسمعهم يبكون فسُئل عن ذلك، فقيل له : هؤلاء بعض عيال المصريين، فلما أخرجوا من دورهم بالقاهرة آووا إلى هذه الدار، وهم لا يعرفون أين يذهبون إذا خرجوا، فبكى واستدعى بعضهم برفق وأطاب قلوبهم ووهبهم الدار، وكتب لهم خطة بها، وجعلهم على ثقة من التصرف فيها، وما فسح لهم في بيعها أن آثروا الانتفاع بها، وانصرف عنهم معتذرا . وقال ابن مماتي : حدثني الشريف النسابة النقيب أسعد بن الحواتي، قال : سكنت في مصر بدار عتيقة الأشرف، وكانت لي زوجة كنت أبات أنا وإياها في بادهنج بها، فاستيقظت ليلة فقالت : رأيت في النوم قائلا يقول لي : احفروا تحت الطيلسان الرخام الذي تحتكم وخذوا ما تجدونه من المال اتنفقوا به، فقد آن ظهوره، فقلت لها أنا رجل فقير، وهؤلاء الأشراف لا يطاقون، وأخاف أن ينكسر الطيلسان في قلعه ولا نصيب شيئا فأتعجل الغرامة، ومنعتها منه بكل حيلة، ثم رأت المنام بعينه مرة أخرى، وجريت على العادة في الامتناع، ثم رأت المنام ثالثا وكأنه يقول لها : أنتم محرومون، وما مضت إلا أيام يسيرة حتى أحرقت مصر، فما شعرت إلا وجماعة كبيرة من السودان قد هجموا الدار وقصدوا البادهنج فقلعوا الطيلسان واستخرجوا من تحته سماوية نحاس يكون فيها قدر مائة ألف [ص ٧٦] دينار فأغمي عليَّ وكدت أقتل نفسي غيظا لما فاتني من الغنى، وسألتهم أن يعطوني ولو مائة دينار، فما فعلوا، وخرجوا كأنهم دخلوا دارهم وأخذوا مالهم .

وقال ابن مماتي : ومن غريب ما جرى في حريق مصر أن رجلا عمد إلى برنية[١] صير، فجعل فيها ألف دينار لتسلم من الريب، فما لبث أن هجم الغوغاء عليه بيته، فلم يكن له همٌّ إلا النجاة بنفسه، فتحامل إلى باب زويلة[٢]، فبينا هو قاعد يستريح، وإذا ببعض من كان هجم عليه ومعه برنية الصير، فاشتراها منه بدرهمين، ثم ذهب فاستخرج منها الذهب، وشرى به جميع ما أخذ له، ولم يزل يضارب فيه حتى نما وارتزق به .

وقال ابن مماتي : حدثني القاضي الفاضل قال :كان من أهل مصر رجل وله ابنة مستحسنة، فلما أحرقت مصر ونهبت أموال أهلها، خرج إلى البر العربي، وسكن في بعض الضياع، وقعد في حانوت، واتفق لنائب القطع أن رأى الابنة فهويها فتعلق قلبه بها فضيق عليها وتعرض لها، فما ظفر بمقصوده، وخطبها من أبيها فما رضي أن يكون زوجا لها، فتسلط عليه وقصده وآذاه، ولم يزل يدقق عليه الحيل إلى أن كتب عليه وثيقة بعشرة دنانير إلى أجل مسمى، وقدر أنها تتعذر عليه، فجدَّ[٣] السبيل إلى أخذ البنت، قال : فلما كان في اليوم الذي يجب عليه فيه المبلغ، وقد أيس الرجل من نفسه، وأيقن بالشر، جاء إليه شاب فاشترى منه بدرهم عسلا وانثنى عنه، فسقطت منه خرقة مشدودة، فأخذها وحلها فوجد فيها عشرة دنانير، فأخفاها معه وقال : أخلِّص بها نفسي من هذا الظالم، وأجتهد في تحصيل العوض وإيصاله إلى صاحبها، فلما كان غير ساعة حتى حضر إليه الخصم وطالبه، ورفعه إلى القاضي، فأعطاه العشرة دنانير التي وجدها، وأخذ الشهادة عليه بها، وعاد إلى حانوته وقد كفاه الله ما كان

---

(١) البرنية : إناء واسع الفم من خزف او زجاج ثخين .

(٢) باب زويلة : زويلة محلة وباب بالقاهرة ، وهناك مواضع أخرى باسم زويلة منها زويلة السودان مقابل أجدابية، وزويلة في طرابلس، وزويلة المهدية بإفريقية. (ياقوت : زويلة)

(٣) جد السبيل : قطعه ، أي عُدم الوسيلة .

يخشاه[ص ٧٧] من أذاه، فما استقر جالسا حتى جاء إليه الشاب الذي وقعت منه الخرقة، فقال :

اجعلني في حل، فإنني كنت اشتريت منك العسل ووقعت مني خرقة فيها عشرة دنانير، فظننت أنك أخذتها، ولما جئت إليك وجدتها الساعة مرمية في طريقي، فعجب الرجل، وحضر الخصم فقال له : اجعلني في حل فقد تبت إلى الله من الظلم والذهب الذي أخذته منك وقع مني لأنه كان حراما، وكنت فيه ظالما، فأقبل الرجل على شكر الله تعالى، وذكره وشاع في أهل الناحية أن الله سبحانه وتعالى أعانه على ما فك به نفسه، ثم أعاده إلى صاحبه، عناية منه به، وكانت وفاة العاضد سنة سبع وستين وخمس مائة .

[دولة الحسينيين]

٤٥ - ذِكْرُ دَوْلَةِ الزَّيْديِّ القَائِم بالكُوْفَةِ

وهو أبو عبد الله محمد بن محمد(١) بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أقامه أبو السرايا(٢) بالكوفة بعد ابن طباطبا،

(١) الزيدي : محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة بنت علي بن جعفر بن إسحاق بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو الخارج في أيام أبي السرايا لما مات محمد بن إبراهيم ابن طباطبا سنة ١٩٩هـ ،أقامه أبو السرايا مكان ابن طباطبا وكان حدثا، فكان أبو السرايا هو الذي ينفذ الأمور ويولي من أحب ويعزل من يريد، وإليه الأمور كلها، فلما قاتله قواد المأمون جيء بمحمد أسيرا إلى المأمون، فأمر بدار فأسكنه فيها وجعل فيها فرشا وخادما، فأقام مدة ثم دُسَّت إليه شربة فكان يختلف كبده وحشوته حتى مات، وكان سمه بمرو سنة ٢٠٢هـ .

(مقاتل الطالبيين ص ٥١٣ ــ ٥٥٠، الطبري ١٠ / ٢٢٨، ابن الأثير ٦ / ١١٢)

(٢) أبو السرايا : السري بن منصور الشيباني، ثائر شجاع من الأمراء العصاميين، يذكر أنه من ولد هانيء بن قبيصة الشيباني، كان في أول أمره يكري الحمير، وقوي حاله فجمع عصابة كان=

وأقامه على منبر الخلافة خاطبا، غلب على الكوفة وسادها، واستوثق له أمر رعيتها وأجنادها، وقام أبو السرايا ينفذ الأمور بأمره، ويعمل لمكايد الحرب جهد فكره، ثم إن الحسن بن سهل[١] لما بلغه هزيمة زهير، وعزيمة أبي السرايا على قذفه بموج الضير، جهز إليه جيشا أمَّر عليه عبدوس بن محمد، وأمره بقتاله، فأقبل حتى نزل قرب الكوفة، وزحف إليه أبو السرايا واقتتلوا قتالا شديدا فأُسر عبدوس وقتل جميع من كان معه، وأحضر أبو السرايا عبدوس[٢] وضرب عنقه،

= يقطع بها الطريق، ثم لحق بيزيد بن مزيد الشيباني بأرمينية ومعه ثلاثون فارسا، فجعله من القواد، فاشتهرت شجاعته، ولما نشبت الفتنة بين الأمين والمأمون انتقل إلى معسكر هرثمة بن أعين، وصار معه نحو ألفي مقاتل، وخوطب بالأمير، ولما قُتل الأمين نقص هرثمة أرزاقه وأرزاق أصحابه، فخرج في نحو مائتي فارس فحصر عامل عين التمر، وأخذ ما معه من أموال ففرقه في أصحابه، ثم استولى على الأنبار، وذهب إلى الرقة وقد كثر جمعه، فلقيه بها ابن طباطبا العلوي (محمد بن إبراهيم) وكان قد خرج على بني العباس، فبايعه أبو السرايا، وتولى قيادة جنده، واستوليا على الكوفة، فضرب أبو السرايا بها الدراهم، وسيَّر الجيوش إلى البصرة ونواحيها، وعمل على ضبط بغداد، وامتلك المدائن وواسط، واستفحل أمره، وأرسل الأمراء والعمال إلى اليمن والحجاز وواسط والأهواز، وتوالت عليه جيوش العباسيين فلم تضعضعه إلى أن قتله الحسن بن سهل، وبعث برأسه إلى المأمون، ونصبت جثته على جسر بغداد سنة ٢٠٠ هـ .

(الطبري ١٠ /٢٢٧، مقاتل الطالبيين ص ٥١٨ ط أحمد صقر، البداية والنهاية ١٠ /٢٢٤)

(١) الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي : أبو محمد، وزير المأمون وأحد كبار القادة والولاة في عصره، اشتهر بالذكاء المفرط والأدب والفصاحة وحسن التوقيعات والكرم، وهو والد (بوران) زوجة المأمون، وكان المأمون يجله ويبالغ في إكرامه، وللشعراء فيه أماديح، أصيب بمرض السويداء سنة ٢٠٣هـ فتغير عقله حتى شُدَّ بالحديد ثم شفي منه قبل زواج المأمون بابنته، والحسن هو أخو ذي الرياستين الفضل بن سهل، كانا من أهل بيت الرياسة في المجوس، وأسلما هما وأبوهما سهل في أيام الرشيد، توفي الحسن في سرخس من بلاد خراسان سنة ٢٣٦هـ .

(تاريخ بغداد٧ /٣١٩، وفيات الأعيان ١ /١٤١، ابن الوردي ١ /٢١٧)

(٢) عبدوس بن محمد : وقيل عبدوس بن عبد الصمد، من قواد الحسن بن سهل قائد المأمون، قاتله أبو السرايا فقتله وانتهب عسكره .

(الطبري ١٠ /٢٢٨، مقاتل الطالبيين ص ٥٣٠ ـ ٥٣١)

وملك جميع ما كان معه وفرقه، ثم أقبل أبو السرايا حتى نزل قصر ابن هبيرة، وبث عساكره إلى البصرة وواسط ودخلوها واستباحوهما، فوجه إليه ابن سهل هرثمة بن [ص ٧٨] أعين(١) في جيش عظيم، وبلغ أبا السرايا قدوم هرثمة، فسار بمن معه حتى نزل صرصر(٢)، وجاء هرثمة حتى نزل من العدوة الأخرى والنهر بينهما، وكان علي بن سعيد معسكرا بكلواذا(٣)، فخرج منها ثاني شوال، فقاتل أصحاب أبي السرايا وهزمهم، ورجع أبو السرايا إلى قصر ابن هبيرة، وهرثمة في اتباعه، فأدرك جماعة كثيرة من أصحابه فقتلهم وبعث رؤوسهم إلى الحسن بن سهل، ثم نزل على أبي السرايا بقصر ابن هبيرة فقاتله، وقتل كثيرا من أصحابه، فلما رأى أبو السرايا أنه لا طاقة له بهرثمة، خرج إلى الكوفة فدخلها، وقد كان هذا الزيدي ومن معه من العلويين قد وثبوا على من بالكوفة من العباسيين ومواليهم، فنهبوهم وأحرقوا ديارهم بالنار وجلوهم عن

---

(١) هرثمة بن أعين : أمير من القادة الشجعان، ولاه الرشيد مصر، ثم وجهه إلى أفريقية لإخضاع عصاتها، فدخل القيروان سنة ١٧٩هـ ولقي من أهلها ما يحب، فأحسن معاملتهم، ونقله الرشيد إلى خراسان، ولما بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون، انحاز إلى المأمون فقاد جيوشه وأخلص له الخدمة حتى سكنت الفتنة بمقتل الأمين، وانتظمت الدولة للمأمون، فنقم عليه أمرا، قيل : اتهمه بمالأة إبراهيم بن المهدي، أو بالتراخي في قتال الطالبيين وأبي السرايا، فدعاه وشتمه وضربه وحبسه، وكان الفضل بن سهل الوزير يبغضه، فدس إليه من قتله في الحبس سرا بمرو سنة ٢١١هـ.

(ابن الأثير ٦ / ٤٥، ١٠٧، الطبري ٦ / ٤٦١، ٤٦٩، ٧ / ٣٨,٤٩، ابن خلدون٣ / ٢٤٥، البيان المغرب ١ / ٨٩، النجوم الزاهرة ٢ / ٨٨ ــ ٩٠)

(٢) صرصر: قريتان في سواد بغداد، صرصر العليا وصرصر السفلى، وهما على ضفة نهر عيسى، وربما قيل : نهر صرصر فنسب النهر إليهما، وبين السفلى وبغداد نحو فرسخين، وصرصر في طريق الحاج من بغداد، وكانت تسمى قديما قصر الدير أو صرصر الدير . (ياقوت : صرصر)

(٣) كلواذا : طسوج قرب مدينة السلام بغداد، وناحية الجانب الشرقي من بغداد من جانبها، ناحية الجانب الغربي من نهر بوق، بينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر . (ياقوت : كلواذا)

الكوفة، وأتوا أمورا قبيحة ثم إن أبا السرايا لما دخل الكوفة وجَّه حسين الأفطس[1] الآتي ذكره إلى مكة ليقيم للناس الحج، ثم إن ابن هرثمة ناشب أبا السرايا الحرب بقرية شاهي[2]، حيث حاربه زهير بن المسيب[3]، فدارت الهزيمة أول النهار على هرثمة، ثم دارت آخره على أبي السرايا، فقُتِل أصحابه وفُلَّ عزمه، ودخل هرثمة الكوفة ليلة الأحد السادسة عشرة من المحرم، ومضى أبو السرايا هاربا إلى القادسية[4]، ولم يتعرض هرثمة لأهل الكوفة بمكروه، بل أمنهم وأقام بالكوفة يوم الأحد إلى العصر، وخرج إلى عسكره، واستعمل عليها غسان بن الفرج[5]، فنزل إلى دار أبي السرايا، ثم إن أبا السرايا خرج من

(١) حسين بن الحسن الأفطس : كان من أعوان محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وبعد مقتل أبي السرايا وضعف أمور الطالبيين، طلب حسين بن حسن الأفطس مبايعة محمد بن جعفر، فبايعوه بالخلافة وحشروا إليه الناس من أهل مكة والمجاورين فبايعوه طوعا أو كرها، فأقام بذلك شهرا، وقاتل الحسين بن الأفطس ومن معه هارون بن المسيب من قادة المأمون، وانكسر هؤلاء وتفرقت جماعته واستسلم محمد بن جعفر ومات .
(الطبري ١٠ / ٢٣٤، مقاتل الطالبيين ص ٥٣٩ ـ ٥٤١)

(٢) شاهي : موضع قرب القادسية فيما أحسب .(ياقوت : شاهي)

(٣) زهير بن المسيب الضبي : أحد القادة في العصر العباسي ، كان مع المأمون في ثورته على الأمين ، إلى أن ظفر المأمون، واستعمله الحسن بن سهل على جوخى (بين خانقين وخوزستان)، فلما قامت الفتنة على الحسن ببغدادوامتدت إلى الأطراف، أسر فيها زهير وقُتل ذبحا سنة ٢٠١ هـ .
(ابن الأثير ٦ / ٩٠، ١٠٣، ١٠٧ ، ١٠٩، المسعودي ٦ / ٤٥١ ـ ٤٥٤)

(٤) القادسية : بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا، وبينها وبين العذيب أربعة أميال، قيل : سميت القادسية بقادس بن هراة، وبهذا الموضع كان يوم القادسية بين سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين وبين الفرس في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٦هـ، ومعنى القادسية : السفينة العظيمة. (ياقوت : القادسية)

(٥) غسان بن عباد بن أبي الفرج : وال من رجال المأمون، وهو ابن عم الفضل بن سهل، ولي خراسان من قبل الحسن بن سهل ، ثم ولاه المأمون السند، وكان العامل عليها بشر بن داود المهلبي، وقد عصى المأمون ولم يحمل إليه خراجها، فلما دخلها غسان استأمن إليه بشر، وأقام نحو ثلاث=

القادسية متوجها إلى واسط، فعبر دجلة أسفل منها ثم توجه إلى السوس فنزل بها، وأقام بها أربعة أيام، وأعطى الجند أرزاقهم، ألف للفارس، وخمس مائة للراجل، فلما كان اليوم الرابع، أتاه من الحسن بن علي المعروف بابن المأموني[١]، أن اخرج من عملي، فأبى أبو السرايا إلا قتاله، فتقاتلا، فانهزم أبو السرايا واستبيح عسكره، وجُرح جراحا كثيرة، ففر يريد رأس العين[٢]، فأخذه حماد الكندغوسي[٣] بجلولاء[٤]، وأخذ معه رجلين من أصحابه، أحدهما [ص٧٩] محمد بن محمد الزيدي[٥]، والآخر رجل يقال له أبو الشرك، وحملهم إلى الحسن بن سهل، فأمر بضرب عنق الزيدي فضربت عنقه بالنهروان[٦] يوم

= سنوات أصلح فيها شؤون الإمارة، ثم استعمل عليها عمران بن موسى المكي وعاد إلى بغداد، وتوفي فيها سنة ٢١٦ هـ .

(الطبري حوادث سنة ٢٠١-٢١٦،نزهة الخواطر ١ / ٥٩، لباب الآداب ص ١١٥، كتاب بغداد ـ طيفور ص ٣٤ ، ١١٥)

(١) الحسن بن علي : المعروف بالمأموني، رجل من أهل باذغيس، كان واليا على البصرةمن قبل المأمون، حاربه الزيديون فهزموه وحوواعسكره، ثم صار على كور الأهواز فقاتل أبا السرايا .
(الطبري ١٠ / ٢٣١،مقاتل الطالبيين ص ٥٣٤، ٥٤٨)

(٢) رأس العين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرَّان ونصيبين ودنيسر، وفي رأس عين عيون كثيرة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور . (ياقوت : رأس العين)

(٣) في الأصل حماد الكندغوسي، وفي الطبري : حماد الكندغوش، وقيل الكندي عوس ، وال من ولاة المأمون كان يتقلد ناحية خراسان ، وقاتل الزيدية جماعة محمد بن محمد الزيدي، وأبا السرايا ، وتغلب عليهم وأرسلهم إلى الحسن بن سهل .
(الطبري ١٠ / ٢٣١، مقاتل الطالبيين ص ٥٤٨)

(٤) جلولاء :طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ . (ياقوت : جلولاء)

(٥) سبقت ترجمته .

(٦) النهروان : كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي حدها الأعلى متصل ببغداد، فيها عدة بلاد متوسطة، وكان بها وقعة لعلي بن أبي طالب مع الخوارج، وهي ثلاث نهروانات : الأعلى والأوسط والأسفل . (ياقوت : نهروان)

الخميس عاشر ربيع الأول سنة مائتين، فكانت مدته ثمانية أشهر وعشرة أيام، ثم قدم بعده أبو السرايا ليضرب عنقه، فخرج جزعا شديدا، واضطرب اضطرابا عظيما، ثم ضربت عنقه، وبعثت برؤوسهما إلى المأمون، وحملت أجسادهما إلى الجسر، فصلبا على الجسر، فكانت أيامه عشرة أشهر .

٤٦ – ذِكْرُ دَوْلَةِ مُحَمَّدِ بنِ جَعْفَر الصَّادِق

ابن محمد الباقر(١) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويكنى بأبي عبد الله، بويع بمكة في ربيع الآخر سنة مائتين لما زاد اجتراء الحسين بن الحسن الأفطس بن علي بن الحسين بالناس، وافتراء من حوله من سفالة الأجناس، وكان هذا محمد بن جعفر شيخا صالحا فاضلا عالما، يحدث عن أبيه، وقد روى من منهله، وتضوأ بكوكبه، وكان قد تأبى وامتنع حتى ألزمه بها بنوه وأهله، ومن ملَّ سيرة الجور وغلب عليه ابنه علي، وما كان كأبيه ولا له مثل هديه، وكان حوله من ذوي قرابته من يبعد بينه وبينهم تباين الأخلاق، ثم إن الحسن بن

(١) محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقربن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر، من علماء الطالبيين وأعيانهم وشجعانهم، وكانت إقامته بمكة، وكان يظهر الزهد، ولما ظهر الخلاف على المأمون العباسي في أوائل أيامه، أقبل بعض الطالبيين على محمد بن جعفر سنة ١٩٩هـ وبايعوه بالخلافة وإمارة المؤمنين، وبايعه أهل الحجاز، وهو أول من بايعوا له من ولد علي بن أبي طالب، فقاتلهم إسحق بن موسى العباسي وعيسى الجلودي، فانهزموا وانصرف محمد إلى الجحفة (على ثلاث مراحل من مكة في طريق المدينة) ومنها إلى جهينة، فجمع خلقا وهاجم المدينة، فقُتل كثير من أصحابه وفُقئت عينه، فقفل إلى مكة واستأمن من الجلودي فأمَّنه، فخلع نفسه وخطب معتذرا بانه ما رضي البيعة إلا بعد أن قيل له إنَّ المأمون توفي، وأنفذه الجلودي إلى المأمون، وكان بمرو فأكرمه واستبقاه معه إلى أن توفي بجرجان فكان المأمون أحد من صلوا عليه سنة ٢٠٣هـ .

(مقاتل الطالبيين ص ٥٣٧ ــ ٥٤١ ط أحمد صقر، ابن الأثير ٦ / ١٢١، ابن خلدون ٣ / ٢٤٤، تاريخ بغداد ٢ /١١٣)

سهل أغزاه جيشا عليه إسحاق بن موسى[١]، فخندق محمد بن جعفر على مكة، وحشد الأعراب وقاتلهم إسحاق بن موسى أياما، ثم كره قتالهم، فرحل عائدا إلى العراق، فلقيه ورقاء بن جميل[٢] في أصحابه، وأصحاب الجلودي، فقالوا له : ارجع ونحن نكفيك قتالهم، فرجع معهم حتى نزلوا المُشاش[٣]، وجمع محمد بن جعفر جمعه، ونهد بهم إلى بئر ميمون[٤]، وتلاقوا، ثم انهزم محمد بن جعفر، وجمع جمعا زحف به إلى المدينة المشرفة، فخرج إليه واليها هارون بن المسيب، فاقتتلوا، فأصيبت عين محمد بن جعفر بنشابة، فكر راجعا إلى مكة، واستأمن إلى [ص ٨٠] واليها عيسى بن زيد الجلودي[٥] ابن عم ابن سهل، فأمَّنه وصعد المنبر فخلع نفسه وبايع المأمون، ثم خرج الجلودي إلى العراق، فأسلمه إلى الحسن بن سهل، وكان آخر العهد به.

(١) إسحاق بن موسى بن عيسى العباسي :كان واليا على اليمن من قبل المأمون ، ولما سمع بخروج ابراهيم بن موسى بن جعفر من مكة يريد اليمن، خرج إسحاق منصرفا عن اليمن وخلاها له وكره قتاله ، وذلك سنة ٢٠٠ هـ .
(تاريخ الطبري ١٠ / ٢٣٢)

(٢) ورقاء بن جميل : أحد القادة العباسيين ، بعثه علي بن أبي سعيد من قادة المأمون بعد مقتل أبي السرايا، بعثه إلى الحجاز واليمن لمقاتلة من بها من الطالبيين . (الطبري ١٠ / ٢٣١)

(٣) المشاش : قال عرام : ويتصل بجبال عرفات جبال الطائف وفيها مياه كثيرة أوشال، وعظائم قُنيّ، منها المشاش وهو الذي يجري بعرفات ويتصل إلى مكة . (ياقوت : المشاش)

(٤) في الأصل : بئر ميمونة ، وهي بئر ميمون بمكة، منسوبة إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمي، وقيل إن ميمونا صاحب البئر هو أخو العلاء بن الحضرمي والي البحرين حفرها بأعلى مكة في الجاهلية . (ياقوت : بئر ميمون)

(٥) عيسى بن زيد (يزيد) الجلودي : من ولاة العباسيين ، ناب في إمرة مصر عن عبيد الله بن طاهر أيام ولايته لها سنة ٢١٢هـ ، وأقره المأمون عليها ، واشتد على أهل الحوف في أيامه، واتسعت ثورتهم حتى فتك بهم المعتصم ولي عهد المأمون، وأصلح أحوال مصر ، وعزل الجلودي سنة ٢١٤هـ وهي سنة وفاته .

(الولاة والقضاة ص ١٨٤ ، ١٨٧ ، النجوم الزاهرة ٢ / ٢٠٤، ٢٠٨)

٤٧ - ذِكْرُ دَوْلَةِ الزِّنْجِيِّ

وعزيز عليَّ والله أن أذكره في هذا النسب الشريف، وإن كان من شيء في هذا البيت فهو الكنيف، حاشى لله أن يكون هذا الرجس من أولئك، أو يعد فيهم، إلا كما يعد إبليس في الملائك، عجبا لهذه القُعدة بالأرض كيف يطول، وكيف يكون هذا الرجس من أهل البيت، والله يقول :﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾[١] أما هو فادَّعى أنه علي بن محمد[٢] بن جعفر بن الحسن بن طاهر بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويكنى أبا الحسن . وقال نسابتهم أنه من ولد العباس بن علي عليه السلام، والصحيح أنه من عبد القيس، ولا يبعد أن يكون من ولد الشيطان الرجيم، وإبليس الأثيم، لفعله الذميم، وعقله السقيم، راصدا لله بكل مرصد، وعقد الخلاف للقرآن في كل مقصد، وأراد مناقضة الإسلام ومناقلة المشرع عليه أفضل الصلاة والسلام، وشبَّ لهذه الأمة نارا على كل ثنية،، وصب إلى كفران هذه الملة كل عقد ونية، وقعد كالشيطان للدين صراطه المستقيم، واقتحم بأتباعه نار

---

(١) الأحزاب ٣٣ .

(٢) صاحب الزنج : علي بن محمد الورزنيني العلوي، الملقب بصاحب الزنج، من كبار أصحاب الفتن في العصر العباسي، وفتنته معروفة بفتنة الزنج، لأن أكثر أنصاره منهم، ولد ونشأ في(ورزنين) إحدى قرى الري، وظهر في أيام المهتدي بالله العباسي سنة ٢٥٥هـ، وكان يرى رأي الأزارقة، والتف حوله أهل البصرة ورعاعها، فامتلكها واستولى على الأبلة، وتتابعت لقتاله الجيوش، فكان يظهر عليها ويشتتها ، ونزل البطائح وامتلك الأهواز، وأغار على واسط، وبلغ عدد جيشه ثلاث مائة ألف مقاتل، وجعل مقامه في قصر اتخذه بالمختارة، وعجز عن قتاله الخلفاء ، حتى ظفر به الموفق بالله في أيام المعتمد ، فقتله وبعث برأسه إلى بغداد، وفي نسبه العلوي طعن وخلاف ، كان مقتله سنة ٢٧٠هـ .

(الطبري ١١ / ١٧٤، ابن خلدون ٤ / ١٨، الذهبي ـ ديوان الإسلام ١ / ١٢٦، المرزباني ص (٢٩١

الجحيم، فله في الدنيا خزي، وله في الآخرة عذاب عظيم، فكُبكب فيها هو والغاوون، وجنود إبليس أجمعون، أضل جبلاً كثيرا، وظل للبلايا مثيرا، وأصله من قرية من أعمال الري، ومولده بطبرستان، ثار على المهدي سنة ست وخمسين ومائتين، وكان يرى رأي الأزارقة، ويستبيح الدماء والأموال والفروج، ولا يردُّ القتل عن صغير ولا كبير ولا بهيمة، ويرى الذنوب كلها شركا، ويلعن المتشرف بالادعاء إليه عليا عليه السلام، ومعاوية بن أبي سفيان[ص ٨١] وعائشة أم المؤمنين، وطلحة والزبير، وكل من شهد الجمل[١] وصفين، ويتعدى هذا إلى جميع الصحابة رضي الله عنهم، ثم يتعرض إلى الجناب الشريف زاده الله شرفا، ويتعرض في أمور، وكان أموره وقيامه في اثني عشر رجلا من الزنج، كانوا يعملون في غابة البصرة نفوسهم، وانضاف إليه أهل الفساد، وكان بالبصرة ثلاثون ألف جنان[٢] في كل جنان أسود وأسودان وثلاثة وأكثر، فاجتمعوا إليه، فلهذا سمي الزنجي، فتتبع الخلق بالقتل والفتك في الحرمة وافتضاض الأبكار، حتى بلغ القتل مائتي ألف، وخلت الديار من أهلها، وتخفَّى من سلم في الآبار والسروب[٣]، وكانوا يخرجون بالليل يطلبون الكلاب والسنانير ليأكلوها، ومن مات منهم أكله أهله، ومن قدر على أحدقتله وأكله، حتى إن امرأة قاربت الموت فاستبطأ أهلها موتها، فقطعوها وأكلوها، فخرجت أختها برأسها تغسله في الفرات، فقيل لها ما هذه الرأس[٤] فقالت رأس أختي، أهلي ظلموني لم يعطوني منها إلا هذه الرأس، ومن مثل هذا كثير .

قال الشريف الغرناطي : وكانت المرأة الشريفة من ذرية الحسن أو الحسين أو

(١) في الأصل : الجيل .

(٢) الجنان : الأمر الخفي، وجنان الناس : جماعتهم تستر الداخل فيها، .

(٣) السروب : جمع سرب : المسلك في خُفية، وحفير تحت الأرض لا منفذ له .

(٤) الرأس في الأصل مذكر واستعمله هنا مؤنثا .

العباس، يُنادى عليها في السوق : هذه فلانة الحسنية أو الحسينية أو العباسية بدرهمين أو ثلاثة، فيشتريها الزنجي برسم النكاح، وكان الزنجي الواحد يكون له من هذه النسيبات نحو العشرة والعشرين والثلاثين، والأقل والأكثر يخدمن الزنجيات، فجهز المعتمد لحربه جيشا كثيفا مع قائد اسمه مفلح، فقاتله قتالا كثيرا، فظهر مفلح عليه، ثم أصاب سهم صدغ مفلح فقتله،ثم جهز المعتمد أخاه الموفق[(١)] في جيش آخر، فقاتله مرات، وواقفه مواقفا كثيرة، وأصاب الموفق سهم في صدره، فكتمه أياما، وعالجه حتى أخذ في البُرْء، ثم خرج لمحاربة الزنجي، ولم يزل الموفق إلى أن قتله في صفر سنة سبعين ومائتين، وكانت مدة هذا الزنجي الخبيث [ص٨٢] أربع عشرة سنة وأربعة أشهر، وأُدخِلَ رأسُه بغداد في جمادى الآخرة من هذه السنة، وأراح الله من كفره وفتنته وطائفته اللعينة وفتنه، واختلف الناس في مقدار ما قتل في مدة فريه[(٢)]، فمنهم المكثر والمقلل، قال الغرناطي : فأما المقل فقال : أفنى خمس مائة ألف ألف وخمس مائة، ألف، وأما المكثر فقال : أفنى ما لا يعلم عدده إلا الله تعالى، فسبحان الحكيم الذي له في كل مقدر حكمة قد تلتبس على البصير وتنعمي، وكل شيء عنده إلى أجل مسمى، لا إله إلا هو عليه توكلنا وإليه المصير .

---

(١) الموفق بالله : طلحة بن جعفر المتوكل بن المعتصم العباسي، أبو أحمد، أمير من رجال السياسة والإدارة والحزم، لم يلِ الخلافة اسما، ولكنه تولاها فعلا، ولد ومات في بغداد، صار وليا للعهد حين ولي أخوه المعتمد الخلافة سنة ٢٥٦هـ، ولما ظهر ضعف المعتمد عن القيام بأعباء الدولة، نهض الموفق بها ، وصد عنه غارات الطامعين بالملك، ثم حجر عليه حتى كان المعتمد يتمنى الشيء اليسير فلا يحصل عليه، وكان الموفق شجاعا عاقلا عادلا له علم بالأدب والأنساب والقضاء، توفي في أيام أخيه سنة ٢٧٨هـ .

(الطبري ٨ / ١٥٨، ابن الأثير حوادث سنة ٢٧٨ هـ،النجوم الزاهرة ٣ / ٧٩، تاريخ بغداد ٢ /١٢٧)

(٢) فريه : أي افترائه .

٤٨ - ذِكْرُ دَوْلَةِ القَرامِطَةِ وأوَّلُهُم ذِكْرُ فِرْيَةِ قِرْمِط

وهم أضر طائفة[١] خرجت على بني العباس، بل شر دولة أخرجت للناس، أخذهم الله بمكرهم، وأخذهم بكفرهم، ولكن بعد حروب شمرت عن ساقها، وأثمرت برؤوس لم تتصل بأعناقها، هم الكفرة الملاعين، والأعادي الطواعين، بئس الملة وسوس الأمة، كانوا على ذهاب هذه الملة أحرص من حوافي النمل، وفي تعطيل منابتها أشد من سوافي الرمل، ما زالوا في مسارب الملك كالأفاعي ساعين، وإلى غير كلمة الحق، كالنواقيس داعين، وألصقوا بهذا البيت الطاهر دعوتهم، وألفوا في هذا الفناء الشريف عقوتهم[٢]، وبينهما من البون مثل ما بين الفساد والكون، وإنما ذكرتهم هنا، لادعائهم، كما ذكرت الزنجي، على أنهما كسراب بقيعة، أو كظلمات في بحر لجيّ، كان ظهور هؤلاء بسواد الكوفة سنة ثمان وتسعين ومائتين في السنة التي مات فيها الموفق، اسمه الفرج زكرويه بن يحيى ويدعى بقرمط[٣]، أصله من بصرى من الشام، وإنما قال الخراساني،

---

(١) القرامطة : أصحاب دعوة انتشرت في بعض البلاد الإسلامية، بزعامة أحمد الإسماعيلي، زعزعت العالم الإسلامي، ثم انتهى أمرها حين اصطدمت بالحملات الصليبية، وكان رأس الطريقة القرمطية داعيا إسماعيلياً اسمه حمدان ولقبه قرمطي، أي أحمر العينين، انتشرت هذه الدعوة في اليمن حينما بعث ميمون القداح الكوفي أحد دعاة والده عبيد الله المهدي جد الفاطميين باثنين إلى اليمن سنة ٢٩٢هـ، واستولى علي بن الفضيل على ذمار وصنعاء وتغلب على جيوش الإمام الهادي، وقامت في اليمن حروب عديدة، واستباح أتباع علي بن الفضيل كثيرا من الحرمات، وذكر بعض مؤرخي اليمن أنه ادعى النبوة، ومات مسموما سنة ٣٠٣هـ .
(الموسوعة العربية الميسرة ٢ / ١٣٧٣)

(٢) في الأصل قعوتهم، والعقوة : الموضع المتسع أمام الدار أو المحلة أو حولهما أراد بعقوتهم : موضع نزولهم .

(٣) قرمط : رأس القرامطة من الباطنية، وإليه نسبتهم ، اختلف في اسمه وأصله، قيل : اسمه حمدان، أو الفرج بن عثمان، إو الفرج بن يحيى، وقرمط لقبه، وأصله من خوزستان وعرف بسواد الكوفة سنة ٢٥٨هـ، فكان يظهر الزهد والتقشف، واستمال إليه بعض الناس، فأراهم كتابا قيل=

ويكني بأبي زكرياء، منهم بالنهروان، فأظهر الزهد والتقشف وأكثر الصلاة، وكان يأكل من عمل يده، وإذا جلس إليه إنسان زهده في الدنيا وأعلمه أن المفترض عليه خمسون صلاة في اليوم والليلة [ص٨٣] وأنه يدعو إلي إمام من أهل البيت، فاستهوى خلقا كثيرا، وكانت لرجل معروف يقال له الهيصم ضياع، فأعلم أن القائمين عليها اشتغلوا عنها برجل صفته كذا ويقول كذا، وأخبر خبر الرجل، فسار إليه وأخذه، وحلف ليضربن عنقه، ثم جعله في بيت ورمى عليه قفلا، وألقى المفتاح تحت وساده، وشرب فلما سكر ونام، أخذت جاريته المفتاح وفتحت البيت وأخرجت الرجل وأطلقته، وردت المفتاح في موضعه، فلما قام من سكره وفتح البيت فلم يجد الرجل، فأصابه وهم، وقال : هذا الرجل صالح، وأشاع الأمر، فتسارع الناس إلى الرجل، فعظم شأنه، واستفحل أمره، وصنع لهم دينا وقرآنا أوحاه إليه شيطان، ومما تضمنه قرآنه : يقول الفرج بن عثمان وهو من قرية يقال لها بصرى إنه داعية المسيح عيسى بن

= أوله : (بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول الفرج بن عثمان وهو عيسى، وهو الكلمةوهو المهدي، وهو أحمد بن محمد ابن الحنفية، وهو جبريل) وفي الكتاب كثير من كلمات الكفر والتحليل والتحريم ، وكثر أتباعه والسالكون سبيله، فكان منهم زكرويه بن مهرويه، وأبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، كلاهما من جهات القطيف والبحرين، وقام بنو القليص بن ضمضم (من بني كلب بن وبرة) بدعوته بين العراق والشام، وعلي بن الفضل في اليمن ، ولا تزال بقاياهم إلى اليوم في جبل (الكلبية) باللاذقية وفي نجران باليمن، وفي القطيف غربي الخليج العربي، واندمج أكثرهم في الإسماعيلية والنصيرية وغيرهمامن طوائف الباطنية، وتداخلت أخبار (أحمد قرمط) في كتب التاريخ بأخبار دعاته، والأرجح أنه هو الذي قبض عليه عامل (الرحبة) سنة ٢٩٣هـ، وقتله المكتفي بالله العباسي ، وفي المنتظم لابن الجوزي شرح لبعض أحوال القرامطة.

(المنتظم القسم الثاني من الجزء الخامس ١١٠ـــ ١١٩ ، ابن الأثير ٧ /١٤٧ـ ١٤٩و ١٦٨و ١٨٠، النجـوم الزاهرة ٣ /١٣٨،ابن خلدون ٤ /١١و٨٤ ـ ٨٧ ، الطبري حوادث سنة ٢٨٩ـ ٢٩٤، المسعودي ٨ /٢٢٤، اللباب ٢ /٢٥٥، ابن خلكان ١ /٥٠٢،جزيرة العرب ٩٦، بلوغ المرام ١٣)

مريم، وهو الكلمة وهو المهْدي، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية، وهو جبريل، وإن المسيح تصور له في صورة إنسان فقال له : أنت الداعية وأنت الحجة، وأنت روح القدس، وأنت يحيى بن زكريا، وأن الصلاة ركعتان[1] قبل طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها، وأن الأذان : الله أكبر الله أكبر أربعا، أشهد أن لا إله إلا الله أربعا، أشهد أن محمدا رسول الله أربعا، أشهد أن موسى رسول الله أربعا، أشهد أن رسول الله،[2] أشهد أن محمد بن الحنفية رسول الله أربعا، والقراءة في الصلاة بسورة الافتتاح المنزلة على محمد بن الحنفية، وهي الحمد لله بكلمته تعالى، باسمه المستحمد لأوليائه، والأهلَّة مواقيت للناس ظاهرها، لتعلموا عدد السنين والحساب، وباطنها لأوليائي الذين عرفوا عبادتي، واتقون يا أولي الألباب، فأنا الذي أُسأل عما أفعل، وهم يُسألون، وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي، وأمتحن خلقي، فمن صبر في بلائي ومحنتي واختياري، ألقيته في جنتي، وأدخلته في نعمتي، ومن مال عن أمري وكذب رسلي، ألقيته مهانا في عذابي، وأنا الذي أتممت أجلي، وأظهرت أمري على ألسنة رسلي، وأنا الذي لم يعلُ عليَّ جبار، إلا وضعته، ولا عزيز إلا أذللته، وليس [ص ٨٤] مثوى الذي أصرَّ على أمره، ودام على جهالته، وقال لن نبرح عليه عاكفين إلا في النار أولئك هم الكافرون، ثم يركع فيقول في ركوعه : سبحان رب العزة تعالى عما يقول الظالمون، يقولها مرتين ثم يسجد، فيقول في سجوده : الله أعظم، الله أعظم، يقولها مرتين، ومن أحكامهم أن القبلة إلى بيت المقدس، وإليه حجهم، وأن الصيام يومان في السنة، وهما يوم النيروز[3]،

(١) في الأصل : ركعتين، وهو لحن .

(٢) كذا في الأصل، ولعل فيها نقص هو ذكر اسمه هو، لأنه ادعى النبوة .

(٣) النيروز أو النوروز بالفارسية : اليوم الجديد ، وهو أول يوم من السنة الشمسيةالإيرانية، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية، وعيد النوروز من أكبر الأعياد القومية للفرس .

ويوم المهرجان[١]، وأن لا غسل من الجنابة إلا الوضوء فقط، وإن الخمروالزنا واللواط حلال، والنساء كلهن أمهات وبنات وأخوات حلال، وبويع هذا زكرويه بأنه الخليفة القائم بالحق سنة ثمان وسبعين ومائتين، ويسمى القائم بالحق، وكان يرى رأي الخوارج والأزارقة[٢] ويلعن الصحابة، ويرى قتل المسلمين رجالهم ونسائهم وصبيانهم وشيوخهم وزمناهم، فعتا في الأرض، وسفك الدماء، وسبى الذرية، ونهب الأموال، واشتد بلاؤه على المسلمين، وكان يقول لأعوانه وأجناده: من لم يتبعني فاقتلوه، واسبوا أهله، وكان ابتداء أمره في أيام المعتمد، ثم قاتله جيش المعتضد، فقُتِل في حدود سنة أربع وثمانين ومائتين .

ثم قام بعده ابنه :

٤٩ - يَحْيَىٰ بنُ قِرْمِط

وكنيته أبو القاسم، وبويع يوم قتل أبيه، وكان قتل الأمة المحمدية كلها، وسار بسيرة أبيه، وأصاب شكلها، وكان هو وشياطينه المردة في الأرض، وعقاربه المبددة في البلاد، إذا علوا على قرية قتلوا أهلها حتى البهائم، كالحمير والقطط والكلاب، وحاصر دمشق فصالحه أهلها على مال يؤدونه، وأي أمر جاء ه منهم يعتمدونه، وكان يقول : لا أشير بيدي إلى ناحية إلا فتحت، ولا تكر جنودي على صفقة بلاد إلا خسرت وربحت، فلما ولي المكتفي خرج إليه في جنوده

---

(١) المهرجان : احتفال الاعتدال الخريفي، والكلمة فارسية مركبة من كلمتين، الأولى (مهر) ومن معانيها الشمس، والثانية (جان)ومن معانيها الحياة أو الروح، والاحتفال يقام ابتهاجا بحادث سعيد، أو إحياء لذكرى عزيزةكمهرجان الأزهار ، ومهرجان الشباب .

(٢) الأزارقة : نسبة إلى نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي البكري الحروري، أبو راشد رأس الأزارقةوإليه نسبتهم، كان أمير قومه وفقيههم من أهل البصرة.

(ابن الأثير٢ / ١٧٢ــ ١٨١، الطبري ٧ / ٦٥)

وعساكره، فقتل رجاله وفرق أحزابه أيدي سبأ، وأُخِذ اللعين أسيراً، وسيق إلى بغداد خاسئاً حسيراً.

ثم قام بعده أخوه :

٥٠ - الحُسَيْنُ بنُ قِرْمِط

زكرويه [ص٨٥] ويلقب بالمهدي[١]، وتكنى بأبي علي، ثم تسمى بأحمد بن عبد الله، وتكنى بأبي العباس، قاله الطبري، بويع بالخلافة بوصية أخيه يحيى، وكان شرا منه، وكان يقول : أنا المدثر الذي في القرآن، وحاصر مدينة هجر أربع سنين إلى أن دخلها عنوة بالسيف، وقتل منها ثلاث مائة ألف، وعتا في الأرض، يقتل هو وأشياعه يمينا وشمالا، وينكحون الأبكار، ويذبحون النساء والأطفال والشيوخ والبهائم، فقاتلهم المكتفي كرَّة أخرى، فقتلهم وكسر

(١) الحسين بن زكرويه : المعروف بصاحب الشامة، أو صاحب الخال، ثائر قرمطي، كان ينتمي إلى الطالبيين، وخرج على أمراء بني العباس بالشام مع أخ له، وقُتل أخوه وهو محاصر لدمشق سنة ٢٩٠هـ، وقام الحسين بعده، وتسمى بأحمد، وأظهر شامة في وجهه ، زعم أنها آية، وقاد أصحاب أخيه وهم نحو ثلاثة آلاف فارس، فصالحه أهل دمشق على مال دفعوه إليه، فانصرف إلى حمص فدخلها ، وخطب له في مساجدها، ولقب نفسه بالمهدي أمير المؤمنين، ثم سار إلى حماة والمعرة وغيرهما، وقتل خلقا كثيرا، وقصد (سَلَمية) فأخذها بالأمان ثم فتك بأهلها، ولما اشتد أمره خرج له المكتفي العباسي من بغدادونزل الرقة، وأرسل إليه الجيوش، فكانت المعركة على اثني عشر ميلا من حماة في إحدى قرى المعرة، وانهزم جيش القرمطي وهرب هو وغلام له رومي، وصاحب يدعى (المطوَّق) وابن عمه (المدثر)، فقبض عليهم في البرية في موضع يقال له (الدالية) في طريقهم إلى الكوفة، وحملوا إلى المكتفي وهو في الرقة، فسار بهم إلى بغداد، وضربت أعناقهم على الدكة، وصلب بدن (صاحب الشامة)على الجسر الأعلى وعلقت إلى جانبه رؤوس أصحابه وآخرين من أتباعه كانوا في سجن بغداد، وطيف برأسه، ثم أحرقواجميعا سنة ٢٩١ هـ .

(البداية والنهاية ١١ /٩٧ ، عريب حوادث سنة ٢٩١هـ ، مرآة الجنان ٢ /٢١٧ ـ ٢١٨ أبو الفداء ٢ / ٦١ معجم الشعراء ص ٢٩٤)

مهديهم الضال، وأمسك جماعة من شيعة أهل الضلال، وأدخلهم مقرنين في الأصفاد، والمهدي على فيل لتراه الناس، ثم قطع يديه ورجليه وضرب رقبته ورقاب أصحابه، سنة إحدى وتسعين ومائتين، وفي ذلك يقول ابن المعتز يمدح المكتفي ويذكر جميل فعله، يقول :(١)

[مجزوء الرمل]

لا ورمانِ النهودِ — فوقَ أغصانِ القُدودِ
وعناقيدَ من أصدا — غٍ وورد من خدودِ
وبدورٍ من وجوهٍ — طالعاتٍ بالسعودِ (٢)
ورسولٍ جاءَ بالميـ — ـعادِ من بعدِ الوعيدِ
وبشيرٍ بوصالٍ — قد نفى طولَ الصدودِ
ما رأتْ عينيٌّ كظبي — زارني في يوم عيدِ
في قباءٍ فاختيٍّ الـ — ـلون من لبسِ الجدودِ
كلما قاتل جنديٌّ — بسيفٍ وعمودِ
قتل الناسَ بعينيـ — ـنِ وجفنين وجيدِ
قد سقاني الراحَ من فيـ — ـهِ على غيظِ الحسودِ
وتعانقنا كأني — وهو في عقدٍ شديدِ
نقرعُ الثَّغْرَ بثَغْرٍ — طيِّبٍ عذبِ الورودِ[ص ٨٦]
مرحباً بالملكِ القا — دمِ بالجدِّ السعيدِ
يا مُذلَّ البغْي يا قا — تلَ حيَّاتِ الحقودِ

---

(١) ديوان ابن المعتز ٢ / ٤٧٥ ـ ٤٧٧ ط السامرائي .

(٢) في الديوان :(ووجوه من بدور طالعات من سعود).

عِـشْ ودُمْ فـي ظِـلِّ عـزٍّ خـالـدٍ بـاقٍ جـديـدِ
فـلـقـد أصـبـحَ أعـدا ؤكَ كـالـزرعِ الحـصـيـدِ
ثم [قـد] صـاروا حـديثـا مـثـلَ عـادٍ وثـمـودِ
جـاء هـم بـحـرٌ حـديـدٌ تحـتَ أعـلامِ الـبـنـودِ
فـيـهِ عـقـبـانُ خـيـولٍ فـوقـهـا أسْـدٌ جنـودُ
وردوا الحـربَ فـهـدُّوا كـلَّ خـطـيٍّ مـديـدِ
وحـسـامٍ شَـرِهِ الحـدِّ إلـى قـطـعِ الـوريـدِ
فـاحـمـدِ اللـهَ فـإنَّ الحـمـدَ مـفـتـاحُ المزيـدِ

ثـم قـام بعـده ابنـهُ :

٥١ - أحْمَدُ بنُ الحُسَيْن

الملقب زكرويه(١)، ويكنى بأبي غانم، قام بقرية يقال لها زابوقة(٢) من سواد

(١) زكرويه بن مهرويه القرمطي : من زعماء القرامطة ومتألهيهم من أهل القطيف، اختفى أربع سنين في أيام المعتضد العباسي فلم يظفر به، ولما مات المعتضد أظهر نفسه، واستهوى طوائف من أهل بادية العراق، وبث الدعاة، وكان أتباعه يسجدون له ويسمونه (السيد) و (المولى) ولم يكن يظهر لعسكره بل يسير وهو محجوب، ويتولى أموره أحد ثقاته، وأرسل إلى الشام قائدا اسمه (عبد الله بن سعيد)فظفر به المكتفي وقتله، وأغار زكرويه على حجاج خراسان، وكانوا نحو عشرين ألفا، فأفنى أكثرهم ، وانتشرت جموعه بين زُبالة وفيد ، وأوقع بقافلة أخرى كبيرة من الحجاج، وتنقل بين فيد والنباج وحفير أبي موسى، وانتدب المكتفي الجيوش لقتاله، فأصيب زكرويه في معركة بين القادسية وخفَّان، فمات بعد أيام ، وحملت جثته إلى بغداد،فأحرقت وأُرسل رأسه إلى خراسان لئلا ينقطع أهلها عن الحج ، وكانت وفاته سنة ٢٩٤هـ .

(ابن الأثير حوادث سنة٢٨٩-٢٩٧ ، عريب ٩-١٧ ، الشذرات ٢ /٢١٥ ، اليافعي ٢ /٢٢١-٢٢٢ ، النجوم الزاهرة ٣ /١٥٩ المسعودي ٨ /٢٢٤ ، ٢٥٧)

(٢) زابوقة : موضع قرب الفلوجة من سواد الكوفة يذكر في أخبار القرامطة، وموضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل أول النهار، وهي مدينة المسامعة بنت ربيعة بالبصرة.

(ياقوت : الزابوقة

الكوفة، وكان معلما للصبيان، ودعا إلى نفسه، وبايعه خلق كثير، فسار بسيرة أبيه في العتو والاستكبار، ثم قُتِل وحُمِل رأسُه إلى كيداح عامل المكتفي سنة أربع وتسعين ومائتين، ومن سخافاته وتمويهه وشعوذته وتشبيهه، ما كتب به إلى بعض عماله : من عبد الله أحمد بن عبد الله حسين المهدي المنصور بالله، الناصر لدين الله، العالم بأمر الله، الحاكم بحكم الله، الداعي إلى كتاب الله، الذاب عن حريم الله، من ولد رسول الله، أمير المسلمين، وإمام المؤمنين، ومذل المنافقين، وخليفة الله على العالمين، ومبيد الظالمين، وقاصم المعتدين، ومهلك الملحدين، وقاتل القاسطين، وسراج المتبصرين، وضياء المستضيئين، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين، وسلم كثيرا، إلى جعفر بن محمد الكردي، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على جدي رسول الله، أما بعد، فإنَّه نُمي إليَّ ما حدث [ص ٨٧] قِبَلك من أخبار أعداء الله الكفرة، وما فعلوه بناحيتك، وأظهروا من الظلم والعنت، فأعظمنا ذلك، وأردنا أن ننفذ ما هنالك من جيوشنا، من ينتقم الله من أعدائه الظالمين، الذين يسعون في الأرض فسادا، وقد أنفذنا جماعة من المؤمنين إلى مدينة حمص، وأمددناهم بالعساكر، ونحن في اثرها، ونرجوأن يجزينا الله في أعداء الله على أفضل عوائده عندنا في أمثالهم، فشد قلبك وقلوب من معك من أوليائنا، وبادر إلينا بأخبار الناحية كل حين، إن شاء الله، سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على جدي رسول الله، وشرَّف وكرَّم وحيًّا وسلَّم .

ثم قام :

٥٢ - الحَسَنُ بنُ بَهْرَام الجَنَّابِيّ القِرْمِطِيّ

أبو سعيد[١]، ثار بمدينة الأحساء[٢] واستوطنها، وعتا وأفسد وسفك الدماء، وخرَّب البلاد، وأباح قتل كل من خالف مذهبه، وكان ظهوره سنة ست وتسعين ومائتين، وغلب على بلاد اليمن، وجُبِّيَت إليه الأموال، وكثرت جموعه، وعظمت جيوشه، وأباح الزنا واللواط والخمر، وكان يتعشق غلاما خصيا، وهو الذي قتله سنة إحدى وثلاث مائة، وكانت مدته ست سنين .

ثم قام ابنه :

٥٣ - سُلَيْمَانُ بنُ الحَسَنِ بن بَهْرَامِ الجَنَّابيّ القِرْمِطِيّ

ويكنى بأبي طاهر[٣]، وكا أحد المفسدين في الأرض، وأسرع من المقراض

(١) الحسن بن بهرام الجنَّابي القرمطي : أبو سعيد، كبير القرامطة ومعلن مذهبهم، كان دقاقا من أهل جنابة (بفارس)، ونُفي منها، فأقام في البحرين تاجرا، وجعل يدعو العرب إلى نحلته، فعظم أمره، فحاربه الخليفة ، فظفر الحسن، وصافاه المقتدرالعباسي، وكان أصحابه يسمونه (السيد) استولى على هجر والأحساء والقطيف، وسائر بلاد البحرين، وكان داهية شجاعا قتله خادم له صقلبي في الحمام بهجر سنة ٣٠١ هـ . (ابن الأثير ٨/٢٧، مرآة الجنان ٢/٢٣٨)

(٢) الأحساء : مدينة بالبحرين معروفة مشهورة، كان أول من عمرها وحصنها وجعلها قصبة هَجَر أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي، وهناك مواضع أخرى سميت بالأحساء . (ياقوت : الأحساء)

(٣) سليمان القرمطي : سليمان بن الحسن بن بهرام الجنَّابي الهَجَري، أبو طاهر زعيم القرامطة في البحرين، أحد الطغاة المتجبرين، قال الذهبي في وصفه : (عدو الله ، الأعرابي، الزنديق) نسبته إلى جنَّابة (من بلاد فارس)، وكان أبوه قد استولى على هجروالأحساء والقطيف وسائر البحرين، وهلك أبوه سنة١ ٣٠هـ ، وقد عهد بالأمر إلى كبير أبنائه (سعيد) فعجز عن الأمر، فغلبه سليمان هذا ، وجاءه كتاب من المقتدر العباسي فيه رقة ورغبة بإطلاق من عنده من أسرى المسلمين، فأطلق الأسرى وأكرم حاملي الكتاب، ثم وثب سنة ٣١١هـ على البصرة فنهبها وسبى نساءها ، وكتب إلى المقتدر يطلب ضمها إليه هي والأهواز، فلم يجبه المقتدر، فأغار على=

في القرض، بويع بالأحساء يوم موت أبيه، ثم جددت له البيعة سنة سبع عشرة وثلاث مائة، وكان أظلم وأغشم وأجور وأفسق ممن تقدَّمه، ولم يزل يطوي البلاد طيًّاً، يقتل ويسبي وينهب إلى أن صار من بغداد على ستة أميال، فخافه أهلها، ثم دخل، فدخل الرحبة وغيرها من البلاد الفراتية سنة خمس عشرة وثلاث مائة،

ثم عاود ما وراء ه من البلاد فدمَّرها وأخذ منها [ص٨٨] أموالا عظيمة، أوسق[١] منها مائتين من الإبل وأوقرها ثم دخل مكة المعظمة سنة سبع عشرة وثلاث مائة، فقتل في الحرم وجوانب مكة من الحاج وغيرهم زهاء ثلاثين ألفا، واستحر القتل في الشعاب وقُنَن الجبال، وبطون الأودية والظواهر، حتى قتل أكثر من مائة ألف، وسبى النساء والصبيان، وردم زمزم بجثث ورؤوس القتلى، وفرش المسجد بأجسادهم، وأخلى جمعا ومعرَّفا ومكة، حتى لم يكن من الحجون إلى الصفا[٢]، ووقف على الكعبة وأنشد :

= الكوفة سنة ٣١٢هـ فأقام ستة أيام ، حمل فيها ما استطاع رجاله أن يحملوه من أموال، وضج الناس خوفا من شره، فسيّر الخليفة لقتاله جيشا كبيرا، فشتته القرمطي واستولى على الرحبة وربض الرقة ، ودعا إلى (المهدي)، وأغار على مكة يوم التروية سنة ٣١٧هـ والناس محرمون ، فاقتلع الحجر الأسود، وأرسله إلى هجر،(أخذ الحجر الأسود إلى هجر سنة ٣١٧، وأعيد إلى الكعبة سنة ٣٣٩هـ) ونهب أموال الحجاج وقتل كثيرين منهم ، قيل : بلغ قتلاه في مكة ثلاثين ألفا، وكان يصيح على عتبة الكعبة:

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

وعرَّى البيت الحرام ، وأخذ بابه، وردم زمزم بالقتلى، وعاد إلى هجر فألهه بعض أصحابه، وقال قوم منهم إنه المسيح، ومات كهلا بالجدري في هجر سنة ٣٣٢هـ .

(ابن الأثير ٨/٢٧، ٤٥، ٤٩، ٥٣، ٥٦، ٦٥، النجوم الزاهرة ٣/٢٢٥، فوات الوفيات ١/١٧٥)

(١) أوسق : حملها الوسق، والوسق: مكيلة معلومة، وهي ستون صاعا .

(٢) الحجون : جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها، وقال السكرى : مكان من البيت على ميل=

[الرمل]

أنـــا لـــلـــــه ولـــلـــــه أنـــا   يـخلـقُ الخلـقَ وأفـنـيـــــهـم أنـا

وذلك يوم الأحد سابع ذي الحجة، ثم رحل عنها في المنتصف، وحمل معه الحجر الأسود وقناديل الكعبة، وكانت من ذهب وفضة، وقرن كبش الذبيح، وكان مغشى بالذهب، مكللاً بالجواهر والياقوت، وميزاب الرحمة، وكان وزنه ثلاثة قناطير من الفضة، والدرة اليتيمة، وكان وزنها أربعة عشر مثقالا، وكانت في جوف الكعبة، ثم لم يرجع من ذلك كله شيء إلا الحجر الأسود، فإنه أعيد إلى مكانه على ما أشير إليه، وكانت إعادته في خامس ذي القعدة سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة، وكانت مدة غيبته عن البيت الحرام اثنتين وعشرين سنة، ثم توجه هذا القرمطي ا للعين بجيوشه من مكة إلى البحرين، فنزل الأحساء، وما أبقى فيما أساء، ثم ابتلاه الله بداهية في جسده فتقطت أعضاؤه، ومات في السابع والعشرين من رمضان سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، وهو ابن ثلاثين سنة.

ثم قام بعده :

٥٤ - الأعْصَمُ

وهو الحسن بن أبي منصور[1] أحمد بن أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنَّابي،

= ونصف، والصفا : مكان مرتفع من جبل أبي قُبيس بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق، ومن وقف على الصفا كان بحذاء الحجر الأسود والمشعر الحرام، بين الصفا والمروة.

(ياقوت ، الحجون ، الصفا)

(١) الأعصم القرمطي : الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنَّابي، الملقب بالأعصم ، من أمراء القرامطة، فارسي الأصل، ولد بالأحساء، وتنقلت به الأحوال، فاستولى على الشام سنة ٣٥٧هـ، ووجه إليه المعزالعبيدي صاحب أفريقية جيشا من مصر بقيادة جعفر بن فلاح فهزمه=

ويكنى بأبي محمد، ثار بالأحساء وزحف لقتال المصريين وطردهم من المقام سنة ستين وثلاث مائة، فخرج إليه من مصر [ص٨٩] جعفر بن فلاح الكتامي(١)، فالتقيا يوم الأربعاء الخامس من ذي القعدة سنة ستين وثلاث مائة، فقُتِل جعفر وكثير ممن معه به، وملك الأعصم الشام كله، إلا يافا، ثم زحف إلى مصر ونزل الحب غرة ربيع الأول سنة إحدى وستين وثلاث مائة، فهلك من المصريين خلق كثير حتى أشرفواعلى الهلاك، فغدرت العرب بالأعصم، وأخذوا فساطيطه، فانهزم راجعا إلى الأحساء، ثم عاد على أثره إلى الشام، ولم يزل بها إلى أن وصل المعز من القيروان إلى القاهرة يوم الأربعاء سادس رمضان سنة اثنتين وستين وثلاث مائة، فخرج لحرب الأعصم بنفسه، فهزمه الهزيمة الشنعاء التي شردهم بها عن المقام، وذلك يوم الخميس سادس شعبان سنة ثلاث وستين وثلاث مائة، ومات الأعصم في طريق الأحساء في هذا الشهر، فحُمِل ودفن بالأحساء، وحل بجهنم، وقيل له اخسأ.

فهذه مشاهير الدول المنسوبة إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، تشتمل على حملة النسب، والدعي، والسقيم المائل، والصحيح السوي، وبها ثم ما

= القرمطي وذبح جعفر، وزحف إلى مصر سنة ٣٦١هـ، فحاصرها أشهرا، وترك عليها أحد قواده، وعاد يريد الشام، فمات بالرملة، كان يظهر الطاعة لعبد الكريم الطائع لله العباسي، وهو من الشجعان الدهاة، وله شعر، توفي سنة ٣٦٦ هـ.

(النجوم الزاهرة ٤ /١٢٨، تهذيب ابن عساكر ٧ /١٤٨، فوات الوفيات ١ /١١٥، سير أعلام النبلاء الطبقة العشرون)

(١) جعفر بن فلاح الكتامي : أبو علي، أحد قواد المعز العبيدي (صاحب أفريقية)، كان شجاعا مظفرا، سيَّره المعز مع القائد جوهر الصقلي لافتتاح الديار المصرية فدخلاها، وبعثه جوهر إلى الشام، فامتلك الرملة (بفلسطين) سنة ٣٥٨هـ، ثم امتلك دمشق سنة ٣٥٩هـ، وقتله بها الحسن بن احمد القرمطي سنة ٣٦٠ هـ.

(النجوم الزاهرة ٤ /٥٨، مرآة الجنان ٢ /٣٧٢، ابن خلكان ١ /١١٣، اللباب ٢ /٢٨)

أشد من العصابة العلوية وقدمتهم على بني العباس لما تقتضيه الأولوية.

فأما خلافة الاجماع والإمامة التي ختمت كالشمس، ومدت أطناب الشعاع، فهي بعد خلافة الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن رضي الله عنهم، الدولة الأموية، ثم الدولة العباسية، وما سواهما كالشذوذ، وكل عقد إلا لهما فهو في حقيقة الحال منبوذ .

وأول ما نبدأ بذكر الدولة العباسية، فإنها وإن كانت المعقبة لبني أمية والآتية بعدها على ما قد كان، فأبتدىء بالأقرب مخرجا من النبعة النبوية، والأدنى إلى مناسبها الزكية، ونحن نذكر إن شاء الله تعالى دولها الشهيرة ثم نصلها بما وصل إلى مصر في أيام ملوك الأتراك وتعلل فيها دماؤهم حتى مات وقُبر هناك، ثم نذكر الدولة الأموية [ص٩٠] ونصلها بمن دخل الأندلس وكان بها، حتى انكدر أفقهم، وطمس وهوى منهم الرفيع ودرس، إن في ذلك لعبرة، وإن فيه لما يجري للعبرة، وهي عوائد عوادي النوب، أخمدت نار كسرى، ورمت تاج قيصر قسراً، وأماتت افراسيات على شاطىء النهر قهرا، أذلت عزة بني عبد المدان، وحطت تخت تبّع من رأس غُمْدان(١)، وكان الأول في ذكر سكان الأرض أن تقدم في صدر الملة الإسلامية هاتان الدولتين، ونعزل مما أناف لآل عبد المناف الذروتين، لأن أهل هاتين الدولتين من بني أمية ثم من بني العباس هم الخلفاء حقا بعد الراشدين وصدقا، لولا كذب ادعاء المعاندين، وقد ذكرنا سكان الأرض، وهذا الاسم أصدق ما أطلق على الخلفاء، لقوله صلى الله عليه وسلم : (لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم لسان)(٢)،فهذا نص على أنهم ولاة

(١) غُمْدان : قصر بصنعاء ، قيل: بناه سليمان بن داود، وقيل: يشرح بن يحصب، وهُدم غمدان في أيام عثمان بن عفان، قيل في جمال صنعه شعر كثير .   (ياقوت : غمدان)

(٢) لم أجد هذا الحديث في كتب الصحاح .

أمر الناس، وجميعهم لهم أتباع، وإذا كان هذا الأمر لقريش فلابد أن يكون منهم واحد يجمع أمرهم، وهو الإمام، وما من البشر مطيعهم وعاصيهم في مشارق الأرض ومغاربها إلا مأموم به، وإن كان منهم عصاة أو خالع لربقة الطاعة، فإنه يلزمهم حكمه بشريعة الدين وعقيدة الإسلام، ولا يقدر يخالف في هذا أحد من المسلمين ولا ينازع مؤمن أنه داخل في إمرة أمير المؤمنين، فحينئذ الأئمة هم سكان الأرض وبقية من فيها ضميمة لهم أو كالضميمة، وعلى هذا الرأي بنينا هذا القسم من أوله، وبيَّنا كثيرا من تفاصيله وجمله، فذكرنا ما نقل إلينا مما كان من بداء الخلق، ومن كان في زمان كل من الأنبياء صلوات الله عليهم والملوك المؤمنين والكفار، فإن قال قائل : فلمَ ذكرت الملوك قبل الإسلام مع وجود الأنبياء، ومن أولئك الملوك كفار، لا بل غالبهم، ولم نذكرهم مع الخلفاء، والأنبياء أعلا درجة من الخلفاء، وملوك الإسلام خير من ملوك الكفار؟ الجواب : أن النبي كان يبعث إلى قومه خاصة، ولا [ص٩١] تتعدى دعوته مكان بعثته، والأرض مملوء ة بالملوك، ومنهم من لم يرسل في ذلك الوقت إليه، ولا إلى قومه، فاحتجنا إلى أن نذكر الملوك لهذا السبب، إذ كنا بصدد ذكر سكان الأرض، وليس في أولئك الأنبياء من له دعوة عامة، فإذا ذكر هو أو خليفة اكتفي به عن سائرالناس، ونبينا صلى الله عليه وسلم دعوته عامة، فإذا ذكر هو أو خليفته اكتفي به عن سائر الناس، كما قال تعالى مخاطبا عنه : ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾(١)، فلما كانت دعوته عامة، كانت دعوة خلفائه عامة، فلهذا لم يبق مقتضٍ لذكر أحد معهم، فإن قال : كيف تتكلم في سكان الأرض، وإنما أنت تتكلم في واحد منهم ؟ فالجواب : إنَّا لو أردنا ذكر الناس رجلا رجلا، لأردنا ما ليس في الإمكان، وإنما إذا ذكرنا الخلفاء نكون كأنا ذكرنا

(١) الأعراف ١٥٨.

كل سكان الأرض لأنهم نواب الله في أرضه وخلفاء نبيه صلى الله عليه وسلم في أمته، وهو المبعوث إلى الأسود والأحمر، والقاصي والداني، وهم القَوَمة بدينه، والدعَّاء بدعوته العامة، وجميع أهل الأرض ملزمون بها، من آمن منهم أو كفر، فلهذا وجب إفرادهم بالذكر، وأطلق على الجزء منهم اسم الكل، وبالله التوفيق.

وأما الملوك شكر الله عن الإسلام سعيهم، وبوَّأهم المغفرة والرضوان، فإنه سيأتي ذكرهم في قسم التاريخ وهو أمسّ بهم، لأنه أكثر ما دار على ذكر أيامهم، ونُوَبُ الدهر بيِّنة، وفيهم من جاهدفي الله وقاتل في سبيله، وسهَّد جفونه في جهاد أعدائه، وأغضّ الكفر وأماته بدائه، وضارب حتى ملَّت السيوف مضاربها، وكرهت الخيل الماء وعافت بالدماء مشاربها، وحامى عن رأيه وإمامه، وواصل طلائع راياته وآرائه، وأعملوا سيوفهم وأقلامهم في تمهيد البلاد، وتوطيد الملك فناضلوا وناظروا وجالدوا وجادلوا، وفعلوا ما قدرت عليه مكنة هممهم، وظفرت به أيدي مطالبهم، وسروا السرايا لإفاضة هذه الدعوة النبوية، وإفاء ة الأرض بظلال [ص٩٢] عصائبها المحمدية، وسنذكر من هذا مما نثبته في موضعه ونبينه في مواضعه، ونبيع زهره لمطالعه، وزهره بمطالعه، ونشرح به صدر رائيه وقاريه وسامعه، فأما ما ذكرنا من بني إسماعيل، فإنما أردنا به في النسب الشريف النبوي زاده الله شرفا اتصال سببه وإيضاح كيف كان نور مظهره، ليعرف تقدم آبائه في النسب اللباب، وخروج درته اليتيمة من قرارة ذلك البحر العباب .

وهذه الدَّوْلَةُ العبَّاسِيَّة

سقاها الله صوب رحمته، ولقاها نضرة نعمه، وأول ما نبدأ بذكر العباس بن

عبد المطلب[١] كان رحمه الله بهياً جميلا رئيسا في الجاهلية، كريما مهيبا، وكان لا يرفع مائدته حتى تأكل منها الطير والسباع، وكانت له ثياب للعاري، ومائدة للجائع، وسوط للسفيه، وجاء الإسلام وهو على ذلك، وكان جهوري[٢] الصوت، ربما صاح بالأسد فتفطر مرارة كبده، وصاح يوما : واصباحاه، فأسقطت الحوامل، وفي الحديث(عم الرجل صنو أبيه)، وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إذا رأياه نزلا له إلى الأرض وسلّما عليه، واستسقى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين، وقيل : من أكبر أنت أم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : أنا أسن وهو أكبر مني، وقال أكثم بن صيفي[٣] : حججت سنة فرأيت بني عبد المطلب كأنهم بروج فضة، فقلت : من هؤلاء ؟ قيل : بنو عبد المطلب، فقلت : هؤلاء غرس الله لا غرس البشر، وكان أجلَّ بنيه حبر هذه الأمة عبد الله بن العباس

---

(١) العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف : أبو الفضل، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، وجد الخلفاء العباسيين، وهو عم النبي صلى الله عليه وسلم، كان محسنا لقومه سديد الرأى واسع العقل، مولعا بإعتاق العبيد كارها للرق، اشترى سبعين عبدا وأعتقهم، وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه، وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله أخبار المشركين، ثم هاجر إلى المدينة وشهد وقعة (حنين)، فكان ممن ثبت مع النبي حين انهزم الناس، وشهد فتح مكة، وعمي في آخر عمره، توفي سنة ٣٢هـ .

(صفة الصفوة١ /٢٠٣، ذيل المذيل ص ١٠، ابن عساكر٧ /٢٢٦، نكت الهميان ص ١٧٥، تاريخ الخميس ١ /١٦٥، المحبر ص ٦٣ المرزباني ٢٦٥)

(٢) في الأصل : جهوي، سهوا .

(٣) أكثم بن صيفي بن رباح التميمي : حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمرين، عاش زمنا طويلا، وأدرك الإسلام، وقصد المدينة في مائة من قومه يريدون الإسلام، فمات في الطريق ولم ير النبي، وأسلم من بلغ المدينة من أصحابه، وهو المعني في الآية الكريمة : (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) وكانت وفاته سنة تسع من الهجرة .

(الإصابة ١١٣ جمهرة الأنساب ص ٢٠٠، الألوسي ـ بلوغ الأرب، ينظر الفهرس)

رضي الله عنهما، وفي الحديث :(اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)(١)، والبيت في ولده علي، وسماه علي بن أبي طالب باسمه وكناه بكنيته، وكان يدعى زين العابدين، وكان مجتهدا في العبادة، وكان عبد الملك [ص٩٣] بن مروان يكرمه ويعظمه، ثم البيت في ولده محمد بن علي، وهو الذي أصار عليه ابن الحنفية الأمر، ثم ظهرت شيعة بني هاشم بخراسان، ووجه محمد بن علي مولى له اسمه سلام بن العاري، وأمره أن يبثّ خبرهم هناك ففعل حتى تحدث به الكبير والصغير، ولم يسمِ الإمام ولا أين هو، وكان بالحُميمة(٢)، فتبع سلاما كثير منهم، ثم مات سلام، فلم يعرفوا أين الإمام، فأتوا جعفر الصادق(٣) فقال : أخطأتم المقصد، اقصدوا الحُميمة فيها شيخنا وابن عمنا، وهذا الأمر فيه وفي عقبه، فأتوه فأكرمهم وقال : أنا ضالتكم المنشودة، وبغيتكم المقصودة، ثم تأملهم فلم يجد فيهم صفة أبي مسلم، فعلم أنه سيأتي، ثم بعث معهم أبا عكرمة بن زياد بن دوهم داعيا، ثم أتى أسد بن عبد الله القسري واليا على خراسان لبني أمية، فقبض عليه وقتله وتتبَّعهم بالقتل والعقاب، وهم لا يزدادون إلا غلوا، وكتبوا إلى الإمام بمقتل أبي عكرمة، فبعث مكانه كثير بن سعد، ثم أقدمه وبعث مكانه عمار بن داود فغير اسمه فتسمى خداش بن زيد، فأخذه

(١) الحديث في...... الخ

(٢) الحُميمة : بلد من أرض الشراة من أعمال عَمَّان من أطراف الشام، كان منزل بني العباس، وأيضا قرية ببطن مرّ من نواحي مكة بين سروعة والبريراء . (ياقوت : الحميمة)

(٣) جعفر الصادق : جعفر بن محمد الباقر بن علي بن زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي، أبو عبد الله ، الملقب بالصادق، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان من أجلاء التابعين، وله منزلة رفيعةفي العلم، أخذ عنه جماعة، منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك، ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه كذب قط، له أخبار مع الخلفاء من بني العباس، وكان جريئا عليهم صدّاعاً بالحق، مولده ووفاته بالمدينة سنة ١٤٨هـ .

(وفيات الأعيان ١ /١٠٥، اليعقوبي ٣ /١١٥، صفة الصفوة ٢ / ٩٤، حلية الأولياء ٣ /١٩٢، نزهة الجليس للموسوي ٢ /٣٥)

أسد القسري وقطع لسانه، وسجن سليمان بن كثير، فانفلت من السجن، ولحق بالإمام، فبعث عليهم بكر بن وائل، ثم أخذه القسري في قوم من أصحابه وقررهم على الإمام، فلم يقروا، ثم قدَّم الإمام أبا سلمة الخلال، واسمه حفص بن سليمان، ثم قدمت الشيعة وفيهم أبو مسلم، فلما عرفه بصفته، وكان اسمه عبد الرحمن بن عثمان العجلي السراج[1]، وكان يعمل السروج، وسنه يومئذ ثمانية عشر سنة فقال لهم الإمام: هذا سيدكم والقائم مقامي فيكم، ثم استخلف ابنه إبراهيم وأوصاه بأخويه أبي العباس وأبي جعفر، وأخبره أنه ميت، وأن إبراهيم يموت بعده، وأن علامة القائم مع أبي مسلم، ثم خلا به وعرفه بما يكون، فما استقر بهم القرار بخراسان حتى بلغهم موت الإمام، يقال إن هشاما أدخل رأسه في جراب نورة حتى مات، فأقاموا العزاء، فصبَّرهم أبو مسلم، وجمع مالا عظيما وطرفا جليلة [ص ٩٤] وقدم بها على الإمام إبراهيم بن محمد، فقرر أمره، ثم عاد وعزل أسد بن عبد الله القسري وولى نصر بن سيار، فوقع إليه كتاب من أبي مسلم إلى الإمام فبعث به مع حامله إلى مروان فاستصلح مروان حامل الكتاب وأمره بأن يذهب به إلى الإمام إبراهيم، ثم يأتيه بجوابه، فأتاه بجوابه إلى أبي مسلم ويحثه فيه على الحرب، والأخذ بالجد، ثم كتب فيه:

[الرجز]

دونك أمراً قد بدت أشراطُهُ

إن السبيلَ واضحٌ سِراطُهُ

لم يبقَ إلا السيفُ واختراطُهُ

فبعث مروان من أتى به فحبسه بحراب وبقي مسجونا سنتين، ثم لما أيقن

(١) سترد ترجمته لاحقا .

مروان بزوال أمره، قتله نحو قتلة أبيه سنة ثلاثين ومائة، ثم لما سمع أبو مسلم بحبس الإمام، جمع شيعته وخطبهم وقال: لا خفاء بعد اليوم، فعقد اللواء المسمى بالسحاب، وكان أسود مكتوبا عليه بالذهب :(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير)(١)، وكان الإمام محمد بن علي(٢) أعطاه له، وجنَّد الجنودوأظهر الدعوة ولبس السواد هو وشيعته، ثم ظهر بمرو(٣) في يوم عيد وصلى بالناس، وخطب ولعن بني أمية، ودعا لعلي رضي الله عنه، ودعا لبني العباس، وكانت أول خطبة أقيمت لهم، ثم وجه قحطبة بن شبيب، وبث جنوده في البلاد، ثم جهز نصر بن سيار جيشا إلى أبي مسلم، وكتب إلى مروان بن محمد كتبا آخرها قال فيه(٤) :

[الوافر]

---

(١) الحج ٣٩ .

(٢) الإمام محمد بن علي: محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، أول من قام بالدعوة العباسية، وهو والد السفاح والمنصور، ولي إمامة الهاشميين سراً في أواخر أيام الدولة الأموية بعد سنة ١٢٠هـ، وكان مقامه بأرض الشراة بين المدينة والشام، ومولده بها في قرية تعرف بالحميمة، وبدأ دعوته سنة ١٠٠هـ، وعمله نشر الدعوة وتسيير الرجال إلى الجهات للتنفير من بني أمية، والدعوة إلى بني العباس، وجباية خمس الأموال من الشيعة يدفعونهاإلى النقباء، وهؤلاء يحملونها إلى الإمام وهو يتصرف في إنفاقهاعلى بث الدعاة وما يرى المصلحة فيه، كان عاقلا حليما جميلا وسيما، مات بالشراة سنة ١٢٥هـ .

(الطبري حوادث سنة١٠٠، ١٢٠، ١٢٦، اليعقوبي ٣ / ٧٢، البداية والنهاية ١٠ / ٥، ابن الأثير ٥ / ١٧,٢٠,٤٣، وانظر فهرسه تاريخ الإسلام ٥ / ١٣٣، ابن خلكان ١ / ٤٥٤، ذيل المذيل ص٩٨)

(٣) مرو :مدينتان، مرو الروذ، ومر الشاهجان، أحدهما قريبةمن الأخرى، بينهما خمسة أيام ، ومرو الشاهجان أكبر من مرو الروذ، ومرو الشاهجان أشهر مدن خراسان وقصبتها .

(ياقوت : مرو)

(٤)كذا في الأصل : قال فيه ، ولعله يريد كتابا قال فيه .

أرى خلل الرمادِ وميضَ جَمْرٍ ويوشكُ أن يكونَ له ضِرامُ
فإنْ النار بالعودين تذكى وإن الحربَ أولُها الكلامُ
فإنْ لم يُطْفِها عُقَلاءُ قومٍ يكونُ وقودُها جُثَثٌ وهامُ
أقولُ من التعجُبِ ليتَ شعري أأيقاظٌ أميَّةُ أم نيامُ
فإنْ لم يُطْفئوها تَجْنِ حَرْباً مشمرةً يشيبُ لها الغلامُ [ص٩٥]

فلم يفد هذا بني أمية تيقظاً ولا هاجَ لهم حفيظةً ولا تحفظاً، ثم إن أبا مسلم جهَّز مالكاً الخزاعي للقاء نصر بن سيَّار(١)، فسار في عدة قليلة، والنصر يقدمه، والسعود تخدمه،، فالتقوا قريب سمرقند(٢)، فما كان إلا أن تراء ى الجمعان، فولَّى جيش ابن سيار الأدبار قتلا ذريعا، وأُخذ قائد الجيش أسيرا، وحُمل إلى الخزاعي، فحُمل إلى أبي مسلم، فمَنَّ عليه وأعاده إلى ابن سيار مكرماً، فجعل يتحدث بمحاسن أبي مسلم، فمال إليه أكثر الناس، ثم خرج على ابن سيار رجل بكرمان، وكان سببا لتمام أمر [أبي] مسلم، لأنه اشتغل به عنه، فكتب يستمد مروان، فكتب إليه : إن حاجتنا بأهل الشام، فاكتف(٣) بما

(١) نصر بن سيَّار : نصر بن سيار بن رافع بن حري الكناني، أمير من الدهاة الشجعان، كان شيخ مضر بخراسان، ووالي بلخ، ثم ولي خراسان سنة ١٢٠هـ بعد وفاة أسد بن عبد الله القسري، وغزا ما وراء النهر ففتح حصونا وغنم مغانم كثيرة، وأقام بمرو، وقويت الدعوة العباسية في أيامه، فكتب إلى بني مروان بالشام يحذرهم وينذرهم، فلم يأبهوا للخطر، فصير يدبر الأمور إلى أن أعيته الحيلة، وتغلب أبو مسلم على خراسان، فخرج نصر من مرو سنة ١٣٠هـ ورحل إلى نيسابور، فسيّر أبو مسلم إليه قحطبة بن شبيب، فانتقل نصر إلى قومس، وكتب إلى مروان بن محمد وهو بالشام، وأخذ ينتقل منتظرا النجدة إلى أن مرض في مفازة بين الري وهمذان، ومات بساوة سنة ١٣١هـ .

(ابن الأثير ٥ / ١٤٨، ابن خلدون ٣ / ١٢٥، خزانة الأدب ١ / ٣٢٦، البيان والتبيين ١ / ٢٨)

(٢) سمرقند : ويقال لها بالعربية سمران، بلد مشهور معروف، قيل إنه من أبنية ذي القرنين ، بما وراء النهر، وهو قصبة الصغد مبنية على جنوبي وادي الصغد، مرتفعة عليه . (ياقوت : سمرقند)

(٣) في الأصل : فاكتفي وهو لحن .

عندك، فأيقن نصر بالخذلان، وقال: ذهبت والله خراسان، وسيذهب مروان، ثم خرج أبو مسلم إلى مرو لقتال ابن سيار، حتى إذا قاربها فتح خزائنه، وفرق أمواله على رجاله تفريقا خرق به عادته، فسمع بذلك جند ابن سيار فتساقطوا عليه تساقط الفراش، وتسارعوا إليه لطلب المعاش، فأعطاهم مثل ما أعطى رجاله، وبسط يده بالإعطاء، واستدعى بكرمه حركات البكاء، ثم قدم عليه ابن الكرماني، وكان نصر قد قتل أباه، ثم إنه كان مختصا به اختصاص الكف بالبنان، والنطق باللسان، فضاقت بنصر الأرض بما رحبت، وجزم بأن طائفته غلبت، وقدَّم أبو مسلم ابن الكرماني، وأمره بمحاربة ابن سيار لأخذ ثأر أبيه، فحاربه محاربة فات معها نصرا النصرُ، ثم جاء أبو مسلم فدخل مرو على حين غفلة، وأخذ البيعة على أهلها، ورتب وظائف المُلْك، وأما ابن سيار فإنه فرَّ إلى الجبال واستوطنها، ثم إن أبا مسلم قتل ابن الكرماني، وجهز قحطبة لقتال نصر، فأخرج عامله من طوس[١] وقتل مقاتلتها، ثم طلب ابن سيار فأخرج له ابنه تميماً في جيش عظيم، فلما رآه جزع، فلما تلاقت الجيوش قتل، وخرج ابن سيار هاربا إلى قومس[٢]، ثم إلى جرجان[٣]، ولقاه قحطبة[٤]فهزمه [ص٩٦]، وهرب ابن

(١) طوس :مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ، تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما الطابران والأخرى نوقان، ولها أكثر من ألف قرية فتحت في أيام عثمان بن عفان وبها قبر علي بن موسى الرضا، وقبر هارون الرشيد. (ياقوت : طوس)

(٢) قومس: كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع، وهي في ذيل جبال طبرستان، وقصبتها المشهورة دامغان، وهي بين الري ونيسابور . (ياقوت : قومس)

(٣) جرجان : مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، قيل إن أول من أحدث بناء ها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة. (ياقوت : جرجان)

(٤) قحطبة بن شبيب الطائي : قائد من ذوي الرأي والشأن شجاع، صحب أبا مسلم الخراساني وناصره في إقامة الدعوة العباسية بخراسان، وكان أحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي ممن استجاب له في خراسان ، وقاد جيوش أبي مسلم، وكان مظفرا في جميع وقائعه، غرق في الفرات على أثر وقعة له مع ابن هبيرة سنة ١٣٢هـ .

(الطبري ٩ /١١٧، ابن الأثير ٥ /١٥١، ابن خلدون ٣ /١٢٧)

سيار إلى الري[١]، وأتبعَه قحطبة بنَ الحسن، فكتب ابن سيار إلى مروان :

[السريع]

كُنَّا نُرَجِّيهـا وقـد مُـزِّقَـتْ فـاتَّسَعَ الخـرقُ علـى الـراقـعِ

كـالثـوبِ إذ أنهـجَ فيـهِ البِـلى أعيـا علـى ذي الحيلـةِ الصـانـعِ

ثم مات ابن سيار بعد كتابة هذا بيومين وتفرَّق أصحابه، ودخل الحسن بن قحطبة الري، فخرج إليه ابن هبيرة، وكان على العراق. هذا ما كان من هؤلاء .

وأما ما كان من بني العباس، فإنهم لما أُمسك الإمامُ، فروا إلى أحياء العرب، فمروا بماء لهم متجسسين فإذا هما[٢] بامرأتين مقبلتين، فوقفتا عليهم، وقالتا : ما رأينا أكرم ولا أصبح من خليفة وأمير، فانتهرهما عبد الله بن علي، فقالتا : لا وأبيكم، إن هذا الخليفة، وأشارتا إلى السفاح، وهذا الأمير، وأشارتا إلى المنصور، فانتهروهما، وساروا إلى الكوفة، فلقيهما داود بن علي وابنه موسى، وهما متفرقان في موال لهما من العراق إلى الحميمة، فأخبروه أنهم يريدون الكوفة للوثوب عليها، فقال داود : فكيف ومروان بن محمد في جنوده مطل على العراق، وشيخ العرب يزيد بن عمرو بن هبيرة عامل العراق، فقال له : يا عم، من أراد الحياة ذل، فقال داود لموسى : يا بني صدق ابن عمك، ارجع بنا معه، فانصرفا معهم، فلما أتوا الكوفة سألوا عن أبي سلمة، وأتوه، فأخلى لهم دارا وأنزلهم فيها في صفر سنة اثنين وثلاثين ومائة، وأجرى عليهم الأرزاق، ومنعهم من التصرف، فكانوا إذا أرادوا الظهور منعهم، وقال لهم : ابن هبيرة قريب منا،

---

(١) الري : مدينة مشهورة من أمهات البلاد، بينها وبين نيسابورمائة وستون فرسخا، وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخا .

(ياقوت :الري)

(٢) أي السفاح والمنصور كما يتضح من السياق .

وأمير المؤمنين واصل إلينا مكرا بهم، لميله إلى الطالبيين.

وأما أبو مسلم[١]، فإنه بعث أبا النجم إلى الكوفة ليتعرف له خبر السفاح، فأتاها، وأتى أبا سلمة عنه فأنكره ليدير في صرف الأمر إلى عبد الله بن الحسن بن الحسن، فتوسل أبو النجم ابن السفاح وأعلمه أن أبا محمد مسلم كتب إلى قحطبة أن يسير إلى الكوفة ويسأل عن الصغير من ولد الإمام محمد الذي اسمه عبد الله وكنيته أبو العباس، فإذا وجده يبايع له بالخلافة، فهو الإمام، أحب أبو مسلم أو كره [ص٩٧]فجهزه السفاح إلى ابن قحطبة، فسارع في خمسة آلاف، فدخل الكوفة ليلا، وأتى الدار فقال : أيكم أبو العباس، فقالوا: كلنا أبو العباس، وكان كلٌّ منهم طامع فيها لنفسه، فقال : أيكم[٢] بنو محمد بن علي، فيئس منها جميعهم وطمع فيها بنوه الثلاثة : السفاح والمنصور

---

(١) أبو مسلم الخراساني : عبد الرحمن بن مسلم، مؤسس الدولة العباسية، وأحد كبار القادة، ولد في ماه البصرة (مما يلي أصبهان) عند عيسى ومعقل ابني إدريس العجلي، فربياه إلى أن شبَّ، فاتصل بإبراهيم بن الإمام محمد العباسي، فأرسله إبراهيم إلى خراسان داعية، فأقام فيها واستمال أهلها، ووثب علي ابن الكرماني (والي نيسابور) فقتله واستولى على نيسابور، وسُلِّم عليه بإمرتها، فخطب باسم السفاح العباسي (عبد الله بن محمد) ثم سيَّر جيشا لمقاتلة مروان بن محمد(آخر الخلفاء الأمويين) فقاتله بالزاب (بين الموصل وإربل) وانهزمت جنود مروان إلى الشام، وفرَّ مروان إلى مصر وقُتل في بوصير، وزالت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ، وصفا الجو للسفاح إلى أن مات ، وخلفه المنصور، فرأى المنصور من أبي مسلم ما أخافه أن يطمع بالملك، وكانت بينهما ضغينة، فقتله برومة المدائن، عاش أبو مسلم سبعا وثلاثين سنة، بلغ بها منزلة عظماء العالم، كان فصيحا بالعربية والفارسية مقداما داهية حازما، راوية للشعر يقوله، وكان قصير القامة أسمر اللون رقيق البشرة حلو المنظر، طويل الظهر قصير الساق، لم يُرَ ضاحكا ولا عبوسا، قاسي القلب سوطه سيفه ، توفي سنة ١٣٧ هـ .

(ابن الأثير ٥ / ١٧٥، الطبري ٩ / ١٥٩، ابن خلكان ١ / ٢٨٠، البدء والتاريخ ٦ /٧٨ـ ٩٥، المعارف لابن قتيبة ص ١٨٥، الذريعة ١ /٣١٨، تاريخ بغداد ١٠ /٢٠٧، لسان الميزان ٣ / ٤٣٦، ميزان الاعتدال ٢ /١١٧)

(٢) في الأصل : فقالوا إنكم ، من وهم الناسخ .

ويحيى، فقالوا: نحن، فقال : من منكم عبد الله ؟ فيئس يحيى وطمع الاثنان، فقالا: كلانا عبد الله، فقال: أيكما ابن الحارثية ؟ فيئس منها المنصور، وقال : هذا ابن الحارثية، وأشار إلى أخيه، فقال : اكشف لي عن ظهرك حتى أرى العلامة التي فيه، فكشف له عن ظهره فرآها وقبلها، ثم قال له : امدد يدك أبايعك، فمد يده فبايعه إخوته وأهل بيته ورجاله، ثم ألبسه السواد، وركبه فرساً أشهب، وأركب أهله الخيل ملتثمين(١) بالسلاح، ثم أتى به المنبر يوم الجمعة، فمنع الخطيب الصعود، وصعد أبو العباس السفاح، ومعه عمه داود دونه بدرجة، فلما أراد السفاح الكلام أرتج عليه، فخطب عمه داود خطبة بليغة، ثم أخذ الناس بالمبايعة، وأهله حوله بالسيوف مسلولة بأيديهم، ثم أقام ثلاثة أيام، وخرج في جيش عظيم، فنزل الهاشمية، ثم فرّق جيشه، فأرسل أخاه أبا جعفر مع الحسن بن قحطبة إلى واسط لقتال ابن هبيرة، ووجه موسى بن عيسى إلى المدائن مع حميد بن قحطبة، واستخلف عمه داود على الكوفة.

وأما ما كان من مروان، فإنه لما أتاه الخبر خرج من حرّان(٢)، فنزل منزلا سأل ما اسمه؟ فقالوا: بلوى، فتطير منه، فقال: بل بشرى، ثم سار حتى أتى الموصل، فأتى السفاح الخبر، فجمع أهله وقال : من يلقى مروان دوني ؟ فقال له عمه عبد الله بن علي : أنا له كفء، فقال : صدقت وبذلك أخبر الإمام إبراهيم، فعقد له لواءً أسود، وألبسه السواد، وأنهده إليه، ثم أنشد السفاح مرتجلا :

[البسيط]

يا آل مروانَ إن الله مهلّكُم ... ومبدلٌ منكم خوفا وتشريدا[ص٩٨]

---

(١) في الأصل : متلثمين .

(٢) حرّان : مدينة مشهورة عظيمة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرّها يوم، وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم، فتحت مرات في أيام عمر بن الخطاب (ياقوت : حران)

لا عمَّر اللهُ من أنسابكم أحدا وبثَّكم في بلادِ اللهِ تطريدا

ودفعها إلى رجل حصيف، وقال له : تحيَّل في إنشادها في عسكر مروان من حيث لا يعلمون، كأنك هاتف، وسار عبد الله بن علي، وجرت بينهم حروب، ثم إن ذلك الرجل الذي حمَّله السفاح البيتين، تحيَّل في سرب(١) احتفره حتى نفذه إلى قرار شجرة في معسكر مروان، واتخذ منها حروفا خفية يخرج الصوت، ثم قام بهما ليلا ينشدهما، وظنوه هاتفا هتف بهم، فتفللت عروتهم، وكان ذلك مع تقدير الله سبب الهزيمة، ويقال : إن مروان لما رأى المسودة خارت عزائمه، فقال له كاتبه عبد الحميد بن يحيى : ما هذا الذي أراه منك ؟ أطربت للقاء أم جزعت من الموت ؟ فقال له : والله لوددت أني في قلهم ويكون لي سعدهم، وما يغني هذا العسكر العظيم مع الإدبار، ولئن قاتلونا بعد الزوال، فهي لنا، وإن قاتلونا قبل الزوال، فهي لهم، فناجزهم عبد الله بن علي القتال، وكانت له، وانهزم مروان إلى الجسر، فغرق أكثر من معه، وانهزم مروان، فعقد عبد الله بن علي على الجسر، وعبر النهر، وهو يقرأ : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾(٢)، ثم أتى مضارب مروان فنزلها، واستولى على ما فيها، ثم كتب إلى السفاح بالخبر، وكتب فيه :

[**البسيط**]

لجَّ الفِرارُ بمروانٍ فقلتُ لهم عادَ الظلومُ ظليماً همُّه الهربُ(٣)

أين الفرار وترك الملك إذ ذهبت بك الهوينى فلا دينٌ ولا حسبُ

شبيه فرعون في ظلم وفي غرق وفي بذاءة كلب ما [به]كَلَبُ(٤)

---

(١) السرب : المسلك في خفية ، وحفير تحت الأرض لا منفذ له .

(٢) البقرة ٥٠ .

(٣) في الأصل : ضليما، والظليم ذكر النعام .

(٤) في الأصل الشطر ناقص وقدرنا إضافة (به) لإقامة الوزن .

ثم سار يريده، وما مرَّ ببلد إلا وأطاعه، وأتى دمشق، فخرج إليه عاملها الوليد بن معاوية بن عبد الملك، في وجوه أهلها، فبايعوه، وامتنع من كان بها من بني أمية، فقاتلهم ودخلها بالسيف، واعتقل الوليد بن معاوية ومن كان خرج معه من بني أمية، وقتل العصاة وصلبهم، ثم سارفي طلب[ص٩٩]مروان، وما مر ببلد إلا وفتحه، حتى أدركه ببوصير قوريدس[١] من صعيد مصر، فبينا هو نازل إذا بالمسودة قد غشيته، فسير مروان يقول لعبد الله : الله الله في حرمي، فقال: قل له، لنا الحق في دمك، وعلينا في حرمك، وكان مروان إذ ذاك في جند كثيف، فأسلموه وفروا، فقاتل فيمن بقي معه حتى قتل، وخرج من سرادق مروان شيخ مسن فقال : أيكم الأمير؟ فأرشد إليه، فأتى بهم موضعافي الرمل بعيدا من القرية، فاحفروه فأخرجوا منه القضيب والبردة والقعب والمخضب، واحتز رأس مروان[٢]، وجهر به وبمكان دفنه إلى السفاح، ثم أحسنت

(١) بوصير: اسم لأربع قرى بمصر، وبوصير قوريدس من كورة البوصيرية، وبه قتل مروان بن محمد بن مروان بن الحكم . (ياقوت : بوصير)

(٢) مروان بن محمد بن مروان بن الحكم : أبو عبد الله، ويعرف بالجعدي وبالحمار، آخر خلفاء بني أمية، ولد بالجزيرة ، وأبوه متوليها، وغزا سنة ١٠٥هـ فافتتح قونية وغيرها، وولاه هشام بن عبد الملك على أذربيجان وأرمينية والجزيرة سنة ١١٤هـ ، فافتتح فتوحات وخاض حروبا كثيرة، ولما قتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ وظهر ضعف الدولة بالشام دعا الناس وهو بأرمينية إلى البيعة له، فبايعوه فيها، وزحف في جيش كثيف في أيام إبراهيم بن الوليد قاصدا الشام، فخلع إبراهيم واستولى على عرش بني مروان سنة ١٢٧هـ ، وفي أيامه قويت الدعوة العباسية، وتقدم جيش قحطبة بن شبيب الطائي إلى طوس يريد الإغارة على الشام، فسار إليه مروان بعسكره ونزل بالزاب (بين الموصل وإربل) وتقاتل الجيشان فانهزم جيش مروان ففر إلى الموصل ومنها إلى حران فحمص فدمشق ففلسطين، وانتهى إلى بوصير (من أعمال مصر) فقتل فيها، وحُمل رأسه إلى السفاح، وكان مروان حازما شجاعامدبرا، إلا أن ذلك لم ينفعه عند إدبار الملك وانحلال السلطان، ويقال له (الحمار) أو (حمار الجزيرة) لجراته في الحروب، كان أبيض ضخم الهامة بليغا ، قتل سنة ١٣٢هـ . =

حياطة أهله وحرمه، فلما أتى السفاح رأس مروان، سجد شكرا، ثم أنشأ يقول :

[الطويل]

تناولتُ ثأري من أميَّةَ عَنْوةً وحزتُ تراثي اليوم عن سلفي قسرا
وألقيتُ ذُلاً عن مفارقِ هامهم وألبستها عِزاً ولم آلُها فخرا

فهذه جملة جميلة من أخبار هذه الدولة حتى قامت، وهذا ذكر خلفاء هذه الدولة واحدا واحدا، إلا إبراهيم بن المهدي وعبد الله بن المعتز، فإني لا أذكرهما إلا في أخبار المأمون والمقتدر، إذ كان وثوبهما في ذينك الخليفتين، وأولها:

٥٥ - دَوْلَةُ السَّفَّاحِ

أبي العباس[١] عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وهو أول

= (الطبري ٩ / ١٣٣,٥٤، الكامل ٥ / ١٥٨,١١٩، ابن خلدون ٣ / ١١٢، ١٣٠، اليعقوبي ٣ / ٧٦، تاريخ الخميس ٢ / ٣٢٢، النجوم الزاهرة١ / ٣٢٢,٣٠٢,٢٨٦,٢٧٣,٢٥٤,١٩٦، المسعودي ٢ / ١٥٥)

(١) السفاح : عبد الله بن محمدبن علي بن عبد الله بن العباس، أبو العباس، أول الخلفاء العباسيين، وأحد الجبارين الدهاة، يقال له : (المرتضى) و (القائم)، ولد ونشأ بالشراة (بين الشام والمدينة)، وقام بدعوته أبو مسلم الخراساني مقوِّض عرش الدولة الأموية، بويع له بالخلافة جهرا في الكوفة سنة ١٣٢هـ، وصفا له الملك بعد مقتل مروان بن محمد، وكافأ أبا مسلم بأن ولاه خراسان، وكان شديد العقوبة عظيم الانتقام، تتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق حتى لم يبقِ منهم غير الأطفال والجالين إلى الأندلس، ولقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دمائهم، وكانت إقامته بالأنبار حيث بنى مدينة سماها (الهاشمية)، وجعلها مقر خلافته، وهو أول من أحدث الوزارة في الإسلام، وكان الأمويون يتخذون رجالا من الخاصة يستشيرونهم في بعض شؤونهم، وكان السفاح، سخيا جدا، وهو أول من وصل بمليون درهم من خلفاء الإسلام، يوصف بالفصاحة والعلم والأدب، مرض بالجدري فتوفي شابا بالأنبار سنة ١٣٦هـ .

(الطبري ٩ / ١٥٤، ابن الأثير ٥ / ١٥٢، ابن خلدون ٣ / ١٨٠، تاريخ الخميس ٢ / ٣٢٤، تاريخ=

خلفاء بني العباس، وهو أول من تلقى بصدره الباس، ولبس الشعار العباسي، فزرر ليله على قمره، وعقد ظفائر أعلامه السود على فرسان عسكره، وكشف كما ذكرنا قناعه لمجاهرته لبني أمية، وثار وقد توقدت به الحمية، وخرج فيمن قل من عمومته وأهله في شفق نهار، والشمس قد فتحت في ساعة الأصيل وردتها في خده الأسيل، وسار حتى أتى الكوفة وصعد منبرها، وأرتج عليه فخطب عمه داود ـ وهو واقف دونه بدرجة ـ خطبة بليغة، اقتضبها بديهاً، ثم وافت عساكر أبي مسلم [ص١٠٠] الخراساني تنسف رمل الأرض جيادها، ويخطف بصر البرق ومض حدادها، وصرَّح الشر فأمسى هو عريان(١)، وأصبح ومُقَل أسنته ترمق وجه العدو وهو خزيان(٢) ثم كانت وقعة الزاب(٣)، وغُلب الشيطان وانهزمت تلك الأحزاب، وولى عسكر الشام، وقد تفلل مضاؤه، وتفلل جمعه وضوضاؤه، وحاق بمروان بن محمد مكره، وحار فكره، ورأى الأرض أضيق عليه من مفحص القطاة، وأقصر عن مدى خطاه، وأدرك كما ذكرنا مروان ببوصير، واستقر به فيها

= اليعقوبي ٣ / ٨٦، المسعودي ٢ / ١٦٥ــ١٨٠، تاريخ بغداد ١٠ / ٤٦، فوات الوفيات ١ / ٢٣٢، البدء والتاريخ ٦ / ٨٨)

(١) نظر المؤلف في هذه العبارة إلى قول الفند الزماني : (أمالي القالي ١ / ٢٦٠)

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان
فلما صرَّح الشرُّ فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوا نِ دنَّاهم كما دانوا
مشينا مشية الليثِ غدا والليثُ غضبانُ

(٢) في الأصل : (وهو جرتان) ولا معنى لها.

(٣) الزاب : أنهر هي : الزاب الأعلى ، بين الموصل وإربل، والزاب الأسفل مخرجه ما بين شهرزور وأذربيجان، بينه وبين الزاب الأعلى مسيرة يومين أو ثلاثة، وبين بغداد وواسط زابان آخران أيضا يسميان الزاب الأعلى والزاب الأسفل، ويوم الزاب بين مروان بن محمد وبني العباس، وكان على الزاب الأعلى بين الموصل وإربل . (ياقوت : الزاب)

المصير، ثم لم تحوجه الأقدار بعدها إلى تجهيز جيش، ولا استعمال أناة ولا طيش، وكان السفاح يسفح نوالا، ويرى ألا يرد سؤالا، مع ما كان فيه من وفاء جرى إليه سيوقا، وشمخ غصنه الرطيب سموقا مع مكارم أخلاق فاقت أشباهها، وراقت أمواهها، فما شاء ه طلب بلوغا، ولا لاواه نزوغا، ولا بدأ بأمر إلا وأتمه فروغا، ولا أهمه مهم إلا وعاجل نجمه بزوغا، وقد كانت ملوك بني أمية ترى أنه سيكون الأمر في رجل من بني العباس أمه من بنات الحارث بن عبد المدان، فكانت تمنعهم من الزواج إليهم، حتى كان عمر بن عبد العزيز، فاستأذنه علي بن عبد الله في التزوج بريطة، فقال له : تزوج بمن شئت، فأولدها أبا العباس السفاح

وحكى ابن ظفر : أن أبا سلمة الخلال وسلمان بن كثير كانا يفدان في كل عام على إبراهيم الإمام، فيأتيانه بهدايا أهل الدعوة وبكتبهم ويستأمرانه، ولم يكن أحد من أهل بيته يعرفهما ولا يعرف الأمر الذي يأتيان فيه، فقدما سنة من السنين فرأيا أبا العباس وأبا جعفر أخوي إبراهيم الإمام، وهما إذ ذاك غلامان، فأعجباهما، فقال سليمان بن كثير لأبي سلمة : إني مسر إليك أمراً مهماً، فاحلف لي على كتمانه، فحلف له أبو سلمة بأيمان رضيها، فقال له سليمان بن كثير: إني أرى عند هذين الصبيين من إمارات الاستقلال ما لا كفاء له، فقال له أبو سلمة : هما والله أولى من صاحبنا، يعني إبراهيم [ص١٠١] الإمام(١)، فقال

(١) إبراهيم الإمام : إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، زعيم الدعوة العباسية قبل ظهورها، كان يسكن الحميمة (من أرض الشراة قريبة من معان)، وكانت بها منازل بني العباس، أوصى له أبوه بالإمامة، فكان شيعتهم يختلفون إليه ويكاتبونه من خراسان وغيرها، وتأتيه رسلهم، وانتشرت دعوته، وهو الذي وجه أبا مسلم الخراساني واليا على دعاته وشيعته في خراسان، فكان من أبي مسلم أن حارب عمال بني أمية، وتغلب على البلاد باسم الإمام، وكانت طريقتهم في ذلك كتمان اسم الإمام إلاعن الدعاة والثقات من الشيعة، ثم ظهر أمر إبراهيم وعلم=

له سليمان: ما منعني من ذكر هذا إلا التقية والتستر، وبينا هما يتفاوضان في هذا مرَّ أبو العباس وأبو جعفر وهما يضربان كربا[1]، فدعاهما أبو سلمة،، فأتياه فقال لهما: إني أنشدت صاحبي شعرا أنا به معجب، فلم يرضه، وقد رضينا بحكمكما فيه، فقالا: انشده، فأنشدهما:

[الطويل]

أمسلم فاسمع يا ابن كل خليفةٍ ... ويا فارسَ الهيجا ويا جبلَ الأرضِ

شكرتكَ إن الشكر حبلٌ من التقى ... وما كلٌ من أوليتَهُ نعمةً يقضي

ونوهتُ من ذكري وما كان خاملا ... ولكن بعض الذكر أنبهُ من بعضِ

فقال له أبو جعفر: من يقول هذا؟ قال: يقوله أبو نخيلة[2]، قال: فعض أبو جعفر على اصبعه وقال: أأمنَ هذا العبد أن تدول لبني هاشم دولة فيولغوا

= به مروان بن محمد، فقبض عليه وزجه في السجن بحران، ثم قتله في حبسه، فكانت البيعة من بعده سرا لأخيه أبي العباس السفاح بعهد منه، كان إبراهيم فصيح اللسان راجح العقل يروي الحديث والأدب، قتل سنة ١٣١هـ .

(الطبري ٩ / ١٣٢، ابن تالأثير ٥ / ١٥٨)

(١) في الأصل: كرتا، ولم أجد لها وجها، ولعلها :كَرَبا، والكَرَب: الأصل العريض للسعف إذا يبس، والحبل يشد في وسط خشبة الدلو فوق الرشاء ليقويه .

(٢) في الأصل :(أبو بجيلة) وقد تكررت بهذا الرسم، والصواب أبو نخيلة، وهو أبو نخيلة بن حزن بن زائدة التميمي يكنى بأبي الجنيد، وأبو نخيلة اسمه، شاعر راجز كان عاقا لأبيه ، فنفاه أبوه عن نفسه، فخرج إلى الشام، فاتصل بمسلمة بن عبد الملك، فاصطنعه وأحسن إليه وأوصله إلى الخلفاء، واحدا بعد واحد فأغنوه، ولما نكب بنو أمية وقامت دولة بني العباس، انقطع إليهم ولقب نفسه بشاعر بني هاشم، ومدحهم وهجا بني أمية، واستمر إلى أن قال في المنصور أرجوزة يغريه فيها بخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، فسخط عليه عيسى فهرب يريد خراسان، فأدركه مولى لعيسى فذبحه وسلخ وجهه سنة ١٤٥هـ .

(الأغاني ١٨ / ١٣٩ـ ١٥٢، الحيوان ٢ / ١٠٠، الشعر والشعراء ص ٥٨٣، الخزانة ١ / ٧٩ ـ ٨٠ أمالي المرتضى ١ / ٥٨٠ـ ٥٨٢

الكلاب دمه، فقال له أبو العباس : مهْ يا أخي، فإنه كان يقال : من أظهر غضبه ضعف كيده، ثم أقبل أبو العباس على أبي سلمة، فقال له : هذا شعر أحمق في أحمق، كيف يقول لرجل هو في سلطان غيره وتابع له : يا جبل الأرض مرسيها وممسكها، فلا يصح أن يقال هذا لمن هو في سلطان غيره وتابعاً له، وأين يقع تعظيمه وتفخيمه من نقص اسمه، وانطلق أبو العباس فقال له أبو جعفر: هلمَّ يا أخي نلعب، فقال أيو العباس: هل أولغت الكلاب دم أبي نخيلة؟ قال : لا ، ولكنك آذيتني فتأذيت، وذهبا، فقال أبو سلمة لسليمان: بمثل هذا يطلب الملك ويدرك الثأر، وما زالا بإبراهيم الإمام حتى عهد إلى أبي العباس، ويقال إنه وعدهما أن يعهد إليه ولم يفعل حتى قبض عليه مروان فأمضى العهد لأبي العباس .

قال : ثم إن أبا نُخَيلة وفد على أبي العباس السفاح عندما أفضت الخلافة إليه، فلما مثل بين يديه استأذنه في الإنشاد، فقال له: من أنت ؟ قال: عبدك وشاعرك أبو نخيلة، فقال أبو العباس : لا قرب الله من أبعد نوى ولعنه، ألست القائل : آمسلم فاسمع يابن كل خليفة . وأنشده الأبيات، فقال أبونخيلة :

[الرجز]

كُنَّا أُناساً نرهبُ الأملاكا ... ونركبُ الأعجازَ والأوراكا

من كل شيء ما خلا الإشراكا ... وكلما قد قلتُ في سواكا

زورٌ فقد كفَّرَ هذا ذاكا ... إنَّا انتظرنا زمناً إياكا

ثم انتظرنا بعده أخاكا ... ثم انتظرنا لهما أباكا

فكنتَ أنت للرجاءِ ذاكا

فعفا عنه أبو العباس السفاح ووصله .

وعن سعيد بن سالم البابلي قال: حدثني من حضر مجلس السفاح، وهو أحفل ما يكون بوجوه قريش وبني هاشم والشيعة، وأعيان الناس، فدخل عبد الله بن حسن[١] وبين يديه مصحف، فقال : يا أمير المؤمنين، اعطنا حقَّنا الذي جعله الله لنا في هذا المصحف، قال: فأشفق من أن يعجل السفاح بشيء إليه، فلا يريدون ذلك في شيخ من بني هاشم، أو يعيى بجوابه فيكون ذلك نقصا له وعارا عليه، فأقبل السفاح عليه غير مغضب ولا مزعج وقال له: إن جدك عليًّا[٢] عليه السلام ، وكان خيرا مني وأعدل، وليَ هذا الأمرفأعطى جديك الحسن والحسين وكانا خيرا منك شيئا ؟ وكان الواجب أن أعطيك مثله، فإن كنت فعلت فقد أنصفتك، وإن كنت زدتك فما هذا جزائي منك، فما رد عليه عبد الله جوابا وانصرف، والناس يعجبون من حسن جوابه .

وذكر الغرناطي قال : كان السفاح أبيض[٣] طويلا جميلا معبل الجسم[٤] أقنى الأنف أكحل العينين، كث اللحية مستديرها، سريع الغضب، قريب الرضى، كثير الجود، سديد الرأي، وصولا للرحم شجاعا، تقصَّى في قتل بني أمية، قتل منهم ومن أتباعهم أربعين ألفا، وأما جملة من قتل أبو مسلم فألف

---

(١) عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي :أبو محمد، تابعي من أهل المدينة، كان ذا عارضة وهيبة ولسان وشرف، وكانت له منزلة عند عمر بن عبد العزيز، ولما ظهر العباسيون جاء مع جماعة من الطالبيين على السفاح، وهو بالأنبار فأعطاه ألف ألف درهم، وعاد إلى المدينة، ثم حبسه المنصورعدة سنوات من أجل ابنيه محمد وإبراهيم، ونقله إلى الكوفة، فمات سجينا فيها سنة ١٤٥هـ .

(مقاتل الطالبيين ص ١٢٨، تاريخ بغداد ٩ / ٤٣١، تهذيب ابن عساكر ٧ / ٣٥٤، ذيل المذيل ص ١٠١، الاصابة ترجمة ٦٥٨٧)

(٢) في الأصل (علي)، وهو لحن بدل من جدك اسم إن .

(٣) في الأصل : (أبيضا)، وهو لحن لأنه ممنوع من الصرف .

(٤) معبَّل الجسم : المعبل : الغليظ الضخم المتلىء .

ألف وست مائة ألف، وأخذ السفاح نفسه بمحو[١] آثار بني أمية وهدم ديارهم، ونبش عبد الله بن علي قبورهم، إلا قبر عمر بن عبد العزيز، وكان السفاح يقول: [ص١٠٣] ما أبالي بالموت متى طرقني، وقد نلت أملي في بني أمية، أحرقت هشاما بابن عمي زيد بن علي، وقتلت مروان بأخي الإمام أبراهيم، ثم ينشد:[٢]

[البسيط]

لو يشربون دمي لم يروِ شاربَهم ولا دماؤهمُ للغيظِ ترويني

ثم كان إذا ذكرهم أنشد قول جده العباس بن عبد المطلب : [الطويل]

أبى قومنا أن ينصفونا [فأنصفت] قواطع في أيماننا تقطرُ الدما[٣]

إذا خالطت هامَ الرجال تركتها كبَيضِ نعامٍ في الوغى قد تحطَّما

وأمر يوما بجمع من بقي من بني أمية فجمعوا، وفيهم عمر بن عبد الملك بن مروان، فأكرمه وأجلسه معه على سريره، فغاظ ذلك أبا مسلم، فأمر سديفا[٤] فأنشده شعرا منه :

[الخفيف]

لا يغرَّنْكَ ما ترى من رجالٍ إنَّ تحتَ الضلوعِ داءً دويًّا

---

(١) في الأصل : بنو، وهو من وهم الناسخ .

(٢) البيت في الكامل لابن الأثير ٥ / ٧٥ .

(٣) البيت الأول جاء في الأصل ناقصا، والبيتان للعباس بن عبد المطلب في الحماسة البصرية ١ / ٥٢ .

(٤) سديف بن إسماعيل بن ميمون: مولى بني هاشم، شاعر حجازي، غير مكثر، من أهل مكة،كان أعرابيا بدويا حالك السواد شديد التحريض على بني أمية، متعصب لبني هاشم، أظهر ذلك في أيام بني أمية، وعاش إلى زمن المنصور، فتشيع لبني علي، فقتله عبد الصمد بن علي (عامل المنصور) بمكة سنة ١٤٦هـ .

(الشعر والشعراء ص ٢٩٣، المحبر ص ٤٨٦، التاج ٦ / ١٣٦، تهذيب ابن عساكر ٦ / ٦٦).

فضعِ السيفَ وارفعِ الصوطَ حتى   لا ترى فوقَ ظهرها أمويًا(١)

فتنفس السفاح الصُعَداء ثم التفت إلى عمر بن عبد الملك وقال له : كيف رأيت هذا الشاعر، فأنطقه الحَين فقال : شاعرنا أشعر منه حيث قال فينا :

[**البسيط**]

شُمسُ العداوةِ حتى يستقادَ لهم   وأرجحُ الناسِ أحلاما إذا قدروا

فغضب السفاح وكل من حضره من أهل بيته، وقالوا : تحدثهم أنفسهم بالأمر، فألقى السفاح قلنسوة الأموي، وأمر العبيد فوضعوا فيهم السيوف وقتلوهم عن آخرهم، ثم التفت إلى عمر وقال له : ما أظن الأمير يحب البقاء بعدهم، فقال : لا، فأمر بإقامته ، فأُقيم ، وضربت عنقه، وجروا بأرجلهم حتى ألقوافي رحبة القصر، وعليهم سراويلات الوشي، ثم إن سليمان بن هشام قدم على السفاح، وكان قد فرَّ منه إلى السند، فأكرمه وأعظمه وقربه وصيَّره في جلسائه، لظرفه [ص١٠٣] وعقله وآدابه وفصاحته ودماثة خلقه، فحسده أبو مسلم، فأمر سديفا فأنشده :

[**الخفيف**]

أظمأتْنا بنو أمية حتى   ما غبطنا مسوغا للحياةِ

كيف بالعفو عنهم وقديما   قتلونا بالضرب والمثلاتِ

أين زيدٌ وأين يحيى بن زيدٍ   يا لها من مصيبةٍ وتراتِ

والإمامُ الذي أُصيبَ بحرَّانَ   إمامُ التقى ورأسُ الهُداةِ

لا تزالُ الصدورُ آلمةً ما   لم تنل من أميَّةَ الثاراتِ

فتنفس السفاح الصعداء، ثم أمر بسليمان وابنيه فقتلوا، ثم إن شاعرا من

---

(١) في الأصل : وارفع الصوت .

بني أمية صنع هذه الأبيات، وتلطف في إيصالها إليه، وهي :

[الرمل]

ولقد أبصرتُ لو تنقضي عبرا ... والدهرُ يأتي بالعجبْ
أين زرقاء عبد شمسٍ أينَ هم ... أينَ أهل الباعِ منهم والحَسَب
كلُّ سامي الجدِ محمود الجَدا ... واضحُ الغرَّةِ بدرٌ منتَجَبْ
لم يكن أندبهم عندكمُ ... ما فعلتم يالَعبدِ المطلبْ
إن تجِدُّوا الأصلَ منهم سَفَهَاً ... يا لَقومي للزمانِ المنقلب
إنَّ هذا الدهرَ لابد له ... بخيار الناس يوما ينقلبْ

فغض السفاح من فعله وألان جانبه وفلَّ غربَ سطوته، ومولده سنة خمس ومائة، وتوفي بالجدري سنة ست وثلاثين ومائة، وعمره واحد وثلاثون سنة، ومدته أربع سنين وتسعة شهور وأيام، وقبره بالأنبار .

ثم :

٥٦ - دَوْلَةُ المَنْصُورِ

أخيه أبي جعفر عبد الله بن محمد(١)، وكان منصور اللواء، مقصور الرأي

---

(١) المنصور : أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ثاني خلفاء بني العباس، ولد بالحميمة من أرض الشراة (قرب معان)، وولي الخلافة بعد أخيه السفاح سنة ١٣٦هـ، بنى المنصور مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ وجعلها دار ملكه بدلا من الهاشمية التي بناها السفاح، كان المنصور بعيدا عن اللهو والعبث، كثير الجد والتفكير، وهو والد الخلفاء العباسيين جميعا، كان حازما وفي سبيل استتباب ملكه قتل خلقا كثيرا، وقد قتل أبا مسلم الخراساني سنة ١٣٧هـ الذي رسخ الدولة العباسة، عني المنصور بالعلوم والترجمة وكان عارفا بالفقه والأدب والفلسفة والفلك، محبا للعلماء، مع بخل شديد، حكم اثنين وعشرين عاما، وتوفي ببئر ميمون من أرض مكة سنة ١٥٨هـ ودفن بالحجون بمكة. =

على دفع اللأواء، لا ينثني عوده بالالتواء، ولا يستحوذ عليه بالاحتواء، لا يمل طول الثواء ولا يلم برده على تأخير الدواء، لا تزعجه تظافر الأشياء والأسواء، ولا تردعه تغاير الأهواء، أوقع على مقاصده من مواطن [ص١٠٥] الأنواء، وأبصر بمصالحه من نواظر الصحة عداوة الأدواء، لا يفكر في عباد يهلكها، لبلاد يملكها، ولا يستأثر بدماء يسفحها لنعماء يُمنحها، حتى توطدت قواعد ملكه، وتوطنت فرائد الأقاليم في سلكه، فما أعجزه مرام، ولا أعجزه حافز أمر عن تمام، ولم يكن في بيته أقوى منه شكيمة، ولا أورى زناد عزيمة، ولا أغزر علما، ولا أوفر حلما، إلا أنه كان مبخلا لا يرشح له صلد تبدى، ولا يفيض له بحر بجدا، ونجمت في مدته خوارج فرماها بغوائله، وماراها حتى شفى منها صدور مناهله، فاستقام له غويها، ودخل في ذمام طاعته عصيُّها، ومن نأت عليه أنهد إليها جيوشه فأوطاها أحداثا، وأوطنها أجداثا، ثم بعث إلى الأطراف فسدد ثغورها، وشد سعورها، وبنى المدن ومدنها، وسجن المعاقل وحصنها، وكان لا يُطمع في اهتبال غرته، واحتلال أسرته، فما لانت حصاته لماضغ، ولا هانت حصانته على رائغ، فلم يتخلص من قبضته نازغ، ولا قصده إلا من عاد بقلب ملآن فارغ، ودام الملك في بيته تتوارثه، وينتقل إليهم عنه موارثه، وهاهم إلى اليوم في بقايا نعمه التي أحرزها، وذخائره وهي الخلافة التي في بيته أكثرها، وهو داهية القوم وقلَّبته الأحوال أكثر من كل بني أبيه، واضطر في دولة بني أمية إلى أنه قصد شيعتهم بالعراق، فمر في طريقه بقصر خالد بن عبد الله القسري(١)، فلما رآه خالد لم

= (الطبري٩ / ٢٩٢ ـ ٣٢٢، البدء والتاريخ ٦ / ٩٠ ابن الأثير ٥ / ١٧٢، ٦ / ٦، تاريخ الخميس٢ / ٣٢٤، ٣٢٩، المسعودي ٢ / ١٨٠ـ ١٩٤، تاريخ بغداد ١٠ / ٥٣، فوات الوفيات ١ / ٢٣٢ تاريخ اليعقوبي ٣ / ١٠٠)

(١) خالد القسري : خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد، من بجيلة، أمير العراقين، وأحد خطباء العرب وأجوادهم، يماني الأصل من أهل دمشق، ولي مكة سنة ٨٩ هـ للوليد بن عبد الملك، ثم ولاه=

يكن يعرفه، طالبه وسأله عن نسبه وأين يريد، فأخفى نسبه وقال : إني أريد العراق لدين عليّ، وحقوق لزمتني، فأمر له بمال جليل وأعاده، فراعاها له أبو جعفر، فلما أفضت إليه الخلافة رد على آل خالد بن عبد الله نعمتهم[١]، وألجأته الضرورة إلى أنه تزوج امرأة من الأزد، وأكرى نفسه مع الملاحين، يمد في الحبل ، وأولد تلك الامرأة ولدا كتب في دولة أبي جعفر عند أبي أيوب المورباني، وهو [ص١٠٦] لا يدري ولا الصبي أنه ابن أبي جعفر، فرآه أبو جعفر، فهفت إليه نوازعه، فسأله عن أبيه فقال : رجل شريف تزوج بأمي ، فسأله عن أمه وأهله ومكانه، فعرفه وعرف أنه ابنه، فأمره بحمل أمه وأهله إليه ، فلما سافر لهذا، بعث أبو أيوب من تتبعه وقتله غيلة، خوفا منه لما كان اطلع عليه من معايبه؟ وأمسك أبو جعفر المنصور في آخر سلطان بني أمية بسبب مال، وضربه عامل البصرة بالسياط، وكان أبو أيوب المورياني يكتب لعامل البصرة، فقام وأكب على أبي جعفر وخلصه، وكان أبو جعفر يرعى له هذا الود، ثم كان منه ما كان إليه، على ما يأتي في موضعه، ولما مات السفاح خرج عليه عبد الله بن علي[٢] بالشام، وكان ليه من قبل السفاح، وقال إن السفاح عهد قبل موته إن

= هشام العراقين (الكوفة والبصرة) سنة ١٠٥هـ ، فأقام بالكوفة، وطالت مدته إلى أن عزله هشام سنة ١٢٠هـ ،وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي، وأمره أن يحاسبه، فسجنه يوسف وعذبه بالحيرة، ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد، وكان خالد يُرمى بالزندقة، وللفرزدق أهاج فيه ، وكان مقتله سنة ١٢٦هـ .

(ابن الأثير ٤ /٢٠٥، الأغاني١٩ /٥٣ـ٦٤، تهذيب ابن عساكر ٥ /٦٧ـ ٨٠، ابن خلدون ٣ /١٠٥الوفيات ١ /١٦٩)

(١) كذا بالأصل ، ولعله يريد : آل خالد .

(٢) عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس : أمير وهو عم الخليفة أبي جعفر المنصور، وهو الذي هزم مروان بن محمد بالزاب، وتبعه إلى دمشق وفتحها وهدم سورهاوقتل من أعيان بني أمية ثمانين رجلا بأرض الرملة، ومهد دمشق لدخول السفاح، وظل أميرا على بلاد الشام مدة خلافته، فلما=

الأمر لقاتل مروان، وأنا قاتله، فقالوا صدقت وبايعوه،فبعث إليه المنصور أبا مسلم، فالتقوا ببلاد نصيبين، وكانت بينهم حروب عظيمة دامت شهورا، ثم انهزم أصحاب عبد الله بن علي إلى البصرة، وكان عليها أخوه سليمان بن علي، فأنزله وأخبر المنصور فأمره بحبسه، ثم كان آخر العهد به، ثم إن أبا مسلم شمخ بنفسه فأرسل إليه المنصور يقطين بن موسى ليقبض ما أصاب، فرده رداً قبيحا، ثم سار أبو مسلم من الجزيرة وقد أزمع على الخلاف، وبلغ الخبر المنصور وهو بالمدائن فاغتم لذلك، وسار إلى مدينة رومية، وكتب إليه أني أريد أن أشاورك في أمر لا أستطيع أن أكتمه، فأتني مسرعا، فلم يلتفت على الكتاب، فدس عليه صاحبا له، فأتى به فقتله على الصورة المعروفة، ولما قتله التفت إليه، ثم قال يرحمك الله أبا مسلم، لقد بايعتنا وبايعناك، وعاهدتنا وعاهدناك، ووافيتنا ووفينا لك، وإنا بايعناك على أن لا يخرج علينا أحد في هذه الأيام إلا قتلناه، فخرجت علينا فقتلناك .

وحُكي أن أبا مسلم كان يجد خبره في الكتب [ص١٠٧] السابقة وأنه مميت دولة ومحيي دولة، وأنه يقتل ببلد الروم وهي من المدائن من العراق، ولما ضربه المنصورأول ضربة، قال له : استبقني يا أمير المؤمنين لأعدائك، فقال : لا أبقاني الله إن أبقيتك، وأي عدو أعدى لي منك، وكان مقتله سنة سبع وثلاثين ومائة، وهو ابن إحدى وثلاثين سنة، ذكره الغرناطي، ولما رآه المنصور طريحا بين يديه قال :

= ولي المنصور خرج عبد الله عليه، ودعا إلى نفسه، فانتدب المنصور لإخضاعه أبا مسلم الخراساني، فقاتله في نصيبين ، فانهزم عبد الله واختفى، وصار إلى البصرة، فأمّنه المنصور فاستسلم ، وأُشخص إلى بغداد، وحُبس بها، فوقع عليه البيت الذي حبس فيه فقتله سنة ١٤٧هـ.
الطبري ٩ / ٢٦٤، ابن الأثير ٥ / ٢١٥، النجوم الزاهرة ٢ /٧، المحبر ص ٤٨٥ تاريخ بغداد ١٠/ ٨)

[السريع]

زعـمت أنَّ الدَّيـنَ لا يُقْتَـضى فـاسـتـوفِ بالكيلِ أبا مـجرمِ
واشـرب بكأس كنت تسـقي بهـا أمـرٌ فـي الحلقِ مـن العلقَـم

فاضطرب أصحاب أبي مسلم، فنثرت(١) عليهم الأموال وأعلموا بقتله، فأمسكوا رغبة ورهبة، ومضى أبو مسلم لسبيله لم يُغْنِ عنه كثرة قبيله، ولا توقد بصر كان يسري بقنديله، ولا نجاة بعد غور كانت السفن تغرق في ضحضاحه، وتدلج ولا تظفر بصباحه، فلم ينفع بحذار، ولم يدفع بحذر لمقدار، وحكت سلامة أم منصور قالت : رأيت حين حملت به أسدا خرج من قبلي فأقعى وزأر وضرب الأرض بذنبه، فاجتمعت إليه الأسود، وكان كلما جاء ه أسد سجد له ، وكان المنصور فقيها عالما حافظا، قال مالك بن أنس: ما اجتمعت قط بأبي جعفر المنصور إلا احتقرت نفسي، وادَّعت الراوندية(٢)فيه الألوهية ، وخرج لدفعهم،فأرادوا قتله، وقالوا: نريد يخرج الجزء الإلهي من هذا الناسوت، فخافهم، فاختط مدينة بغداد وانتقل من الهاشمية إليها، وقد تقدم ذكر بغدادفي موضعه من تقسيم الأقاليم، وكان أبو حنيفة ممن على عملها. وعن عمير المديني قال : قدم علينا المنصور المدينة ومحمد بن عمران الطلحي على قضائه، وأنا كاتبه، فاستعدى الحمالون عليه في شيء ذكروه، فأمرني أن أكتب إليه كتابا

---

(١) في الأصل : فنثيرت عليهم .

(٢) الراوندية :عدة فرق من الشيعة العباسيين ظهروا في خراسان منتصف القرن الثاني، ولم يعمروا طويلا، منهم من يسوق الإمامة من علي إلى ابنه محمد بن الحنفية، ثم إلى ابنه أبي هشام، ثم إلى العباسيين بالوصية، ومنهم من يجعلها بعد وفاة النبي بنص منه إلى عمه، ثم يسوقها بالوصية في ولده، ويغلب عليهم القول بالحلول والتناسخ، والراوندية نسبة إلى أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي المتوفى سنة ٢٩٨هـ، فيلسوف مجاهر بالالحاد من سكان بغداد ، نسبة إلى راوند من قرى أصبهان .

(ابن خلكان ١ /٢٧، مروج الذهب ٧ /٢٣٧، الموسوعة العربية الميسرة ١ /٨٥٨)

بالحضور معهم وإنصافهم، فقلت : تعفيني [ص١٠٨] من هذا فإنه يعرف خطي، فقال : اكتب، فكتبت ثم ختمه، فقال : لا يمضي به والله غيرك، فمضيت به إلى الربيع(١)، وجعلت إليه اعتذر، فقال(٢): لا عليك، فدخل عليه بالكتاب، ثم خرج الربيع فقال للناس : أمير المؤمنين يقول لكم : إني قد دعيت إلى مجلس الحكم، فلا أعلمن أحدا قام إليَّ إذا خرجت أو بدأني بالسلام، ثم خرج والمسيب بين يديه، والربيع وأنا خلفه، فسلم على الناس، فما قام إليه أحد، ثم مضى حتى بدأ بالقبر فسلم ثم التفت إلى الربيع وقال : يا ربيع ويحك، أخشى إن رآني عمران أن يدخل قلبه لي هيبة فيتحول عن مجلسه، وتالله إن فعل لا ولي لي ولاية أبدا، فلما رآه وكان متكئا، أطلق رداء ه عن عاتقه ثم احتبى به، ودعا بالخصوم وبالحمالين، ثم دعا بالمنصور فسوَّى بينهم، ثم ادعى عليه القوم، فقضى لهم، فلما دخل الدار قال للربيع : اذهب فاذا قام وخرج من عنده الخصوم فادعه، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه ما دعا بك الا بعد أن فرغ من أمور الناس، فمضى ودعاه، فلما دخل عليه سلم فقال له : جزاك الله عن دينك وحسبك وعن خليفتك أحسن الجزاء ،قد أمرت لك بعشرة آلاف دينار فاقبضها، فكانت عامة أموال محمد بن عمران من تلك .

وحكى البلاذري قال : ما كان المنصور يستصبح إلا بالزيت في القناديل،

---

(١) الربيع حاجب المنصور : هو الربيع بن يونس بن محمد بن أبي فروة كيسان، من موالي بني العباس، أبو الفضل، وزير من العقلاء الموصوفين بالحزم، اتخذه المنصور حاجبا ثم استوزره، وكان مهيبا محسنا في إدارة الشؤون، عاش إلى خلافة المهدي، وحظي عنده، ثم صرفه الهادي عن الوزارة، وأقره على دواوين الأزمَّة، فلم يزل عليها إلي أن توفي، وإليه تنسب (قطيعة الربيع) ببغدا، وهي محلة كبيرة أقطعه إياها المنصور، توفي سنة ١٦٩هـ .

(تاريخ بغداد ٨ / ٤١٤ ، ابن خلكان ١ / ٨٥، تهذيب ابن عساكر ٥ / ٣٠٨، الوزراء والكتاب ص ١٢٥ ـ ١٦٧)

(٢) في الأصل : فقلت .

وإنما خرج إلى المسجد ومعه من يحمل سراجا بين يديه، ثم إنه حمل بين يديه ما فيه الرطل والمن، وكان إذا أراد قراء ة الكتب أو كاتبها أحضر شمعة في تور[١]، ثم إذا فرغ رفعها، وكان لا يرى إلا الاقتصاد في كل أموره ، والاقتصار على الضروري الذي لابد منه ، وكان أبو عبيد الله الكاتب يقول : كان المنصور يعطي الناس في حق، وأعلمهم[٢] بحرمه، وأشدهم شكيمة على عدو ، وكان أمره جدا كله، وسمع المنصور جلبة في داره، فقال : ما هذا؟ فاذا خادم له قد جلس وغلمة حوله وهو يضرب لهم بطنبور[٣] وهم يضحكون منه، فأخبر بذاك، فقال : وما الطنبور؟ فوصفه [ص١٠٩] له عماد التركي، فقال له : وما يدريك به؟ فقال: رأيته بخراسان، فقال: نعم، ودعا بنعله وقام يمشي رويدا حتى أشرف على الغلمان ، فلما أبصروه تفرقوا، فقال : خذوا الخادم فاكسروا ما معه على رأسه، ثم قال : يا ربيع، أخرجه من قصري، وابعث إلى حمران النخاس حتى يبيعه، فوجه به الربيع من ساعته فبيع .

وعن رجل من حشم المنصورقال: كان المنصور يقسم علينا الأرزاق وما في الخزائن حتى القانيد[٤] والدرياق[٥]، وركب المنصور يوما نحو باب قطربل[٦] حتى دخل من ناحية باب حرب[٧]، فأساء بعض أحداث مواليه، وسار في ناحية

---

(١) التور : الإناء .

(٢) في الأصل : وأعملهم بحرمه، وهو تحريف .

(٣) الطنبور :آلة من آلات اللعب واللهو والطرب ذات عنق وأوتار.

(٤) القانيد : لعله القند، وهو : غسل قصب السكر إذا جمد.

(٥) الدرياق: الترياق، الدواء، فارسي معرب .

(٦) قطربل : قرية بين بغداد وعكبرا، ينسب إليها الخمر، وكانت متنزها للبطالين وحانة للخمارين، وقد أكثر الشعراء من ذكرها، وقيل : هو اسم لطسوج من طساسيج بغداد، أي كورة، فما كان من شرقي الصراة فهو بادوريا، وما كان غربيها فهو قطربل . (ياقوت : قطربل)

(٧) باب حرب : نسبة إلى حرب بن عبد الملك، أحد قواد أبي جعفر المنصور،وفي مقبرة باب حرب=

مثيرا، لا يسير فيها أحد كراهة للغبار، فالتفت إلى عيسى بن علي وهو يسايره، فقال : والله ما ندري يا أبا العباس ما نصنع بهولاء الأحداث، إن حملناهم على الأدب وأخذناهم بما نحب ليقولن جاهل لم يحفظ أباهم فيهم، وإن تركناهم وركوب أهوائهم ليفسدنَّ علينا غيرهم وسئل عنه إسحاق بن مسلم [قال] : لقد سبرت[١] أبا جعفر فوجدته بعيد الغور، وعجمت عوده فوجدته صلب المكسر، ولمسته فوجدته خشن الملمس، وذقته فوجدته مر المذاق، وإنه وما حوله لكما قال ربيعة :[٢]

[الطويل]

سما بي فرسانٌ كأنَّ وجوههم مصابيحُ تبدو في الظلامِ مزاهر
يقودهمُ كبشٌ أخو مصمئلةٍ حليفُ سُرى قد لوَّحته الهواجر[٣]

وقال : يقول للمهدي : يا بني استدم النعمة بالشكر والقدرة بالعفو والطاعة بالتألف، والنصر بالتواضع لله، والرحمة للناس، ولما أتاه مخرج محمد بن عبد الله[٤] بالمدينة سن عليه درعه، وتقلد سيفه، ولبس خفَّه، وصعد المنبر، فحمد

= أحمد بن حنبل، وبشر الحافي، وأبو بكر الخطيب، ومن لا يحصى من العلماء والصالحين وأعلام المسلمين . (ياقوت : باب حرب)

(١) في الأصل : شبرت وهو تصحيف .

(٢) لعله ربيعة الرقي، ولم أجد البيتين في مجموع شعره .

(٣) المصمئلة : الشديدة، واصمأل : اشتد، واصمأل الرجل : انتفخ غضبا .

(٤) النفس الزكية : محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أبو عبد الله، الملقب بالأرقط وبالمهدي وبالنفس الزكية، أحد الأمراء الأشراف من الطالبيين، ولد ونشأ بالمدينة، وكان يقال له صريح قريش، لأن أمه وجداته لم يكن فيهن أم ولد، كان غزير العلم شجاعا حازما سخيا، ولما بدأ الانحلال في دولة بني أمية بالشام، اتفق رجال من بني هاشم بالمدينة على مبايعته سرا، وفيهم بعض بني العباس، وقيل : كان من دعاته أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور، ولما قامت دولة بني العباس، تخلف هو واخوه عن الوفودعلى السفاح ثم على المنصور، ولم يخفَ=

الله وأثنى عليه، ثم قال :

[البسيط]

مـا لي أدافعُ عن سـعـدٍ ويشـتـمـني ولو شتمتُ بني سعدٍ لقد سكنوا(١)
جـهـلا عليَّ وجُـبْنا عن عـدوهم لبئستْ الخلتان الجهلُ والجبنُ[ص١١٠]

أما والله، لقد عجزوا عمَّا قمنا به، فما عضدوا الكافي، ولا شكروا المنعم، فماذا حاولوا، أأشرب رنقا على غصص، وأبيت منهم على مضض، كلا والله، إني لا أصل ذا رحم بقطيعة نفسي، وإن لم يرضَ بالعفو مني ليطلبن مالا، يوجد عندي، ولأن أقتل معذورا أحبُّ إليَّ أن أحيا مستذلا، فليبقِ ذو نفسٍ على نفسه قبل أن يقضي نحبه، ثم لا أبكي عليه، ولا تذهب نفسي حسرة لما ناله، ثم دقَّ بيده على صدره، وأنشد :

= على المنصور ما في نفسه، فطلبه وأخاه فتواريا بالمدينة، فقبض على أبيهما واثني عشر من أقاربهما، وعذبهم فماتوا في حبسه بالكوفة بعد سبع سنين، وقيل : طرحهم في بيت وطيَّن عليهم حتى ماتوا، فلما علم محمد بن عبد الله بموت أبيه، خرج من مخبئه ثائرا في مائتين وخمسين رجلا، فقبض على أمير الكوفة، وبايعه أهلها بالخلافة، وأرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة فغلب عليها وعلى الأهواز وفارس، وبعث الحسين بن معاوية إلى مكة فملكها، وبعث عاملا إلى اليمن، وكتب إليه المنصور يحذره عاقبة عمله، ويمنيه بالأمان وواسع العطاء، وتتابعت بينهما الرسل، فانتدب المنصور لقتاله ولي عهده عيسى بن موسى، فسار إليه بأربعة آلاف فارس، فقاتله محمدبثلاث مائة على أبواب المدينة، وثبت لهم ثباتا عجيبا، فقتل منهم بيده في إحدى الوقائع سبعين فارسا، ثم تفرق عنه أكثر أنصاره، فقتله عيسى في المدينة وبعث برأسه إلى المنصور سنة ١٤٥هـ .

(مقاتل الطالبيين ص٢٣٢، الطبري٩ / ٢٠١، ابن الأثير ٥ / ٢٠١، ابن خلدون٣ / ١٩٠، دول الإسلام ١ /٧٣، الوافي بالوفيات ٣ /٢٩٧، شذرات الذهب ١ /٢١٣، الاستقصا ١ /٦٦)

(١) في الأصل : بنو سعد، وهو لحن .

[الوافر]

فكم من غارةٍ ورعيلِ خيلٍ تداركها وقد حمي اللقاءُ
فردَّ رعيلها حتى ثناها بأسمرَ ما يرى فيه التواءُ

ثم أنشد :

[الكامل]

ونصبتُ نفسي للرماحِ دريئةً إنَّ الرئيسَ لمثلِ ذاكَ فعولُ(١)

ثم لم يلبث أن أتاه الخبر بمخرج إبراهيم بن عبد الله(٢) إثر أخيه، جمع المنصور بني أبيه وقال : ما ترون ؟ فقالوا : توجه موسى بن عيسى، فقال : ياولدي على ما أنصفتم وجهت إياه وأوجه ما يجوز، قالوا: فوجه عبد الله بن علي واصطنعه، قال : هيهات، أبعثُ عليَّ حربا أخرى، إن خافني مالأ عدوي عليَّ، وإن ظفر أعاد الحرب بيني وبينه خدعة، وقد سمعتكم تذكرون أن له أربعة آلاف مولى يموتون تحت ركابه، فأي رأي هذا، والله لو دخل عليَّ إبراهيم بسيف مسلول لكان أهون عليَّ من تقبيل عبد الله بن علي رأسي، ثم جهز إليه موسى بن عيسى(٣).

---

(١) في الأصل : ذريعة ، وصححها في الحاشية :دريئة .

(٢) إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب : أحد الأمراء الأشراف الشجعان، كان شاعرا عالما بأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم، خرج بالبصرة على المنصور، فبايعه أربعة آلاف مقاتل،، وآزره الفقهاء ومنهم أبو حنيفة الذي أرسل إليه أربعة آلاف درهم لم يكن عنده غيرها، وخافه المنصور، فتحول إلى الكوفة، وكثرت شيعة إبراهيم ، فاستولى على البصرة، وسير الجموع إلى الأهواز وفارس وواسط، وهاجم الكوفة، فكانت بينه وبين جيوش المنصور وقائع هائلة ، إلى أن قتله حميد بن قحطبة، حز رأسه وأرسله إلى المنصور، ودفن جسده في باخمري سنة ١٤٥ هـ .
(مقاتل الطالبيين ص ٣١٥، الطبري ٩ /٢٤٣، ابن الأثير ٥ /٢٠٨، دول الإسلام ١ /٧٤)

(٣) موسى بن عيسى بن موسى بن محمد العباسي : أمير من آل عباس، ولي الحرمين للمنصور=

وحكى المنصور قال : رأيت كأني حول الكعبة، فنادى مناد من جوف الكعبة : أبا العباس، فنهض أخي فدخل الكعبة، ثم خرج وبيده لواء، فمضى فنادى منادٍ : يا عبد الله، فنهضت أنا وعمي عبد الله بن علي نبتدر، فلما استوينا على الدرجة العليا دفعته عن الدرجة فهوى، ودخلت الكعبة، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم جالس، فعقد لي لواءً طويلا على قناة، وقال : خذها حتى تقاتل بها [ص١١١] الدجال .

وحكى عنه شبيب بن شبة الأهتمي التميمي قال : حججت في العام الذي ولد فيه الوليد بن يزيد، فبينا أنا مريح ناحية من المسجد، إذ طلع من بعض أبوابه فتىً كأن عينيه لسانان ناطقان، يخلط أبَّهة الأملاك بزي النساك، فما ملكت نفسي أن نهضت في إثره سائلا عن خبره، فسبقني فتحرم بالطواف، فلما سبَّع (٣) قصد المقام فركع، ثم نهض منصرفا، فكأنَّ عيناً أصابته ، فكبا كبوة ذهب لها إصبعه، فقعد لها القرفصاء، فدنوت منه متوجعا له، أمسح عن رجله التراب فلا يمتنع، فشققت حاشية ثوبي فعصبت بها إصبعه، فما تأفف، ثم نهض متوكئا عليَّ، حتى أتى دارا بأعلى مكة، فابتدره رجلان تكاد صدورهما تنفرج من هيبته، ففتحا له الباب، فاجتذبني، فدخلت بدخوله، ثم خلى يدي وأقبل على القبلة، فصلى ركعتين أوجزهما في تمام، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم أتم صلاة وأطيبها، ثم قال : لم تخفِ عني مكانك بعد اليوم ولا فعلك بي ، فمن تكون يرحمك الله؟ فسميت له نفسي، فرحَّب وقرَّب، ووصف قومي بخير ، فقلت له : أنا أجلُّك يرحمك الله عن السؤال،

= وللمهدي مدة طويلة، ثم ولي اليمن للمهدي، وولي مصر للرشيد، ثم الكوفة ودمشق، وصُرف بعدها سنة ١٨٠هـ فأقام في بغداد وتوفي فيها سنة ١٨٣ هـ .

(النجوم الزاهرة ٢ /٦٦، الرلاة والقضاة ص ١٣٢ ـ ١٣٧)

(١) سبَّع : أي طاف سبعة أشواط .

وأحبُّ المعرفة، فتبسم وقال: لطف أهل العراق، أنا عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فقلت له : بأبي أنت وأمي، ما أشبهك بنسبك، وأدلك على منصبك، ولقد سبق إلى قلبي من محبتك ما لا أبلغه بوصفي لك، قال : فاحمد الله يا أخا بني تميم ، إنما يسعد الله من أحببنا بحبه، ويشقى ببغضنا من أبغضه، ولن يصل الإيمان إلى قلب أحدكم حتى يحب الله ورسوله وأهل بيته، ومهما ضعفنا عن جزائه قوّى الله على أدائه، قلت إن أيام الموسم ضيقة، وشغل أهل مكة كثير، وفي نفسي أشياء أحب أن أسأل عنها أتأذن فيها؟ فقال : نحن من أكثر الناس مستوحشون، وأرجو أن يكون للسر موضعا وللأمانة واعيا، فإن كنت كما رجوت فافعل [ص١١٢]، فقدمت من وثيق القول والأيمان ما سكن إليه، وتلا قوله تعالى : (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم)[١]، ثم قال: سل عما بدا لك، قلت: ما ترى فيمن على الموسم؟ وكان محمد بن يوسف الثقفي[٢]، فتنفس الصعداء، وقال: أعن الصلاة خلفه تسألني؟ أم كرهت أن يتأمر علينا أهل البيت ؟ قلت : عن كلا الأمرين ، قال: إن هذا عند الله لعظيم، فأما الصلاة ففرض الله تعبد بها خلقه، فأدِّ ما فرض عليك في كل وقت مع كل أحد، فإنه لو كلفك أن لا تؤدي نسكا إلا مع أكمل المؤمنين إيمانا ، لضاق عليك الأمر، فاسمح يسمح لك، ثم سألته عن أشياء من أمور ديني، فما

---

(١) الأنعام ١٩ .

(٢) محمد بن يوسف الثقفي : أخو الحجاج، أمير استعمله الحجاج على صنعاء ثم ضم إليه الجَنَد، فلم يزل واليا عليهما إلى أن توفي، قال الخزرجي : (جمع المجذومين بصنعاء وجمع لهم الحطب ليحرقهم، فمات قبل ذلك)، ومن كلام عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد: الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وأخوه (محمد بن يوسف) باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر، امتلأت الأرض والله جورا، توفي محمد بن يوسف سنة ٩١ هـ .
(تاريخ الإسلام ٤ / ٥١، تاريخ الخميس ٢ / ٣١٣، رغبة الآمل ٥ / ٣٠ ، ٣٥)

احتجت أن أسأل أحدا بعده، ثم قلت : يزعم أهل العلم أنه سيكون لكم دولة، قال : لاشك فيهاتطلع طلوع الشمس وتظهر ظهورها، فنسأل الله خيرها، ونعوذ بالله من شرها، فخذ بحظ لسانك ويدك منها إن أدركتها، قلت : وإنه يبتلى بكم من أخلص المحبة، قال : قد رُوي أن البلاء أسرع إلى محبينا من الماء إلى قراره، قال : فقلت له إني لأخاف ألا أراك[1] بعد اليوم، قال : أرجو أن أراك وتراني كما تحب إن شاء الله، قلت : عجل الله ذلك، قال : آمين، فقلت : ووهبني السلامة منكم، فإني من محبيكم، قال : آمين ، وتبسم، ثم قال : لا بأس عليك ما أعاذك الله من ثلاث، قلت : ما هن؟ قال : قدح في الملك، دهنك في الدين، أو تهمة في حرمه، ثم قال : احفظ عني : لا تجالس عدونا وإن أخطبناه، فإنه مخذول، ولا تخذل ولينا فإنه منصور، واصحبنا بترك المماكرة، وتواضع إذا رفعوك، وصلْ إذا قطعوك، ولا تخطب الأعمال، ولا تتعرض للأموال، وأنا رائح من عشية، فهل من حاجة، فنهضت لوداعه، فلما خرجت أتبعني مولى له بكسوة، وافترقنا، فوالله ما رأيته، إلا وحرسيان قابضان عليَّ يدنياني منه في جماعة من قومي لأبايعه، فلما نظر إليَّ قال : خليا عمَّن صحت مودته، وتقدمت [ص١١٣] خدمته، وأُخِذتْ قبل اليوم بيعته، ثم قال : أين كنت عني أيام أخي العباس، فذهبت أعتذر، فقال : أمسك فإن لكل شيء وقتا لا يعدوه، فاختر بين رزق يشغلك، أو عمل يرفعك، قلت : أنا حافظ لوصية أمير المؤمنين، قال : إنما نهيتك أن تخطب الأعمال، ولم أنهك عن قبولها، قلت : الرزق مع قبول أمير المؤمنين أحب إليَّ، قال : هو أجمُّ لقلبك، وأحب إليَّ لك، ثم قال : قد ألحقنا عيالك بعيالنا، وخادمك بخادمنا، وفرسك بأفراسنا، ثم ضمه إلى المهدي، فكان معه .

---

(١) في الأصل : إني لأخاف أني أراك .

ورأى المنصور قبل موته بيسير أعاجيب كثيرة مؤذنة بهلاكه، منها أنه لما دخل آخر منزل نزله من طريق مكة، نظر في صدر البيت الذي نزله، فاذا فيه مكتوب :

[الطويل]

أبا جعفرٍ حانت وفاتك وانقضت سِنوكَ وأمرُ اللهِ لا بد واقعُ
أبا جعفرٍ هل كاهن أو منجمٌ لك اليوم من حر المنية مانعُ

فأقرأ متولي المنزل البيتين، فقال : ما أرى شيئا فأقرأ حاجبه فقال كذلك، قال : اقرأ آية من كتاب الله تشوقني إلى الغاية، فقرأ :﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾(١) فقال له : أما وجدت آيةً غيرها، قال : والله لقد محي القرآن من قلبي غيرها، وهتف به هاتف قبلها بهذه الأبيات :

[البسيط]

أما وربِّ السكون والحَرَكِ إنَّ المنايا كثيرةُ الشَّرَكِ
ما اختلف الليلُ والنهارُ ولا دارت نجومُ السماءِ في الفَلَكِ
إلا لنقلِ السلطانِ من ملكٍ قد انتهى ملكُهُ إلى ملكِ

ثم رأى بعد ذلك كأنَّ منشدا ينشده :

[مجزوء الكامل]

أأخي حفصٍ من مناكا فكأنَّ يومك قد أتاكا
ولقد أتاك الدهرُ من تصريفه ما قد أتاك[ص١١٤]
وإذا رأيتَ الناقصَ العبدَ الذليلَ فأنتَ ذاكا
مُلِّكْتَ ما مُلِّكْتَهُ والأمرُ فيه إلى سواكا

---

(١) الشعراء ٢٢٧ .

وذُكر عنه أنه كان في مجلس من أعلا باب خراسان إذ جاء سهم عائر(١) فسقط بين يديه، فذُعِرَ وجعل يقلبه ، فاذا بين الريشتين مكتوب :

[الوافر]

أتطمعُ في الحياةِ إلى المعادِ وتحسبُ أنَّ مالكَ من نفادِ
ستُسألُ عن ذنوبك والخطايا وتُسألُ بعد ذاك عن العبادِ

ثم قرأ عند الريشة الثانية :

[البسيط]

أحسنتَ ظنَّكَ بالأيامِ إذ حسُنتْ ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القدرُ
وسالمَتْكَ الليالي فاغتررتَ بها وعندَ صفوِ الليالي يحدثُ الكَدَرُ

ثم قرأ عند الريشة الثالثة :

[البسيط]

هي المقاديرُ تجري في أعِنَّتِها فاصْبِرْ فليسَ لها صبرٌ على حالِ
يوما تريك خسيسَ الناسِ ترفعه إلى السماءِ ويوما تخفضُ العالي

وإذا على جنب السهم : رجل من همدان مظلوم في حبسك، فبعث من فوره، ففتش عليه ، فوجده ، فأنصفه وأزال ظلامته، ولما رأى ما رأى من العجائب المنذرة بهلاكه، قال لحاجبه الربيع: إني أتخوف على هذا الأمر ، قال له: مَنْ يا أمير المؤمنين ؟ تعني عيسى بن موسى(٢) وهو معك بالحضرة، فأمرني فيه بأمرك حتى أنفذه، فقال :كلا ياربيع، رجل ما أعطى الله عهدا إلا وفى به،

(١) عائر : ضال لا يعرف راميه .

(٢) عيسى بن موسى بن محمد العباسي : أبو موسى ، أمير من الولاة القادة، وهو ابن أخي السفاح، كان يقال له (شيخ الدولة)، ولد ونشا بالحميمة، وكان من فحول أهله وذوي النجدة والرأي منهم، وله شعر جيد، ولاه عمه الكوفة وسوادها سنة ١٣٢هـ، وجعله ولي عهد المنصور،=

وإنما أتخوف صاحب الشام عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام(١)، ثم رفع يديه إلى السماء فقال: اللهم اكفني عبد الوهاب، قال الربيع : فلما مات المنصور ودليته في القبر، وعرضت عليه الحجارة، سمعت هاتفا يهتف من القبر : مات عبد الوهاب وأجيبت الدعوة، قال الربيع : فهالني ذلك الصوت، وجاء الخبر بعد سابعة بوفاة عبد الوهاب، ومولده(٢) سنة خمس وتسعين ، وتوفي في ذي الحجة لست خلون منه سنة ثمان وخمسين ومائة، وعمره ثلاث وستون سنة، ومدته[ص١١٥] نحو اثنتين وعشرين سنة، وقبره ببئر ميمون قرب مكة المعظمة .

ويروى له من الشعر قوله :

[**مجزوء الكامل**]

المـــرء يهـــوى أن يعـــيـــ ـــشَ وطولُ عـــيشٍ قـد يضـرهْ
تفنى بشـــاشـــتُـهُ ويبْـــ ـــقى بعـد حلو العـيش مرُّهْ
وتـصـــرفُ الأيـــامِ حـــتـــ ـــى مـا يـرى شـيـئـا يسـرُّهْ

= فاستنزله المنصور عن ولاية عهده سنة ١٤٧هـ، وعزله من الكوفة، وأرضاه بمال وفير، وجعل له ولاية عهد ابنه المهدي، فلما ولي المهدي خلعه سنة ١٦٠هـ بعد تهديد ووعيد، وكان ولي العهد لا يخلع ما لم يخلع نفسه، ويشهد الناس عليه، فاقام بالكوفة إلى أن توفي سنة١٦٧ هـ .

(الطبري ١٠ / ٨، ابن الأثير ٦ / ٢٥، دول الإسلام وفيات سنة ١٦٨، أشعار أولاد الخلفاء ٣٠٩- ٣٢٣، المرزباني ٢٥٨)

(١) عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام بن محمد : أمير من القادة الشجعان ، سيَّره عمه المنصور سنة ١٤٠هـ في سبعين ألفا إلى ملطية، وبعث معه الحسن بن قحطبة، فخافتهما الروم وعمرا ملطية، بعد أن خربتها أيدي الفرنجة، وأقام الحج سنة١٤٦هـ، وغزا الصائفة سنة ١٥١هـ، وتوفي ببغداد سنة ١٥٧هـ .

(ابن الأثير سنوات ١٤٠، ١٤٦، ١٥١، ١٥٢، ١٥٧، ابن العبري ص ٢٠٩، المحبر ص ٣٥)

(٢) أي مولد المنصور .

كم شامتٍ بيَ إنْ هلكْـ ـتُ وقائلٍ للهِ دَرُّهْ

ثم :

٥٧ - دَوْلَةُ المَهْدِيِّ

أبي عبد الله محمد بن المنصور[١]، وكان أبوه قد قرر أموره، وقرَّب له مد الخلافة، وما مات حتى أكد له البيعة، ووثق له أسباب المُلْك، وكان مما بالغ فيه من التمهيد له، أنه آثره دونه بحسن السمعة، وخلاص الذمة ، فإنه أخذ أموالا حسنة من الناس وأودعها[٢] بيت المال في أكياسها ، وكتب على كل مال اسم صاحبه، ثم لما عزم على الحج، قال له: يا بُني، إذا أنا متُّ رُدَّ كل مال على صاحبه ليحبُّوك، فلما مات رد الأموالَ على أهلها . وقالوا: ظلمنا أبوه وأنصفنا هو، فأحبُّوه وتيمنوا بأيامه، ولما ولي نفَّسَ خناق الناس، وحل عقد أبيه، وأزال تشدده، وأطلق ما أمسك به يده، ولم يحرم طالب ثواب ولا آخذ بطائل عقاب، وكانت أيام هدوء وأعوام خصب، رقت بها حواشي الحنو، وردت الأمة مناهلها صفوا، وردت نقمها عفوا، وورفت ظلال حلمها، فلم يدع هفوا،

---

(١) المهدي العباسي : محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي؛ أبو عبد الله، المهدي بالله، ولد بايذج (من كور الأهواز) وولي بعد وفاة أبيه ، وبعهد منه سنة ١٥٨هـ، وأقام في الخلافة عشر سنين وشهرا، كان محمود العهد والسيرة، محببا إلى الرعية، حسن الخَلْق والخُلُق، جوادا، يقال إنه أجاز شاعرا بخمسين ألف دينار، وكان يجلس للمظالم ، وهو أول من مُشي بين يديه بالسيوف المصلتة والقسي والنشاب والعمد، وأول من لعب بالصواجة في الإسلام ، تعقب الزنادقة وأوقع بهم، توفي في ماسبذان صريعا عن دابته في الصيد، وقيل مسموما سنة ١٦٩ هـ .
(الطبري ١٠ / ١١ـ ٢١، ابن الأثير ٦ / ٢٧,١١، فوات الوفيات ٢ / ٢٢٥، دول الإسلام١ / ٨٦، البدء والتاريخ ٦ / ٩٥، المسعودي ٢ / ١٩٤ــ ٢٠١، الوافي بالوفيات ٣ / ٣٠٠، النبراس ص ٣١ـ٣٥)

(٢) في الأصل :وأودها.

وأكثر نقَلَـةُ الأخبار على أنه كان لا يرتضع كـأسا، ولا يكاثر لهوا، ولا يقبل فيما ينشد لغوا، يربـأ بنفسه أن يتشاوس نظره زهواً، ويأبى أن يقارف عزيمته، وكان قويا مهيبا متوسطا في أموره، متناسبا في أحواله، وفي المهدي يقول ربيعة الرقي :[1]

[السريع]

قـــد بسط المهـــديُّ كـفَّ الندى | للناسِ والعـفـوِ عن الظـالمِ [ص ١١٦]

فـــالراحلُ الصـــادرُ عن بابـه | مـبـشّـرٌ للواردِ القـــادمِ

وكـان المنصـور يريد أن يجـعل العـهـد إليـه، وكـان إلى عـيـسى بن مـوسى، فتحيَّـلَ له بأنواع الحيل حتى جعله إليه، وعوض عيسى بن موسى بعشرة ألف ألف درهم، وجعله بعد المهدي (.........)[2] :

[الرجز]

قـــل لـلأمـينِ الـواحـدِ المـوحـدِ | إنَّ الذي ولأك ربُّ المســـجـــدِ

ليس وليُّ عـــهدنا بالأســعـدِ | عـيـسى فردها إلى مـحـمـدِ

فرواها الخدم والبطانة وبلغوها بإذنه المنصور، فدُعي به في مجلس حافل وفيه عيسى بن موسى، فاستنشده فأنشده إياها، وكان فاتحة لكلام المنصور، ثم إن عيسى بن موسى دسَّ على أبي نخيلة من قتله وسلخ وجهه .

وعن سَوَّار قال : انصرفت يوما من دار المهدي إلى منزلي، فدعوت بالغداء،

---

(١) الشعر لربيعة الرقي في مجموع شعره ص ١٢٩ .

(٢) في الأصل بياض، وفي الأغاني : أبو الفضل سليمان بن عبد الله، دخل على المنصورفاخبره بخبر أبي نخيلة، فلما كان يوم البيعة جاء بأبي نخيلة فأدخله على المنصور، فقام فأنشد الشعر على رؤوس الناس، فأعطاه المنصور عشرة آلاف درهم . (الأغاني ٢٠ / ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

فجاشت نفسي ، فدعوت بالنرد، فلم تطب نفسي ، فدخلت القائلة، فلم يأخذني النوم، فنهضت فركبت بغلة لي وخرجت، فاستقبلني وكيل لي بألفي درهم، فقلت دعها معك واتبعني، ثم خليت رأس البغلة حتى انتهيت إلى باب دار لطيف عليه شجرة، وعليه خادم ، فوقفت وقد عطشت، فقلت للخادم : أعندك ماء ؟ قال: نعم، وقام فأخرج قُلَّة نظيفة طيبة الرائحة، عليها منديل، فشربت، وحضرت العصر، فدخلت مسجدا هناك، فصليت فيه، فلما قضيت صلاتي، إذا أنا بأعمى يلتمس، فقلت : ما تريد يا هذا ؟ قال: إياك أريد، فقلت: وما حاجتك ؟ فقال : أرأيت باب هذا القصر؟ قلت : نعم ، قال : هذا قصر كان لأبي فباعه وخرج إلى خراسان، وخرجت معه، فزالت عنا النعم، فأتيت صاحب الدار لأسأله شيئا يوصلني إلى سَوَّار فإنه كان صديقا لأبي ، فقلت : ومن أبوك ؟ قال: فلان، فعرفته، فقلت: إن الله قد أتاك بسوار، منعه الطعام والنوم حتى جاء به إليك، ثم أخذت الدراهم من الوكيل [ص١١٧] فدفعتها إليه، وقلت له: إذا كان غدفصرْ إلى المنزل، ثم أتيت المهدي، فطرفته بحديثه، فأعجبه، وأمر له بألفي دينار، فنهضت فقال لي : أعليك دين ؟ قلت : نعم، قال: كم ؟ قلت: خمسون ألف دينار، فأمسك ، وجعل يحدثني ساعة، ثم أتيت منزلي، فإذا خادمه معه خمسون ألف دينار، قال: يقول لك أمير المؤمنين، اقضِ بها دينك، ثم لما كان الغد أبطأ عليَّ الأعمى، وأتاني رسول المهدي يدعوني، فجئته، فقال: فكرت في أمرك، فقلت: يقضي دينه ثم يحتاج إلى العوض، وقد أمرت لك بخمسين ألف دينار أخرى، فقبضتها وانصرفت، فأتاني الأعمى، فقلت له: قد رزق الله بكرمه بك خيرا كثيرا، فأعطيته صلة المهدي، ومن عندي مثلها.

وعن هشام الكلبي قال: طلبني المهدي فلما صرت إليه، أقرأني كتابا،

فألفيته يتضمن شتمه وسبَّه، فألقيته من يدي، ولعنت كاتبه، وقلت : من كاتبُ هذا الملعون الكذاب ؟ فقال : هذا الأموي صاحب الأندلس، فقلت : فهو وآباؤه وأمهاته، والله أهل لذلك، فسُرَّ بقولي، ثم قال : أقسمت عليك لما أمللت مثالهم كلهم على هذا، وأشار إلى كاتب من كتاب السر فأمللته، ولم أبقِ شيئا، فلما فرغت منه عرضته عليه، فأظهر السرور، ثم ختم الكتاب وجعله في خريطة، ودفعه إلى صاحب البريد، وأمره بتعجيله إلى الأندلس، ثم أمر لي بألفي دينار وعشرين ثوبا وبغلة شقراء بسرجها ولجامها من مراكبه، وأقطعني أرضا بالبصرة، ثم قال : اكتم ما سمعت .

وعن عبد العزيز بن الماجشون[١] قال : سألني المهدي فقال : ما قلت حين فقدت أصحابك، يعني الفقهاء ، قال قلت :

[البسيط]

يا من لباكٍ على أصحابه جزعا ... قد كنت أحذر ذا من قبل أن يقعا
فليصنع الدهر بي ما شاء مجتهدا ... فلا زيادة شيء فوق ما صنعا

فقال : والله لأعيننَكَ، فأجازه بعشرة آلاف دينار، فقدم بها [ص ١١٨] المدينة فأنفدها في السخاء والكرم .

وعن واضح قهرمان المهدي قال : كنت معه بماسَبَذان[٢]، فلم أزل معه إلى بعد العصر، ثم انصرفت إلى مضربي، فلما كان وقت السحرالأكبر، ركبت

(١) الماجشون : عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة التيمي بالولاء، فقيه من حفاظ الحديث الثقات كان وقورا عاقلا، أصله من أصبهان، نزل المدينة، ثم قصد بغدادفتوفي فيها وصلى عليه الخليفة المهدي، ودفن في مقابر قريش سنة ١٦٤هـ .
(تاريخ بغداد ١٠/ ٤٣٦، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٦، التهذيب ٦/ ٣٤٣)

(٢) ماسبذان : وأصله ، ماه سبذان، مضاف إلى اسم القمر، مدينة في خراسان .
(ياقوت : ماسبذان)

لإقامة الوظائف، فسرت منفردا من غلماني، فلقيني أسود عريان على فرد رجل، فدنا مني ثم قال : أعظم الله أجرك في مولاك المهدي، فهممت أن أعلوه بالسيف، فغاب عني، فلما انتهيت لقيني مسرور، فأعلمني بموته، فدخلت فإذا به مسجى، وقيل: مات لأنه طرد ظبيا، فاقتحم خربة، فدخلها وراه، فدق ظهره باب الخربة فمات، ومولده سنة سبع وعشرين ومائة، ووفاته في المحرم سنة تسع وستين ومائة، وعمره اثنتان وأربعون سنة، ومدته عشر سنين(١) وشهر وأيام، وقبره بماسبذان من (.....)(٢) ولما قارب دنو أجله، رأى قائلا ينشده، يسمع صوته ولا يشهده :

[الطويل]

كأني بهذا القصر قد باد أهله … وأوحش منه ربعُهُ ومنازِلُهْ
وصار عميدُ القومِ من بعد بهجةٍ … ومُلْكٍ إلى قبرٍ عليه جنادلُهْ
ولم يبقَ إلا ذِكرُه وحديثُهُ … ينادى عليه معولاتٍ حلائلُهْ

فما بقي إلا عشرة أيام ومات، واختطفه عُقاب الملمات ، كنَّ حظاياه قد بكرن في الوشي وقت الصبوح، ثم عُدنَ قبل الظهيرة وعليهن المسوح، فقال أبو العتاهية :(٣)

[مجزوء الرمل]

رحْنَ في الوشي وأقبلـ … ـنَ عليهن المسوحُ
كلُّ نطَّاحٍ من الدنـ … ـيا له يوم نطوحُ
لستَ بالباقي ولو عُمـ … ـرْتَ ما عُمِّرَ نوحُ

---

(١) في الأصل : عشرة سنين ، وهو لحن .

(٢) بياض في الأصل بقدر كلمة .

(٣) الشعر لأبي العتاهية في ديوانه ص ١٠٧ ــ ١٠٨ .

فـــعلى نفـــسِكَ نـحْ إن كـنـتَ لابـــدً تـنـــوحُ

ثـم :

٥٨ - دَوْلَةُ الهَادي

أبي محمد(١) موسى بن محمد المهدي [ص١١٩]، كان كريما غيورا حاد المزاج، شرس الخلق، له بادرة لا تؤمن، وإقدام لا يطمئن به، وقد أراد الرشيد على خلع نفسه من ولاية العهد، وراود في ذلك يحيى بن خالد غير مرة، وهو ممتنع عليه، ويقيم له الأدلة على زيف رأيه في ذلك، على ما سيأتي ذكره في مواضعه من هذا الكتاب، ولم يطُل بالهادي فسيح أجل، ولا تراخى به عنان مهل، حتى ساورته المنون، وسارعته الشهور لا السنون، فمال عرشه في أقرب وقت، ومات وأبقى له المقت، واختُلفَ في موته بأي سبب كان ، فقيل : أكل رمانا فشرق منه بحبة فمات، وقيل : وقع على قصب فارسي فدخل في دبره فمات ، وقيل : مرض أياما ومات، وقيل: غمَّتْه أمُّهْ الخيزران(٢) لإفراط تحجره عليها، وتبرمه من

(١) الهادي العباسي : موسى الهادي بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو محمد، ولد بالري ، وولي بعد وفاة أبيه سنة ١٦٩هـ ، وكان غائبا بجرجان فأقام أخوه الرشيد بيعته، واستبدت أمه الخيزران بالأمر، وأراد خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر، فلم ترَ أمه ذلك، فزجرها فأمرت جواريها أن يقتلنه، فخنقنه، ودفن في بستان بعيسى أباذ، ومدة خلافته سنة وثلاثة أشهر، وكان طويلا جسيما أبيض، في شفته العليا تقلص، وكان شجاعاجوادا ، له معرفة بالشعر والأدب، وفاته سنة ١٧٠هـ .

(الطبري١٠ / ٣٣,٢١،ابن الأثير٦ / ٢٩ ـ ٣٦، اليعقوبي ٣ / ١٣٦تاريخ الخميس ٢ / ١٣٦، مروج الذهب ٧ / ٢٠١ تاريخ بغداد١٣ / ٢١ الأغاني ٤ /٥٤٣)

(٢) الخيزران : زوجة المهدي العباسي ، وأم بنيه الهادي وهارون الرشيد، ملكة حازمة متفقهة. يمانية الأصل، أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي، وكانت من جواري المهدي، وأعتقها وتزوجها، ولما مات وولي ابنها الهادي انفردت بكبار الأمور، وأخذت المواكب تغدو وتروح إلى بابها ، وحاول الهادي منعها من ذلك حتى قال لها : إذا وقف ببابك أمير ضربت عنقه، وسعى في عزل أخيه الرشيد=

شفاعاتها، ولما أراد عليه أخاه هارون الرشيد، وكان هارون أحبَّ إليها وأكرم منه عليها، فطلبت في الحال يحيى بن خالد ونعته إليه، نعي غير ثكلى ولا فاقد، وكان يحيى عنده محبوسا ، فبادر إلى هارون بخبر موسى، فصادف خادما يريد يبشره بولادة مولود ذكر، ولدله تلك الليلة، وهو المأمون، فسابقه في الدخول عليه وبادره بالسلام وقال : أهنيك بالخلافة وغلام .

وعن الحسن بن معاذ بن مسلم وكان رضيع الهادي، قال: رأيتني أخلو مع موسى الهادي ولا أجد له هيبة في قلبي، لما كان يبسطني، وربما صارعني فأصرعه غير هائب له، وأضرب به الأرض، فاذا ابليس لبسه الخلافة، ثم جلس مجلس الأمر والنهي، قمت على رأسه، فوالله ما أملك نفسي من الرعدة والهيبة.

وقال إبراهيم المؤذن إن الهادي كان يثب على الدابة وعليه درعان، لا يضع رجله في الركاب، وكان مقتفيا لآثار أبيه في تطلب الزنادقة والإيقاع بهم، لأن أباه أوصاه بذلك، وكان كريما خرقا، وذكر الطبري في حكاية طويلة أنه وهب عبد الله بن مالك، وكان على شرطته أربع مائة بغل دراهم، وعن أبي محمد اليزيدي، قال: دخلت على الهادي فإذا بين يديه سيف عريض كأنه بغلة(١)، فقلت يا أمير المؤمنين، ما هذا ؟ [ص١٢٠] قال هذا سيف عمرو بن معديكرب(٢)

= من ولاية العهد، وقيل إنها علمت عزمه على قتل الرشيد فأرسلت إليه بعض جواريها، وهو مريض، فجلسن على وجهه حتى مات خنقا، وولي بعده الرشيد، فحجت وأنفقت أموالا كثيرة في الصدقات وأبواب البر، توفيت ببغداد سنة ١٧٣هـ .

(الطبري١٠ / ٥٢،تاريخ بغداد ١٤ / ٤٣٠،نزهة الجليس ٢ / ٧٢،الدر المنثور ص ١٨٨، البداية والنهاية ١٠ /١٦٣، النجوم الزاهرة ٢ /٥٢)

(١) في الأصل الكلمة غير معجمة، وتحتمل قرآت .

(٢) عمرو بن معديكرب الزبيدي : فارس اليمن وصاحب الغارات المذكورة، وفد على المدينة سنة=

الصمصامة، فاستحسنته، فقال لي : قد كنت سألت المهدي أن يهب لي هذا السيف، فضن به عني ومنعنيه، فآليت إنْ بلغني الله أملي أن أمتحنه، وقد عزمت على أن أدعو غلامي طرخان الخزري، وهو جيد الذراع أن يحضر لي صخرة سوداء طولانية من حجارة القصارين، فأتقدم إليه أن يجمع يديه في السيف ثم يضرب به الرأس الدقيق من الصخرة، فإن سلمَ سلمَ، وإن يقطع تقطع، قال : فلم أزل أسأله إعفاء السيف من الامتحان، وأقول شرف من شرف العرب، وسيف لا يوجد مثله، فأبى ودعا غلامه طرخان، فجاء بالصخرة، فقلت : يا أمير المؤمنين، فإذا لم تطعني فاعمل له ما تبقي على الدهر، تدخل من بالباب من الشعراء حتى يحضروا امتحانه، فإن سلم وصفوه، وإن تقطع رثوه، فأمر بإحضارهم، ثم أمر طرخان بامتحانه، فحسر عن ذراعيه وهزه ، وجمع يديه في قائمه، ثم ضرب به الصخرة فمضى فيها، حتى قطعها، ولم يصبه شيء، فلم يقل أحد أرضى من قول أبي الغول، قال :

[**الخفيف**]

حاز صمصامة الزبيدي عمرو … من جميعِ الأنامِ موسى الأمينُ

سيفَ عمرٍو وكان فيما علمنا … خيرَ ما أغمدت إليهِ الجفونُ

أخضرَ اللونِ بينَ حدَّيهِ بُردٌ … من دباجٍ تميسُ فيهِ المنونُ

أوقدت قومُه الصواعقَ ناراً … ثم شابتْهُ بالذعافِ القيونُ

= ٩هـ في عشرة من بني زبيد فأسلم وأسلموا، ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم، ارتد عمرو في اليمن ، ثم رجع إلى الإسلام، فبعثه أبو بكر إلى الشام فشهد اليرموك، وبعثه عمر إلى العراق فشهد القادسية، أخبار شجاعته كثيرة، وله شعر جيد، توفي على مقربة من الري سنة٢١هـ .
(معاهد التنصيص ٢ / ٢٤٠ ،السمط ٦٣ـ٦٤ ، ابن سعد ٥ / ٣٨٣،الخزانة ١ / ٤٢٥ ـ ٤٢٦، الحور العين ص ١١٠)

وكـأنَّ الـفِـرَنْـدَ والرونـقَ الجـا ري في صـفـحـتـيـهِ مـاءٌ مُـعـينُ
مـا يُبـالي إذا الضـريبـةُ خـانـتْ أشـمـالٌ سَطَـتْ بـهِ أم يمـينُ

فوصله بعشرة آلاف درهم، وخلع عليه وحمله، ثم أمر لكل واحدٍ من الشعراء خمسة آلاف درهم.

وأدخل عليه رجل جعل يقرره بذنوبه ويتهدده، فقال الرجل اعتذاري مما تقول ردٌ عليك وإقراري به يوجب عليه ذنباً، ولكنني أقول: إن كنت ترجوفي العقوبة رحمة فلا تزهدنَّ عند [ص ١٢١] المعافاة في الأجر، فأمر بإطلاقه.

وعن علي بن يقطين قال: إني لعند الهادي مع جماعة إذ أتاه خادم، فساره بشيء، فنهض سريعا وقال: لا تبرحوا، ومضى، ثم جاء وهو يتنفس، فاستلقى على فراشه، ثم قال لخادم معه، على يده طبق مغطى بمنديل: ضع ما معك، فوضع الطبق وكشف المنديل، فاذا رأسا جاريتين، لم أرَ والله أحسن من وجوههما، ولا من شعورهما، وإذا على رؤوسهما الجوهر المنظوم على الشعر، وإذا رائحة الطيب تفوح، فأعظمنا ذلك، فقال: تدرون ما شأنهما ؟ قلنا: لا، قال: بلغنا أنهما يتحابان، فوكلت هذا الخادم بهما ينهي إليَّ أخبارهما، فجاءني فأخبرني أنهما قد اجتمعا، فجئت فوجدتهما في لحاف واحد، فقتلتهما، ثم قال: ياغلام، ارجع بالرأسين، قال: ثم رجع في حديثه كأن [لم] يصنع شيئا.

وعن عمر بن شبَّة أن علي بن الحسين بن الحسن بن علي، تزوج رقيَّة بنت عمرو العثمانية، وكانت تحت المهدي، فبلغ ذلك الهادي، فأرسل إليه فحمله، فقال: أعياك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين، فقال: ما حرم الله على خلقه إلا نساء جدي صلى الله عليه وسلم، فأما نساء غيره فلا ولا كرامة، فشجه بمخصرة كانت في يده، وأمر بضربه خمس مائة سوط، فضُرِب، وأراده أن يطلقها، فلم يفعل، فحُمِل في نطع وألقي ناحية، وكان في يده خاتم كسرى، فرآه بعض

الخدم، وقد غُشي عليه من الضرب، فأهوى إلى الخاتم ، فقبض على يد الخادم فدقها، فصاح فأتى موسى فأراه، فاستشاط وقال : أتفعل هذا بخادمي مع استخفافك بأبي وقولك لي، فقال: سله ومُرْهُ أن يضع يده على رأسك وليصدقك، ففعل فصدقه الخادم، فقال : أحسن والله ، وأنا أشهد أنه ابن عمي، ولو لم يفعل لانتفيت منه، ثم أمر بإطلاقه ووصله .

وذكر سعيد بن سالم قال: كنت مع الهادي بجرجان، فأتاه نعي المهدي والخلافة، فركب البريد إلى بغداد في قوم معه، فسرنا بين بساتين جرجان ، فسمع صوتا فيها من رجل يتغنى، فقال لصاحب شرطته: عليَّ بالرجل [ص١٢٢] الساعة، قال: فقلت ما أشبه قصة هذا الخائن بقصة سليمان بن عبد الملك ، بينما هو في متنزه له ومعه حرمه، فسمع في بستان آخر صوت رجل يتغنى، فدعا صاحب شرطته، فقال: عليَّ بصاحب الصوت، فأُتي به ، فلما مثل بين يديه، قال: ما حملك على الغناء، وأنت إلى جنبي ومعي حرمي، أما سمعت أن الرماك[١] إذا سمعت صوت الفحل حنت إليه ؟ يا غلام جبه، فجُبَّ الرجل، فلما كان في العام المقبل، رجع سليمان إلى ذلك الموضع فجلس مجلسه الذي جلس فيه، فذكر الرجل وما صنع به فقال: عليَّ بالرجل الذي كنا جببناه، فأحضروه، فلما مثل بين يديه قال : إما بعت فوفيناك، وإما وهبت فكافأناك، قال: فوالله ما دعاه بالخلافة، ولكنه قال: يا سليمان، إنك قطعت نسلي، وذهبت بماء وجهي، وحرمتني لذتي، ثم تقول : إما وهبت فكافأناك أو بعت فوفيناك، لا والله حتى أقف بين يدي الله ، فقال الهادي: يا غلام، ردَّ صاحب الشرطة، فرده، فقال : لا تعرض للرجل.

وولد الهادي سنة ست وأربعين ومائة، وتوفي سنة سبعين ومائة، وعمره أربع

---

(١) الرماك : جمع رمكة، الفرس والبرذونة تتخذ للنسل .

وعشرون سنة(١)، وكانت مدته سنة وأربعة أشهر، وقيل دونها، وقبره ببغداد.

ثـــم :

٥٩ - دَوْلَةُ الرَّشِيْد

أبي جعفرهارون بن محمد المهدي(٢)، وهو الذي لم يستقص لأحد من الخلفاء مثله، ولا شاع نظيره، حتى إن العامة تنسب إليه كل حكاية تحكى عن الخلفاء الأمويين والعباسيين، وتنتحل له ما فعله غيره، وتتمحل له ما لا فعله هو ولا أحد سواه، وما ذاك إلا لكثرة محاسن أيامه، ومن كان فيها من أفاضل الناس، كالبرامكة في الكرماء ومالك والشافعي وأحمد ونظرائهم في العلماء، وغير هؤلاء مما لايسع هذا الموضع استقصاؤهم، ولا يدع عددهم الجم أن يمكن إحصاؤهم، من أعيان الكبراء وحذاق الشعراء والمجودين في الغناء والمجدين من أهل النجدة والغنى، وكانت أيام دولته مجمع الأفاضل [ص١٢٣] ومطلع نجم كل

(١) في الأصل : أربع وعشرين، وهو لحن .

(٢) هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي : أبو جعفر خامس خلفاء بني العباس وأشهرهم، ولد بالري لما كان أبوه أميرا عليها وعلى خراسان ونشأ في دار الخلافة ببغداد، وولاه أبوه غزو الروم في القسطنطينية ، فصالحته الملكة إيرين وافتدت مملكتها بسبعين ألف دينار، تبعث بها إلى خزانة الخليفة كل عام، وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠هـ، فقام بأعبائها وازدهرت الدولة في أيامه، وكان عالما بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، فصيحا له شعر أورد صاحب الديارات نماذج منه ، كان حازما كريما متواضعا يحج سنة ويغزو سنة، وهو صاحب وقعة البرامكة، وهم من أصل فارسي ، وكانوا استولوا على شؤون الدولة، فقلق من تحكمهم فأوقع بهم في ليلة واحدة، ولايته ثلاث وعشرون سنة وشهران ، توفي في سناباذ من قرى طوس، وبها قبره سنة ١٩٣هـ .

(الطبري ١٠/٤٧, ١١٠، ابن الأثير ٦/٩٦، البداية والنهاية ١٠/٢١٣،اليعقوبي ٣/١٣٩، تاريخ الخميس ٢/٣٣١، المسعودي ٢/٢٣١، تاريخ بغداد١٤/٥، الأغاني ينظر فهرسته)

فاضل، وكان أول من سنَّى الجوائز ، وسنَّ عوائد الكرم، وقسم للخير زمانه، ووسم في غرر الدهر إحسانه، كان لا يزال في حج أو جهاد، ولا يزل عن ذرى مطية أو جواد، قد ضرب بسهم في كل فضيلة، وقسم من كل جميلة، وقد ذكر ابن عبدوس أن الكُلَف كانت قليلة في أيامه، فإنه ما زاد المقررات كبير زيادة على ما كان ، إلا أنه كان يهب هبات لا ينهض بها عبء إمكان، فإذا أعطى استوصلت البحار، واستبسلت بعجزها الأمطار، ووسع عقود المنن، ووسَّع برود دولته بمحاسن السنن، وآثاره في غزو بلاد الروم ظاهرة، وأخباره فيها لوامع في أيامه الزاهرة، وكذلك لم يخلِ الترك من غزوات سلت في وجوههم السيف، وسلطت عليهم حتى الطيف، إلا أن قضية البرامكة جرحت القلوب ونفَّرتها ، وقرحت العيون وأسهرتها ، ثم ندم عليهم ندما أكل عليه يديه، وقرع سنَّه مما جرى بسببهم عليه، على أن الندم لا يرد به فائت، ولا يصح به من هو في القبور بائت .

وذُكر أن الرشيد كان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاتها، وكان إذا حج أحج معه من الفقهاء وأبنائهم، فإذا لم يحج أحج ثلاث مائة رجل بالنفقة السابغة، والكسوة الطاهرة، وكان يقتفي أخلاق المنصور، إلا في بذل المال، فإنه لم يُرَ خليفة قبله كان أعطى منه لولي، ثم المأمون بعده ، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، ولا يؤخر ذلك في كل ما يحب ثواب، وكان يحب الشعراء والشعر، ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء في الدين، ويقول : هو شيء لا نتيجة له، وبالأولى أن لا يكون فيه ثواب، وكان لا يحب إلا المديح، ولاسيما من شاعر فصيح ، ويشتريه بالثمن الغالي الربيح، ودخل عليه مروان بن أبي حفصة فأنشده شعره الذي يقول فيه :(١) [ص١٢٤]

(١) الشعر لمروان بن أبي حفصة في ديوانه ص ٦٢ ــ ٦٤ ط بيروت ١٩٩٣ .

[الطويل]

وسُدَّتْ بهارون الثغور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائرُ
وكلُّ ملوك الرومِ أعطاه جزيةً على الرغم قسراً عن يدٍ وهو صاغرُ
لقد ترك الصفصافَ هارونُ صفصفا كأنْ لم يدمِّثْهُ من الناسِ حاضرُ
تسوقُ يداهُ من قريشٍ كرامها وكلتاهما بحرٌ على الناس زاخرُ
أمور بميراث النبي وليتَها فأنت لها بالحزم طاوٍ وناشرُ
عليٍّ بني ساقي الحجيج تتابعت أوائلُ من معروفكم وأواخرُ
فأصبحتُ قد أيقنتُ أن لستُ بالغاً مدى شكر نعمائكم وإني لشاكرُ
حصونُ بني العباس في كل مارقٍ صدور العوالي والسيوف البواتر
فطورا بهارون القواطع والقنا وطورا بأيديهم تهزُّ المخاصرُ
بأيدي عظام النفع والضر لا ينى بهم للعطايا والمنايا بوادرُ
ليهنكمُ الملك الذي أصبحت بكم أسرته مختالةٌ والمنابرُ
أبوك ولي المصطفى دون هاشمٍ وإن رغمت من حاسديك المناخرُ

فأعطاه خمسة آلاف دينار، وكساه خلعة، وأمرله بعشرة من رقيق الدوم، وحمله على فرس من خاص مراكب.

وذُكر أنه كان مع الرشيد ابن أبي مريم المدائني، وكان مضحكا له محادثا فكها، كان لا يصبر عنه، ولا يمل محادثته، وبوَّأه منزلا من قصره، فجاء ذات ليلة وهو نائم وقد طلع الفجر، وقام الرشيد إلى الصلاة، فألفاه نائما، فكشف اللحاف عن ظهره وقال : كيف أصبحت ؟ وقال : يا هذا ما أصبحت بعد، اذهب إلى عملك، قال : ويلك قم إلى الصلاة، قال : هذا وقت صلاة أبي الجارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي، فمضى وتركه نائما، وتأهب الرشيد للصلاة، فجاء ه غلامه فقال : يا أمير المؤمنين قدقام إلى الصلاة، فقام

وألقى عليه ثيابه ومضى نحوه، فإذا الرشيد يقرأ في صلاة الصبح، فانتهى إليه وهو يقرأ : (وما لي لا أعبد الذي فطرني)[١] فقال ابن أبي مريم : لا أدري والله، وقد ملكك الدنيا كلها، فما تمالك الرشيد أن ضحك في صلاته [ص١٢٥]، ثم التفت إليه وهو كالمغضب وقال : يا ابن أبي مريم ، في الصلاة أيضا، قال : يا هذا وما صنعت ، قال: قطعت عليّ صلاتي ، قال : والله ما فعلت، وإنما سمعت منك كلاما غمني حين قلت : وما لي لا أعبد الذي فطرني، وقد ملكك الدنيا ، فقلت لا أدري والله، فضحك الرشيد، ثم قال له: إياك والقرآن والدين، ولك ما شئت بعدهما .

وذكر زيد بن علي الحسيني أن الرشيد [أراد] أن يشرب دواء فقال له يابن أبي مريم هل لك أن تجعلني حاجبك إذا أخذت الدواء وكل شيء أكتسبه بيني وبينك، فقال: أفعل، وبكر ابن أبي مريم ووضع له الكرسي، وأخذ الرشيد الدواء، فجاء رسول أم جعفر يسأل عنه، فأوصله إليه، وعرفه حاله وانصرف بالجواب وقال : اعلم السيدة بما فعلت في الإذن لك قبل الناس، فأعلمها فبعثت إليه بمالٍ كثير ، ثم جاء رسول يحيى بن خالد، ففعل به مثل ذلك، ثم جاء رسول جعفر والفضل، ففعل ذلك، فبعث إليه كل واحد من البرامكة بصلة جزيلة، ثم جاء رسول الفضل بن الربيع فرده، وجاء ت رسل القواد والعظماء ، فما سهل إذن أحد منهم ، إلا بصلة جزيلة، فما صلى العصر حتى صار إليه ستون ألف دينار، فلما نُقي الرشيد، فقال له : ما صنعت في يومك هذا ؟ قال : يا سيدي ، كسبت ستين ألف دينار، فقال: أين حاصلي، قال : معزول ، قال: لا وقد وهبته لك، ولكن اهدِ لي عشرة آلاف تفاحة .

وذكر مصعب بن عبد الله الزبيري، عن أبيه : أن الرشيد قال له : ما تقول

---

(١) يس ٢٢ .

في الذين طعنوا على عثمان ؟ قال: قلت يا أمير المؤمنين، طعن عليه ناس، وكان معه ناس، فأما الذين طعنوا عليه فتفرقوا عنه، وأما الذين كانوا معه، فهم أهل الجماعة إلى اليوم، فقال لي: ما أحتاج أن أسأل بعد اليوم عن هذا، وذكر عنه قال : سألني الرشيد: كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال فقلت : كانت منزلتهما منه في حياتهما منزلتهما [ص١٢٦] في مماته، فقال :، كفيتني فيما أحتاج إليه ، وسئل مالك بن أنس عن هذا أيضا فقال له مثل هذا القول : منزلتهما منه في حياته مثل منزلتهما منه في مماته، فقال له : شفيتني يا مالك شفيتني يا مالك .

وذكر الليث بن عبد العزيز الجوزجاني عن بعض الحَجَبة، أن الرشيد دخل الكعبة ، وقام على أصابعه وقال : اللهم يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، فإن لكل مسألة منك ردا حاضرا، وجوابا عتيدا، وبكل صامت منك علم محيط ناطق بمواعيدك الصادقة، وأياديك الفاضلة، ورحمتك الواسعة، صلِّ على محمد وعلى آل محمد، واغفر لنا ذنوبنا، وكفِّر عنا سيئاتنا، يا من لا تضره الذنوب، ولا تخفى عليه العيوب، ولا تنقصه مغفرة الخطايا، يا من كبس الأرض على الماء ، وسد الهواء بالسماء ، واختار لنفسه الأسماء الحسنى ، صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وخِرْ لي في جميع أموري، يا من خشعت له الأصوات بأنواع اللغات ، يسألونك الحاجات، إن من حاجتي عندك أن تغفر لي إذا توفيتني، وصرت في لحدي، وتفرق عني أهلي وولدي، اللهم لك الحمد حمدا يفضل كل حمد، كفضلك على جميع الخلق، اللهم صلِّ على محمد صلاة تكون له رضى، وصلِّ على محمد صلاة تكون له جزاء وأجزه عنا الجزاء الأوفى، اللهم أحينا سعداء ، وتوفنا شهداء ، واجعلنا سعداء مرزوقين، ولا تجعلنا أشقياء محرومين، وكان يقول : والله إني لأعرف في عبد الله ، يعني

المأمون حزم المنصور، ونسك المهدي ، وعز نفس الهادي، ولو شئت أنسبه إلى الرابع لفعلت ، يعني نفسه، وفي ذلك يقول :

[الطويل]

لقد بان وجه الرأي لي غير أنني غلبت على الأمر الذي كان أحزما

وكيف يُردُّ الدَّرُّ في الضرع بعدما توزع حتى صار نهبا مقسما

أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذي كان أبرما

واصطبح الرشيد قرب رمضان وقد قرب أن يرسي به زورق هلاله، فكتب إلى جعفر بن يحيى : [ص١٢٧]

[الخفيف]

سلْ عن الصوم ابنَ يحيى تجدْهُ راحلا نحونا من النهروانِ

فأتنا نصطبحْ ونلهُ جميعا لثلاثٍ بقينَ من شعبانِ

فأجابه في رقعة كتبها، ثم ركب إليه واستصحبها، فلما قرأها الرشيد استطار قلبه ، واستبشر بها ساعفه(١) (ساعة) قربه، وكان فيها :

[الخفيف]

إنَّ يوما كتبتَ فيه إلى عبـ ـدكَ يومٌ يسودُ كلَّ زمانِ

فاغتبقْ واصطبحْ فقد صانني اللهُ إذا صُنْتَني من الحَدثانِ

وكان الرشيد بعد هذا يقول لما قتله تلك القتلة التي شوَّهَ بها الجود، ونبه بها دمه للطلول بسلاف العنقود، والله ما صانه الله لي من الحدثان، بل كمنت له كمون الأفعوان في أصول الريحان، فلما تعرض للشم قابله بالسم، وسيأتي ذكر جعفر في موضعه، وكان الرشيد قد حبس أبا العتاهية وجعل عليه عينا يأتيه

(١) ساعفة لا معنى لها.

بما يقول، فأخبره يوما أنه كتب على الحائط :[١]

[الوافر]

أمــــا والـلـه إنَّ الـظـلـمَ لـومُ ومــا زالَ المسـيءُ هـو الظـلومُ
إلى ديَّــانِ يـومِ الـديـنِ نمضـي وعند الـلـهِ تجـتـمعُ الخـصومُ

فاستحضره الرشيد واستحله وأعطاه ألف دينار، ثم أمر بمجلس فزخرف، وبالطعام فأحضر، وأحضر أبا العتاهية فقال له : صف ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا، فقال :[٢]

[مجزوء الكامل]

عش مـا بـدا لـك سـالمـاً في ظلِ شـاهقـةِ القـصـورِ
يسـعى عليكَ بمـا اشـتـهـيتَ لـذي الـرواحِ وفـي الـبـكـورِ

فقال : ثم ماذا، فقال :

وإذا النفـوسُ تقـعـقـعت في ضـيقِ حـشـرجةِ الصدورِ
فـهناك تـعـلـمُ مـوقـنـاً مـا كـنـتَ إلا فـي غـرورِ

فبكى الرشيد، فقال الفضل بن يحيى : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فأحزنته، فقال : يا فضل ، دعه، وإنَّا في عمىً، فكره أن يزيدنا.

وعن القاضي [ص١٢٨] أبي يوسف[٣] قال : بينا أنا البارحة قد أويت إلى

---

(١) الشعر لأبي العتاهية في ديوانه ص٣٥٣ ط بيروت ١٩٩٧

(٢) الشعر لأبي العتاهية في ديوانه ص ١٤٣ .

(٣)أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، صاحب أبي حنيفة وتلميذه، وأول من نشر مذهبه، كان فقيها علامة من حفاظ الحديث، ولد بالكوفة، ثم لزم أبا حنيفة، فغلب عليه الرأي، وولي قضاء بغداد أيام المهدي والهادي والرشيد، وهو أول من دعي قاضي القضاة وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، له كتب كثيرة،=

فراشي، فإذا هرثمة بن أعين[1] يدق الباب دقا شديدا، فكلمته فقال : أجب أمير المؤمنين، فسألته الإمهال إلى غد، فقال : ما إلى هذا سبيل، فاغتسلت وتحنطت، ثم صرنا إلى الرشيد، وإذا بعيسى بن جعفر بن المنصور على يمينه، فسلمت ، فرد السلام، ثم قال : أظننا روعناك، قلت : إي والله وكذلك من خلفي، قال : اجلس، فجلست حتى سكن روعي، ثم التفت إليَّ فقال : أتدري لمَ دعوتك ؟ فقلت : لا، قال : دعوتك لأشهدك على هذا، إني سألته جاريةً عنده أن يهبها لي فامتنع، فسألته أن يبيعها فأبى، ووالله لئن لم يفعل لأقتلَنَّهُ ، فالتفت إلى عيسى وقلت: وما تبتغي بجارية تمنعها أمير المؤمنين ؟ فقال: عجلت عليَّ قبل أن تعرف ما عندي، قلت: فما الذي عندك ؟ قال : إنَّ عليَّ يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك أن أبيع هذه الجارية ولا أهبها، فقلت: تهب له نصفها وتبيعه نصفها، فتكون لم تهب ولم تبع، فقال : أشهدك أني وهبته نصفها وبعته نصفها بمائة ألف دينار، ثم أتى بالجارية وأخذ المال، فقال الرشيد: بقيت واحدة، فقلت : ما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنها مملوكة ولابد لها من الاستبراء، ووالله إن لم أبت معها ليلتي، إني أظن أنَّ نفسي ستخرج، قلت : يا

= توفي سنة ١٨٢ هـ .

(النجوم الزاهرة ٢ / ١٠٧، البداية والنهاية١٠ / ١٨٠، تاريخ بغداد ١٤ / ٢٤٢، الوفيات ٢ / ٣٠٣، أخبار القضاة لوكيع ٣ / ٢٥٤)

(١) هرثمة بن أعين : أمير من القادة الشجعان، له عناية بالعمران ، بنى في أرمينية وأفريقية وغيرهما، ولاه الرشيد مصر سنة ١٧٨ ، ثم وجهه إلى أفريقية لإخضاع عصاتها ثم نقله الرشيد إلى خراسان وولاه غزو الصائفة، ولما بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون انحاز إلى المأمون ، فقاد جيوشه وأخلص له الخدمة، حتى سكنت الفتنة بمقتل الأمين وانتظمت الدولة للمأمون ، فنقم عليه أمرا، وقيل اتهمه بممالأت إبراهيم بن المهدي أو بالتراخي في قتال الطالبيين، فضربه وحبسه، وكان الفضل بن سهل (الوزير) يبغضه، فدس إليه من قتله في الحبس سرا بمرو سنة ٢٠٠ هـ .

(الطبري ٦ / ٤٦١، ابن الأثير ٦ / ٢٤٥، الولاة والقضاة ص ١٣٦، النجوم الزاهرة ٢ / ٨٨ ـ ٩٠)

أمير المؤمنين، تعتقها وتتزوجها، فإنَّ الحرة لا تستبرأ، قال: قد أعتقتها، فمن يزوجنيها ؟ قلت : أنا، قال : افعل ، فدعا بمسرور وحنين الخادمين ، فخطبت فحمدت الله ثم زوجته بها على عشرين ألف دينار، ودفع إليه المال، ثم قال : انصرف الآن، وأمر لي بمئتي ألف درهم، وعشرين تختاً ثياباً، فحمل ذلك معي، فالتفت إليَّ هرثمة وقال : فأين حقي ؟ فقلت : خذ العشر، ثم إذا بعجوز فدخلت فقالت : يا أبا يوسف، إن ابنتك تقرئك السلام وتقول: لك ما وصل إليَّ من أمير المؤمنين إلا المهر، وقد حملت إليك النصف وتركت الباقي لما تحتاج إليه، فوالله لا قبلته، أخرجتها من الرق وزوجتها [ص١٢٩] أمير المؤمنين وترضى لي بهذا ، فلم تزل بي الجماعة حتى قبلتُ ، وأمرتُ لهرثمة منها بألف دينار أخرى.

وذكر محمد بن علي، عن أبيه قال : دخلت على الرشيد في دار عون العبادي، فإذا هو في هيئة الصيف في بيت مكشوف، وليس فيه فرش وغلالة رقيقة عليه وإزار عريض الأعلام، وكان لا يجلس في بيت الخيش، لأنه كان يؤذيه إفراط الهواء ، ولكنه كان يجلس ظاهره فيأتيه برد الخيش، وكان له تغار من فضة يعمل فيه الطيب والزعفران والأفاويه وماء الورد، ثم يدخل إلى بيت مقيله، ويدخل سبع غلائل قصب رشدية تقطيع النساء تُغمس الغلالة في ذلك الطيب، ويؤتى في كل يوم بسبع جوارٍ، فيخلع عن الجارية ثيابها ثم يخلع عنها غلالة، ويجلس على كرسي مثقب، فيرسل الغلالة على الكرسي متحللة، ثم يبخر من تحت الكرسي بالعود المدرج في العنبر ابدا حتى يجف القميص عليها، يفعل ذلك بهن ويغلق البيت فيعبق بالبخور والطيب .

وذكر بعضهم أنهم كانوا مع الرشيد بالرقة، فخرج يوما إلى الصيد ، فعرض له رجل من النساك، فقال: يا هارون، اتقِ الله، فقال لابن نهيك : خذه إليك حتى أنصرف، فلما رجع هارون أمر أن يطعم الرجل من خاص طعامه، فلما أكل

وشرب، دعا به فقال: يا هذا، انصفني في المخاطبة والمسألة،

قال : قل ما تحب، قال: فأخبرني أيما أشر[١] وأخبث، أنا أم فرعون، قال: بل فرعون قال أنا ربكم الأعلى ، وما علمت لكم من إله غيري، قال: صدقت،قال: فأخبرني فمن خير أنت أم موسى بن عمران ، قال: موسى كليم الله وصفيه اصطنعه لنفسه، وائتمنه على وحيه، وكلمه من خلقه، قال: صدقت ، أفما تعلم أنه لمَّا بعثه الله وأخاه إلى فرعون قال لهما : فقولا قولا لينا، وهذا في عتوه وجبروته[٢] على ما قد علمت، وأنت جئتني وأنا بهذه الحال التي تعلم أكثر فرائض الله أؤديها ولا أعبد سواه، أقف عند أكثر حدوده[ص١٣٠] فوعظتني بأغلظ الألفاظ وأبشعها، وأخشن الكلام وأفظعه، فلا بأدب الله تأدبت ، ولا بأخلاق الصالحين أخذت، فما كان يؤمنك أن أسطو بك، فإذا أنت قد عرضت نفسك لما كنت عنه غنيا، فقال الزاهد: أخطأتُ يا أمير المؤمنين وأنا استغفر الله، قال : قد غفر الله لك، وأمر له بعشرين ألف درهم، فقال: لا حاجة لي بالمال، فزجره هرثمة، فقال له الرشيد : أمسك عنه ، ثم قال له : لم نعطك المال لحاجتك إليه ، ولكن من عادتنا ألا يخاطب الخليفة أحد إلا وصله، فاقبل من صلتنا ما شئت، فضعها حيث أحببت، فأخذ من المال ألفي درهم ، وفرقها على من حضره .

وذكر ابن بختيشوع[٣] قال:

---

(١) أي أكثر شرا .

(٢) في الأصل : جبريته .

(٣) ابن بختيشوع : جبرائيل بن بختيشوع طبيب هارون الرشيد وجليسه وخليله ، يقال : إن منزلتهما زالت تقوى عند الرشيد حتى قال لأصحابه : من كانت له حاجةإليَّ فليخاطب بها جبرائيل ، فإني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني، فكان القواد يقصدونه في كل أمورهم، ولما توفي الرشيد خدم الأمين ، فلما ولي المأمون سجنه ثم أطلقه وأعاده إلى مكانته، له تصانيف=

كنت مع الرشيد بالرقة[١]، وكنت أول من يدخل عليه فأتعرف خبره في ليلته ، ثم ينبسط فيحدثني بخبر جواريه ومجلسه وشربه، ثم يسألني من أخبار العامة وأحوالها، فدخلت عليه في غداة يوم، فرأيته عابسا مفكرا مغموما، فوقفت بين يديه مليا وهو على تلك الحال، فلما طال ذلك أقدمت عليه فقلت : يا سيدي ، جعلني الله فداك، ما حالك هكذا، فأخبرني بها، فلعله يكون عندي دواؤه، فقال: ويحك يا جبريل، ليس غمي وفكري لشيء مما ذكرت ، ولكن لرؤيا رأيتها في ليلتي هذه فأفزعتني، وملأت صدري ، وأقرحت قلبي ، فقلت : فرَّجتَ عني يا أمير المؤمنين ، فدنوت فقبلت رجله وقلت : هذا الهمُّ كله لرؤيا، والرؤيا إنما تكون في خاطر أو من بخارات ردية من تهاويل السوداء، وإنما هي أضغاث أحلام بعد هذا كله، فقال: أنا أقصها عليك، رأيت كأني جالس على سريري إذ بدت من تحتي ذراع أعرفها، وكف أعرفها، لا أفهم اسم صاحبها، وفي الكف تربة حمراء، فقال لي قائل أسمعه ولا أرى شخصه: هذه التربة التي تدفن فيها، فقلت: وأين هذه التربة، فقال : بطوس وغابت اليد، وانقطع الكلام ، فقلت[٢] : يا سيدي أحسبك لما أخذت مضجعك فكرت في خراسان، وما ورد عليك من انتقاضها، قال : قد[ص١٣١] كان ذلك، قال فقلت : فلذلك رأيت هذه الرؤيا، وما برحت أطيب نفسه بضروب من الحيل حتى سلا وانبسط، وأمر بإعداد ما يشتهيه ذلك اليوم في لهوه، ومرت الأيام، فنسي ونسينا تلك الرؤيا، فما خطرت لأحد منا ببال، ثم قدر مسيره إلى خراسان حين تحرك رافع، فخرج فلما صار في بعض الطريق ابتدأت به العلة، فلم تزل تزيد

=== عدة وتوفي بالمدائن سنة ٢١٣هـ .

(١) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات ، بينها وبين حرّان ثلاثة أيام ، معدودة من بلاد الجزيرة ، لأنها من جانب الفرات الشرقي . (ياقوت : الرقة)

(٢) في الأصل : فقال .

حتى دخلنا طوس ، فنزل في منزل لحميد بن عبد الحميد، في ضيعة له تعرف بسرآباد، فبينا هو يمرض في البستان في ذلك القصر، إذ ذكر تلك الرؤيا، ووثب متحاملا ، يقوم ويسقط، فاجتمعنا إليه، كل يقول له : يا سيدي ما حالك، وما دهاك، فقال : يا جبريل، تذكر رؤياك بالرقة في طوس، ثم رفع رأسه إلى مسرور، فقال: جئني من تربة هذه الأرض، فجاءه بها في كفه، حاسرا عن ذراعيه، فلما نظر إليه قال: هذه والله الذراع التي أريتها في منامي، وهذه والله الكف بعينها، وهذه والله التربة الحمراء ، ما خرمت شيئا، وأقبل على البكاء والنحيب، ثم مات بعد ثالثة، ودفن في ذلك البستان .

وذكر علي الربعي عن أبيه قال : لما وصل الرشيد إلى طوس قال : احفروا لي قبرا قبل أن أموت، فحفر له ، فقال: احملني، فحملته في قُبَّة أقود به ، حتى إذا نظر إليه قال : يابن آدم، تصير إلى هذا، قالوا: ولما فرغ من حفر القبر أنزل فيه قوماً فقرأوا فيه القرآن، حتى ختموا، وهو في محفة على شفير القبر.

قال الطبري : ومات هارون وفي بيت المال تسع مائة ألف ألف ونيِّف، وقال أبو الشيص يرثي الرشيد :(١)

[مجزوء الرمل

غربت في الشرقِ شمسٌ فلها العينانِ تدمعْ
ما رأينا قطُّ شمساً غربتْ من حين تطلعْ

وقال أبو نواس :

[مجزوء البسيط]

جَرَتْ جوارٍ بالسعدِ والنَّحْسِ فنحنُ في مأتمٍ وفي عُرْسِ [ص ١٣٢]

(١) الشعر لأبي الشيص الخزاعي في مجموع شعره ص ٧٨ .

القلبُ يبكي والسنُّ ضاحكةٌ فنحنُ في وحشةٍ وفي أُنْسِ
يضحكنا القائمُ الأمينُ وتبكينا وفاةُ الرشيدِ بالأمسِ
بدرانِ بدرٌ أضحى ببغداد وبدرٌ بطوس في الرمسِ

ومولده سنة خمسين ومائة، وتوفي سنة ثلاث وتسعين ومائة، وعمره أربع وأربعون سنة، ومدته اثنتان وعشرون سنة، وأربعة أشهر، وقبره بقرية سناباد من طوس .

ثـــم :

٦٠ - دَوْلَةُ الأمِيْنِ

أبي موسى محمد[١] بن هارون الرشيد، وما قدمه أبوه إلا لإرضاء أمه أم جعفر[٢] وخُؤولته على أنه يكلف أخاه حمل مؤونته، وكان من

(١) الأمين : محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور، خليفة عباسي، ولد في رصافة بغداد، وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣هـ بعهد منه، فولّى أخاه المأمون خراسان وأطرافها، وكان المأمون ولي العهد من بعده، فلما كانت سنة ١٩٥هـ أعلن الأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد، فنادى المأمون بخلع الأمين في خراسان ، وتسمى بأمير المؤمنين ، وجهز الأمين جيشا بقيادة وزيره ابن ماهان لحربه، وجهز المأمون جيشا بقيادة طاهر بن الحسين، فالتقى الجيشان، فقُتل ابن ماهان وانهزم جيش الأمين ، فتتبعه طاهر بن الحسين وحاصر بغداد مدة طويلة انتهت بمقتل الأمين، قتل بالسيف، وكان الذي ضرب عنقه مولى لطاهر وبأمره، كان الأمين أبيض طويلا سمينا جميل الصورة شجاعا أديبا، رقيق الشعر، يكثر من إنفاق الأموال، سيء التدبير، يؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو ومجالسة الندماء، قتل سنة ١٩٨هـ .

(الطبري ١٠ / ١٢٤,١٦٣، ١٩٦، ابن الأثير ٦ / ٩٥، اليعقوبي ٣ / ١٦٢، تاريخ الخميس ٢ / ٣٣٣،المرزباني ٤٢٣، تاريخ بغداد ٣ / ٣٣٦، مروج الذهب ٢ / ٢٣٢ ـ ٢٤٧ المرزباني ٤٢٣)

(٢) أم جعفر : زبيدة بنت جعفر بن المنصور الهاشمية العباسية، زوجة هارون الرشيد وبنت عمه، من فضليات النساء وشهيراتهن، وهي أم الأمين العباسي، اسمها (أمَة العزيز) وغلب عليها لقبها (زبيدة) قيل : كان جدها المنصور يرقصها في طفولتها ويقول : يا زبيدة أنت زبيدة، فغلب=

نوكى[1] القوم، وأولى أهل بيته باللوم، لا يقيل رأيه من عثراته، ولا يجمّ جفنه لمقيل عبراته، فانهمك في اللذات، وانتهك حرمة الملك واللدات، وحفر لأخيه المأمون قليبا[2] وقع فيها قريبا، وكان ذا أيد وقوة، حكي أنه وثب على أسد فصرعه وقرب مصرعه، ولكنه لم يؤيد بحزم يحوط به تدبيره، ويحول بينه وبين ما قضى تدميره، ولكن الله إذا أرادأمرا بلغه، ومن قصد أخاه بسوء دمر الله عليه ودمغه، وكان كريما يهب البدر بالمئين، ولا يسمح أن يمد إلى مائدته يمين، وكان يبخل بالطعام ، وينحل في الشح أخلاق الطغام، وكان عنده رغيف الخبز كرغيف الأسد، لا يطاق مهاجمته، ولا يستطاع أن يقتحم أجمته .

وقال علي بن إسحاق : لما أفضت الخلافة إلى الأمين وهدأ الناس، أصبح صبيحة السبت بعد بيعته بيوم، فأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالجة واللعب، وأمر جواريه بأن تهدي إليه غزلان تسيَّب فيه، فأهديت له، فقال شاعر من أهل بغداد :

[السريع]

بنى أمينُ الله ميدانا وصَيَّرَ الساحَةَ بستانا

= ذلك على اسمها ، وإليها تنسب (عين زبيدة) في مكة، جلبت إليها الماء من أقصى وادي نعمان شرقي مكة، وأقامت له الأقنية حتى أبلغته مكة، تزوج بها الرشيد سنة ١٦٥هـ ، ولما توفي الرشيد ثم قتل ابنها الأمين اضطهدها رجال المأمون فكتبت إليه تشكو حالها، فعطف عليها، وجعل لها قصرافي دار الخلافة، وأقام لها الوصائف والخدم، وكانت لها ثروة واسعة، وخلفت آثارا نافعة، عملت مصانع وبرك ومنازل وآبار من بغداد إلى مكة، توفيت ببغداد سنة ٢١٦هـ
(تاريخ بغداد ١٤ / ٤٣٣، النجوم الزاهرة ٢ / ٢١٣، ابن خلكان ١ / ١٨٩، الدر المنثور ص ٢١٥،أعلام النساء ١ / ٤٣٠)

(١) النوكى : الحمقى .

(٢) القليب : البئر .

فكانت الغـــزلان فـــيـــه بأن تهـــدى إليـــه فـــيـــه غـزلانا

وذكر محمد بن يحيى النيسابوري قال : لما نعي علي بن عيسى[1] وقتله إلى الأمين [ص١٣٣] وكان في وقته ذلك على الشط يصيد السمك [في الأصل : الضمد، ولم أجد لها معنى] فقال للذي أخبره، ويلك فإن كوثراقد أصاب سمكتين، وأنا ما صدت شيئا بعد، وذكر أن أحمد بن مزيد لما أراد الشخوص للقاء جيش المأمون، دخل على الأمين فقال: ليوصني أمير المؤمنين، قال: أوصيك بخصال عدة، إياك والبغي فإنه عقال النصر، ولا تقدم رجلا إلا باستخارة، ولا تشهر سيفا إلا بعد إنذار، ومهما قدرت عليه باللين فلا تنفذه إلى الشدة، وأحسن صحابة من معك من الجند، وطالعني بأخبارك في كل يوم، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة عندي، ولا تستبقها فيما يتخوف رجوعه علي، وكن لمن تقدمك أخا، ولا تخذله إذا استنصرك، ولا تبطيء عليه إن استصرخك، ولتكن أيديكما واحدة، وكلمتكما متفقة، ثم قال : سل حوائجك وعجل السراح إلى عدوك، فدعا له أحمد بن مزيد وقال : يا أمير المؤمنين، بكر لي في الدعاء ولا تقبل فيَّ قول باغ، ولا ترفضني قبل المعرفة بذنبي، ولا تنقض على ما استجمع من رأي، ومُنَّ عليَّ بالصفح عن ابن أخي عبد الله بن حميد، وكان قد أمره الأمين بالخروج فتشرط فحبسه .

وحكي أنه لما كان محصورا، خرج يوما خادمه كوثر، وكان مضنى به حبا

---

(١) علي بن عيسى بن ماهان : من كبار القادة في عصر الرشيد والأمين، وهو الذي حرض الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد، وسيَّره الأمين لقتال المأمون بجيش كبير، وولاه إمارة الجبل وهمذان وأصبهان وقُمّ وتلك البلاد، فخرج من بغداد في أربعين ألف فارس، فتلقاه طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون في الري، فقُتل ابن ماهان وانهزم أصحابه سنة ١٩٥هـ .

(ابن الأثير ٦ / ٧٩، النجوم الزاهرة ٢ / ١٤٩،البداية والنهاية ١٠ / ٢٢٦)

كلفا به غراما، فأصابته جراحة أدمت حر وجهه، ونثرت ورد دمه على ياسمين خده، فقال :

[مجزوء الرمل]

ضربوا قرة عيني ومن أجلي ضربوه
أخذ الله لقلبي من أناسٍ جرحوه

وكان أبو نواس قد اعتقله الرشيد على كلمة قالها تعرض فيها إلى النقص بقريش، فلما ولي الأمين وكانت لأبي نواس به ذمة قديمة، فقال : [الطويل]

تذكر أمينَ الله والعهدُ يُذكرُ مقامي وإنشاديكَ والناسُ حَضَّرُ
ونثري عليكَ الدرَّ يا درَّ هاشمٍ فيا من رأى دراً على الدر ينثرُ
أبوك الذي لم يملك الناسُ مثلهُ وعمك موسى عدلهُ متخَيَّرُ [ص ١٣٤]
وجدك مهدي الهدى وشقيقه أبو أمك الأدنى أبو الفضل جعفرُ
وما مثل منصوريك منصور هاشم ومنصور قحطان إذا عُدَّ مفخرُ
فمن ذا الذي يرمي بسهمك في العلى وعبد مناف والداك وحميرُ

فغنت جارية بهذه الأبيات بين يدي الأمين، فقال : لمن هذه الأبيات، فقيل له : لأبي نواس، قال : وما فعل ، فقيل له : محبوس، قال : ليس عليه بأس، قال : فبعث إليه رجل من المجلس يعلمه بما قال ، وقال :

[الوافر]

أرقتُ وطار عن عيني النعاسُ ونام الساهرون ولم يواسوا
أمينَ الله قد مُلِّكْتَ مُلْكاً عليك من التقى فيه لباسُ
كأنَّ الخلقَ في تمثالِ روحٍ له جسدٌ وأنتَ عليهِ راسُ
أمينَ اللهِ إن السجنَ بأسٌ وقد أرسلتَ ليس عليك باسُ

فلما أنشدته قال : صدق والله، عليَّ بهِ ، فجيء به في الليل ، فكسرت أقياده وأخرج حتى أدخل عليه، فأنشده :

[**الخفيف**]

مرحباً مرحباً بخيرِ إمامٍ صيغَ من جوهرِ الخلافة نحتا
يا شبيهَ المهدي بذلاً وجوداً وشبيهَ المنصورِ هدياً وسَمْتا

ثم كان في صحبته حتى أخذ من السفين ، وأودعَ أحشاء الأرض منه الدفين.

وذكر عمر بن شبة أن أحمد بن محمد الهاشمي حدثه أن لبابة بنت علي بن المهدي قالت حين قتل الأمين وكانت تحته ولم يكن دخل بها ولا ضمها فراش حظي فيه بقربها ووضعت له سجوف نقبها :

[**البسيط**]

أبكيك لا للنعيم والغَرَسِ بل للمعالي والرمحِ والفَرَسِ
أبكي على هالكٍ فُجِعْتُ بهِ أرملني قبلَ ليلةِ العُرُسِ

وولد في شوال سنة إحدى وسبعين ومائة ، وتوفي في المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وعمره سبع وعشرون سنة، ومدته أربع سنين وتسعة أشهر ، وقبره ببغداد.

ثم :

٦١ - دَوْلَةُ المَأْمُونِ

أبي العباس [ص١٣٥] عبد الله(١) بن هارون الرشيد، هو أجمع القوم

(١) المأمون : عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو العباس، سابع=

لفضل، متنوع من العلم والحلم، والكرم والشجاعة والوفاء، والنظم والنثر والآداب، إماما مقدما في كل هذه الفضائل، ومعظما في علوم المتأخرين والأوائل، مع ما طبع الله عليه من كرم الأخلاق ، وخصه به من تمام السعادة، ومضاء المهابة، لا يعدله في القوم نظير فيما جمع من المناقب الثاقبة، والخلائق الجميلة، أربى علمه على اليونان، وحلمه على ثهلان، وكرمه على ابن مامة، وشجاعته على فارس النعامة، ووفاؤه على السموأل، وشعره على جرول، ونثره على سحبان، وآدابه على ملوك آل ساسان، وقد صفح عن عمه إبراهيم بن المهدي(٢)، وقد واثبه في خطواته، وابتز الخلافة من لهواته، ولما ظفر به تغمده

= الخلفاء من بني العباس في العراق، أحد أعاظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه، نفذ أمره من أفريقية إلى أقصى خراسان وما وراء النهروالسند، وولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ، فتمم ما بدأبه جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة، وأتحف ملوك الروم بالهدايا سائلا أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة ، فبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون وأرسطو وأبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس وغيرهم فاختار لها مهرة التراجمة فترجمت، وحض الناس على قراءتها، وقرب العلماء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والأنساب، وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة، لولا محنة القول بخلق القرآن التي كانت بلاء على العلماء، توفي في بذندون ودفن في طرسوس سنة ٢١٨هـ .

(المسعودي ٢ /٢٤٧ـ٢٦٩، النبراس لابن دحية ص ٤٦ـ٦٣، تاريخ بغداد ١٠ /١٨٣، الطبري ١٠ /٢٩٣ابن الأثير ٦ /١٤٤ ـ ١٤٨، فوات الوفيات ١ /٢٣٩، تاريخ الخميس ٢ /٣٣٤، البدء والتاريخ ٦ /١١٢)

(٢) إبراهيم بن المهدي: إبراهيم بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور العباسي، أبو إسحاق، ويقال له ابن شكلة، أخو هارون الرشيد ، ولد ونشأ ببغداد، ولاه الرشيد إمرة دمشق ، ثم عزله عنها بعد سنتين ثم أعاده إليها، ولما انتهت الخلافة إلى الأمين كان إبراهيم قد اتخذ فرصة اختلاف الأمين والمأمون للدعوة إلى نفسه، وبايعه كثيرون في بغداد، فطلبه المأمون فاستتر، فأهدر دمه، فجاءه مستسلما فسجنه ستة أشهر ، ثم طلبه إليه وعاتبه على عمله فاعتذر فعفا عنه، وكانت خلافته ببغداد سنتين إلا خمسة وعشرين يوما، وتغلب على الكوفة والسواد، والمأمون بخراسان ، وأقام في استتاره ست سنين ، وظفر به المأمون سنة ٢١٠هـ، كان أسود حالك السواد عظيم الجثة=

بحلمه، وتعهده بالعفو على علمه، وعمل في هذا ما لم يسمع مثله قبله ولا بعده، وخلد له ذكرا لا يبلى لديباجة جده، وكذلك عامل أم جعفر بإكرام برَّدَ حرارة حزنها ، وخفف حزازة شجنها، حتى سلَّ سخيمة صدرها، وحل عقدة الحزن عن فكرها، وألهاها ببره لها عن ابنها، ونهاها نُهى حلمه عن تشويش الدموع في جفنها، فأسلاها مصاب ولدها، وأنساها ذهاب قطعة من كبدها، فأخذها في أمره بالمغالطة، واستدرك لها بالمجالسة مهجته الفارطة، فتسلت به سلوة الحزين، وتعوضت ببقاء المأمون عن الأمين، فعاودت مقلتها هجوع الكرى، وقالت : وفي الحي بالميت الذي غُيِّبَ في الثرى، وسارت سيرَه وصارت لا يمل منها مطالعها ، ولا يحل بأنه كلما فارقها نظره يراجعها، يصبح حيث أمسى في سطورها المحبرة، وصدورها المجوهرة، ويرود منها روضة أدبية تتحير فيها من مشارق التصنيف حتى الأنوار، ويتحير بها لؤلؤ الطل في حدق النوار، وعهد إلى علي الرضا، وأصارها علوية، ثم عاجله الموت، وما كان في سعادة الناس تمام تلك القضية، إلا أنه أبلى الناس بالمحنة [ص١٣٦] في القول بخلق القرآن، ولم تطهر منها أيامه، ولها قرؤ ولا قرآن، وذلك عن نظر نظره، ورأي نبه على نفسه خطره، ومن أخباره أنه لما خرج من خراسان شيعه حُمَيد الطوسي[١]، فسار معه فراسخ، فالتفت إليه المأمون وقال : ارجع أنا غانم :

= فصيح اللسان شاعرا سخي الكف، حاذقا بصنعة الغناء ، توفي في سر من رأى سنة ٢٢٤هـ .
(الأغاني ١٠ / ٦٩ ، ٩٤ ، تاريخ بغداد ٦ / ١٤٢ . ابن خلكان١ /٨، أشعار أولاد الخلفاء ص ١٧ ـ ٤٩ لسان الميزان ١ /٩٨)

(١) حميد الطوسي : من كبار قادة المأمون، كان جبارا فيه قوة وبطش، وكان المأمون يندبه للمهمات، توفي سنة ٢١٠هـ .
(النجوم الزاهرة ٢ / ١٩٠)

[الكامل]

عـجـبـا لقلبِ مـتـيَّمٍ أحـبـابُـهُ ... ســاروا وخلف كـيـف لا يتـضـرعُ
ارجع فـحـسـبك مـا تبـعت ركـابنا ... إن المتــيم لا مــحـالــة يرجــعُ

وشكى اليزيدي(١) إلى المأمون دينا لحقه فقال له ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغت ما تريد، فقال : يا أمير المؤمنين إن غرمائي قد أرهقوني، قال: انظر لنفسك أمراً تنال به نفعا، قال : يا أمير المؤمنين، إن لك ندماء فيهم من إنْ حركته نلت به نفعا، قال : أفعل، قال : إذا حضروا إليك مُرْ فلانـا الخادم يوصل إليك رقعتي، فإذا قرأتها فأرسل إليَّ دخولك في هذا الوقت متعذر، ولكن اختر لنفسك من أحببت ، قال : أفعل، فلما علم اليزيدي بجلوس المأمون مع ندمائه بعث إليه مع خادم رقعة فيها :

[السريع]

يا خــيــرَ إخـواني وأصــحـابي ... هــذا الطفــيـلي على البـــابِ
فــصــيِّروني واحــدا منكمُ ... أو فــأخــرجــوا لي بعض أترابي

فقرأها المأمون عليهم، فقالوا : ما ينبغي يدخل علينا على هذه الحال، فأرسل إليه المأمون :

دخولك متعذرفاختر لنفسك من أحببت، فقال : ما أريد إلا عبد الله بن

---

(١) اليزيدي : يحيى بن المبارك العدوي، عالم بالعربية والأدب من أهل البصرة، سكن بغداد فصحب يزيد بن منصور الحميري (خال المهدي)يؤدب ولده فنسب إليه، واتصل بالرشيد فعهد إليه بتاديب المأمون وعاش إلى أيام خلافته، له جملة كتب منها (النوادر في اللغة) و (المقصور والممدود)، توفي سنة ٢٠٢هـ .
(معجم الأدباء ٧ / ٢٨٩، وفيات الأعيان ٢ / ٢٣٠، نزهة الألباء ص ١٠٣)

طاهر[1]، فقال له المأمون : قد اختارك فصر إليه، فقال : يا أمير المؤمنين، أكون شريك الطفيلي، فقال المأمون : ما يمكنني رد أبي محمد عن أمرين ، فإن أحببت أن تخرج إليه، وإلا فافتدِ نفسك منه، فقال : عشرة آلاف درهم ، قال : لا تقنعه، فما زال يزيد عشرة عشرة، والمأمون يقول : لا تقنعه، حتى بلغ مائة ألف، فقال له : عجلها، فكتب بها إلى وكيله ووجَّه معه رسولا، وأرسل إليه المأمون : اقبض هذه الدراهم في هذه الساعة فهي أصلح لك [ص ١٣٧] من منادمته وأنفع لك .

وعن محمد بن عمر الواقدي[2] قال : أوصلت إلى المأمون رقعة أشكو فيها الدين فوقَّع عليها : فيك خلتان، الحياء والسخاء ، فأما السخاء فهو الذي أخرج ما في يديك، وأما الحياء فهو الذي قطعك عن إطلاعنا على حالك، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم، فإن كانت فيها بلغة فذاك، وإن يكن غير ذلك، فهذه ثمرة ما جنيت على نفسك، فأنت حدثتني وأنت قاض للرشيد، عن محمد بن

---

(١) عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي : أمير خراسان من أشهر الولاة في العصر العباسي، كان من أكثر الناس بذلا للمال، مع علم ومعرفة وتجربة، وللشعراء فيه مراث كثيرة، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، وقيل : تبناه المأمون ورباه، توفي بنيسابور سنة ٢٣٠هـ .

(الطبري ١١ / ١٣، ابن الأثير ٧ / ٥ ابن خلكان ١ / ٢٦٠، تاريخ بغداد ٩ / ٤٨٣ الولاة والقضاة ص ١٨٠)

(٢) الواقدي : محمد بن عمر بن واقد السهمي، من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم، ومن حفاظ الحديث، كان حنَّاطا (تاجر حنطة) بالمدينة ، وضاعت ثروته فانتقل إلى العراق في أيام الرشيد، واتصل بيحيى بن خالد البرمكي فأكرمه وقربه من الخليفة، فولي القضاء ببغداد، وبقي إلى أن توفي، له كتب منها (فتوح العراق) و(فتوح الشام)كان كاتبه محمد بن سعد صاحب الطبقات ، توفي الواقدي سنة ٢٠٧هـ .

(تاريخ بغداد ٣ / ٣ ـ ٢١ ، وفيات الأعيان ١ / ٥٠٦ ، تهذيب التهذيب ٩ / ٣٦٣ـ ٣٦٨، تذكرة الحفاظ ١ /٣١٧)

إسحاق عن الزهري ، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: مفاتيح الرزق بها متوجهة نحو العرش، فينزل الله تعالى على الناس أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن كثر كثر له، ومن قلل قلل له، قال الواقدي: وكنت قد أنسيت هذا الحديث حتى حدثني به المأمون ، فكان أحظى عندي من الصلة.

وألّف سهل بن هارون[١] كتابا يمدح فيه البخل ويذم الكرم، ليظهر قدرته على البلاغة[٢]، ورصع درتَهُ في ألطف الصياغة، ثم قدمه إلى المأمون على يد الحسن بن سهل ، فوقّع عليه : لقد مدحت ما ذمه الله ، وحسّنت ما قبح، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معناك، وقد جعلنا نوالك عليه قَبول قولك فيه.

وقال ظفر : وبلغني أن الرشيد أمر جماعة من العلماء بمبايتة المأمون وهو غلام ، ليقتبس من آدابهم وعلومهم، فبات عنده ليلة الحسن بن زياد اللؤلؤي، فبينا هو يحادثه نعس المأمون ، فقال له اللؤلؤي : نمت أيها الأمير، فاستيقظ وقال: سويقي ورب الكعبة، يا غلام خذ بيده، وأخرجه، فبلغ ذلك الرشيد فأعجبه ، وقال متمثلا :

[**الطويل**]

وهل ينبت الخطيُّ إلا وشيجه ... وتغرس إلا في منابتها النخلُ

---

(١) سهل بن هارون : كاتب بليغ من واضعي القصص يلقب ب (بزرجمهر الإسلام)، فارسي الأصل، اشتهر في البصرة واتصل بخدمة هارون الرشيد، وارتفعت مكانته عنده ، حتى أحله محل يحيى البرمكي صاحب دواوينه، ثم خدم المأمون فولاه رياسة (خزانة الحكمة) ببغداد، وكان شعوبيا يتعصب للعجم على العرب، والجاحظ كثير الإعجاب به، له جملة من الكتب، ولم تصل من كتبه إلا رسالة في (البخل)، أوردها ابن عبد ربه في العقد، توفي سهل سنة ٢١٥ هـ . (معجم الأدباء ٤ /٢٥٨،البيان والتبيين ١ /٣٠، ٥٠ العقد الفريد ٦ /٢٠٠، أمراء البيان ١ /١٥٩ـ١٩٠)

(٢) في الأصل : البلا ، وقد نسي الناسخ بقية الكلمة .

قال محمد : إنما فعل ذلك المأمون لسوء أدب اللؤلؤي، ووجه الأدب مع الرئيس إذا نام أن يتنحى عنه جلساؤه، فيكونوا بموضع يقرب منه.

قال ابن ظفر: ومما قيل إن الكسائي كان لا يفتح على ولد الرشيد إذا غلطوا، إنما كان ينكس طرفه، فاذا غلط أحدهم نظر إليه، وربما ضرب الأرض [ص١٣٨] بخيزرانة في يده، فإن سدد القاري للصواب مضى ، وإلا نظر في المصحف، فافتتح المأمون عليه يوما سورة الصف، فلما قرأ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾(١)، نظر إليه الكسائي ، وتأمل المأمون ، فإذا هو مصيب، فمضى في قراءته ، ولما انقلب إلى الرشيد، قال : يا أمير المؤمنين ، إن كنت وعدت الكسائي وعدا فإنه يستنجزه ، قال : إنه كان استوصلني للقراء فوعدته، فهذا هو الذي قال لك، فقال المأمون: إنه لم يقل لي شيئا، وأخبره بالأمر، فتمثل الرشيد بقول القائل في ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام :

[**الطويل**]

ورثت أبا بكر أباك ثباته ... وسيرته في ثابت وشمائله

وأنت امرؤ ترجى بخير وإنما ... لكل امرىء ما أورثته أوائله

وقيل : إن الرشيد ناظر يحيى بن خالد فيمن يعهد إليه من ولده أولا، وعلم يحيى ميله إلى زبيدة أم الأمين ، وأنه يؤثر هواها، فحطب في حبلها، فأحضر الرشيد الأمين والمأمون وهما صبيان ، فأغرى بينهما، فأسرع الأمين إلى المأمون فنال منه، وكان المأمون أحلمهما، ثم إنه أمرهما أن يتصارعا ، فوثب الأمين ولزم المأمون مكانه، فقال له الرشيد: ما لك لا تقوم يا عبد الله، أخفت ابن الهاشمية، أما إنه أيِّد، فقال المأمون : وهو على ما ذكره أمير المؤمنين ، ولكني لم أخفه،

---

(١) الصف ٢ .

وإنما قبض يدي عنه ما قبض لساني حين أسمعني، فقال له الرشيد : فما الذي قبض يدك ولسانك عنه، قال : قول الأموي لبنيه يوصيهم :

[**الكامل**]

اتقوا الضغائن بينكم وتواصلوا عند الأباعد والحضور الشُّهَدِ
فصلاحُ ذات البين طولُ بقائكم ودماؤكم بتقطُّعٍ وتفرُّدِ
فلمثلِ ريبِ الدهرِ والكف بينكم بتعاطفٍ وترحم وتوددِ
حتى تلين جلودُكم وقلوبكم لمسوِّدٍ منكم وغير مسوَّدِ
إن القداحَ إذا جُمعنَ فرامها بالكسر ذو حنقٍ وبطشٍ أيِّدِ
عزَّتْ فلم تُكسر وإن هي بددتْ فالوهنُ والتكسير للمتبددِ[ص ١٣٩]

فرقَّ الرشيد رقةً شديدة ، واغرورقت عيناه بالدموع فكفكفها، ثم أقبل على الأمين فقال : يا محمد، ما أنت صانع إن صرف الله إليك أمر هذه الأمة ؟ فقال : أكون مهديا يا أمير المؤمنين، فقال الرشيد : إن تفعل فأهل ذاك أنت ، ثم أقبل على المأمون فقال : يا عبد الله، ما أنت صانع إن صرف الله إليك أمر هذه الأمة، فابتدرت دموع المأمون، وفطن الرشيد لما أبكاه ولم يملك عينيه، فأرسلهما، وبكى يحيى ، فلما قضى من البكاء إرباً عاد الرشيد لمسألة المأمون ، فقال : اعفني يا أمير المؤمنين ، قال الرشيد : عزمت عليك أن تقول، فقال : إن قدر الله ذلك جعلت الحزن شعارا، والحزم دثارا، واتخذت سيرة أمير المؤمنين مشعرا لا تستحل حرماته، وكتابا لا تبدل كلماته، فأشار الرشيد إلى الأمين والمأمون بالانصراف، ثم ذهبا، ثم أقبل على يحيى وأنشده بيت صخر بن عمرو :

[**الطويل**]

أهم بأمر الحزمِ لو أستطيعه وقد حيلَ بين العير والنزوانِ

فقال له يحيى : قد هيَّأ الله لأمير المؤمنين من أمره رشدا، وكان محبا في لعب الشطرنج، وكان يقول : هو فكري يشحذ الذهن ، ولم يكن فيه حاذقا، وكان يقول : أدير أمر الدنيا فأتسع فيه وأضيق في تدبير شبرين في شبرين ، وفيه يقول :

[البسيط]

أرضٌ مربعةٌ حمراءُ من أدَمٍ ... ما بين إلفينِ مخصوصينِ بالكرمِ
تذاكرا الحرب فاحتالا لها مثلا ... من غير أن يأثما فيها بسفكِ دمِ

وأما خروج عمه إبراهيم بن المهدي عليه، فكان سببه أن المأمون لما أراد أن يصرف الخلافة إلى علي بن موسى الرضا[1]، وبدَّل السوادَ بالخضرة، نقم عليه بنو أبيه، فلما كان بخراسان خلع أهل بغداد طاعته وبايعوا ابن المهدي، ولقبوه بالمبارك، فلما تمهدله الأمر أساء إلى الجند ومنعهم أرزاقهم، فاضطربوا عليه وخلعوه يوم الجمعة سنة ثلاث ومائتين، وكانت [ص١٤٠] مدته نحو سنة، واختفى، وبلغ المأمون الخبر فأتى بغداد فدخلها يوم السبت سادس عشر صفر سنة أربع ومائتين، ولم يزل ابن المهدي مختفيا إلى أن خرج متنقبا على هيئة امرأة بين امرأتين ليلة السابع عشر من ربيع الآخر سنة عشرة ومائتين، فأخذه

(١) علي الرضى : علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، أبو الحسن، الملقب بالرضى، ثامن الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، من أجلاء أهل البيت وفضلائهم، ولد بالمدينة ، وكان أسود اللون، أمه حبشية، وأحبه المأمون العباسي فعهد إليه بالخلافة من بعده، وزوجه ابنته ، وضرب باسمه على الدينار والدرهم، وغيَّر من أجله الزي العباسي الذي هو السواد فجعله أخضر، وكان هذا شعار أهل البيت، فاضطرب العراق، وثار أهل بغداد فخلعوا المأمون وهو في (طوس)، وبايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي ، فقصدهم المأمون بجيشه ، فاختبأ إبراهيم ثم استسلم فعفا عنه المأمون، ومات الرضى في حياة المأمون بطوس ، فدفنه بجانب أبيه الرشيد، ولم تتم له الخلافة، وعاد المأمون إلى السواد، فاستألف القلوب ورضي عنه الناس، كانت وفاة الرضى سنة ٢٠٣ هـ .
(الطبري ١٠ / ٢٥١، ابن الأثير ٦ / ١١١، نزهة الجليس ٢ / ٦٥، ابن خلكان ١ / ٣٢١)

الحرس على أنهم عواهر، فأعطاهم خاتما من ذهب فصه ياقوت يساوي مالا عظيما فأنكروا ذلك وحملوه إلى صاحب الشرطة فعرفه، وحمله إلى المأمون فأمر به ، فجُعل في مكان، فلما كان من الغد أخرج وأظهر للناس على ما أمسك عليه، فقال له المأمون : هيه يا إبراهيم ، فقال: يا أمير المؤمنين، إن ولي الثأر محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل ذنب، كما جعل كل ذنب دونك، فإن عاقبت فبحقك، وإن عفوت فبفضلك، فقال له المأمون : بل نعفو يا إبراهيم، فكبَّر، ثم خرَّ ساجدا، فلما رفع رأسه أنشده :

[الطويل]

يا خير من وخدت به شدنيةٌ ... بعد الرسول لآيسٍ أو طامعِ
متيقظاً حذرا وما يخشى العدى ... يقظان من وسناتِ يوم الهاجعِ
ملئت قلوب الناس منك مخافة ... وتبيت تكلؤهم بقلبٍ خاشعِ
نفسي فداؤك أن تضيق معاذري ... والود منك بفضل حلم واسع
أملا لفضلك والفضائل شيمة ... رفعت ثناءك بالمحل النافع
فبذلت أفضل ما تضيق ببذله ... وسع النفوس من الفعال البارعِ
وعفوت عن من لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع إليك بشافع
إلا العلو عن العقوبة بعد ما ... ظفرت يداك بمستكن خاضع
ورحمت أطفالا كأفراخ القطا ... وعويل عانسة كقوسِ النازعِ
الله يعلم ما أقول فإنها ... جهد الألية من حنيفٍ راكعِ
ما إن عصيتكَ والغواةُ تقودني ... أسبابها إلا بنيةِ راجعِ
حتى إذا علقت حبائل شقوتي ... بردا إلى حفر المنيةِ هانعِ[ص ١٤١]
لم أدرِ أنَّ لمثلِ جرمي غافرٌ ... فوقفتُ أنظرُ أي حتفٍ صارعي
ردَّ الحياةَ عليَّ بعدَ ذهابها ... وَرَعُ الإمامِ القادر المتواضعِ

أحـــيــاكَ من ولأكَ أطــول مــدةٍ ... ورمى عـدوكَ في الوتين بقـــاطـع
أسـمـام مـا أدلى إليك بحـجـةٍ ... إلا التـضـرع من مُـقـرٍ خـاضـع
كـم من يـدٍ لك لم تحـــدثني بهـا ... نفـسي إذا ثابت إليَّ مطامـعي
أسـديتُـهـا عـفـواً إليَّ هنيئةً ... فـشكرت مـصنعـهـا لأكـرم صانـع
إن الذي قـسـم الخـلافـة حـازها ... في صلبِ آدمَ للإمـامِ السـابعِ
جـمـع القلوبَ إليك جـامع أمـرهـا ... وحـوى رداؤك كل خيـرٍ جـامع

فلما فرغ منها قال له : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)[١]، ثم أمر بالخلع فخلعت عليه، وصرف عليه أمواله وضياعه، فأنشده :

[البسيط]

رددتَ مـالي ولم تبـخـل عليَّ بـهِ ... وقـبلَ ردِّك مـالي قـد حـقنت دمي
فـبؤت عنك ومـا كـافـأتـهـا بيـد ... هـمـا حـيـاتان من مـوتٍ ومن عـدم
البـرُّ منك وطَّـا العـــذر عنـدك لي ... فـيـمـا أتيت فلم تعـدل ولم تـلمِ
وقـام علمك بي فـاحـتج عندك لي ... مـقـام شاهد عـدلٍ غـيـر متـهمِ
تعـفـو بعـدلٍ وتسطو إن سطوتَ بـه ... فـلا عـدمناك من عـافٍ ومنتـقـمِ

ثم شفعت فيه بوران ، فقربه ونادمه ، ولم يزل مكرما مبرورا إلى آخر عمره .

وكان سبب موت المأمون أنه كان على نهر البذندون[٢] مدليا ساقيه في الماء،

---

(١) يوسف ٩٢ .

(٢) البذندون : قرية بينها وبين طوس يوم، من بلاد الثغر، مات بها المأمون فنقل إلى طرسوس فدفن بها، ولطرسوس باب يقال له باب بذندون عنده في وسط السور قبر المأمون ، وكان خرج غازيا فأدركته وفاته هناك . (ياقوت : بذندون)

قال : ما رأيت أبرد من هذا الماء، ثم ذاقه وقال : ما أطيب طعمه، ثم التفت إلى سعيد بن الصلاف قال : أي شيء يصلح أن يؤكل عليه ، قال : أمير المؤمنين أعلم، قال : الرطب الأزاد، قال : أنَّى لنا به في بلاد الروم ، فما تم كلامه حتى سمع لجم البريد، فالتفت فرأى على أعجازها أحقاب فيها ألطاف، ومنها رطب أزاد ،فحمد الله هو ومن كان معه، فما قام أحد ممن أكله إلا محموما، فكان ذلك أول علته ، ثم ظهرت له في رقبته نفخة ، كانت تعتاده ، فأخطأ[ص١٤١] الطبيب في فتحها قبل النضج فهلك، ويقال إنه لما خرج في تلك الغزاة، صاح في أحد تلك الليالي لغلام اسمه سقير، وقال له : ويلك من يغني ، قال : ما يغني أحد، قال : ثم تسمعت فلم أسمع شيئا ، فقلت : ما أسمع حسا، قال : بلى والله إنه كان يغني :

[الوافر]

ألم تعجب لمنزلةٍ ودورٍ خلت بين المشقرِ والحرورِ
كأنَّ بقيَّةَ الآثارِ فيها بقايا الخطٍّ من قلمِ الزبورِ

ثم اعتل في الليلة الثالثة .وحكى ابن المهدي قال : رأيتُ في منامي كأن جاريةً من جواري الرشيد، وفي يدها عود، وهي على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تنشد :

[الخفيف]

سوف يأتي الرسولُ من بعد شهرٍ بنَعِيٍّ الخليفة المأمونِ

قال : فقلت هذه مفسرة، فجاء نعيه بعد شهر، وولد سنة سبعين ومائة ، وتوفي سنة ثمان عشر ومائتين ، وعمره ثمان وأربعون سنة وشهور، ومدته عشرون سنة وستة أشهر، وقبره على البذندون بطرسوس من بلاد الروم .

ثــم :

٦٢ - دَوْلَةُ المُعْتَصِمِ باللّهِ

أبي إسحاق محمد[١] بن هارون الرشيد، عهد إليه أخوه المأمون وشهد بأهليته هو والمسلمون، ونطقت أسنة السنة فما كذبت، وصدقت مضارب سيوفه فما نبت، وكان فارسا شجاعا بطلا مناعا، راميا محاميا بصيرا بمواقع الحرب، وترتيب الجيوش، وقتل الأعداء ، وحملهم من رماحه على النفوس ، وكان كما يوسم اخوه مخيلة عارضه الهتون، وخميلة أرضه الهرون، واستكثر من الغلمان الأتراك، وأحل كبراء هم منه بمكان الاشتراك، حتى حدث بعده منهم ما حدث، وأحدثوا ما لو شعر به لقام لا يواريه حدث، فإنهم فعلوا ما كانوا دون قدره، وقتلوا من بنيه من يلوث بدمه الصباح وهاطراطيشه[٢] على شفق فجره ، فأما في زمان المعتصم ، فإنهم كانوا في مزيد الاستطاعة

(١) المعتصم : محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور، أبو إسحاق المعتصم بالله ، خليفة من أعاظم خلفاء بني العباس، بويع بالخلافة سنة ٢١٨هـ، يوم وفاة أخيه المامون وبعهد منه، وكان بطرسوس وعاد إلى بغداد بعد سبعة أسابيع، وكان قوي الساعد يكسر زند الرجل بين أصبعيه ، ولا تعمل بجسمه الأسنان، وكره التعليم منذ الصغر ، فنشأ ضعيف القراءة ، يكاد يكون أميا ، وهو فاتح عمورية من بلاد الروم الشرقية، و باني مدينة سامراء سنة ٢٢٢هـ، حين ضاقت بغداد بجنده، وهو أول من أضاف اسم الله تعالى إلي اسمه من الخلفاء ، كان لين العريكة رضي الخلق، اتسع ملكه جدا، وكان له سبعون الف مملوك، خلافته ٨ سنين و٨ أشهر وخلف ٨ بنين و٨ بنات، وعمره ٤٨ سنة، كان أبيض اللون أصهب حسن الجسم مربوعا طويل اللحية، توفي بسامراء سنة ٢٢٧هـ .

(الطبري ١١ /٦،تاريخ بغداد ٣ /٣٤٢، مروج الذهب ٢ / ٢٦٩ ـ٢٧٨ ، ابن الأثير ٦ /١٤٨ ـ ١٧٩، اليعقوبي ٣ /١٩٧، فوات الوفيات ٢ / ٢٧٠ النبراس ص ٦٣ ـ ٧٣ ، البدء والتاريخ ٦/ ١١٤).

(٢) كذا جاءت الكلمة ، ولم أهتد إلى معناها .

(والمقصود وهذه هي آثاره) . (أي آثار دمائهم) .

عبيد[ص١٤٣] الطاعة، إلا أن منهم من قسا ووكل السيف في عقابه لما أسى، ويكفي المعتصم نوبة عمورية[1]، وما ظهر فيها من عزيمته المصممة ، وشكيمته المهيمنة، وأنه لما هتفت باسمه تلك المرأة مرة ، هفت إليها طلائع الممرة، وقال: لا يكشف الغمى إلا ابن حرة، وقاد إليها عسكرا يتشكى الشتاء البارد حره، فأتى عمورية وهو يرى غمرات الموت ، ثم يزورها وقاسم أهلها سيوفه، فكانت في عساكره غواشيها، وفيهم صدورها، حتى يسر الله له فتحها ، وقدر له منحها، ويقال إنه افتر في يوم شديد البرد من أيامه عليها أربعة آلاف قوس ، ورمى على كل قوس منها سهما، وكان يوما يود بياض نهاره لو كان لوقود النار فحما ، ولم يكن المعتصم يعاب إلا بأمية فيه ، وبأنه عمل في المحنة بوصية أخيه ، فأخذ الناس بها ، وواخذ من امتنع ودعاهم إليه بالسيف والسوط، وجرى زمانه كله لا يني على هذا الشوط، حتى ألزم بكلمتها ، وشوه وجوه أيامه البيض بظلمتها، على أنه لم يكن إذا علم عمل به فاتبعه، وعلم أنه الحق فشرعه، إلا أنه سمع قولا ظنه الصدق فأيده، وتلقى وصيته عن أخيه فعمل بها وقلده، وسئل أحمد بن حنبل[2] فأيده الله بالقول الثابت، وأبلاه بأنواع البلاء وهو بمواجهته بالإنكار لقوله متكلم لا ساكت .

وكان مغرى بالاستكثار من الأتراك، ما مات حتى كمل ثلاثين ألفا منهم، وكان معظما لهم موفرا نصيبهم ، حكي أنه أجلس مملوكه أشناس إلى جانبه على كرسي، وتوجه بتاج من ذهب، ووشحه بوشاحي ذهب مرصعين بالجواهر، وطوّقه بطوق ذهب مجوهر بقطع يواقيت أصغرها زنة عشرة مثاقيل، وسوَّره بسواري ذهب ، وعقد له ثلاثة ألوية، وحمله على فرس أدهم أغر من مراكيب

---

(١) عمورية : بلد في بلاد الروم، غزاه المعتصم حين سمع شُراة العلوية تستنجد به، قيل : سميت بعمورية بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح . (ياقوت : عمورية)

(٢) الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ ، سبقت ترجمته .

الخلافة بسرج ثقيل ذهب مرصع بالجوهر واللؤلؤ الثمين ، وقاد خلفه سبعة أفراس، وعمل له موكبا يحمل فيه السلاح والعمد والطبرزينات[١] والتراس والخزانة، وغير ذلك من شعار الملوك، وخاطبه بملك الأمراء[ص١٤٤]، وكذلك صنع ببابك الخرمي في التعظيم والتكريم، حتى اطلع على سوء معتقده، فجعله همَّه، حتى أصاره إلى ما صار، وأحله وبعض ما يستحق دار البوار.

وعن محمد بن القاسم قال : دخل المعتصم يوما إلى خاقان يعوده، فرأى ابنه الفتح وهو صغير لم يتعد، فمازحه ثم قال : أيما أحسن دارنا أم داركم ، فقال الفتح : يا سيدي ، دارنا إذا كنت فيها أحسن، فقال المعتصم : لا أبرح أو ينثر عليه مائة ألف درهم، فأحضرت ونثرت عليه .

وحكى علي بن الحسين بن عبد الأعلى : أن عبد الله بن طاهر أهدى إلى المعتصم شهرس[٢] ملمع من ذكران خراسان لم يخرج مثلهما، فسأله بغا[٣] أن يحمله على أحدهما، فأبى وقال : تخيَّر غيرهما ما شئت فخذه، قال : فخرجنا ولم نأخذ شيئا، فلما صرنا بطبرستان[٤]عرض له قوم من أهلها، فقالوا له : إن في بعض هذه الغياض سبعا قد استكلب على الناس وأفناهم، فقال : إذا أردت الرحيل غدا كونوا معي حتى أقف على موضعه، فأخذوه في عشرين فارسا من

(١) الطربزين : فارسي ومعناه فأس السرج، لأن فرسان العجم تحمله معها يقاتلون به .
(المعرب ص ٢٢٨)

(٢) كذا في الأصل وقد تكرر فيما سيأتي، ولعله (المهر) بالفارسية ، أو حيوان آخر يركب .

(٣) بغا : أحد قواد المعتصم من الأتراك .

(٤) طبرستان : بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم ، والغالب على هذه النواحي الجبال ، فمن أعيان بلدانها : دهستان وجرجان واستراباذ وآمُل ، وهي قصبتها ، وسارية ، وهي مثلها ، وطبرستان في البلاد المعروفة بمازندران، وهذه البلاد مجاورة لجيلان وديلمان ، وهي بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم والجبل . (ياقوت : طبرستان)

غلمانه، ومعه قوسه ونشابتان في منطقته ، فصاروا به إلى مكانه ، وثار السبع في وجهه، فحرك فرسه من بين يديه، وأخذ نشابة من النشابتين فرماه في لبَّته ، فمرَّ السهم فيها إلى الريش، وركب السبع رأسه ، قال : وعاد بغا إليه فما اجترأ أحد على النزول إليه ، حتى نزل بغا فوجده ميتا، قال : فشبرناه فكان من رأسه إلى رأس ذنبه ستة عشر شبرا، ووجدناه أحص الشعر[1]، إلا معرفته[2]، قال : فكتبنا بخبره إلى المعتصم، فلحقنا جواب كتابنا بحلوان[3] يذكر فيه أنه قد تفاءل بقتل السبع أن يكون من علامات الطف ببابك، ووجه إلى بغا بالشهرس وسبعة أفراس من خاصة مراكيبه بمراكب يقال من الذهب، وسبعة خلع من خاصة خلعه، وخمس مائة ألف درهم صلة له وجزاء على قتله السبع .

قال زنام الزامر[4]: أفاق المعتصم في علته التي مات فيها [ص ١٤٥] فركب في الزلال[5] في دجلة، وأنا معه فمر بإزاء منازله ،، فقال: يا زنام ازمر لي :

[السريع]

يا منزلا لم تبلُ أطلاله حاشا لأطلالك أن تبلى

---

(١) الأحص : الذي لا يطول شعره .

(٢) المعرفة : موضع العرف من الطير والخيل، والعُرف : شعر عنق الفرس والأسد .

(٣) حلوان في عدة مواضع، حلوان العراق وهي في آخر حدود السوادمما يلي الجبال من بغداد، وهي مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة وواسط وسر من رأى أكبر منها ، وهي بقرب الجبل ، وليس للعراق مدينة قرب الجبل غيرها . (ياقوت : حلوان)

(٤) زنام الزامر : أول من اشتهر من العرب باستعمال الناي، وذهب بعضهم إلى أنه أول من أحدثه، وكانت العامة في المغرب أيام الشريشي(١٣٥هـ) تسمي الناي (الزلامي) تحريفا عن (الزنامي) نسبة إلى زنام، وكان من مطربي الخلفاء الرشيد والمعتصم والواثق، وله معهم أخبار ، وكان يضرب بزمره المثل، توفي سنة ٢٣٥ هـ .

(شرح المقامات ـ الشريشي ١ / ٢٨٢، تاج العروس ٨ / ٣٣٠)

(٥) الزلال : من السياق يدل على مركب سريع من مراكب الأنهار، ولم أجد الكلمة في كتب المعاجم.

لم أبكِ أطلالك لكنني بكيت عيشي فيك إذ ولّى
والعيش أولى ما بكاه الفتى لابد للمحزون أن يسلى

قال : فما زلت أزمر هذا الصوت وأكرره ، وقد تناول المعتصم منديلا بين يديه ، فما زال يبكي وينتحب حتى كاد بدموعه ينتقب، ثم رجع إلى منزله فاحتضر، وجاء ه من الموت أمر قد قدر، وجعل يقول : ذهبت الحيلة، ليست حيلة، إلى أن مات لثمان عشرة مضت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين بسامراء ، ومدته ثمان سنين وثمانية أشهر ويومان، ومولده سنة سبع وتسعين ومائة ، ولما مات صنع للواثق لحنا وغنى به فيه وهو :

[الوافر]

أبتْ دارُ الأحبّةِ أنْ تبينا أجدكَ ما رأيتَ بها معينا
تقطّعُ حسرةً من حُبِّ ليلى نفوسٌ ما أثبنَ وما جُزينا

ثم :

٦٣ - دَوْلَةُ الواثِقِ باللَّهِ

أبي جعفر هارون[١] بن محمد المعتصم ، ولما ولي استمر بعوائد أبيه وعمه

---

(١) الواثق بالله : هارون بن محمد(المعتصم بالله) بن هارون الرشيد، أبو جعفر، من خلفاء الدولة العباسية بالعراق، ولد ببغداد، وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٢٢٧هـ، فامتحن الناس في القول بخلق القرآن، وسجن جماعة وقتل في ذلك أحمد بن نصر الخزاعي بيده سنة ٢٣١هـ ، كان في كثير من أموره يذهب مذهب المأمون، وشغل نفسه بمحنة الناس في الدين فأفسد قلوبهم، كان كريما عارفا بالأدب والأنساب، طروبا يميل إلى السماع، عالما بالموسيقى، وكان مسرفا في حب النساء، ووصف له دواء للتقوية فمرض منه، وعولج بالنار فمات محترقا سنة ٢٣٢هـ . خلافته خمس سنين وتسعة أشهر .

(تاريخ بغداد ١٢٤/١٥، الطبري ١١/٢٤، ابن الأثير ٧/١٠، الأغاني ٩/٢٧٦ ـ ٣٠٠، مروج الذهب ٢/٢٧٨ ـ ٢٨٨ النبراس ص٧٣ ـ ٨٠)

المأمون، ولاب على موارد المحنة، ولاث مفارق من خالفه بعصائبه المهينة، واشتد في التحرج بهذا المذهب، والتولج في ظلمة هذا الغيهب، وكان كريما جوادا وله اعتلاء في الأدب واعتناء به، ينسل إليه أهله من كل حدب، وكان له صنعة في الموسيقى، وروي له فيها أعمال تحرك الصخور، وتحرض سامعها على اغتنام أيام السرور، وكان مع هذا مهيبا موقرا في الصدور، موقى بمهابة أمنع من النسور، وكانت له على الأتراك حرمة خطرت على خواطرهم الخطرات، وقصرت لواحظهم تحت سجف العبرات، وكان إذ اذكر لهم تريع بهم أوهامهم وترتعد [ص١٤٦] مفاصلهم فما تقلهم أقدامهم .

وحكى ابن أبي دواد(١) عنه كلاما معناه : حضرته وهو قاعد يتنفش، وبيد بعض الغلمان مرآة كأنها درهم في كف مرتعش والغلام يتجلل فرقا، ويتكلل جبينه عرقا، كأنه في عقابيل حمَّى، أو في وبيل حمَّى سقي به سما، قد نكس إلى الأرض كأنه راعف، أو كأنه ينظر موضع مصرعه وهو واقف، وحكي أنه مات وأكلت السنور عينه ، وغلمانه صفوف وقوف على بعد منه ، فما منهم من تجاسر أن يتقدم إليه ويكشف خبره ، ولا يرفع إليه طرفه ويتحقق نظره .

وعن أبي مالك جرير بن أحمد بن أبي دواد قال : قال الواثق يوما لأبي تضجرا بكثرة حوائجه، يا أحمد، قد اختلت بيوت الأموال بطلباتك للائذين بك، والمتوسلين إليك، فقال : يا أمير المؤمنين، نتائج شكرها متصلة بك، وذخائر أجرها مكتوبة لك، وما لي من ذلك إلا عشق إيصال الألسن بحلو المدح فيك، قال : يا أبا عبد الله، والله لا يمنعك ما يزيد في عشقك، ويقوي من

---

(١) في الأصل : داود، والمراد أحمد بن أبي دواد قاضي القضاة، ورأس فتنة القول بخلق القرآن، أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، كان شديد الدهاء، اتصل بالمامون ثم المعتصم وجعله قاضي قضاته، أصيب بالفالج وتوفي سنة ٢٤٠هـ .

(تاريخ بغداد ٤ / ١٤١ ـ ١٥٦، ابن خلكان ١ /٢٢، البداية والنهاية ١٠ /٣١٩)

همتك فينا ولنا، ثم لم يتضجر بعدها بحاجة يعرضها عليه .

وحكي أنه لما ثقل في علته التي مات فيها خُيِّل إلى الأتراك وقد أغمي عليه أنه قضى ، فدنا منه تركي يقال له إيتاخ ليعلم هل مات أم لا ، فلما دنا منه فتح عينيه ونظر إلى إيتاخ فرجع القهقرى ، فانتشب طرف سيفه بالباب فاندق وسقط إيتاخ على قفاه لما نظره هيبة له ، ورعبا لما داخله من النظر إليه، ثم لم يمر على الواثق إلا ساعة حتى مات، فأُخِذ وجُعِل في بيت ، فما أقام إلا يسيرا فوجد وقد أخرجت الفارة عينه، فسبحان القادر الفعال لما يريد، لا إله إلا هو، ثم كان بموته قوة شوكة الأتراك .

ثـم :

٦٤ – دَوْلَةُ المُتَوَكِلِّ علىٰ اللَّه

أبي الفضل جعفر[١] بن محمد المعتصم ، بدأ أمره بكشف المحنة، ودحا مجاري سبيلها، ومحا آية ليلها، وأطلق من ضاقت بهم السجون من المصرِّين على إنكارها، والمصرحين [ص ١٤٧] بسوء آثارها، ونزه القرآن الكريم ، وقال : إنه منزل غير مخلوق، وصفة من صفات الله القديمة سابقا، غير مسبوق، فأيد

(١) المتوكل : جعفر (المتوكل على الله) بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرشيد، أبو الفضل ، خليفة عباسي، ولد ببغداد وبويع بعد وفاة أخيه الواثق، سنة ٢٣٢هـ، وكان جوادا ممدحا محبا للعمران ، من آثاره (المتوكلية) في بغداد، ولما استخلف كتب إلى أهل بغداد كتابا قرىء على المنبر بترك الجدل في القرآن، وأن الذمة بريئة ممن يقول بخلقه أو غير خلقه، ونقل الخلافة من بغداد إلى دمشق، فأقام بها شهرين، فلم يطب له مناخها، فعاد وأقام في سامراء، إلى أن اغتيل فيها ليلا باغراء من ابنه (المنتصر)، ولبعض الشعراء هجاء في المتوكل لهدمه قبر الحسين وما حوله سنة ٢٣٦هـ، كان محبا للهو والطرب، قتل سنة ٢٤٧ هـ .

(الطبري ١١ / ٢٦، ٦٢ ، ابن الأثير ٧ / ١١، ٢٩، مروج الذهب ٢ / ٨٨، تاريخ بغداد ٧ / ١٦٥، اليعقوبي ٣ / ٢٠٨ تاريخ الخميس ٢ / ٣٣٧)

الحق ونصره ، وسدد إليه رأيه وبصره، إلا أنه كان مزورًا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويرمى ببغضه، ويغري من لا خلاق له بحط مقداره وغضه، حتى قيل إنه كان يأمر مخنثا كان عنده اسمه عبادة، أن يصنع له بطنا تشبها بعلي رضي الله عنه، ثم يأمره بأن يرقص ويغني له بما ننزه كتابنا عن ظلمه، وندع قائله وما باء بإثمه، وكان يتمضمض بذكره بكذب يضعه ، واختلاق يرفعه الله به ، كلما أراد أنه يضعه، حتى قيل إن ابنه المنتصر كان يحرج قلبه هذا الاستهتار، ويقدح عنده نارا طار منها ذلك الشرار، وأنه دخل عليه يوما وذلك المسخر قد تلبس بهذه الحال ، ونمق وقته بزخرف ذلك المحال، والمتوكل قد استغرب ضحكا، واستعذب بذوقه السقيم ما يحكى فنهى المسخر وزجره، ثم تقدم إلى أبيه ولامه وما عذره، وقال له : يا أمير المؤمنين ، إنما هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولولم يكن له ما له من الفضل لكان ابن عمك، وإنما تأكل قطعة من لحمك، ثم وعظه ونهاه ونصحه، لو قبل نصحه، أو وعاه فما صبر إلا ريثما ولى، ثم أمر ذلك المسخر الطرف الوضيع الساقط ، أن يغني ويقول :

[مجزوء الكامل]

غضب الحبيب لابن عمِّهْ ... رأس الفتى في كس أمهْ

قد قال تأكلُ لحمهُ ... فأجبتهُ يا طيبَ لحمهْ

وأمره أيضا أن يغني ويقول :

غار الفتى لابن عمهْ ... رأسُ الفتى في حِرِّ أمهْ

فلما قتل المتوكل والفتح بن خاقان، قتل معهما ذلك الساقط الحقير، وعجل بروحه إلى النار وبئس المصير ، وكان المتوكل مغرى بالبناء ، وأنفق [ص ١٤٨] فيه خزائن آبائه، وأسرع فيه دبيب الفناء ، فبنى من المنازل قصورا تتضاءل لها المنازل قصورا، ولما أزال المحنة جمع الناس على مذهب مالك بن أنس رحمه الله، وإنما

كان في الانحراف عن علي كرم الله وجهه في الغاية التي ما بعدها، وأمر بهدم قبر السيد الحسين بن علي عليهما السلام ، وخراب ما حوله من المساكن ، وأن تحرث وتزرع ، فعمل فيه الناس أشعارا ، من أحسن قول بعضهم :

[الكامل]

تالله إن كانت أميةُ قد جنتْ   قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد رماه بنو أبيه بمثلها   أضحى حسينُ قبره مهدوما
أسفوا على ألا يكونوا شاركوا   في قتله فتتبعوهُ رميما

ولد في (..... ....)[1] وقُتل ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين بالسيوف في مجلس الشراب، باتفاق مع ابنه المنتصر وبغا التركي .

ثم :

٦٥ - دَوْلَةُ المُنْتَصِرِ باللَّهِ

أبي جعفر محمد[2] بن جعفر المتوكل، انتصر لابن عم نبيه، وانتصب له انتصاب حمي الأنف أبيِّه ، وانتصف لذي قرابته من أبيه ، وأرتعه في وبيل

(١) بياض في الأصل بقدر ثلاث كلمات .

(٢) المنتصر بالله : محمد بن جعفر (المتوكل) بن المعتصم، أبو جعفر، من خلفاء الدولة العباسية، ولد في سامراء ، وبويع بالخلافة بعد مقتل أبيه سنة ٢٤٧هـ ، وفي أيامه قويت سلطة الغلمان، فحرضوه على خلع أخيه المعتز والمؤيد، وكانا وليي عهده، فخلعهما، وهو أول من عدا على أبيه من بني العباس فقتله، ولم تطل مدته ، وكان إذا جلس إلى الناس يتذكر قتله لأبيه فترتعد فرائصه، قيل : مات مسموماً بمبضع طبيب ، ومدة خلافته ستة أشهر وأيام ، توفي سنة ٢٤٨هـ .
(الطبري ١١ / ٦٩ـ ٨١، ابن الأثير ٧ / ٣٢، ٣٦، تاريخ بغداد٢ / ١١٩، المسعودي ٢١ / ٣١١ ـ ٣١٩، فوات الوفيات ٢ / ١٨٤، الأغاني ٩ / ٣٠٠)

المرعى وبيِّـه[١]، وانتـضى له سر العـهـد والعـمـد، وطوقـه بجنيـه، وأوطى عليـه صـوارم الأتراك، ووالى إليـه عزائـم الإدراك، حـتى قـتل تلك القـتلة، وبرد غـيظه، وشفى الغلة، لهذا مُنّي بالهُلكِ بعـده، وما هُـنّـيء بالمُلْـكِ ولا طالت له مدة، فكانت قضيته شبيهة بقضية شيرويه[٢]، كلاهما قتل أباه، فما قبل الملك بملكه وأباه، فما سعى إلى السرير السرير حتى قصرت خطوة أجله، وقصرت سطوة المنايا على عجله، فحقرت كتب التهاني بالتعازي، ووسمت سمة فعله بالمحاسن والمخازي، فمن حمله على أنه غار لله لابن عم رسوله شكره، ومن حمله على أنه غال أباه للملك لم يكفر له ذنوبه المعذرة، ومن يوم مدت الأيدي بالمبايعة إليه قال الناس : هذا لا تزيد أيامه على مدة [ص١٤٩] شيرويه، وكان من غريب الاتفاق أنه بُسط في ذلك اليوم بساط ، جاءت قدام مقعد المنتصر صورة مصورة ، وحولها أسطر مسطرة ، فأحضر من قرأ له ذلك الخط وعرَّبه ، فوجد مضمون أحرفه المكتتبة ، هذه صورة شيرويه قتل أباه، فما دامت أيامه، ولا هُـنِّيء بالملك بعده، فتطير المنتصر من ذلك، وتقررعنده أنه هالك، فلما هلك، عجب الناس من ذلك الوفاق ، حتى ظن بعضهم أن هذا وقع بالقصد لا بالاتفاق .

وحكى أحمد بن الخصيب ، خرج يوما مسرورا، فقال : إن أمير المؤمنين رأى كأنه صعد درجة ، حتى انتهى إلى خمس وعشرين مرقاة ، ثم قيل له قف، هذا آخر عمرك، فتأولها ابن الخصيب الخلافة، وإنما كانت جميع عمره، فعاش بعد

---

(١) وبيِّه : أي وبيئه ، كثر فيه الوباء .

(٢) شيرويه بن كسرى أبرويز : كان عظماء الفرس قد قالوا له : إما أن تأمر بقتل أبيك ، وإما أن نطيعه ونخلعك، فأمر بقتل أبيه على كره منه ، فلما قتل أبوه شق عليه ذلك وندم ، ثم أمر بقتل قاتل أبيه وهو شاب اسمه مهر هرمز بن مرد انشاب، ثم إن شيرويه قتل إخوته فهلك منهم سبعة عشر أخا ، ثم جزع عليهم . (الكامل ـ ابن الأثير ١ / ٣٨٥ ط بيروت ١٩٩٥)

ذلك أياما ومات، وحسب عمره فكان قد أكمل خمسا وعشرين سنة حصل له ورم حار فيه البتة من نزلة حادثة، فمات بعد ثلاثة أيام ، وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين، وكانت خلافته ستة أشهر ويومين، وعمره خمسا وعشرين سنة ونصفا، وكان أعين أقنى قصيرا مهيبا، عظيم الجثة من حدوثها، وقيل ، وهو الأكثر، إنه وجد حرارة ففُصد بمبضع مسموم ، فمات ، ومن العجب أن الطبيب الذي فصده احتاج إلى الفصد، فأمر تلميذه بفصده، فأخرج له مباضع ، وفيها ذلك المبضع المسموم ، وقد نسيه ، ففصده به فمات ، وقيل : بل أصابته علة في رأسه فقطر الطبيب ابن طيفور في أذنه دهناً، فورم رأسه ومات ، وقيل : غير هذا، وكان ينشد لما اشتدت به العلة :

[**الطويل**]

فما فرحتُ بدنيا أخذتها ✽ ولكن إلى الرب الكريم أصيرُ
وما كان ما قدمته رأي فلتة ✽ ولكن بفتياها أشار مشيرُ

ويروى أنه قال لابنه لما أحس بالموت : عالجت فعولجتُ .

ثم :

٦٦- دَوْلَةُ المُسْتَعِيْن باللَّه

أبي العباس أحمد[1] بن محمد المعتصم [ص١٥٠] ولي بالمشاورة، وبُلي

---

(١) المستعين بالله : أحمد بن محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد، أبو العباس، من خلفاء الدولة العباسية في العراق، ولد بسامراء، وكانت إقامته فيها، وبويع فيها بعد وفاة المنتصر ابن المتوكل سنة ٢٤٨هـ، ولم يكن مؤهلا للخلافة ولكن بعد وفاة المنتصر استوحش الأتراك أولاد المتوكل فبايعوه، وكان المتحكم في الدولة (أوتامش) التركي ورجاله، فثارت عصبة من الأتراك والموالي على أوتامش فقتلوه بموافقة المستعين، وفي أيام المستعين ظهر يحيى بن عمر الطالبي بالكوفة=

بالمساورة، وغالبه المعتز حتى غلبه ، وناصبه حتى ابتز منه الملك وسلبه، وكان ألثغ اللسان لا ينعش الألفاظ من عثراتها، ولا ينعم النظر في تجنب معراتها، وكان يجعل الشين ثاء ، وزبد كلامه الغث كله زبدا غثاء، وكان من سفلة الخلفاء ، لا يصعد به جده هاشم، ولا جده الذي هو لمعاطس الأعداء مرغم ولوجوههم هاشم، لا يطاوعه على الحزم الرأي الرائن(١) والعزم الخائب الحائن(٢)، وكان أردى في هذا من الأمين حالاً ، وأكدى محالاً، واستوزر وزيرا ناسبه في هذه الأحوال، وحاسبه على فعله حالا فحال، حتى انحل سياج دولته، وانفل جيش صولته، وآل أمر المستعين إلى ما آل ، ومال إلى سوء رأيه في سوء مآل ، وكان مع هذا غير مقبول الصورة، ولا مأمول السورة، إلا أنه لم يخلُ من مجالس أنس ، وندمان ونفس تبادر ببذل المال صرف الزمان، فكان يهب البِدَر(٣)، ويعد بأمثالها إذا قدر، وكان لا يمل ود الصديق، ولا يميل إلى من وشى به إصغاء التصديق، فكان فيه مما يحمد هاتان الخلتان، والحَسنتان الحُسنتان، وكان ينظم الشعر، إلا أنه من سقط المتاع، ويجيء به بلا كلفة، إلا أنه مما تجود به الطبيعة، وكان قد بويع بالخلافة يوم الاثنين لست خلون من ربيع

= وقُتل، وقامت ثورات في الأردن وحمص والمعرة والمدينة، وانتقل المستعين إلى بغداد، فغضب القواد وطلبوا عودته إلى سامراء ، فامتنع، فنادوا بخلعه، واتصلوا بالمعتز، وكان سجينا بسامراء فاطلقوه وبايعوه، وزحفوا لقتال المستعين ببغداد، وانتشرت الفوضى، فخلع نفسه واستسلم للمعتز لقاء مال معلوم يدفع إليه، ورحل إلى واسط بأهله، وبقي عشرة أشهر ثم نقله المعتز إلى القاطول فسُلِّم إلى حاجب يدعى (سعيد بن صالح) فضربه حتى مات سنة ٢٥٢ هـ .

(الطبري ١١ / ٨٢، ١٣٧ ـ ١٤٦، ابن الأثير ٧ / ٣٧ ـ ٥٦، المسعودي ٢ / ٣١٩ ـ ٣٣٠، تاريخ بغداد ٥ / ٨٤، النجوم الزاهرة ٢ / ٣٣٥ فوات الوفيات ١ / ٦٨، تاريخ الخميس ٢ / ٣٤٠)

(١) الرائن : الدنس، وما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب .

(٢) الحائن : المهلك .

(٣) البدر : جمع بدرة ، كيس فيه مقدار من المال يتعامل به ويهب به الخلفاء العطايا .

الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين، ثم بايع الأتراك أخاه المعتز، فأرسل المعز أخاه الموفق، فنزل بغداد وحاصرها، فلم يزل أمر المستعين يضعف، وأمر المعتز يقوى، فبعث إلى المعتز

يسأله أن يعطيه خمسين ألف دينار، ويقيم حيث شاء، وعلى أن يكون بغا ووصيف اللذين كانا صنيعة له أحدهما على الحجاز وما والاه، والآخر على الجبل وما والاه، ثم خلع سنة اثنتين وخمسين، وأراد أن ينزل البصرة، فقيل: إنها حارة، فقال: أتراها أحر من فقد الخلافة، ثم اختار نزول واسط، فلما صار بقرب سر من رأى، تلقاه سعيد الحاجب، فباتا بها، فأصبح المستعين ميتا[ص ١٥١] ولا أثر به، وقيل غير هذا، فقال جنيد الكاتب المعروف بباذنجانة:

[الكامل]

إيهاً بني العباسِ إنَّ سبيلكم ... في قتلِ أعبدكم سبيلٌ ممنعُ
رقَّعتم دنياكمُ فتمزقتْ ... بكم الحياة تمزقا لا ترقعُ

ثم:

٦٧ - دَوْلَةُ المُعْتَزِّ باللَّه

أبي عبد الله الزبير(١) بن جعفر المتوكل، وقد أشرنا في ذكر المستعين إلى أن

(١) المعتز بالله: محمد بن جعفر (المتوكل) بن المعتصم، خليفة عباسي وهو أخو المنتصر بالله، ولد في سامراء، وعقد له أبوه البيعة لولاية العهد سنة ٢٣٥هـ، وأقطعه خراسان وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وغيرها، ولما ولي المستعين بالله سنة ٢٤٨هـ سجن المعتز، فاستمر إلى أن أخرجه الأتراك، بعد ثورتهم على المستعين، وبايعوا له سنة ٢٥١هـ، فكانت أيامه أيام فتن وشغب، وجاءه قواده فطلبوا منه مالاً لم يكن يملكه، فاعتذر، فلم يقبلوا عذره، ودخلوا عليه فضربوه، فخلع نفسه، فسلموه إلى من يعذبه، فمات بعد أيام شابا، وقيل: أدخل الحمام فأغلق عليه حتى مات، قيل: اسمه الزبير، وقيل طلحة، وكان فصيحا، مدة خلافته ثلاث سنوات ونصف، توفي سنة ٢٥٥هـ. =

المعتز ناصبه حتى ابتز منه الملك، واهتز له اهتزاز سيف لا يعوقه المسك، ناصبه على الأمر حتى قوم أوده، ونصبه وقدم مدده إليه ونصبه ، وجهز إليه أخاه الموفق فكُسر، ثم أجهز عليه فنُصر بعد حروب أفنيا فيها الأعمار، وبنيا فيها صروحا تسلق عليهما منها الأغمار، لكثرة ما طاح بينهما من جائل مهج، وطاف من حائل رهج، وطيَّب المعتز سقام الملك، وشفى وصبه، وكفى عصبه، فاستعاد سلطانه ممن غصبه ، واستقاد شيطانه المريد ورجمه بشهب نباله وحصبه، ورجمه فأنفاه ، ثم بدا له فشفى غليله، وإن كان قد قطع عصبه، وكان المعتز أحسن خليفة رئي كأن البدر طالع من طوق قبائه ، والظبي راتع حول خبائه، برز يوما في ثوب أخضر مذهب، فأشبه غصنا وريقا تلص إليه الأصيل ، ولم يذهب ، وكان يتعشق يونس بن بغا، وكان مثله في حسنه وحسناه، ونظيره في سنه وسناه، حتى كان يقال إنه ما رأى أحد مثلهما عاشقا ومعشوقا، توافقا جمالا وتناسقا كمالا، وتقارضا شغفا وتقاربا كلفا، فكانا غصنين سمقا، وبدرين اتسقا ، وكلف المعتز به حتى كان لا يقدر يصبر عنه لحظة، ولا يضيع مع غيره لفظة، واشتغل به عن كل ما سواه، وجد به وجدا قل من قاربه فيه أو ساواه، وغاب عنه ساعة يرى فيها أمه وهي تموت، فقال : [مجزوء المتقارب]

تغيبُ فلا أفرحْ ... فليتكَ لا تبرحْ[ص ١٥٢]
وإن جئتَ عذبتني ... بأنك لا تسمحْ
فأصبحتُ ما بين ذين ... ولي كبد تجرحْ
على ذلك يا سيدي ... دنوك لي أصلحْ

وقد قيل إن اسمه الزبير، وكان يوصف بالحزم والعزم على صغر سنه، فلما

= (الطبري ١١ / ١٦٢، ابن الأثير ٧ / ٤٥ ـ ٦٤، تاريخ بغداد ٢ / ١٢١، الديارات ص ١٠٤ ـ ١٠٩، الأغاني ٩ / ٣١٨، المسعودي ٢ / ٣٣٠ ـ ٣٣٨)

ولي الخلافة صغيرا استقل بأعبائها، وكان قد بويع بعده لأخويه المؤيد ثم الموفق، ثم اجتمع الأتراك عليه وطالبوه أن يخلع نفسه، ولم يزالوا يضربونه[1] حتى أجاب إلى الخلع، وكتبوا بذلك كتابا على نفسه، ثم أدخلوه على المهتدي، فقال له أخلعت نفسك، قال : بل خُلعتُ، فوجيء في قفاه حتى سقط، ثم أقيم فقال : خلعتُ نفسي وسلمت ورضيت، ثم أخرج في الحر حافيا، فطلب نعلا فلم يعطاه، فأرخى سراويله ومشى عليه ، ثم عذب بأنواع العذاب، وأدخل حماما وهو عطشان، ثم أخرجوه فطلب ماء فجيء بماء مثلوج فشربه فمات ، وذلك يوم الأربعاء لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، ومدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر ، وكان عمره أربعا وعشرين سنة ، وكان أبيض اللون أسود الشعر جميل الصورة .

ثـم :

٦٨ - دَوْلَةُ المُهْتَدِي باللَّهِ

أبي عبد الله محمد[2] بن هارون الواثق، وكان كلقبه مهتديا، وبالسلف الصالح مقتديا، وللعفاف تابعا، وبالكفاف قانعا، نحا منحى عمر بن عبد

(١) في الأصل : يضربوه .

(٢) المهتدي بالله : محمد بن هارون الواثق بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، أبو عبد الله ، من خلفاء الدولة العباسية، ولد في القاطول بسامراء ، وبويع له بعد خلع المعتز سنة ٢٥٥ هـ ، ولم يلبث أن انتقض عليه الترك ببغداد، فخرج لقتالهم ، ونشبت الحرب فتفرق عنه من كان معه من جنده (وهم من الترك أيضا) وانضموا إلى صفوف أصحابهم، فبقي المهتدي مع جماعة قليلة من أنصاره، فانهزم والسيف في يده، ينادي : يا معشر المسلمين، أنا أمير المؤمنين، قاتلوا عن خليفتكم، فلم يجبه أحد ، وأصيب بطعنة فمات على أثرها، كان حميد السيرة فيه شجاعة ، حاول الصلاح فلم يقدر، كان يأخذ مأخذ عمر بن عبد العزيز في سيرته، خلافته أحد عشر شهرا، قتله الأتراك بسر من رأى سنة ٢٥٦ هـ .
(الطبري ١١ / ١٦٢ ـ ٢١٢، ابن الأثير ٧ / ٦٤ ـ ٧٧، تاريخ بغداد ٣ / ٣٤٧، مروج الذهب ٢ / ٣٣٨ ـ ٣٤٥، النبراس ص ٨٨، اليعقوبي ٣ / ٢٢٧)

العزيز، وسلك مسلكه الحريز، فما تكثر من الدنيا ولا تكبر بالعليا، وأقبلت عليه الأيام فما اغتر بخداعها، ولا اعتز بمتاعها، ولا أصباه بديع رونقها، ولا سباه صنيع تأنقها، وأخرج ما اكتنز الخلفاء من آنية الذهب والفضة وضربها نقودا، وفرقها حقوقا لا جودا، وأمر بالعدل، ورجع إليه قضاياه، وطبع عليه سجاياه، فلم يوافق صلاحه زمانه الفاسد، ولا نفَّق إصلاحه سوقه الكاسد[ص١٥٣]، ولم يكن من أرباب الدولة إلا منهمك في فساد، ومنسلك في سلك لا يطمئن به الوساد، فكرهوا أيامه، وودوا لو انقضت وأنها لا تكون قد أقبلت حتى مضت، فعابوه بما فعل مما يمدح ، وقالوا إنه لا يستصلح، وقد حكى عنه بعض العلماء قال : حضرت المهتدي يوما من رمضان بعد العصر، وطال مجلسي عنده، فلما أردت القيام قال : قد حانت المغرب وآن فطور الصيام ، فهل لك في أن تفطر عندي الليلة، فما وسعني إلا أن أجبت قوله، فلما أذَّن المؤذن أجابه، ثم دعا بكوز ماء فشرب منه وسقاني، ثم قمنا إلى الصلاة فأديناها وأعقبناها بركعتي السنة، وذيلناها، ثم قال : يا جارية العشاء، فجاءت بسكرجتين[١] في إحداهما جريش ملح، وفي الأخرى زيت وخل، ومعهما رغيفان، فتقدم وقال : كُلْ ثم قال : باسم الله، ثم أكل وأكلت، وأنا أظنه شيئا قدمه قبل طعامه، فرفعت يدي ، فقال لي : ألست كنت صائما، فقلت : نعم، فقال : أولست تصبح غدا صائما، فقلت : بلى، قال : فما هذا الأكل، فقلت : يا أمير المؤمنين، أو هذا هو طعامك، فقال : نعم، فإن الحلال المحض لا يحتمل أكثر من هذا، فدعوت له وأكلت ، ثم انصرفت، وقد استحوذ على قلبي استحواذا، ثم أذنت العشاء الآخرة، فقمنا إلى الصلاة ، فصلينا المكتوبة، وما معها، ثم قمنا بالتراويح، فكملناها أجمعها، ثم أخذت مضجعي ، ثم بقيت أنتبه الفينة بعد الفينة،

---

(١) السكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم .

فأجده قائما في مكانه يصلي، فوالله مازال هكذا حتى أصبح .

قال عبد الله بن إبراهيم الإسكافي : حبس المهتدي للمظالم ، فاستعداه رجل على ابن له، فأمر بإحضاره ، فأحضر، وأقامه إلى جانب خصمه ليحكم بينهما، فقال الرجل للمهتدي: والله ما أنت إلا كما قال القائل : [السريع]

حكمتموه فقضى بينكم أبلجُ مثلُ القمر الزاهرِ
لا يقبلُ الرشوةَ في حكمهِ ولا يبالي عنتَ الخاسرِ[ص ١٥٤]

فقال له المهتدي : أما أنت أيها الرجل، فأحسن الله مقالتك، وأما أنا فما جلست حتى قرأت :﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ [١]، قال : فما رأيت باكيا أكثر من ذلك اليوم، وكان يقول : ألا يستحي بنو العباس أن [لا] يكون فيهم مثل عمر بن عبد العزيز، ولما ولي اطرح الملاهي وحرَّم الغناء والشراب، ومنع أصحاب السلطان عن الظلم ، رحمه الله .

ثم :

٦٩ - دَوْلَةُ المُعْتَمِدِ علىٰ اللّٰهِ

أبي العباس أحمد[٢] بن جعفر المتوكل ، وكان أخوه

(١) الأنبياء ٤٧ .

(٢) المعتمد على الله : أحمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم، أبو العباس، خليفة عباسي ، ولد بسامراء ، وولي الخلافة سنة ٢٥٦هـ بعد مقتل المهتدي بالله بيومين، وطالت أيام ملكه، وكانت مضطربة كثيرة العزل والتولية، بتدبير الموالي وغلبتهم عليه، فقام ولي عهده أخوه الموفق بالله (طلحة) فضبط الأمور وصلحت الدولة، وانكفَّت يد المعتمد عن كل عمل، حتى إنه احتاج يوما إلى ثلاث مائة دينار فلم ينلها، وكان من أسمح بني العباس، جيد الفهم شاعرا، إلا أنه لما غلب على أمره انتقصه الناس، وكان مقام الخلفاء قبله في سامراء فانتقل المعتمد منها إلى بغداد، فلم يعد إليها أحد منهم بعده، ومات أخوه الموفق سنة ٢٧٨ هـ، فأهمل أمر الرعية ، ومات مسموما، وقيل : رُمي في رصاص مذاب ، وكان موته في بغداد، وحمل إلى سامراء فدفن فيها=

الموفق[١] أبو أحمد طلحة بن المتوكل الملقب بالناصر قائما بأمر الدولة كلها، قائلا في برد ظلها، والمعتمد ليس له من الأمر شيء، كأنه ميت وهو حي قد وطئه الموفق على أم رأسه، وغلب على ملكه وناسه، وغل يده على ما أشغلها به نكل [في الأصل الكلمة غير معجمة ولعلها النكل بمعنى القيد] جواريه وكاسه، وكان هم الموفق جيوشا يجهزها، وممالك يحرزها، وأمور لا يكنزها، وأعمالا ملوكية يرقم بها السير ويطرزها، وهم المعتمد تنميق بناء وتأنيق غناء ، وارتياد روضة غناء ، واعتقاد كأس مدام وجارية حسناء ، ثم ندم المعتمدحيث لا ينفعه الندم، وعلم أن وجوده كالعدم، فبقي يتنفس تنفس المصدور، ويتأوه تأوه المحرور، ويهم بأمر الحزم لو يستطيعه، ويحاول حالا ولا يجد من يطيعه، وكتب سرا إلى ابن طولون وإلى صاحب أفريقية يشكو إليهما حاله مع أخيه، ثم مع ابن أخيه، ويصف لهم سوء حاله وما هو فيه، فهموا بما حالت بينهم وبينه عوارض القدر وشقة البعد، وكان الموفق لا يفك عنه وثاق حجره، ولا يرفع يد قهره، وذكر ابن الأثير عنه، أنه احتاج إلى ثلاث مائة دينار فلم يجدها، فقال :[٢]

[الوافر]

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممتنعا عليه

= سنة ٢٧٩ هـ .

(الطبري ١١ / ٢١٤ ــ ٣٤١، ابن الأثير ٧ /٧٧ ــ ١٥١ ، تاريخ بغداد ٤ / ٦٠، مروج الذهب ٢ / ٣٤٥ ، الديارات ص ٦٣ - ٦٩، النبراس ص ٨٩)

(١) الموفق بالله : طلحة بن جعفر المتوكل بن المعتصم، من رجال الإدارة والسياسة والحزم ، لم يلِ الخلافة اسما، ولكنه تولاها فعلا ، آلت إليه ولاية العهد، ونهض بأعباء الدولة لما ظهر ضعف أخيه المعتمد ، وصد غارات الطامعين ، كان شجاعا موفقا عادلا، عالما بالأدب والأنساب ، توفي في أيام أخيه المعتمد سنة٢٧٨ هـ .

(الطبري ٨ /١٥٨، ابن الأثير حوادث سنة ٢٧٨، تاريخ بغداد ٢ /١٢٧، النجوم الزاهرة ٣ /٧٩)

(٢) الأبيات في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢١٣ــ ٢١٤ .

ويوكل باسمه الدنيا جميعا   وما من ذاك شيء في يديه[ص١٥٥]
إليه تحمل الأموال طراً   ويمنع بعض ما يُجنى إليه

قال : وكان آخر من سكن من الخلفاء بسر من رأى ، ثم لم يسكنها بعده أحد منهم .

قلت : دام على ما به مدة أيام أخيه الموفق، ثم مات الموفق، وقام ابنه المعتضد، فكان أشد شجى في حلق المعتمد، وما مضت سنة حتى سمَّه وكفاهم هَمَّ الدنيا، واكتفى همّه، يقال : إن المعتضد سمَّه ، وقيل بل أفرغ في حلقه رصاصا مذابا، وقيل : لا، بل ملأ له حفرة من ريش، ورماه فيها، فمات غما .

ثم :

٧٠ - دَوْلَةُ المُعْتَضِد باللَّه

أبي العباس أحمد(١) بن الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل، كان أبوه في

(١) المعتضد بالله : أحمد بن طلحة بن جعفر، أبو العباس المعتضد بالله بن الموفق بالله بن المتوكل ، خليفة عباسي، ولد ونشأ في بغداد، وكان عون أبيه في حياته أيام خلافة المعتمد، وأظهر بسالة ودراية في حروبه مع الزنج والأعراب، وهو في سن الشباب، بويع له بالخلافة بعد وفاة عمه المعتمد سنة ٢٧٩هـ ، فحل عن بني العباس عقدة المتغلبين، وظهر بمظهر الخلفاء العاملين، وجعل يتوجه بنفسه إلى أصحاب الشغب في البلاد فيقمع ثائرتهم، وجعل أمراء الجند مسؤولين عن أعمال أتباعهم، وكان شجاعا ذا عزم مهيبا عند أصحابه، ومن المؤرخين من يقول : قامت الدولة بأبي العباس، وجددت بأبي العباس ، يريدون السفاح والمعتضد، كان عارفا بالأدب موصوفا بالحلم، إلا في مواضع الشدة، مدة خلافته تسع سنوات وتسعة أشهر ، توفي سنة ٢٨٩هـ .
(الطبري ١١ / ٣٧٣، ابن الأثير ٧ / ١٢٧- ١٦٩، النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٨، شذرات الذهب ٢ / ١٩٩، الأغاني ١٠ / ٤١، فوات الوفيات ١ / ٤٥، تاريخ بغداد ٤ / ٢٠٣، المسعودي ٢ / ٣٦١- ٣٨٢)

خلافة المعتمدقد اعتقله لما خافه واعتمده حذرا أن يسابقه إلى الخلافة ، وذلك لسعي إسماعيل بن بلبل الوزير بينهما بالنمائم ، ووعى قلب الموفق عليه بالسمائم(١)، وما شعر أن أمامه منصب الإمامة، وإن الخلافة لا ينبغي خلافه، وأن الملك معصم لا ينزل منه بغير سوار، ومعقل لاعلى منه بلا أسوار، فلبث في الاعتقال مضيقا عليه، في مكان أقصر من طول العقال، وبيض له المعتقل ليبهر نظره البياض، ويخطف بصره بالإيماض، حتى تحيل له مشرف العماير، فلبس سراويل أخضر(٢)، ودخل المعتقل على أنه يتفقد العمارة ،فتفقدها، ثم دخل الطهارة فنزع ذلك السراويل وخرج، فلما وجده المعتضد سر به وابتهج،، فكان يدعه على عينيه ، ويعده بينه وبين الحائط، وينظر إليه، فوجد بحوة(٣) لونه حفا لصحوة عينيه، ولم يكن عنده إلا فرد غلام لا يغني في رد كلام، وكان المعتضد يشغل وقته بمصحف يقرأ منه القرآن العظيم، ودعاء يقرع به باب السميع الكريم، ودخل عليه الوزير ابن بلبل يوما، والمعتضد يقرأ، فوضع إلى جانبه المصحف، وأخذ بأنه يخضع للوزير [ص ١٥٦] ويتلطف، وكان يدخل عليه ليجد ما ينم به، ويُنمي أحاديث كذبه ، وكان الموفق قد خرج إلى الجبل فزاد خوف المعتضد من غِرَّة فيه تهتبل، وكان يتخوف دخوله عليه على غفلة ، ويشفق لا يكاتب أباه عنه بكذب يعجل نقله،،ويجعل نظره إليه نسله، ويخلي به مثله مُثلة، فيأمر بقتله ولا يكشفه ، ولا يجد من يثنيه عنه ولا يصرفه، قال المعتضد ما معناه : وكان ابن بلبل يجيئني في كل يوم مراعيا خبري ، وساعيا في قص أثري، ويظهر أنه يتردد إليَّ خدمة يؤديها، وإنما يردد نقمة يردِّيها، فلما دخل عليَّ ذلك اليوم قال : إيهاً ، أعطني المصحف لأتفاءل لك إن كنت تبلغ مؤملك،

---

(١) وعى بالسمائم : أي امتلأ بالوشايات المؤلمة كالريح الحارة .

(٢) السراويل : لباس يغطي السرة والركبتين وما بينهما، وهو مفرد جمعه سراويلات .

(٣) الحوة: لون تخالطه الكمتة مثل صدأ الحديد .

فلم أجبه بشيء ، ولم أجبه بموافقة ولا لي، فأخذ المصحف وفتحه فكان أول سطر تصفحه : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾[١] فاسودَّ وجهه واربد حتى كان كالليل أو شبهه، ثم أطبق المصحف وفتحه ثانيا، فخرج منه باديا :﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾[٢] ، فازداد قلقا واضطرابا واضطر أن يفتح بابا، ثم فتح المصحف ثالثا فوجد عاجلا لا نائيا :﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾[٣]، فوضع المصحف والخوف قد جلله، وألحف ثم قال : أيها الأمير، أنت والله الخليفة بلا شك ، فما حق بشارتي وحال قبولك لإشارتي، فقلت : الله الله في دمي ، وما عليك ألا تكون السبب في عدمي وأسأل الله أن يبقي أمير المؤمنين، والأمير الناصر الموفق، وما أنا وهذا، ولم أزل به أوثق وأقول : مثلك في عقلك لا يطيق القول بمثل هذا الاتفاق، وأنا أحوج منك إلى غير هذا من الارتفاق فأمسك عني ، وقد كان يأخذني منى، ثم مازال يحادثني ويخرجني من حديث ويدخلني في آخر إلى أن جرى حديث ما بيني وبين أبي ، وأنه ربما كان يؤاخذه بسببي ، ثم أقبل يحلف بالأيمان الغليظة [ص ١٥٧] أنه ما سعى عليَّ بمكروه، وأنه ممن لم يحرجوا صدره عليَّ ، ولم يغروه ، فصدقته خوفاً أن تزيد وحشته مني فيسرع إلى التدبير في تلفي ، وأريته من الود ما لم يكن له في، ثم صار كلما جاء أخذ معي الاعتذار والتنصل ، كأنما أبلغه مني الإنذار، وإنما أظهر له التصديق وأبسط معه مباسطة الصديق حتى سكن قلق راحته، وما

(١) الأعراف ١٢٩ .

(٢) القصص ٥ .

(٣) النور ٥٥ .

شك أني أعتقد براء ة ساحته، وما كان بأسرع من أن جاء الموفق من الجبل وقد اشتدت به علته، ومات ، وأخرجني الغلمان من الحبس وأروني مكانه، وأورثوني سلطانه، وقاد الله الخلافة إليَّ، ومكنني من ابن بلبل، فأخذت ثأري بيدي، وكان المعتضد ملكا مهيبا، إذا اغتاظ توقد لهيبا ، وبويع بالخلافة وقد تمزقت كل ممزق، وتوزع ملكها وتفرق ، وقد صار كل طرف بيد ثائر، وكل إقليم تحقق عليه نبذ كل ملك جائر، واضمحلت الحرمة كأنها لم تكن، وصعبت الأمة كأنها لم تهن، فقام حتى جمع شلوها المبدد، ومنع أديمها المقدد، وكان في الغُنية مثل موافقه في الكنية أبي العباس السفاح في تعريض وجهه للكفاح، وكل منهما أقام دولة أبي العباس، وأقاد لها أنف كل ذي باس، وكلاهما كانت خلافته للخلافة العباسية بانية، ذاك أوله وهذا ثانيه، وكانت له على الأتراك وأرباب دولته سطوة تخاف بها أبصارهم أن تختطف، وأعمارهم أن تقتطف، حذرا من ضيغمة المفترش المفترس، وأرقمة المنتهش المنتهس، وعقابه الخطوف الكاسرة، وعقابه الممثل بعذاب الآخرة، فإنه كان أليم العذاب، عقيم العقاب، وكان يدلي عليهم الحرس، ويذكر لهم من أمورهم وبيوتهم ما يلجمهم بالخرس، وما عرف أحد بعد المعتصم أخف منه إلى العدو ركابا، ولا أمد على بلد انسكابا، ولا يحط له سرج، ولا يحل له عن موكب طوق ورهج ، وقد حكى ابن ظافر في سياسة الملوك أنه كان لا يبرز إلا مخفا، ولا [ص١٥٨] يستصحب ثقلا ولا خفا، وقرر النوروز[١]، وأقر عليه رزق الجند المفروز، وتبعه عليه من بعده من الخلفاء ووفوه حسابه، وما قدروا على الوفاء ، وكان غاية في الحزم والعزم، حكى شارح العبدونية قال: لم تزل الأتراك مذ مات الواثق يتحكمون عليهم في

---

(١) النوروز: أو النيروز، اليوم الجديد، وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية، وعيد النوروز أكبر الأعياد القومية للفرس .

خلافتهم، يعني تحكم الرجال على صبيانهم، ،حتى كان أيام المعتضد فغلبهم الغلبة التي يجب أن تكون لمثله على مثلهم وأذلهم وردهم إلى مراتبهم من العبودية، وكان المعتضد مهيبا لا يقدم أحد على أمر من أموره إلا مغرورا، وكان يسمى السفاح الثاني، لأنه جدد ملك بني العباس ووطده بعد أن كانت أخلقته الأتراك، وفي ذلك يقول ابن الرومي :[١]

[**الطويل**]

هنيئا بني العباس إن إمامكم إمامُ الهدى والجودفي ذاك يشهدُ
كما بأبي العباس أسس ملكهم كذا بأبي العباس أيضا يجددُ

ولقد اتفق في أيامه أمر فظيع[٢] كشفه الله له فعظم في نفوس أتباعه، فإنه كان لا يتجرأ أحد منهم أن يكتمه ما في نفسه مخافة صولته ، وكان أحد كبراء دولته قد بنى بناء عاليا مشرفا على منازل جيرانه، فلم يقدر أحد يعارضه، فأشرف منه فرأى جارية بارعة الجمال، فسأل عنها، فقيل : ابنة تاجر ، فخطبها إلى أبيها، فأبى أن يزوجها من تاجر مثله ، فلم يزل يغريه[٣] ويأبى، فزوّر كتاب تزويج بشهادة عشرة من المعدلين، ثم أخذها بظاهر الشرع، فتحيَّل أبوها حتى دخل في زي فَعَلة البناء في قصر كان المعتضد قد شرع فيه، فأتاه يوما يشرف عليه، فوقف له وذكر له حاله، فأرسل في طلب الزوج والشهود، وسألهم كيف كان الحال، فما استطاع أحد منهم أن ينكره، فوضع ذلك الزوج في جلد ثور طري، وضرب بالأرازب[٤] حتى اختلط لحمه ودمه، ثم أمر به فأفرغ بين يدي

(١) البيتان من قطعة في ديوان ابن الرومي١ / ٤٢١ ط بيروت ١٩٩٤، ورواية البيت الأول:(إمام الهدى والجود والبأس أحمد) .

(٢) في الأصل : فضيع ، وهو خطأ .

(٣) في الأصل: يوويه، غير معجمة .

(٤) في الأصل: بالمرازب، وهو تحريف، والأرازب جمع الارزبة: وهي المطرقة الكبيرة تكسر بها=

نمور عنده، ثم [أمر] بالشهود فصلبوا، وأمر لذلك الرجل بالبيت وبجميع ما تركه زوجها [ص١٥٩] من صامت وناطق، وكان بما لا يُحصر.

وحكى ابن ظفر : أن قطر الندى[١] بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، لما زفت إلى المعتضد أغرم بها، فوضع رأسه في حجرها يوما فنام، فأزالته عن فخذها بلطف، ووسدته وخرجت من البيت، فاستيقظ المعتضد فذُعر وناداها فأجابته من قرب، فقال لها : أسلمت إليك نفسي فذهبتِ عني، فقالت : لم أذهب عن أمير المؤمنين، ولم أزل كالئة له ، قال : فما أخرجك ؟ قالت : إن مما أدبني به أبي أن لا أجلس مع النيام، ولا أنام مع الجالسين، فاستحسن ذلك منها.

وحكى صافي الحرمي : أنه لما مات المعتضد كفنه في ثوبين قوهي[٢] قيمتها ستة عشر قيراطا ووُلد، ولما حضرته الوفاة قال ، وأراه له :

[**الطويل**]

تمتَّعْ من الدنيا فإنَّك لا تبقى ... وخُذْ صَفْوها ما إنْ صَفَتْ ودعِ الرَّنْقا
ولا تأمننَّ الدهرَ إني أمنْتُهُ ... فلم تُبقِ لي حالاً ولم تُرْعَ لي حقَّا
قتلتُ صناديدَ الرجالِ فلم أدعْ ... عَدوًّا ولم أُمْهِلْ على ظِنَّةٍ خَلْقا
فلما بلغتُ النجمَ عِزًّا ورِفْعَةً ... وصارتْ رِقابُ الخَلْقِ أجمع لي رِقَّا
رماني الردى سهماً فأخمدَ جمرتي ... فها أنا ذي في حفرتي عاجلا ألقى[٣]

= الحجارة، وكذلك عُصَية من حديد، ودليل صحة هذه الكلمة قوله : حتى اختلط لحمه ودمه .

(١) قطر الندى: أسماء بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، من شهيرات النساء عقلا وجمالا وأدبا، تزوجها المعتضد العباسي سنة ٢٨١هـ ، وجهزها بجهاز لم يُعمل مثله، توفيت ببغداد ودفنت في قصر الرصافة سنة ٢٨٧ هـ .

(وفيات الأعيان ١ / ١٧٤، في ترجمة أبيها)

(٢) القوهي : ضرب من الثياب بيض .

(٣) في الأصل : فأغمد جموتي فهاندني، والتحريف في الكلمتين واضح .

فـياليتَ شعـري بعـد موتي مـا أرى إلـى نـعـمـة لـلـه أم نـاره أُلـقى

ثـم :

٧١ - دَوْلَةُ المُكْتَفِي بالله

أبي محـمـد علي(١) بن أحـمـد المعـتـضـد، وكانـت له مما أبقى أبوه جـيوش تضيق بها جيوب العراق ، وتضيع بها هبوب النسيم في الآفاق، خلا أنه كان عقير عقار، وسمير دفوف وأوتار، وأليف ندمان، وحليف إدمان، لا يخلع عنه ثوب عناق، ولا يخدع عن النفاق ساق بساق، لم يؤخذ الملاح من مقلتيه ولا كؤوس الراح من شفتيه، دأبه في هوى، وآدابه في جوى، لا يقصر عن حُبٍّ أغيدوغيداء، وأجيد وجيداء ، فلهذا ما عسكر إلى الأعداء رأيا ولا راية [ص ١٦٠]، ولا أثر جنانا ولا جناية ، على كثرة الفتوق في جيب ملكه، والانفراط في جيب سلكه، فتسلطت القرامطة ، وتبسطت في البلاد بلا رابطة ، وصرخت تلك الدعوة في أذان الأنام، وزادت في أذان الإسلام، ثم فعلت تلك الفعلة في الحجر الأسود، وابتزت خاله من وجنة البيت الحرام، مع أنه قاتل القرامطة مرتين، وكرَّ عليهم جيشه الحويل كرتين ، وعاد بالنصر في كل مرة، لكنه لم يجتثهم، ولا قطع نسلهم وحرثهم .

---

(١) المكتفي بالله : علي بن أحمد المعتضدبن الموفق بن المتوكل، أبو محمد من خلفاء الدولة العباسية في العراق، كان مقيما بالرقة ، وجاء ه نعي أبيه المعتضد سنة ٢٨٩هـ ، فبويع بها وانتقل إلى بغداد، فقام بشؤون الملك قياما حسنا، وظفر في أكثر ما كان من الوقائع بينه وبين الثائرين عليه، قال ابن دحية : أنفق الأموال العظيمة في حروب القرامطة الخارجين على الحجيج، حتى أبادهم واستأصلهم، وفي أيامه فتحت إنطاكية، وكان الروم قد استولوا عليها، توفي شابا ببغداد سنة ٢٩٥ هـ .

(الطبري١١ / ٤٠٤ ، ابن الأثير٨ / ٣، تاريخ الخميس ٢ / ٣٤٥، مروج الذهب ٢ / ٣٨٢ ـ ٣٩٠، تاريخ بغداد ١١ / ٣١٦، فوات الوفيات ٢ / ٤١، النبراس لابن دحية ص ٩٤)

ثــم :

٧٢ - دَوْلَةُ المُقْتَدِرِ باللَّه

أبو الفضل جعفر[١] بن أحمد المعتضد، بويع صغيرا، وتوبع أمره وهو غرير[٢]، وكانت أمه هي التي تصدر الأمور، والقهرمانة أم موسى تدبر المعمور، وجلست في دار العدل، وقُرئت عليها القصص، وأوقرت الصدور بالغصص، وكان الوزير إذا قيل له في شيء، قال : حتى أراجع السيدات، والتواقيع تخرج إليه عنهن، وأكثرها بالسيئات، فكانت أيامه دولة النساء، ودولة السفلة لا الرؤساء، فكان الناس كأنهم فوضى لا يُعرف خليفة، تتبرض له ثمدا ولا حوضا، لا تجد إلا ضياعا، ولا تُرَدُّ يدٌ تملكت أرضا ولا ضياعا، أعراض موهوبة، وأعراض منهوبة[٣]، وشكايا[٤] مرقوعة، وبلايا موضوعة، وخلائق تتظلم،

---

(١) المقتدر بالله : جعفر بن أحمد بن طلحة ، أبو الفضل المقتدر ابن المعتضد ابن الموفق ، ولد ببغداد وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي سنة ٢٩٥هـ،فاستصغره الناس فخلعوه سنة ٢٩٦هـ ونصبوا عبد الله بن المعتز ، ثم قتلوا ابن المعتز ، وأعيد المقتدر بعد يومين ، فطالت أيامه وكثرت فيها الفتن، وعصاه خادم له اسمه مؤنس جمع أنصاره ودخل بهم دار المقتدر فأخرجوه وأخرجوا معه أمه وأولاده وخواص جواريه، واعتقلوهم في دار مؤنس سنة ٣١٧هـ، وبايعوا القاهر بالله (أخا المقتدر) ، وثارت فرقة من الجيش تدعى الرجالة ، فقتلت بعض رؤساء الغلمان وأعادت المقتدر، وخرج مؤنس من بغداد إلى الموصل فاحتلها ثم هاجم بغداد ، فبرز له المقتدر فانهزم أصحاب المقتدر وبقي وحده، فرآه جماعة من المغاربة فقتلوه، وكان ضعيفا مبذرا ، استولى على الملك في عهده خدمه ونساؤه وخاصته، وفي زمنه قوي القرامطة ، فقلع أبو طاهر القرمطي الحجر الأسود وقتل خلقا كثيرا ، قتل المقتدر سنة ٣٢٠هـ .(تاريخ بغداد٧ / ٢١٣، ابن الأثير ٨ / ٣ ـ ٧٥، عريب ص ٢٢ ، تاريخ الخميس ٢ / ٣٤٥ ـ ٣٤٩، المسعودي ٢ / ٣٩٠، النبراس ص ٩٥ ـ ١١٣)

(٢) في الأصل : وهو تغريرا .

(٣) الأعراض الأولى : جمع عَرَض ، متاع الدنيا قل أو كثر، والأعراض الثانية : جمع عِرْض، البدن والنفس والحسب، ويراد به الشرف أيضا .

(٤) الشكايا: جمع الشكوة ، وعاء صغير للماء واللبن يتخذ من جلد .

وخلائف سلف كريم تتألم، وكان المقتدر عقله عقل أمثاله من الصغار لا ينتخي لملكه ولا يغار، مشغولا وراء حجبه، مشغوفا بلعبه، يتشبه في ملكه العقيم بالسوقة، ويتخذ له من جواريه معشوقة، ويقف تحت طاقتها يغمزها، ويترقب لها غفلات رقباء ينتهزها، وربما وقف اليوم الكامل وهي لا تجيبه، ورأى جارية فاختفى كأنه وافى إليه رقيبه، فمرة تصله، ومرة تهجره، وآونة تتعرف به، وآونة تنكره، وتارة تتعذر بزوجها، وتارة يتستر بأوجها، كل هذا شيء افتعله، وظنه لذة له ففعله، وكان ربما ركب حمارا وأردفها وراء ه، ومر بسوق عمله في قصره، وأسكنه الجواري وأوطنه كواعب كالدراري، وجعل عندهن أنواع الطعام، ومنهن الخباز والطباخ واللحام [ص ١٦١] والخمار، وعنده الخمارة والمدام، فيقف على الحانوت ويشتري قدرما يحتاجه من القوت، وكذلك ما يريد من الخمر، فإذا اكتفى حمل الكل في الخرج ومر، ثم ينطلق إلى مكان اتخذه في القصر شبيها بالقرية، ونزل به، وقضى معها يومه كله في أكله وشربه، ثم إما تجيء جارية على أنها عاشق لتلك الجارية الأخرى التي يتعشقها، يريد ما أراده منها، فيقوم يدرأ عنها، فتارة غلب، وتارة يُغلب، وتارة تجيء جارية على أنها صاحب الشرطة، فيأخذهما ويذهب ، ثم يأمر بالمقتدر بأن يطاف به في شوارع بغداد، فيطاف به في رحاب القصر، وينادى عليه : هذا جزاء من يتظاهر بالمحرمات، في مثل هذا العصر . وكان المقتدر منقطعا إلى أمثال هذا اللعب، ما اجتهد في سواه ولا رغب ، ولهذا اختلت حاله مرات، وخلع ثم عاد كرات، لكنه مع هذا اللهوالمفرط، واللعب وهو ما بلغه منبسط، ولا لحقه بعده منتهك، ولا سبقه إليه قبله سوقة ولا ملك، كان سعيدا محظوظا، شديدا أدرك من المرام حظوظا، وكان واسع النفقات، شائع الصدقات، ودانت له الآفاق شرقها وغربها، وبعدها وقربها، ولم يبق شيء مما كان في ملك الخلفاء الأول إلا مذعنا لأمره، ممعنا للتأهب لنصره، لا تحمي أطرافها إلا بعسكره، ولا تشمخ أسرَّة ملوكها إلا بالخضوع

لمنبره.

واتفق في أيامه عجائب وغرائب، منها أنه بُعِث له من مصر طرائف، منها تيس يحلب منه اللبن، وبُعِث إليه من عُمان طائر صيني أسود يتكلم بالهندية والفارسية أفصح من الببغاء، وورد عليه البريد الدينور يذكر أن بغلة له وضعت فلوة، ونسخة الكتاب : " الحمد لله الموقظ بعبره قلوب الغافلين، والمرشد بآياته بصائر العارفين، الخالق ما يشاء بغير مثال، ذلك الباري المصور، له الأسماء الحسنى، ومما قضاه الله المصور في الأرحام ما يشاء، أن الموكل بخبر التطواف ذكر أن بغلة لرجل يُعرف بأبي[ص ١٦٢] بردة، وضعت فلوة، ووصف اجتماع الناس لذلك وتعجبهم مما عاينوه، فوجهت من أحضرني الفلوة والبغلة، فوجدتها كميتا، ورأيت الفلوة سرية الخلق، تامة الأعضاء، منسدلة الذنب، يشبه ذنبها أذناب الذئاب، فسبحان الذي لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب "(١) قال شارح القصيدة العبدونية(٢) : وقد حُكي أنه اتفق مثل هذا سنة خمسين وخمس وأربع مائة بطليطلة(٣)، وكانت البغلة شهباء ، كانت لإنسان سقَّاء ، وفلوها إلى الصفرة . قلت : وحكى لي صهرنا الصاحب شمس الدين محمد بن الشيرازي، أن مثل هذا اتفق في بعض بلاد حلب، وسمى لي المكان وأنسيته ، قال : ورأيتُ ذلك بعيني، وأُثبتْ به محضرعلى الحاكم، ومما اتفق في زمان المقتدر أنه وُجِدَ بمصر كنز قديم ومعه ضلع إنسان طوله أربعة عشر شبرا، وعرضه شبر .

---

(١) قوله: لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، من سورة الرعد ٤١ .

(٢) شرح قصيدة ابن عبدون ، المسمى كمامة الزهر وفريدة الدهر، لعبد الملك بن عبد الله بن بدرون، طبعت في مصر سنة ١٣٤٠هـ .

(٣) طليطلة : مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس ، وهي على شاطىء تاجة ، وبينها وبين قرطبة سبعة أيام للفارس . (ياقوت : طليطلة)

٧٣ - وأمَّا خُرُوجُ عَبْدِ اللَّه بنِ المُعْتَزِّ عليه

وكان سببه[١] أنه لما ولي المقتدر، أُستُصْغِر ، فجاء محمد بن داود الوزير فأخرجه من داره إلى دار إبراهيم الماذرائي، ووجهوا إلى القاضي محمد بن يوسف، يوم السبت العشرين من ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين ، وحضر جماعة العلماء والقواد، فخلعوا المقتدر وبايعوا ابن المعتز إلا بعضهم، ولقب بالمنتصف بالله، المنتصف بالله ، فلما أذنت المغرب ضربت الدبادب[٢] له، وضربت من قصر المقتدر، واشتغل الوزير بكتب الكتب إلى النواحي، وكاد الأمر أن يتم لو أراده الله ، فنقض العزائم وأبطل التدبير ، لأن سوسن الحاجب كان قد عاقد ابن المعتز على أن يكون حاجبه ويمكنه من المقتدر، فبلغه في تلك الليلة أن ابن المعتز استخلص يمنا الكيفوني فجاء به، فانتقض سوسن عليه، وأُحكم الأمر للمقتدر، فلما أصبح ابن المعتز خرج قاصدا قصر المقتدر، فلما بلغ الحسنى خرج عليه العبيد والرجالة فمنعوهم، وأعانهم العامة، فرجع ابن المعتز إلى داره، وعلم من أين أصيب، ثم أن المقتدر جهز جيشا غريبا في الخيل والرجال، فأحاطوا [ص١٦٣] بدار ابن المعتز، ففر من كان فيها، وبقي ابن المعتز وحده، فتسلل هو ووزيره، وثبت الحسين بن حمدان[٣]، فقاتلهم إلى الظهر، فأصابه سهم، ففر إلى

---

(١) ابن المعتز : عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد ، الشاعر المبدع خليفة يوم وليلة، ولد ببغداد وأولع بالأدب فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم، وصنف كتبا منها : البديع ، والآداب ، وطبقات الشعراء ، آلت إليه الخلافة حين استصغر الناس المقتدر فبايعوه بالخلافة فأقام يوما وليلة، ثم وثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه ، وسلمه المقتدر إلى خادمه مؤنس فخنقه سنة ٢٩٦ هـ .

(الأغاني ١٠ / ٣٧٤، تاريخ بغداد١٠ / ٩٥، ابن خلكان ١ /٢٥٨، فوات الوفيات ١ / ٢٤١، أشعار أولاد الخلفاء ص ١٠٧ ـ ٢٩٦)

(٢) الدبادب : الطبول، واحدها دبداب .

(٣) الحسين بن حمدان التغلبي : أحد الأمراء الشجعان المقدمين في العصر العباسي وهو عم سيف=

داره، وأخذ منها ما يريد، ثم خرج إلى سر من رأى، وأما ابن المعتز فإنه هرب، وأتى دار ابن الجصاص الجوهري، وكان ممن بايعه، فعرف خادم، فنمَّ به، فأخذ وألقي في صهريج ثلج فمات به، وهو ذو الأدب الغض والتشبيه المصيب، ومن بدائعه قوله :(1)

[الطويل]

وجردت من أعمالِ كلِّ مرهفٍ إذا ما ... انتضتهُ الكفُّ كاد يسيلُ

ترى فوق متنيهِ الفرند كأنما ... تنفس فيه القين وهو صقيلُ

وقوله :(2)

[البسيط]

ظبي مخلّى من الأحزان ودعني ... ما يعلمُ اللهف من حزنٍ ومن قلقِ

كأنهُ وكأنَّ الكأسَ في يدهِ ... هلالُ أولِ شهرٍ غابَ في شفقِ

وقوله :(3)

[المنسرح]

قد انقضت دولةُ الصيامِ وقد ... بشَّرَ سُقْمُ الهلالِ بالعيدِ

= الدولة الحمداني، وأول من ظهر أمره من ملوك بني حمدان، ولما كانت فتنة خلع المقتدر، صار من أنصار ابن المعتز، فلما أعيد المقتدر رحل الحسين بأهله إلى الموصل، ثم عفا عنه المقتدر وولاه ديار ربيعة ثم ثار عليه فقاتله المقتدر، وتفرق جيش الحسين فقبض عليه وجيء به إلى بغداد فحبسه المقتدر ثم قتله سنة ٣٠٦هـ .

(ابن الأثير والنجوم الزاهرة حوادث سنة ٣٠٦ هـ)

(١) ديوانه ١ /٥٣٨ ط السامرائي .

(٢) ديوانه ٢ /١٧٤ .

(٣) ديوانه ٢ /٩٥ .

يتلو الثريا كفاغرٍ شَرِهٍ يفتحُ فاهُ لأكلِ عنقودِ

وقوله :(١)

[المتقارب]

إذا ما طعنا بطونَ الدنا ن سال دمُ الكَرْمِ منهنَّ سورا

كأنَّ خراطيمها في الزجاجِ خراطيمُ نحلٍ يُنَقِّينَ نورا

وقوله :(٢)

[الطويل]

ولما تلاقينا وهُزَتْ رماحُنا وجُرِّدَ منها كلُّ أبيضَ باترِ

رأوا معشرا لا يُبْصرُ الموتُ غيرَهم فما برحوا إلا برجمِ الحوافرِ

ولما بويع ابن المعتز، دخل على أبي جعفر الطبري، فقال له : كيف تركت الناس؟ قال: بويع عبد الله بن المعتز، قال : فمن رشح للوزارة ؟ فقال : محمد بن داود الجراح [ص١٦٤]، قال : فمن ذُكر للقضاء؟ قال : الحسن بن المثنى، فأطرق قليلا ثم قال : هذا أمر لا يتم ولا ينتظم ، فقيل له : وكيف ؟ قال : لأن كل واحد من هؤلاء متقدم في معناه على أبناء جنسه، والزمان مدبر، والدنيا مولية، وكان هذا على ما قال، ولم يكن في ابن المعتزما يعاب به سوى نقص حظه، وكمال أدبه .

وكان سبب قتل المقتدر بموضع يعرف بالتل، فجعل يوجه نحو باب الشماسية(٣) أن يأتيه جنده منها والناس في ذلك يتسللون نحو

(١) الديوان ٢ / ١٣٠ .

(٢) الديوان ٢ / ٣٠٥ .

(٣) الشماسية : منسوبة إلى بعض شماسي النصارى، وهي مدينة مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد، وإليها ينسب باب الشماسية . (ياقوت : الشماسية)

مؤنس[١]، وكان مؤنس قد جاء ليصرفه المقتدر في مهماته، غير أنه من كان يحسبه مؤنسا، أغروه به، وقالوا له: إنما جاء ليقتلك، ولكن غلب عليه عبيده، وكانوا قد غضوا بمؤنس، وقالوا له إما أن تخرج لقتاله، وإلا أخذناك وسلمناك إليه، فخرج وهو مكره، وقد كانت أمه تمنعه، فلما لم يرَ بُدّاً من الخروج ودع أمه، وتمثل بقول ابن الرومي:[٢]

[الكامل]

طامن حشاكَ فانَّ دهرَك موقعٌ بكَ ما تحبُّ من الأمورِ وتكرهُ
وإذا حذرت من الأمور مقدراً فهربت منه فنحوه تتوجهُ

فلما خرج إليه جعل أصحابه يتسللون منه، حتى بقي وحده، فقصده عبد أسود، فضربه على عاتقه، فصاح: ما هذا ويلك، ثم تعاوده حتى قتله بالضرب، ثم أمسك مؤنس قاتله وقتله، إذ لم يكن غرض مؤنس قتله، وإنما غرضه أن يكون صاحب أمره، وإنما المقادير تنفذ أحبَّ العبدُ أم كره.[٣]

ثم:

٧٤ - دَوْلَةُ القَاهِرِ باللّه

أبي المنصور محمد[٤] بن أحمد المعتضد، كان [لا] يستقل لسانه من

(١) مؤنس الخادم: الملقب بالمظفر المعتضدي، أحد الخدام الذين بلغوا رتبة الملوك، كان ممن خدم المعتضد، وكان أبيض فارسا شجاعا، من الساسة الدهاة، بقي ستين سنة أميراً، وندب لحرب المغاربة العبيديين، وولي دمشق للمقتدر، ثم حاربه، وقُتل المقتدر، وخلفه القاهر بالله، فلما تمكن القاهر قتله سنة ٣٢١ هـ.

(النجوم الزاهرة ٣ / ٢٣٩، ابن العبري ص ٢٦٩ـ ٢٧٨)

(٢) ليس في ديوان ابن الرومي.

(٣) بعدها في الأصل كلمة (وولد)، ولعله يريد أن يذكر سنة ولادته ثم عدل عن ذلك.

(٤) في الأصل: القادر بالله، وهو سهو وصوابه القاهر بالله: محمد بن أحمد بن طلحة، القاهر بن=

عوج، ولا زمانه من هوج، ولم يكن له يوم بويع ما يلبس، حتى ألبسه جعفر بن ورقاء[1] ثيابه ، وقدمه للمبايعة، وتقدم ، وطفق الناس في المتابعة، وكان أحط رتبة من إخوته [ص ١٦٥] وأرفع رتبة في نخوته، لولا طيش لا تُرفع معه منار، وتهافت أوقع به من الفراش على النار، فدام مدة خلافته وأيامه سنون، وأحكامه جنون، وتصديقه ظنون، وتحقيقه منون، لا يقف مع تدبير سوس، ولا يتوقف في تدمير نفوس، وكان يتطاول إلى فعل آبائه بهمة خانها الرأى الثاقب، وعزمة أنها لا تفكر بالعواقب، فعاجل أقواما ما كان لو طاولهم، وأكمن لهم حتى استأصلهم، لكنه كان خائر العزيمة، خائف الفوات على أول ما يظفر به من الغنيمة، يورطه عظيم تهوره، وتسلطه على ما يريد سقيم تصوره، فأدى به تفريطه إلى أنه خُلع وسُمِلَ ، ثم الحق بسخط الراضي وشُمِلَ، ثم عطف عليه فتعرض لأمر اطَّرحَ به وأُهمِل، وكان في داره ماله رزقٌ يُقيتُهُ ، ولا رُزْءٌ يُميتُهُ، فقام يستعطي في المسجد الجامع ، حتى أُعطي ما لو أنه الحياة لما أمسكت بها الأرماق، أو الدمع لما بلَّتْ به الآماق.

ثـم :

= المعتضد بن الموفق، أبو منصور، بويع في أيام سلفه المقتدر أخيه لأبيه سنة ٣١٧هـ، وأقام يومين وخلع وسجن ، ولما قتل المقتدر سنة ٣٢٠هـ أُخرج من السجن وبويع، فأقام إلى سنة ٣٢٢ هـ ، ولم تحسن سيرته، فهاج الجند وخلعوه، وكحلوا عينيه بالنار بمسمار محمي دفعتين، وهو أول من سُمل من الخلفاء، وحبسوه ثم أطلقوه، توفي ببغداد سنة ٣٣٩ هـ .

(تاريخ بغداد ١ / ٣٣٩، ابن الأثير ٨ / ٧٦، نكت الهميان ص ٢٣٦، تاريخ الخميس ٢ / ٣٤٩، ٣٥١، مروج الذهب ٢ / ٤٠٠ النجوم الزاهرة ٣ / ٣٠٣)

(٢) ابن ورقاء : جعفر بن محمد بن ورقاء الشيباني، شاعر كاتب جيد البديهة والروية، من الولاة، ولد بسامراء واتصل بالمقتدر، فكان يجريه مجرى بني حمدان، وتقلد عدة ولايات ، وكان بينه وبين سيف الدولة مكاتبات بالشعر والنثر، توفي سنة ٣٥٢ هـ .

(فوات الوفيات ١ / ١٠٥)

٧٥ - دَوْلَةُ الرَّاضِي باللَّهِ

أبي العباس محمد[١] بن جعفر المقتدر، وكان مطاعا صؤولا، قطاعا وصولا، وهو آخر من جُمع من الخلفاء شعره في ديوان، وجلس لهم جلوسا عاما في إيوان، وقام خطيبا على المنبر، وفعل أفعال من بَرَّ، وحاضر الندماء، وسامره منهم كواكب ثقلها الأرض لا السماء، وكان يتحرى عوائد سلفه في ترتيب الخلائف، وتبويب الوظائف، وكان عارفا بلغة العرب، عاكفا على ما لا حرج فيه من الأرب، مولعا بالأدب، ولوع القشيري[٢] بريَّا، والمغيري[٣] بالثريا، وجميل بن معمر ببثينة، ومصعب بن الزبير بسكينة[٤] وله فيه تفنن ينسي به حبيب، وينسج نظرته ما ذكر عن عريب، مما لو يوصف بأكثر منه علي بن جريج، ولا صنف في أحسن منه إسماعيل بن سريج، وكان جوادا طلق اليمين، يهب الآلاف الذهب لا المئين، مع ما أوتي من خَلْق وصبى، وخُلق رضى، وكان الراضي لا يرى بسخط أحد ساخطا [ص١٦٦]، ولا لضغن بين

---

(١) الراضي بالله : محمد بن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بالله، أبو العباس، خليفة عباسي، كانت أيام سلفيه (القاهر والمقتدر) أيام ضعف، امتنع فيها أمراء البلاد من الطاعة، واستقل كثير من الولاة بما كانوا يلون، ولما ولي الراضي سنة ٣٢٢ هـ حاول إصلاح الأمر فأعجزه فاستقدم محمد بن رائق عامله على واسط والبصرة والأهواز، وقلده إمارة الجيش وجعله أمير الأمراء، وتفاقم أمر العمال في الأطراف فلم يبق اسم للخليفة في غير بغداد، وكان آخر خليفة له رسوم الخلافة وتدبير الجيوش والأموال، كانت خلافته ست سنين وعشرة أشهر، توفي في بغداد سنة ٣٢٩ هـ .

(تاريخ بغداد ٢ / ١٤٢، ابن الأثير ٦ / ٢٣٦ـ ٢٧٦، البداية والنهاية ١١ / ١٩٦، فوات الوفيات ٢ / ١٨٥، مروج الذهب ٢ / ٤٠٤ ـ ٤١٢، أخبار الراضي والمتقي ١ـ ١٨٥ النبراس ص ١١٤)

(٢) في الأصل المطيري، وهو تحريف، والقشيري: هو الصمة بن عبد الله القشيري ، وحبيبته ريا، ومطلع قصيدته الحماسية :

حننت إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعباكما معا

(٣) هو عمر بن أبي ربيعة

(٤) هي سكينة بنت الحسين وكانت زوجته .

جنبيه ضاغطا فلا يشوب له نعماء ، ولا يزال الراضي راضيا بموهبة من أفاد المعاني لأسماء .

وحكي عن أبي الحسن العروضي مؤدب الراضي أنه قال : غدا عليَّ الراضي يوما وفي يده درج ، فوضعه ، وأقبل على ما كنت وظفته له ، فأسرع يحصله ، ثم انحاز عني ، وأخذ ذلك الدرج يتصفحه، فقلت له : ما درجك أيها الأمير، فقال : حكمة من حكم الفرس مما ترجم لأمير المؤمنين أبي جعفر المنصور، وانتسخته ، فقلت : أسمعني ما فيه، فقرأ عليَّ أنه لا يضر فساد الملك مع صلاح وزرائه، كما لا ينفع مع فساد وزرائه كبير نفع، وينبغي للملك أن يسوس وزراءه بثقة يكمن فيها احتراس لا يوجد معه حذر، وليس[1] تسوء به هيبته، وليحذر كل الحذر من اختصاص بعضهم دون بعض، وتفضيل بعضهم على بعض، فالوزراء للملك كالطبائع للجسم، صلاح الجسم باعتدال طبائعها وتساويها في القوة، كما أن عطبها في قوة بعضها على بعض. قال العروضي ، فقلت : أيها الأمير إنك اليوم غير محتاج إلى هذا وشبهه، فقال : كلا إني إليه لمحتاج، وإن كان عندك علم منه فأفدناه، وإن لم يكن عندك فاستفده لكي تفدناه . قال : فعلمت بذلك سمو همته، وثقوب فطنته .

وحُكي عن العروضي أنه قال : أمليت على الراضي في صباه كلاما لقتيبة[2]، وهو أن قتيبة شاور أصحابه في رجل يؤمِّره على جيش أراد أن يبعث به لمحاربة بعض من جاور خراسان من الكفار ، فقيل له : هل لك في فلان ؟ فقال : ذاك رجل ذو كبْر، ومن تكبر أعجب برأيه ، ومن أعجب برأيه لم يؤامر نصحاءه ، ومن تحلى بالإعجاب، ودبر بالاستبداد، كان مع الصنع بعيدا، ومن

---

(١) في الأصل : وايس .

(٢) لعله : قتيبة بن مسلم الباهلي أحد القواد

الخذلان قريبا، ومن تكبر على عدو احتقره، ومن احتقر عدوه [قل] احتراسه منه ، ومن قل احتراسه كثر عثاره، وما رأيت محاربا قط تكبّر على عدوه، إلا كان مخذولا مهزوما مفلولا، لا والله حتى يكون أسمع من فرس ، وأبصر من عقاب، وأهدى من [ص ١٦٧] قطاة، وأحذر من عقعق، وأجرأ من أسد، وأوثب [من] فهد، وأحقد من جمل، وأزوغ من ثعلب، وأسخى من ديك، وأشح من صبي، وأخرس من كركي، وألح من كلب، وأصبر من ضب، وأحمل من نمل، فإن النفس إنما تسمح بالعناية على مقدار الحاجة، وإنما نعني بالتحفظ على مقدار الخوف، وقد قيل : على وجه الدهر ليس لمعجب رأي ، ولا لمتكبر صديق، ومن أحب أن يُحَبَّ تحبب. قال العروضي : فكتب الراضي ذلك بخطه ، وعكف على دراسته حتى حفظه في مجلسه ذلك، فلما حصله ارتاح وطرب، وأقبل عليَّ وقال : لعل الزمان أن يبلغ بي إلى أن أتأدب بهذه الآداب .

ثـــم :

٧٦ – دَوْلَةُ المُسْتَكْفِي باللهِ

أبي القاسم عبد الله(١) بن علي المكتفي بن المعتضد، كان لا يكف ذيله عن فجور، ولا يعف ليله عما لا يصح له ديجور، لا ينفك في غيابة ظلام، ولا

---

(١) المستكفي بالله : عبد الله بن علي المكتفي بن المعتضد، أبو القاسم، بويع بعد خلع المتقي لله سنة ٣٣٣هـ، ولقب نفسه (إمام الحق) فكان يخطب له بلقبين (إمام الحق والمستكفي بالله)، ولم تطل مدته غير سنة وأربعة أشهر، وكان ضعيفا، دخل آل بويه بغداد في أيامه، واستولى معز الدولة بن بويه على الأمور، وكان واليا على الأهواز في أيام المتقي، وبعث إليه معز الدولة اثنين من الديلم جذباه عن السرير، وجعلا عمامته في رقبته، وقاداه إلى منزل معز الدولة، حيث سُمل وعمي وسجن سنة ٣٣٤هـ، إلى أن مات سنة ٣٣٨ هـ .

(تاريخ بغداد ١٠/١٢٠، مروج الذهب ٢/٤٢٠ـ٤٢٩، ابن الأثير ٨/١٣٧ـ١٤٨، نكت الهميان ص ١٨٢، النبراس ص ١٢٠، تاريخ الخميس ٢/٣٥٣)

ينتقل عن بطن جارية ، إلا على ظهر غلام، ولا تزال يده مقرَّطة بمنديل ، متوجة بكأس، إلا أنها غير سلسبيل، وكان مجلسه معمورا بالقيان مغمورا بالدنان، كأنه حانة نباذ، أو في قطربل[١] لا بغداد، وكان ربما لم يكتف بمن عنده ، فيطلب له من نساء المدينة العواهر، ومن أبناء أهلها من يكلفه عمل النساء الفواجر، لا يعرف برا ولا حنثا، ولا يخف محمله عن ذكر ولا أنثى ، هذا مع عدم قدرة على حكم ولا سماع لأمره، إلا إذا سمعت الصم البكم، وكان في جميع أموره، كأنه لم يرعه واعظ دين ، ولم يردعه من له معتقد به بدين، حتى كان شُبِّه من بني أمية بالوليد بن يزيد[٢]، وما ينقص عما يريد بل يزيد، وتلاشت في أيامه الخلافة واضمحلت، وانتكثت عقدتها الوثيقة وانحلت، فأصبحت واهية القوى ، ضعيفة لا تتماسك من شدة الجوى، أما قمرها فسقط، وأما نجمها فهوى .

ثـم :

٧٧ - دَوْلَةُ المُطِيْعِ للَّهِ

أبي القاسم[٣] الفضل [ص ١٦٨] بن جعفر المقتدر، ولم يكن له من الأمر

---

(١) قطربل : قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر، وما زالت متنزها للبطالين، وحانة للخمارين، قيل هي اسم اطسوج من طساسيج بغداد، أي كورة فما كان من شرقي الصراة فهو بادوربا، وما كان من غربيها فهو قطربل .

(ياقوت : قطربل)

(٢) الوليد بن يزيد : بن عبد الملك بن مروان، كان من فتيان بني أمية وخلعائهم،شُهر بالانهماك في الخمر واللهو والغناء والموسيقى ، نقم عليه الناس فبايعوا سرا ليزيد بن الوليد بن عبد الملك ، قصده جمع من أصحاب يزيد فقتلوه سنة ١٢٦ هـ .

(ابن الأثير ٥ /١٠٣ ،ابن خلدون٣ /١٠٦ ،تاريخ الخميس ٢ / ٣٢٠)

(٣) المطيع لله : الفضل بن جعفر المقتدر بالله ابن المعتضد العباسي، أبو القاسم ، بويع بالخلافة بعد خلع المستكفي بالله سنة ٣٣٤هـ وكانت أيامه أيام ضعف وفتور، ولم يكن له من الملك إلا=

شيء، ولا له فيها ممتد ظل ولا فيّ ، لم يكن له من الخلافة إلا رسمها، ولا من الممالك إلا أن يضاف إليه اسمها، قد شبع مما لا يستطيب، وقنع باسمه على سكة نقاش ومنبر خطيب، وكان في الخلافة كأنه سر مخفي، وعلى المنابر اسم شيء غير مرئي، ما فرح بأن ينفذ له أمر وراء بابه، ولا حكم حتى ولا في أسبابه، فما له ذكر خارج حجابه، ولا شيء يتحدث به عند حجابه، قد جعل قصره محبسه، وقيده مجلسه، وأكثر ما يتحصل له من أجل بلاده، مقدار ملء خاصرته من زاده، بل كان في بعض الأوقات ربما راجع من حجر عليه في نزر به يتوسع، ونزر منه يتجرع، فوقتاً يُعطى ، ووقتاً يُمنع، سوى أنه ما منح في العطاء ، ولا فُسِح له في كثرة الخلطاء ، وكان عليه مما يعد ولا يستطيع ، ولا يمكنه إلا أن يكون لما يقال له السامع ولما يؤمر به المطيع، إلا أنه طالت مدته وهو على هذه الحال المقضي، والأمر غير المرضي، ولا عير له ولا نكير ، ولا توسيع له في مجال الحيلة ولا تفكير، ثم كانت آخرته أن خلع نفسه وولى ابنه، وخلى فكره مما كان فيه، وأخلى ذهنه، ثم ما عاش إلا أياما، وخلف أولاده أيتاما، ونساءه أيامى .

ثـم :

٧٨ - دَوْلَةُ الطَّائعِ لِلّه

أبي بكر عبد الكريم[١] بن الفضل المطيع، ولم يكمل السنتين، ولم يعمل

= الخطبة، فإن الديلم استولوا على كل شيء ، وأصبح الحل والإبرام في عهده للوزير معز الدولة بن بويه، واستأثر هذا بكل ما للخليفة من عمل، وفُلج المطيع لله وثقل لسانه، فخلع نفسه، وعهد إلى ابنه الطائع لله ، وتوفي بعد شهرين بدير العاقول، وحُمل إلى بغداد فدفن بها سنة ٣٦٤ هـ .
(المسعودي ٢ / ٤٢٩ ، ابن الأثير ٨ / ١٤٨ ـ ٢١٠ ، فوات الوفيات ٢ / ١٢٥ ، النبراس ص ١٢١ ، تاريخ الخميس ٣٥٣)

(١) الطائع لله : عبد الكريم بن الفضل المطيع لله ابن المقتدر العباسي، أبو الفضل، من خلفاء =

بأمره إلا فيما وقعت عليه نواظر المقلتين، وكانت دولته بعد دولة أبيه ثانية اثنتين، وهو وأبوه سواء في الحالتين، فما قطع ولا وصل ، ولا اتصل به أحد ولا انفصل ، وكان يحدث بأساه أنه يهم ثم يحدث له أنه لا يتم، وكان المتبوع التابع، والمطاع الطائع، لا يكلف حمل عبء ، ولا يكفل إخراج خبء ، بل هو معهم على قدره الكبير كالبعير، كيف ما صرفوه انصرف، ومهما قارفوه به اقترف، إن وقفوه لا يتهمم للحرك، وإن مشوه مشى [ص ١٦٩] وإن برَّكوه برك، وكان شاهدا كأنه غائب، وزاهدا إلا أنه راغب، ثم خُلع وسُمِل وسُجن، ومكث نحو عشرين سنة في داره حيًّا قد دُفن ، إلى أن أتاه الموت المريح، ونقلوه من قبر إلى آخر، من داره إلى الضريح .

ثـــم :

٧٩ – دَوْلَةُ القَادِرِ بِاللّه

أبي العباس أحمد(١) بن إسحاق بن جعفر المقتدر، بويع بالمشاورة وأبوه

= الدولة العباسية بالعراق أيام ضعفها، نزل له أبوه (المطيع) عن الخلافة سنة ٣٦٣ هـ، وكانت في أيامه فتن بين عضد الدولة البويهي والأمير بختيار، فقُتل بختيار سنة ٣٦٧ هـ، ومات عضد الدولة سنة ٣٧٢هـ، وخلف عضد الدولة ابنه بهاء الدولة، فقام بشؤون الملك وقبض على الطائع سنة ٣٨١هـ وحبسه في داره وأشهد عليه بالخلع، ونهب دار الخلافة، وبقي الطائع سجينا إلى أن توفي سنة ٣٩٣هـ ، وللشريف الرضي قصيدة في رثائه .

(ابن الأثير ٨ / ٢١٠ ، تاريخ الخميس ٢ / ٣٥٦,٣٥٤ ، النبراس ص ١٢٤ ،فوات الوفيات ٢ /٣ ، نكت الهميان ص ١٩٦)

(١) القادر بالله : أحمد بن إسحاق بن المقتدر، أبو إسحاق، ولي الخلافة سنة ٣٨١هـ، وطالت أيامه ، كان حازما مطاعا حليما، هابه من كانت لهم السيطرة على الدولة من الترك والديلم فأطاعوه، وأحبه الناس فصفا له الملك ، وهو آخر خليفة عباسي تولى الأحكام بنفسه ، عرف بالزهد ومجالسة العلماء وتفقد أمور العامة ، توفي سنة ٤٢٢ هـ .

(تاريخ بغداد ٤ /٣٧ ، ابن الأثير ٩ /١٤٣,٢٨ ، تاريخ الخميس ٢ / ٣٥٥ ، النبراس ص ١٢٧)

حي، وأومىء إليه بالإشارة وما أقفر حي، وكان لما أجمعت عليه الشورى وحنت إليه الآراء إربا وشورى، قد لبس بالبطائح ثياب طائح، فجُهز إليه الشعار الخليفيّ، وأتاه بالسواد في حلية الشباب الفتيّ، ومما بُعث إليه من الإرث الأبوي، والأثر النبوي، فلما قدم تلقي بإجلال الخلفاء، وحمالة المواكب بالسادات والشرفاء، حتى إذا دخل القصر من سعة الفضاء إلى ضيق الحصر، وطالت سني ملكه، حتى جاوزت إحدى وأربعين، وتغيرت دول الملوك ولا يجد من على الأرب يُعين، فكان كلما أتى آت سلك سبيل من كان قبله من التضييق، وتركه من قبله في قصره المتسع في مضيق، وكان في صباه مقصورا على جوب وهيام، وحور مقصورات في الخيام، له كلف بالجواري والعذارى الهيف، ذات كل ردف ثقيل وخصر لطيف، وله بكؤوس المدام اهتمام، وبكوب السابقين إلى حل الغرام التيام، وبما ينفق من عمره من غير الندام اغتمام، فكان لا يبرح صريع جام ملآن، أو في استجمام لرحيق ريق فلانة أو أم فلان، فما نهضت له قط كلمة، ولا قط بالسيف رأس عدوه ولا قلمه، فكان مدة ولايته لا يضر ولا ينفع، لا ولا يرشح، لأنه يأمر لا ولا أن يشفع، فما كان على شيء كما قال قادرا، ولا وفيا ولا غادرا، ثم مات حتف أنفه، ولا شكر الناس من لينه، ولا شكوا من عنفه(١).

ثـم :

٨٠ - دَوْلَةُ القَائِمِ بأمْرِ باللّه [ص ١٧٠]

أبي جعفر عبد الله(٢) بن أحمد القادر، ولي بعد أبيه القادر، وعهد زمانه

(١) وصف المؤلف للقادر بالله خلاف ما ذكرته المصار من الصلاح والزهد والحزم.

(٢) القائم بأمر الله: عبد الله بن أحمد بن الأمير إسحاق ابن المقتدر، أبو جعفر، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٤٢٢ هـ بعهد منه، وكان ورعا عادلا كثير الرفق بالرعية، له فضل وعناية بالأدب =

يُعَد فيه أمور كلها في النادر، ولي مرتين ، وسار فيها سيرتين ، فأما الأولى : فكان فيها لصيد وقنص، وأما الثانية فكان فيها لقصيد[١] وقصص، وامتدت أيامه أكثر من أبيه، وكثر فيها تخليط أعدائه ومحبيه، وكان أرضى من أبيه نبا، وأمضى سنا، وأهب صبا، وأشب إلى العلو على صبى، وكانت همته ملوكية، وإن لم يجد سبيلا إلى اقتداح زنادها، ولا رسيلا إلى قراح عهادها[٢]، وكان لا يقنع إلا بما كان عليه أوله، ويقرع باب عزائمه، والأقدار لا تنوله، وكان لا يزال يشم من نفسه دخان أواره، ويظهر على وجهه شعاع ما لم يواره، ويكتم حاله والله مبديه، ويخاف الناس والله أحق أن يخافه ولا يخفيه، وكان ربما ألم بهبة من الطرب ونغبة[٣] لا ترويه من ماء العنب، فكان ربما بسطه المدام فتحدث، ونشطه من عقال المداراة فعجل ولم يتلبث، وكانت عليه عيون موكلة بما ترى، ومسامع لا تكذب خبرا، فأغرى به قلب من كان في يديه موقرا كالمرتهن، ولديه موفرا كالممتهن، وأعان عليه حاشية سوء كانوا حوله، وأعوان سيئة لا تطيق قوته ولا حوله، وكان منهم ابن رئيس الرؤساء ، وكان عدوا لأرسلان البساسيري[٤]، وهما للخلافة فالا قفي أو سيري، فظفر ابن رئيس الرؤساء

= والإنشاء، توفي سنة ٤٦٧ هـ .

(تاريخ بغداد٩ / ٣٩٩، ابن الأثير حوادث سنة ٤٢٢ ـ٤٦٧ هـ، فوات الوفيات ١ / ٢٠٣ هـ تاريخ الخميس ٢ /٣٥٧)

(١) في الأصل : لتصد ، وهو من سهو الناسخ.

(٢) العهاد : مطر أول السنة .

(٣) النغبة : الجرعة .

(٤) أرسلان البساسيري: قائد ثائر تركي الأصل ، كان من مماليك بني بويه، خدم القائم العباسي ، فقدمه على جميع الأتراك في بغداد، وقلده الأمور بأسرها ، ثم خرج على القائم وأخرجه من بغداد، قتل ببغداد سنة ٤٥١هـ .

(وفيات الأعيان ١ / ٦١، النجوم الزاهرة ٥ / ٢ ، ٦٤، اللباب ١ / ١٢١)

بأرسلان البساسيري، وملك فلم يسجح، وأفسد ولم يصلح، وكان الأولى بمثله وهو رب القلم، وذاك رب السيف، أن يعفو إذا قدر، ويصفو إذا كدر، إلى ما هو بـه جدير، ولا عاقب إلا معاقبة ضعيف لاقدير، فنكل به أشد التنكيل، ومثَّل به أقبح التمثيل، وبسط عليه العذاب الأليم، وسلط العقاب على الحريم ، وفعل في ذلك فعل من طنخ(١) ونوَّخ بعيرا فلم ينخ ، فما قنعت تلك الشوكة إلا بخلع الخليفة، والقبض عليه وإرجافه بالخيفة، وتعويقه من سما عليه في دار بالحديثة، [ص ١٧١] وسعت في أعضاء خوله تلك الشوكة الخبيثة، وخُطِب ببغداد والعراق للمستنصر(٢) أبي تميم معد بن الطاهر العبيدي، خليفة مصر، وحمل على أعناق المنابر ثقل ذلك الإصر(٣)، إلى أن تقضَّت سنة، وما غمضت مقلا سنَة(٤) ، ثم انتحى له ملوك المشرق، وردوا زمانه المشرق، ومدوا ظل عصره الموفق، فتوجوا رؤوس المنابر والمرفق وأعيد إلى بغداد وأعلامه تثنَّى ارتياحا وترسل للبشرى بين يديها رياحا، فدخل إلى قصره، وتوقل(٥) رتبته ، وحل في صدرها، وحلَّى جيده بدررها، وجل به منصب الخلافة، على ما كان أو أسنا، وجدَّ حتى ظفر بأعدائه، وبلغ ما تمنى ، وانقرضت في أيامه دولة العجم، وانقضت بغير عود من النصال عجم، فطلع طالع الخلفاء ونجم ، وصار مستقلا لو أراد الولوج على الأسد لهجم، أو العروج إلى السحاب لصار وصاب وانسجم،

(١) طنخ : خبثت نفسه .

(٢) المستنصر الفاطمي : معد بن علي بن الحاكم بأمر الله من خلفاء الدولة الفاطمية العبيدية بمصر بويع وهو طفل بعد وفاة أبيه، وقام بأمره وزير أبيه علي بن أحمد الجرجرائي، استمر في الخلافة وكان كالمحجور عليه، توفي سنة ٤٨٧ هـ .

(النجوم الزاهرة ٥ / ١-٢٣، ابن خلدون ٤ / ٦٢، وفيات الأعيان ٢ / ١٠٣)

(٣) الإصر : الثقل ، والعهد المؤكد، والذنب .

(٤) السِنة : النعاس، وهو مبدأ النوم .

(٥) توقل : صعد وارتقى .

وأمـا ابن رئيس الرؤسـاء ، فـإنـه أكل مما طبخ، وأُرق بما نفخ، هـذا قـبـل أن يدال القـائـم ، ويدار له الدور على الظالـم ، لكن البسـاسيري لـم يلج في تقاضي دينه، ولا كفـر بهلاكـه ريب رينه[١]، بل قنع بالاقـتدار بأنه أظهـره، ولبَّسـه طرطورا [٢] وركبـه على جمل وأشـهره، ثم لما ثبت ملـك القائم ، عهـد إلى ابنه ذخيـرة الدين أبي العباس محمـد ، فعجل الزمان بإنفاق الذخيرة، وقدر بانتـقالها إلى الله الخيرة، فأودع القائـم ربه من الذخيرة ما كان ذخـر، وودع إلى الضريح قلبه ومـا كان به قد فجر، ورجع البكاء ثم استرجع من ابنه المقتدي لين الذخيرة أشياعه الأخر، وعهد إليه وعقد، لنجم سما، وغيث همى، وبحر زخر .

ثــم :

٨١ - دَوْلَةُ المُقْتَدي بأمْرِ اللّهِ

أبي القاسم عبد الله[٣] بن محمد الذخيرة بن القائم ، وكان تحت كنف بني بويه، كـأنه صبي ضرب الحجر عليه، مع مـا كـان فيـه من عـقل وسكينة، وفضـل يصلح دنياه ودينه، وكان لإفراط التضييق عليه، لا يأخذ لقلبه فضـاء، ولا ينفذ حكمـا ولا قضـاء، ثم غضَّى على ما تكره عينه، ولـم يدرِ كيف يتقـاضى دينه، إلا [ص١٧٢] أنه استروح بمراسلة يوسف بـن تاشـفين، وبرد حُرَقَهُ بمكاتباته وما

---

(١) الرين : الدنس .

(٢) الطرطور : القلنسوة الطويلة الدقيقة الرأس .

(٣) المقتدي بأمر الله : عبد الله بن محمد بن القائم ابن المقتدر، أبو القاسم، من خلفاء العباسيين في العراق، ولد في بغداد وعهد إليه بالخلافة جده القائم بأمر الله، فوليها بعد وفاته سنة ٤٦٧ هـ وعمره ثماني عشرة سنة، فانصرف إلى عمران بغداد، وأمر بنفي المغنيات والمفسدات، وبقلع أبراج الطيور ، ومنع الملاحين أن يحملوا في زوارقهم النساء والرجال مجتمعين، وكان عالي الهمة، له علم بالأدب، وله شعر، وأيامه خير وسعادة واطمئنان، مات فجأة في بغداد سنة٤٨٧ هـ .

(ابن الأثير ١٠ / ٣٣ ـ ٧٩، تاريخ الخميس ٢ / ٣٥٩، فوات الوفيات ١ / ٢٣٣،النبراس ص ١٤٤)

شفين وهيهات، بينهما عرض الأرض، ومر البر ، ونحر البحر، وملوك العبيديين بمصر بين بحريهما حاجز، وحائل بينهما لا يزيله عاجز، وإنما كان يعلل نفسه بالمنى، ويؤمل مدد النصر من هنا ومن هنا، فلم تنقطع بينهما المكاتبات، ولا حجبت أرواح الابتداآت والمجاوبات، ولا يرغد عيشنا بعلالتها، ويتملأ رِياً ببلالتها، وربما كتب إلى ملوك ما وراء النهر، فعومل الرسول بالرد والنهر، وقيل له: لو قمتم بأمور الدين، وتركتم أباطيل السفه، وأقاويل الشبه، وأخذتم بما تبين لا بما اشتبه، وبما تحتم من الحق أو الخير لما تسلطت عليكم حكام الجائرين ، ولا سطت بكم أيدي الحكام المجاورين، لكنكم فعلتم وفعلتم، وعلمتم وجهلتم، وعدَّد عليهم قبائح ما ارتكبوا وفضائح ما احتقبوا، وكان المقتدي ممن يرتاح للندى، ويلتاح نجم هدى، وله هدي مأثور، يفاوح أرج المنشور، كأنه بالعنبر نسخ، وبرشاش ماء الورد نفخ، يؤثر الخير ولا يلتقي عليه مساعدا، ويؤثر الجود ولا يخلف عليه مواعدا، ويقارب حال السلف ولا يكون مباعدا، ويقارن هام الغمام ولا يقدم راعدا، وكان أبوه أبو العباس محمد الذخيرة قد مات، كما ذكرنا في زمان أبيه القائم، وتلقى من رضوان ربه تحية القادم، فلم يكن للقائم دأب إلا تأديب المقتدي، وقراءة سير الخلفاء الصالحين عليه، كعمر بن عبد العزيز، والمهتدي ، وإعلامه بأحوال الدول، مسيئها ومحسنها، وأمره بتصفحها، والأخذ بأحسنها، حتى كان لو تمكن ناذره، وخاتمةً لأول الغيث أو بادره، وقد ذكر ابن الأثير(١) أنه مات فجأة ، قال : كان قد أُحضر عنده تقليد السلطان بركياروق ليُعلم فيه، فقرأه وتدبره وعلم [بما] فيه، ثم قدم إليه طعام ، فأكل منه وغسل يديه ، وعنده قهرمانته شمس النهار، فقال لها : ما لهؤلاء الأشخاص [ص١٧٣] الذين قد دخلوا عليَّ بغير إذن؟ قالت: فالتفت فلم أر شيئا ، ورأيته

(١) الكامل ٨/٤٩٣ ط بيروت ١٩٩٥ .

قد تغيرت حالته، واسترخت يداه ورجلاه، وانحلت قوته، وسقط إلى الأرض، فظننتها غشية لحقته، فحللت ثوبه فوجدته عليه إمارات الموت، فتماسكت وقلت لجارية عندي: ليس هذا وقت إظهار الجزع والبكاء ، فإن صحت قتلتك، فأحضرت الوزير فأعلمته الحال، فشرعوا في البيعة لولي العهد، وكانت أيامه كثيرة الخير، واسعة الرزق، وعمرت محال بغداد، وتوفي في [يوم السبت خامس عشر المحرم سنة سبع وثمانين وأربع مائة][1]

ثـــم :

٨٢ - دَوْلَةُ المُسْتَظْهِرِ باللَّه

أبي العباس أحمد[2] بن عبد الله المقتدي، ولم يكن مثل أبيه في تأ بِّيه، بل كانت له يقظة نبيه، وكان مقبلا على لهوه، مشتملا على زهوه، يميل إلى الخمر، ويميل به سكرا، ويميد بمعطفه، فيسجد ثملا لا شكرا، لا يعرف راحة إلا موصولة براح ، ولا اقتداح مسرة إلا بأقداح، فلا يعطل حبب الكؤوس، ولا حبب عقد العجوز العروس، أوقاته كلها طرب وانتشاء،وحرب في كؤوس تدور بها أيدي بدور بكرة وعشاء، وكان ذا حظ من الأدب ، وحضٍّ إليه وندب ، وباسمه ألف أبو محمد القاسم بن محمد الحريري كتاب المقامات، بأمر وزيره

(١) ما بين المعقوفتين في الأصل بياض ، والتكملة من كامل ابن الأثير .

(٢) المستظهر بالله : أحمد بن عبد الله المقتدي بن محمد بن القائم، أبو العباس ، ذخيرة الدين، ولي الخلافة بعد أبيه سنة ٤٨٧ هـ، واتسق له الأمر على حداثة سنه، وكان ممدوح السيرة لين الجانب، كريم الأخلاق، يحب فعل الخير واصطناع الناس، له معرفة بالأدب والشعر، وباسمه ألَّف الغزالي كتابه (المستظهري) في فضائح الباطنية، وفضائل المستظهرية، كانت أيامه مضطربة كثيرة الحروب، وفي أيامه أخذ الفرنج بيت المقدس عنوة وقتلوا أهله بالمسجد الأقصى، دامت خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر، توفي في بغداد سنة ٥١٢ هـ .

(ابن الأثير ١٠ / ١٨٨،٨٠ ، مرآة الزمان ٨ / ٧٣، تاريخ الخميس٢ / ٣٦٠، النبراس ص ١٤٥)

شرف الدين أبو شروان بن خالد، وكان ابن جهور يقول : إن الذي أشار عليه بها في قوله، فأشار مَنْ إشارتُه حكم، وطاعته غُنْم، إنه المستظهر، قال ابن الشريشي : وكان للمستظهر رعية في الطلب، وعناية بأهل العلم ، قال : وحدث ابن جهور أنه دخل بغداد في أيامه، وبها ألف وخمس مائة رجل حامل علم، وكلهم قد أثبت أسماءهم السلطان في الديوان، وأجرى على كل واحد من المال بقدر حظه من العلم، قال : وكان ابن جهور يحدث أن الحريري ألف المقامات كلها على الركاب، وذلك أن المستظهر لما أمره بصنعها، خرج كالحافظ على العمال، وكان يخرج في الأبردين، يتشهى [ص١٧٤] في ضفتي دجلة والفرات، يصقل خاطره بنظر الخضرة والمياه، فلم ينقضِ فصل العمل إلا وقد اجتمع له مائتا مقامة، فخلص منها خمسين وأتلف الباقي، وصدر الكتاب ورفعه، فبلغ عنده أعلا المراتب، انتهى كلامه.

قلت : وفي أيام المستظهر أخذت الفرنج بيت المقدس وأكثر بلاد الشام، وظهر التهتك بالقبائح وقلة الاحتشام، وفشا أمر الربا وشرب الخمر والزنا، فكثرت الملاهي، وقلت النواهي، وعظمت تلك الدواهي، فعجل لهم العقاب، وعذبوا بأخذ البلاد منهم، وهو أخف العذاب، وكان المستظهر ذا نادرة، كتب إليه الأبيوردي(١) قصة، وكتب على رأسها : الخادم المعاوي، فكشط الميم، فصارت العاوي .

ثـم :

---

(١) الأبيوردي : محمد بن أحمد القرشي الأموي، أبو المظفر، شاعر عالي الطبقة، ولد في أبيورد بخراسان ، له كتب وديوان شعر ، مات مسموما في أصبهان كهلا سنة ٥٠٧ هـ .

(معجم الأدباء ٦ / ٣٤١، ابن خلكان ٢ / ١٢، مرآة الزمان ٨ / ٤٨)

٨٣ - دَوْلَةُ المُسْتَرْشِدِ بالله

أبي منصور الفضل[١] بن أحمد المستظهر ، وكان مع الملوك كشأن الخلفاء قبله، وعلى ما كان عليه من كان مثله، وكان الغالب عليه جمال الدولة سنجر عليه من يحجب ويحجز، والمسترشد يظهر إعراضا في ابتغاء ، ويُسِر حسوا في ارتغاء[٢]، كأنه زند النار، ظاهره حجر، وباطنه أوار، وبقي يتربص بسنجر الدوائر ، ويوقد له النوائر، وسنجر لا يقع في حبالته، ولا يلين له جانب حالته، إلى أن قُدر لسنجر أجل أجله وأُتيح، وألقي في مرط أمله وأُطيح، فخفَّ عن صدر المسترشد ثقل ذلك الطود، وأمن تحطم ذلك العود، وقام نور الدولة مسعود بن سنجر، ولم يكن المسترشد ممن يتقيه ولا يخافه، ويجد في توقيه، فطمح إلى الوقوف على أمر مملكته، وعمل على موت مسعود وهلكته، ليخلو له الجو، ويتبع الأسد الذاهب بالبو[٣]

قال الشريف الغرناطي : فصنع المسترشد دعوة عظيمة لنور الدولة مسعود بن

---

(١) المسترشد بالله : الفضل بن أحمد المستظهر بالله ابن المقتدي، أبو منصور، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٥١٢ هـ ، كان عالي الهمة شجاعا فصيحا بليغ التوقيعات، له شعر جيد، حدثت في أواخر أيامه فتنة قام بها أمير أمرائه السلطان مسعود بن ملكشاه السلجوقي، فجرد المسترشد جيشا لقتاله، ودس له السلطان محمود جمعا من رجاله أظهروا الطاعة ، حتى إذا نشبت الحرب انقلبوا عليه، وانهزم عسكره، وثبت وحده في مقره، فاعتقله السلطان مسعود، وأخذه معه يريد دخول بغداد، فلما كانوا على باب مراغة دخل عليه جمع من الباطنية أرسلهم السلطان سنجر السلجوقي لقتله، فقتلوه، ومثلوا به ، ودفن في مراغة سنة ٥٢٩ هـ .

(ابن الأثير ١٠ / ١٨٩ و١١ / ١٠، تاريخ الخميس ٢ / ٣٦١، فوات الوفيات ٢ / ١٢٤، مفرج الكروب ١ / ٥٠، تواريخ أل سلجوق ص ١٧٨، مرآة الزمان ٨ / ١٥٦، النبراس ص ١٤٥)

(٢) هذا مثل : يسر حسوا في ارتغاء، أي : يظهر أمرا ويريد غيره . الميداني ٢ / ٤١٧، المستقصى ٢ / ٤١٢، اللسان :(رغا)

(٣) البو : ولد الناقة، وجلد الحوار يحشى تبنا ويقرب من أمه لتدر عليه .

سنجـر، ووجـوه الدولة، وينـوي قـتلهـم، فـفطن لذلك مـسـعـود، فـدخل عليـه في[ص١٧٥] رجلين من قرابتـه، وأومى إلى تقبيل يده، فجبذه بها جبذة شديدة ألقاه بها عن السرير إلى الأرض، وألقى عمامته في عنقـه، وأراد خنقـه، ثم كف عنه وخرج، وفي قلبه منه ما فيه .

قلت : وبقيا على ازورار البغضاء ، وانحراف يقلهما على مثل الرمضاء، ثم قُتِل بعد ذلك بأيدي الباطنية،[١] وأورد أجل المنية، قُتِل بأرض الأعاجم، ودخل عليه الأجل الهاجم، وكانت قتلته بحي أصفهان القديمة، وثوت بها ركائبه المقيمة، وكان يُمنِّي نفسه الاستقلال بالخلافة من غير تشريك، ولا مزاحمة تكون لمليك، وكان المسترشد ينشد عند تزايد كربه ، وترافد الرجال في حربه :

[**الطويل**]

أنا الأشقر الموعود بي [في] الملاحـم

وكان هكذا أشقر أبيض، كأنَّ لؤلؤاً على صفحاته ترقص، وأتى نعيه بغداد، فأظلم جوُّها لملمٍّ مماته، وأظل أهلها غم وفاته، وارتجت لمهلكه أكناف العراق، وفاضت دجلة بالدموع التي تراق، ولم يبق بها ناحية، إلا وبها نائحة، ولا جارحة إلا وفيها جارحة، لما فقدت من بعد سوقه، وعدل أمات العدو بخوفه. وحكى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ قال : كان المسترشد يلحق بالصدر الأول من سلفه، في علو الهمة وحسن السيرة والإقدام العظيم، فإنه لما التقى هو وعماد الدين زنكي بن آقسنقر في المصاف بعقرقوب[٢]، وأنا حاضر المصاف، ضرب له

---

(١) الباطنية : هم الذين يجعلون لكل ظاهر باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا، وتطلق على عدة فرق إسلامية كالإسماعيلية والقرامطة والخرمية، وعلى فرق غير إسلامية كالمزدكية .

(الموسوعة العربية الميسرة ١ /٣١٢)

(٢) في الأصل : عقرقوب ، وهي عقرقوف : قرية من نواحي دُجيل بينها وبين بغداد أربعة فراسخ .

(ياقوت : عقرقوف)

خيمة من أطلس أسود[١]، ووُضِع له فيها تخت، وجلس عليه، والخيل تطرد فُكِسر عسكر زنكي في يوم الاثنين السابع والعشرين من رجب سنة ست وعشرين وخمس مائة، فاستولى على ما فيه، وانهزم زنكي إلى الموصل، وذلك الإقدام سبب تلفه، وأنشد القاضي جمال الدين محمد بن واصل للمسترشد:

[الطويل]

أنا الأشقر الموعودُ بي في الملاحم ... ومن يملك الدنيا بغير مزاحم[ص١٧٦]
ستبلغُ أرضَ الروم خيلي وتنتضي ... بأقصى بلاد الصين بيضُ صوارمي

ثم إن المسترشد حاصر في العشرين من رمضان سنة سبع وعشرين وخمس مائة مدينة الموصل، فقصد باب المسترشد جماعة من الأمراء السلجوقية وخدموه وقوي بهم، واتفق اشتغال السلاطين بالخلف الواقع بينهم، فأرسل المسترشد أبا الفتوح الأسفراييني الواعظ، إلى جمال الدين زنكي، برسالة فيها خشونة، وزادها أبو الفتوح زيادة في الخية[٢]، ثقة بقوة الخليفة، وناموس الخلافة، فقبض عليه عماد الدين زنكي وأهانه، ثم دام الحصار على الموصل نحو ثلاثة أشهر، فلم يظفر منها بشيء، فعاد إلى بغداد.

وحكى الأمير سديد الدولة أبو محمد بن الأنباري، كاتب الإنشاء، قال: وقع بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، وبين المسترشد خُلف، وخرج المسترشد لقتاله مرتين وكُسِر، فلما مات السلطان محمود، وولي أخوه السلطان مسعود بن محمد، استطال نوابه بالعراق، وعارض الخليفة في خاصه، فوقعت بينهما وحشة، وتجهز المسترشد للخروج، وجدَّ في ذلك، فدخل إليه الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي، وكمال الدين صاحب المخزن، وأنا معهما،

---

(١) الأطلس: ضرب من الأكسية أسود.

(٢) كذا في الأصل، ولعلها: الخبة وهي الغش والخداع.

وكان المسترشد قد طرد نواب السلطان عن البلاد، ورتب صاحب المخزن للنظر في المظالم، فلما دخلنا قال له الوزير : يا مولانا، في نفس المملوك[١] شيء ، فهل يؤذن له في المقال ؟ فقال : قل، فقال : إلى أين نمضي وبمن نعتضد، وإلى من نلتجيء، ومقامنا ببغداد أمكن لنا، ولا يقصدنا أحد، والعراق ففيه لنا الكفاية ، فإن الحسين بن علي عليهما السلام، لما خرج إلى العراق ، جرى عليه ما جرى، ولو أقام بمكة، ما اختلف عليه أحد من الناس، فقال لي الخليفة: ما تقول يا كاتب ؟ فقلت يا مولانا، الصواب المقام، وليت العراق يبقى لنا، فقال لصاحب المخزن: يا وكيلي ، ما تقول ؟ فقال ما في نفسي، وأنشد الخليفة قول المتنبي :[٢]

[**الخفيف**][ص ١٧٧]

وإذا لم يكن من الموتِ بدٌّ   فمن العار أن تموتَ جبانا

وخرج، وخرجنا معه، فلما قاربنا همذان وقع المصاف بين الخليفة والسلطان مسعود بن محمد، بمكان يسمى داي مرك قرب همذان، فلما اصطفت العساكر فر من معسكرنا جميع الأتراك إلى ناحية السلطان، ثم وقع القتال، فانهزم الخليفة وأرباب المناصب، وحمل الوزير وصاحب المخزن وأنا ونقيب العلويين إلى قلعة سرجهك قريب قزوين ، وبقي الخليفة مع السلطان، وسار معه في بلاد أذربيجان، إلى أن وصلوا إلى مراغة، فهجم على الخليفة ثلاثة نفر من الملاحدة والباطنية، وهو في خيمته، فقتلوه ، وقتلوا معه ابن سكينة، وكان يصلي به، وذلك في يوم الخميس لأربع بقين من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمس مائة، فلما قُتل الخليفة أظهر السلطان مسعود الجزع العظيم والحزن الكثير، ودفن

(١) في الأصل : الملوك، وهو تحريف .

(٢) ديوان المتنبي ٤ / ٢٤١ شرح العكبري .

الخليفة بمراغة، ووصل الخبر بذلك إلى العراق، فحزن الناس عليه حزنا عظيما، وبويع بالخلافة ولده الراشد[١] ببغداد، واستقرت خلافته بها .

وذكر الشريف الغرناطي أن المسترشد عهد إلى الراشد حين بلغ ، وإنه بلغ لتسع سنين ، وإنه لو كان يمكن أعادها سفاحية منصورية. قلت : ثم قدم السلطان مسعود[٢] وضرب عنق دبيس بن مزيد صاحب الحلة .

قال ابن الأنباري: لما قتل المسترشد أحضرنا السلطان مسعودوقال : ما التدبير في أمر الخلافة، وبمن ترون ؟ فقال الوزير : الخلافة لولي العهد، يعني الراشد، وقد بايعه الناس ببغداد، وجلس واستقر، وبويع له من قبل قتل أبيه بولاية العهد، وبويع له الآن بالخلافة ، فقال السلطان : ما لي إلى هذا سبيل أبدا، ولا أقره عليها ، فإنه تحدثه نفسه بالخروج مثل أبيه، كان قد خرج على أخي محمود مرتين، وعليَّ مرة، وهذه أخرى، فتم عليه ما تم، وبقيت علينا شناعة عظيمة، وسُبَّة إلى [ص١٧٨] آخر الدهر، فإنه يقال : قتلوا الخليفة وهم كانوا السبب في عود الخلافة إلى هذا البيت، ولا أريد أن يلي الأمر إلا رجل لا يدخل في غير أمور الدين، ولا يجند، ولا يجمع، ولا يخرج عليَّ، ولا على أهل بيتي، وفي دار الخلافة جماعة، فاعتمدوا على شيخ منهم صاحب عقل ورأي وتدبير، يلزم نفسه ما يجب من طاعتنا ، ولا يخرج من داره . قال ابن الأنباري : وأرسل السلطان مسعود إلى عمه السلطان سنجر بن ملكشاه يستشيره فيمن يولي الخلافة ، فأرسل إليه يقول : لا تولي الخلافة إلا من يضمنه الوزير صاحب المخزن، وكاتب الإنشاء ، فلما وصل السلطان همذان، اجتمع بنا، وأشار بهارون بن المقتدي، وعرفنا بما أمره به عمه السلطان سنجر، فقال الوزير : إذا كان الأمر

---

(١) في الأصل : الرشيد، وهو تحريف

(٢) في الأصل : نوريز، والتصويب من كامل ابن الأثير

يلزمنا فنحن نولي من نريد، وهو الزاهد الدَّيِّـن الذي ليس في الدار مثله، فقال السلطان : من هو ؟ فقال : الأميرأبو عبد الله محمد بن المستظهر، فقال : وتضمن ما يجري منه، فقال الوزير : نعم ، وكان الأمير أبو عبد الله صهر الوزير على ابنته، وأنها دخلت يوما الدار في خلافة المستظهر ، فرآها الأمير أبو عبد الله فطلب من أبيه تزويجها، فزوجه بها، فدخل بها، وبقيت عنده، ثم توفيت، فقال السلطان : ذلك إليكم ، وكتموا الحال لئلا يشتهر الأمر فيقتله الراشد، ثم رحل السلطان والجماعة نحو بغداد، فأما الراشد فإنه لما بويع ببغداد بالخلافة بعد مقتل أبيه المسترشد بالله ، أرسل إلى الأمير عماد الدين زنكي آقسنقر يستدعيه ليحدثه، وضمن له أن تكون السلطنة والملك للملك ألب أرسلان بن محمود بن محمدبن ملكشاه الذي عند أتابك، وأن تكون أتابكة السلطنة والخلافة بحكم عماد الدين .

ثـم :

٨٤ - دَوْلَةُ الرَّاشِدِ باللَّه

أبي جعفر منصور[١] بن الفضل المسترشد ، وكان بأبيه يسترشد، وعلى نحو ما قرره يحل ويعقد [ص١٧٩] ويعد وينقد، ووجد لمهلك أبيه مالا قدر بملك

---

(١) الراشد بالله : منصور بن الفضل المسترشد بن المستظهر، أبو جعفر، خليفة عباسي، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٥٢٩ هـ ، وكان المستولي على الملك في أيامه السلطان مسعود السلجوقي، فتنافرا ونشبت فتنة بينهما، فخلعه السلطان مسعود سنة ٥٣٠ هـ بفتوى فقهاء بغداد، وهو بالموصل، وامر بالقبض عليه، فرحل إلى مراغة ، ومنها إلى الري ، ولم يزل تتقلب به الأحوال إلى أن اغتاله الباطنية على باب أصبهان، ودفن بشهرستان (أو بمدينة جيّ)، قال قاضي ابن شهبة : كان حسن السيرة يؤثر العدل ويكره الشر، أديبا شاعرا سمحا جوادا ، خلف نيفا وعشرين ولدا، قتل سنة ٥٣٢ هـ .

(ابن الأثير ١١ / ١٠ـ ٢٤، مرآة الزمان ٨ / ١٦٧، تواريخ آل سلجوق١٧٨ـ ١٨١، النبراس ١٥٦)

ناره، ونسب إلى مسعود بن محمد قتلته، وأنه الذي قرر غيلته، وهو لا يجد سبيلا، ولا يستجد قبيلا، خشية أن يتفطن لمرامه فيعاجل قبل إبرامه، ثم صرفه القدرعما أراد، وأبكى السيف والنجاد، وبويع بعد أبيه المسترشد، وكان لتأبِّيه لم ينشد، وضلالته لا تعان بولي مرشد، وضالته لا تعرف لناشد ولا ينشد، فكان يبيت على مثل حسك السعدان، ويتململ كلما حضر الأبردان، وفطنت الملوك لما تتناجى به وساوسه، وتتنادى به ضمائره وهواجسه، وكان طائشا عجولا، يركب معارف وهجولا(١)، فخافت ابتداره، وخشيت إذا تمكن اقتداره، لأنه أسد أُهيج، وأرقم حُرك لأمر مريج، فما تمكن ولا تفرغ، لأن يساور ولا يلدغ، بل خُلع خلع الرداء، وأُلقي إلقاء الذراع للّلأمة الحصداء(٢)، وأثبت عليه محضر بأنه فسق، ولولا الملة لقالوا إنه مرق، وفارق الدين وقطع حبله من حيث رق، وقد تقدم في ترجمة أبيه المسترشد الخبر الغريب في سرعة البلوغ مبالغ الرجال، وما كان من مبايعته بعد مقتل أبيه، وإباء السلاجقة له، لإفراط خوفهم منه، وجرأة الراشد وتسرعه وحدة نفسه، وأهمَّ السلاجقةَ أمرُه، وجعلوه نُصبَ عينهم، ومن الغرائب أن المسترشد كان أعطاه عدة جواري، فحملت منه جارية حبشية صفراء وهو إذ ذاك ابن تسع سنين، فأنكر المسترشد هذا، ثم أمر بأن يطأ جارية حُمِّلتْ قطنا، فوطئها فلما قام عنها أخرج القطن وعليه المني، فأرى المسترشد، ثم أمر بأن يفعل كذلك في جارية أخرى، فكان الأمر كذلك، فحينئذ أيقن ببلوغه، وألحق الولد .

ثم :

---

(١) الهجول : الكثير الأسفار، والهاجل : النائم.

(٢) أي أداة الحرب الكاملة، واللأمة الدرع، والحصداء الواسعة والكثيرة الورق .

٨٥ - دَوْلَةُ المُقْتَفِي بأمْرِ باللَّهِ

أبي عبد الله محمد(١) بن أحمد المستظهر، وكان ممن يبطن ، خلاف ما يظهر، كان يظهر قبل مصير الخلافة إليه [ص ١٨٠] الانقطاع والعبادة ، وملازمة السجود والسجادة، مع سوء معتقد وطوية، وقبح عقد ونية، وظلم لا يأمن معه بريء، وتسلط كالأسد الجريء، لم يكن فيه ثراء للمعتفي، ولا كان لأمر الله المقتفي ، بل كان يتخفى ببوائقه ولا يختفي، ويخرج ويشره إلى خارج قصره ولا يكتفي، وهو مع ذلك يصانع ويداري ، ويستر العار بالعواري، ولا يظهر له من ريبة ثوبا، ولا ينتظر له بتوبة أوبا ، بل هو في دنس لا ينقى ، وذنوب لا توقى، وملازمة زخارف لا تبقى، وسماع ملاهٍ لا تلقى، بين ضروب ملاح بريقهنَّ يُستقى ، ولهيب راح لا يصلاها إلا الأشقى ، هذا إلى ما فيه من نكوب عن الرشاد، ونكول عما شيَّد سلفه وشاد، ولم يكن بعيدا من أبيه المستظهر في مواصلة اللهو ومواقيته، والخمر وترصيع أوانيه بيواقيته، لكنه كان يزيد عليه بأنه كان ظالما عسوفا، حاكما جائرا عنيفا، طالت مدته وثقلت، وقطعت أعمار الخلق حتى انفصلت، هذا كله وعارضه أشيب، وقد آن له على أنه أُيِّد من عون

(١) المقتفي لأمر الله : محمد بن أحمد بن المستظهر، بن المقتدر، من أعاظم الخلفاء العباسيين، بويع سنة ٥٣٠هـ ، والسلاجقة قابضون على أزمة الأمور، فجمع مالا وافرا، وهيَّأ قوة وسلاحا، وقبض على من في بغداد منهم، ومن أعوانهم، بعد موت السلطان مسعود زعيمهم الأكبر، واستقل بأعمال الدولة، كان حازما مقداما يباشر الأمور بنفسه، وهو أول من عهد الديلم إلى عهده، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك بالخلفاء من عهد المستنصر إلى أيامه، لم يتقدمه بذلك غير المعتضد، ودامت الخلافة أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر، كان يقظا كثير العناية بأخبار البلاد، يبذل الأموال العظيمة على الأرصاد والعيون، فلا يكاد يفوته شيءمما يحدث في مملكته وغيرها، توفي ببغداد سنة ٥٥٥ هـ .

(ابن الأثير١١ / ١٦، ٩٦، تواريخ آل سلجوق ص ١٨٣ـ ٢٩٢، مفرج الكروب ١ / ١٣١ـ١٣٣، النبراس ص ١٥٦)

الدين أبي المظفر يحيى بن هبيرة بوزير لا يصادمه شيئان، رأيه وصارمه، وشتان مواصله ومصارمه، ما قرر مثله أبو مسلم في خراسان، ولا فعل نظيره في الأندلس عبد الرحمن، ولا قام مثله في أول الدولة فتى شيبان ، ولا في مملكة الفرس رستم بن دستان، ولا سلك إلا سبيل آصف تبع سليمان، فكان نعم العون ، في منع الصون ،فقد كان يجهد ولا يعيى، ويميت الأعداء وهو يحيى، فستر عوار المقتفي وواراه، وقدح زناد سعادته وأوراه، حتى وطىء ملوك آل سلجوق، ووطد ملوك الدول ودوّخها ، ومحا بصباح رأيه آية ليلها ونسخها، فأعاد إلى رؤوس الدولة العباسية نخوتها وأعزها شيما، وبقية قريش احوتها ، ثم لما مات المقتفي، وقام بعده ابنه أبو عبد الله محمد، وتلقب بالمأمون، فما تمت بيعته ولا سالمته المنون، عاش بعده [ص ١٨١] نحو شهر وما كمله، ولا تمَّ له منذ ذكر ما أمَّله، بل لم يزل الحبل محمولا[١] على غاربه، طرفه بيده والطرف الآخر بيد جاذبه، حتى بويع أخوه المستنجد، ودفع الأمر إلى المنجد .

قال ابن الأنباري: ولما كان يوم الأحد سابع عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وخمس مائة، مضينا مع الوزير ابن طراد الزينبي[٢] إلى دار السلطان مسعود بن محمد، ونحن معه، فأخذ السلطان خطوطنا بالضمان، ثم أصبحنا فحضرنا عند الأمير أبي عبد الله محمد بن المستظهر، وشرطنا عليه مطاوعة السلطان على ما

---

(١) في الأصل: محمو ل ، وهو لحن .

(٢) ابن طراد الزينبي : علي بن طراد بن محمد الزينبي الهاشمي، وزير من العقلاء العارفين بسياسة الملك وتدبيره، ولأه المستظهر العباسي نقابة النقباء ولقب بالرضي ثم استوزره الخليفة المسترشد بالله وخلع عليه، قال ابن الأثير : ولم يوزر للخلفاء من بني العباس هاشمي غيره، ولما صارت الخلافة إلى المقتفي حدثت بينهما وحشة، كان سببها اعتراضه الخليفة في شؤون أمر بها، فاستقال سنة ٥٣٤ هـ، ولزم بيته ببغداد إلى أن توفي سنة ٥٣٨ هـ .

(النجوم الزاهرة ٥ / ٢٧٣ . المنتظم ١٠ / ١٠٩ ؛ ابن الأثير حوادث سنة ٥٢٢هـ)

ضمناه عليه، فرضي به ، ثم مضينا إلى السلطان فأعلمناه بما كان، فأمر بمبايعته، فلما كان من الغد، صعدنا إلى الدار فأخرجنا منها أشياء لآلات الغناء وما لا يليق، وشهد جماعة من أهل الدار أن الراشد كان يشرب الخمر، فأفتى الفقهاء بخلعه، وحكم القضاة بذلك فخلعوه، ودخلت إلى الأمير أبي عبد الله محمد، أنا والوزير وصاحب المخزن، وتحدثنا معه، وناولته رقعة فيها ما يلقب به ، فكان فيها : المقتفي لأمر الله ، والمستضيء بنور الله ، والمستجير بالله ، فقال الخليفة : ذلك إليكم ، ثم قال لي الخليفة : ماذا ترى ؟ فقلت : المقتفي لأمر الله، فقال: مبارك، ثم مد يده، فأخذها الوزير وقبلها ، وقال : بايعت سيدنا ومولانا الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين، على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واجتهاده، ثم أخذها صاحب المخزن، وقبلها وبايعه على مثل ذلك، ثم أخذت يده وقبلتها ، ثم قلت : بايعت سيدنا ومولانا الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين ، على ما بايعت عليه آباء ه وأخاه وابن أخيه في ولاية عهده، ثم قمت من عنده ، ودخل الأمراء والقضاة والعلماء وأكابر الناس فبايعوه، ثم حضر السلطان مسعود عنده ، وكلمه المقتفي بكلام وعظه فيه، ثم عرفه ما يلزمه من طاعة الخليفة، وأمره بالرفق [ص١٨٢] بالرعية والإحسان إليهم، وخوَّفه عاقبة الظلم ، فبايعه السلطان ، وقبَّل يد الخليفة، ورجع إلى دار السلطنة، وأما الراشد فإنه أقام بالموصل مع عماد الدين أتابك زنكي، ثم أرسل زنكي إلى بغداد القاضي كمال الدين محمد بن الشهرزوري، فلما حضر قيل له : بايع أمير المؤمنين ، فقال : أمير المؤمنين عندنا بالموصل ، وله في أعناق الخلق بيعة متقدمة، وطال الكلام، ثم عاد إلى مثله ، فلما كان الليل ، جاء ته امرأة عجوز سراً وأبلغته رسالة عن المقتفي مضمونها عتابه ، فقال: غدا أخدمه خدمة يظهر أثرها، فلما كان الغد، أحضرت إلى الديوان ، وقيل لي في معنى البيعة، فقلت :

أنا رجل قاض، ولا يجوز لي أن أبايع إلا بعد أن يثبت عندي خلع المتقدم، فأحضروا الشهود، وشهدوا عنده بما أوجب خلعه، فقال : هذا قد ثبت ، ولكن لا بد لنا في هذه الدعوة من نصيب، لأن أمير المؤمنين قد حصلت له خلافة الله في أرضه والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده، فنحن بأي شيء نعود، فرفع الأمر إلى الخليفة، فأمر بأن يقطع عماد الدين زنكي صريفين[١] ودرب هارون، وجرى ملكا وهي من خاص الخليفة ، وأن يزاد في ألقابه ، وقال : هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف أن يكون له نصيب من خاص الخليفة ، وعاد وقد حصل على جملة صالحة من الأموال والتحف، وكان المقتفي من ذوي الهمم العالية والآراء السديدة ، والسياسة الوازعة من رجال بني العباس الأفراد، مكث في الخلافة أربعاً وعشرين سنة، بها سبع عشر سنة في مداراة الملوك السلجوقية وسبع سنين وشهورا، مستندا بنفسه مقارعا للسلاطين ، قامعا لمردة أولئك الشياطين، مدوخا للبلاد، قامعا للخوارج عليه ، وحضر مصافاة عدة، وثبت في حصار بغداد، وكان ذلك شهورا يجري في كل يوم منها مصافاة، وهو رابط الجأش ثابت الجنان، منشرح الصدر، منبسط الأمل، وكان في [ص ١٨٣] نفسه قساوة وغلظة، وأيد بوزيره عون الدين أبي المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة ، وزره رابع ربيع الأول سنة أربع وأربعين وخمس مائة، وهذا وزير لو كان كالوزراء لذكرته كأحدهم، ولكنه كان أجل ، وفعله دليل عليه، وما ذكرته مع الوزراء في الإنصاف لا أسوة لهم للسميَّة، ولكنه يعد من عظماء الخلفاء وكبراء الملوك، لعظيم ما فعل، وجليل ما صنع ، وهو الوزير الذي أنطق الدولة العباسية

(١) في معجم البلدان (صريفون) : في سواد العراق في موضعين ، أحدهما قرية كبيرة غناء شجراء قرب عكبراء وأوانا على ضفة نهر دُجيل ، وصريفون الأخرى : من قرى واسط، وهي مدينة صغيرة تعرف بقرية عبد الله، وهو عبد الله بن طاهر، وصريفين أيضا من قرى الكوفة .
(ياقوت : صريفون)

بعد الخرس، وأجرى في عودها الماء بعد اليبس:

[الكامل]

ومعرِّف الخلفاء أن حظوظهم في حيِّز الإسراجِ والإلجامِ

فورى به زناد المقتفي وشد أزره فيما كان يعتلج في صدره، ويتمناه من علو قدره، ولم يزل يشخت[1] الدولة السلجوقية سحب المبادرة، ويدلف لها في أري النحل سم الأساود، وينبه ولاة الأطراف على ما فرض الله عليهم من نصر الأئمة، ويوقظ مصابيح بصائرهم في كشف ليالي الفتن المدلهمة، وتوبيخهم على ما قنعت به هممهم الدنية، وما نشبهم من الذل والصغار في طاعة السلجوقية، حتى شذب عن دولة العجم من كان ينصرها على الخلفاء، ويفعل في تفريق تلك الجموع، ولا فعل قصير مع الزباء[2] حتى صار كل من كان للسلجوقية على الخلافة عونا، قد أصبح للخلافة على من عاداها عينا، وهو يسلك في ذلك إلا المسالك المرضية، ولا يدعو إلا بالنصائح الوعظية، ولا يحض على نصر كتاب الله وسنة نبيه المثلى، ولا يبعث الهمم إلا لتكون كلمة الله هي العليا، ولا يخضع بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض[3]، ولا يرسل سهم قول فيقنع بما دون الغرض إلا لانتهاك محارم الله وتعدي حدوده، ولا ينهى عن منكر إلا محذرا لمرتكبه من عذاب الله ووعيده، ولا ينجح له سعي فينسب النعمة إلى غير الله تعالى، ولا يقوم مقاما فينسب له مع التبرير مقالا ولا [ص١٨٤] فعلا، ولا رُئي، ولا سُمع برجل ولي عظائم الأمور الدنيوية، والممالك السلطانية،

---

(١) في الأصل: الكلمة غير معجمة، ويشخت بمعنى يضعف ويقلل من شأنها.

(٢) قصة قصير بن عمرو مع الزباء، وفي المثل: لأمر ما جدع قصير أنفه. المستقصى في الأمثال ٢ / ٢٤٠، يضرب للشيء يكون وسيلة لأمر مستور.

(٣) من سورة الأحزاب آية ٣٢.

وحزم الجيوش خائضا لغمراتها، معرضا وريده لاستنهاء وطباتها، كان أشد تبريا إلى الله من حول نفسه وقوتها، ولا أكثر اعترافا لفعل الله فيه فيما يصدر بالمباشرة عنه، فما ادعى لنفسه فعلا ولا قولا، ولا اعتقد لها قوة ولا حولا، لكنه يذكر كفاية الله التي جبرت نقصه، وقومت خطاه، وقدمت على المشرفية سطاه ويقول : ما رأيت في هذا الأمر الذي لابسته أنفع من دعاء وجدته في مجموع لابن سمعون، ولا أبلغ من ذكر رأيته في كتاب فضائل الأعمال لابن أبي الدنيا[١]، ولا كان في قلبي أوثق من ركعات تعلمتها من فلان المجاور بجامع المهدي، وذكره الوزير أبو غالب عبد الواحد بن مسعود الشيباني بهذا وقال : لقد كان لهذه المحاسن من أفعاله وأقواله هيئة وصنعة، لا تنهض العبارة بأدائها، ولا تؤدي الحكاية جزء ا من أجزائها، وللصدق عليها شواهد من جنس ما تسميه الصوفية ذوقا لا يدركه إلا من خالطه، ورأى هديه وسكينته وخضوعه لله واستكانته، وإعزازه بالله في كل مقام تتخاذل فيه القوى، وتنفصم فيه إلا من استمسك بالله العُرى :

[الكامل]

وهو مع الله على عـلاته ... ماضٍ مضاء المشرفيّ الصارم

وقصد السلطان مسعودبن محمد بغداد سنة خمس وأربعين وخمس مائة، وتلقاه ابن هبيرة بالنهروان، وأبلغه سلام الخليفة واستبشاره بمقدمه، وانتظاره لتقدمه، ثم عاد وقد ملأ الصدور بما شاهده أرباب الدولتين من قوة جنانه، وطلاقة لسانه ، ومهابته التي ظهرت على السلطان مسعود إعظامها، وهان عليه

---

(١) ابن أبي الدنيا : عبد الله بن محمد القرشي الأموي حافظ للحديث، مكثر من التصنيف، أدّب الخليفة المعتضد في حداثته، ثم أدب ابنه المكتفي ، توفي سنة ٢٨١هـ . فوات الوفيات ١ / ٢٣٦، تاريخ بغداد ١٠ / ٨٦، التهذيب ٦ / ١٣ .

ملك ممالك أهل بيته ونظامها .

قال أبو الفضل :

[الطويل]

ولما رأى السلطان عزتك التي هي السعد أغشاه عن اللحظ نورها
وما زال من فرط المهابة مطرقا بعينيه حتى ما يكاد يديرها[ص ١٨٥]

ثم باكر إليه ثاني يوم دخوله مهنيا بالاستقرار والإياب الذي قربه القرار، ثم خطب خطبة أبلغ فيها موعظة السلطان وتذكيره بآخرته، وتمثيل مقامه بين يدي الله عز وجل ومساء لته، وعدد ما له فرض الله عليه لخليفته وخليقته، وما طوقه من فخار الملك دون حقيقته، وشرح له المظالم التي تلزمه إثمها، وإن غاب عنه علمها، ويناط به وزرها، وإن خفي عنه أمرها، وختم ذلك بدعاء له بالصلاح والهداية، والنجاح والكفاية، فظن كل من حضر ذلك الموقف أنه لا يسلم من بطشه، ولا يُسام من إثارة البلاء له ونبشه، حتى توهم قوم أن موجدته منه سيتعدى إلى الخليفة ضررها ، ويستطيل في الدولة شررها، فلما استتم كلامه، رفع السلطان طرفه وقال : (عهدي بعيد بسماع هذا الكلام، وأرجو أن يظهر على بركتك، فلا تقطع عني تذكيرك في كل وقت) ، وانصرف، وأتبعه السلطان بحلل وقماش وخيل ومماليك أتراك، وجارية تركية، فوصلت إليه الهدية وهو جالس في داره، بين سُمَّار مجلسه وحضاره، وفرقها كلها عليهم، ولم يمسك لنفسه شيئا سوى الجارية، ثم بعث إليه هدية يسيرة لا يكون لبعضها مجازية، وقصد البقش كونخر في أمراء السلجوقية فسأل المقتفي، فخرج إليهم ومعه ابن هبيرة، وبان فيها من هذا الوزير وإقدامه، وزئير ضرغامه، لا صرير أقلامه، ما أقام الهيبة في صدور الأعداء ، وحسم الداء بالداء ، فإنه خاض تلك الحروب ، وتلقى الأسنة بنحره، يرتب الميامن والمياسر، ويبوِّىء مقاعد الحرب بين

يديه تلك العساكر، شاهرا سيفه بجأش رابط، وعزم ضابط، وطليعة كل نجم صاعد لا هابط، بتدبير صائب ، وتدمير على الأعداء لا يرعى صحبة صاحب، وكانت النصرة للخليفة وعساكره، وترددت بُرد التهاني ببشائره، ونهب عسكر الخليفة مالاً يتناوله الحصر ولا يتأوله [ص ١٨٦] إلا النصر .

قال الوزير أبو غالب : حتى كان الفرس الجيد يباع ببغداد بدينار، والبغل الجيد بدينارين، فأما الغنم فبلغت كل عشرين شاة بدينار، ودامت بهذا الرخص والكثرة نحو شهرين، ثم عاد الخليفة وقد خشع بصر الأعداء لمهابته، واتسع أمله باعتزازه على العدو وإهانته، ثم في سنة خمس وخمس مائة، وصل سليمان شاه بن محمد شاه إلى خدمة المقتفي ، ملتجئا إليه، فأكرمه ووسع ضيافته، وصدق في قبوله بفراسته وعيافته[١]، ومال الخليفة إلى تمليكه، ولم يكن ذلك من رأي ابن هبيرة، وعاود الخليفة فيه مراراً، وقال : هذا أمر دفع الله عن الخليفة شره، وكشف عنهم ضره، فلا تجدد ما اطمأنت النفوس على تعطيله ، وسكنت إلى ما جهدت في تبطيله، فقال الخليفة : هذا قد لجأ إلينا، وسلك غير مذاهب أهل بيته، في الاستكانة والخضوع، ولو أراد جمع عسكرا وفسادا في الأرض لقدر عليه ، وحيث قد أتى الأمر من بابه، فلا بد من إجابته ، فاستدعي إلى باب الخلافة، وجلس له الخليفة جلوسا عاما في مجلس عظيم ، حضره أرباب الدولة والمناصب، والأمراء والخدام والقراء والفقهاء، كلهم متأهبون بالسواد، وجلس الخليفة من وراء شباك، وقام ذلك الجمع بين يديه سماطين طويلين ، ووقف الوزير ابن هبيرة على كرسي بين يدي الخليفة ، وحضر سليمان شاه، فقبل الأرض ثم عدل به إلى بيت أفيضت عليه الخلع فيه بالطوق والسوارين والتاج والخلع التامة،

---

(١) الفراسة : المهارة في تعرف بواطن الأمور من ظواهرها، وفي الحديث : اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله. والعيافة : زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرِّها .

وقُدم له فرس الخليفة بمركبه، وقُلد بسيفين، وعُقد له لواء ان ، وأُقيمت له الخطبة على منابر ولاية الخليفة كلها، وبعث بغياث الدنيا والدين قسيم أمير المؤمنين، وعاد إلى دار السلطنة التي بأعلى بغداد، وحمل الخليفة إليه من الثياب والمال، والخيل والبغال، والأعلام والسلاح، ما لا حدَّ له، وكذلك حمل إليه الأمراء . وكانت وفاة المقتفي بعلة التراقي، وهو خراج من كتفيه، مكث[ص١٨٧] به خمسة عشر يوما، ومات في يوم الأحد، ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمس مائة، ودُفن ثاني يوم ، وصلى عليه ابن هبيرة .

ومما يحكى أنه كان قد أخرج عشر حبات أطلس لتطرى من المخزن المقتفوي، فسلمت إلى المطري ولم تثبت في دساتير الديوان، وسهوا عنها، حتى طلبت في السنة التالية، فأحضر المطري وتُوعِد وهُدِّد، فاعترف أنه باعها، وجهز بها بنتين له، فكتب إلى المقتفي، فوقع لهم : لا ذنب للذيب حيث افترس، وإنما الذنب للراعي حيث نعس، والذي صرفها المطري في حقه، أحق من أربابها، فيفرج عنه ولا يتعرض إليه، والسلام .

قال ابن واصل : كان المقتفي فاضلا حسن العقيدة ، وله شعر حسن ، من جملته :

[**السريع**]

قالت أحبك قلت كاذبة غُرِّي بذا من ليس ينتقدُ
قالت فمن أدراك قلتُ لها الشيخُ ليس يحبهُ أحدُ

ثم :

٨٦ - دَوْلَةُ المُسْتَنْجِد باللَّه

أبي المظفر يوسف[١] بن عبد الله المقتفي، كان أبوه احتفر أوزارها، واحتقب سلمتها وإزارها، لم يهب أن هجر الفحشاء أوزارها، ولا خاف مهاجمة الأسود أو زارها، تحلى بالعدل ولزمه، وتجلى في الوبل كالازمة، فلم يزل يكفِّر سيئات تلك الذنوب، ويغسل أدناس تلك العيوب بالذَنوب، إلى أن نُسيت القروح، وأُسيت الجروح، وتداول الناس شكر المستنجد، وتحدث به المغير والمنجد، فكأنما بُعث للأدواء مسيحا، ومن اللأواء[٢] مريحا، وللآلاء مميحا، وكان يتأمل القصص ويوقع عليها بيده، لحق يحققه بكلماته، وباطل يبطله بإزالة ظلاماته، يقوم الليل ويحييه بتهجده، ولا ينتقل إلا من موضع سريره إى مسجده، لا يعدو يمينه، ولا يعد ما ملكت يمينه مع اقتصار، وقصر طمع واختصار، لا يطلب الدنيا إلا لبذلها [ص١٨٧]، ولا يجمع الأموال إلا لتشتيت شملها، وهو في هذا كله بقدر محدود، وظل لا ينقبض ولا ممدود، بل لا يأخذ شيئا إلا من حلِّه، ولا يصرفه إلا في أهله، لا جرم أنه ضُرِب به المثل الشرود، وسحب له أمثل البرود، مع أنه استفاد من عدوه وانتقم، وشرب دمه والتقم، إلا أنه كان يغلب حلمه على غضبه، وجده على لعبه، فلهذا قيل إنه فريد وقته، ولم يمثل بعد سمت ذي وقار إلا بسمته، بويع يوم موت أبيه، فقبض على

(١) المستنجد بالله : يوسف بن محمد المقتفي ابن المستظهر، أبو المظفر، من خلفاء الدولة العباسية ببغداد، بويع له بعد وفاة أبيه سنة ٥٥٥ هـ، فأزال المكوس، ورفع الضرائب عن الناس، وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع رعيته، لولا ما قيل إنه أحرق مكتبة قاض يعرف بابن المرخم، ثبت للخليفة أنه أخذ أموالا كثيرة من الناس بالباطل، فحبسه وصادره في ماله وأحرق كتبه، توفي ببغداد مخنوقا بالحمام سنة ٥٦٦ هـ.

(تاريخ الخميس ٢ / ٣٦٣، ابن الأثير ١١ / ٩٦ـ ١٣٤، مرآة الجنان ٣ / ٣٧٩، مفرج الكروب ١ / ١٣٤، ١٩٣ ـ ١٩٥، النبراس ص ١٥٨، مرآة الزمان ٨ / ٢٨٤)

(٢) اللأواء : ضيق المعيشة، وشدة المرض.

جماعة من أهل الظلم، وأسقط ما استجد من المكوس، وأذهب لسعود أيامه النحوس، وكان المستنجد قد نشأ مع الأتراك وتكلم بلغتهم ، ولعب معهم الصوالجة، وبعد خلافته بشهرين اصطدم في الميدان هو وقائماز الأرجواني أمير الحاج، فوقع قائماز وفرسه ميتين، وتوفي ابن هبيرة سنة ستين بالفالج، واستولى عضد الدين أبو الفرج بن المظفر بن رئيس الرؤساء بعده على الدولة، وأجرى على إقطاعه، وكان مائة ألف دينار، وتوفي على فراشه يوم السبت تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مائة، قيل مات على فراشه، وقيل إن بعض من كان أحفظهم من الأمراء بإمساك من كان أمسك من أصحابهم لتمهد دولته وتسلط ابن البلدي في ظلم الناس، راقبوا المستنجد حتى مرض، فهجموا عليه ، وحملوه بفراشه إلى حمام وأغلقوها عليه وأوقدوها، فمات، ثم أُخذ ابن البلدي ومُثِّل به ، وأُلقيت جثته في دجلة .

ثم :

٨٧ - دَوْلَةُ المُستَضِيءِ بأمْرِ باللّهِ

أبي محمد الحسن[١] بن يوسف المستنجد، دولة أضاءت الأيام بإشراقها، وصحت الدنيا بأفراقها، وانجابت الظلماء لدعوتها، وأجابت مصر وجميع

---

(١) المستضيء بالله : الحسن بن يوسف المستنجد بالله ابن المقتفي ، أبو محمد ، خليفة عباسي في العراق، كان جوادا حليما، محبا للعفو، قليل المعاقبة على الذنوب، بويع بعد وفاة أبيه وبعهد منه سنة ٥٦٦ هـ ، وصفت له الخلافة تسع سنين وسبعة أشهر، وكانت أيامه مشرقة بالعطاء والعدل، رفع المظالم والمكوس، وفرق مالا عظيما ثم احتجب عن الناس، ولم يركب إلا مع الخدم، وفي أيامه زالت الدولة العبيدية بمصر وضربت السكة باسمه، وصنف ابن الجوزي في ذلك كتاب (النصر على مصر)، وخُطب له بمصر والشام واليمن وبرقة، ودانت الملوك لطاعته، توفي سنة ٥٧٥ هـ .
(ابن الأثير ١١ / ١٧٣ ، ابن خلدون ٣ / ٥٢٨ ، فوات الوفيات ١ / ١٣٧ ، مرآة الزمان ٨ / ٣٥٦ ، النبراس ١٥٩ ـ ١٦٤ ، تاريخ الخميس ٢ / ٣٦٦)

الأمصار لدعوتها، وقومت عوج اليماني، وأقامت ميلَ الرديني، وغزت الأعداء بغير كتائب، وركبت إلى الهيجاء سوى الجنائب، وعاجت على الديار لإبلاء صدور الركائب، وما قنعت هممها بالشرق وممالكه الفساح [ص١٨٩] والعراق وسكانه الفصاح، وما في بلاده من جنوب وشمال، واتساع ما فيه من كور أعمال وعمال، وما حواه البحران، ودنا دونه النهران، حتى استعاد بالتقدمات النورية إخذته، واسترد ذخيرته وخيرته، وفتح مصر واسترجع منها ما كان في أيدي العبيديين، ونسخ بالدين المحمدي ذلك الدين، وغلب منها على ما لاوت عليه الدهور، حتى فنيت مُددها، وبليت على الجديد جُددها، وقهر الخليفة السوء وزراؤه، ورُزي بملكه، وسر الناسَ إرزاؤه، وكان صلاح الدين إذ ذاك الوزير، وحل في لبدته أسد مزير، فخلا القصر من شياطينه، وبدل رعاعه بسلاطينه، وغلب الدست لانحصار شاته بفرازينه[1]، وظهور الحق على تسويل إبليسه وتزيينه، وذهبت تلك الدولة ببقايا السقم وقد أضنت، وبلايا النقم وقد عنت، وانتقم الله ممن جاذبه رداء كبريائه، وخلص الخلاص الهاشمي من وضر أدعيائه، ورُميت عن سُلافة العصر حثالة ذلك العَصَر، وطُفئت لأهل القصر نار ترمي بشرر كالقصر، وتجردت العزيمة النورية لكشف لم يلمها، وكشط غمائم غمَّها عارٌ، فأزالت عنها غمَّ ذلك النسب حتى كفت الدولة العباسية أمرهما، ونفت ما نسب من الدناءة إلى ابن عمها، فأزالت عنها عار ذلك النسب المدخول، والحسب المعروف المجهول، وأصبحت مصر في حلل الشعار العباسي ترفل إلى أقاصيها، وتخطر في حلية الشباب ما شاب من لمم نواصيها، ثم شرع التصميم الصلاحي في بلاد الفرنج، وسرة فم قوسه لا كل بلادهم، واستعد منجل سيفه لحصادهم، وتنازل رمحه لحمل رؤوسهم لا أجسادهم، وتحطمت

(١) الدست : اللعبة، أي لعبة الشطرنج على التشبيه، والفرازين جمع فرزين وفرزان، ويراد به الملك في اصطلاح الشطرنج .

قروم مجانيقه لدك أطوادهم، ولو كان هذا موضع استقصائه لأتينا العجائب في قصِّه، وبيَّنا على الهلال مقدار زيادتها ونقصه، وبويع المستضيء بالله ثاني يوم موت أبيه ، واستوزر عضد الدين بن رئيس الرؤساء بعد عظائم جرت بسببه ، ثم أراد عضد الدين الحج فقفز عليه شيخ متصوف [١٩٠] فقتله، وقفز آخر على صاحب الباب فقتله، وقتل ابن عضد الدين بيده قاتل أبيه، وفي سنة سبع وتسعين أتته البشرى بقطع خطبة العاضد العبيدي بمصر، وإقامة الخطبة له، ومات المستضيء في أواخر شوال سنة خمس وسبعين وخمس مائة.

ثـم :

٨٨ - دَوْلَةُ النَّاصِرِ لدِيْنِ اللَّه

أبي العباس أحمد(١) بن الحسن المستضيء ، وهو الذي شد الخلافة وقوَّاها، وعدَّل الدولة وسوَّاها، وتداركها وهي رمق فأنعشها، ولحقها وهي دفين فنبشها، وخاشن الملوك ونابذهم في الحفاظ ، وواخذهم حتى بالألفاظ، وناقشهم

(١) الناصر لدين الله : أحمد بن الحسن المستضيء بأمر الله ابن المستنجد، أبو العباس، خليفة عباسي بويع بالخلافة بعد موت أبيه سنة ٥٧٥هـ ، وطالت أيامه، حتى لم يلِ الخلافة من بني العباس أطول منه مدة، يوصف بالدهاء، على ما في أطواره من تقلب، فبينما هو مهتم بشؤون قومه، يطلق المكوس و يرفع عن الناس الضرائب، إذا به قد انقلب ، فانصرف إلى اللهو ، وأعاد ما رفع، ويقال إنه هو الذي كاتب التتر وأطمعهم في البلاد، لما كان بينه وبين خوارزم شاه من العداوة، آملا بأن يشغله بهم عن الزحف إلى العراق، وكان له اشتغال بالحديث، جمع فيه كتابا سماه (روح العارفين)، واستمرت خلافته ستا وأربعين سنة وأحد عشر شهرا، وذهبت إحدى عينيه في آخر عمره، وضعف بصر الثانية، وفُلج فبطلت حركته ثلاث سنين، وتوفي سنة ٦٢٢ هـ .
تاريخ الخميس ٢/٢٦٦، مختصر تاريخ الدول ص٤٢١ ، السلوك للمقريزي ١/٢١٧، ابن الأثير ١١/١٧٣، ١٢/١٦٨)

في لقب، ونافسهم وما ارتقب، وأظهر قوة من ضعف، ورسم خلافه كأنه لم يعف، وكان قد أخذ الناس بالأرصاد، وتعمد أخبارهم بالاقتصاد، فكان يكاد لا يخفى عليه بواطن أمورهم ، وما يخفى بحيطان دورهم ، ثم يحدثهم بها كأنه يكاشف، أو كأنه بخبايا أسرارهم عارف، لكنه كان طامح النظر إلى الحريم، لا تقنعه ظباء الحريم ، ولا يرده حور الخلدان بحور في بغداد حور، ووُلد مع تشيع، إلا أنه ليس برفض وتسبُّع، لو خُلي لأكل الأرض، وكان بادي الرأي، له في كل يوم عزل وولاية، وبه عزٌّ وذل إلى غاية، ، وعهد إلى ولده الظاهر أبي نصر محمد، ثم عزله، ورفع اسمه على المنابر، ثم أنزله، وكان السبب في هذه، تميزه عليه خَلْقا وخُلُقا، وعلما وعدلا ورفقا، وبأسا صارع به بحضرة أبيه الجاموس، وضارع لو شاء الليث العبوس، كان قد خرج الناصر وهو معه إلى البطائح، فرأى جاموسا عصَّب رأسه الهوى وهو طائح، وقد أوى إلى بطيحة اشتبك شجرها، واحتبك ماؤها ومحجرها، فقال لا يعرض أحد إلى هذا الجاموس، فإنه لا يخلو من بادرة وبوس، وكان جاموسا قد تأسد، لو عاث لأفسد، فنزل إليه الظاهر غير مكترث، وأبرم له عزما، غير منتكث، فلما رآه [ص ١٩١] الجاموس، صوَّب إليه روقيه ، وطأطأ ينطحه بقرنيه، فجرد الظاهر سيفه وتقدم إليه، وضربه ضربة قطع بها عنقه إلى ظلفيه، فحقدها عليه الناصر ونقمها، وأراده بها، ودفع الله نقمها، مع ما كان يؤثره الناصر من تقديم ابنه الثاني عليٍّ عليه، والله يؤخره ويهيء الأمر للظاهر ويدخره، ومع هذا فما قدر الناصرعلى شيء أكثر من أنه عزله عن ولاية العهدوصرفه، ثم أحوجه الله إليه فولاه وصرفه، ثم تذكر بقية حال الناصر تفنَّى وتفقه في هذا وأفتى، ووضع ترتيب الرفاق، ورضع معهم كؤوس الوفاق، ولبَّس السراويل ولبَّسه لأهل ذلك الجيل، ورمى البندق وبرز له ، واختط الخطة ورمى الوجهين، ووضع له في أحكامه المقترح، واستباح في تشريعه ما لم يبح، وادعى

في الرمي وادعي له، وسلك مدة في هذا سبيله ، لا يخلي الطير حينا من الحين، ولا يزال قسي بندقه ينظرها طائرة في السماء ، فيصيبها بالعين، قد جعل الجلاهق(١) حد سلاحيه ، لا يدع الصباح والعشاء من اغتباق راحيه، لا يريح الرفاق من رواحيه، ولا طائرا يطير بجناحيه، وقصد السرداب(٢) المعد عليه النوبة للمنتظر، ووقف عليه ونادى لو أسمع، وقال : أنا ابن عمك بغير مدفع، ودينك ديني، وما بعد اقتداري في الأرض وتمكيني، فهذا أوان ظهورك، فاخرج فأنا القائم بأمورك، فلما لم يجب، ولا قام من غير قلبه بما وجب، علم بطلان ما كان يخيل له من خرافات تلك المخاريق، وضلالات ما خرج به عن الطريق، فترك سوء ذلك التشيع، وتقلل من التكثر في التروي بها والتشيع، ثم ما كان إلا متسننا، وفي مذاهب أهله متفننا، ومات ولده عليٌّ، ووجد عليه وجدا كاد يذهب بحبله، وينتزع من صدره سويداء قلبه، وأعاد الظاهر إلى ولاية عهده، وقدم من صهوة المنبر ما لا يصلح إلا للبده، بويع يوم موت، ونثرت الدنانير والدراهم يوم [ص ١٩٢] بيعته، ومدحه الشعراء ، فممن أجاد ابن التعاويذي بقوله :

[الخفيف]

ورأى الغانياتُ شيبي فأعرضْنَ وقُلنَ الشبابُ خيرُ لباسِ
كيف لا يفضلُ السواد وقد أضحى شعارا على بني العباسِ
أمناءُ اللهِ الكرامُ وأهلُ الجودِ والعلمِ والتقى والباسِ
ولقد رتبت الخلافة منهم بإمام الهدى أبي العباسِ

(١) الجلاهق : الذي يرمي به الصبيان، وهو الطين المدور المدملق، يرمى به عن القوس، فارسي، وأصله بالفارسية (جلاهه)، الواحدة (جلاهقة) (المعرب : ٩٦)

(٢) السرداب : بناء تحت الأرض للصيف، فارسي معرب، مركب من كلمتين : سرد ، أي بارد، وآب، أي ماء .

ملكٍ جَلَّ قدسُه عن مثالٍ وتعالتْ آلاؤها عن قياسِ
يا لها بيعةً أجدتْ من الإسلا م بالي رسومه الأدراسِ
ولي اللهُ أمرها فله المنَّـ ـةُ فيها عليهِ لا للناسِ

ثم أخذ أمره بالحزم ، إلا أنه كان له اختلاط بالعوام، لبس الفتوة من عبد الجبار مقدم الفتيان، وله رفاق، كان متدينا صالحا، وبنى له صومعة بباب كلواذى(١)، ومضى قاصدا الحج، فدَرَجَ(٢) ، ودُفن في المُعَلاَّ(٣)، ورمى الناصر البندق وخالط قدماه، ووضع في أيامه : المقترح(٤) في تشريع الرمي والرماة، وكان الناصر بصيرا بالأدب، له اليد الطولى إن نظم أو كتب، كتب إليه سعد الدين بن شبيب صاحب المخزن، يذكر حال مجد الدين ابن الصاحب، قبل أن ينقم عليه، وقال : إنه صبي يجهل الأمور لعدم خبرته بها، والدول تحتاج إلى الشيخ الحول القلب وما يناسب هذا المعنى، فوقع الناصر عليها :

[المديد]

كم بذي الدوحِ أثلةٌ من قضيبِ

ثم أوقع بعد ذلك بابن الصاحب، ثم استوزر جلال الدين بن يونس، وخلع عليه، ومشت القضاة وأرباب الدولة في خدمته، وكتب إليه ......(٥)

(١) كلواذى :طسوج قرب مدينة السلام بغداد، وناحية الجانب الشرقي من بغداد من جانبها، وناحية الجانب الغربي من نهر بوق، وبينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر، وقد ذكرها الشعراء ولهج كثيرا بذكرها الخلعاء .

(ياقوت : كلواذى)

(٢) درج : مات، ومنه المثل : أكذب مَنْ دبَّ ودَرَج، أي أكذب الأحياء والأموات .

(٣) المعلا : موضع بالحجاز .

(٤) في الأصل : المفترج .

(٥) فراغ بالأصل بقدر كلمة .

الأنصاري: إن المملوك قديما ولي أمير المؤمنين، وقد تاب على يد ابن الجوزي، وترك الخدمة، فوقع عليها: (ما يصلح للمولى على العبد حرام) وكتب إليه رجل يسأل المساواة بابن ساوا، فوقع عليه: (ابن ساوا لا يساوى)، ثم إنه نقم عليه، وقتله شر قتلة، وكتب إليه عن السلطان [ص ١٩٣] صلاح الدين:

[المديد]

الفتى في لظى فإن أحرقتني فتيقن أن لستُ بالياقوتِ
كل من جاءك يدَّعي النسجَ لكن ليس داود فيه كالعنكبوتِ

فكتب جوابه:

[المديد]

نسجُ داودَ لم يُفِدْ صاحبَ الغا رِ وكان الفَخارُ للعنكبوت
وبقاءُ السمندِ في حومة النا رِ مزيلٌ فضيلةَ الياقوتِ (١)

واستبصر في بعض أوقاته بمن أجابه إلى موعد أخلفه في ميقاته، فكتب إليه بيتي أسامة بن منقذ:

[الكامل]

ومماذق رجع النداء جوابه فاذا عرا خطبٌ فأقعدُ من دُعي (٢)
مثل الصدى يخفى عليَّ مكانه أبداً ويملأ بالإجابةِ مسمعي

وقد ذكره ابن واصل قال: كان الناصر عظيم الهيبة، عالي الهمَّة، وافر العقل، حسن السياسة، متيقظا لا يفوته أمرٌ مما يجري في بلاده وغيرها من بلاد الإسلام، وكان له أصحاب أخبار يطالعونه بما يحدث من الأمور في كل صقع،

(١) السمند: الفرس بالفارسية.

(٢) المماذق: الذي لم يخلص الود، الذي يخلط وده بالغش، من مذق اللبن خلطه بالماء.

فخافه الناس خوفا شديدا وهابوه، وكان الإنسان في العراق، لا يجسر أن يجري في بيته وخلوته ما يخاف الإنكار عليه منه، حتى كان يتوهم من أهل بيته وأخص الناس به، أن ينقل خبره إلى الخليفة، وفتح في أيامه فتوحات كثيرة، واتسع ملكه جدا، واستولى على خوزستان والجبل، وفتح كثيرا من بلاد العجم، وقامت للدولة العباسية حشمة لم يكن مثلها موجودا إلا في الزمن القديم قبل استيلاء الملوك على العراق، لكن الفقهاء أهينوا في زمانه، إهانة بالغة، لاستظهار الشيعة به عليهم، فقال صاحب المخزن :

[**الكامل**]

أحبابنا نُوَبُ الزمانِ كثيرةٌ　　　وأمرُّ منها رفعةُ السفهاءِ
هل يستفيقُ الدهرُ من سكراتهِ　　　وأرى التهَوُّدَ بذلة الفقهاءِ

وفي جمادى سنة اثنتين وثمانين وخمس مائة، حكم أهل النجامة أنه يكون هواء [ص ١٩٤] عظيم يهلك أكثر الناس فيه، وتُرمى الجدران، لاقتران الكواكب في برج الميزان، فدخل للناس منه رعب عظيم، واستعد بعض الملوك لعمل سراديب تحت الأرض، وأُعِد فيه الأقوات والعطر لأجل وخم الهواء، فقضى الله بأن الهواء انقطع تلك الليالي البتة، حتى إن ضوء الشمع ما كان يميل، فقال ابن المعلم شعرا منه :

[**البسيط**]

قل لأبي الفضلِ قولَ معترفِ　　　مضى جمادى وجاءنا رجبُ
وما جرتْ زَعْزَعٌ كما حكموا　　　ولا بدا كوكبٌ له ذنبُ
يقضي عليها من ليس يعلمُ ما　　　يقضي عليه هذا هو العجبُ
فارمِ بتقويمكَ فالاصطر　　　لابُ خيرٌ من صفره الخشبُ

ثـــم :

٨٩ - دَوْلَةُ االظَّاهِرِ بأمْرِ اللَّهِ

أبي نصر محمد(١) بن أحمد الناصر، وتقدم له في ذكر أبيه أرَجٌ لا يركد نسيمه، وتحرك روض لا يمل شميمه، ووصف طود لا يرقى صاعده، وبحر لا يتعب وارده، وسحاب لا يعيى رائده، ومقسط يأتي يوم القيامة على منبر من نور، ومنصف لو أبهم عليه وجه الحق، لشق عن سنا فجره قلبَ الديجور، كان إمام عدل، وغمام وبل، وقيم دين، وضيغم عرين، وكافلا بإزالة كل شنيعة، وكاسرا لصولة بدع الشيعة، وكل شيعة، كشف على تمويهات المذاهب ونقب، وأتي على ما أخَّر أبوه من رقيق غيمها وعقب، برأي رامٍ لا تُخطىء صوائبُه، وذكاء فطِن لا تلتبس مذاهبه، وكان لله منه جانب لا يضيعه، وسر كالمسك يجتهد في كتمانه فيذيعه، وقد أومينا بطرف الإشارة إلى ما كان من مصارعته بحضور أبيه الجاموس، حتى أكمن له هذا في قلب أبيه غِلاً من الحقد، وأمكن لأجله من ساقه قيدا كالخلخال، ومن عنقه كالعقد، مع ما كان في نفس أبيه من تقديم أخيه عليٍّ على هواه، ومباينته [ص ١٩٥] في المعتقد، لما طواه،

(١) الظاهر بأمر الله : محمد بن أحمد الناصر ابن المستضيء، أبو نصر، خليفة عباسي في العراق، بويع بعد وفاة أبيه سنة٦٢٢ هـ ، وحُمدت أيامه على قصرها، وعانى مصاعب كثيرة، وكان معاصرا لابن الأثير المؤرخ، فقال فيه :كان مستقيما محبا للخير ، أطلق المكوس التي كان قد وضعها والده، وخفف الأموال عن بعض رعيته، وأخرج المسجونين، ومنع جاسوسية الحراس، وكانوا يكتبون للخلفاء كل ما يدور بين الناس من الحديث. وقال ابن كثير: كان من أجواد بني العباس وأحسنهم سيرة وسريرة، ولو طالت مدته لصلحت الأمة صلاحا كثيرا على يديه. وكانت خلافته تسعة أشهر وأياما، توفي سنة ٦٢٣ هـ (تاريخ الخميس ٢ /٣٦٩، ابن الأثير ١٢ /١٦٩، ١٧٧، نكت الهميان ص ٢٣٨، مرآة الزمان ٨ /٦٤٢، البداية والنهاية ١٣ /١١٢، السلوك للمقريزي ١ /٢٢٠)

لأن الظاهر كان على خلاف الباطن من عقيدة أبيه، كان كل منهما في طرف لا يخادع فيما عرف، فأما الابن فاستقام على الطريقة، وأما أبوه فانحرف، فأمسكه وكبّله بالحديد، وثقفه وألقى عن عاتقه نجاد ولاية العهد، ونزع مطرفه، ثم لما مات أخوه عليٌّ، وأقفر بيت أبيه من ولد له يلي، وارجحنَّ عقله الذاهب، وكان أثرا لمصائب، كأنه قد كان بلي بذهاب لبه، وأصيب بكل عقله، لا ببعض قلبه، أعاد تقليد ولده الظاهر ولاية العهد، وأعد له المنبر كمينة النهد هُيء له، والسرير ما لم يكن إلا له، من حين فارق حجور المراضع، وقاطع ذروة المهد، وخُطِب له ببغداد، ثم صار إلى الأمصار، وضُرِب اسمُه على السكك، وأنار وجه الدرهم والدينار، وهو مع هذا كله مرتهن عند أبيه في التعويق، مثقَّف في الحديد بالقيد الوثيق، موكلا به في دار ترك عنده جارية، ورتب له فيها كفاية جارية، قد أيقظ عليه عيونالا تهجع، حتى توقظ أخرى، ورُقْبا لا تغفل شفقا ولا فجرا، حتى شاء الله أن يشق صدفته عن درتها، وتتصدع صخرته عن زُبْرتها، وتنفرج أفنان غابته عن قسورتها، وتتمحَّصُ مدرةُ أرضه ليخرج مدرتها، فمات أبوه ورغم معطس من كان يأباه، يريد أن لا يكون أخوه، وخرج من معتقله خروج الأسد من وجاره(١)، والكوكب الدري من حجب أفوله، والبدر التمام من خدور سراره، وانتضى انتضاء المشرفي المرهف، وخلص من السقيف خلوص السمهري المثقف، وأصفقت الأيدي على مبايعته بالإمامة، ورقى ذروة المنبر وعليه لواء الكرامة، وهيَّأ الله له ما أراده من الخير، وأحسن له الحسنى، وأحل الغير بالغير، وأعادها عمرية ليس فيها جناح، وقمرية خدم فيها البدر من العشاء إلى الصباح، ولم يكن في حظ زمانه أن تدوم وأن تتم، وعدله قمرها المنبر، وعيون أخباره النجوم، فكنتَ [ص١٩٦] لا ترى في مدته إلا سُنَّةً

---

(١) الوجار: جحر الضبع والأسد والذئب والثعلب ونحو ذلك.

وكتابا، وإماما ومحرابا، وسيئة مُحيت وبُدلت ثوابا، وعدلا فتح له بابا، وظلما سد له بابا ، وقائلا يُهدي وقائلا[١] كان في حر الهجير أظل عليه ندى ، ورفقا أرأف بالأمة من الوالدات على الفطيم، ولطفا يصد سموم الشمس فيأذن للنسيم، وشكرا يروع العذارى فيلمس جانب العقد النظيم، وقد ذكر الوزير أبو غالب نسخة من كتب عن الناصر بخلع ولده الظاهر لما خلعه، بخط المكين ابن العلقمي[٢]، ومنه : (وقد كان أمير المؤمنين قلّد ولده أبا نصر محمدا ولاية عهده، ورشحه من بعده، مؤملا منه التخلق بشريف أخلاق أمير المؤمنين التي هي من أخلاق آبائه مقتبسة، وعلى أساس التقوى مبنية ومؤسسة، فلما أن وقت بكامل رشده، رأى من نفسه القصور عن التزام شروط هذا الأمر، واستقال منه، وسئل أمير المؤمنين نزع لباسه عنه، وكتب خطه عن ذلك وتركه، وحل ما عقد له منه وفكه، وتيقن من حاله وأمره ، أنه لا يصلح لخلافة المسلمين في الحاضرة، ولا في بقية عمره، وأشهد بذلك عليه، وخلع نفسه عما كان فُوِّضَ إليه، وأمير المؤمنين لم يخل في كل وقت باعتبار طرائقه واستقرائها، وتتبع خلائقه واستبرائها، إلى أن استبان ما كان من أحواله يلوح، وتألق نجمه من مراصد الوضوح ، فلم يسع أمير المؤمنين إلا استخارة الله في إقالته، وطلب رضاه سبحانه في حل عقد ولايته، وأقال ولده، وحل ماله من ولاية العهد في المسلمين عقده، ونقض ما إليه عهده، وأسقط ذكره من الخطب، ومحا اسمه من السكك، اجتنابا من تقلد أوزاره ، وتحمل أثقال إثمه وآصاره[٣]، وأمير المؤمنين قد شهد لله بما علمه، وإن كان على ولده، ولم تأخذه لومة لائم في لزوم منهج الحق وجدده،[٤]

---

(١) قائلا الأولى من القول، والثانية من القيلولة، وهي الظهيرة، والنوم منتصف النهار .

(٢) سترد ترجمته في تواطئه مع التتار .

(٣) آصاره : آثامه وأثقاله .

(٤) الجدد : الأرض المستوية .

قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)[١]، وحيث أقال أمير المؤمنين أبا نصر محمدا وخلعه، ونضا عنه جلباب [ص ١٩٧] ولا[ية] عهده ونزعه، لم يرَ أن يُعين على أحد يعينه تحوبا لاحتساب ما تحمل الأوزار، وتوخيا لما هو أسلم من الأخطار) .

ثـم :

٩٠ - دَوْلَةُ المُسْتَنْصِرِ باللَّهِ

أبي جعفر المنصور[٢] بن محمد الظاهر، جهد في طريقة أبيه وما بلغها، وحام على مناهله وما سوغها، لكنه قارب معناها، وقام حتى داناها، وأسغب شهواته من المظالم وفطمها، وزمَّ نظراته عن المحارم وخطمها، وأظهر السُّنَّة وأقامها، وسمك في أعلا السماء مقامها، فكان لا يكبر رأس متشيِّع إلا رضَّه، ولا يتشاوس نظر مبتدع إلا غضَّه، ولا يستكثر رافضي إلا رفضه، وحل عقد سبعه وفضه، سوى أنه أفرط في كبرياء الحجاب، وخالف أباه لا آباء ه في فرط الإعجاب، وكانت الملوك تحب المستنصر وتستطيل أمد عوارفه ولا تستقصر، وكأنما جاء عقيب جده الناصر، لأن أيام آبائه كانت كأن لم تكن، لأنه ما بزغ

---

(١) النساء ٣٥، وفي الأصل كونوا بالقسط بنقص (قوامين)من سهو الناسخ .

(٢) المستنصر بالله : منصور بن محمد الظاهر بأمر الله ابن الناصر ابن المستضيء أبو جعفر، خليفة عباسي، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٢٣هـ ، وكان جده الناصر يسميه القاضي) لوفرة عقله، وهو باني (المدرسة المستنصرية) ببغداد، على شط دجلة من الجانب الشرقي، كان حازما عادلا حسن السياسة، إلا أنه جاء في أيام تراجع الدولة، وفي عهده استولى المغول على كثير من البلاد، حتى كادوا يدخلون بغداد، فدُفعوا عنها، توفي في بغداد سنة ٦٤٠ هـ .

(ابن الأثير ١٢ / ١٧٧ ، المختصر لأبي الفداء ٣ / ١٧١ ، ابن خلدون ٣ / ٥٣٦ ، تاريخ الخميس٢ / ٣٧٠ ، السلوك للمقريزي١ / ٣١١)

قمره حتى غاب، ولا أصحر ضيغمه حتى واراه الغاب، فأراح من تجني الناصر تعب خواطرهم ، ومن تعني الرسل بينهم وبينه نظر نواظرهم، وكان قد أمر بوظائف الرسل، ورتب لطائف الأنزال في السبل، فسارت إليه بهم ركائبهم الذلل الصعاب، وتحدرت إليه قصاده بطون الأودية وشعاف الشعاب، ثم انتقل إلى الله مبوّأً في لحده الكرامات، ممرضا بعده الصبر والكرى مات .

ثم :

٩١ - دَوْلَةُ المُسْتَعْصِم بِاللَّهِ

أبي أحمد عبد الله(١) بن المنصور المستنصر، وهو آخر الخلفاء في بغداد، بل آخرهم في سائر البلاد بالاستبداد، وكان مُحَدثا سُنيًّا، محمدا سَنيًّا، تفقه على مذهب أحمد، وتشبَّه في أوله في كل ما هو أحمد، وكان من ذوي العقول، إلا أنَّ باريه كاده ، والبصائر إلا أن الله أعماه ليمضي مراده، وأُغريَ باللعب [ص ١٩٨] بالحَمام ، فجلب على المسلمين جالب الحِمام، جمع منها

(١) المستعصم بالله : عبد الله بن منصور المستنصر ابن محمد الظاهر ابن أحمد الناصر، من سلالة هارون الرشيد، أبو أحمد، آخر خلفاء الدولة العباسية في العراق، ولد ببغداد، وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٠ هـ، والدولة في شيخوختها، لم يبق منها للخلفاء غير دار الملك ببغداد، فألقى زمام الأمور إلى الأمراء والقواد، واعتمد على وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي، وكان المغول قد استفحل أمرهم في أيام سلفه المستنصر، فكاتب ابن العلقمي قائدهم (هولاكو) حفيد جنكيز خان، يشير عليه باحتلال بغداد، ويعده بالإعانة على الخليفة، فزحف هولاكو سنة ٦٤٥هـ ، وخرجت إليه عساكر المستعصم فلم تثبت طويلا، ودخل هولاكو بغداد، فجمع له ابن العلقمي ساداتها ومدرسيها وعلماء ها فقتلهم عن آخرهم،وأبقى الخليفة حيا، إلى أن دل على مواضع الأموال والذخائر ثم قتله، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر، وبموته انقرضت دولة بني العباس في العراق، وعدة خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة ، ملكوا ٥٢٤ سنة، قتل المستعصم سنة ٦٥٦ هـ .

(النجوم الزاهرة ٧ / ٦٣، تاريخ الخميس٢ / ٣٧٢ ابن خلدون٣ / ٥٣٦، فوات الوفيات ١ / ٢٣٧)

عشرين ألف طائر، إلا أنها كانت مياشيم أكثرها قلابات، قلبت الدولة، وانتهكت الحريم، ومُنيَ بوزير بل كلب خنزير، رافضي خبيث، غير مأمون حتى ولا على حديث، فرتع في سوام المال ذيبه، ونفق على الخليفة كذبه لا تكذيبه، وجلب بمواطأته التتار ما أضر بالأمم قتلُه لا تعذيبُه، ولم يجد حمدُ كمده ريحَ فطنة تحلله ولا تذنبه، فغطى على بصر الإسلام تلبيس تدليسه، وغط دماء آلامه تسليط أباليسه، فكان في دبيبه أرقما، وسقى كؤوس الضراء لطعم أبيه علقما، فلا كان العلقمي(١١) وما ولد، لقد ولد أفعى، وألقى عصا قلمه فإذا هي حية تسعى، لقد أتى شيئا نُكَرا، وأطعم الناس من طعامه العلقمي مُرَّا، فحسَّن للخليفة جمع المال، وكاتب التتار سرا ومد لهم الآمال، وبقي يقطع ألفا فألفا من الجند ويوفر مالهم للديوان، وإنما يريد إضعاف جانب الخليفة، وإرجاف جوانب الأرض، يوهن قوته الضعيفة، فلما فُلَّ حدُّ العسكر، وقلَّ عديدُهم الأكثر، استقدم عسكر العدو وترسله وتكتبه، واستدعى بره الفسيح بوهاده وكثبه، فجاء من لا قوة للبلاد بحمل بعضهم، ولا طاقة للتخوم بمثار ركضهم، ففرق جدول الإسلام في تيارهم، وأحرق نور الإيمان بنارهم،

(٢) ابن العلقمي : محمد بن أحمد (أو محمد بن محمد بن أحمد) بن علي، أبو طالب، مؤيد الدين الأسدي البغدادي، وزير المستعصم العباسي، وصاحب الجريرة النكراء في ممالأة (هولاكو) على غزو بغداد، في رواية أكثر المؤرخين، اشتغل في صباه بالأدب، وارتقى إلى رتبة الوزارة سنة ٦٤٢هـ، فوليها أربعة عشر عاما، ووثق به المستعصم ، فألقى إليه زمام الأمور، وكان حازما خبيرا بسياسة الملك، كاتبا فصيح الإنشاء، اشتملت خزانته على عشرة آلاف مجلد، وصنع الصغاني له (العُباب) وابن أبي الحديد(شرح نهج البلاغة)، وقيل: أهين ابن العلقمي على أيدي التتار بعد دخولهم، ومات غمًّا في قلة وذلة ، ودفن في مشهد موسى بن جعفر في الكاظمية ببغداد ، سنة ٦٥٦هـ .

(البداية والنهاية ١٣ / ٢١٢، الوافي بالوفيات ١ / ١٨٥، مرآة الجنان ٤ / ١٤٧، الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص٢٠٨، ٣٣٦، دائرة المعارف الإسلامية ١ / ٢٤١، النجوم الزاهرة ٧ / ٢٠، تاريخ العراق بين احتلالين ١ / ٢٠٧-٢١٢، السلوك ١ / ٣٢٠، ٤٠٠ ، ابن الوردي ٢ / ٢٠١)

وبدأت الخلافة[١] بعبد الله السفاح، وختمت بعبد الله المستعصم، ولم تدرِ الملة لمن تستخصم، وأُخِذ رحمه الله وقُتل، وهُوجمت بغداد، وقُتِل الرجال، وسُبي النساء والأولاد، وألقت الهاشميين في دجلة بأرواحها، وارتجت النواحي بنواحها، وكاد الإسلام يذهب بجملته، والدين المحمدي يطوي ملاء ة ملته، وانقرضت الدولة العباسية، إلا بقية أتت مصر، ونويض[٢] سراجها ثم انطفى، وأومض بريقها في أخريات الليل ثم اختفى، وكان المستعصم يسكن إلى وزيره المؤيد ابن العلقمي ويسيل بضبعه ويميل إلى اعتلاء قدره ورفعه، ولا يزال يلاطفه [ص ١٩٩] ويهاديه، ولا يقطع مكاتباته، إما يجاوبه أو يباديه، أهدى إليه مرة قصب أقلام، وكتب معها : بعثنا إلى الوزير أعزه الله بقصب يراع، مؤذنة بأنه لدينا في المحل الأقصى لا يراع، فليكتب بها مشرفا، وفي الأرض وسكانها على رغم من يشناه مصرفا، فلما أتت ابن العلقمي، قام لها وقبَّل الأرض وقبَّلها، واعتقل خطيها المتفقة وأسلها، ثم كتب : (قبل المملوك شكرا للإنعام عليه بأقلام قلمت أظفار الحدثان، وقامت له في حرب صرف الزمان، مقام عواسل المران[٣]، وأجنته ثمار الأوطار من أغصانها، وحازت له قصبات المفاخر يوم رهانها، فيالله كم عقد ذمام في عقدها، وكم بحر سعادة أصبح من مدادها ومددها، وكم منآد خط استقام بمثقفاتها، وكم صوارم خطوب قلت مضاربها بمطروف مرهفاتها، فالله تعالى ينهض المملوك بمفروض دعائه، ويوفقه للقيام بشكر ما أولاه من جميل رأيه وجزيل حبائه).

وكانت آفته بل آفة الإسلام وزيره، ولما قدم هولاكو لإزاحة الباطنية عن

(١) في الأصل : الخليفة .

(٢) في الأصل : نونص، والصواب نويض، أي تحرك وتذبذب وتلألأ، من قولهم : ناض الشيء نوضا، إذا تحرك وتلألأ .

(٣) العواسل : الرماح اللينة، المران : الرماح الصلبة اللدنة .

قلاعهم، امتد إلى استكمال البلاد ووطأه ذلك الوزير الذميم، حتى طوى البلاد إلى العراق، ثم أوهم المستعصم أنه قد أكد له سبب الصداقة معه، فخرج لملتقاه في الفقهاء والأدباء وأهل الشرف في يوم الاثنين، سابع عشر صفر سنة ست وخمسين وست مائة، فلما رآه أمر به فرُفِس حتى مات، فديس بحوافر الخيل، ثم وقع السيف، وعظُم الخطب، وامتهنت المصاحف حتى عُملت للخيل معالف، وهُدِمت المساجد، ولم يبق متظاهر بالصلاة إلا حائط جدار ساجد، وخلت المنابر والأسرة، وخلع الخلافة خلع النعل، وطُفي نور الحق، وطُمس معلم الهدى، وكور الليل على النهار، وغال خوف الشموس والأقمار، ولو شاء ربك ما فعلوه، وولد المستعصم[١] [سنة تسع وست مائة]، وقيل في [ص٢٠٠][.......] وكان عمره [إحدى وثلاثون سنة]، ومدته [ست عشرة سنة]، ثم لم يبق للخلافة بقية ذكر، إلا لمن وصل منهم إلى مصر، واتصل بالظاهر بيبرس البندقداري بها، وها أنا أذكرهم .

فأولهم

[الخلفاء العباسيون في مصر]

٩٢ - المُستَنصِر بالله

أبو القاسم أحمد[٢] بن محمد الظاهر بن أحمد الناصر، وصل إلى مصر

---

(١) ما بين المعقوفتين بياض في الأصل ، والتتمة من تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٠٤ .

(٢) المستنصر بالله : أحمد بن محمد الظاهر ابن الناصر ابن المستضيء، أبو القاسم ، أول الخلفاء العباسين بمصر، دخلها بعد ثلاث سنين من انقراض الدولة العباسية في العراق، فاثبت نسبه في مجلس الظاهر بيبرس البندقداري ، أمام جمع من العلماء أركان الدولة، فسُرَّ به الظاهر ووجد فيه قوة جديدة لملكه، فجمع الناس وأعلن فيهم الأمر، وبايعه بالخلافة، ولقبه بالمستنصر، وأمر أن يخطب باسمه على المنابر، وأن ينقش اسمه على النقود، وأقيمت له المظاهر، وأنزل في دار=

وبايعه قاضي القضاة، تاج الدين عبد الوهاب العلامي المعروف بابن بنت الأغر، ثم الظاهر بيبرس، ثم عامة العلماء ، وأهل الشرف، ووجوه قريش، وعامة أرباب الدولة، وكان شهما لا يطاق، وشيهما ما لسمه درياق، وراميا رام أن يصمي بسهمه من مصر من بالعراق، وضاق الظاهر به لما رأى منه ومن وقاره المبثوث في نفوس الخلق، فما صدق أن وردت على المستنصر كتب أهل العراق باستقدامه، فجهزه في جيش استخدمه له، وخرج معه إلى دمشق، وكان الظاهر يركب إلى خدمته في كل يوم، ثم سار إلى العراق في دولة كاملة، بأرباب الوظائف، والشعار الكامل، ففتح كثيرا من البلادالفراتية، حتى أتى العراق، فجاءه أهلها، وتلك شيمتهم من قديم، ونصرهم لكل قائم بدعوة حق، وخرج له التتار فقاتلهم وثبت حتى قُتل ، واستحر القتل في عسكره، إلا من عجل الهزيمة، وكان قدومه مصر [سنة ٦٥٩هـ] ....[١] ومبايعته في [العام نفسه] ......[٢]

ثـم :

٩٣ - الحَاكم بأمْرِ اللَّه

أبو العباس أحمد[٣] بن محمد بن الحسن علي بن الحسن بن الراشد بن

= فخمة، وكان ذلك سنة ٦٥٩هـ ، ولم يكن له ولا لمن ولي بعده أثر يذكر في الملك، لأنهم إنما كان لهم من الخلافة اسمها، ودام لهم ذلك في مصر مدة ٢٥٥سنة ، ولم تطل مدة المستنصر، فإن الظاهر سيره في جيش إلى العراق سنة ٦٥٩هـ لاسترداد بغداد من أيدي التتار، فزحف وحارب التتر، وانهزم جيشه، وفُقد هو، وقيل قُتل في المعركة قريبا من هيت، ويعدونه الثامن والثلاثين من خلفاء بني العباس، كان مقتله سنة ٦٦٠ هـ .

(النجوم الزاهرة ٧/ ٢٠٦، تاريخ الخميس ٢/ ٣٧٨،ابن إياس ١/ ١٠١، السلوك ١/ ٤٤٨ — ٤٧٦)

(١) فراغ في الأصل .

(٢) فراغ في الأصل .

(٣) الحاكم بأمر الله العباسي(الأول) :أحمد بن الحسن بن أبي بكر بن علي القُبِّي، من ذرية=

المسترشد، ومن هناك يلتقي بعمود النسب المستعصمي، وكان غاية في الخير، والفضل والثبات، ولما قدم أتى الحسام البرؤلي وقد تملك البيرة، فبايعه واستخدم له، ثم أتى عيسى بن مهنا أمير آل فضل، فقام في ناصره، وقاد له جمهور عسكره، فخاف الظاهر بيبرس عاقبته، وخال أنه يجتثُّ باقيته، فلاطف عيسى بن مهنا، وراسله في تجهيزه إلى مصر ليبايعه، وأنه [ص ٢٠١] لا يجد حرجا في صدره أن يطاوعه، وكان للظاهرعلى عيسى بن مهنا يدٌ يرعاها، ولكتبه عنده نجاح لا يخيب مسعاها، ورأى في هذا صلاحا للناس وجمعا لكلمة الإسلام، فعمل على هذا، وقدم الحاكم مصر وبايعه الظاهر بيبرس، إلا أنه يحجر عليه، وبعد مدة أسقط اسمه من السكة، وأبقاه في الخطبة، ودام مكرما إلا أنه ممنوع، وموسعا عليه، إلا أنه مضيق له بالنسبة إلى ما يستحق، فلما أتى اللهب الدولة الشريفة الملكية الأشرفية الصلاحية، سقى الله عهدها، فسح له ، وأخلى له قصر الكبش، وبوَّأه منزله، وكان العزم الأشرفي كله مصروفا إلى استفتاح العراق وإعادة الخلافة إلى مقرها في صدر ذلك الرواق، وتصريف حكم الحاكم في البلاد وإقامة الدولة العباسية على ما كانت عليه، بالأمراء والوزراء والأجناد، ثم توفي .

ثم قام ابنه :

٩٤ -المُسْتَكْفِي بالله

أبو الربيع سليمان[١]، [قام] بعهد أبيه، وكان حسن الجملة، لين الحملة،

= المستظهر بن المقتدي، اختفى في واقعة بغداد ، وجمع عساكر من العربان افتتح بهم عانة والأنبار، وكر عليه التتار ونجا فسار إلى القاهرة ، وبويع فيها بالخلافة سنة ٦٦١ هـ، وعقد السلطنة للظاهر بيبرس، وضربت السكة باسمهما مدة ثم اقتصر على اسم السلطان، وكان يخطب بنفسه وله شجاعة ، استمر أربعين سنة ، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٠١ هـ .

(فوات الوفيات ١ /٦٨، الدرر الكامنة ١ /١١٩ البداية والنهاية١٣ /٢٣٣، ١٤ /١٨)

(١) المستكفي بالله : سليمان بن أحمد بن علي، أبو الربيع، ابن الحاكم بأمر الله، من خلفاء الدولة=

مع فروسية كانت فيه، لو وجد لها حين إبراز، أو أضفي حدٌّ لإحراز، إلا أنه لم يجد لغصته مساغا، ولا لقصته بلاغا، فكان لا يرى لسهولة الجانب، ومداهنة المجانب، إلا أوطأ من رمله، وأضعف من نمله، وأكثر توقيا ممن عرفت عليه عمله، عهد إليه أبوه الحاكم بالخلافة بعد ابنه المستمسك، الأمير أبي عبد الله محمد، حين توفي المستمسك وتجرع أبوه صاب مصابه، وطوى حوائجه على داء أوصابه، ثم جعل بعده العهد إلى إبراهيم ولد المستمسك، ظناً أنه يصلح لأن يصرح باسمه على المنابر، ويجيء على أذيال آبائه الأكابر، فلما توفي الحاكم وخرج سلار كامل الممالك، فمن دونه في جنازته، وقاموا نحو كرامته وغرارته، بويع المستكفي بيعة طوقت الرقاب، وطولت له ذيل الخلافة على الأعقاب، وكان هو وسلطاننا كأنهما أخوان، لما بينهما من إلفة جامعة، ومودة لفراق الأعداء قامعة، وحضر نوبة مرج الصفر، وكان [ص ٢٠٢] على عهد الله المظفر، سار سلطاننا به فأيّد الله بهما هذه العصابة، وكان يومهما بمرج الصفر باني يوم الصحابة، كل منهما هدَّ أركان العدو، وهدم بنيان أهل العتو، ثم لم يزل به لدم الخلافة آثار باقية، وشيء يحفظ به تلك البقية المتلاشية، حتى كان من نزول السلطان عن المُلْك سنة ثمان وسبع مائة ما كان، وحصل الاجتماع على المظفر بيبرس، فقلده المستكفي وسوَّره، وصيَّره حيث صيره، فنقمها عليه

= العباسية بمصر، تولى بعد وفاة أبيه سنة ٧٠١ هـ بعهد منه، ففوض الأمور إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وسار لغزو التتر، فشهد مصاف شقحب (قرب دمشق)، ودخل دمشق سنة ٧٠٢ هـ، راكبا هو والسلطان، وجميع كبراء الجيش مشاة، ثم ساءت حاله مع السلطان (الناصر)، فأخرجه هذا إلى قوص بالصعيد سنة ٧٣٨ هـ، فأقام إلى أن توفي بها، وكان فاضلا جوادا شجاعا، يجالس العلماء والأدباء، دامت خلافته تسعا وثلاثين سنة، ولم يكن له منها غير مراسمها، توفي سنة ٧٤٠ هـ.

(البداية والنهاية ١٤ / ١٨٧، ابن الوردي ٢ / ٣١٧، المختصر لأبي الفداء ٤ / ١٣٢، النجوم الزاهرة ١٠ / ١٦٩، الدرر الكامنة ٢ / ١٤١)

السلطان، وأسرَّها، ثم لما قام السلطان لاسترجاع ضالته، وإنباه المظفر من كرى ضالته، استجاش المظفر بالمستكفي يجدد له الولاية، ونسبت في السلطان أقوال إليه ، حملت السلطان على التحامل عليه، فلما عاود الزمان عقله، وحل من الحظ الناصري عقله، وعاد السلطان سنة تسع وسبع مائة إلى تخته، وعاد ما ألِّف من بخته، أعرض عن المستكفي كل الإعراض، ودبَّت بينهما الأمراض، فلم يزل يكدر على المستكفي المشارب، ويقف دونه في وجوه المآرب، ، حتى تركه في برج في القلعة، في بيته وحرمه، وخاصة من يلوذ بحرمه، وبقي على هذا مدة، حتى قام قوصون، ورجلٌ آخر معه لا أسميه، ولم يزالا يلاطفان السلطان حتى أنزله إلى داره، وأطلع هلاله، نضوا من سراره، ثم نُسِب إلى ابنه صدقة، التعلق ببعض خاصة السلطان، وتردد ذلك الغلام إليه، فنُفي الغلام، وأصعد بالخليفة إلى قوص، فقدمت إليه مطايا السفين، وأنزل معه بعض حرمه وقد حفين، ثم أقلعت بهم تلك السواري، وعادوا أجنة في بطون تلك الجواري، إلا أنه لم ينقص من روايته، ولا أسقط اسمه عن المنابر، وغبر عن هذا مدة، يعلل فيها نفسه، إلى أن علقت بابنه صدقة أشراك المنون، وجالت في منيته الظنون، فجزع عليه جزعا شديدا، استخف وقاره، وحركه بل أطاره، ثم لم تطل به المدة، ولا بقي إلا قليلا بعده، وكانت وفاته سنة أربعين وسبع مائة، ودُفن بقوص، وذلك بعد أن أذن إلى ابنه الحاكم أبي العباس، لكنه لم يجد عهده راعيا، ولا [ص٢٠٣] ابنه بعده لوصيته واعيا.

ثم قام ابن أخيه :

٩٥ - الواثِقُ باللّهِ

إبراهيم(١) بن المستمسك، أبي عبد الله محمد بن الحاكم، وقد تقدم القول

(١) الواثق بالله : إبراهيم بن محمد (المستمسك بالله) بن أحمد العباسي، أبو إسحاق ، من خلفاء=

فيما أصاره إليه جده، من العهد بعد المستكفي، ظناً أن يكون صالحا، أو يجيب لداعي الخلافة صالحا، فأنشأ إلا في تهتك، ولا دان إلا بعدم تنسك، أغري بالقاذورات، وفعل ما لم تدع إليه الضرورات، وعاشر السفلة الأراذل، وهان عليه من عرضه ما هو باذل، وزين له سوء عمله فرآه حسنا، وعُمي عليه فلم يـر مسنا إلا محسنا، وغوي باللعب بالحمام، ومشترى الكباش للنطاح، والديوك للنقار، والمنافسة في المعز الزرابية الطوال الآذان، وأشياء من هذا ومثله، ما يسقط المروءة ، ويثل عرش الوقار، إلى أن صار لا يُعد[إلا] في سفلة الناس، هذا إلى سوء معاملة، ومشترى سلع لا يوفي أثمانها، واستيجار آدر لا يقوم بأجرها، وتحيل على درهم يملأ به كفه، وسحت يجمع به فمه، وحرام يطعم منه ويُطعم حرمه، حتى كان عرضه عرضة للهوان، وأكله لأهل الأوان، فلما توفي المستكفي، والسلطان عليه في حدة غضبه، وتيَّاره المتحامل عليه في شدة غليه، طلب هذا الواثق المعتر، والمائق إلا أنه غير المضطر، وكان ممن يمشي إلى السلطان في عمه بالنميمة، ويعقد مكايده على رأسه عقد التميمة، فحضر إليه، وأحضر معه عهد جده فتمسك السلطان في مبايعته بشبهته، وصرف وجه الخلافة إلى جهته، وكان قد تقدم بعض ذلك العهد ونسخ ذلك العقد، وقام قاضي القضاة أبو عمرو بن جماعة، في صرف رأي السلطان على إقامة الخطبة باسم الواثق، فلم يفعل، فاتفق الرأيان على ترك الخطبة للاثنين، واكتفى فيها بمجرد اسم السلطان،

= الدولة العباسية الثانية بمصر، وهو ابن أخي المستكفي بالله (سليمان بن أحمد)، وكان المستكفي قد عهد إلى ابنه (أحمد بن سليمان) بالخلافة، فلما مات المستكفي سنة ٧٤٠ هـ، توقف الناصر قلاوون عن البيعة لابنه، ثم أقام الواثق خليفة، فخطب له بالقاهرة جمعة واحدة، ومات الناصر القلاووني، وخلفه المنصور (أبو بكر بن محمد)، فخلع الواثق، وبايع لأحمد بن سليمان سنة ٧٤٢ هـ وفيها توفي الواثق بالله .

(النجوم الزاهرة ٩ / ١٥١، البداية والنهاية ١٤ / ١٩١)

فترجل بموت المستكفي اسم الخلافة عن المنابر، كأنه ما علا ذروتها، وخلا الدعاء للخلفاء من المحاريب، كأنه ما قرع بابها ومروتها، فكأنما كان آخر خلفاء بني العباس، وشعارها عليه لباس الحداد، وعمودتلك [ص ٢٠٤] السيوف الحداد، ثم لم يزل الأمر على هذا، حتى حضرت السلطان الوفاة، وقرع الموت صفاه، فكان مما أوصى به ، رد الأمر إلى أهله، وإمضاء عهد المستكفي لابنه، وقال : الآن حصحص الحق، وحنا على مخلفيه ورقَّ، وعزل إبراهيم وهزل، وكان قد رعى رَعْيَ الهمم، وستر اللوم بثياب أهل الكرم، وتسمن وشحمه ورم، وتسمى بالواثق، وأين هو من صاحب هذا الاسم، الذي طالما سرى رعبه في القلوب، وأمنت هيبته العيوب، وهيهات لا يقد من النسر التماثيل، ولا الناموسة وإن طال خرطومها كالفيل، وإنما سوء الزمان قد ينفق ما كسد، والهر يحكي انتفاخا صولة الأسد، وقد عاد الآن بعَضٌ يديه، ، ومن يهن يسهل الهوان عليه .

ثم قام :

٩٦ - الحَاكِمُ بأمْرِ اللّهِ

أبو العباس أحمد ابن المستكفي(١)، إمام غصنها، وغمام مصرنا، قام على غيظ العدى، وعُرف بفيض الندى، صارت به الأمور إلى مصائرها، وسبقت أمل مصابرها، فأحيا رسوم الخلافة، ورسم بما لم يستطع أحد خلافه، وسلك

(١) الحاكم بأمر الله العباسي (الثاني) : أحمد بن سليمان المستكفي بالله بن الحاكم بأمر الله (الأول الذي سبقت ترجمته)، أبو القاسم، من خلفاء الدولة العباسية الثانية بمصر، بويع سنة ٧٤٢ هـ، ولبس السواد، وخطب خطبة بليغة، وخلع على بعض الأمراء والأعيان، وفوض الأمور للمنصور القلاووني أبي بكر بن محمد، ولم يكن له من الأمر شيء واستمر إلى أن مات في القاهرة سنة ٧٥٣ هـ .

(البداية والنهاية ١٤ / ١٩١، بدائع الدهور ١ / ٢٠٠، الدرر الكامنة ١ /١٣٧، ابن الوردي ٢ / ٣٣١، النجوم الزاهرة ١٠ / ٢٨٤، ٢٩٠، تاريخ الخميس ٢ / ٣٨٢)

مناهج آبائه وقد طمست، وأحياها بمناهج أنبائه وقد درست، وجمع شمل بني أبيه وقد طال بهم الشتات، وأطال غرزهم وقد اختلفت الشيات، ورُفع اسمه على ذرى المنابر، وقد غبر مدة لا تطلع إلا في آفاقه تلك النجوم، ولا يسح من سحبه تلك الغيوم والسجوم، طلب بعد موت سلطاننا تغمده الله برحمته، وأنفذ حكم وصيته في تمام مبايعته، والتزام متابعته، وكان أبوه قد أحكم له بالعهد المتقدم عقدها، وحفظ له عند ذوي الأمانة عهدها، ثم سلطن الملك المنصور أبا بكر بن السلطان، وعمّر له من تحت الملك الأوطان .

قلت : وقد كان حين طار الخبر إلى مصر بموت أبيه، أُشيع أنه لم يعهد إليه، وإنما الناس قد يقع اجتماعهم عليه، فكتب صورة مبايعة له، وهي :

[صورة المبايعة للحاكم]

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾، ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ﴾[1] ، هذه بيعة [ص٢٠٥] رضوان، وبيعة إحسان، وجُمعة رضى، يشهدها الجماعة، ويشهد عليها الرحمن، بيعة يلزم طائرها العنق، وتحوم بشائرها، وتحمل أنباء ها البراري والبحار، مشحونة الطرق، بيعة يصلح الله بها الأمة، ويمنح بسببها النعمة، وتتجازى الرفاق، ويسري الهناء في الآفاق ، وتتزاحم زمر الكواكب على حوض المجرة الدفاق، بيعة سعيدة ميمونة، بيعة شريفة بها السلامة في الدين والدنيا مضمونة، بيعة صحيحة شرعية، بيعة ملحوظة مرعية، بيعة تسابق إليها كل نية، وتطاوع كل طوية، ويجمع عليها شتات البرية، بيعة يستهل بها الغمام، ويتهلل البدر التمام، بيعة متفق على الاجماع عليها، والاجتماع لبسط الأيدي إليها، انعقد عليها الاجماع، فاعتقد

---

(١) سورة الفتح آية ١٠ .

صحتها من سمع لله وأطاع، وبذل في تمامها كل امرىء ما استطاع، حصل عليها اتفاق الأبصار والأسماع، ووصل بها الحق إلى مستحقه، وأقر الخصم وانقطع النزاع، يضمها كتاب مرقوم، يشهده المقربون، وتلقاه الأئمة الأقربون، و (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)[١]، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، والينا ولله الحمد وإلى بني العباس أجمع على هذه البيعة أرباب العقد والحل، وأصحاب الكلام فيما قل وجل، وولاة الأمور والحكام، وأرباب المناصب والأحكام، وحملة العلم والأعلام، وحماة السيوف والأقلام، وأكابر بني عبد مناف، ومن انخفض قدره وأناف، وسروات قريش، ووجوه بني هاشم، والبقية الطاهرة من بني العباس، وخاصة الأئمة، وعامة الناس، بيعة تُرى بالحرمين خيامها، وتخفق بالمأزمين أعلامها، وتتعرف عرفات بركاتها، وتعرف بمنى، ويؤمن عليها يوم الحج الأكبر، ويؤم ما بين الركن والمقام والقبر، ولا ينبغي بها إلا وجه الله الكريم ....[٢] بيعة لا يحل عقدها، ولا ينبذ عهدها، لازمة جازمة، دائبة دائمة، تامة عامة، شاملة كاملة، صحيحة صريحة، متعبة مريحة، [ولا من يوصف بعلم][٣] ولا قضاء ولا من يرجع إليه في إيقاف ولا إمضاء، ولا إمام مسجد ولا خطيب، ولا [ص ٢٠٦] ذو فتوى يُسأل فيجيب، ولا من جنبي المساجد، ولا من تضمهم أجنحة المحاريب، ولا من يجتهد في رأي فيخطىء أو يصيب، ولا محدث بحديث، ولا متكلم في قديم أو حديث، ولا معروف بدين وصلاح، ولا فرسان حرب وكفاح، ولا راشق بسهام، ولا طاعن برماح، ولا ضارب بصفاح، ولا ساع بقدم، ولا طائر بجناح،

---

(١) الأعراف ٤٣، وقراءة الآية :وقالوا الحمد لله ... الآية .

(٢) بياض في الأصل بقدر ثلاث كلمات ، وليس في الكلام نقص كما جاء في تاريخ الخلفاء ص٤٢٨ وفيه نص المبايعة .

(٣) في الأصل نقص والتتمة من تاريخ الخلفاء .

ولا مخالط للناس، ولا قاعد في عزلة، ولا جمع كثرة ولا قلة، ولا من يستقل بالجوزاء لواؤه، ولا من يقل فوق الفرقد ثواؤه، ولا باد ولا حاضر، ولا مقيم ولا سائر، ولا أول ولا آخر، ولا مُسِرٌّ في باطن، ولا معلن في ظاهر، ولا عرب ولا عجم، ولا راعي أبل ولا غنم، ولا صاحب أناة ولا بِدار، ولا ساكن في حضر وبادية بدار، ولا صاحب عمد[1] ولا جدار، ولا ملجلج في البحار الزاخرة، والبراري القفار، ولا من يتوقل صهوات الخيل، ولا من يسبل على العجاجة الذيل، ولا من تطلع عليه شمس النهار، ونجوم الليل، ولا من تظله السماء وتقله الأرض، ولا من تدل عليه الأسماء على اختلافها، وترفع درجات بعضهم على بعض، حتى أمن بهذه البيعة وأمَّن عليها، وأمِنَ بها، ومَنَّ الله عليه وهداه إليها وأقرَّ بها وصدق ،وغضَّ له بصره خاشعا، وأطرق ومد إليها يده بالمبايعة، ومعتقده بالمتابعة، ورضي بها وارتضاها، وأجاز حكمها على نفسه، وأمضاها، ودخل تحت طاعته، وعمل بمقتضاها، وقضى بينهم بالحق، وقيل الحمد لله رب العالمين .

وإنه لما استأثر الله بعبده سليمان أبي الربيع الإمام المستكفي بالله، أمير المؤمنين، كرم الله مثواه، وعوضه عن دار السلام ، بدار السلام، ونقله مُزَكّي يديه عن شهادة الإسلام، بشهادة الإسلام، حيث آثره بقربه ومهد لجنبه، وأقدمه على ما قدمه من مرجو عمله وكسبه، وخار له في جواره فريقا، وأنزله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، الله أكبر ليومه يوما لولا محلفه، كانت تضيق الأرض بما رحبت، وتُجزى كل نفس بما كسبت، وتُنَبَّأ كل سريرة ما ادخرت [ص٢٠٧] وما جنت، لقد اضطرم سعير، إلا أنه في الجوانح، لقد اضطرب منبر وسرير ، لولا خلفه الصالح،

(١) في الأصل : عهد .

لقد اضطر مأمور وأمير لولا الفكربعده في عاقبة المصالح، لقدغاضت البحار، لقد غابت الأنوار، لقد غالت البدور وعوارض ما يلحق الأهلة من المحاق، وتدرك البدور من السرار، نسفت الجبال نسفا ، وخبت مصابيح النجوم وكادت تُطْفى، وجاء ربك والملك صفا صفا، لقد جمعت الدنيا أطرافها، وأزمعت على المسير، وخضت الأمة لهول المسير، وزاغت يوم موته الأبصار، إنّ ربَّهم يومئذ لخبير، وقفت الألباب حيارى، وتوقفت تارة تصدق وتارة تتمارى، لا تعرف قرارا، ولا على الأرض استقرارا، إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولم يكن في النسب العباسي، ولا في جميع من في الوجود، ولا في البيت المسترشدي، ولا في غيره من بيوت الخلفاء من بقايا آباءٍ لهم وجدود، ولا من بلدة أخرى الليالي وهي عاقر غير ولود، من تُسَلم إليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم عقد نياتها، وسر طوياتها، إلا واحد، وأين ذاك الواحد، هو والله من انحصر فيه استحقاق، ميراث آبائه الأطهار، وتراث أجداده، ولا شيء هو إلا ما اشتملت عليه رداء الليل والنهار، وهو ولد المنتقل إلى ربه، وولد الإمام الذاهب لصلبه المجمع على أنه في الأيام، فرد هو الأنام، وواحد وهكذا في الوجودالإمام، وإنه الحائز لما زُررت عليه جيوب المشارق والمغارب، والفائز بملك ما بين المشارق والمغارب، الراقي في صفح السماء ، هذه الذروة المنيفة، الباقي بعد الأئمة الماضين، ونعم الخليفة المجتمع فيه شروط الإمامة، المتضع لله، وهو ابن بيت لا يزال الملك فيهم إلى يوم القيامة، الذي يفضح السحاب نائله، والذي لا يغره عاذره، ولا يعيره عاذله، والذي ما ارتقى صهوة المنبر، بحضرة سلطان زمانه، إلا قال ناصره، وقام قائمه، ولا قعد على سرير الخلافة إلا وعرف أنه [ص٢٠٨] ما خاف مستكفيه، ولا غاب حاكمه، نائب الله في أرضه، والقائم مقام رسوله صلى الله عليه وسلم، وخليفته وابن عمه، وتابع عمله الصالح،

ووارث علمه، سيدنا ومولانا عبد الله ووليه أبو العباس الإمام الحاكم بأمر الله، أمير المؤمنين أيد الله ببقائه الدين، وطوق بسيفه الملحدين، وكبت تحت لوائه المعتدين، وكتب له النصر إلى يوم الدين، وكبَّ بجهاده على الأذقان طوائف المفسدين، وأعاذ به الأرض مما لا يدين بدين، وأعاد بعدله أيام آبائه الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، ، الذين قضوا بالحق، وبه كانوا يعدلون، وعليه كانوا يعملون، ونصر أنصاره، وقدر اقتداره، وأسكن في القلوب سكينته ووقاره، ومكن له في الوجود، وجمع له أنظاره .

ولما انتقل إلى الله ذلك السيد، ولقي أسلافه، ونُقِل إلى سور الجنَّة عن سرير الخلافة، وخلا القصر من إمام يمسك ما بقي من نهاره، وخليفة يغالب مزيد الليل بأنواره، ووارث نبي بمثله ومثل آبائه، استغنى الوجود بعد ابن عمه، خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، عن نبي يقفي على آثاره، ونسي ولم يعهد، فلم يبق إذ لم يوجد النص إلا الإجماع، وعلته كانت الخلافة، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا نزاع، اقتضت المصلحة الجامعة عقد مجلس كل طرف به معقود، وعقد بيعة عليها الله والملائكة شهود، وجمع الناس له، وذلك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود، فحضر من لم يعبأ بعده بمن تخلف، ولم يربأ معه وقد مدَّ يده طائعا، لمن مدها، وقد تكلف، وأجمعوا على رأي واحد، استخاروا الله فيه فخار، وأُخِذ يمين تُمَدلها الأيمان، وتُشَدُّ بها الإيمان، وتعطى عليها المواثيق، ، وتُعرض أمانتها على كل فريق، حتى تقلد كل من حضر في عنقه هذه الأمانة، وحط على المصحف الكريم يده، وحلف بالله وأتم أيمانه، ولم يقطع ولا استثنى، ولا تردد، ومن قطع عن غير قصد أعاد وجدد، وقد نوى كل من حلف، أن النية في يمينه، نية من عقدت له هذه البيعة، ونية من [ص ٢٠٩] حُلف له وتذمم بالوفاء له في ذمته ، وتكفله على عادة أيمان

البيعة وبشروطها، وأحكامها المرددة، وأقسامها المؤكدة، بأن يُبذَل لهذا الإمام المفترض الطاعة، ولا يفارق الجمهور، ولا يظهر عن الجماعة، وغير ذلك مما تضمنته نسخ الأيمان، المكتتب فيها أسماء من حلف عليها، مما هو مكتوب بخطوط من يكتب منهم، وخطوط العدول والثقات، عن من لم يكتبوا وأذنوا أن يكتب عنهم ، حسبما يشهد به بعضهم على بعض، ويتصادق عليه أهل السماء والأرض، بيعة تم بمشيئة الله تمامها ، وعم بالصوب المغدق غمامها، وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، ووهب لنا الحسن، ثم الحمد لله الكافي عبده، الموافي لمن يضاعف على كل موهبة حمده، ثم الحمد لله على نعمة يرغب أمير المؤمنين في ازديادها، ويرهب ألا يقاتل أعداء الله بأمدادها، ويرأب بها من أثر في منابر ممالكه، ما بان من مباينة أضدادها، نحمده والحمد لله، ثم الحمد لله، كلمة لا نمل من تردادها، ولا يخل بما يفوت السهام من سدادها، ولا يطل إلا على ما يوجب تكثير أعدادها، وتكبير أقدار أهل ودادها، وتصغير التحقير لا التحبيب لأندادها.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تتقايس دماء الشهداء وإمداد مدادها، وتتنافس طُرَر الشباب، وغُرر السحاب على استمدادها، وتتجانس رقومها المدبجة وما تلبسه الدولة العباسية من شعارها، والليالي من دثارها، والأعداء من حدادها، صلى الله عليه وعلى جماعة أهله، ومن سلف من أبنائها، وسلف من أجدادها، ورضي الله عن الصحابة أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد، فإن أمير المؤمنين لما أكسبه الله من ميراث النبوة، ما كان لجده، ووهبه من الملك السليماني، ما لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمه منطق الطير، بما يتحمله حمائم البطايق من بدايع البيان، وسخَّر له من البريد على متون

الخيل، ما سخره [ص٢١٠] من الريح لسليمان، وآتاه من خاتم الأنبياء، ما امتد به أبوه سليمان وتصرف، وأعطاه من الفخار به، ما أطاعه كل مخلوق ولم يتخلف، وجعل له من لباس بني العباس ما يقضي له سواده بسؤدد الأجداد، وينفض على كحل الأهداب مافضل عن سويداء القلب، وسواد البصر من السواد، ويمد ظله على الأرض وكل مكان حله، دار ملك وكل مدينة بغداد، وهو في ليله السجاد، وفي نهاره العسكري ، ومن كرمه جعفر وهو الجواد، يديم الابتهال إلى الله في توفيقه ، والابتهاج بما يغص كل عدو بريقه .

ونبدأ يوم هذه المبايعة بما هو الأهم من مصالح الإسلام، وصالح الأعمال، فيما تتحلى به الأيام، ويقدِّم التقوى أمامه، ويقرر عليها أحكامه، ويتبع الشرع الشريف ويقف عنده، ويوقف الناس، ومن لا يحمل أمره طائعا على العين، يحمله غصباً على الرأس ويعجل أمير المؤمنين بما تستقر به النفوس، ويرد به كيد الشيطان وإنه يؤوس ، ويأخذ بقلوب الرعايا، وهو غني عن هذا، ولكنه يسوس، وأمير المؤمنين يشهد الله وخلقه عليه بأنه أقرَّ ولي كل أمر من ولاة أمور الإسلام على حاله، واستمر به في مقيله، تحت كنف ظلاله، على اختلاف طبقات ولاة الأمور، وطرقات الممالك والثغور، برا وبحرا وسهلا ووعرا، وشرقا وغربا، وبُعدا وقربا، وكل جليل وحقير، وقليل وكثير، وصغير وكبير، وملك وممَلَّك وأمير، وجندي، يبرق له سيف شهير ورمح ظهير، ومع من هؤلاء من وزراء وقضاة وكتاب، ومن له تدقيق في إنشاء ، وتحقيق في حساب، ومن يتحدث في بريد وخراج، ومن يحتاج إليه، ومن لا يحتاج، ومن في التدريس والمدارس، والرُبَط والزوايا والخوانق، ومن له أعظم التعلقات وأدنى العلائق، وسائر أرباب المراتب، وأصحاب الرواتب، ومن له من مال الله رزق مقسوم ، وحق مجهول أو معلوم، استمرارا بكل أمر على ما هو عليه، حتى يستخير الله تعالى، ويتبين له ما

[ص٢١١] بين يديه، فمن ازداد تأهيله ، زاد تفضيله ، وإلا فأمير المؤمنين لا يريد إلا وجه الله، ولا يحابي أحدا في دين، ولا يحابي في حق ، فإن المحاباة في الحق مداجاة على المسلمين، وكل ما هو مستمر إلى الآن، مستقر على حكم الله، مما فهمه الله له، وفهَّمه سليمان، لا يغير أمير المؤمنين في ذلك، ولا في بعضه مغيرا، شكراً لله على نعمه، وهكذا يجازي من شكر، ولا يكدر على أحد موردا نزه الله نعمه الصافية به عن الكدر، ولا يتأول في ذلك متأول، إلا من جحد النعمة أوكفر، ولا يتعلل متعلل، فإن أمير المؤمنين نعوذ بالله ، ونُعيذ أيامه من الغير، وأمر أمير المؤمنين، أعلى الله أمره، أن يعلن الخطباء بذكره وذكر سلطان زمانه على المنابر في الآفاق، وأن يصرف باسمهما النقود وتسير بالإطلاق، ويوشح بالدعاء لهما عطف الليل والنهار، ويصرح منه بما يشرق وجه الدرهم والدينار، وتتهيأ به وتتناهى المنابر ودور الضرب هائل يرفع اسمهما على أسرة مهودها، وهذه أعلا أسارير يقودها، فالخطب والذهب معدنهما واحد ، وبهما يذكر الله ، فهما مساجد، وهذه تقام بسببها الصلاة ، وتلك تدام بها الصلات ، وكلاهما مما تستمال به القلوب ، ولا تلام على ما تعيه الآذان وتوعيه، وما منهما إلا ما تحذف بجواهره الأحداق ، وتميل إليه الأعناق، وتبلغ به المقاصد، وكلاهما أمر مطاع ، وإذا لمعت بارقة الخطب ، طار للذهب شعاع، ولولا[ه] ما اجتمع جمع ولا انضم، ولا عُرف الإمام ممن يأتم، ولولا الأعمال ما رتبت الأموال، ولولا الأموال ما وليت الأعمال، ولأجل ما بينهما من هذه النسبة ، قيل إن الملك له السكة والخطبة، وقد أسمع أمير المؤمنين في هذا المجمع المشهود ما يتناقله كل خطيب، ويتداوله كل بعيد وقريب ، ومختصره أن الله أمر بأوامر، ونهى بنواهٍ ، وهو رقيب ، وستفرع الألباب لها [ص٢١٢] السجايا، وتفرع الخطباء لها شعوب الوصايا ، وتتكمَّل بها المزايا، وتخرج من المشايخ الخبايا من الزوايا ، ويسمر بها السمار، ويترنم الحادي والملاح، ويرق

سحرها في الليل المقمر، ويرقم على جبين الصباح، وتعطر بها مكة بطحاء ها، ويحيا بحدائها قباه، ويلقنها كل أب فهّم ابنه، ويسأل كل ابن يجيب أباه، وهو لكم أيها الناس من أمير المؤمنين مرشد وعليكم بيّنة، وإليكم ما دعاكم به إلى سبيل ربه من الحكمة والموعظة الحسنة، ولأمير المؤمنين عليكم الطاعة، ولولا قيام الرعايا ما قبل الله أعمالها، ولا أمسك بها البحر، ودحا الأرض، وأرسى جبالها، ولا اتفقت الآراء على من يستحق، وجاءت إليه الخلافة تجر أذيالها، وأخذها دون بني أبيه، ولم تكُ تصلح إلا له، ولم يكُ يصلح إلا لها .

وقد كفاكم أمير المؤمنين السؤال بما فتح الله[١] لكم من أبواب الأرزاق، وأسباب الارتزاق، وأجراكم على وفاقكم، وعلمكم مكارم الأخلاق، وأجراكم على عوائدكم ولم يمسك خشية الإملاق، ولم يبق لكم على أمير المؤمنين إلا أن يسير فيكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويعمل بما يسعد به من يحيا[٢] أطال الله بقاء أمير المؤمنين من بعده ، ويزيد على من تقدم ، ويقيم فروض الحج والجهاد، ويقيم الرعايا بعدله الشامل في مهاد أمير المؤمنين، يقيم على عادة آبائه موسم الحج في كل عام ، ويشمل ببره سكان الحرمين الشريفين، وسدنة بيت الله الحرام، ويجهز السبيل على ضاله ، ويرجو أن يعود على حاله الأول في سالف الأيام، وتتدفق في هذين المسجدين[٣] بحره الزاخر، ويرسل إلى ثالثهما في البيت المقدس ساكب الغمام ويقيم بعدله[٤] قبور الأنبياء ، صلوات الله عليهم أين ما كانوا، وأكثرهم في الشام، والجمع والجماعات هي فيكم على

(١) في الأصل : وقد كفاكم الله أمير المؤمنين السؤال بما فتح لكم. وهو خلاف المقصود، والتصويب من تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٣٢ . والوصية في تاريخ الخلفاء فيها نقص وهنا أتم منها .

(٢) في الأصل : ويعمل بما يبعث به أن يجيء، والمعنى غير مستقيم، والتصويب من تاريخ الخلفاء .

(٣) في الأصل : المنجدين .

(٤) في الأصل : تقوية قبور ، والكلمة الأولى غير معجمة .

قديم سَنَنها، وقويم سُنَنها، وستزيد في أيام أمير المؤمنين لمن يُضَمُّ إليه ، وفيما يتسلم من بلاد الكفار، ويُسْلِم منهم على يديه .

وأما الجهاد فكفى باجتهاد القائم عن [ص ٢١٣]أمير المؤمنين بمأموره، المقلد عنه جميع ما وراء سريره ، وأمير المؤمنين قد وكَّل منه ـ خلد الله ملكه وسلطانه ـ عينا لا تنام ، وقلد سيفا لو أغفت بوارقه ليلة واحدة عن الأعداء سلت خياله عليهم الأحلام، فإنه حقه، وسيؤكد أمير المؤمنين في ارتجاع ما غلب عليه العدى، وانتزاع ما بأيديهم من بلاد الإسلام، فإنه حقه، وإن طال عليه المدى، وقد قدم الوصية بأن يوالي غزو العدو المخذول برا وبحرا ولا يكف عمن ظفر به منهم قتلا وأسرا، ولا يفك أغلالا ولا إصرا، ولا ينفك يرسل عليهم في البر من الخيل عقبانا، وفي البحر غربانا، يحمل كل منهما من كل فارس صقرا، ويحمي الممالك ممن يتخوف أطرافها بإقدام ، ويتجول أكنافها بأقدام، وينظر في مصالح القلاع والحصون والثغور، وما يحتاج إليه من آلات القتال، ويحتاج به الأعداء، وتعجز حيلة المحتال ، وأمهات الممالك التي هي مرابط البنود، ومرابض الأسود والأمراء والعساكر والجنود، وترتيبهم في الميمنة والميسرة والجناح الممدود، وتفقد أحوالهم بالعرض، بما لهم من خيل تعقد ما بين السماء والأرض، وما لهم من زرد موصوف، وبيض مسها ذائب ذهب، فكانت كأنها بيض مكنون، وسيوف قواضب ، ورماح بسيب دوامها من الدماء خواضب، وسهام تواصل القِسي وتفارقها، فتحنُّ حنين مفارق، وتزمجر القوس زمجرة مغاضب .

وهذه جملة أراد أمير المؤمنين بها إطابة قلوبكم، وإطالة ذيل التطول على مطلوبكم ، ودماؤكم وأموالكم وأعراضكم في حماية إلا ما أباح الشرع المطهر، ومزيد الإحسان إليكم، على مقدار ما يخفي منكم ويظهر، وأما جزئيات الأمور فقد علمتم بأن من بعد عن أمير المؤمنين غني عن مثل هذه الذكرى، ومنيً حقاً

لا تستغل بتطلب شيء نكرا، وفي ولاة الأمور، ورعاة الجمهور لمن هو سداد عمله ، ومزاد أمله، ومراد من هو منكم معشر [ص٢١٤] الرعايا ، وأنتم على تفاوت مقاديركم عندهم وديعة أمير المؤمنين، ومن خَوله، وأنتم وهم فما منكم من سيعرف أمير المؤمنين ويمشي في مراضي الله على خُلقه، وينظر ما هو عليه ، ويسير سيرته المثلى في طاعة ولي خلقه، وكلكم سواء في الحق عند أمير المؤمنين، وله(١) عليكم أداء النصيحة وإبداء الطاعة بسريرة صحيحة، فقد دخل كل منكم في كنف أمير المؤمنين وتحت رِقّه، ولزمه حكم بيعته، والتزم طائره في عنقه، وسيعمل كل منكم في الوفاء بما أصبح به عليما ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً [عظيما].

هذا قول أمير المؤمنين ، وقال : وهو يعمل في ذلك كله بما تحمد عاقبته من الأعمال، وتحمل منه ما يصلح له به المال، وعلى هذا عهد إليه وبه يعهد، وما سوى هذا فجور لا يشهد به عليه ولا يشهد، وأمير المؤمنين يستغفر الله على كل حال، ويستعيذ به من الإهمال، ويسأل أن يمده لما يحب من الآمال، ولا يمد له حبل الإمهال ، ويختم أمير المؤمنين قوله بما أمر الله به من العدل والإحسان، والحمد لله ، وهو من الخلق أحمد، وقد آتاه الله ملك سليمان، والله ممتع أمير المؤمنين بما وهبه، ويملكه أقطار الأرض، ويورثه بعد العمر الطويل عقبه، فلا يزال على سُدَّة العلياء قعوده، ولدست الخلافة به أبهة الجلالة، كأنه ما مات منصوره، ولا أودى مهديه، ولا ذهب رشيده ......(٢).[ص٢١٥] أدام الله أيام الديوان العزيز المولوي السيدي النبوي الإمامي الحاكمي، ونصر به جمع الأيمان، وبشر به بأيامه الزمان ، ومتعه بالملك السليماني الذي لا ينبغي لأحد من بعده،

---

(١) في الأصل : ولك عليكم، وهو من سهو الناسخ .

(٢) في الأصل ثلث الصفحة الأسفل فراغ .

بما ورثه من سليمان، ولا زال يخضع لمقامه كل جليل، ويعرف لأيامه كل وجه جميل، ويعترف بشرفه كل معترف بالتفضيل، ويشهد بنفاذ أوامره من ذي نسبه الشريف كل أخ وخليل، ولا كان إلا كرمه المأمول، ودعاؤه المقبول، وعدوه المصروع، ووليه المحمول، ولا برحت طاعته يعقد عليها كل جمع ، ومراسمه ينصت إليها كل سمع، وطوائف الذين كذبوا لا يتلى عليهم آياته، إلا تولوا وأعينهم تفيض من الدمع .....[1] المماليك يقبلون الأرض بالأبواب الشريفة، التي هي خطة شرفهم، ومكان تعبد القدماء منهم ومن سلفهم، ويلوذون بذلك المقام، ويعودون بذلك الحزم الذي لا يبعد نسبه من البيت الحرام، ويؤملون ذلك الكرم الذي ما منهم إلا من سعد به طائره، وجاء ته به في وجه الصباح أشايره، وفي وجه العشاء بشائره، فنالوا به أقصى المرام، وقضوا به من العمر ما إذا قالوا يا سعد لا يعنون إلا تلك الأيام، وينتهون إلى ما ورد به المرسوم الشريف الذي ما من المماليك إلا من ثبت لديه تقديم عبوديته ورقه، وسارع إلى طائره الميمون وحمله بسيفه، فتح له عينه، وظن أنه حاكم، وامتثلوا أمره، وكيف لا تهتبل الرماة أمر الحاكم ، لا سيما ابن عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام الحاكم، وأجلوه عن رفعه على العين ، إذ كانت تلك منزلة الحاجب، وقدموا إليه خوافق قلوبهم الطائرة، وما علموا إن كانوا قاموا بالواجب، ووقفوا على أحكام حاكمه، فما شكوا أن زمان هذا الفتى بحياة ناصره في بغداد قد عادوا مثاله الممثل في سواد الحدق، مما حملته أيامه العباسية من شعار السواد، وعلموا ما رسم به في معنى محمد بن الحمص الذي [ص٢١٥] ما نورت الليلة الظلماء أكاريخه، ولا بعدت في الإقعاد له تواريخه، بل أخمدت دموع ندمه نيرانه المشعلة، وأصبح به لا يحمل القوس في يده، إلا على أنه مشعلة، وما كان أنهاه

---

(١) في الأصل بياض بقدر كلمة .

بالديوان العزيز ما لم يذكر الخواطر الشريفة بأنه فيه المقتدري، وأنه صاحب القوس إلا أنه ماله سعادة المشتري، وأنه موه تمويه الجاحد، وتلون مثل قوس قزح، وإلا فقوس البندق قوس واحد، وأدلى بغروره وعرض المحضر الذي حمله على تغريره، وذلك في غيبة الأمير بهاء الدين أرسلان البندقدار الحاكمي، الذي لو كان حاضرا لكان نبَّأ بخبره وأحسن بالإعلام بسوء محضره، وتحيل لأخذ الخط الشريف الذي لو عقل لكان حجة عليه، ومؤكد الأبطال رميه وقوسه وبندقه في يديه، لما تضمَّنه الخط الشريف المقيد اللفظ بعد الاسوله(١) المكتتب على المصطلح الساحب ذيل فخاره على المقترح، الذي هدي إلى الخير، وبدا به ما وهب من الملك السليماني الذي أوتى من كل شيء ، وعلم منطق الطير، فإنه لم يلبث إلا بأن يرمى على الوجه المرضي، واستبقى شروط البندق، والخروج من جميع الأشكال، عملا بقواعده، وهذا الذي كُتب له يكتب ويستمر قعوده، ويبكت ويعلم به أنه ما رُعي حق قدمته، ولا فعل في الباب العزيز ما يجب من التحلي بشعار الصدق في خدمته، وأنه خالف عادة الأدب، وأخطأ في الكل لكنه ندب، وذلك بعد أن عمل جمع برماة البندق، وسُئل فأجاب بأنه سالم من كل إشكال يشكل، وأنه بعد أن أقعد رمى ، وحمل وحُمل فشهد عليه السادة الأمراء ولاة العهد إخوة أمير المؤمنين، ومن حضر وكتبوا خطوطهم في المحضر، وما حصل الآن عند عرض قصة المماليك بالمواقف المقدسة، ووضوح قضيته المدنسة من التعجب من اعتراف المماليك، لكونهم زموا معه بعد أن رأوا الخط الشريف، وهو لفظ مفيد، وأمر أيد فيه رأي الإمام الحاكم بأمر الله ، المسترشد بالله والمؤيد، وكل ما أمر به أمير المؤمنين لا معدل عن صرفه، ولا جدال إلا به، إذا ألزم كل [ص ٢١٧] أحد طائره في عنقه ، وأمر أمير المؤمنين بحر لا مدد إلا

---

(١) كذا بالأصل، ولم أهتد لمعناها .

من علمه، وهو الحاكم، ولا راد لحكمه، وإنما ابن الحمص المذكور عدم السداد، وخالف جاري العادة، فإنه الذي سلق في الافتراء بألسنة حداد، ولم يوقف المماليك من الخط الشريف إلا على بعضه، ولا رآهم من برقه المهلك غير ومضه، والذي أوقفهم عليه من أن يرمي محمد الحمص، ويرمى معه، وكلمة أمير المؤمنين مسمعة، ومن اسمه متبعة، وإذا تقدم كان كل الناس تبعه، غير أن المذكور بدت منه أمور قطع بها الأمير صارم الدين صارجا الحاكم في البندق، كان في حقه ، وأقعده عن قدمته التي كان يمت فيها بسيفه، وانتقل عنه غلمانه، وثقل عنه زمانه، ونودي عليه في جمع كبير يزيد على تسعين قوسا، وخرج بخطأ بندقه جرحا لا يوسى ، ثم بعد مدة سنين توسل لولد الأمير المرحوم سيف الدين تنكز إلى أبيه، وتوصل به إلى مراميه، فأمر بأن يرمى معه، وهدد المخالف بالضرب ولم يرمِ معه أحد برضاه، إلا خوفا أن توقد عليه نار الحرب، فلما مضت تلك الأيام وانقضت تلك الأحلام، جمع مملوك الأبواب العالية الأمير علاء الدين أبي الأبوبكري الحاكم الآن في البندق من رماة البندق جمعا كثيرا، واهتم به اهتماما كبيرا، وذكر أمر المذكور، وأحضر محضره المسطور، فلم يكن عليه تعويل، ولا في حكم الحاكم المتقدم تعليل، ولا عند هذا الحاكم الذي ادعى له، وادعى عنده بحور الأباطيل، وتحقق أن الحق فيما حكم به عليه فسمع، وترجح أن لا يقام معه من أقعد، ولا يوصل ما قطع، فنفذ حكم الحاكم المتقدم واستمر بقعوده المتحتم، ووافقه على هذا سائر الرماة بالبلاد الشامية وحكامها، ومن يرجع إليه في الرماية وأحكامها، وبطلت قِدمَة المذكور التي ذهب فيها عمره ضائعا، وزمانه الذي لو اشتريت منه ساعة بالعمر لم يكن بائعا، ولما ورد الآن هذا المرسوم الشريف، زاده الله شرفا، قبلوا الأرض لديه، وأوقفوا عليه حاكمهم المسمى، فوقف له وعليه ، وجمع له [ص ٢١٨] جمعا لم يدع فيه من الرماة

معتبرا، ولا من يلقم القوس وترا، ولا من إذا فُقِد كالعين جرى ما جرى، ثم قرأ عليهم ما تضمن، ودعوا لأمير المؤمنين ولم يبق منهم إلا من دعا أو أمَّن، وتضاعف سرورهم بحكمه الذي دفع الخلل، وقطع الجدل، وقالوا لاعدمنا أيام هذا الحاكم الذي أنصف، والإمام الذي عدل، وبقي ابن الحمص مُثْلةً، ونودي عليه أنه من رمى معه كان متخطيا مثله، ووقرت هذه المناداة في كل مسمع، وقرت استقرارا انفصل عليه المجمع، وذلك بما فهم من أمير المؤمنين، ونص كتابه المبين، وبما قضى الله به على لسان خليفته الحاكم، والله أحكم الحاكمين، وطالعوا بها، وأنهوا صورة الحال، ووجهوا في إمضائه الآمال، لا زالت سعادة أمير المؤمنين منزهة عن الشبه، آخذة من خير الدارين كل اثنين في وجه، تحصل كل رمية عن كثب، ولا يرى في كل أمنية إلا كل مصطحب، ما عبَّ في السماء المرزم، ووقع العقاب على ثنية، يقرع سنه ويتندم، وعلا السن الطائف، والواقع على آثاره، وسائر طيور النجوم الحُوَّم .....[1] [ص ٢١٩]، يقبل اليد الشريفة، لا زال اعتناؤها أحد النجاحين، وأحد السلاحين، وأقوى القوادم، إذا جنى الحين حص[2] الجناحين، وتقدم شكرا يعجله لما يؤمله من نواله قبل سؤاله، ويرجوه بإمامه بجاهه، أو بما له بسبب ناصر الدين محمد بن الحمص أحد قدماء البندق، فقد علم ما جرى له مع رفاقه وكساده عندهم بعد نفاقه، وأنهم نتفوا ريشه، ثم عادوا عليه ورشقوه، وأوقدوا له النار، ثم جابوا الحمص الحزين وسلقوه، ثم إنهم لما سلقوه، أكلوه بألسنتهم الحداد، وطحنوه بسواعدهم الشداد، وهو المعتر الآن بينهم في غاية الإضامة، وقد تنقَّلوا بعرضه وجعلوه قضامة، وما تكلم في الجمع الذي جُمع له، حاشا مولانا الا فشَّروه، وقالوا نحن

---

(١) في الأصل نصف الصفحة الأسفل بياض، وهناك كلام كثير محذوف لأن الكلام السابق غير مترابط وما بعده .

(٢) حص : الشعر والريش تساقط، وقل شعره أو ريشه وتناثر، فهو أحص وهي حصاء .

أخبر بك يا حمص ، ثم إنهم قشَّروه، وعملوا معه عمل رماة البندق، حتى رموه في وسط الموجلة ، وقرعوا من كل أحد وخلَّوه لهم مشغلة، وما رئي من الريحة الحمص إلا الصارخ، ولا عرفوا قدره إلا بالكسرة فحصَّلوا القدرة، وقدموا النافخ، وقد مضى عليه زمان وهو كبير الجماعة وجائل القدر بينهم ، قبل أن يأكلوا الحمص بينهم هذا الأكل من المجاعة، وما فطن لهم ، وقد حطبوا عليه هذا التحطيب فرَّط ، وأوقدوا جمرته وغطوا عليه القضية حتى طخوا[1] قدرته، وصادفوا كل الطير بمعاداته، واستراحوا من الملق بابطال عاداته، وقد زمن المسكين من طول القعود، وندس لما لم يخرج إلى البرزات في الربيع ، وقد دب الماء في العود، وقد قتله طول الاختشاء ، وذهب عمره وما سُرَّ له قلب في وجه صباح، ولا وجه عشاء، وكلما أراد أن ينطق، قيل له اسكت لا تتكلم، واستمرَّ قاعدا مكانك لا تتقدم، والمذكور له منذ طار بجناح المولى نجاح، وقد أصيب وله سوابق، فيحمل بالسبق وبالجناح، وقد آن لهذا الزَّمِن المُقْعَد أن يقف على قدمه، ولهذا الطير المذبوح بلا سكين أن يسكن مما يتخبط في دمه، وسيقف مولانا على ما يرد من الجواب، وما فيه وارد، ويرى كيف [ص٢٢٠] تجمعت الرماة عليه ورموه عن قوس واحد[2]، ويعوزه عناية تمدلها هذه الطيور أعناقها، وتعجل له من أحواله المسترقة أعناقها، وذلك بجمع يجمع بالديار المصرية، بحضرة الإمامة، ومكان لا يُغَمُّ على أحد فيه إلا أوقات الهجير ظل الغمامة، فقد ضجر هذا الذاهب المهجر في حب البندق، مما يصبر ومما يؤجر، وقد يبس قوسه، وصار حطبة مما هو مفكوك ما يوتر، وهو مما لا ينقلب من غير مرامي البندق إلى أهله مسرورا، وممن يهون عليه إذا أخذ قوسه أن يفقد عينيه ويكون موتورا، وقد قنع من المملوك بالشفاعة، وبان يتلطخ بندقه بالدم ويقنع

(١) طخوه : رموه وأبعدوه .

(٢) القوس: تذكر وتؤنث، والمؤلف يميل إلى التذكير ، والتأنيث أولى فأكثر ورودها في الشعر مؤنثة.

بالشناعة، فقد شكا في هذه المدة لعدم الحمل كمندانه[١] وقعوده وقد برز إلى البر جماعة أخدانه، وهو الآن مما طحنوه مثل هشيم المحتضر، وقوسه قد التوى عنقه، لكن إلى صوب مولانا لما ينتظر، وفي الحديث : (استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها)، وهذا في صنعة البندق هو الصالح الفاسد، وله في كثرة رمي البندق ما لا تنكره الحاسة، وأعجب الأشياء أن اللحم بعده قد قل، ومع هذا الحمص كاسد، وعلى هذا فقد طالت على هذا الشيخ الصالح كما تقدم الخلوة ، فقد نضج الحمص، وأما السلق الذي دقوا به قفاه، فبعد عليه غلوه، وقد مزقوا جلده أضعاف ما قُدَّ لعلائق جراوته من السيور، ودُقَّ دقا ناعما مثل القضامة[٢] وجعل في معالف الطيور، ولا يرد المولى له الشفيع المشفع، ويخفف ما به، فكله حتى عين قوسه بكاء ما يجف لها مدمع .

---

(١) كذا الكلمة في الأصل ولعله يريد : كموده .

(٢) القضامة : الحمص ، عامية .

وهـذه الدولـة الأمـويـة

وانساق فيها ذكر ابن الزبير، لأن أيامه تخللتها وشغلتها مدة ما أخلتها، وأتينا بهذه الدولة الأموية مؤخرة هنا، وهي مقدمة [ص ٢٢١] في الزمان على حسب النسب، والكل من جوهر منه ما طفا، ومنه ما رسب.

٩٧ - دَوْلَةُ مُعَاوِيَةِ بن أبي سُفْيَان

صخر بن حرب بن أمية(١)، الأمية الأصغر بن عبد شمس بن عبد مناف، وزعم قوم أن لهم ألقابا مثل ألقاب بني العباس، يجري إلقاؤها بينهم على القياس، وهذا لمن كان منهم بدمشق، ولا يدعي في هذا قول حق، فأما من كان منهم في الأندلس، فإنهم تعرفوا بعواري أعلامها، وتشرفوا بطوارق أحلامها، ونحن لا نذكر معهم أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، إذ لم يكن لذكره هنا معنى، ولا مع الخلفاء الراشدين مجنى، وإنما نذكر دولة بني حرب

(١) معاوية بن أبي سفيان : وأبو سفيان هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، القرشي الأموي، مؤسس الدولة الأموية بالشام، وأحد دهاة العرب المتميزين، كان فصيحا حليما، ولد بمكة، وأسلم يوم فتح مكة سنة ثمان، وتعلم الكتابة والحساب، فجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتاب الوحي، ولما ولي أبو بكر، ولاه قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد بن أبي سفيان، ولما ولي عمر جعله واليا على الأردن ثم ولاه دمشق بعد موت أخيه يزيد بن أبي سفيان، ولما ولي عثمان جمع له الديار الشامية كلها، وجعل ولاة أمصارها تابعين له، ولما قتل عثمان وولي علي بن أبي طالب، وجه علي بعزل معاوية، وعلم معاوية بعزله، فنادى بثأر عثمان واتهم عليا بدمه، ونشبت الحرب الطاحنة بينه وبين علي، وانتهى الأمر باستقلال معاوية بالشام، ثم قُتل علي وبويع ابنه الحسن، فتنازل الحسن لمعاوية سنة ٤١ هـ، ودامت لمعاوية الخلافة إلى أن بلغ الشيخوخة، فعهد بها إلى ابنه يزيد، وهو أول من اتخذ المقاصير لوقايته، وأول من اتخذ الحرس والحجاب ، توفي سنة ٦٠ هـ .

(الطبري ٦ / ١٨٠، ابن الأثير ٤ / ٢ ، المسعودي ٢ / ٤٢ ،تاريخ الخميس ٢ / ٢٩١ ـ ٢٩٦، اليعقوبي ٢ / ١٩٢، البدء والتاريخ ٦ / ٥)

ومروان من لدن معاوية إلى آخر أوان.

كان معاوية صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكاتب الوحي منذ أسلم، ثم كانت له منزلة قريبة وصلة بأم حبيبة، أسلم يوم فتح مكة، وفتَّ في مهاب الكفر شركه، وكان يقول إنه أسلم من قبل، وإنما كان يكتم إسلامه ويظهر لأبيه مطاوعته واستسلامه، وإنما هي دعوى الله أعلم بغيبها، وأحكم بما فيها جلاء ريبها، وإنما إجماع المحدثين والقديمين والمحدِّثين على أنه هو وأبوه وأخوه وذووه من مسلمة الفتح قولا ثبتا، وقطعا بتا، طلقاء الفتح، وعتقاء الصفح، أخذ العباس رضي الله عنه لأبي سفيان الأمان، وأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقبل إسلامه على ما كان، وكرّمه بأمور منها أنه كل من دخل دار أبي سفيان على ما تقدم من السيرة، ثم كانت إلى الله السريرة، فأما الظاهر فإنهم من المؤلفة قلوبهم، والمؤلِّبة على أول الإسلام وآخره حروبهم، وكان معاوية رضي الله عنه كثير السؤدد لا يخف كالجبل القردد[1] بحر لا يدرك قراره، وطود لا يدهك[2] وقاره، وفحل لا يرد نفاره [ص٢٢٢]، ومُنْصل لايحد غراره، طبع الحلم فيه غريزة، ووضع السداد فيه نحيزة[3]، ولم يكن أوسع منه بطانا ولا أمنع منه سلطانا، لا يؤثر ذنب في غزير حلمه، ولا يؤاخذ مسيئا بكبير جرمه، لو أن أمله في النجم لبلغه، أو في اليم لسوغه، بحيل أصيد من الفخاخ، وأجول في الفضاء من الرخاخ[4]، بتلطف لو أراد لتشرب في مسام الزجاج، وعذب به مذاق البحر الأجاج، أمَّره أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه

(١) القردد: المستوي الغليظ المرتفع.

(٢) دهك : كسر وطحن.

(٣) النحيزة : الطبيعة.

(٤) الرخاخ : جمع الرخ، وهو طائر خرافي بالغ القدامى في وصفه، وبه سميت قطعة من قطع الشطرنج.

بعد أخيه يزيد، وقرره على الشام كما يريد، فقرت بها قرارته، وأقمرت فيها دارته، وتحبَّب إلى أهلها حتى كأنه بينهم رُبـي، أو لهم خُبي، لتألفه لأهوائهم، وتعرفه لأدوائهم، بما دخل به على قلوبهم، لسد خلل مطلوبهم، فاستحمل طوياتهم، واستعبد نياتهم، حتى اتخذهم شيعة، وأنفذهم سهاما في كل وقيعة، واستمر حتى قُتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، فقام يطلب بدمه، ويبدي التغصص بندمه، وشهر بالبكاء دمعته، وشهر بالانتكاء سمعته، وقال: أنا ولي عثمان، لا أرجع بأربع ولا بثمان، لا أبيع دمي بالأثمان، ولا أتبع قدمي إلا المضرج بدمه ذلك الجمان، وذلك دين لم يقره أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه على الشام واليا، ولم يقله للإسلام كاليا.

قال ابن عباس رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، ولِّه شهرا واعزله دهرا، فقال: (وما كنت متخذ المضلين عضدا)[1]، وكذلك قد كان، قال له المغيرة[2]، وهو أحد العرب دهاءً، وأحق بحدٍ لا يطرف عنه عينه التهاءً، فأجابه بنحو فحوى ذلك الجواب، وكان سوى ما قصد الصواب، فلما رأى المغيرة أنه لا يقبل رأيه، تركه وصوب له رأيه وهو مهلكه، فأتاه ابن عباس والمغيرة قد خرج

---

(١) الكهف ٥١.

(٢) المغيرة بن شعبة: ابن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم، صحابي يقال له (مغيرة الرأي)، ولد في الطائف بالحجاز، وبرحها في الجاهلية مع جماعة من بني مالك فدخل الإسكندرية وافدا على المقوقس، وعاد إلى الحجاز، فلما ظهر الإسلام تردد في قبوله، إلى أن كانت سنة ٥ هـ فأسلم وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام، وذهبت عينه باليرموك، وشهد القادسية ونهاوند وهمدان وغيرها، وولاه عمر بن الخطاب على البصرة، ثم عزله وولاه الكوفة، ثم أقره عثمان على الكوفة، ثم عزله، ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية اعتزل المغيرة، وحضر مع الحكمين، ثم ولاه معاوية الكوفة فلم يزل فيها إلى أن مات سنة ٥٠ هـ.

(الطبري ٦ / ١٣١، ابن الأثير ٣ / ١٨٢، المحبر ص ١٨٤، المرزباني ص ٣٦٨، الإصابة ترجمة ٨١٨١، أسد الغابة ٤ / ٤٠٦)

من عنده وما حرج نار رأيه من زنده، فلما دخل عليه قال له : ما قال لك المغيرة وما أجبته ؟ فلما قص عليه القصص، قال: ولِمَ خالفته وقد[ص٢٢٣] نصحك والله أولاً، وغشك ثانيا، وقرب له الرأي فلم يكن له مدانيا، فلما أتى كتاب عليٍّ معاوية ألقاه، وقبله صدر الحيل ولقاه، وأُيِّد بعمرو بن العاص رضي الله عنه، وأدرج طلب الخلافة في أمر القصاص، فنشاب تلك الحروب السجال، والحرور المتلفة لمهج الرجال، حتى كادت تأتي على الإسلام، وتحوي في حضانه السيوف من لم يبلغ الاحتلام، وبإجماع العلماء أن حزب الشام هم البغاة الناطق كتاب الله بحربهم المصيب عليّ رضي الله عنه في قتال حزبهم، ولا يعدُّ أهل الحق لمعاوية خلافة، إلا منذ سلم إليه الحسن، فسلم من الفتن .

وكانت أمه هند[١] بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس عند الفاكه بن المغيرة المخزومي، وكان له بيت للأضياف يغشاه الناس فيه بغير إذنه، فقعد فيه يوما ومعه هند، ثم خرج عنها وتركها به نائمة، فجاء بعض من كان يغشى البيت فدخل عليها، وخرج فجاء الفاكه ونبهها وقال لها: من هذا الذي خرج من عندك ؟ قالت له ما انتبهت حتى نبهتني، فقال لها: الحقي بأهلك، فخاض الناس في أمرهم ، فقال لها أبوها: أتبيني شأنك ؟ فقالت : والله يا أبة إنه لكاذب، فخرج

---

(١) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس :أم معاوية بن أبي سفيان، تزوجت أبا سفيان بعد مفارقتها لزوجها الأول (الفاكه بن المغيرة المخزومي)، كانت فصيحة جريئة، صاحبة رأي وحزم، تقول الشعر ، وأكثر شعرها في مراثيها لقتلى بدر من مشركي قريش، قبل أن تسلم، وكانت تمثل بقتلى المسلمين في وقعة أحد، وتحرض المشركين، وكانت ممن أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دماء هم يوم فتح مكة، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، فجاء ته مع بعض النسوة في الأبطح فاعلنت إسلامها، وأخذ البيعة عليهن ألا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن، وكانت لها تجارة في خلافة عمر، وشهدت اليرموك وحرضت على قتال الروم، توفيت سنة ١٤ هـ .
(طبقات ابن سعد ٨ / ١٧٠، الروض الأنف ٢ / ٢٧٧، خزانة الأدب ١ / ٥٥٦، الدر المنثور ٥٣٧، الأغاني ينظر فهرسته، نهاية الأرب١٧ / ١٠٠، ٣٠٧، ٣١٠)

به وهند معه ليحاكمه إلى بعض كهان اليمن، فلما قاربوه تغير وجه هند، فقال أبوها : ألا ذلك قبل أن يشتهر خروجنا في الناس، قالت : والله ما ذلك لمكروه قبلي، ولكنا نأتي بشراً يخطيء ويصيب، ولعله يسمني بميسم يبقى عليَّ، قال : صدقتِ، وسأختبره، فأصفر لفرسه فأدلى، فعمد إلى حبَّة بُرّ فأدخلها في إحليل الفرس، ثم أوكأ[1] عليها، فلما نزلوا على الكاهن قال له: إنَّا قد أتيناك في أمر وقد خبَّأت لك شيئا أختبرك به ، فما هو ؟ قال : ثمرة في كمرة، قال : أبِنْ[2] ما هذا؟ قال : حبة بُر في إحليل مهر، قال : صدقت، فانظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يمسح على رأس كل امرأة منهن ويقول : قومي لشأنك، حتى بلغ هنداً [ص ٢٢٣] مسح على رأسها وقال : قومي غير رشحاء ولا زانية، وستلدين ملكا اسمه معاوية، فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها، فأزالت يدها من يده وقالت: والله لأحرصن أن يكون من غيرك، فتزوجها أبو سفيان فولدت له معاوية .

وعن أبي السائب قال : كان رأس معاوية كبيرا، فقال أبو سفيان : والله ليسودنَّ قريشا، فقالت هند : ثكلته إن لم يَسُد[3] العرب قاطبة، وحكي أن هندا لما فارقها الفاكه ورآها الكاهن اليمني، قالت لأبيها: إنك زوجتني ولم تؤامرني في نفسي، فعرض ما ترى، فلا تزوجني أبدا زوجا حتى تُعرض عليَّ خصاله، فخطبها بعد ذلك سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب، فدخل عليها أبوها فقال :

(١) أوكأ : تحمل واعتمد .

(٢) في الأصل : أبين ، وهو لحن .

(٣) في الأصل : يسود، وهو لحن .

[الطويل]

أتاكِ سُهيلٌ وابنُ حربٍ وفيهما ... رضى لكِ يا هندَ الهنودِ ومقنعُ
فما منهما إلا كريمٌ مرزَّأ ... وما منهما إلا أغرُّ سميدعُ
فدونك فاختاري، فأنت بصيرةٌ ... ولا تُخدعي إن المخادع يُخدعُ

قالت : فسِّر لي خصالهما، فبدأها بذكر سُهيل، فقال : أما إحداهما ففي ثروة وسيطة من العشيرة، إن تابعته يأتيك، وإن ملت عنه حط إليك تحكمين عليه في ماله وأهله، وأما الآخر فموسع عليه، منظور إليه في الحسب الحسيب ، والرأى الأريب، مدره أرومته، وغُرَّة عشيرته شديد الغيرة كثير النظرة، لا ينام عن ضبعه، ولا يرفع عصاه عن أهله، قالت : أما الأول ، فسيد مصناع للحرة، فما عست أن تلين بعد إبائها، تابعها بعلها فأشرت، وخافها أهلها فأمنت، فساءت عند ذلك وقبح هناك دلالها، فإن جاءت بولد من هذا أجمعت، وإن نجبت فعن خطأ ما أنجبت، فاطوِ ذكر هذا عنِّي، وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العفيفة، وإني التي لا تريب له عشيرة فتغيره، ولا يصيبه مذعر فيضيره، فزوجنيه، فزوجها من أبي سفيان، ويقال إنه أهديت [ص٢٢٥] للكعبة جزر من أحد ملوك الهند، وقال : لا ينحرها إلا أعز من بمكة، فقالت له هند وهو في سابعها، اخرج لئلا يسبقك أحد إلى هذه الكرامة، فقال لها : دعيني وشأني، والله لا ينحرها أحد إلا نحرته، فرُبطت الجزر بفناء الكعبة حتى خرج أبو سفيان من سابعه فنحرها .

وأما ما كان بين عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما، فلا حاجة لنا إلى ذكره لشهرته، إلا أن الإجماع على أن عليا رضي الله عنه، قاتل الفئة الباغية حزب معاوية، ولما استثبت له الأمر، دخل عليه سعد بن أبي وقاص[١] رضي الله عنه،

(١) سعد بن أبي وقاص : ابن مالك القرشي الزهري، صحابي من الأمراء الفاتحين، وأحد الستة الذين=

فقال : السلام عليك أيها الملك، فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا إسحاق رحمك الله، لو قلت يا أمير المؤمنين، فقال : أتقولها جذلان ضاحكا، والله ما أحب أني وليتها بما وليتها به .

وقال معاوية : لو وزنت بالدنيا لرجحت بها، ولكني وزنت بالآخرة فرجحت بي، ويقال إنه [أول] من حول الخلافة ملكا، وأول من ترك حدا من حدود الله، ترك رجلا وجب عليه القطع، وأما بُعد غوره ، فقد حكي أنه قال لعمرو بن العاص(٢) : أينا أدهى، قال : أما في البديهة فأنا، وأما في الأناة فأنت، قال معاوية : اصغ لي أسارك بشيء، فأدنى رأسه، وكانا خلوين يتساران، فقال له معاوية غلبتك .أيها الداهية، هل هاهنا أحد أسارّك دونه، وقال له يوما : ما بلغ

= رشحهم عمر للخلافة، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة، وشهد بدرا، وافتتح القادسية، ونزل أرض الكوفة فجعلها خططا لقبائل العرب، وابتنى دارا بها فكثرت الدور فيها، وظل واليا عليها مدة عمر بن الخطاب، وأقره عثمان زمنا، ثم عزله، فعاد إلى المدينة، فأقام قليلا، وفقد بصره، ومات بالعقيق على عشرة أميال من المدينة سنة ٥٥ هـ .

(طبقات ابن سعد ٦/٦، تاريخ الخميس ١/٤٤٩، البدء والتاريخ ٥/٨٤، صفة الصفوة ١/٣٨، النضرة ٢/٢٩٢ ـ ٣٠١،نكت الهميان ص ١٥٥)

(٢) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي : فاتح مصر وأحد دهاة العرب وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم ، كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام، وأسلم في هدنة الحديبية، وولاه النبي صلى الله عليه وسلم إمرة جيش (ذات السلاسل)، وأمده بأبي بكر وعمر، ثم استعمله على عُمان، ثم كان من أمراء الجيوش في الشام في زمن عمر وهو الذي افتتح قنسرين، وولاه عمر فلسطين ثم مصر فافتتحها ، وعزله عثمان، ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية، كان عمرو مع معاوية، فولاه معاوية على مصر وأطلق له خراجها ست سنين ، فجمع أموالا طائلة، توفي بالقاهرة سنة ٤٣ هـ .

(تاريخ الإسلام للذهبي ٢/٢٣٥ـ ٢٤٠،الإصابة ترجمة ٥٨٨٤، المغرب في حلى المغرب الجزء الخاص بمصر ١/١٣ـ ٥٤، الولاة والقضاة ينظر فهرسته ، جمهرة الأنساب ص ١٥٤)

من دهائـك ؟ فقـال : لم أدخل في أمـر إلا خـرجت منه، قال معاوية :لكني لم أدخل في أمر فاحتجت إلى طلب الخروج منه، وحُكي أنه أُسر رجل من قريش فحُمل إلى صاحب القسطنطينية ، فكلمه ملك الروم ، فأجابه بجواب لم يوافقه، فقام إليه رجل من بطارقته فوكزه، فقال القرشي : وامعاويتاه فقد أعقلت أمورنا وأضعتنا، فأتاه الخبر، فطوى عليه، حتى احتال في فدائه، فلما وصل سأله عن اسم البطريق، فلما عرفه أرسله إلى رجل من قواد صور، وكان من قواد البحر المشاهير بالنجدة والبأس، وقال له : أنشيء مركبا يكون له مجاذيف [ص ٢٢٦] في جوفه وسافر إلى بلاد الروم ، على أنك سافرت مستترا منا، وتوصل بملك الروم ومكّنه، واحمل الهدايا إلى جميع أصحابه، ولا تعرض لفلان، يعني الذي لطم القرشي، واعمل كأنك لا تعرفه، فإذا كلمك وقال لك : لأي معنى تهادي أصحابي وتتركني، اعتذر إليه وقل له، أنا رجل أدخل إلى هذه المواضع متسترا ولا أعرف إلا من عرفت به، فلو عرفت بك لهاديتك كما هاديت أصحابك، ولكني إذا انصرفت إليكم مرة أخرى سأعرف حقك، فلما انصرف إليهم ثانية هاداه وألطفه، وأربى في هديته على أصحابه، حتى اطمأن إليه البطريق، ثم قال له : كنت أحب أن تجلب إليَّ من بلاد المسلمين بساط ديباج يكون على ألوان الزهر، فقال له : نعم، ثم رجع إلى معاوية فأخبره بما طلب، فأمر أن يشترى له بساط على ما وصف له، وقال له : إذا دخلت وادي القسطنطينية أخرج البساط وابسطه على ظهر المركب، وتربص حتى يصل إليه الخبر، لعله يحمله الشره على الدخول إليك، فاذا حصل عندك، عرّفت رجالك بالإمارة ليخرجوا المجاذيف المخبأة وتكر به راجعا إلى بلاد الإسلام، ففعل ما أمره به، فلما بسط ذلك البساط على مركبه، وأتى البطريق الخبر، فحمله الحرص والنشاط إلى أن دخل إليه، فلما حصل في المركب أظهر الإمارة التي كانت بينه وبين رجاله، وكرَّ به راجعا إلى بلاد الإسلام، حتى وصل به إلى معاوية، فأحضر معاوية القرشي، وقال له : هذا

صاحبك ؟ قال : نعم ، قال : فقم فاصنع به مثل ما صنع بك ولا تزد، فقام القرشي فوكزه كما كان فعل به العلج، ثم قال معاوية للعلج : ارجع إلى ملكك وقل له : تركت ملك الإسلام يقتص ممن حولك، ثم قال للذي أتى به انصرف به إلى أول أرض الروم واتركه واترك له البساط، وكل ما سألك أن تحمله إليه من هدية، فانصرف به إلى فم وادي القسطنطينية فوجد ملك الروم قد صنع[ص٢٢٧] سلسلة على فم الوادي ، ووكل بها الرجال، فلا يدخل أحد الوادي إلا بإذنه، فأخرج به العلج وكل من كان معه ومن معه، فلما وصل إلى ملكه وصف له ما صنع به معاوية ، قال : هذا ملك كثير الحيلة، فعظم معاوية في أعينهم، وفي نفوسهم، فوق ما كان .

ومن حيله التي انعكست عليه أمر زينب بنت إسحاق زوج عبد الله بن سلام القرشي، وكان واليا على العراق لمعاوية، وكانت زينب مثلا في نساء زمانها، جمالا ومالا وشرفا وأدبا، وكان يزيد بن معاوية قد سمع بما هي عليه، ففتن بها ، فلما عيل صبره فاستراح بالحديث إلى بعض خصيان أبيه، وكان ذلك الخصي خاصا بمعاوية، فذكر له ذلك، فبعث معاوية إلى يزيد، فسأله، فبث له حاله، فقال : مهلا يا يزيد، فقال : أتأمرني بالمهل وقد عيل الصبر، فقال : اكتم يابني أمرك، فإن البوح به غير نافعك، والله بالغ أمره فيك، ثم أخذ معاوية في الحيلة ليزيد، فكتب إلى عبد الله بن سلام أن أقبل حين تنظر كتابي هذا لأمر فيه حظك، فلما قدم عليه ابن سلام، أمر معاوية أن ينزل منزلا قد هيأه له، وأعد فيه نزله، ثم قال لأبي هريرة وأبي الدرداء ، وكانا يومئذ عنده : إن الله قد قسم بين عباده نعما أوجب عليهم فيها شكرها، وحتم عليهم حفظها، فحباني منها بأتم الشرف ليبلوني، أشكر أم أكفر ، وأول ما ينبغي للمرء أن ينفِّذه أمر من لا غناء به عنه، وقد بلغت لي ابنة أريد إنكاحها، وقد رضيت لها عبد الله بن سلام القرشي، لشرفه ودينه وفضله، ثم قال لهما، ألا فاذكرا ذلك له، وكنت قد

جعلت لها في نفسها شورى، غير أني أرجو أن لا تخرج من رأيي، فأتيا ابن سلام، فذكرا ذلك له، ثم دخل على ابنته فقال لها : إذا دخل إليك أبو هريرة وأبو الدرداء ، فعرضا عليك أمر ابن سلام، قولي لهما : عبد الله كفء كريم ، وقريب حميم، غير أن تحته زينب [ص ٢٢٧] بنت إسحاق، وأنا خائفة أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء ، فأتناول منه ما يسخط الله فيه، ولست بفاعلة حتى يفارقها، فلما ذكرا ذلك لابن سلام قال لهما : حبذا ذلك، ومن لي به، فجاءا معاوية فذكرا له ما قال، [قال] : فدخلا إليها فاستأمراها ، فلما دخلا إليها، قالت لهما ذلك القول، فقال : اذهبا فأعلماه، فلما أتياه فأعلماه، ظن أنه لا يمنعها منه إلا فراق زينب، أشهدهما بطلاقها وبعث بهما إليه خاطبين، فلما أتياه أظهر الكرامة لفعله، وقال : ما كنت لأستحسن له طلاق امرأته، فانصرفا إلى غدٍ ثم استأذناها، ثم كتب إلى ابنه يزيد بالخبر، ثم شرع في مطل ابن سلام والأخذ به من يوم إلى يوم ، ثم أبت بنت معاوية إلا المنع، فعلم أنه إنما خُدع، فقال : ليس لأمر الله راد، ولا لما لابد منه صاد، فإن المرء وإن كمل له حلمه، واجتمع له عقله، واستد(١) رأيه ليس بدافع عن نفسه قدرا برأي ولا كيد، ولعل ما سولوا به ، واستجدلوا به(٢)، لا تدوم لهم سروره ، ولا يصرف عنهم محذوره ، فلما انقضت أقراؤها، وجه معاوية أبا الدرداء(٣) إلى العراق خاطبا

---

(١) استد : استقام وانتظم .

(٢) استجدلوا : اشتدت خصومتهم .

(٣) أبو الدرداء : عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، صحابي من الحكماء الفرسان القضاة، كان قبل الإسلام تاجرا في المدينة، ثم انقطع للعبادة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك، وفي الحديث : (عويمر حكيم أمتي) و (نعم الفارس عويمر)، ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أول قاض بها، قال ابن الجزري : كان من العلماء الحكماء ، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم بلا خلاف، روى عنه أهل الحديث ١٧٩ حديثا ، توفي بالشام سنة ٣٢ هـ . =

لزينب على ابنه يزيد، خرج حتى قدمها، وبها يومئذ الحسن بن علي رضي الله عنهما، فبدأ أبو الدرداء بزيارته، فلما رآه قام إليه وصافحه إجلالا لصحبته، ثم قال له : ما أتىٰ بك يا أبا الدرداء ؟ قال : وجهني معاوية خاطبا على ابنه يزيد، زينب بنت إسحاق، فقال له الحسن، لقد كنت أريد نكاحها، وما أخرته إلا لينقضي إقراؤها، فاخطب رحمك الله عليَّ وعليه، وابذل لها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه، فقال : أفعل، فلما دخل عليها أعلمها بما كان، فقالت : يا أبا الدرداء، لو أن هذا الأمر جاء ني وأنت غائب ، لأشخصت فيه الرسل إليك واتبعت فيه رأيك ولم أقطعه دونك، فأما إذا كنت أنت المرسل ، فقد فوضت أمري بعد الله إليك، وجعلته في يديك، فاختر لي أرضاهما لديك، والله شاهد عليك، فاقضِ في قصدي بالتحري ولا يصدَّنَّك اتباع هوى، فليس أمرهما عليك خفيا، ولا أنت عما طوقتك [ص ٢٢٩] غنيًّا، فقال أبو الدرداء : أيتها المرأة ، إنما عليَّ إعلامك، وعليك الاختيار لنفسك، قالت : عفا الله عنك، إنما أنا ابنة أخيك، ولا غنى لي عنك فلا يمنعك رهبة أحد من قول الحق فيما طوقتك، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك، والله خير من روعي وخيف، إنه بنا خبير لطيف، فلما لم يجد بُدًّا من القول قال : أي بنية ، ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليَّ، والله أعلم بخيرهما لك، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعا شفتيه على شفتي حسن، فضعي شفتيك حيث وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم شفتيه، قالت : قد اخترته، فتزوجها الحسن عليه السلام، وساق لها مهرا عظيما، وبلغ معاوية ما فعل أبو الدرداء فتعاظمه جدا ، ولامه شديدا، وقال : من يرسل ذا بُلْهٍ وعمىً ركب خلاف ما يهوى، وكان عبد الله بن سلام قد استودعها مالا قبل شخوصه إلى الشام، مالاً عظيما، فلما طال مكث ابن سلام بدمشق، جفاه معاوية لقوله فيه إنه خدعه، فشخص إلى العراق، وهو لا يظن إلا جحودها الوديعة لطلاقه لها من

غير ما سبب، وبقي لا يعرف ما يصنع، فأتى الحسن رضي الله عنه، فأخبره بخبر الوديعة ليقول لها، فلما أتاها قال لها إن ابن سلام أتاني فذكر لي أنه كان استودعك مالاً فأدِ إليه أمانته، فإنه لم يقل إلا صدقاً، ولم يطلب إلا حقاً، قالت: لعمري لقد صدق، ولقد أودعني مالاً لا أدري ما هو، فادفعه إليه بطابعه، فأثنى عليها الحسن خيراً، ثم قال لها: ألا أدخله عليك حتى تبرأي إليه منه كما دفعه إليك، ثم لقي عبد الله وقال له ما قالت، فادخل عليها وتوفَّ مالك منها، ثم أخذه ودخل به عليها، فأخرجت إليه المال، فشكر وأثنى، ثم أعطاها بعضه وقال: خذي فهذا مني، فبكيا حتى علت أصواتهما بالبكاء أسفا على ما ابتليا به من الفراق، فرقَّ الحسن لهما ثم قال: اللهم [ص ٢٣٠] أنت تعلم أني لم استنكحها رغبة في مالها، ولا جمالها، ولكن أردت إحلالها لبعلها، وأنا أشهدك أنها طالق ثلاثا، فشكراه، فسألته زينب أن تعيد إليه ما كان ساق إليها، فأبى، فلما انقضى إقراؤها تزوجها ابن سلام، ثم بقيا زوجين متصافيين إلى أن فرَّق الموت بينهما، وحرمها الله يزيد بن معاوية.

وكان معاوية يقول: لا أضع سيفي حين يكفيني سوطي، فإذا لم أجد بدا من السيف ركبته، ومما روي من حلمه أنه كلَّم الأحنف[1] يوما كلاما عاتبه

= (غاية النهاية ١/ ٦٠٦، صفة الصفوة ١/٢٥٧، الإصابة ترجمة ٦١١٩ التاج ٢/٣٤٦ الكواكب الدرية ١/٤٥، تاريخ الإسلام٢/١٠٧)

(١) الأحنف بن قيس: ابن معاوية بن حُصين المري السعدي المنقري التميمي، سيد تميم واحد العظماء الدهاة الشجعان الفاتحين، يضرب به المثل في الحلم، وُلد بالبصرة، وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يره، وفد على عمر حين آلت إليه الخلافة في المدينة، فاستبقاه عمر، فمكث عاما، ثم أذن له فعاد إلى البصرة، وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري يوصيه بالأحنف أن يدنيه ويشاوره ويسمع منه، شهد الفتوح في خراسان، واعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفين مع علي، ولما انتظم الأمر لمعاوية عاتبه، فاغلظ له الأحنف في الجواب، فسُئل معاوية عن صبره عليه فقال: هذا الذي إذا غضب غضب له مائة ألف لا يدرون فيم غضب، وولي خراسان وكان =

فيه، فقال له الأحنف : مهلا يا أمير المؤمنين، فإن القلوب التي أبغضناك بها بين جنوبنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي عواتقنا، وإن الخيل التي طاردناك بها لعلى مرابطنا، وإن الرجال الذين دهمناك بهم لحول بيوتنا، فإياك وما يردها فتية، فقال : عذرا يا أبا بحر .

وبعث معاوية إلى رجل من الأنصار بخمس مائة دينار فاستقلها، فأقسم على ابنه أن يأتي معاوية فيضرب بها وجهه، فانطلق حتى أتاه، فقال : ما جاء بك يا ابن أخي، قال : يا أمير المؤمنين، إن لأبي طرَّة ، وقد قال لي كيت وكيت وعزمة الشيخ على ما قد علمت، فوضع معاوية يده على وجهه، وقال : افعل ما أمرك به أبوك، وارفق بعمك، فرمى بالدنانير، وأمر معاوية للأنصاري بألف دينار، وبلغ الخبر يزيد، فدخل على معاوية مغضبا، فقال : لقد أفرطت في الحلم حتى خفت أن يُعَدَّ ذلك منك ضعفا، فقال : أي بني ، إنه لا يكون مع الحلم ندامة ولا مذمة .

وذكر[أبو] عمرو بن العلاء أن جابر بن عبد الله الأنصاري، وفد على معاوية فاستأذن، فأبطأ عليه الأذن، ثم أذن له ، قال له : ويلك يا معاوية، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من حجب ذا حاجة وفاقةٍ حجبه يوم حاجته وفاقته)، فقال له معاوية : وأنت [أما] سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ستلقون بعدي يا معاشر الأنصار أثرة)، فلم لا صبرت يا جابر[ص٢٣١]، فخرج جابر مغضباً، فركب ناقته يريد المدينة، فأقبل يزيد على أبيه وقَلَّ ما تكلم بخير، قال : بعيد الشقة أتى للزيارة أتاك فحجبته

= صديقاً لمصعب بن الزبير(أمير العراق)، أخباره كثيرة ، وخطبه وكلماته متفرقة في كتب الأدب والتاريخ والبلدان، توفي سنة ٧٢ هـ .

(تاريخ الإسلام ٣ / ١٢٩، ابن خلكان ١ / ٢٣٠، ابن سعد ٧ / ٦٦، تهذيب ابن عساكر ٧ / ١٠،ألف باء البلوي ٢ / ٣٤٣،تاريخ الخميس ٢ / ٣٠٩)

وتجهمته، قال : لم أصبر عندما سمعت كلامه ، قال : الحقه، فأعطه خمس مائة دينار، فلحقه يزيد، فقال له : إن أبي يقرأ عليك السلام ويقول لك : استعن بهذه على بعض سفرك، فقال له جابر، ارددها عليه وقل له :

[الطويل]

وإني لأختار الحياء على الغنى إذا اجتمعا والصبر بالبارد المحضِ
وأنزع أثواب الغنى ولقد أرى مكان الغنى ألا أهين لها عرضي

فجاء يزيد فأخبر أباه بشعره فقال : ارجع إليه فارددها عليه، وقل له :

سأمنحكم عرضي ولو شئت مسكم قوارعُ تبري العظمَ من كلمٍ مضٍ
ولا أحرم المعترَّ إن جاء طالبا ولا البخل فعل من سمائي ولا أرضي

فعاد يزيد فأخبر جابرا بشعر أبيه ، فقال : ارددها عليه وقل له : ما كنت أرى يابن آكلة الأكباد في صحيفتك حسنة أنا سببها .

وبلغ معاوية أن يزيد ضرب غلاما له، فقال : يا بني كيف طوعت لك نفسك قتل من لا يستطيع امتناعا منك . ولما قدم عبد الرحمن بن حسان على معاوية، طال مقامه، فقال شعرا شبَّبَ فيه بأخت معاوية، فغضب يزيد بن معاوية، فقال لمعاوية : يا أمير المؤمنين ، اقتل عبد الرحمن بن حسان، قال : ولمَ يا بني؟ قال : لأنه شبَّب بأختك، قال : وما قال ، قال قال:

[الخفيف]

طال ليلي وبِتُّ كالمحزونِ ومللتُ الثواءَ في جيرونِ

قال : وما علينا من طول ليله وحزنه أبعده الله ، قال : إنه يقول :

ولذاك اغتربتُ بالشامِ حتى ظنَّ أهلي مرجماتِ الظنونِ

قال :وما علينا من ظن أهله، قال : إنه يقول[ص ٢٣٢]

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوّا ... صِ ميزت من جوهرٍ مكنونِ

قال : صدق يا بني، وإنها لمن جوهر مكنون ، قال : وإنه يقول :

وإذا ما نسبتها لم تجدها ... في سناءٍ من المكارمِ دونِ

قال : بحمد الله هي كذلك، قال : إنه يقول :

ثم خاصرتها إلى القبَّةِ الخضرا ... ء تمشي في مرمرٍ مسنونِ

قال : ولا كل هذا، وضحك، وقال : ما قال أيضا ، قال قال :

فيه من مراجل ضربوها ... عند برد الشتاءِ في قيطونِ (١)

عن يساري إذا دخلت من البا ... ب وإذا كنت خارجا عن يميني

تجعل النِّدَ والألوةَ والمسـ ... ـك صلاءً لها على الكانونِ

وقبابٌ قد أسرجت وبيوتٌ ... يطيفوها[كذا] بالآس والزرجون

قال : يا بني، لا يجب القتل في هذا، والعقوبة دون القتل تغريه فيزيد في قوله، ولكن نلقه بالتجاوز والصلة، فوصله وصرفه .

وعن زيد بن عياض قال قال معاوية : الأرض لله ، وأنا خليفة الله، فما أخذتُ فلي ، وما تركته للناس فالفضل منِّي، قال صعصعة بن صوحان :(٢) بل أنت وأقصى الأمة سواء، ولكن مَنْ مَلَكَ استأثر ، فغضب معاوية وقال :

---

(١) في الأصل : عند جد الشتات، ولم أر لها معنى، والتصويب من الأغاني ٧ / ١٣٨ وتنسب الأبيات لأبي دهبل الجمحي أيضا .

(٢) صعصعة بن صوحان : ابن حجر بن الحارث العبدي، من سادات عبد القيس، من أهل الكوفة، مولده في دارين (قرب القطيف)، كان خطيبا بليغا عاقلا ، له شعر، شهد (صفين) مع علي، وله مع معاوية مواقف، قال الشعبي : كنت أتعلم منه الخطب ، نفاه المغيرة بن شعبة إلى جزيرة (أوال) في البحرين بأمر معاوية، فمات فيها عن نحو سبعين عاما، وقيل مات بالكوفة ، توفي سنة ٥٦ هـ .

(تهذيب ابن عساكر ٦ / ٤٢٣، تاريخ الكوفة ص ٤٦، الإصابة ترجمة ٤١٢٥)

لهممت بك، فقال صعصعة : ما كل من هَمَّ فعل، قال : ومن يحول بيني وبينك، قال : الذي يحول بين المرء وقلبه، قال له : صدقت . ولم يعرض له .

ودخل عليه أبو الأسود الدؤلي[١]، فإنه ليحدثه إذ حبق، فقال : يا أمير المؤمنين، أنا عائذ بالله وبسترك، ثم خرج، ودخل عمرو بن العاص فحدثه، فبلغ أبا الأسود، فأتاه فقال : يا معاوية، إن الذي قد كان مني قد كان مثله منك ومن أبيك، ومن لم يؤمن على ضرطة لجدير أن لا يؤمن على أمر الأمة .

وأتى معاوية رجل ، فسأله بالرحم، فقال معاوية : ذكرتني رحما بعيدة[ص٢٣٣]، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الرحم شَنَّة إن بللتها ابتلّت، وإنْ تركتها تقصفت، ثم أخذ يغلظ القول، فقال له معاوية : دع عنك هذا وسل حاجتك، قال : مائة ناقة مُتبَع، وألف شاة رُبيٍّ، فأمر له بذلك .

وعن عنبر القسيم قال معاوية : ما شيء أعجب إليَّ من غيظ أتجرعه، أرجو بذلك ثواب الله عز وجل .

وزوَّج معاوية ابنته رملة من عمرو بن عثمان بن عفان، فسمعت مروان بن الحكم يقول له وقد عاده : إنما ولي معاوية الخلافة بذكر أبيك، فما يمنعك من النهوض لطلب حقك، فنحن أكثر من آل حرب عددا، فما أظهرت[٢] أنها

---

(٣)أبو الأسود الدؤلي : ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي الكناني، واضع علم النحو، كان معدودا في الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان، والحاضري الجواب، من التابعين، سكن البصرة في خلافة عمر، وولي إمارتها في أيام علي، استخلفه عليها عبد الله بن عباس لما شخص إلى الحجاز، ولم يزل في الإمارة إلى أن قُتل علي، وكان ممن شهد معه صفين، ولما تم الأمر لمعاوية قصده فبالغ معاوية في إكرامه، وهو أول من نقط المصحف، وله شعر جيد، توفي بالبصرة سنة ٦٩ هـ .

(وفيات الأعيان ١ / ٢٤٠،تهذيب ابن عساكر ٧ / ١٠٤، صبح الأعشى ٣ / ١٦١، الذريعة ١ / ٣١٤، المرزباني ٢٤٠، انباه الرواة ١ /١٣، خزانة الأدب ١ /١٣٦)

(١) أي رملة ابنة معاوية .

تسمع، ومكثت إلى أن خرج عمرو بن عثمان حاجا، فاستأذنته في زيارة أبيها، فأذن لها، فأتته فقال لها : ما لك، أطلقك زوجك ؟ قالت : الكلب أضنُّ بشحمته، وحدثته حديث مروان واستكباره إلى آل أبي العاص، واستقلاله آل حرب، فكتب معاوية إلى مروان :

[الطويل]

أواضعُ رجلٍ فوق رجلٍ تعدُّنا كعدِّ الحصا ما إنْ نراك تكاثرُ
وأمكمُ تُزجي تؤاما لبعلها وأمُّ أخيكم نَزْرةُ الولدِ عاقرُ

ثم لم يحقدها عليه .

ودخل أعرابي المسجد ومعاوية يخطب، فقال: أيها المتكلم اسكت أنشد جملي، فسكت معاوية، فقال الأعرابي : أيها الناس، أيها الناس، من دعا إلي جمل عليه قتبٌ، فردد القول مرارا، فقال معاوية : أيها الأعرابي، حله حلية سوى القتب، فلعل القتب قد ضاع، ثم مضى في خطبته .

ودخل على معاوية عدي بن حاتم(١)، وعنده ابن الزبير، فقال ابن الزبير: إن عند هذا الأعور جوابا فأحركه ؟ قال : نعم، فقال له : يا عدي، أين ذهبت عينك ؟ قال : يوم ذهب أبوك هاربا، وضُربت أنت على قفاك موليا، وأنا يومئذ مع الحق [ص ٢٣٤]، وأنت على الباطل .

---

(١) عدي بن حاتم الطائي : أمير صحابي، من الأجواد العقلاء، وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب بجوده المثل،كان رئيس طيء في الجاهلية، وقام في حرب الردة بأعمال كبيرة، كان إسلامه سنة ٩هـ، وشهد فتح العراق ثم سكن الكوفة، وشهد الجمل وصفين والنهروان مع علي بن أبي طالب، وفُقئت عينه يوم صفين، عاش أكثر من مائة سنة، و توفي سنة ٦٨ هـ .
(الإصابة ترجمة ٥٤٧٧، حسن الصحابة ص ٣٨، الروض الأنف ٢ / ٣٤٣، إمتاع الأسماع ١ / ٥٠٩، خزانة الأدب ١ / ١٣٩، رغبة الآمل ٦ / ١٣٥)

وعن حبيب بن مسلمة الفهري قال : ركب معاوية وأنا معه، فبينا نحن نسير إذ طلع علينا رجل جميل الهيئة، فلم أره أكبر معاوية ولا اكترث له ، وأكبره معاوية وأعظمه إعظاما شديدا، ثم قال : أجئت زائرا أم طالب حاجة، قال : لم آتِ لشيء من ذلك، ولكني جئت مجاهدا، وأرجع زاهدا، فمضى معاوية عنه، فقلت : من هذا يا أمير المؤمنين، قال : هذا عقبة بن عامرالجهمي، قلت : ما أدري ما أراد بقوله ، خيرا أم شرا، قال : دعه، فلعمري إن كان أراد الشر إن الشر لعائد بالسوء على أهله، قلت : سبحان الله ، ما ولدت قرشية أذل منك، فقال : يا حبيب أأحلم عنهم ويجتمعون خير ، أم أجهل ويتفرقون، قلت : بل تحلم ويجتمعون ، ثم قال : امضِ ، قلما ولدت قرشية قرشيا له مثل قلبي، قلت : إني أخاف أن يكون ما تصنع ذلا، قال : وكيف وقد قاتلت عليا فصبرت على مناوأتهم وبغضهم .

وعن سحيم بن حفص قال : كانت لعبد الله بن الزبير أرض إلى جانب أرض معاوية ، فاقتتل غلمان معاوية وغلمان ابن الزبير ، فكتب ابن الزبير إلى معاوية : أما بعد ، فقد غلبتنا بحمرانك وسودانك، ولو قد التقت حلقتا البطان[1]، فاستوت بنا وبك الأقدام، علمت أن حمرانك وسودانك لا يغنون عنك شيئا، فقرأ معاوية الكتاب ثم رمى به إلى ابنه يزيد فقال: ما عندك ؟ قال : تبعث إليه من يقتله فتستريح من حمقه وعُجبه، قال : يا بُني، له بنون وعشيرة تمنعه إن بعثت بمائة رجل، أعطيت كل رجل ألفا، فبلغ ذلك مائة ألف، ولا أدري على من تكون الدائرة، فإن غُلبوا بعثت ألفا وأعطيتهم ألف ألف، ولكنني أكتب إليه: من معاوية أمير المؤمنين إلى عبد الله بن الزبير، أما بعد، فقد جاءني

---

(١) التقت حلقتا البطان ، هذا مثل يضرب في الحادثة إذا بلغت النهاية ، انظر: الميداني ٢ /١٨٦، جمهرة الأمثال ١ /١٨٨ ، اللسان : بطن .

كتابك، تذكر أنَّـا غلبناك بحمرانـنا وسودانـنا [ص ٢٣٥]، وأنه إن التقت حلقتا البطان واستوت بنا وبك الأقدام، علمت أن حمراننا وسوداننا لا يغنون عنا شيئا، وإني قد وهبتك ذلك المال بحمرانه وسودانه، فخذه خضرا نضرا، والسلام . فكتب إليه : لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من عبد الله ابن الزبير، أما بعد، فقد غلبتنا بحلمك، وجُدت لنا بمالك، فجزاك الله يا أمير المؤمنين خيرا، فلما أتى الكتاب معاوية قال ليزيد : يا بُني، أهذا خير، أم ما أردت .

وأنشد معاويةَ رجلٌ شعرا قاله عبد الله بن هُمام السلولي :(١)

[الوافر]

حُشينا الغيظ حتى لو سُقينا ... دماءَ بني أميةَ ما روينا

لقد ضاعت رعيتُكم وأنتم ... تصيدون الأرانب غافلينا

فقال : ما ترك ابن هُمام شيئا ، وذكر أنه لو شرب دماء نا ما اشتفى، اللهم اكفناه .

وعن المدائني قال ، قال معاوية : إني لأرفع نفسي عن أن يكون ذنبٌ أعظم من عفوي، وجهل أكبر من حلمي، وعورة لا أواريها بستري، وإساء ة لا تمحوها حسناتي .

وكان يقول : لو أن بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت، قيل له كيف ؟ قال : إن جبذوها أرسلتها، وإن خلوها جذبتها .

---

(١) عبد الله بن همام السلولي : من بني عامر بن صعصعة، شاعر أسلامي، أدرك معاوية، له أخبار، يقال : إنه هو الذي بعث يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية، وكان يقال له (العطار) لحسن شعره، أدرك خلافة سليمان بن عبد الملك، وتوفي سنة ١٠٠ هـ .

(الشعر والشعراء ص ٢٤٨، طبقات فحول الشعراء ص ٥٢٢ ـ ٥٢٤، السمط ص٦٨٣ ديوان الحماسة ٢ / ٩، الخزانة ٣ / ٦٣٨)

ومما يؤثر عنه أنه قال لابنه يزيد : اتخذ المعروف عند ذوي الأحساب، لتستميل به مودتهم، وتعظم به في أعينهم، ويكف به عنك عاديتهم، وإياك والمنع فإنه مفسدة للمروء ة ، وإزراء بالشرف .

ونظر معاوية إلى الهجار العدوي في عباءة فازدراه، فقال : يا أمير المؤمنين، إن العباء ة لا تكلمك، وإنما يكلمك من فيها .

وقال يوما : أُعِنتُ على عليٍّ بكتمان سري، وفشي أسراره، وبطاعة أهل الشام لي ، ومعصية أصحابه له، وبذلي المال، وإمساكه إياه .

وكان معاوية أكولا نهما، وهو أول من نوَّع في [ص٢٣٦] هذه الأمة المطاعم . وحج معاوية، فلما كان بالأبواء[١]، خرج يستقري مياه كنانة، حتى إذا صار إلى عجوز، فقال لها : من أنتِ، فقالت : من الذين يقول فيهم الشاعر :

[الطويل]

هـمُ منعوا جيشَ الأحابيشِ عَنْوةً وهم نهنهوا عنهم غُزاةَ بني بَكْرِ

فقال لها معاوية : فإذن أنتِ دؤلية، قالت : فإني دؤلية ، قال : أعندكِ قِرى؟ قالت : عندي خبز خمير ، وحيس[٢] كثير ، ولبن حزير[٣]، وماء نمير ، فأناخ وجعل يأخذ الفلذة من الخبز فيملؤها من الحيس فيغمسه في اللبن ثم يأكل ، حتى إذا فرغ قال : حاجتك ؟ قالت : حوائج الحي، فنودي فيهم فأتاه الأعراب فرفعوا حوائجهم فقضاها ، وامتنعت العجوز أن تأخذ شيئا لنفسها،

---

(١) الأبواء : قرية من أعمال الفُرْع من المدينة، بينها وبين الجُحْفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلا، وقيل : الأبواء جبل علي يمين آرة ، ويمين الطريق للمصعد إلى مكة من المدينة . (ياقوت : الأبواء)

(٢) الحيس : تمر وأقط وسمن ، تخلط وتعجن وتسوى كالثريد .

(٣) اللبن الحزير : الحامض .

وقالت : لا آخذ لقراي ثمناً .

وكان معاوية يجوع في رمضان جوعا شديدا ، فشكا ذلك إلى ابن أثال الطبيب ، فاتخذ له الكنافة ، فكان يأكلها في السحور ، فهو أول من اتخذها .

وحُكي أن أبا هريرة رضي الله عنه حضر صفين ، فكان يصلي خلف عليٍّ، ويأكلُ على سماط معاوية، فاذا قامت الحرب اعتزل الفئتين ، وقعد على تل هناك ينظر إليهما، فقيل له : ما رأينا رجلا يصنع مثل صنيعك، فقال : الصلاة خلف عليٍّ أفضل، وطعام معاوية أدسم، والقعود فوق التل أسلم وكان يقال : إنه على سعة كرمه ربما بخل على الطعام. حُكي أن رجلا أكل معه فنظر معاوية إلى الرجل فرأى شعرة في لقمة تناولهامن الطعام، فال له : أزلْ الشعرة ، فألقاها من يده ، ثم أبى أن يأكل ، وقام وهو ينشد :

[**الطويل**]

ولَلموتُ خيرٌ من زيارةِ باخلٍ ... يلاحظُ أطرافَ الأكيل على عمْدِ

وأكل معه صعصعة بن صوحان، فتناول شيئا بين يديه ، فقال له معاوية : لقد أبعدت النجعة ، فقال : من أجدب انتجع. وتغدى [ص ٢٣٧] معه يوما عبيد الله بن أبي بكر، ومعه ابنه بشير، فأكثر ابنه من الأكل، ومعاوية يلحظه، فلما خرج ابن عبيد الله لامه أبوه على ما صنع، ثم عادعبيد الله وليس معه ابنه، فقال له معاوية : ما فعل ابنك التلقامة، قال : قد علمت أن أكله سيورثه داءً .

وُلد قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس سنين، وتوفي في رجب سنة ستين، ومدة عمره ثمان وسبعون سنة تقريبا، ومدة خلافته تسع عشرة سنة وأشهر، وقبره خارج باب الصغير بدمشق .

ثـم

٩٨ - دَوْلَةُ ابنه يَزِيدِ بنِ مُعَاوِيَة

أبي خالد[١] فتى ألف صباه ، وكلف بنجد وصباه، ونام على فراش الرفاهة، ونادم أهل الفكاهة، وهام بما يهيم به الكلف، ويدوم عليه الشعِف[٢]، لا يرد عن جماع غوايته، ولا يرتد عن طماح غايته، وعمر أيام الشبيبة بالمام الحبيبة، وتيم قلبه بالنساء ، تتيم ذي الرمة بالخنساء[٣]، ووجد بكل غانية سمع بها وجد الفرزدق بنوار، وعمرو بعرار، وكان من دمشق في عرايش الكروم، وعرائس الدوم، من جني أعناب كأنَّ عصارتها جني عُنَّاب، فعكف عليها مثواه، وعطف إليها هواه، وثوى يهتصر قطوفها، و يعتصر صنوفها، وزفَّها أوقات أنسه عروسا، وحفَّها حول مجلسه شموسا، وأقام لا يريم بين كأس وريم، لا يرى إلا بنانا مخضوبا بالعنم، أو بحمراء صافية كالعلم، ويروى له شعر أكثره لا يصح له بكبره من جهله، وكان أبوه يؤثره، ويعظم قليله ويكثره، يتوسم مخايل نجابته،

---

(١) يزيد بن معاوية : ابن أبي سفيان، ولد بالماطرون، ونشأ في دمشق، وولي الخلافة بعدوفاة أبيه سنة ٦٠ هـ، وأبى البيعة له عبد الله بن الزبير والحسين بن علي، فانصرف الأول إلى مكة، والثاني إلى الكوفة، وفي أيام يزيد كانت فاجعة المسلمين بالسبط الشهيد الحسين بن علي سنة ٦١هـ، وخلع أهل المدينة طاعة يزيد سنة ٦٣هـ فأرسل إليهم مسلم بن عقبة المرى وأمره باستباحة المدينة ثلاثة أيام، وأن يبايع أهلها على أنهم خول وعبيد ليزيد، ففعل بها مسلم الأفاعيل القبيحة، وقتل فيها كثيرا من الصحابة وأبنائهم وخيار التابعين، ومدة يزيد في الخلافة ثلاث سنين وتسعة أشهر، كان نزوعا إلى اللهو، ويروى له شعر، توفي في حوارين (من أرض حمص) سنة٦٤هـ .

(الطبري وابن الأثير حوادث سنة ٦٤هـ، المسعودي٢ /٣,٦٧ البدء والتاريخ ٦ /١٦، اليعقوبي٢ /٢١٥ ،تاريخ الخميس ٢ /٣٠٠، منهاج السنة ٢ /٢٣٧ ـ ٢٥٤)

(٢) الشعف : بالعين الذي أحرق الحب قلبه، وشعف به : أحبه وشُغل به .

(٣) المعروف أن ذا الرمة تتيم بمية وليست الخنساء، ويبدو أن السجعة جعلت المؤلف يجعلها الخنساء ، أو هي صفة لمية .

ويتسم لدلائل أجابته، فمهد له في تقدمه، ووطد أكناف السرير لقدمه، ولما خاف ألا يتم له ما أراد، ولا يلم فيه رأيه بالمراد، بذل له جهد سيفه ودرهمه، فكفَّ جهل عذاله ولوَّمه، ولم يبقَ إلا ثلاثة قريش شرفا وسؤددا، وسلفا يخرس لددا، الحسين بن عليّ، وعبد الله بن عمر [ص ٢٣٨] وعبد الله بن الزبير ، فجدَّ في مداراتهم فما قدر، وجهد على إرادتهم وما قسر، فنصب مصايد حيله، ومكايد طيله، وأمر بأن يجمع الناس بالمدينة وفيهم أولئك الأماجد، وأوقف على رؤوسهم رجالاً بأيديهم السيوف جرايد ثم أمر بأخذ البيعة ليزيد، وأخذ من خالف الأخذَ الشديد، وقال : من كلَّم هؤلاء، وأشار إلى الثلاثة، واضربوا بحدوة السيف حنقه، فلما اجتمع الناس قام فيهم مروان وقال:[١] أيها [الناس] إن هؤلاء رؤوسكم وسادتكم، وقد أعطوا البيعة، فقوموا فبايعوا، فما منهم إلا من بايع ومن تابع، إلا أولئك النفر، إلا أنهم ما استطاعوا أن يتكلموا، ولا استطالوا إلى أكثر من أن يتألموا، ثم كان من خروج الحسين وابن الزبير ما كان، هذا إلى العراق وهذا إلى مكة، وما فينا فيما يزعزع ملكه، إلا أن الحمام عاجل سيد الشهداء الحسين، وأدلى له الحين، وفزع ابن الزبير لمنابذته، وقرع ظبة الحرب لمؤاخذته، ثم لم يتمكن من قتاله، ولم يتبين له وجه احتياله، فأخرها إلى أوانها، وادخرها إلى إبَّانها، ثم وثب إليها وثوب الفهد، ودأب لها دؤوب الفرس النهد، وأما ابن عمر، فدخل فيما أجمع الناس عليه وبايع، وجمع أطراف قومه وما نازع، ثم كان من مصرع الحسين ما صرع الدموع ، وصدع الضلوع، وكسر القلوب كسرا لا يُجبر، وأمات للإسلام ميتا لا يقبر، فآهاً لها رزية فتَّت العضد، وفلَّت السيف والغمْد، لقد أنضبت

---

(١) راجع في أخذ البيعة ليزيد في الطبري وابن الأثير حوادث سنة ست وخمسين ، وكان مروان واليا على المدينة .

الثُّمُد، وأنضت بطلاب مثلها المهرية الأجد(١)، فيا لها فجيعة، ويالها من مصيبة وجيعة، لعمر أبيه لقد نُبذ غير مليم، ولقد عكفت الطير منه على لحم كريم، وقد تقدم منه طرف في ذكره وهذا الآن موضع شرحه، وسنذكر منه ما يزيد القلب قرحا على قرحه، ويتبعه وما اندمل الأول جرحا على جرحه [ص ٣٢٩] وصفا الأمر ليزيد، ليته ما صفا، واشتفى ليته لو كان أصبح على شفا، فكم أساء على قصر مدة أيامه مرة، وأذاب القلوب وأسال عن المدامع الحرة، فأما كربلاء، فتلك كرب وبلاء، وبالطف ما طف، وكم بوارق بات يوقدها، وبوائق مات وهو يحقدها، هذا كله من وراء تخلف لا كفاية، وتعسف لا بد راية، كان يلعب بالنرد، وينادم القرد، ويشتري لهو الحديث بمال الله لا بماله، ويسخط الله بعمله هذا وسائر أعماله، ودام على قبيح فعلاته، وفضوح ضلالاته، حتى مات، وليته لاولد ولا ولا عرف، فلا ذم ولا حمد، أتاه وهو بحوارين(٢) [نعي] أبيه معاوية، فجاء وقد دفن، فقال :(٣)

[البسيط]

جاء البريد بقرطاس يحثُّ به ... فأوجسَ القلبُ من قرطاسه فزعا

قلنا لك الويلُ ماذا في صحيفتكم ... قال الخليفة أمسى مثبتاً وَجِعا

فمادت الأرضُ أو كادت تميدُ بنا ... كأن أغبر من أركانها انقلعا

ثم ابتعثنا على خوص مزممةٍ ... نرمي العجاج بها لا نأتلي سُرعا

---

(١) الأجد : القوية المحكمة الخلق .

(٢) حوارين : بلدة بالبحرين افتتحها زيادبن عمرو بن المنذر وكان فقيها من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه . (ياقوت : حوارين)

(٣) الشعر في الطبري ٥ / ٣٢٨ تاريخ الكامل ٣ / ٣٧١ حوادث سنة ٦٠، التعازي والمراثي ص ١١٩ والعقد الفريد ٤ / ٣٧٣ .

ومـا نبـالي إذا بلَّـغْنَ أرحلـنا ... مـا مات منهـن بالبـيـداء أو ظلعـا
لمـا انتـهـينا وبابُ الدارِ منصفقٌ ... لصوتِ رَمْلَـةَ رِيعَ القلبُ فـانصدعـا
ثم ارعوى القلبُ منِّي بعد طيرتـه ... والنفسُ تعلمُ أن قد أثبتَتْ جزعـا
أودى ابن هند وأودى المجـدُ يتـبعـهُ ... كانا جميعـا خليطا قاطنين معا
أغرُّ أبلجُ يُستسقى الغمـامُ بـه ... لو قـارعَ الناسَ عن أحسابهم قرعـا

ثم صعد الضحاك بن قيس الفهري(١) المنبر، وفي يده أكفان معاوية، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : أيها الناس، إن معاوية أمير المؤمنين، كان عود العرب، وحدها ونابها، قطع الله به الفتنة، وجمع به الكلمة، وملَّكه حرايم العباد، وفتح له البلاد، إلا أنه قد مات، وهذه أكفانه، ونحن مدرجوه فيها، ثم مدلجوه قبره، ومخلون بينه وبين ربه، ثم هو الهرج(٢) إلى يوم[ص٢٤٠] القيامة، فمن كان يريد أن يشهده فليحضر عند الظهر، ثم أتىٰ يزيد بن معاوية قبر معاوية وترحم عليه، ثم أتى المنبر فخطب، ثم قال : إن معاوية كان عبدا من عبيد الله، أنعم عليه، ثم قبضه إليه، وهو خير ممن بعده، ودون من قبله، ولا أزكيه على الله، فهو أعلم به، فإن عفا عنه فبرحمته، وإن عاقبه فبذنبه، وإني لن آبى عن طلب، ولا أعتذر

---

(١) الضحاك بن قيس الفهري القرشي : سيد بني فهر في عصره، وأحد الولاة الشجعان، شهد فتح دمشق وسكنها، وشهد صفين مع معاوية، وولاه معاوية الكوفة بعد موت زياد بن أبيه سنة ٥٣ هـ، ثم نقل إلى ولاية دمشق، فتولى الصلاة على معاوية يوم وفاته، وقام بخلافته إلى أن قدم يزيد، ولما خلع معاوية بن يزيد نفسه، انصرف يدعو إلى بيعة ابن الزبير بدمشق، ولما مات معاوية بن يزيد أقبل أهل دمشق على الضحاك فبايعوه على أن يصلي بهم ويقيم لهم أمرهم حتى يجتمع الناس على خليفة، وانعقدت البيعة العامة لمروان بن الحكم، والضحاك في مرج راهط، فامتنع عى مروان فقتل في مرج راهط سنة ٦٥ هـ.

(الطبري وابن الأثير حوادث سنة ٦٤، تهذيب ابن عساكر ٧ / ٤، عنوان المعارف الصاحب ص ٢١ مروج الذهب ٥ / ٦٩ــ٧٠)

(٢) الهرج : الفتنة والاضطراب.

من تفريط، وعلى رسلكم، إذا أراد الله شيئا كان . فقام إليه عطاء بن أبي صيفي الثقفي فقال : يا أمير المؤمنين، إنك رزيت الخليفة، وأعطيت الخلافة، قضى معاوية نحبه، فغفر الله ذنبه، ووليت الرياسة، وأنت أحق بالسياسة، فاحتسب عند الله عظيم الرزية، واشكره على حسن العطية، أعظم الله على أمير المؤمنين أجرك، وأحسن على الخلافة عونك . ثم أتاه عبد الله بن همام السلولي فقال : يا أمير المؤمنين ، أعظم الله أجرك في الخليفة، وبارك لك في الخلافة، ثم أنشد :

[البسيط]

اصبر يزيد فقد فارقتَ ذا ثقةٍ ... واشكر عطاء الذي بالملك أصفاكا
أصبحت لا رُزءَ في الأقوامِ تعلمهُ ... كما رُزيتَ ولا عُقبى كعُقْباكا
أُعطيتَ طاعةَ أهلِ الأرضِ كلهم ... فأنت ترعاهمُ والله يرعاكا
وفي معاوية [الآتي] لنا خلفٌ ... إذا قعدتَ ولا نسمع بمنعاكا(١)

وأرسل يزيد إلى الوليد بن عقبة(٢) بأخذ البيعة على الحسين وابن عمر وابن الزبير، ثم سائر الناس، فقال لمروان : ما عندك في هذا ؟ قال : اطلبهم ليلا

(١) ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها الوزن والمعنى

(٢) الوليد بن عقبة : ابن أبي معيط الأموي القرشي، وال من فتيان قريش وشعرائهم وأجوادهم، فيه ظرف ومجون، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه، أسلم يوم فتح مكة ، وبعثه النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات بني المصطلق، ثم ولاه عمر صدقات بني تغلب، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص سنة ٢٠ هـ، فانصرف إليها وأقام إلى سنة ٢٩هـ، فشهد عليه جماعة عند عثمان بشرب الخمر، فعزله ودعا به إلى المدينة، فجاء فحده وحبسه، ولما قُتل عثمان تحول الوليد إلى الجزيرة الفراتية فسكنها، واعتزل الفتنة بين علي ومعاوية، ولكنه رثى عثمان وحرض معاوية على الأخذ بثأره، ومات بالرقة سنة ٦١ هـ .

(الإصابة ترجمة ٩١٤٩، النسير للشماخي ص ٣٠ ـ ٣١ ، المسعودي ٤ /٢٥٧ـ ٢٦١، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٨٥ ـ ٢٨٧، ٣٣٢، ٣٥٣،الأغاني٥ /١٢٢ـ ١٥٣ ط الدار).

وخذهم بالبيعة، فإن بايعوا وإلا فاضرب أعناقهم، فطلبهم ليلا فأتوه، فطلبهم بالبيعة ، فخاف ابن الزبير أن يهنأ، فبدر فقال : ما عندنا خلاف، ولكن يقال إنما بايعوا خوفا، وإنما ادعوا الناس إلى المسجد لنبايع، تشهد الناس وبايع الناس، فقال : أفعل، فأوتي إليه مروان أن اضرب أعناقهم، فأبى، وخرجوا من عنده، فقال له مروان : والله لا أصبح منهم بالمدينة أحد [ص ٢٤١]، فكان هكذا، خرجوا ليلتهم تلك من المدينة، فأما ابن عمر فذهب إلى مال له، وبعث يقول : إذا اجتمع الناس بايعت، فتركوه لعلمهم بزهده ، وأما ابن الزبير فانطلق إلى مكة، وأما الحسين فألهاهم عنه طلبهم لابن الزبير، ثم سار الحسين يريد مكة ، فقال : ما كنت لأنطلق على مكان به ابن عمر ولا أراه، فأتاه فأعلمه أن أهل العراق بعثوا له كتبا وَقْرَ جمل، فقال : إياك وهم، فهم أهل غدر، ولقد كان أبوك أكرم عليهم منك وما وفوا له، فلما أتى عانقه وقال : استودعك الله من قبيل، ثم أتى الحسين عبد الله بن مطيع العدوي، فقال له نحو قول ابن عمر، فأبى وأتى مكة، فرأى ابن الزبير انه لا يتم له مع وجود الحسين، فحسَّن له قصد العراق، حتى ذهب فقتل كما تقدم في ذكره[١]، ثم قام ابن الزبير يذكر مقتله، ويلعن قتلته، ويدعو إلى الشورى، ويستر أمره ويقول : أنا عائذ بهذا البيت ، ثم باح ومد يديه للمبايعة فبويع . واعرله يريد الحيس[٢] ، ثم لم تحن منيته إلا في زمن عبد الملك ، على ما يأتي ذكره.

وحكى البلاذري عن يزيد أنه أول من أظهر شرب الشراب، والاشتهار بالغناء والصيد ، واتخاذ القيان والغلمان، والتفكه بما يضحك منه المترفون من القرود والمعاقرة بالكلاب والديكة، ثم جرى في زمنه قتل الحسين ابن علي

(١) قلت : سها المؤلف ، إذ لم يتقدم ذكر مقتل الحسين .

(٢)(واعرله يريد الحيس) كذا جاءت العبارة وهي غير معجمة ، ولم أهتد لمعناها .

عليهما السلام، وقتل أهل الحرة، ورمي البيت وإحراقه، وكان مع هذا صحيح العقيدة، ماضي العزيمة، لا يهمُّ بشيء إلا ركبه، ووقع بين غلمانه وغلمان عمرو بن سعيد الأشدق فأغضبه ذلك وأمر بإحضار أولئك الغلمان، فلما أتي بهم قال: خلوا سبيلهم، ثم قال: إن القدرة تذهب الحفيظة.

وأخطأ يزيد في شيء وهو صغير، فقال له مؤدبه: أخطأت يا غلام، قال يزيد: الجواد يعثر، قال المؤدب: اي والله ويضرب، قال يزيد: اي والله ويرمح سائسه فيحطمه. وكان يزيد على علاته جوادا كريما، فيما روي أنه أجار عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أربعة آلاف ألف درهم، وكان لا يعد وعدا بكرم إلا أنجزه، وفيه يقول [ص ٢٤٢] عبيد بن حصين الراعي:(١)

[**البسيط**]

راحت كما راح أو تغدو بغدوته ... عنس وخودٌ عليها راكب يفدُ
تنتابُ آل أبي سفيان واثقة ... بسيب أبلج مُنجازٍ لما يعدُ

وكان أيام أبيه معاوية خير من يحضره من جلسائه.

حُكي أن عقيل بن أبي طالب(٢) دخل يوما على معاوية وقد كُفَّ بصره،

(١) الأبيات للراعي النميري من قصيدة في ديوانه ص٦٧ ــ٧٢ في مدح عبد الله بن يزيد بن معاوية، وليست في يزيد.

(٢) عقيل بن أبي طالب الهاشمي القرشي: أعلم قريش بأيامها ومآثرها ومثالبها وأنسابها، صحابي فصيح اللسان، شديد الجواب، وهو أخو علي وجعفر لأبيهما، وكان أسن منهما، أسلم بعد الحديبية، وهاجر إلى المدينة سنة ٨ هـ، وشهد غزوة مؤتة، ولم يسمع له خبر في فتح مكة ولا الطائف، وثبت يوم حنين، وفارق أخاه عليا في خلافته، فوفد إلى معاوية في دين لحقه، وعمي في آخر أيامه، وكان الناس يأخذون عنه الأنساب والأخبار في مسجد المدينة، وتوفي في أول أيام يزيد سنة٦٠ هـ.

(ابن سعد ٤ /٢٨ الإصابة ترجمة ٥٦٣٠، البيان والتبيين ١ / ١٧٤، نكت الهميان ص ٢٠١، مقاتل الطالبيين ص ٧، التاج ٧ / ٣٠، ذيل المذيل ص ٢٣)

فأجلسه إلى جانبه على سريره، ثم جاء بعده عتبة[١] أخو معاوية، فأجلسه بينه وبين عقيل، فلم يره، فقال له معاوية : أنتم يا معشر بني هاشم لِمَ تصابون في أبصاركم، فقال عقيل : كما تصابون يا معشر بني أمية في بصائركم، فتنحنح عتبة ليتكلم بشرٍ، فأومأ إليه معاوية أن اسكت، فقال عقيل: من هذا الذي أجلسته يا معاوية إلى جانبي، فقال معاوية : هو أخوك وابن عمك عُتْبة، فقال عقيل : لئن كان أقرب مني إليك، فإني أقرب منه ومنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سماء، وكان يزيد غلاما واقفا في الشبيبة، فابتدر فقال : يا عم، أنت كما وصفت، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فوق ما ذكرت، وأمر أمير المؤمنين عالم بحقك، ولك عندنا مما تحب أكثر مما لنا عندك مما تكره، فأسكت عقيلا، وكان لسان قريش .

وولد يزيد [سنة خمس أو ست وعشرين][٢] ، وركب[٣] فرسا فرداه، فمات يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين، ومدة عمره تسع وثلاثون سنة، وقيل ست وثلاثون، ومدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر تقريبا، وقبره بحوارين ، وقيل إنه نقل إلى مقبرة دار الصغير بدمشق.

---

(١) عتبة بن أبي سفيان : ابن أمية بن عبد شمس، أمير مصر، وليها من قبل أخيه معاوية، فقدمها سنة ٤٣ هـ، ثم خرج إلى الإسكندرية مرابطا وتوفي بها، كان عاقلا فصيحا مهيبا ، شهد مع عثمان يوم الدار، وشهد يوم الجمل مع عائشة، وفُقِئت عينه، وحج بالناس سنة ٤١ و سنة ٤٢هـ ، توفي سنة ٤٤هـ .

(نسب قريش ص ١٢٥ ، ١٥٣ ، النجوم الزاهرة ١ / ١٢٢ـــ ١٢٤ ، السيرة الحلبية ٢ / ١٣٨ ، رغبة الآمل ٤ / ٣٣ ، ٨ / ١٥٩ ، ٢٧١)

(٢) في الأصل ما بين المعقوفتين بياض ، والتكملة من تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٩ .

(٣) في الأصل : ركض وركب، الضاد والباء فوق بعضهما وتحتمل قراءة الكلمتين .

ثــم :

٩٩- دَوْلَةُ مُعَاوِيَة بن يَزِيْد بن مُعَاوِيَة

أبي عـبـد الرحـمن،(١) ويُعـرف بأبي ليلى، وهـو دُرٌّ تكشـف عنه صـدف، وفجـر تـكشط عنـه سـدف، وتِـبْـرٌ أخـرجـه رُغـام، وزهـرٌ أنبـتـه رُكـام [ص٢٤٣]، أتى وبنو حرب قد أسرت على الرقاب ظباهم، وعقدت على الملك حُباهم، فما أهمّــه زخـرفهم، وما أعظمه أن أعـرضوا مصرفهم، فكان عـجبا في أولئك، وعجلا إلى الإتكاء على الأرائك، زهد فيما رغب فيه بنو أمية، وغرب نجمه وما طلع على ما كانوا فيه، أتته الدنيا منقادة فردها، وجاء ته مواصلة فصدها، فما غـرّه بُردها القشيب، ولا سرّه وردها قبل المشيب، عصمـةً من الله، وَقَتْهُ سهام عواديها، وكفَتْهُ سهام أعاديها، وكان أجله قصيرا، ما أجله إلا يسيرا، أقام أربعين يوما، ثم انتقل وتزوّد شكرا، ولا لوما، ومات ولم يعهد، ومال سريره ولم يشـهد، ولقـد قالت له أمـه : يا بُني اعـهدْ، فـبالغ في ردّهـا، وقال : مـاكنت لأذهب بحـرّها، ويذهـب بنو حـرب بـبـردها، فـأبى أن يتطوق بهـا، لا حـيـا ولا

---

(١) معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : من خلفاء بني أمية بالشام، بويع بدمشق بعد وفاة أبيه سنة ٦٤هـ ، فمكث أربعين يوما ، أو ثلاثة أشهر ، وشعر بالضعف وقرب الأجل ، فأمر فنودي الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فوقف خطيبا، فحمدالله وأثنى عليه، ثم قال : أما بعد، فإني ضعفت عن أمركم ، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجد، فابتغيت سنة الشورى، فلم أجد، فانتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم . وأوصى أن يصلي الضحاك بن قيس بالناس حتى يقوم لهم خليفة، ودخل منزله ، ومات بعد قليل، وهو ابن ٢٣ سنة، توفي بدمشق ولا عقب له، وكانت كنيته أبا ليلى ، وفيه يقول الشاعر :

إني أرى فتنة تغلي مراجلها فالملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

كانت وفاته سنة ٦٤ هـ

(الطبري ٧ / ١٦ ، ابن الأثير ٤ / ٥١ ، اليعقوبي٢ / ٢٢٦ ، بلغة الظرفاء ص١٩ ، المسعودي٢ / ٧٧ ، تاريخ الخميس ٢ / ٣٠١ ، البدء والتاريخ ١ / ١٦)

ميتا، أو يتعلق بها لا منجزا ولا موقنا، وبموته انقضت دولة بني حرب، ونقضت حبالها في كل شرق وغرب، ثم لم تقم لهم قائمة إلا من نجم وما طلع، وتحامل فأعجزه الظلع، إلا ما وضعه خالد بن يزيد، أن سيكون لهم دولة يقوم بها قائم يسمى السفياني، أراد بهم أن لا تنقطع منهم الأماني، ولقد خرج منهم بأطراف الشام من تسمَّى بهذا، ثم ما طار حتى وقع، ولا أسفر محياه حتى امتقع، ولا أشرف رأسه حتى خضع، ولا أسرف حتى بطل، ما خلد خالد وما وضع .

ذكر البلاذري أن أباه يزيد بن معاوية ، كان قد مرض بعد ولايته بسنتين من كبده، فلما برىء واستقل، أتاه ابنه معاوية، وأمه أم هاشم بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس عنده، وكانت امرأة برزة عاقلة، فقالت له : لو عهدت إلى معاوية، فقال : هكذا أفعل، ثم قال لحسان بن مالك بن بحدل : إني أريد البيعة لمعاوية بن يزيد [ص٢٤٤]، فقال : افعل، فدعاه يزيد فصافقه[1] بولاية العهد، وبايع له حسان بن مالك والناس، وهو كاره، وكان معاوية بن يزيد فتىً صالحا متألها،، كثير الفكر في أمر معاده، ولا يكاد يلتفت إلى أمر الدنيا، ولا يبالي كيف تقضت به، وإنما كني أبا ليلى للينه، وهي كنية كل ضعيف، ثم جدد يزيد له البيعة حين احتضر، فلما مات بايعه الناس، وأتته بيعة الآفاق، إلا ما كان من ابن الزبير، ولما أفضى الأمر إليه، قام خطيبا فقال : أيها الناس، إن يكن هذا الأمر خيرا فقد استكثر منه آل أبي سفيان، وإن يكن شرا، فما أولاهم بتركه، والله ما أحب أن أذهب إلى الآخرة وأدع لهم الدنيا، ألا فليصلِ بكم حسان بن مالك، وتشاوروا في أمركم، عزم الله لكم الرشد، والخيرة في قضائه، ثم نزل فأغلق بابه وتمارض فلم ينظر في شيء، ولم يعزل معاوية أحدا من عمال أبيه، ولا حرَّك شيئا، ولا أمر ولا نفى، وكان حسان يصلي بالناس، وهم منكرون

(١) صافقه : وافقه ، وأنجز ما اتفقوا عليه .

لأمرهم حتى مات، ولما مرض قيل له : لو بايعت لأخيك خالد بن يزيد، فإنه أخوك لأبيك وأمك، فقال : يا سبحان الله، كفيتها حياتي وأتقلدها بعد موتي، يا حسان بن مالك، اضبط ما قبلك، وصلِ بالناس، إلى أن يرضى المسلمون بإمام يجتمعون عليه، واخلعوني فأنتم في حل من بيعتي . فقالت له أمه أم هاشم : لوددت يا بني أنك كنت نسياً منسياً، قال : وددت والله أني كنت نسيا منسيا ولم أسمع بذكر جهنم، ثم دخل عليه مروان بن الحكم، وكان قد قدم من دمشق، فقال له : لقد أعطيت من نفسك ما يُعطى الذليل المهين، ثم رفع صوته فقال : من أراد أن ينظر في حالته إلى حرب بن أمية فلينظر إلى هذا، فقال له معاوية : يابن الزرقاء اخرج عني، لا قبل لك عذرا يوم القيامة.

ويقال : إنه لما مات ، قام مروان على قبره وقال : أتدرون من دفنتم؟[ص٢٤٥] قالوا : نعم، معاوية بن يزيد، قال : بل دفنتم أبا ليلى، فعُرِف فيما بعد بها .

ثم كانت لبني أسد بن عبد العُزَّى دولة قام بها :

١٠٠ - عَبْدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وكانت دولة صلاح(١)، ومدة فلاح، وزمان ملك شجاع، غير كريم، زنده شحاح، وعهده ما فيه سوى صوب دم سحاح، وهو أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة للمهاجرة، وضجت بالتكبير لمولده أرجاء تلك الحاضرة، وقد كانت يهود زعمت أنه لا يولد لهم ولا ينتج طير طيبة نسلهم (كذا)، وكان [الزبير] زعيم يوم الجمل، وكان هو الذي يصلي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في مدة تلك الوقيعة الدائرة بمحنها والنوبة التي أشابت نواصي الليالي أيام فتنتها،

---

(١) سيرد ذكر دولة ابن الزبير تفصيلا مع دولة عبد الملك بن مروان .

ثم كانت مقدمة لبلية صفين، وشفاء صدورقوم ما شفين، ودامت مدته ثم لم تزل إلا على يد الحجاج زمان عبد الملك بن مروان، ستذكر عند انتهائها في ذلك الأوان، ثم لما انقضت دولة بني حرب، وفرغت منها الأيام، ونزعت في صدور الزمان شياطين أنصارها اللئام، أعقبتها الدولة المروانية، تنزوا قِرَدَتُهم على المنابر، ويعلوا صغارهم مكان الأكابر، إلا فرد رجل واحد غلب عليه شيمة خاله لا عمه، وما مال إلى جده لأبيه إلا لأمه .

وأولها :

١٠١ - دَوْلَةُ مَرْوَانَ بنِ الحَكَمِ

ابن أبي العاص[١] بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو عبد الملك،

---

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاص: أبو عبد الملك، خليفة أموي ، هو أول من ملك من بني الحكم بن العاص، وإليه ينسب (بنو مروان)، ولد بمكة، ونشأ بالطائف، وسكن المدينة، فلما كانت أيام عثمان، جعله في خاصته، واتخذه كاتبا له، ولما قتل عثمان خرج مروان إلى البصرة مع طلحة والزبير وعائشة، يطالبون بدمه، وقاتل مروان في وقعة (الجمل) قتالا شديدا، وانهزم أصحابه فتوارى، وشهد(صفين) مع معاوية، ثم أمَّنه علي فأتاه فبايعه، وانصرف إلى المدينة فأقام إلى أن ولي معاوية الخلافة، فولاه المدينة سنة ٤٢ ـ ٤٩ هـ ، وأخرجه منها عبد الله بن الزبير، فسكن الشام، ولما ولي يزيد بن معاوية الخلافة وثب أهل المدينة على من فيها من بني أمية، فأجلوهم إلى الشام، وكان فيهم مروان، ثم عاد إلى المدينة، وحدثت فتن كان من أنصارها، وانتقل إلى الشام مدة ثم سكن تدمر، ومات يزيد وتولى ابنه معاوية بن يزيد، ثم اعتزل معاوية الخلافة، وكان مروان قد أسنَّ فرحل إلى الجابية (في شمال حوران) ودعا إلى نفسه، فبايعه أهل الأردن سنة ٦٤ هـ، ودخل الشام فأحسن تدبيرها، وخرج إلى مصر وقد فشت في أهلها البيعة لابن الزبير، فصالحوا مروان، فولى عليهم ابنه عبد الملك، وعاد إلى دمشق فلم يطل أمره، وتوفي بها بالطاعون، وقيل: غطته زوجته (أم خالد) بوسادة وهو نائم فقتلته، وكان يلقب (خيط باطل) لطول قامته واضطراب خَلْقه، ويقال له ابن الطريد لأن النبي صلى الله عليه وسلم طرد أباه الحكم إلى بطن وج (بالطائف) إذ كان يغمز عليه ويفشي سره، فقال : لا يساكني ، فلم يزل فيها إلى أيام عثمان، فرده إلى المدينة، وكان ذلك مما نُقم على عثمان، ومدة حكمه تسعة أشهر وثمانية عشر=

كان أبوه الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى أن تلقى عثمان الأمر وتسلم، وهو أحد ما انتقد على عثمان، وحقد على أبي سفيان، كان معاوية [ص ٢٤٦] يعاقب بينه وبين سعيد بن العاص، ويراقب منه سطوة الأسدعلى القناص، خوفا من توثبه، وخوضا في حديث كان يخشى تسببه، فكان يداريه ويدرأ حده بشبهة أنه يوليه ، ولم يزل مذ كان عيبه عناد وغيبة ، ما توارى في زناد يقدح كل شر ، ويجدح حماه كل ضر، ويقسو في موضع اللين، ويعتو في متبع الدين، إلا أنه كان من رجال قريش حزما لا يغلط، وعزما لا يغمط، ملقح حرب حيال ، وملحق ترح بحي حلال، يلف آخر الخيل بأولها، ويدير مدبرها على مقبلها، تعرض للحرب حتى صلي بها، وبلي لما بلي عجم عيدانها بصليبها، أخرجه عمال ابن الزبير على المدينة في بني أمية، وأحوجه الاستعجال إلى الخروج على عمّيه، فخرج أجرأ من ابن سُمَيَّة[١] ، وأجرأ من عمرو بن أمية، قال منتهكا وآب ملكا، ما برح يسول له القيام ويناجي ضمائره، وينادي سرائره، حتى أخرج هذا المخرج، خرج لضائقة المخرج، فسار يريد الشام، وهو لا يعرف كيف يسير، ولا على رشد يمشي أم تغرير، فلما كان بالطريق، وهن لقلة ناصره، وذلة أهل أواصره، فهمَّ أن يعطي بالمبايعة يده، ويعرى من لبوس المقارعة جسده، فقال له رجال: أو مثلك وأنت شيخ بني عبد مناف ترضى أن تكون لفتى من بني أسد مربوبا، ومعه هذه الرماح ما قُصف من صُلبها أنبوبا، وهذه الأسنَّة تتقد ولا تدع جمر الحرب مشبوبا، فحينئذ ألوى بأنفه الشمم، وبعطفه التيه على منابت اللمم، ودعا إلى نفسه، وسعى كالأرقم بكشر أنيابه لنهشه ،

= يوما، كانت وفاته سنة ٦٥ هـ .

(الطبري ٧ / ٣٤، ٨٣، ابن الأثير ٤ / ٧٤، البدء والتاريخ ٦ / ١٩، الإصابة ترجمة ٨٣٢٠ تاريخ الخميس ٢ / ٣٠٦، أسماء المغتالين ٢ / ١٧٤)

(١) ابن سمية : هو زياد بن أبيه .

وكان الأمر قد كاد يتم لابن الزبير ويدوم من أجمع على خير، ومما دان له دمشق وسائر الشام، إلا حمص، ولم يكونوا على نزاعه أهل حرص، إلا أن عامل بني أمية كان بها متماسكا، وبزمام حزبها ماسكا، هذا مع ما كان قد اجتمع له من طاعة أهل الحجاز والعراق، وقلة [ص ٢٤٧] طماعه من تظاهر له بالشقاق، وإنما مروان قام غير متكل، بسير ولا ضجر ولا وكل، وعضده من ذوي قرابته، رجال بل نصال، لا مجال معها لانفصال، وقامت اليمانية معه على القيسية ، وصوب كل قبيل إلى الآخر سهامه وقِسيه، وكانت اليمانية أموية، والقيسية زهرية بلا مثنوية، ودخل مروان دمشق، ثم أتى تل راهط، يحاشي حل كل رابط، هنالك كان موعد اللقاء ، ومورد عدم البقاء ، وشبت الحرب العوان، وشبّت بعد المشيب همَّة مروان، حتى أحرز من الملك ما ورثه بنوه بعده، ومات وأورثه ولده، وأمه آمنة بنت علقمة الكناني، وأمها الزرقاء التي يعيرون بها، وهي مارية بنت موهب الكندي، وكان موهب قَيْنَاً، وكان مروان يسمى خَيْط باطل لطوله ودقَّته، شُبِّه بالخيط الأبيض الذي يرى في الشمس، وكان قارئا للقرآن حازما حزما.

كان كما قلنا رأس كل هوى، وأسّ كل بلوى، ولما نهضت سمعة ابن الزبير، كتب إلى عبد الله بن مطيع(١)، وكان عامله على المدينة، في نعي بني أمية، ومروان يومئذ شيخهم، وابنه عبد الملك ناسكهم وموضع رأيهم، وكان بعبد

(١) عبد الله بن مطيع : ابن الأسود الكعبي القرشي العدوي، من رجال قريش جلدا وشجاعة، ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان على قريش يوم الحرة، فلما انهزم أصحابه توارى في المدينة، ثم سكن مكة، استعمله ابن الزبير على الكوفة، فأخرجه المختار بن أبي عبيد منها، فعاد إلى مكة، فلم يزل فيها إلى أن قُتل مع ابن الزبير في حصار الحجاج، وأرسل رأسه إلى الشام مع رأسي ابن الزبير وصفوان ، سنة ٧٣ هـ .

(ابن الأثير ٤ /١٣٧، الإصابة ترجمة ٦١٨٧ المحبر ص ٤٩٤، تهذيب التهذيب ٦ /٣٦)

الملك جدري، قد ظهر به، فوجدوا مشقة عظيمة لمخرجهم، فحُمِل عبد الملك على جمل شُدَّ عليه شدا، وأكبر قريش هذا على ابن الزبير، وقالوا له : إنما بعثت عليك أراقم لا يرقى سليمها، فكتب إلى ابن مطيع بإقرارهم بالمدينة، فبعث يردهم، فأبوا أن يردوا، وقد سول لمروان الأمر، فأتوا الشام وقد بايع الناس لمعاوية، وهو كاره لذلك، ثم لم يلبثوا أن مات معاوية، وظن ابن الزبير أن قد صفا له الأمر، وبث ولاته، وأطاعه أكثر أهل الشام، إلا حسان بن مالك بن بحدل[١] وقوما معه، فإنهم دعوا لخالد بن يزيد، فقال له ابن غضاة الأشعري : أراك تريد هذا الأمر لخالد بن يزيد [ص ٢٤٨] وهو حديث السن ، فقال: إنه معدن الملك، ومقر السياسة والرياسة، فأتى ابن غضاة خالدا فوجده نائما ضحى نهار، فقال : يا قوم ، أنجعل نحورنا أغراض للأسنة والسهام لهذا الغلام وهو نائم في هذه الساعة ، وإنما صاحب هذا الأمر المجدالمشمر الحازم المتيقظ، فأتى مروان بن الحكم، فألفاه في فسطاط، وإذا درعه إلى جنبه، وعليه سيفه والرمح مركوز بفنائه، وفرسه مربوط إلى جانب الفسطاط، والمصحف بين يديه، وهو يقرأ القرآن، فقال ابن غضاة : يا قوم هذا صاحبنا الذي يصلح له الأمر، فرجعوا إلى حسان بن مالك ، فأخبروه بخبر خالد ومروان، وأعلموه أنهم مجمعون على مروان، فقال ابن بحدل: رأيي لرأيكم تبع، إنما كرهت أن تخرج الخلافة من أهل هذا البيت، ثم قام حسان خطيبا، فحمد الله ، ثم ذكر مروان وأثنى عليه، وقال: قوموا فبايعوا، فقاموا فبايعوه، وأقبل الضحاك حتى نزل مرج راهط[٢]

(١) حسان بن مالك بن بحدل الكلبي : أمير بادية الشام، كان من القادة في جيش معاوية يوم صفين ، ثم آزر مروان في حربه مع الضحاك بن قيس، قال أحد مؤرخيه : سلَّم الناس على حسان بالخلافة أربعين ليلة، ثم سلَّم الأمر إلى مروان ، توفي سنة ٦٥ هـ .

(تهذيب ابن عساكر ٤ ١٤٥، التاج ٧ / ٢٢٢، سير النبلاء ينظر فهرسته)

(٢) مرج راهط : بنواحي دمشق، وهو أشهر المروج في الشعر، فاذا قالوه مفردا فإياه يعنون، وفيه=

داعيا إلى ابن الزبير، وقد اجتمعت بنو أمية بالجابية(١)، فقال مالك بن هبيرة(٢) للحصين : هلم نبايع لخالد بن يزيد، فقد عرفت مرتبتنا كانت من أبيه، فقال الحصين : لا والله، لا يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي، فقال مالك : ويحك، إن مروان وآل مروان يحسدونك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تظل بها، وهو أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة فإن بايعتموه كنتم عبيدا لهم، فقال : مروان شيخ قريش ومن يديرنا ويسوسنا، خير ممن نديره ونسوسه، فأجمعوا على مروان على أن يكون بعده خالد بن يزيد، ثم عمرو بن سعيد، فبويع مروان ولم يقع لهما اسم معه، فلما دان لمروان أصحابه، سار بهم يريد تل راهط، وعلى ميمنته عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد، وجعل الضحاك على ميمنته زياد بن عمرو العقيلي، وعلى ميسرته زحر بن أبي شمر الهلالي، وثار يزيد بن أبي اليمن على دمشق، فغلب عليها [ص٢٤٩]، ودام القتال بين مروان والضحاك(٣) عشرين ليلة، وكان مروان يرتجز فيها ويقول :

= الوقعة المشهورة التي قتل فيها الضحاك بن قيس، واستقام الأمر لمروان بن الحكم .
(ياقوت : مرج راهط)

(١) الجابية : قرية من أعمال دمشق، ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفرفي شمالي حوران، وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع، ويقال لها جابية الجولان أيضا .(ياقوت : الجابية)

(٢) مالك بن هبيرة السكوني الكندي : من رؤساء كندة بالشام، ومن الخطباء أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، كان مع معاوية أيام صفين، ولما بويع معاوية على كتاب الله وسنة نبيه، جاء ه فخطب بين يديه وقال : ابسط يدك أبايعك على ما أحببنا وكرهنا، فكان أول من بايع على ذلك، ولي حمص لمعاوية، ثم لما بويع مروان بن الحكم بالشام وسار إلى مصر، كان مالك معه ، توفي سنة ٦٥ هـ .

(الولاة والقضاة ص ٤٢ ، النجوم الزاهرة ١ /١٣٧ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، وقعة صفين ص ٤٩ ,٩٠ ، المسعودي٥ / ٢٠٠ـ ٢٠١ الأغاني ١ / ٢١ تهذيب١٠ / ٢٤)

(٣) سبقت ترجمة الضحاك بن قيس .

[الرجز]

لما رأيتُ الأمر أمراً صعبا سيرتُ للقوم سَراةً غُلْبا
لا يأخذون المُلْكَ إلا غصبا فإن دنتْ قيسٌ فقل لا قُربى

ثم كانت آخر تلك الأيام ونهاية ذلك القتال اللزام، أن انجلت سحابة الحرب العوان عن تبلج النصر على قسمات مروان، ودخل دمشق فبايع له أهلها، واستوسق له الشام والجزيرة، وأنشده بعض الأنصار :

[السريع]

الله أعطاك التي لا فوقها وقد أراد الملحدون عوقها
عنك ويأبى الله إلا سوقها إليك حتى قلدوك طوقها

وأنشده زياد الأعجم :[1]

[الوافر]

رأيتُك أمسِ خيرَ بني لؤيٍ وأنتَ اليومَ خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الضعفَ خيراً كذاك تكون سادةُ عبد شمسِ

فأجازه ألف دينار، وقيل بل كان إنشاده إياهما بالمدينة، ولما انجلت نوبة تل راهط عن نُصرةِ مروان، فرَّ زُفر بن الحارث[2] إلى قرقيسياء[3]، فدخلها وجعل

(١) البيتان في مجموع شعر زياد الأعجم ص ١٣١.

(٢) زفر بن الحارث : ابن عمرو بن معاذ الكلابي، أمير من التابعين من أهل الجزيرة، كان كبير قيس في زمانه، شهد صفين مع معاوية أميرا على أهل قنسرين، وشهد وقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس الفهري، وقُتل الضحاك، فهرب زفر إلى قرقيسياء (عند مصب نهر الخابورفي الفرات) ولم يزل متحصنا فيها إلى أن مات سنة ٧٥ هـ .

(خزانة الأدب ١ /٣٩٣، العيني ٢ /٣٨٢، شرح شافية ابن الحاجب ص٣٠٠)

(٣) قرقيسياء : بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق، على ستة فراسخ، وعندها مصب الخابور في الفرات، فهي في مثلث بين الخابور والفرات .(ياقوت : قرقيسياء)

يرثي قتلى راهط، فمن ذلك قوله :

[الطويل]

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط ... لمروان صدعاً بيننا متساويا
أتذهبُ كلبٌ لم تنلها رماحُنا ... وتُتْرَكُ قتلى راهطٍ هي ما هيا
وقد ينبت المرعى على دمن الرُبى ... وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا
أبعدَ ابن صقرٍ وابن عمرو تتابعا ... ومصرع همَّامٍ أُمنَّا الأمانيا

فأجابه ابن مخلاة الكلبي :

[الطويل]

لعمري لقد أبقت وقيعة راهطٍ ... على زُفَرٍ فرداً من الداءِ باقيا
تُبَكِّي على قتلى سُليمٍ وعامرٍ ... وذبيانَ معروفاً تُبَكِّي البواكيا[ص ٢٥٠]

ومما قال زُفَر أيضا :

[الطويل]

ويوم ترى الرايات بيضاً كأنها ... حوائم طيرٍ مستدير وواقعُ
مضى أربعٌ بعد اللقاءِ ورابعٌ ... وثول أطلته السيوف القواطعُ[(١)]
طعنا زياداً باسته وهو مدبرٌ ... وقد جُدَّ من يُمْنى يديه الأصابعُ
ونجَّى حبيباً ملهبٌ ذو غلالةٍ ... وقد جُدَّ من يُمنى يديه الأصابعُ
وقد شهد الصفَّين عمرو بن مخدم ... فضاق عليهِ المرجُ والمرجُ واسعُ

ثم استخلف مروان ابنه عبد الملك بدمشق، فسار إلى مصر، وكان عليها عامل ابن الزبير، فافتتحها، ثم تزوج أم خالد ليغضَّ من ابنها خالد بن يزيد، وكان هو وعمرو بن سعيد يدعيان أن الأمر لهما بعد مروان، فكلم حسان بن

---

(١) الثول : الأثول الأحمق البطيء الخير .

مالك في ذلك وقال : إني أريد أن أعهد إلى ابني عبد الملك ثم عبد العزيز، فقال : أنا أكفيك هذا الأمر، فلما اجتمع الناس عند مروان ، قام ابن بحدل فقال : إنه يبلغنا أن رجالاً يتمنون أماني، ويدعون أباطيل، فقوموا فبايعوا لعبد الملك ابن أمير المؤمنين بالعهد، ولعبد العزيز من بعده، فقام الناس مسارعين من عند آخرهم، وكان مروان قال لحسان : بلغني أنك تقول أنك اشترطت على مروان أن يولي خالد بن يزيد الخلافة بعده، فحداه ذلك على الجد، وتبعه عبد الملك ما أبلغ مروان عنه، ثم عقد مروان لعبيد الله بن زياد على العراق والجزيرة، ووجهه فقتل بالموصل قتله إبراهيم بن الأشتر، وبعث إلى ابن الزبير جيشاً عليه يوسف بن الحكم الثقفي، ومعه يومئذ ابنه الحجاج، فأتوا وادي القرى[١]، فهرب عامل ابن الزبير عليها، ووضعوا عليها ضريبة أدوها إليهم، ثم نزلوا بذي المروة[٢] فلقي أهلها منهم عَنَتاً، وبلغ أهل المدينة ما نابهم، فبعث بشر من الصالحين، وقيل لسعيد بن المسيب[٣] : لو تغيبت أو أتيت البادية، فقال : فأين فضل الجماعة، والله لا رآني الله والناس أخوف عندي منه، ثم ساروا [ص٢٥١] حتى أتوا المدينة، ثم صعد يوسف بن الحكم الثقفي المنبر، فقال :يا أهل المدينة، يقول الله تعالى : (لئن لم ينتهِ المنافقون والذين في قلوبهم مرض

(١) وادي القرى : واد بين المدينة والشام، من أعمال المدينة، كثير القرى،فتحها النبي صلى الله عليه وسلم سنة سبع عنوة، ثم صولحوا على الجزية .(ياقوت : وادي القرى)

(٢) ذو المروة : قرية بوادي القرى، وقيل : بين خشب ووادي القرى . (ياقوت : ذو المروة)

(٣) سعيد بن المسيب : ابن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة في المدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، ولا يأخذ عطاء، وكان أحفظ الناس لأحكام عمربن الخطاب وأقضيته، حتى سُمي راوية عمر، توفي بالمدينة سنة ٩٤ هـ .

(حلية الأولياء ٢ / ١٦١، صفة الصفوة ٢ / ٤٤، ابن سعد ٥ / ٨٨، وفيات الأعيان ١ / ٢٠٦)

والمرجفون في المدينة لنغرينَّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا)[١]، فكيف رأيتم ما صنع الله بكم ، والله لا يتكلم أحد منكم بكلمة إلا ضربته بسيفي هذا، ثم لاقوا بالربذة[٢] جيشا كان قد أقدمه ابن الزبير من البصرة، وكانت الدائرة على جيش مروان، وفر يوسف الثقفي ورديفه ابنه الحجاج على فرس، وكان الحجاج يقول : ما أقبح الهزيمة ، لقد كنت ورجل آخر ـ يعني أباه ـ فانهزمنا على فرس، فركضنا ثلاثين ميلاً، حتى قام بنا الفرس، وإنه ليخيل إلينا أن رماح القوم في أكتافنا، وجعل ابن الزبير لمن يأتيه بيوسف الثقفي وابنه جُعلاً، فلم يقدر عليهما.

ثم كان بين مروان وبين خالد بن يزيد[٣] كلام ، فقال له يا ابن الرطبة، فقال خالد : والله لقد أضعت الأمانة، وفضحت الستر، ثم دخل عليها فقال : يا أماه، ماذا ألحقت بي من العار، قالت : وما ذاك يا بُني، فقال لها ما كان من قول مروان، فقالت : أما والله لا تسمع منه شيئا تكرهه بعدها أبداً، فلما دخل عليها[٤] مروان، قال لها : قد كان مني إلى خالد كلام، فهل قاله لك، فقالت : أنت يا أمير المؤمنين أجل في صدر خالد وأكبر في عينه من ذلك، ثم تركتْهُ

(١) الأحزاب ٦٠ .

(٢) الربذة : من قرى المدينة، على ثلاثة أيام، قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه .(ياقوت : الربذة)

(٣) خالد بن يزيد : ابن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي، حكيم قريش وعالمها في عصره، اشتغل بالكيمياء والطب والنجوم فأتقنها، وألف فيها رسائل ، وقد أحضر جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب من اللسان القبطي واليوناني إلى العربي، كان خطيبا شاعرا جيد الرأي كثير الأدب، توفي بدمشق سنة ٩٠ هـ .
(البيان والتبيين ١ /١٧٨، وفيات الأعيان ١ /١٦٨، الفهرست ١ /٢٤٢، تاريخ ابن الوردي ١ /١٧٩، تهذيب ابن عساكره /١١٦)

(٤) قوله : فلما دخل عليها ، مكررة .

حتى نام، وعمدت إلى مرفقة محشوة ريشاً، فجعلتها على وجهه وجلست عليها حتى مات غمًّا ، ثم صرخت وجواريها وقلن: مات أمير المؤمنين فجأة، وقيل: بل كان يعجبه اللبن فجاءته بلبن مسموم، فقال : أيتوني به إذا أفطرت، فلما أفطر أتوه به فشربه، فاعتقل لسانه، وصرخ جواريها، وأقبل يشير إلى من اجتمع إليه من ولده وغيرهم، أنها قتلتني، وجعلت هي تقول : أما ترونه يوصيكم بي ويشير إليكم بحفظي [ص٢٥٢] .

وولد مروان لثلاث من الهجرة، وتوفي في رمضان سنة خمس وستين ، وهو في ثلاث وستين سنة، ومدة خلافته تسعة أشهر وأيام، وقبره بدمشق .

ثـم :

١٠٢ - دَوّلَةُ ابْنِه عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوَان

ابن الحكم(١)، أبو الوليد، الفحل الذي لم يُخطم، والرمح الذي لم يُحطَم، سهم لا تعدله خطا، وسيف لا يحدث لنبوته نبا، ثارت عليه ثوار فوطئهم بميسمه، وأبكاهم دما بدوام تبسمه .

كان ابن الزبير بمكة، وأخوه مصعب بالعراق ، وخرج عليه عمرو بن

(١) عبد الملك بن مروان : ابن الحكم الأموي القرشي، من دهاة الخلفاء الأمويين، نشأ في المدينة، فقيها واسع العلم متعبدا ناسكا، وشهد يوم الدار مع أبيه، استعمله معاوية على المدينة وهو ابن ستة عشر عاما، وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ هـ، فضبط أمورها وظهر بمظهر القوة، فكان جبارا على معانديه، قوي الهيبة، واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مصعب وعبد الله بن الزبير في حربهما مع الحجاج، وكان يقال : معاوية للحلم وعبد الملك للحزم، ونقلت في أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية، وضبطت الحروف بالنقط والحركات ، كان ذا دراية بالشعر والأدب ، وأخباره مع الشعراء كثيرة، توفي بدمشق سنة ٨٦ هـ .

(الطبري ٨/٥٦، ابن الأثير٤/١٩٨، المحبر ص ٣٧٧، تاريخ الخميس ٢/٣٠٨،٣١١، اليعقوبي ٣/١٣، المسعودي ٢/ ٨٦ـ١٠٣ ميزان الاعتدال ٢/١٥٣، الأغاني ينظر فهرسته)

سعيد[١] بدمشق ، وكاد يصيبه الرشق، ويصل إليه من تغريق الخطبة المشق، وأحاط به البلاء، وادَّاركت عليه النُّوَب الولاء ، وظن أنه قد أُخذ، وأن مُلْكه قد تمزق، وهو مع هذا جمل تحمل ما حمل، وجبل لو تقسمه أهل الأرض ما حُوِّل، فجثا على ركبتيه، وجفا المنام مقلتيه، وادَّكر تحيف القوم لممالكه، وتحيِّن الأوقات لمهالكه، فشمر لطلابها، وضمَّر خيله لغلابها، وبدأ بالعود إلى دمشق وخادع عمرو بن سعيد حتى استنزله عن سريرها، واستقلَّه أن يبيت ضجيع سرورها، وما زال به حتى استدعاه خاليا، واستدناه ممالياً، حتى إذا كان قريبا منه وثب عليه ، وبث سر حنقه إليه، ثم أشرف فهاله تجمع أصحابه بداره ليوقع ما به وبداره، وكان لا طاعة له على جمعهم، ولا طاقة له بدفعهم، فوجد الحيلة أنصر له وأقدر على هدر دم من قتله، فكأنما كان سكر أصحابه، فألقى رأسه إلى أصحابه، مقرونا بنثار من الذهب، شغلهم لقطه عن أخذ ثأر من ذهب، فراح دمه مطلولا، وطاح لا يجد عنه سائلا ولا مسؤولا، ثم يطلب الاثنين ولم يُبدِ اكتراثه، ولا قال: وما شر الثلاثة[٢]، فوجه الحجاج نحو ابن

(١) عمرو بن سعيد الأشدق : ابن العاص بن أمية ، أمير من الخطباء البلغاء ، كان والي مكة والمدينة لمعاوية وابنه يزيد، وقدم الشام فأحبه أهلها، فلما طلب مروان بن الحكم الخلافة عاضده عمرو، فجعل له ولاية العهد بعد ابنه عبد الملك، ولما ولي عبد الملك أراد خلعه من ولاية العهد، فنفر عمرو، واتفق خروج عبد الملك إلى (الرحبة) لقتال زفر بن الحارث الكلابي، فاستولى عمرو على دمشق، وبايعه أهلها بالخلافة، وعاد عبد الملك إلى دمشق ، فامتنع عمرو فيها، فحاصره وتلطف له إلى أن فتح أبوابها، ودخلها عبد الملك، فاعتزل عمرو بخمس مائة مقاتل، ولم يزل عبد الملك يتربص به الفرصة حتى تمكن منه فقتله، ولقب عمرو بالأشدق لفصاحته، كان مقتله سنة ٧٠هـ .
(ابن الأثير ٤ / ١١٦، الإصابة ترجمة ٦٨٥٠، تهذيب التهذيب ٨ / ٣٧، فوات الوفيات ٢٣ / ١١٨المرزباني ص ٢٣٣١، رغبة الآمل ٤ / ٢٢)

(٢) هو تضمين لقول عمرو بن هند في معلقته :

وما شر الثلاثة أم عمرو   بصاحبك الذي لا تَصبحينا

جمهرة أشعار العرب ١ / ٣٩٠ تحقيق محمد علي الهاشمي ط الرياض ١٩٨١ .

الزبير، يمحو بقية ذلك الخير، ففعل تلك القبائح [ص٢٥٣] وأكثر بمكة لا بمنى تلك الذبايح، من دماء محرمات سفكها، وحرمات انتهكها ، ورمى بخطارة المنجنيق، حجارة البيت العتيق، نصبها على أبي قبيس وقيقعان[١]، ورمى الكعبة فتحامتها الحجارة، ورامتها فما أومى إليها بناؤها بإشارة ، وحمت الملائكة حماها، وصانت عن تقبيل ثغور تلك الحجارة لُماها ، ففطن أن الملائكة تدفع عن أركانها، وتمنع من مكانها، فلطخ الحجارة بالعذرة، وألقاها إذ كانت الملائكة تتوقاها، فأصاب جدارها، وأصار إلى الأرض أحجارها، فأحل من الحرم ما لم يحل، واستحل ما لا يجوز لمستحل، وبث الأضاليل، ونصب حبائل الأباطيل، وقصد بيت الله بأشد مما قصده إبرهة عام الفيل، إلا أن حرمة تسميته بالإسلام، دفعت عنه عاجل البلاء، وأخّرته وما تقول إنها سامحته، ولكنها أنظرته، ثم لما قُتِل ابن الزبير، أمرَ له بجذع فنصب، ومنَّ به إليه فصُلِب، وكانت أمه قد قالت له : يا بُني لأنْ تُقتل خير من أن تُختل[٢]، فقال : أخشى أن يمثلوا بي، فقد نُمي إليَّ أنهم تقبَّلوا له بصلبي، فقالت : يا بُني لا يضرك هرير النبح، فالشاة لا يؤلمها السلخ، بل الذبح، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : جنبوني خشبة ابن الزبير وتجنَّبها ، ويحس بها ولا يقربها، فعبر ليلة عليها فوقف عليه مترحما، وقال : والله لقد عهدتك صوَّاما قوَّاما، وإنما أعجبتك بغلات معاوية، وولى ودموعه هاوية .

وذلك بعد أن نهد عبد الملك إلى مصعب، ونهض كأنه جمل مصعب، فسار يتقدم فرسانه، ويتخطم في أرسانه ، ولم يثنِ همَّته فيما يصان به عرينها حصان عليها عقد در يزينها، إذ كان من قوم من عهد لؤي بن غالب، ما لوى به

(١) أبو قبيس وقيقعان : جبلان مشرفان على مسجد مكة، وجه أبي قبيس إلى قيقعان ومكة بينهما، أبو قبيس من شرقي مكة وقعيقعان من غربيها . (ياقوت : أبو قبيس)

(٢) تُختل : تخدع، والمخاتلة : الخداع والمراوغة .

غالب، إذا حاربوا شدوا دون النساء مآزرهم، وشد بصدق الحفيظة موازرهم، وأعمل الحيلة على مصعب، بكتب إلى أصحابه كتبها، وأعاجيب كذب كذبها [ص ٢٥٤] وكان الملتقى ، فخذل مصعبا أصحابه، وخزل جمعه حتى خلت منهم رحابه، فتركوه وأسلموه، وخلوه لمضارب السيوف وسلموه، وكان عبد الملك يكنى بأبي الذباب لبخره، كانت لثته تدمى دائما فيتغير ريحها، وكان مظفرا على أعدائه، فإنه غلب في أيامه على عدة رجال أكابر كلهم كانوا في زمانه يبارونه في السلطان، مثل عبد الله بن الزبير، والمصعب أخوه، وعمرو بن سعيد الأشدق، وعبد الرحمن بن الأشعث، فكل واحد منهم ما قام له معه قائمة، وكلهم قُتل وحكم قاضية، ومع هذا فلم ينفعه ولا أغنى عنه شيئا، حتى تمت أيامه، وأتاه حمامه، ، ويؤيد هذا خبر الرجل الذي ورد على معاوية وكان من أهل الكتاب والعلم بالحدثان، فقال له معاوية، أتجدني في شيء من كتاب الله، قال: أي والله، حتى لو كنت في أمة من الأمم لوضعت يدي عليك من بينهم، قال : فكيف تجدني، قال : أول من يحول الخلافة ملكا، والخشونة لينا، ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم، قال له معاوية: ثم يكون ماذا، قال : ثم يكون منك رجل شرَّاب للخمر، سفَّاك للدماء ،يصطنع الرجال، ويحتجن الأموال، ويجنب الخيول، ويبيح حرمة الرسول، قال : ثم ماذا، قال ثم تكون فتنة تتشعب تقوم حتى يفضى الأمر إلى رجل أعرفه بعينه، يبيع الدار الآخرة الدائمة بحظ من الدنيا مخسوس فيجتمع عليه من آلك، وليس منك، لا يزال لعدوه قاهرا، وعلى من ناوأه ظاهرا، ويكون له قرين أمين مبين، قال: أفتعرفه إن رأيته، قال: أشد ما أراه من بني أمية بالشام، قال : ما أراه هاهنا، فوجهه إلى المدينة مع ثقات من قومه، فبينما هو يمشي في أزقة المدينة إذ رأى عبد الملك يلعب بطائر على يده، قال: هاهوذا، ثم صاح به، أبو من، فقال: أبو الوليد، فقال: ياأبا الوليد، إن بشَّرتك ببشارة تسرك ما [ص ٢٥٥] يكون لي عندك، فقال: وما

مقدارها حتى أرى ما يكون مقدارها من الجعل، قال : أن تملك الأرض، قال: مالي من مال، ولكن أرأيت إن تكلفت لك جعلا أتاني ذلك قبل وقته، قال: لا، قال: إن حرمتك أيؤخر ذلك عن وقته، قال: لا، قال: فحسبك .

وكان عبد الملك من أكثر الناس علما وأبرعهم أدبا، وأحسنهم ديانة في شبيبته، وكان يواضب المساجد حتى سُمي حمامة المساجد، وكان لا يعيى بجواب إلا إن كلم أخاه عبد العزيز . حُكي أن عبد الملك استقبل أخاه عبد العزيز حين رجع من مصر على ألف جمل، فقال له: على كم كانت البدأة، فقال: على مائة، فقال عبد الملك: ما عير أحق بأن يقال لها : (أيتها العير إنكم لسارقون)[١] من عيركم هذه، فقال له عبد العزيز: (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل)[٢] .

وحكي عن عبد الملك أنه لما أراد الخروج إلى مصعب، تعلقت به عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وجعلت تبكي ، حتى بكى لبكائها حشمها، فقال : قاتل الله كثيرا، كان يرى موقفنا هذا حيث يقول :[٣]

[الطويل]

إذا همَّ بالأعداء لم يثنِ همَّهُ حَصَانٌ عليها عقدُ دُرٍّ يزينُها
نهتْهُ فلما لم ترَ النَّهْي عاقهُ بكت فبكى مما شجاها قطينُها

ثم خرج يريد مصعبا وكثّيِّر في موكبه، فقال : يا أبا جمعة، ذكرتك الساعة بيتين من شعرك، فإن أصبتهما فلك حكمك، قال : نعم، أردت الخروج فبكت عاتكة بنت يزيد، وبكى حشمها، فذكرت قولي، وأنشده البيتين، قال:

---

(١) يوسف ٧٠ .

(٢) سوسف ٧٧ .

(٣) الشعر لكثير عزة في ديوانه ص ٢٣١ ط بيروت ١٩٩٥ .

نعم، وأعطاه ما طلب، ثم نظر إليه في عرض الناس مفكرا، فقال : عليَّ بأبي جمعة، فجيء به، فقال: إن عرفتك بفكرتك فيمَ هي فلي حكمي؟ قال: نعم، قال : قلت في نفسك : أنا في شر حال، خرجت مع رجل من أهل النار، وليس على نحلتي، وربما أصابني سهم غَرْب[١] فأتلفني لغير معنى، قال: والله يا أمير المؤمنين ، ما أخطأت ما في نفسي، قال : فاحتكم، قال : حكمي أن آمر لك بعشرة آلاف درهم [ص ٢٥٦] وأردك إلى منزلك، ففعل به ذلك، فمدح كثير عبد الملك، فمما قال فيه :[٢]

[الطويل]

يجيئون بسَّامين طورا وتارةً	يجيئون عبَّاسين شوس الحواجب
من النفر البيض الذين إذا انتجوا	أقرَّت لنجواهم لؤي بن غالب
كريم يؤول الراغبون ببابه	إلى واسع المعروف جزل المواهب
إمام هدى قد سدد الله رأيهُ	وقد أحكمته ماضيات التجارب

والتقى عبد الملك ومصعب[٣] بالجاثليق، فبقي مصعب كلما قال لرجل :

(١) سهم غرب : لا يُدرى راميه .

(٢) ديوان كثير عزة ص ٤٦ .

(٣) مصعب بن الزبير : ابن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام، كان عونا لأخيه عبد الله في تثبيت ملكه بالحجاز والعراق، ولاه أخوه البصرة سنة ٦٧هـ، فضبط أمورها، وقتل المختار الثقفي، ثم عزله عنها مدة سنة، ثم أعاده وأضاف إليه الكوفة، وقصده عبد الملك بن مروان بجيوشه فكان مصعب يفل جيش عبد الملك، ثم خذل مصعبا قوادُه وأصحابه، وبعد قتال شديد قُتل مصعب عند دير الجاثليق على شاطىء دجيل من أرض مسكن، وحُمل رأسه إلى عبد الملك، كان كريما حسن السياسة، وبمقتله صفت الأمور لعبد الملك بن مروان سنة ٧١ هـ .

(الطبري وابن الأثير حوادث سنة ٧١هـ ، تاريخ الإسلام للذهبي ٣/١٠٨، ابن سعد ٥/١٣٥، رغبة الآمل في مواضع كثيرة)

احمل في خيلك، اعتل عليه، ولحق غالبهم بعبد الملك وبقي مصعب في شرذمة قليلة، وحمل عليه عبد الله بن زياد بن ظبيان، فرفع يده ليضربه، فبدره مصعب فضربه على البيضة، فنشب السيف في البيضة، فجاء غلام لعبيد الله فضرب مصعبا فقتله، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك، فخرَّ ساجدا، فقال عبيد الله : ما ندمت على شيء ندمي على عبد الملك حين سجد، إذ لم أضرب عنقه، فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد، وفي ذلك يقول :

[**الطويل**]

هممتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتني فعلتُ فأدمنتُ البكا لأقاربه
فأوردتها في النار بكر بن وائل وألحقتُ مَنْ قد خرَّ شكرا بصاحبه

وأما حديث قتل عمرو بن سعيد الأشدق، وأبوه سعيد بن العاصي، وكان يقال لعمرو لطيم الشيطان، فهو أن مروان لما قام بطلب الأمر عضده عمرو بن سعيد، واتفق معه على أن يكون له الأمر بعده، فلما كبر أمر مروان، صيَّر الأمر لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز، على أن يصير الأمر لعمرو بعدهما، فلما كاتب أهل العراق عبد الملك خرج نحوهم، وكان في العراق مصعب، فقال له عمرو: إن الأمر كان لي بعد مروان، ثم صيَّره لك، ولكن اكتب لي أنت به بعدك، فسكت عنه عبد الملك، وخرج لوجهه نحو مصعب، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل، كرَّ عمرو راجعاً في الليل إلى دمشق، وغلق أبوابها في وجه عبد الملك، وتسمى بالخلافة، فرجع عبد الملك [ص٢٥٧] حتى نزل على دمشق وحاصرها، فصالحه عمرو على أن يكون له الأمر من بعده، وأله مع كل عامل عاملا، ففتح دمشق، وكان بيت المال بيد عمرو، فأرسل إليه عبد الملك، أن أخرج أرزاق الحرس، فقال عمرو: إن كان له حرس، فإن لنا حرسا، قال: وأخرج لحرسك أيضا، فلما كان ذات يوم، أرسل عبد الملك إلى عمرو أن ايتني يا أبا

أمية حتى أدبر معك أمرا، فقالت له امرأته: لا تذهب إليه، فإني أخافه عليك، فقال : أبو ذبّان، والله لو كنت نائما ما أيقضني، فقالت : والله ما آمنه عليك، وإني لأجد ريح دم، فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه فشجها، وقام فلبس درعه تحت ثيابه، فلما أراد الخروج عثر بالبساط، ثم مضى، وكان معه أربعة آلاف في السلاح، وكان عمرو عظيم الكبر، لا يلتفت وراء ه ولو انطبقت الأرض إعجابا وزهوا، فلما وصل القصر الذي فيه عبد الملك، غُلِّقَتْ الأبواب، فلم يدخل معه إلا غلام، وهو لا يدري، فلما حصل لعبد الملك قال لغلامه: اذهب للناس ما به بأس، فقال عبد الملك : تريد أن تخدعني، خذوه، فلما أخذوه، قال له عبد الملك : إني أقسمت أن أعمل في عنقك جامعة، وهذه جامعة من فضة، أريد أن أبر بها قسمي، فطرحها في عنقه، ثم جذبه إلى الأرض بيده، فضرب فمه في جانب السرير، فانكسرت ثنيته، فجعل عبد الملك يتأملها، فقال عمرو: لا عليك يا أمير المؤمنين، عظم انكسر، ثم قال له : سألتك بالله يا أمير المؤمنين لا تخرجني إلى الناس على هذه الحالة، فقال له : مكراً أبا أمية، وأنت في الحديد، فبينما هو في ذلك، إذ جاءه المؤذن يؤذنه بالصلاة، فقام إليها، وقال لأخيه عبد العزيز : اقتله، فقال عمرو : يا عبد العزيز، لا تكن أنت من بينهم قاتلي، فتركه، فلما رآه عبد الملك جالسا، فلام عبد العزيز، ثم أخذ الحربة بيده وقال: قربوه إليّ، فقال عمرو : فعلتها يابن الزرقاء [ص ٢٥٨]، فقال له عبد الملك: لو علمت أنك تبقى ويسلم لي ملكي لفديتك بدم النواظر، ولكن قلَّ ما اجتمع فحلان على مذود[1] إلا بغى أحدهما على صاحبه، ثم ضرب بالحربة في صدره فلم تغن شيئا ، فضرب بيده على عاتقه، فأصاب الدرع تحت ثيابه، فقال : لقد كنت معتدا أبا أمية، اضربوا به الأرض، فصرع له، ووقف على صدره فذبحه، ولما

(١) المذود: معلف الدابة .

لم يخرج عمرو إلى الصلاة، قاتل أصحابه البوابين، وشُج الوليد بن عبد الملك، فلما رأى ذلك قبيصة بن أبي ذؤيب، قال لعبد الملك : ارمِ لهم بالرأس وانثر الدنانير عليهم ليشتغلوا ويتفرقوا، ففعل، وكان الأمر على ما قال ابن أبي ذؤيب، وذهب دم عمرو هدرا.

ويحكى أنه لما قتل عمرو بن سعيد وتسمى بالخلافة سُلم عليه[١] أول تسلمه، فالمصحف في حجره، فأطبقه وقال : (هذا فراق بيني وبينك)[٢]، وكان في عنفوان نسكه، صديق من أهل الكتاب يقال له يوسف، وكان قد أسلم، فقال له عبد الملك يوما، وقد مضت جيوش يزيد بن معاوية مع مسلم بن عقبة المري يريد المدينة الأخيل عدو الله، كيف يقصد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له يوسف : حسبك والله إلى حرم الله أكبر من جيشه إلى حرم رسول الله، فقال عبد الملك : عياذا بالله،[٣]، فقال له يوسف : والله ما قلت شاكا ولا مرتابا، وإني لأجدك بجميع أوصافك، قال عبد الملك : فيكون ماذا، قال : يتداولها رهطك إلى أن تخرج الرايات السود من خراسان .

وأمـا :

١٠٣ - عَبْدِ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وكان يكنى أبا بكر[٤]، ويكنيه من ذمه أبا خُبيب، فإنه لما قُتِل أخوه

---

(١) في الأصل : سلم عليه، مكررة من سهو الناسخ .

(٢) الكهف ٧٨ .

(٣) الكلام هنا فيه تكرار واضطراب .

(٤) عبد الله بن الزبير : ابن العوام القرشي الأسدي، أبو بكر، فارس قريش في زمنه، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة، شهد فتح أفريقية في زمن عثمان، وبويع له بالخلافة سنة ٦٤هـ، عقب موت يزيد بن معاوية، فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وجعل قاعدة ملكه المدينة، وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة، حتى سيروا إليه الحجـاج الثقفي في أيام عبد الملك=

مصعب، وبايع الناس عبد الملك، ودخل الكوفة، قال له لحجاج : يا أمير المؤمنين، إني رأيت في المنام كأني أسلخ ابن الزبير من رأسه إلى قدمه، فقال له عبد الملك : أنت [ص ٢٥٩] صاحبه، فأخرج معه الجيوش، فسار بها حتى نزل على مكة، ونصب المجانيق على أبي قبيس وعلى قيقعان، وما زال يحاصره ويضيق عليه، فلما كان في الليلة التي قُتِل في صبيحتها، جمع القرشيين، فقال لهم : ما ترون ؟ فقال رجل من بني مخزوم : والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقتلا، والله لئن صرنا معك ما نزيد على أن نموت، وإنما هي إحدى خصلتين، إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ولك، وإما أن تأذن لنا فنخرج، فقال له رجل : اكتب إلى عبد الملك، قال : كيف أكتب، من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الملك بن مروان، فوالله لا يقبل هذا أبدا، أو أكتب لعبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين، من عبد الله بن الزبير، فوالله ، لئن تقع الخضراء على الغبراء أهون عليَّ من ذلك، فقال له عروة بن الزبير، وهو جالس معه على السرير: يا أمير المؤمنين، قد جعل الله لك أسوة، قال : ومن هو، قال : الحسن بن علي، خلع نفسه وبايع معاوية، فرفع عبد الله رجله وركضه في رجله أرماه عن السرير، وقال : يا عروة، قلبي إذاً مثل قلبك، والله لو قلتها ما عشت إلا قليلا، وقد أخذتني الدنية، ولئن أُضرب بسيف من عز، خير من أن أُلطم في ذل، فلما أصبح دخل على امرأته أم هاشم بنت منظور، وهي التي يقول فيها الفرزدق، إذ نافرته زوجته النوار إلى عبد الله بن الزبير، فنزل الفرزدق على حمزة بن عبد الله بن الزبير، ونزلت زوجته النوار على بنت منظور بن زبان، فكان كلما أصلح

= بن مروان، فانتقل إلى مكة، وعسكر الحجاج في الطائف، ونشبت بينهما حروب انتهت بمقتل ابن الزبير في مكة بعد أن رمى الحجاج الكعبة بالمنجنيق ، وقد قتل وصلب سنة ٧٣ هـ، ومدة خلافته تسع سنين .

(الطبري ٧ / ٢٠٢، ابن الأثير ٤ / ١٣٥، اليعقوبي ٣ / ٢، فوات الوفيات ١ / ٢١٠، تاريخ الخميس٢ / ٣٠١، تهذيب ابن عساكر٧ / ٣٩٦، حلية الأولياء ١ / ٣٢٩، صفة الصفوة ١ / ٣٢٢)

حمزة من شأن الفرزدق عند أبيه نهارا، أفسدته زوجته أم هاشم ليلا، حتى غلبته النوار، ففي ذلك يقول :

[البسيط]

أما البنون فلم تقبل شفاعتُهم وشُفِّعَت بنت منظور بن زبَّانا
ليس الشفيعُ الذي يأتيكَ مؤتَزِراً مثل الشفيع الذي يأتيكَ عُريانا[ص ٢٦٠]

فلما دخل ابن الزبير على أم هاشم قال لها اصنعي لي طعاما، فلما صنعت له ذلك، أخذ منه لقمة فلاكها ثم لفظها، وقال : اسقوني لبنا ثم اغتسل وتحنط وتطيَّب، ثم أتى أمه أسماء ذات النطاقين، فقال : ما ترين يا أماه، فقد خذلني الناس ، فقالت : لا يلعب بك صبيان بني أمية، عش كريما، ومُتْ كريما، قال لها : إني أخشى أن يُمَثَّل بي بعد الموت، فقالت : إن الشاة لا تألم بالسلخ بعد الذبح، فقبَّل بين عينيها وودعها وخرج، وأسند ظهره إلى الكعبة، وجعل يقاتل، فلا يؤم جمعا إلا هدَّه، فقال رجل شامي اسمه خليوب : ألا يمكنكم أخذه إذا ولَّى، قيل له : فخذه أنت إذا ولَّى، قال : نعم، وهو يريد أن يحتضنه من خلفه، فعطف عليه فقطع ذراعيه، فصاح فقال : اصبر خليوب، ثم جعل يقول :(١)

قد جدَّ أصحابي ضرب الأعناق وصارت الحرب بينهم على ساق

فبينا هو يقاتل جاءه حجر من حجارة المنجنيق[وهم]يرتجزون :

خطَّارة مثل الفنيق المزبد يُرمى بها عُوَّاذُ أهل المسجد

ولما صرعه حجر المنجنيق، اقتحم عليه أهل الشام، فحملوه فذهبوا به إلى

(١) ينظر في رمي الكعبة ومقتل ابن الزبير كتاب المحن ص ١٥ وما بعدها تحقيق يحيى الجبوري ، ط دار الغرب الإسلامي .

الحجاج[1]، فدعا بالنطع وحزّ رأسه بيده، وبعث به إلى عبد الملك، ثم أتى الحجاج أمه ليعزيها فيه، قالت له : يا حجاج أقتلت عبد الله، قال لها : يابنة أبي بكر، إني قاتل الملحدين، قالت له :قاتل الموحدين، قال لها : كيف رأيتني صنعت بابنك، قالت : رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، ولا ضير إن الله أكرمه على يديك، وقد أُهدي رأس زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل .

وروى هشام بن عروة عن أبيه قال : كان عثمان بن عفان قد استخلف عبد الله بن الزبير على الدار، فبذلك ادّعى الخلافة . ثم لما صُلب ابن الزبير كان عبد الله بن عمر يقول لقائده : جنبني خشبة ابن الزبير، فوقف ودعا له وقال: إن علتك رجلاك ـ وكان [ص ٢٦١] منكسا ـ لطالما وقفت عليهما في صلاتك، وإن قوما كنت شرهم لقومٌ كلهم أخيار، ثم قال لأصحابه : أما والله، ما عرفته إلا صوّ اما قوّ اما، ولكن ما زلت أخاف عليه مذ رأيته أعجبته بغلات معاوية الشهب، وكان معاوية قد حج، فدخل المدينة وخلفه خمس عشرة بغلة شهباء عليها رحائل الأرجوان، فيها الجواري، عليهن الحلي والمعصفرات، ففتنت الناس.

وإذا انتهينا في ذكر ابن الزبير، فلنعد إلى تتمة أخبار عبد الملك بن مروان :

---

(١) الحجاج بن يوسف الثقفي : قائد سفاك خطيب، ولد ونشأ بالطائف، وانتقل إلى الشام فالتحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان، فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير، وقتل ابن الزبير وفرق جماعته، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق، والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى الكوفة وقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة، وبنى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة ، كان سفاكا سفاحا باتفاق معظم المؤرخين ، وعلى الرغم من جبروته فقد كان صغير الجثة دقيق الصوت أكتم الخلق أخفش حمش الساقين منقوص الجاعرتين، توفي سنة ٩٥ هـ. (المسعودي ٢ /١٠٣ ـ ١١٩ ، ابن خلكان ١ /١٢٣ ؛ ابن الأثير ٤ /٢٢٢، تهذيب التهذيب ٢ /٢١٠، البدء والتاريخ ٦ /٢٨، تهذيب ابن عساكر ٤ /٤٨)

قال المدائني : دخل عبد الملك على يزيد بن معاوية فقال له : يا أمير المؤمنين، إن لك أرضا بوادي القرى لا غلة لها، فإن رأيت أن تأمر لي بها، فقال يزيد : إنا لا نخدع عن صغير، ولا نبخل بكبير، قال : فإنها تغل كذا وكذا، قال: هي لك، فلما ولّى قال يزيد : هذا الذي يقال إنه يلي بعدنا، فإن كان ذلك باطلا ، فقد وصلناه، وإن كان حقا، فقد صانعناه .

وعن ذكوان قال :كان فقهاء المدينة يعدون أربعة منهم عبد الملك بن مروان . وعن نافع قال : لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميرا، ولا أملك لنفسه، ولا أظهر مروء ة ، من عبد الملك، قال : وكان يقال لعبد الملك حمامة المسجد لعبادته . وشكى بعض العمال إلى ابن عمر، وعبد الملك يصلي إلى سارية، فقال ابن عمر: لو وليهم عبد الملك هذا ما رضوا به، يضرب به المثل في الفضل والصلاح .

قال الشعبي : دخلت على عبد الملك فقلت : أنا الشعبي يا أمير المؤمنين، فقال : لو لم نعرفك لم نأذن لك، فلم أدرِ ما أقول، ثم قال : علِّم بني الشعر، فإنه ينجدهم ويمجدهم. وقال : وفدت على عبد الملك، فما أخذت بحديث أرى أنه لم يسمعه، إلا سبقني إليه، وربما غلطت في الشيء وقد علمه، فيتغافل عني تكرما .

وقال عبد الملك : شممت الطيب حتى ما أبالي رائحة ما وجدت، وأتيت النساء [ص ٢٦٢] حتى ما أبالي أرأيت امرأة أم حائطا، وأكلت الطعام، حتى ما أبالي ما أكلت، وما بقيت لي لذة إلا في محادثة رجل ألقي التحفظ بيني وبينه . وأوصى أهل مكة فقال : يا بني مروان، ابذلوا معروفكم، وكفوا أذاكم، واعفوا إذا قدرتم، ولا تبخلوا إذا سُئلتم، ولا تلحفوا إذا سألتم، فإنه من ضَيَّق ضُيِّق عليه، ومن وَسَّع وُسِّعَ عليه .

وقيل له : لقد شِبْتَ يا أمير المؤمنين، فقال : وكيف لا أشيب وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة، يعني الخطبة . وقال وقد قيل له هذا مرة أخرى: لقد شيبتني قعقعة لجام البريد، وصرير أعواد المنابر . وعن جويرية بن أسماء قال : كان لعبد الملك بيت مال لا يدخله إلا مالٌ طيب، لم يُظلَم فيه مسلم ولا معاهد، قد عرف وجوهه، فكان يصدق منه النساء ، ويشتري منه الإماء اللاتي يتخذهن أمهات أولاد، ويقول : لا أستحل أنكح إلا طيِّبا، فإن ذلك في الأولاد.

وحكى البلاذري أن عبد الملك كان يشتو بالصنبرة[١] من الأردن، فاذا انسلخ الشتاء نزل الجابية[٢]، فإذا مضت أيام من آذار دخل دمشق، حتى إذا حان حمَّارة القيظ أتى بعلبك، فأقام بها، حتى تهيج رياح الشتاء ، فيرجع إلى دمشق، فإذا اشتد البرد، خرج إلى الصنبرة.

وعن المدائني قال : رأى عبد الملك كأنه بال في الكعبة، فبعث إلى سعيد بن المسيب من سأله عنه، وقال له : لا تخبره أنني رأيته، فقال له الرجل : رأيت كذا، فقال له سعيد : مثلك لا يرى هذه الرؤيا، فرجع إلى عبد الملك فأخبره فقال: ارجع إليه فأخبره أني رأيتها، فرجع إليه فأخبره، فقال : يخرج من صُلبه من يلي الخلافة .

وعن حبيب بن منيع قال : جلست إلى سعيد بن المسيب يوما، والمسجد خال، فجاء رجل فقال : يا أبا محمد، رأيت في النوم كأني أخذت عبد الملك بن مروان، فوتدت في ظهره أربعة أوتاد، وتدا بعد وتد، فقال : ما أنت [ص ٢٦٣]

---

(١) الصُّنَّبْرة : موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال، كان معاوية يشتو بها .
(ياقوت : الصنبرة)

(٢) الجابية : قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان، قرب مرج الصفر في شمالي حوران .
(ياقوت : الجابية)

رأيت هذه الرؤيا، فأخبرني من رآها، قال : ابن الزبير، قال : الآن صدقت، وإن صدقت الرؤيا قتل عبدُ الملك عبدَ الله بن الزبير، وخرج من صلب عبد الملك أربعة كلهم يكون خليفة، قال: فرحلت إلى عبد الملك فدخلت عليه، وهو في الخضراء بدمشق، فأخبرته الخبر، وسألني عن ابن المسيب، ثم سألني عن دَيني، فقلت : أربع مائة دينار، فأمر لي بها من ساعته، ومائة دينار أخرى، وإبل أحملني عليها، وحمَّلني طعاما وزيتا وكساء ، فانصرفت راجعا إلى المدينة .

وقال عبد الملك بن مروان لسعيد بن المسيب : يا أبا محمد، صرت أعمل الخير فلا أسرُّ به، وأفعل الشر فلا أسأله، قال : الآن تكامل فيك موت القلب . وكان يقال : معاوية أحلم، وعبد الملك أحزم، وكان على ديوان الصدقة حتى كانت الفتنة .

وذكر البلاذري أنه لما ورد كتاب الحجاج على عبد الملك في أمر ابن الأشعث(١)، نزل عن سريره، وبعث إلى أبي هاشم خالد بن يزيد، فأقرأه

(١) عبد الرحمن بن الأشعث : عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، أمير من القادة الشجعان الدهاة، وهو صاحب الوقائع مع الحجاج الثقفي، سيَّره الحجاج بجيش لغزو بلاد رتبيل (ملك الترك) فيما وراء سجستان، فغزا بعض أطرافها، وأخذ منها حصونا وغنائم، وكتب إلى الحجاج يخبره بذلك وأنه يرى ترك التوغل في بلاد الترك إلى أن يختبر مداخلها ومخارجها، فاتهمه الحجاج بالضعف والعجز، فاتفق ابن الأشعث مع أصحابه على نبذ طاعة الحجاج، وبايعوا ابن الأشعث وعلى خلع الحجاج وإخراجه من أرض العراق، وخلعوا عبد الملك أيضا، وزحف بهم عبد الرحمن سنة ٨١ هـ عائدا إلى العراق لقتال الحجاج، ونشبت بينه وبين جيوش الحجاج وعبد الملك معارك ظفر بها عبد الرحمن، وتم له ملك سجستان وكرمان والبصرة وفارس (إلا خراسان)، ثم خرجت البصرة من يده، فاستولى على الكوفة ، فقصده الحجاج وحدثت بينهما وقعة (دير الجماجم) التي دامت مائة وثلاثة أيام، وانتهت بخروج ابن الأشعث من الكوفة، وتتابعت هزائم جيشه وتفرق من معه وبقي في عدد يسير، فلجأ إلى (رتبيل) فحماه مدة، فوردت عليه كتب الحجاج تهديدا ووعيدا إذا هو لم يقتل ابن الأشعث أو يقبض عليه، فأمسكه رتبيل وقتله وبعث برأسه إلى الحجاج، فأرسله إلى عبد الملك بالشام، وبعث به عبد الملك إلى أخيه بمصر سنة=

الكتاب، فلما رأى ما به من الجزع والارتياع قال : إنما نخاف الحدث من خراسان وهذا الحدث من سجستان فلا تخفه، ثم خرج عبد الملك على الناس، فقام خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : إن أهل العراق قد استطالوا عُمْري، فاستعجلوا قدرتي، فسلِّطْ اللهم عليهم سيوف أهل الشام حتى تبلغ رضاك . وصار الحجاج إلى البصرة فأقام بها، وعزم على لقاء ابن الأشعث، وجعل فرسان أهل الشام يأتونه أرسالا، في اليوم المائة والعشرة وأقل من ذلك وأكثر، وسار الحجاج فنزل الأهواز، وتلاقت المقدمتان، فانتصرت مقدمة الحجاج، فلما رأى ابن الأشعث ما فعل بأصحابه، عبر إلى أصحاب الحجاج، فاقتحم الناسُ خيولهم في دُجيل(١)، حتى صاروا إلى موضع الوقعة في يوم ضباب، لا يكاد الرجل يتبين فيه صاحبه، فهزم ابنُ الأشعث أصحابَ الحجاج، ودخل ابن الأشعث البصرة، ونزل الحجاج الزاوية(٢)، ثم اقتتلوا، وكان النصر لأصحاب الحجاج، وفُقِد ابنُ الأشعث [ص٢٦٤]، فأمر الحجاج فرفعت راية أمان، فأتوه طائعين، ودخل البصرة، وخطب خطبة قال فيها: " إن الله عز وجل لم ينصركم بأهل الشام على عدوكم، ولكنكم كنتم أهل الطاعة، وهم أهل المعصية، فنصركم

= ٨٥هـ.

(الطبري ٨ / ٣٩، ابن الأثير ٤ / ١٩٢، الأخبار الطوال ص٣٠٦)

(١) دُجَيْل : نهر مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت وبينها مقابل القادسية، دون سامراء ، فيسقي كورة واسعة وبلادا كثيرة . ودجيل الآخر نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس، والمراد هنا دجيل العراق .

(ياقوت : دجيل)

(٢) الزاوية : موضع قرب البصرة، كانت بها الوقعة المشهورة بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث، قُتل فيها خلق كثير من الطرفين، وهناك مواضع باسم الزاوية منها : قرية بين واسط والبصرة على شاطىء دجلة ، وقرية بالموصل من كورة بلد، وموضع قرب المدينة على فرسخين من المدينة كان فيه قصر مالك بن أنس رضي الله عنه . (ياقوت : الزاوية)

بغير حول منكم ولا قوة، فاحمدوا الله على نعمه، ولا تبغوا ولا تظلموا، وإياكم وأن يبلغني أن رجلا منكم دخل بيت امرأة ، فلا يكون له عندي عقوبة إلا السيف "، ثم أتى الحجاج بآل الأشعث، فلم يقتل إلا عبد الرحمن بن محمد الأشعث وابن عمه عبد الله بن إسحاق .

ودخل البراء بن قبيصة الثقفي على عبد الملك، وكان الحجاج قد طلبه لخروجه مع ابن الأشعث، فأنشده قوله :

[**الطويل**]

أرى كل جار قد وفى بجواره   وجار أمين الله في الأرض يخذلُ
فما هكذا كنتم إذا ما أجرتمُ   وما هكذا كانت أميةُ تفعلُ

فقال عبد الملك : صدقت ، وأمر الحجاج أن يمسك عنه . وكان عبد الله بن أنس قد قُتل مع الجارود، وكان شجاعا شديد البطش، حمل بخراسان بدرة بفمه فعبر بها نهرا، فلما بلغ الحجاج خبر مقتله، قال : لا أرى أنسا إلا بعين عليّ(١)، فلما دخل البصرة استصفى مال أنس، فلما دخل عليه قال : لا مرحبا ولا أهلا إيهاً يا شيخ ضلالة، جوال في الفتن مع أبي تراب مرة، ومرة مع ابن الزبير، ومرة مع ابن جارود، أما والله لأجردنّك جرد القضيب ، ولأعصبنّك عصب السَّلَمة، ولأقلعنّك قلع الصمغة، فقال أنس: من يعني الأمير؟ قال : إياك، أصمَّ الله صداك، فرجع أنس فأخبر[عبد الملك] بما لقي من الحجاج، فأجابه عبد الملك جوابا لطيفا، وكتب إلى الحجاج : " أما بعد، يابن أم الحجاج، فإنك عبدٌ طَمَّتْ بك الأمور حتى عدوت طورك، وتجاوزت قدرك، وأيم الله يابن المستعجمة بالزبيب، لأغمرنّك غمرة كبعض غمرات الليوث للثعالب، ولأخطبنّك خطبة تود لها أنك رجعت في مخرجك من بطن أمك، أما تذكر

(١) أي علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

حال آبائك بالطائف[ص ٢٦٥] حيث كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم، ويحتفرون الآبار بأيديهم في أوديتهم ومناهلهم، أم نسيت حال آبائك في اللؤم والدناء ة في المروة والخلع، وقد بلغ أمير المؤمنين الذي كان منك إلى أنس بن مالك جرأة وإقداما، وأظن أنك أردت أن تسبر ما عند أمير المؤمنين في أمره، فتعلم إنكاره أو إغضاء ه عنه، فإنْ سوَّغك ما كان منك مضيت عليه إقداما فعليك لعنة الله من عبد أخفش[١] العينين، أصك الرجلين، ممسوح الجاعرتين[٢]، ولولا أن أمير المؤمنين يظن أن الكاتب كثر في الكتاب من الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك، لأتاك من يسحبك على ظهرك وبطنك، حتى يأتي بك أنسا فيحكم فيك، فأكرم أنسا وأهل بيته، واعرف له حقه، وخدمته رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تقصر في شيء من حوائجه، ولا يبلغَنَّ أميرَ المؤمنين عنك خلاف ما تقدم فيه إليك من أمر أنس وبِرِّه وإكرامه، فنبعث إليك من يضرب ظهرك، ويهتك سترك، ويشمت بك عدوك، والقه في منزله متنصلا إليه، وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شاء الله ، والسلام " . وبعث بالكتاب مع إسماعيل بن عبد الله مولى بني مخزوم، فأتى إسماعيل أنساً بكتاب عبد الملك إليه فقرأه، ثم أتى الحجاج بالكتاب إليه، فجعل يقرأه ووجهه يتغير ويتمعر[٣]، وجبينه يرشح عرقا وهو يقول: يغفر الله لأمير المؤمنين، فما كنت أظنه يبلغ مني هذا كله، ثم قال لإسماعيل : انطلق بنا إلى أنس، قال إسماعيل، فقلت : يأتيك ، قال : فقم أذاً، فأتى أنساً، فأقبلا جميعا حتى دخلا على الحجاج، فرحب به الحجاج وأدناه، وقال : يا أبا حمزة، عجلت يرحمك الله باللائمة والتنكية[٤] إلى أمير المؤمنين قبل أن يعلم كل الذي لك عندي، إن

---

(١) الأخفش : الضعيف البصر .

(٢) الجاعرتان : حرفا الورك المشرفان على الفخذ، والجاعرة : الدبر .

(٣) يتمعر : يتغير وتعلوه الصفرة .

(٤) التنكية : من نكى العدو نكاية إذا أوقع به وهزمه وغلبه .

الذي فرط مني إليك عن غير نية ولا رضى بما قلت، ولكني أردت أن يعلم أهل العراق إذكان من ابنك ما [ص ٢٦٦] كان إذا بلغت منك ما بلغت كنت بالغلظة والعقوبة أسرع، فقال أنس : ما شكوت حتى بلغ الحقد، وقد زعمت أننا الأشرار، وسمانا الله جل وعز الأنصار، وزعمت أنا أهل النفاق، ونحن الذين تبوَّأوا الدار والإيمان، وسيحكم الله بيننا وبينك، فهو أقدر على العز لا يشبه الحق عنده الباطل، ولا الصدق الكذب، وزعمت أنك اتخذتني ذريعة وسلما إلى مساءة أهل العراق باستحلال ما حرم الله عليك مني، ولم يكن لي عليك قوة، فوكلتك إلى الله وإلى أمير المؤمنين، فحفظ من حقي ما لم تحفظه، فوالله إن النصارى على كفرهم، لو رأوا رجلا خدم المسيح عيسى بن مريم عليه السلام يوما واحدا، لعرفوا من حقه ما لم تعرفه من حقي، وقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، وبعد فإن رأينا خيرا حمدنا الله عز وجل عليه، وإن رأينا غير ذلك صبرنا والله المستعان، فرد الحجاج عليه ما كان قبض من أموالهم .

وأراد عبد الملك أخاه عبد العزيزعلى أن يخلع نفسه، فأبى، فكتب إليه يعتبه ويقول : احمل إليَّ خراج مصر، فكتب إليه : يا أمير المؤمنين ، إنَّا قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه بعدها قليلا، وإنَّا لا ندري أينا يأتيه الموت أولا، فإن رأيت ألا تغثث[١] عليَّ بقية عمري فافعل، فرق له عبد الملك وقال : لعمري لا فعلت ذلك ولا سؤت أخي، وقال لبنيه : إن يُرِد الله يُعطِكم إياها، ثم لم يلبث أن أتاه نعي عبد العزيز، فاسترجع وبكى، ووجم ساعة ثم قال : رحم الله عبد العزيز، فقد مضى لسبيله، ولابد للناس من عَلَم يسكنون له وقائم يقوم بالأمر بعدي، وكان مؤثرا للوليد من بنيه على حبه لكلهم، وكان الحجاج يكتب إليه بأن يعهد إلى الوليد، فعهد إلى الوليد ثم إلى

(١) تغثث : أي تفسد وتكدر .

سليمان، وكتب ببيعته إلى المدينة وسائر الآفاق [ص٢٦٧] . ثم مرض عبد الملك مرض موته، فقال بعض الأطباء إن شرب الماء مات، فاشتد عطشه، فقال : يا وليد اسقني، قال: لا أعين عليك، فقال : يا فاطمة اسقني، فقامت لتسقيه فمنعها الوليد، فقال للوليد[١] لتدعنها أو لأخلعنك، فقال : لم يبق بعد هذا شيء، فسقته، فخمد، وكان عبد الملك قد كرب للموت، فقال : اصعدوا بي أعلا الدار، فصعد، فرأى من كوة فيها قصّارا وحوله حمار له يرتع، فقال : يا ليتني كنت قصارا، يا ليتني كنت حمار القصار، فأتى الوليد يسأل عنه ، وفاطمة بنت عبد الملك تبكي، ففتح عبد الملك عينه وأنشد :

[**الطويل**]

ومستخبرٍ عنّا يريدُ لنا الردى ومستخبراتٍ والدموعُ تسيلُ

ثم طلب ابنه الوليد وقال له : إذا أنا مت فضعني في قبري ولا تعصر عينيك عصر الأمة، ولكن شمِّر وابرز والبس للناس جلد نمر، فمن قال برأسه كذا، فقل بسيفك هكذا، فقلَّ ما اجتمع فحلان في ذَوْد[٢] إلا بغى أحدهما على الآخر، فكن أنت الباغي، ثم بقي بمنتبهه يقول : إنه لا يجتمع فحلان في ذود، ولا سيفان في غمد .

ولد عبد الملك في رمضان سنة عشرين، وتوفي في نصف شوال سنة ست وثمانين، وعمره ثلاث وستون سنة، ومدة ولايته بعد مقتل ابن الزبير، وهي الخلافة المجمع عليها، ثلاث عشرة سنة، وثلاثة أشهر، وخمسة عشر يوما ، وكانت الفتنة نحو تسع سنين ، وقبره خارج باب الجابية بدمشق .

وقال شاعر يرثيه :

---

(١) في الأصل : فقال له الوليد، وهو خلاف المقصود .

(٢) الذود : معلف الدابة، والقطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشر .

[الطويل]

سقاك ابنَ مروان من الغيث مُسْبِل أجشُّ سماحيٌّ يجودُ ويهطلُ
فما في حياة بعد موتك رغبةٌ لحرٍ وإن كان الوليدُ يؤمَّلُ

ثم :

١٠٤ - دَوْلَةُ ابْنِه الوَلِيْدِ بن عَبْدِ المَلِك

أبي العباس(١)، عمَّر بيوت الله التي أذن أن ترفع، وسطر في صحفه من أجرها[ص ٢٦٨] ما ينفع، عمَّ المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ لها الرحال، ولمَّ شعثها في أيسر حال، وعني بمسجد دمشق، حتى انتاش من أيدي النصارى شطره، وكمل بالمساجد قطره، فقوَّم شقه المائل، واستسلم كافره المتحايل، فقام المؤذن لا يشوش عليه صوت ناقوس، والإمام لا يخلط عليه ترنم قسوس، وحسم في الشق المائل منه العلة، ونصب وجه المذبح إلى القبلة، وأصبح الدين كله لله من بعد ما أعرض ونأى بجانبه، وساء كفره جهد مناصبه، وعوض النصارى بما كان للمسلمين من نصف كنيسة مريم، وعوَّل على ما رآه، وصمم ثم أغرب بناءه، وأغرب سماءه، حتى رفع على السماك سمكه، ووضع بإزاء السماء حُبْكه، ولو

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان : أبو العباس، ولي بعد وفاة أبيه سنة ٨٦ هـ ، فوجه القواد لفتح البلاد، وكان من رجاله موسى بن نصير، ومولاه طارق بن زياد، فامتدت فتوحاته إلى الهند وتركستان وأطراف الصين، وكان ولوعا بالبناء والعمران ، منع المجذومين من مخالطة الناس، وأجرى لهم الأرزاق، وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام، وجعل لكل أعمى قائدا يتقاضى نفقاته من بيت المال، وأقام لكل مقعد خادما، ورتب للقراء أموالا وأرزاقا، وأقام بيوتا ومنازل للغرباء ، وسَّع مسجد المدينة وبنى المسجد الأقصى بالقدس، وبنى مسجد دمشق الكبيرالمعروف بالجامع الأموي، مدة خلافته تسع سنوات وثمانية أشهر، توفي سنة ٩٦ هـ .

(الطبري ٨ / ٩٧، ابن الأثير ٥ / ٣، تاريخ الخميس٢ / ٣١١، المسعودي ٢ / ١١٩ ـ ١٢٧، اليعقوبي٣ / ٢٧، بلغة الظرفاء ص ٢٣)

كـان هذا موضـع القـول لأطلـت وأطنبت وأمللـت، إلا أن الوليـد كـان يُعـاب لبـه بالفـراغ، ورأسه بخفـة الدمـاغ، كـان أخف مـن خطرة نسـيم، وأطيش من نار في هشيم، وكان يـتلجلج لحنا، ويتحرج ولا يقول كـلاما لا معنى لغالبه، مثل كلام النائـم أو السكران، هي ألفاظ إلا أنه لا يـفهمهـا الإنسان، فكان خفيـفا لحَّـاناً ، لا يقيم لسـانه خطاءً، ولا عـقله امتحـانا، وكـان على هـوجه الشـديد، وعـوجه عن النهج السديد، شديد المهابة مجيد الإصابة، سعـادة أخدمته بها الأقدار، وقدمته إليها أضعاف المقدار، وكان معظما لجانب الحَجَّـاج، حتى إنه كان أمكن عنده بما كان عند أبيـه عقدة، وأقرب مكانا ومـودة، وإمكانا في رخاء وشدة، وكـان الوليد إذا ذكـره قال : هـو الذي مـهَّـد لمنابرنا، وسـهَّد جفونه لنوم أكـابرنا، يعـدد صُنْعَـه السالف، وردعَـه المخالف ، ويرى أنه من أكرم زُلَفِه ، وأعظم ما جاءه الدهر بـه من تحفـه، وكـذلك كان الحجاج له صـدق ولاء لا يكـذب، وإجماع لا يشـذب، حتى إنه لما احتضر كتب إليه كتابا أودعه، ما فارقه به وودعه، زعـم فيه أن رضى الوليد سبب مفازه، وموجب دخوله إلى الجنة وجوازه ، وقال فيه : [ص٢٦٩]

[الطويل]

إذا لقـــيتُ اللهَ عـنيَ راضـــيـــا ... فـإنَّ سـرورَ النفسِ فـيـمـا هنالـكَ

ولما رجع الوليـدُ من جنازة أبيـه ، صعـد المنبر، فحـمـد الله واثنى عليـه، ثم قال : «لـم أرَ مثلها مصيبة، ولم أرَ مثله ثـوابا، فـإنَّـا لله وإنَّـا إليه راجعـون، لعظم المصيبة ، والحمـد لله على حسن العطية، إني قد كـفيت مـا كانت الخلفاء قبل تتكلم به، فـمـن كـان في قلبـه خِـبٌّ(٢) فليـمُت بـدائـه، ومن مـال أدبه أملنا رأسه».

وولى عـمر بن عبـد العزيـز المدينة، وأمره أن يبني مسجدها ويجعله مائتي

(٢) الخِب : الخداع والفساد .

ذراع، وبعث بالفَعَلة من الشام، وكتب إلى ملك الروم بأن يُعينه في بنائه، فبعث إليه بمائة ألف مثقال ذهب، ومائة فاعل، وأربعين حملا فسيفساء(١) مذهبة ، وبعث إلى عامله بمكة في عمل الفسيفساء، وترخيم الجدر بالمسجد، وبعث في عمارة المسجد الأقصى، وشرع هو في عمارة مسجد دمشق، وقال لأصحابه : أقسمت عليكم لما أتاني كل واحد منكم بلبنة، فجعل رجل من أهل العراق يأتيه بلبنتين، فقال له : ممن أنت ؟ قال من أهل العراق، فقال : يا أهل العراق، تفرطون في كل شيء حتى في الطاعة .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أصبغ بن محمد بن محمد بن لهيعة السكسكي، أن الوليد حين بنى مسجد دمشق، مر برجل ممن يعمل فيه وهو يبكي، فقال : ما قصتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، كنت رجلا جمّالا فلقيني يوما رجل فقال لي : أتحملني إلى مكان كذا، وذكر لي موضعا في البرية، فقلت : نعم، فلما سرنا بعض الطريق التفت إليّ فقال : إن بلغنا الموضع الذي ذكرته لك وأنا حي أغنيتك، وإن متُّ فاحمل جثتي إلى حيث أصف لك، فإن ثَمَّ قصرا خرابا ، فإذا بلغته فامكث إلى ضحوة نهار، ثم عد سبع شرفات من القصر، واحفر تحت ظل السابع قدر قامة، تجد بلاطة، فاقلعها تجد مغارة، ترى فيها سريرين على أحدهما رجلٌ ميت ، فاجعلني على السرير الآخر، واحمل ما معك مالا من المغارة وارجع إلى بلدك، فمات الرجل في الطريق، ففعلت ما أمرني به ، وكان معي أربعة جمال وحمارة، فأوسقتها كلها مالاً [ص٢٧٠] من المغارة، وسرت بعض الطريق، وكانت معي مخلاة، نسيت أملأها، وداخلني الشره، فرجعت بها، وتركت الجمال والحمارة، فلم أجد المكان، ورجعت فلم أجد الدواب، فبقيت أدور أياما، فلما يئست رجعت إلى دمشق، ولم أحصل على

(١) في الأصل جاءت :فستقليسا أولا و فسقيسا ثانيا.

شيء ، واضطرني الأمر إلى ما ترى أعمل في التراب كل يوم بدرهم، وكلما ذكرت حالي لم أملك نفسي أن أبكي ، فقال الوليد : لم يقسم الله لك من تلك الأموال شيئا، وإليَّ صارت وبنيت بها هذا المسجد .

وعزل المجذمين في مكان، وأعطاهم، وقال : لا يسألوا الناس، وأعطى كل مقعد خادما، وكل ضرير قائدا، وكان صاحب بناء واتخاذ مصانع، وكان عند أهل الشام من أفضل خلفائهم. قال ابن الأثير: وفتح في ولايته فتوحات عظام، منها الأندلس وكاشغر والهند، ثم قال : يمر بالبقال فيقف عليه يأخذ حزمة بقل فيقول : بكم هذه ، فيقول : بفلس، فيقول : زد فيها . قلت : وقد قيل إنه أول من تجبَّر من الخلفاء ، وقال الوليد : أنا أنفق على الكعبة وأكسوها وأطيبها، فعلامَ يأخذ بنو شيبة هداياها، لأمنعنَّهم إياها العام فأرمضهم، وخرج الوليد حاجا، فخرجوا يتلقونه، فوجدوا الحجاج معه، فقالوا له : أنت وإن كنت معزولا عنا، فإنك محمود عندنا، وحرمتنا ما لا تنكر، وقد بلغنا كذا، ففزعنا إليك، فقال : إذا دخلتم على أمير المؤمنين فتجنبوني عنده، ثم سلموا عليه خالي الوجه، ودعوني أكفيكموه، ففعلوا، فلما خرجوا قال الحجاج : على ما يدعُ هؤلاء وهدايا الكعبة، قال : قد أجمعت على أخذها، قال : فافعل، فاني أشرت بهذا على أمير المؤمنين عبد الملك فقال : أنا أبرأ إلى الله من هذا ، فقال الوليد : أنا أبرأ مما برأ منه أمير المؤمنين عبد الملك، وتركها لهم .

واستعمل عاملا له فأتاه رجل بنصيحة، قال : إن كانت لك رددناها عليك، وإن كانت لنا، فلا حاجة لنا فيها، قال : جار لي أخلَّ بمركزه، فقال: بئس الجار أنت، نحن ناظرون فيما ذكرت، فإن كنت صادقا [ص٢٧١] مقتناك، وإن كنت كاذبا عاقبناك، وإن أحببت أن نعفيك عفيناك، قال : اعفني، قال : قد فعلت.

وعن عامر بن عبد الأعلى، قال : حُدِّث الوليد أن جمع بين هند بنت الحسن

العميلقي، وبين جمعة بنت عابس الإيادي، فقيل لجمعة: أي الرجال أحبُّ إليك، [قالت]: الغليظ الكَتَد[1] ، الظاهر الجلد، الشديد الحدب المسد، ثم قيل لهند : أي الرجال أحب إليك، قالت : القريب الأمد، الواسع البلد، الذي يوفد إليه ولا يفد، فقال الوليد : من هذا الرجل، فقال له هشام بن عبد الأعلى الفزاري : أنت يا أمير المؤمنين .

وحكى المدائني قال : مرض الوليد بن عبد الملك فرهقته غشية ، فمكث عامة يومه عندهم ميتا، فبُكي عليه، وخرجت البُرُدُ بموته، فقدم رسول على الحجاج بذلك، فاسترجع ثم أمر بحبل فشد في يده، ثم أوثق إلى اسطوانة ، ثم قال : اللهم لا تسلط عليَّ من لا رحمة له، فطالما سألتك أن تميتني قبل أمير المؤمنين، فبينا هو كذلك، إذ قدم عليه بريد بإفاقته، فخرَّ ساجدا، وأعتق كل مملوك له، وتصدق بصدقة كبيرة، ولم يكن أحد أسرَّ بعافيته من الحجاج، وبعث إليه كتابا بالتهنئة، ومعه من تحف الهند وخراسان، ثم لم يمت الحجاج حتى ثقل على الوليد، فقال خادم للوليد : إني لأوضِّيه يوما لصلاة الغداة، إذ مد يده، فجعلت أصب عليها الماء وهو ساه، والماء يسيل، ولا أقدر أن أتكلم، ثم نضح الماء في وجهي وقال : أناعس أنت، ثم رفع رأسه إليَّ فقال: ويلك ، أتدري ما جاء الليلة ؟ قال : ويلك مات الحجاج، فاسترجعت، فقال : اسكت، فما يسر مولاك أن في يده تفاحة يشمها، وأنه لم يمت، ثم قال : رحم الله الحجاج، لقد كان منا أهل البيت .

وحج الوليد فوافاه محمد بن يوسف أخو الحجاج من اليمن، وحمل هدايا للوليد ، فقالت أم البنين بنت عبد العزيز امرأة الوليد : اجعل لي هدية محمد بن يوسف، فأمر [ص٢٧٢] بصرفها إليها، فجاء ت رسل أم البنين إلى محمد بن

---

(١) الكتد : مجتمع الكتفين .

يوسف بقبض الهدايا، فأبى وقال : لا أسلمها حتى يراها أمير المؤمنين، فغضبت ودخلت على الوليد فقالت: [لا حاجة][1] لي في هدايا محمد، فإنه بلغني أنه أخذها من الناس ظلما وغصبا، وإنه يسخرهم لعملها، فلما حملها إلى الوليد قال له : بلغني أنك اغتصبتها الناس وكلفتهم عملها وظلمتهم، فقال : معاذ الله، فأحلفه خمسين يمينا بين الركن والمقام أنه ما ظلم أحدا، ولا أصابها إلا من طيب، فحلف فقبلها الوليد، وبعث بها إلى أم البنين . ومات محمد بن يوسف باليمن ، أصابه داء انقطع منه .

واستند[الوليد] إلى حائط يلي زمزم، والفضل بن عباس بن أبي لهب يستسقي من زمزم ويقول:

[الرجز]

يا أيها السائلُ عن عليٍّ تسألُ عن بدرٍ لنا بدريٍّ
مردد في المجد أبطحيٍّ زمزم يا بوركت من طويٍّ
بوركتَ للساقيِّ والمسقيِّ أسقي على مأثرة النبيِّ

ثم أتى الوليد منها بماء فشربه ومسح منه على وجهه، ولم ينكر عليه قوله، إلا أنه لم يصله حتى كُلِّمَ فيه .

وعن مدرك بن حجوة، أن قوماً دخلوا على الوليد وعنده أخوه مسلمة، فشكوا أمرا من أمرهم، فلم يبينوا ولا أحسنوا العبارة، فتكلم رجل منهم فأفصح وأوضح، وعبر عن نفسه وعن القوم، فقال مسلمة : ما شبهت كلام هذا الرجل إلا بسحابة لبدت عجاجا. ولما مرض الوليد بن عبد الملك ذكر له موسى بن نصير طبيبا قدم معه من المغرب روميا، فأدخله عليه، وعنده ابن رأس البغل، ويقال :

(١) إضافة يقتضيها السياق، وكل ما جاء بين معقوفتين من زياداتنا ليستقيم المعنى

ابن رأس الحمار(١) طبيب عمه عبد العزيز بن مروان، وكان من أهل الإسكندرية، فتراطنا بالرومية، فقال أحدهما لصاحبه : ما تؤوِّله ؟ قال : السِلُّ، قال : صدقت، ودعا له صاحب موسى بفرخٍ ، فطُبِخ، وألقى عليه مرقة دواء ، وحشاه منه جُرَعاً، فلم يثبت في جوفه وقاءه ، وقال : لا أرى هذا وافقك، وعندي [ص ٢٧٣] ما هو أسهل منه، وأنا آتيك به غداً، فخرج من عنده وقال : والله لايصبح حياً ، فمات في السحر، وتوفي سنة ست وتسعين، وهو ابن تسع وأربعين ، وملك تسع سنين، ودُفن خارج باب الصغير بدمشق، وكان نقش خاتمه : اذكر الموت يا وليد، وقيل : بل كان : يا وليد إنك ميت .

ثم :

١٠٥ - دَوْلَةُ سُلَيْمَانَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوَان

أبي أيوب(٢)، وكان ألذ من غفوة النَّوَم، وحفوة اللُّوَم، لطيب زمانه، ووطي المخاوف بأمانه، وكان مفرط الغيرة، يؤاخذ بالظنون، وينابذ بريب المنون، سمع رجلا يرجِّع في الغناء فتوجَّعَ وقال : هذا رائد الزنا، وأمر بأن يخصى فجذ أُنثييه ، وبذ السوابق بما جنى عليه ، وكان مدة أبيه عبد الملك، وأخيه

---

(١) في الأصل : ابن رأس الحمال ، غير معجمة .

(٢) سليمان بن عبد الملك بن مروان : أبو أيوب، خليفة أموي ، ولد بدمشق ، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ ، وكان بالرملة، فلم يتخلف عن مبايعته أحد، فأطلق الأسرى وأخلى السجون، وعفا عن المجرمين، وأحسن إلى الناس، وكان عاقلا فصيحا طموحا إلى الفتح، جهز جيشا كبيرا وسيَّره في السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية، وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان وكانتا في أيدي الترك، مدة خلافته سنتان وثمانية أشهر، وتوفي في دابق من أرض قنسرين بين حلب ومعرة النعمان سنة ٩٩هـ .

(الطبري ٨ / ١٢٦ ، ابن الأثير ٥ / ١٤ ، اليعقوبي ٣ / ٣٦، تاريخ الخميس ٢ / ٣١٤ ـ ٣١٥، ابن شاكر ١ / ١٧٧)

الوليد مغرى بعيب الحجاج ، مُعَنًّى منه بما يكثر ريب اللجاج، وكان ينوي إن صارت إليه نوبة الخلافة، له نومة كل آفة، فمات قبل ذلك الحجاج، وفات الحجاج، فسبقت نية سليمان فعله، وسيفه عدله، وكان سليمان نهما لا يشبع، ملتهما يأكل مع اللقمة الإصبع، حتى استأسد واستسبع، وأكل ما طار بجناح أو مشى على أربع، وأمه وأم الوليد ولادة بنت العباس بن جزي العبسي، نشأ في أخواله بني عبس، ونأى في أحواله عن اللبس، وكان أبيض جعدا، كاد محيآه يندى، نظر يوما إلى المرآة وقد لبس حلة خضراء ، رفل في سندسها، ونحل نوار الخمائل من أنواره ضوء مشمسها، فقال : أنا الملك الفتى، أو قال : أنا الملك الشاب، لما داخله بالملك الإعجاب، ومرَّ في خروجه إلى مصلاه بجارية له كان بها كلفا، وبحبها شغفا، فلما قال لها هذا القول قالت :

[**الخفيف**]

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أنْ لا بقاء للإنسانِ[ص٢٧٤]
ليس فيما علمته فيك عيبٌ كان في الناس غير أنك فانِ

فتطير من قولها وتشاءم ، وراجع الفكر في هذا وداوم، ثم أتى المنبر فخطب فأسمع، ثم تقدم إلى المحراب، وصوته لا يتعدى له خرق مسمع، فعاد إلى منزله ساكنا يتوجع، وطلب تلك الجارية كالمنكر عليها، فأقسمت أنها لم تره ذلك اليوم أجمع، فعلم أنه نُعي ، وأنه إنما خرج ليودع، وكان ملك حُسْن وإحسان، وخليفة يمن وأمان، ولي سنة ست وتسعين ، فجاء جميل المذهب، كأنما أيامه الطراز المذهب، أبقى من حسن السيرة ذكرا لا يبلى، وأثرا لا يذهب، ملك أمره فما شعَّث ولا تشعب، وأنصف من الظالم فأخمد سورة من تشغب، وأخرج من المحبوس، ونزع عن المستورين لباس البوس، وكساهم حُلل الكرامة، وأنساهم بعدله ما مسَّهم من السآمة، ورد عنه بردهم الملامة، وأخذ الظلامة، وراقب الله

كأنما يتمثل وقوفه بين يديه يوم القيامة .

وكان الوليد أخوه ولاه فلسطين فأحدث مدينة الرملة، وبنى مسجدها، وأتاه نعي الوليد، وكان ولي العهد بعده، فخرج من فلسطين إلى دمشق، فكانت ولايته سنتين وثمانية أشهر، فأسف الرعايا على ملكه القصير، وزمانه الغض النضير، ولكن ليالي الوصل فيهن تقصير، ومات بدابق، ودُفِن بها وكُفِّن، ثم وُسِّد في مضاجع تُربها، وذلك في سنة تسع وتسعين، وكان يوم مات ابن خمس وأربعين، وحسبه من حسن الخاتمة في الدنيا والإمارة الدالة على تنقله في الدرجات العليا، أن صلى عليه الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز رحمه الله، ورحل من حرم الخلافة المستباح، إلى حرز الله الحريز، وكان له أولاد، منهم أيوب المكنى به، وكان من قريش عفافا وأدبا، وكان أبوه قد بايع له بالعهد، وكان مؤدبه وحاضنه عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر، وقال فيه جرير :

[**البسيط**]

إن الإمام الذي تُرجى فواضله ... بعد الإمام ولي العهد أيوبُ[ص٢٧٥]

وهلك في حياة أبيه، ورثاه عبد الله بن عبد الأعلى، بقصيدة يقول فيها :

[**الكامل**]

قد بان أيوبُ الذي لفراقه ... سَرَّ العدوَّ غضاضتي وتخشُّعي

أيوب كنتَ تجودُ عند سؤالهم ... وتظل منخدعا وإنْ لم تُخدَعِ

قال البلاذري : خرج سليمان إلى دابق[١] ليغزي منها، فأغزاهم وعليهم ابنه أيوب، ومعه مسلمة بن عبد الملك، وكان أيوب ولي عهده، فلما احتضر

(١) دابق : قرية قرب حلب من أعمال عَزَاز، بينها وبين حلب أربعة فراسخ، عندها مرج معشب نَزِه، كان ينزله بنو مروان إذا غزوا الصائفة، إلى ثغر المصيصة، وبه قبر سليمان بن عبد الملك .

(ياقوت : دابق)

سليمان قال : إن ابني أيوب بإزاء عدو، ولا أدري ما يحدث به، فإن أهمل الأمر إلى قدومه ضاع وانتشر، ولم تؤمن الفتنة على الناس في جميع الأقطار، ولعل الحدثان أن يكون قد غاله، على أني قد وليته العهد وأنا أظن أن عمري يطول وهو حَدِث، فولى عمر بن عبد العزيز، ولقد وفق في نظره الوجيه ورأيه الوجيز، فارق الناس على وجه جميل ، واختار لهم إماما لا يمين مع الهوى ولا يميل، عمر وما أدراك ما عمر، نزع من جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمير المؤمنين ، إلى أحسن السير، وعهد سليمان بعد عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك ثم أيوب إن كان بعد يزيد، وكره أن يخرجها من ولد عبد الملك فيختلفوا، وصوَّب رجاء بن حيوة(١) رأيه في ذلك، وقوّى عزمه وهو هالك، وتوفي أيوب في غزاته، وقيل إن أباه علم بمماته قبل وفاته، ففعل ما فعل، وما عسى يغني قول ليت أو لعل .

وقال المدائني : دخل رجل على سليمان بن عبد الملك فتكلم، فإذا أن يسبر عقله، فإذا هو مضعوف، فقال سليمان : زيادة منطق على عقل خدعة، وزيادة عقل على منطق هجنة، وأحسن ذلك ما زان بعضه بعضا، ومن كلامه : الحسود لا يسود . وقال سليمان ليزيد بن أبي مسلم : ما تقول في الحجاج، قال : يأتي يوم القيامة بين أبيك وأخيك، فضعه حيث شئت . وقال المدائني : دخل أيوب بن سليمان على أبيه فقال : ما لك يا بني، قال : خدرت رجلي، فقال : يا بني اذكر أحب الناس إليك، فقال : صلى الله [ص٢٧٦] على محمد، فقال سليمان :

---

(١) رجاء بن حيوة : ابن جرول الكندي، أبو المقدام، شيخ أهل الشام في عصره، من الوعاظ الفصحاء العلماء، كان ملازما لعمر بن عبد العزيز ، في عهد الإمارة والخلافة، واستكتبه سليمان بن عبد الملك، وهو الذي أشار على سليمان باستخلاف عمر، وله معه أخبار، توفي سنة ١١٢ هـ .(تهذيب التهذيب ٣ / ٢٦٥، حلية الأولياء ٥ / ١٧٠، ابن خلكان ١ /١٨٧، تذكرة الحفاظ ١ / ١١١، ابن خلدون٣ / ٧٤)

ابني سيد، وإني عنه لفي غفلة، فولاه عهده . وتذاكر هو ورجل كان يأنسه الملاذ، فقال سليمان : والله لقد أكلنا الطيب ، ولبسنا اللين ، وامتطينا الصافن، وأتينا العذراء ، فلم يبق من لذتي إلا صديق أطرح فيما بيني وبينه مؤونة التحفظ . وضم سليمان عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود إلى ابنه أيوب، فأتاه فحجبه، فجلس في بيته، فعتب أيوب عليه، فعاتبه عون، فغضب وشكاه إلى أبيه ولامه، فقال : ضممتني إلى رجل إن أتيته حجب، وإن جلست عنه عتب، وإن عاتبته غضب .

وكان سليمان يؤتى في كل يوم صلاة الغداة بعشر رقاقات وخروفين عظيمين ودجاجتين سمينتين ، فيأكل ذلك كله [لم] يخلِ فيه مرى . وحجَّ سليمان ، فقال لقيِّمه على طعامه : اطعمني من خرفان المدينة، أو قال من جدائها، ودخل الحمام ثم خرج، وقد شُوِي له أربعة وثمانون خروفا، أو جديا، فجعل القيِّم يأتيه بواحد واحد فيتناول جرما جزَّه، ويضرب بيده إلى شحم كليته، فأكل أربعة وثمانين جرما زجه بشحم أربعة وثمانين كلية، ثم قال : ادعُ يا غلام عمر بن عبد العزيز، وأذن للناس، ووضع الطعام فأكل معهم كما أكلوا. وأتى الطائف، فلقيه ابن أبي زهير الثقفي ، رجل من أهلها، فسأل أن ينزل عليه، قال : إني أخاف أن أنهمك ، قال : قد رزق الله خيرا كثيرا، فنزل عليه ، فجعل يأتيه من حائطه وهو فيه بخمس رمانات خمس رمانات، حتى أكل مائة وسبعين رمانة، ثم أُتي بخروف وست دجاجات، فأكل، ثم أُتي بمكوك[١] زبيب فأكله ثم وضع الطعام فأكل وأكل الناس ، وفتح ابن أبي زهير أبواب الحيطان، فأكل الناس من الفاكهة، فقال سليمان : قد أضررنا بالرجل، وأقام بالطائف سبعا ثم صار إلى مكة، فقال : الحقني ، فلم يفعل، فقيل له لو لحقته، قال : أقول ماذا،

---

(١) المكوك : مكيال يسع صاعا ونصفا .

أعطني ثمن طعامي .

وأتاه وهو بدابق رجل نصراني كان منقطعا [ص ٢٧٧] إليه من قبل الولاية، فقال له : هل أهديت لي شيئا، قال : نعم، وأتاه بزنبيل مملوء ا بيضا مطبوخا، وزنبيل ملؤه تينا، فجعل يقشر له البيض، فيأكل بيضة بتينة ، حتى أتى على الزنبيلين ، ثم أتوه بقصعة مملوء ة مخا مخلوطا بسكر، فأكل ذلك ومرض فمات .

وقال سليمان وقد ذكر عنده تشقيق الخطب والإسهاب : من أكثر القول وأحسن ، قدر على أن يُقِل فيحسن ، وليس من قصر فأحسن بقادر على أن يطيل فيحسن .

وقام إليه رجل وهو يأكل فقال : إني زوجت ابني، وليس عندي ما أجمع به أهله إليه، فاسلفني من بيت المال، فقال : ما يزال ماص لبظر أمه يقوم إلينا فيفسد علينا طعامنا، فتنحى الرجل وجلس، فلما فرغ من طعامه قال : قلت ماذا لله أبوك، فرد عليه مسألته، فقال : فكم عطاؤك ؟ قال : مائتا دينار، فقال : يا قسامة، أعطه مائتي دينار ، ومائتي دينار، ومائتي دينار، وطوّل نفسه وطوّل نفسه حتى انقطع، فنظر فاذا جميع ذلك قيمة اثنين وسبعين ألف درهم ، ثم قال : أيا رجل رضيت ؟ قال : نعم ، فرضي الله عنك يا أمير المؤمنين، فقال : يا قسامة، اضعفها له، فأخذ مائة ألف وأربعين ألف درهم .

وحدّث محمد بن سعد عن الواقدي قال : انصرف سليمان من صلاة الجمعة، فأكل شحم كلي أربعين جديا ، وصحيفة مملوء ة مخاً، وغير ذلك ثم جامع، فقام[1] عن الجارية موعوكا، فمات بدابق . وقال جرير : فياقوم، ما بالي

---

(١) في الأصل : فقال ، ولا يستقيم المعنى .

وبال ابن نوفل وبال بكائي نوفل بن مساحق[1]، ولكنها كانت سوابق عبرة على نوفل من كاذب غير صادق :

[الطويل]

فهلا على قبر الوليد سفحتها وقبر سليمان الذي عند دابقِ

قال المدائني : الثبت أن أيوب بن سليمان توفي بالشام، ولم يكن غازيا ، إنما كان الغازي مسلمة بن عبد الملك، وكان سليمان أراد أن يغزيه [ص٢٧٨] على الجيش فمرض، فلما احتضر أيوب، دخل عليه وهو يجود بنفسه ، ومعه عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة ، فجعل ينظر في وجهه فتخنقه العبرة فيردها، فلما قضى نحبه ودفن، وقف على قبره وقال :

[الطويل]

وقفتُ على قبرٍ مقيمٍ بقفرةٍ متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارقِ

ثم قال : السلام عليك يا أيوب :

[السريع]

كنتَ لنا أُنساً ففارقتنا فالعيشُ من بعدكَ مرُّ المذاق

ثم ركب دابته وقال :

---

(١) نوفل بن مساحق : ابن عبد الله الأكبر بن مخرمة القرشي العامري، أبو سعد، قاضي المدينة ، من التابعين، كان من أشراف قريش، نشأ بالمدينة وولي قضاءها ، وكان يلي جباية الصدقات فيقسمها ويطعمها ، ولا يرفع منها إلى الأمراء شيئا ، ولما قدم الوليد بن عبد الملك المدينة أجلسه معه على السرير إكراما له .

(نسب قريش ص ٤٢٧ ، الإصابة ترجمة ٨٩٠٠، تهذيب التهذيب ١٠ / ٤٩١ خلاصة تهذيب الكمال ٣٤٧، طبقات ابن سعد٥ / ١٧٩، السمط٣ / ٤٧)

[البسيط]

فـإنْ صـبـرتَ فلـم ألفظكَ من جـزعٍ   وإنْ جـزعتَ فـعِـلْـقٌ مُـنْـفِـسٌ ذهبـا

[ثـم] :

١٠٦ - دَوْلَةُ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيْزِ

ابن مروان(١) ، أبي حفص، ناهيك بفرد(٢) لا يقرن بتوأم، وملك كانت أيامه كالمنام، ورعاياه نوَّم تقابل في منابت أبيه وأمه، وتماثل بمناصب خاله وعمه، تكنَّفه من قبل الأبوَّة النسب الأموي، ومن قبل الأمومة الحسب العدوي، فطابت تبعته وطافت الأرض بأغضر الأنفاس سمعته، وأخذ نفسه بسلوك سيرة جده لأمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقارب فِعْلَ سَمِيِّه ، وقارن منهم ذلك الولي بوسميه(٣)، وجَدَّ فما قصَّر، ووجد محاسن ما تبصَّر،

(١) عمر بن عبد العزيز : ابن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص، الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له : خامس الخلفاء الراشدين، تشبها له بهم، ولد ونشأ بالمدينة، وولي إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك، وولي الخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ ، فبويع في مسجد دمشق، وسكن الناس في أيامه، فمنع سب علي بن أبي طالب، وكان مَنْ تقدمه من الأمويين يسبونه على المنابر، ولم تطل مدته ، قيل : دُسَّ له السم وهو بدير سمعان من أرض المعرة، فتوفي به، ومدة خلافته سنتان ونصف، وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة، وكان يدعى (أشج بني أمية)، رمحته دابة وهو غلام فشجته، وقيل في صفته : كان نحيف الجسم غائر العينين بجبهته أثر شجة، وخطه الشيب، أبيض رقيق الوجه مليحا، كتب ابن الجوزي سيرة عمر بن عبد العزيز، وكتب كثير من المعاصرين عنه مشيدين بفضائله، توفي سنة ١٠١ هـ.
(الطبري ٨ / ١٣٧، ابن الأثير ٥ / ٢٢، المسعودي ٢ / ١٣١–١٣٧، صفة الصفوة ٢ / ٦٣، تهذيب التهذيب ٧ / ٤٧٥، فواتالوفيات ٢ / ١٠٥، حلية الأولياء ٥ / ٢٥٣ _ ٣٥٣ اليعقوبي ٣ / ٢٤ المحبر ص ٢٧)

(٢) في الأصل : بفد، تحريف .

(٣) الولي : المطر يسقط بعد المطر. الوسمي : مطر الربيع الأول .

وقد كان من آثق بني أبيه تمتعا، حتى شمَّر وأنف إخوانه تمنعا حتى تأمَّر، فلما ولي ولي بتلك الزخارف، ولوى ورقات تلك المطارف وسئل عن مذاهب الراشدين ثم ما تعداها، وتجلبب تلك الخلائق الطاهرة وترداها، وأول ما بدأ به أمره أن بدَّل سبَّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله تعالى : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[1] ، وأبدل تلك السيئة بهذه الحسنة الباقية الإحسان[2]، وأزال تلك السيئة ومحاها، وأزاح ليلها الداجي بارتفاع ضحاها، فخلصت الذمم من إرهاقها، واستراحت المنابر مما كانت تحمله من إثم [ص٢٧٩] الخطيئة في أعناقها، وقنع بالقليل من القوت، طلبا لحلِّه، وسببا لتخفيف حمله، وهجر النساء منذ ولي، وقال لزوجته : إن رضيتِ بهذا وإلا فاعتزلي، ثم أمرها أن تردَّ إلى بيت المال ما كان أبوها عبد الملك نحلها، وألزم بمثل هذا سائر بني أمية واستعاد نفلها، وقال : هذه فواضل أموال لبيت المال لا تجوز أن تحتجز، ولا أن يؤخذ بأيديكم عبثا وتكتنز، ولقد أعطاكموها أئمة جور، أعطت ما لم تملك، وأعدت بالهلاك بها ما لم تهلك، وأخلص لله كل عمله، وخلاَّ كل أمله، وكان يُبرد البريد إلى المدينة لإبلاغ سلامه لساكنها عليه أفضل الصلاة والسلام، لا لشغل آخرله غيره خاصة، ولا لعامة الإسلام، ودام حميدا حتى وفي وما بلغ الأربعين، وأنشد باب الخير فلا له فاعل ولا عليه معين، ما طالت مدت، فما سلم حتى ودع، ولا أومض بارقه حتى انطوى، وكأنه لم يلمع، دُفن بخناصرة[3]، وغيب الحق في ذلك الثرى ناصره، ولم يقم بعده ملك لا إمام،

---

(١) النحل ٩٠ .

(٢) مقصود المؤلف واضح باستبدال الحسنة بالسيئة، وكان الصواب أن يقول : وأبدل بالسيئة الحسنة، لأن الباء يكون مع المتروك .

(٣) خناصرة : بليدة من أعمال حلب، تحاذي قنَّسرين نحو البادية، وهي قصبة كورة الأحصّ .
(ياقوت : خناصرة)

ولم يتم مثله في موضعه سقاه الغمام، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، واسمها ليلى ، وأمها بنت الأمراء، التي كانت تمذق اللبن بالماء ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينهاها فتنتهي بمحضره، ثم تعاود فعلها في مغيبه، وحديث ابنتها معها مشهود، وهو كان سبب تزويج عاصم بن عمر بها برأي أبيه عمر .

قال البلاذري: ولَّى سليمان بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز الخلافة، وكتب كتابا سمَّاه فيه ويزيد بن عبد الملك إن كان من بعده، فلما مات سليمان أخرج رجاء بن حيوة الكتاب، وأظهر اسمه ، وبايعه الناس بدابق، فقال لرجاء ذبحتموني بغير سكين ، وكان عمر بن عبد العزيز أشج، ضربه حمار وهو بمصر، فلما رآه أخوه الأصبغ [1]، قال : هذا والله أشج بني أمية الذي يملأ الأرض عدلا، وكانت خلافته ثلاثين شهرا، ووفاته وهو ابن تسع وثلاثين سنة، وتوفي في سنة إحدى ومائة، ودفن بدير سمعان[2]، وكان نزوله بخناصرة من عمل جند قنسرين، وبها وفاته، وصلى عليه رجاء بن حيوة الكندي، ويقال مسلمة

(١) الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان : أخو عمر بن عبد العزيز، أمير من بني أمية، كانت لأبيه إمرة مصر ، واستخلفه عليها مدة، توفي بالإسكندرية شابا، قبل وفاة أبيه سنة ٨٦ هـ .

• (النجوم الزاهرة ١ /١٩٣)

(٢) دير سمعان : هو دير بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين محدقة به، وعنده قصور ودور، وعنده قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وروي أن صاحب الدير دخل على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه بفاكهة أهداها له، فأعطاه ثمنها، فأبى الديراني أخذه، فلم يزل به حتى قبض ثمنها، ثم قال : يا ديراني، إني بلغني أن هذا الموضع ملككم، فقال : نعم، فقال : إني أحب أن تبيعني منه موضع قبر سنة، فاذا حال الحول فانتفع به، فبكى الديراني وحزن، وباعه فدفن به، فهو الآن لا يُعرف ، وقال كثيِّر :

سقى ربنا من دير سمعان حفرة بها عمر الخيرات رهنا دفينها

صوابح من مزن ثقال غواديا دوالح دهماً ماخضات دجونها

(ياقوت : دير سمعان)

بن عبد الملك، ولما ولي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : " أيها الناس، من صحبنا فليصحبنا بخير، يبلغنا حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ويدلنا من العدل على ما لم نهتدِ له، ويؤدي الأمانة إذا حملها، ويعيننا على الخير ويدع ما لا يعنيه، فمن كان كذلك فحي هلا به، ومن لم يكن كذلك فلا يقربنا " . قال أبو سنان ضرار : فحجبوا والله دونه ، قال : وهذا والله أول كلام تكلم به حين استخلف.

ولما ترعرع عمر بن عبد العزيز استأذن أباه في إتيان المدينة وقال : أحب أن أكتب العلم، وأحضر قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقرب عليَّ الحج، فأذن له في ذلك، فأتى المدينة . وقال الواقدي : أذن له أبوه في إتيان المدينة وقال له : اجتنب آل عبد الرحمن بن عوف، وآل سعيد بن العاص، فإن ثَمَّ شرارة وشرارة وسوء أخلاق، فكان يجالس أهل الفقه والورع . قال المدائني : أوصى عبد العزيز لعمر بأربعين ألف دينار، ودفعها إلى ابن رمانة، مولى لبعض أهل المدينة، فلما توفي عبد العزيز أتاه المال فقبضه، ثم ذهب ابن رمانة فحدث بذلك أبا بكر بن عبد العزيز، فغضب وكتب إلى عمر : إنك أخذت هذا المال دوننا، ثم شخص عمر من المدينة فقدم الشام، فلما استخلف الوليد بن عبد الملك وهو صهره، كانت أم البنين بنت عبد العزيز عنده، ولاه الوليد المدينة فأحسن السيرة، إلا أنه كان لبَّاسا عَطِرا، وإنما تقشف بعد ذلك، فكان يُعمل له ثوب الخز بمائة دينار فيستحسنه، ثم إنه كان يؤتى بالثوب الخشن بأقل من دينار أو بدينار، فيقول : ما أصنع بهذا، ايتوني بأخشن منه وأقل ثمنا، وكان ابن رمانة لمغاضبته إياه يرفع على عماله ويقع فيهم حين عُزِل عن المدينة، فقال عمر : لو أشاء أن آخذ كتاب الوليد إلى عامل المدينة في ضرب ابن رمانة مائة سوط، وحلق رأسه ولحيته، فقلت : ولكني رأيته يتقي الله مُنجًّى، وفي ولاية عمر المدينة يقول

الأحوص :[1] [ص ٢٨١]

[الكامل]

وأرى المدينة إذ وليتَ أمورها ... أمِنَ البريءُ بها وخاف المذنبُ

وقال أيضا :

وأرى المدينة حين كنت أميرها ... أمِنَ البريء بها ونام الأعزلُ

وأراك تفعلُ ما تقولُ وبعضُهم ... مَذِقُ الحديثِ يقولُ ما لا يفعلُ[2]

وكان عمر يساير سليمان بن عبد الملك، فرعدت السماء وبرقت، فقال عمر: يا أمير المؤمنين، هذه قدرة الله عند الرحمة ، فكيف بها عند العذاب . وقال عمر لرجل: مَنْ سيدُ قومك، فقال : أنا، قال : لو كنت كذلك ما قلته .

وقال المدائني : جمع عمر بني مروان ، فقال : يا بني مروان، إني أظن نصف جميع مال الأمة عندكم، فأدوا بعض ما عندكم إلى بيت مال المسلمين ، فقال هشام : لا يكون والله ذاك حتى تذهب أرواحنا، فغضب عمر وقال : أما والله يا بني مروان، إن لله فيكم ذبحا، ولولا أن تستعينوا عليَّ بمن أطلب هذا المال منه لأضرعت خدودكم .

وقال المدائني : كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه : إن مدينتنا تحتاج إلى مَرَمَّة، فكتب إليه : " أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، فحصن مدينتك بالعدل، ونقِّها من الظلم، والسلام " . وقال : كتب عمر إلى عبد الحميد[3] بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عامله على الكوفة :

(١) لم يرد البيت في ديوان الأحوص، والبيتان التاليان في ديوانه ص١٢٣ط بيروت ١٩٩٤ .

(٢) المذق : الذي لا يخلص الود، من مذق اللبن : إذا خلطه بالماء .

(٣) عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العدوي : أبو عمر، وال من أهل المدينة، ثقة في الحديث، استعمله عمر بن عبد العزيز على الكوفة، وتوفي بحرَّان في خلافة هشام سنة ١١٥ هـ .

(تهذيب التهذيب ٦ / ١١٩، العقد الفريد ٤ / ٤٣٦ــ٤٣٧ ، رغبة الآمل ٤ / ١٧٩)

اجتنب الحاجات عند حضور الصلوات ، والسلام . وقيل لعمر : أي الجهاد أفضل، قال : جهاد المرء هواه .

وقال المدائني ، قال رجاء بن حيوة : كنت عند عمر فكاد المصباح يطفى، فقمت لأصلحه، فقال : مَهْ، إن جهلا بالرجل أن يستخدم ضيفه، ثم قام، فوجد غلامه نائما فلم يوقظه، وتولى صلاح المصباح، ثم عاد، فقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، وقعدت وأنا ذاك .

قالوا : وكان عبد الملك[١] ابنه زاهدا خيِّرا، فقال له : يا بُني : لأ [ن] تكون في ميزاني أحبُّ إلى أن أكون في ميزانك، فقال : ولأن تكون ما تُحِب، أحبُّ إليَّ من أن تكون ما أحب، فلما مات عبد الملك خرج عمر إلى الناس وقد اكتحل، فسئل عنه فقال : [ص٢٨٢] قد سكن ورجاه أهله، وما كان في حال أحب إليَّ من حاله، ثم علم بموته، فقيل له : فعلت ما فعلت وقد مات، فقال : أحببت أن أرغم الشيطان، وانصرف من جنازته، فرأى قوما ينتضلون، فقال لبعضهم : أخطأت، فافعل كذا، فقيل له في ذلك، فقال : ليس في موت عبد الملك ما يشغل عن نصيحة المسلم، وكان سعيد بن مسعود المازني عاملا لعدي بن أرطاة على عُمان، فأخذ رجلا من الأزد مائة سوط في ناقة أرادها منه، فأتى إلى عمر، وشكا إليه، وأنشده قول كعب الأشقري :[٢]

---

(١) عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز : أمير أموي عاش ملازما أباه، ومات قبيل وفاته، وكان من أحب الناس إليه ، توفي بدير سمعان بالمعرة سنة ١٠١هـ .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ينظر فهرسته، الأعلام ٤ / ١٦١)

(٢) كعب لأشقرى : كعب بن معدان الأشقري، فارس شاعر خطيب، من شعراء خراسان، كان معدودا في جلة أصحاب المهلب بن أبي صفرة المذكورين في حروب الأزارقة، وهو من (الأشاقر) من الأزد، وله خبر مع الحجاج، سأله الحجاج : أشاعر أنت أم خطيب ؟ قال : كلاهما، توفي سنة٨٠هـ .(الطبري ٥ / ١٢٢ . ١٥٩ ، المرزباني ص ٣٤٦، السمط ص ٥٨٨، الأمالي ١ /٢٦٥، رغبة الآمل ٨ /١١٣)

[الكامل]

إن كنتَ تحفظُ ما يليكَ فإنَّما ... عُمَّالُ أرضِكَ بالعراقِ ذئابُ
لن يستقيموا للذي تدعو له ... حتى تضرَّب بالسيوفِ رقابُ
بأكفٍّ منصلتين أهلِ بصائرٍ ... في رفعهن مواعظ وعقابُ
لولا قريش نصرها ودفاعُها ... أمسيتُ منقطعا بي الأسبابُ

فقال عمر: لمن هذا الشعر، فقال: لرجل من أزد عُمان يقال له كعب فقال: ما كنت أظن أهل عمان يقولون بمثل هذا الشعر، فكتب إلى عدي بن أرطاة(١): إن استعمالك سعيد بن مسعود قدرٌ من الله قدره عليك، وبلية ابتلاك بها، فإذا أتاك كتابي، فابعث إليه من يعزله، وابعث به إليَّ مشدودا موثقا، فعزله واستعمل عبد الرحمن بن قيس، وحمل سعيدا إلى عمر، فلما دخل عليه، كلمه عمر فقال: أصلحك الله، أتكلمني وأنا موثق، أطلق عني حتى أتكلم بحجتي، فأطلق عنه، وقال للأزدي اضربه، فقال قُمير بن سعيد: أنا الذي ضربته، ولم يضربه أبي، قال: فاعطِ الأزدي سوطا، وقال عمر: قم فاجلده كما جلدك، فجلد قميرا مائة سوط، فقال له أبوه: يا قُمير اصرر أذنيك إصرار الفرس الجموح، وعضَّ على نواجذك، واذكر أحاديث عدوأتاك، وذكْر الله فإنه معجزة.

وقال المدائني، قال عمر: ما قرن شيء إلى شيء أحسن من علم إلى حلم، وعفو إلى مقدرة. قال، وقال عمر: تعلموا العلم فإنه زين للغني، وعون[ص٢٨٣] للفقير، لا أقول إنه يكسب به، ولكنه يدعوه إلى القناعة. وقال البلاذري: قدم

(١) عدي بن أرطاة الفزاري: أمير من أهل دمشق، كان من العقلاء الشجعان، ولاه عمر بن عبد العزيز على البصرة سنة ٩٩ هـ، فاستمر إلى أن قتله معاوية بن يزيد بن المهلب بواسط، في فتنة أبيه (يزيد) بالعراق، كان مقتل عدي سنة ١٠٢ هـ.
(اليعقوبي ٣/٥٣، الكامل للمبرد٢/١٤٩، رغبة الآمل٢/٢٦، ٧/١٥٩)

وفد على عمر من العراق، فنظر إلى شاب منهم يتهيَّأ للكلام، فقال عمر: ليتكلم أكبركم سنا، فقال الفتى : يا أمير المؤمنين، ليس الأمر بالسن، ولو كان كذلك، لكان في المسلمين من هو أسنُّ منك، قال : صدقت، فتكلم، فقال : إنَّا لم نأتك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فأتتنا في بلادنا، ودخلت علينا منازلنا، وأما الرهبة فإنَّا قد أمناها بعدلك، قال : فما أنتم ، قال : نحن وفد الشكر، فنظر محمد بن كعب القرظي إلى وجه عمر يتهلل، فقال : يا أمير المؤمنين، لا يغلبن جهالة القوم، بل معرفتك بنفسك، فإن من الناس ناسا غرهم الستر، وخدعهم حسن الثناء ، وأنا أعيذك بالله أن تكون منهم، فبكى عمر رحمه الله.

وقال البلاذري : وفد جرير على عمر بن عبد العزيز، فغبر حينا لا يصل إليه، ثم رأى ذات يوم عون[١] بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، يريد الدخول عليه، وقال : وكان قارئا، فقام إليه جرير فقال له :

[البسيط]

يا أيها القارئ المرخي عمامته ... هذا زمانك إني قد مضى زمني

أبلغ خليفتنا إن كنتَ لاقيهُ ... إني لدى البابِ كالمقرون في قَرَنِ

فقال له عون : إن أمكنني ذلك فعلت إن شاء الله، فلما دخل عون على عمر، سلم وجلس، حتى فرغ من حوائج الناس، ثم أقبل عون عليه فقال : يا أمير المؤمنين، إن ببابك جرير بن عطية الشاعر، وهو يطلب الإذن، فقال عمر: أويمنع أحد من الدخول عليَّ ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، ولكنه يطلب إذنا خاصا

---

(١) عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي: خطيب راوية ناسب شاعر، كان من آدب أهل المدينة، وسكن الكوفة فاشتهر فيها بالعبادة والقراءة، وكان يقول بالإرجاء، ثم رجع، خرج مع ابن الأشعث ثم هرب، وصحب عمر بن عبد العزيز في خلافته، توفي سنة ١١٥ هـ.
(تهذيب التهذيب ٨ / ١٧١، حلية الأولياء ٤ / ٢٤٠، البيان والتبيين ١ / ١٧٨)

ينشدك فيه، فقال : يا غلام ، ادخل جريرا، فأُدخل عليه، وعون جالس، فأنشد جرير :(١)

[البسيط]

أأذكر الجهدَ والبلوى التي شملت أم أكتفي بالذي أبليت من خبري

كم بالمواسم من شعثاء أرملةٍ ومن يتيمٍ ضعيف الصوتِ والنظر

ممّن تُرجّى له من بعد والده كالفرخِ في العُش لم ينهض ولم يطِرِ

فبكى عمر حتى بلّت دموعُه لحيته، وأمر بصدقات تفرق على الفقراء [ص٢٨٣] ، فقال جرير :

هذي الأراملُ قد قضّيتَ حاجتها فمن لحاجة هذا الأرمل الذكرِ

فقال له : يا جرير، أأنت من المهاجرين الأولين ؟ قال : لا ، قال : أفمن أولاد الأنصار؟ قال : لا، قال : أفمن أولاد التابعين بإحسان ؟ قال : لا، قال : أفمن فقراء المسلمين فنجزيك على ما نجزي عليه الفقراء؟ قال : قدري فوق ذلك ، فقال : يا جرير، ما أرى لك بين الدفتين حقا، فولى جرير، فقال عون : يا أمير المؤمنين، إن الخلفاء كانت تعوِّد الإحسان، وإن مثل لسانه يُتّقى، فقال عمر: رُدّه، فرُدّ، فقال : يا جرير، إن عندي من مالي عشرين دينارا، وأربعة أثواب، فأقاسمك ذلك ؟ فقال : بل نوفر يا أمير المؤمنين ونحمد، فلما خرج تلقاه الناس فقالوا: ما وراء ك، قال : خرجت من عند رجل يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء، وإني له لحامد، ولم يذكره بسوء، ورثاه حين مات .

وقال البلاذري : كتب عدي بن أرطاة إلى عمر يستأذنه في عذاب قوم من عمال الخراج امتنعوا في أداء ما عليهم، فكتب عليه : " أما بعد، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر، كأني جُنّة لك من عذاب الله، أو

(١) الشعر في ديوان جرير من قصيدة ص ٢٩٩ ط بيروت ١٩٩٤، مع خلاف في الرواية .

كأنَّ رضاي يُنجيك من سخط الله، فمن أعطاك ما قبله عفواً فاقبله منه، ومن قامت عليه البيِّنة، فخذه بما تثبت البينة عليه، ومن أنكر فاستحلفه، فوالله لأن تلقوا الله بجناياتهم، أحب إليَّ من أن ألقاه بعذابهم ، والسلام " .

وقال كاتبه إسماعيل بن أبي حكيم[١] : ما كتبت له قط في أكثر من شبر، حتى خرج من الدنيا . ودخل عليه مسلمة بن عبد الملك[٢] في مرضته التي مات فيها، فقال : ألا توصي بمعروف يا أمير المؤمنين ؟ قال : بمَ أوصي، والله ليس لي مال، قال مسلمة : هذه مائة ألف فمُرْ فيها بما أحببت، قال : أو تفعل؟ قال : نعم، قال : ترد على من أخذت منه ظلما، فبكى مسلمة وقال : رحمك الله ، لقد ألنت منَّا [ص ٢٨٥] قلوبا قاسية ، وأبقيت لنا في الصالحين ذكرا .

[تم] :

١٠٧ - دَوْلَةُ يَزِيْدَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوَان

أبي خالد[٣]، عريق في العظام البالية، حقيق بالملك ، أبواه مروان ومعاوية، بايعه بالعهد أخوه سليمان، وقد كان همَّ بهذا أبوه عبد الملك بن مروان ، وقال

(١) إسماعيل بن أبي حكيم :القرشي بالولاء، كاتب من ثقات أهل الحديث، قال ابن الأثير : كان كاتب عمر بن عبد العزيز ، وقال ابن حجر : كان عاملا له ، توفي سنة ١٣٠ هـ .
(تهذيب التهذيب ١ / ٢٨٩، ابن الأثير حوادث سنة ١٣٠هـ)

(٢) مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم : أمير قائد من أبطال عصره، من بني أمية في دمشق، يلقب بالجرادة الصفراء ، له فتوحات مشهورة، سار في مائة وعشرين ألفا لغزو القسطنطينية في دولة أخيه سليمان بن عبد الملك، وبنى مسجد مسلمة بالقسطنطينية سنة ٩٦ هـ، وولاه أخوه يزيد إمرة العراقين وأرمينية، وغزا الترك والسند سنة ١٠٩ هـ ، قال الذهبي : كان أولى بالخلافة من سائر إخوته، توفي بالشام سنة ١٢٠ هـ .
(نسب قريش ص ١٦٥، دول الإسلام ١ / ٦٢، ابن العبري ص ١٩٦ ـ ١٩٩، تهذيب التهذيب ١٠ / ١٤٤، المرزباني ص ٣٧٢، رغبة الآمل ٥ /١٦، ٦٤، ١١٨)

(٣) يزيد بن عبد الملك بن مروان : أبو خالد، من خلفاء الدولة الأموية بالشام، ولد في دمشق، وولي=

سليمان : إذ عهد إليه بعد عمر بن عبد العزيز : لولا إني أخاف اختلاف بني مروان ووقوع الفتنة ، ما وليت يزيد، ولاقتصرت على عمر بن عبد العزيز، وقال عمر حين احتضر : لو اخترت للأمة غير يزيد كان ذلك أولى، ولكني أخاف إن أخرجها من بني عبد الملك أن تقع فتنة وفرقة، وأنا أولي سليمان ما تولى[1]، والمسلمون أولى بالنظر في أمرهم .

وهو[2] أول من غالى بالقيان، وعالى بتشييد هذا البنيان، وما منع هواه عن قينة، ولا قطع في غير مناه آونة ولا فينة، وانعكف على اللهو والطرب، والزهو بخرائد العرب، ولبث مدة ملكه بين النساء يجر ذيول الغانيات، ويسرهن باينات ودانيات، عشق سلامة[3] وحبابة[4]، وطفق على المدامة والصبابة، فظل

= الخلافة بعد وفاة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ ، بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك، وكانت في أيامه غزوات ، وخرج عليه يزيد بن المهلب بالبصرة، فوجه إليه أخاه مسلمة بن عبد الملك فقتله، كان أبيض جسيما مدور الوجه مليحه، فيه مروءة كاملة ، مع إفراط في الانصراف إلى الملذات، ومات في إربد من بلاد الأردن، أو بالجولان بعد موت قينة له اسمها (حبابة) بأيام يسيرة ، وحمل إلى دمشق فدفن فيها، وكان لحبابة هذه أثر في أحكام التولية والعزل على عهده، أمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وكانت خلافته أربع سنين وشهرا، وفاته سنة ١٠٥ هـ .

(الطبري ٨ / ١٧٨ ، ابن الأثير٥ / ٤٥ ، النجوم الزاهرة ١ / ٢٥٠ ، تاريخ الخميس ٢ / ٣١٨ ، اليعقوبي ٣ / ٥٢ ، المسعودي٢ / ١٣٧ ، بلغة الظرفاء ص ٢٥)

(١ في العبارة غموض، ولعل المقصود : وأنا لولا سليمان ما توليت .

(٢) أي يزيد بن عبد الملك .

(٣) سلامة : وتعرف بسلامة القس، مغنية شاعرة من مولدات المدينة، نشأت بها، وأخذت الغناء عن معبد وطبقته، فمهرت في الغناء ، وحذقت الضرب على الأوتار، وقالت الشعر الكثير، وشغف بها عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي [من قراء مكة) الملقب بالقس، لكثرة عبادته، وكان تابعيا فنسبت إليه ، وسمع بها يزيد بن عبد الملك فاشتراها ، فانتقلت إلى دمشق، وبقيت عنده إلى أن توفي، وكان يقدم عليها حبابة، توفيت سلامة سنة١٣٠هـ .

(الأغاني ٨ / ٣٣٤ ، الدر المنثور ص ٢٥٠ ، أعلام النساء ٢ / ٦٢٦)

(٤) حبابة : جارية يزيد بن عبد الملك ، مغنية من أحسن من رؤي في زمانها، ومن أحسن الناس=

يرتشف ثغر قدح أو جارية، لا يطبي شيخ ولا جازية، كأنَّ العرب ليسوا من آبائه، أو بالعرب ليسوا على آبائه، وعمد يزيد إلى كلما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لا يوافق رأيه، ولا يوافق تنكبه عن الحق ولاء ه، فرده إلى ما كان عليه قبل عمر، وعدَّه من إحسان ما أمر، ولم يخَفْ فيه إثماً في دنيا ولا آخرة، ولا كلما ظلماً تبع به أوائله واستلحق أواخره إصرارا على الحنث العظيم، واغترارا بالله الحليم، هذا وهو كريم يقفى على منهجه، ويعفى صنايع السحاب بانصباب خلجه، وله فتوة ما أخلق انهماكه على الطرب بردها، ولا أخلف عهدها، لما خلق في عنصره القرشي طباعا، وأطبق على جوهره الأموي شعاعا .

حكى المدائني عن محمدبن خالد، قال : [ص ٢٨٦] كان لسعيد بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسد قصر بحيال قصر يزيد بن عبد الملك، فكان يزيد إذا ركب إلى الجمعة، توافيا إلى موضع واحد، فقال له يزيد في بعض الجمع : ما أراك تخل في جمعة واحدة، فقال له سعيد : إن قصري بحيال قصرك، فاذا ركبتَ ركبتُ فتلاقينا في هذا الموضع، فقال يزيد : فإن لي إليك حاجة ، قال : إذاً لا يُرَد عليها أمير المؤمنين، قال : تهبني قصرك، قال : هو لك يا أمير المؤمنين، قال يزيد : فلك به خمس حوائج، قال سعيد : أن تُردَّقصري عليَّ، قال : نعم قد فعلت، فاذكر الأربع، فذكرها سعيد، فقضاها له يزيد .

وها أنا أذكر شيئا من أمره مع سلامة وحبابة : أما سلامة فكانت لرجل من أهل الكوفة اشتراها سهيل الزهري، ثم اتصلت بيزيد، وكان يعرف بسلامة

= وجها، وأكملهم عقلا وأدبا، قرأت القرآن ، وروت الشعر، وتعلمت العربية، وهي مولدة كانت لرجل من أهل المدينة يعرف بابن رمَّانة، خرَّجها وأدبها، فأخذت الغناء عن سريج وابن محرز وطبقتهما، فاشتراها يزيد بأربعة آلاف دينار، فغلبت على عقله ، وشغل بها ، ثم ماتت فحزن عليها ، ومات بعدها بأربعين يوما ، سنة ١٠٥ هـ.

(أعلام النساء ١ /١٩٥، الأعلام ٢ /١٦٣، الأغاني ينظر فهرسته)

القس، لأنه كان يهواها صفوان بن أمية الجمحي العابدالمسمى بالقس(١) لعبادته، هوى لا يكدره أثام، ولا يغيره إن هواؤه مرت ريحه على حرام، وله فيها شعر منه :

[الكامل]

مـا بالُ قلبكَ لا يزالُ يهيجه ... ذكرى عواقب غبهنَّ سقامُ
باتتْ تعللنا وتحسبُ أنّنا ... في ذاك أيقاظٌ ونحن نيامُ
حتى إذا سطع الصباحُ لناظرٍ ... فإذا وقربكِ بيننا أحلامُ
قد كنتُ أعذرُفي السفاهة أهلَها ... فاعجب بما تأتي به الأيامُ
فاليوم أعذرهم وأعلمُ أنما ... سُبُل الضلالة والهدى أقسامُ

وأما حبّابة فكانت تسمى العالية، كانت لرجل من الموالي بالمدينة، ثم اشتراها يزيدوكان بكل واحدة منها كلفا هائما لا يقبل فيها عاذلا ولا لائما، قد قصر على مجالستهما زمانه، وعلى مؤانستهما بيانه، صادف هواهما قلبه فارغا فتمكن في سويدائه، وتوطن به شغفه بهما حتى صار أكبر دائه .

[ثم]

١٠٨ – دَوّلَةُ هُشَامِ بنِ عَبْدِ المَلِك

أبي العباس[ص ٢٨٧] ملك همام(٢)، وفلك لا يطاوله يَذبُل ولا

(١) وهم المؤلف في اسم القس، ففي ترجمة سلامة أن الذي كان يهواها هو عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي الملقب بالقس، وليس صفوان بن أمية الجمحي لأن صفوان توفي قبل هذا العصر كانت وفاته سنة ٤١ هـ، وهو من أشراف قريش في الجاهلية والإسلام . ينظر تهذيب التهذيب ٤ / ٤٢٤ وتهذيب ابن عساكر ٦ / ٤٢٧ .

(٢) هشام بن عبد الملك بن مروان : من خلفاء الدولة الأموية بالشام، ولد في دمشق، وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥ هـ . وخرج عليه زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢٠ هـ بأربعة عشر ألفا=

شَمَام[1]، بعزمة لا يفرى فريها، وهمة لا يقصر عبقريها، هو الأحول الحُوَّل، المنوَّه والمنوَّل، وهو واحد القوم ولا لوم، لم يكن في القوم أحوط منه حزما، ولا أحوج إلى أن لا يجد عزما، بما طاوعته المقادير وتابعته، لا يلوي بالمعاذير، ومنه البقية الأموية الداخلة إلى الأندلس أيام السفاح الداخرة، لخوفها في قصوره تحت العمد والصفاح، حتى هبَّت ريحها، وذهبت فيحها، وإنما كانت بقية من سعادته ردت على الأعقاب، وردت ملابس الملك الجدد للأعقاب، حتى توقد جمرهم الخامد .

وكان هشام فحل بني مروان، عزمة لا يفت في عضدها، وهمة لا يفوت حصول مقصدها، ولقد كان المنصور على اتساع علمه، وإجماع الناس على حزمه، يعظم شأن هشام إذا ذكره، وإذا ذُكر في مجلسه شكره، ولا يكشف العوايد إلا من دواوينه، وثوقا بضبطه، ووقوفا في أمور الملك على شرطه، وجمع هشام من الأموال ما طاول جدر الخزائن اعتلاء، وأخرج صدور البيوت امتلاء ، وأحوج الشمس أن لا يظهرها اجتلاء، إلا أنه كان مفرطا في البخل، لو تخيَّلَ أن له شبيها في ضنانته بخل، كانت يده مغلولة ، ومدده كلها لا يرى له فيها صُرَّة محلولة، ما عرفت أنامله يوما بسطا، ولا نائله مكانا إليه يتخطى، إلا أن رأيه

= من أهل الكوفة، فوجه إليه من قتله وفل جمعه، ونشبت في أيامه حروب هائلة مع خاقان الترك في ما وراء النهر، انتهت بمقتل خاقان واستيلاء العرب على بعض بلاده، كان هشام حريصا، اجتمع في خزانته ما لم يجتمع في خزانة أحد من خلفاء بني أمية، بنى الرصافة على أربعة فراسخ من الرقة غربا، وهي غير رصافة بغداد والبصرة، وكان يسكنها في الصيف، وتوفي فيها، كان حسن السياسة يقظا في أمره، يباشر الأعمال بنفسه، كان سمينا أحول حليما ذا حزم ورأي، توفي سنة ١٢٥ هـ .

(الطبري ٨ / ٢٨٣، ابن الأثيره / ٩٦، تاريخ الخميس ٢ / ٣١٨، ٣٢٠، المسعودي ٢ / ١٤٢ – ١٤٥، اليعقوبي ٣ / ٥٧)

(١) يذبل وشمام : جبلان مشهوران بنجد في طريقها، وهما لباهلة . (ياقوت : يذبل، شمام)

كان يصيب المقاتل، ويصيد المخاتل، بتوفيق ما خانه منذ عاهده، ولا حل رأيه بتأييده منذ عاقده، فما حال حائل بينه وبين من عانده، ولا حوَّل حتى راجع ما أراده وعاوده .

وكانت خلفاء بني العباس تؤامر دواوينه، وتداوم قوانينه، وثوقا بحزمه الذي لم يكن فيه مطمع، وعزمه الذي مارآه السيف إلا أوى إليه بالسجود وانحنى ليركع. قال البلاذري : كنيته أبو الوليد، وكان أحول بخيلا ، وأمه أم هشام بنت الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ويقال : عائشة بنت هشام ، ويقال : مريم بنت هشام، وكانت أمه حمقاء ، وكانت تثني الوسادة ثم تركبها [ص ٢٨٨] وتزجرها، فطلقها عبد الملك، وسار إلى مصعب وهي حامل، فلما قتله، بلغه مولد هشام فسماه منصورا تفاؤلا بذلك، وسمته أمه هشاما باسم أبيها، وولد هشام بن عبد الملك عام قتل مصعب سنة اثنتين وسبعين، وأتته الخلافة وهو بالزيتونة(١)، ومات بالرصافة التي بقرب الرقة في شهر ربيع الآخرلست خلون منه سنة خمس وعشرين ومائة، وصلى عليه ابنه مسلمة، وكانت خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر، ومات ليلة الأربعاء لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومائة، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة .

قال المدائني: لما خلع يزيد بن المهلب(٢)، وجه إليه يزيد بن عبد الملك

(١) الزيتونة : موضع كان ينزله هشام بن عبد الملك في بادية الشام، فلما عمر الرصافة انتقل إليها فكانت منزله إلى أن مات .
(ياقوت : الزيتونة)

(٢) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي : أمير من القادة الشجعان الأجواد، ولي خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٣ هـ ،فمكث نحوا من ست سنين، وعزله عبد الملك بن مروان برأي الحجاج، وكان الحجاج يخشى بأسه، فلما عزله حبسه، فهرب يزيد يريد الشام، ولما ولي سليمان الخلافة ولاه العراق وخراسان، ثم نقل إلى إمارة البصرة، ولما استخلف عمر بن عبد العزيز عزله وطلبه، فجيء به إلى الشام، فحبسه بحلب، ولما توفي عمر وثب غلمان يزيد فأخرجوه من السجن، وسار إلى=

مسلمة بن عبد الملك ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك[١]، وقال : أمير الجيش مسلمة ، فإن حدث به حدث ، فالعباس بن الوليد، فقال العباس: يا أمير المؤمنين، إن أهل العراق قوم غُدْر كثيرا زحافهم، وأنت توجهني محاربا، والأحداث تحدث، ولا آمن أن يزحف أهل العراق ويقولوا : مات أمير المؤمنين ولم يعهد، فيفت ذلك في أعضاد أهل الشام ، ويدخلهم له الوهن والفشل، فلو بايعت لعبد العزيز بن الوليد، قال : غدا إن شاء الله، وبلغ مسلمة ذلك، فدخل على يزيد فقال : يا أمير المؤمنين ، أولد عبد الملك أحب إليك، أم ولد الوليد؟ قال: ولد عبد الملك إخوتي وأحب إليَّ، قال : أفابن أخيك أحب إليك وأحق بالخلافة من أخيك ؟ قال : لا ، قال : أفتبايع لعبد العزيز؟ قال : لا، غدا أبايع لهشام أخي، وبعده للوليد ابني، وبلغ عبد العزيز قوله، وأتاه مولى له وهو لا يعرف الخبر، فقال : يا أبا الأصبغ ، غدا نبايع لك، فقال عبد العزيز: هيهات، أفسد ذلك علينا مسلمة ونقضه، فلما كان الغد، بايع لهشام، ومن بعده لابنه الوليد بن يزيد، فكان يزيد إذا نظر إلى الوليد قال : الله بيني وبين من جعل هشاما [ص ٢٨٩] بيني وبينك .

= البصرة فدخلها وغلب عليها سنة ١٠١هـ، ثم نشبت حروب بينه وبين أمير العراق مسلمة بن عبد الملك، انتهت بمقتل يزيدفي مكان يسمى (العقر) بين واسط وبغداد سنة ١٠٢ هـ .

(الطبري ٦ / ٣٥٤ ـ ٣٩٣، ابن الأثير ٥ / ٢٩، وفيات الأعيان ٢ / ٢٦٤، التنبيه والإشراف ٢٧٧، اليعقوبي ٣ / ٥٢، رغبةالآمل ٤ / ١٨٩)

(١) العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان : أمير من كبار القادة، كان يقال له (فارس بني مروان) قاد الجيش مع عمه مسلمة بن عبد الملك إلى أن قتل يزيد بن المهلب، وافتتح مدنا وحصونا كثيرة في بلاد الروم، استعمله أبوه على حمص، وولاه المغازي غير مرة، له شعر، وله ثلاثون ابنا ذكورا، سجنه مروان بن محمد في(حران) فمات سجينا سنة١٣١ هـ .

(النجوم الزاهرة ١ / ينظر فهرسته، العقد الفريد ٤ / ٤٤٢، ٤٦١، المرزباني ص ٢٦٤، تهذيب ابن عساكر٧ / ٢٧٠)

وقال المدائني : كتب سليمان بن هشام إلى أبيه : إن بغلتي عجزت عني، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لي بدابة، فكتب إليه : "قد فهم أمير المؤمنين كتابك، وقد ظن أمير المؤمنين أن عجز بغلتك عنك من قلة تعهدك لها، وإن علفها يضيع، فتعهد دابتك وقم عليها، وسيرى أمير المؤمنين رأيه في حملانك إن شاء الله، والسلام" . وقال : كتب بعض عمال هشام إليه : قد بعثت إلى أمير المؤمنين بسلة فيها دُرَّاقن، يعني الخوخ، فليكتب إليَّ بوصولها، فكتب إليه : «قد بلغ أمير المؤمنين كتابك، ووصل إليه الدراقن وأعجبه، فزد أمير المؤمنين منه واستوثق من الوعاء الذي توعيه إياه، والسلام" . قال : وكتب إلى بعضهم : "قد أتت أمير المؤمنين الكمأة التي بعثت بها إليه، وهي خمسون، وقد تغير بعضها، ولم يؤتِ ذلك إلا من قبل حشوها ، فاذا بعثت إلي أمير المؤمنين بشيء من الكمأة، فأجد الحشو في طرفه بالرمل حتى لا يضطرب، ولا يُصيب بعضها بعضا إن شاء الله» .

قال : وقال الأبرش، وهو سعيد بن الوليدبن عبد عمرو، لهشام وكان جليسه وأنيسه : يا أمير المؤمنين ، لو ينادي رجل في عرض الناس : يا مفلس، فسمع رجل من جلسائك نداه ، ما ظن أنه عني غيره . ودخل أبو النجم العجلي(١) على هشام فقال له : كيف رأيك في النساء ؟ قال : ما لي عندهن خبر، ولا لهن عندي خبر فقال : ما ظنك بأمير المؤمنين ، قال : مثل ظني بنفسي، فبعث هشام إلى جواريه فأخبرهن بما قال أبو النجم، فقلن : كذب عدو

(١) أبو النجم العجلي : الفضل بن قدامة العجلي، من بني بكر بن وائل، من أكابر الرجاز، ومن أحسن الناس إنشادا للشعر، نبغ في العصر الأموي، وكان يحضر مجالس عبد الملك بن مروان، وولده هشام، كان ينزل سواد الكوفة، وهو أبلغ من العجاج في النعت، توفي سنة ١٣٠ هـ .
(الشعر والشعراء ص ٢٣٢، المرزباني ص ٣١٠، معاهد التنصيص ١ /١٨، الأغاني ١٠ / ١٥٠ السمط ص ٣٢٨ . الخزانة ١ /٤٩، ٤٠٦)

الله ، ما منا جارية تصلي صلاة حتى تغتسل، فوهب لأبي النجم جارية منهن، ثم سأله عما صنع، فأنشده :(١)

[الكامل]

نظرتْ فأعجبها الذي في درعها من حسنه ونظرتُ في سرباليا
فرأت لها كِفْلا ينوءُ بخصرها ثقلا وأخثم في المجسة رابيا
ورأتهُ منتشر العِجان مقلصا رخوا حمائله وجلدا باليا[ص٢٩٠]
أدني له الرَّكْبَ الحليق كأنَّما أدني إليه عقاربا وأفاعيا

وهمَّ هشام أن يكتب إلى عامله على المدينة بإشخاص أشعب الطامع إليه، فقال له الأبرش : تتحدث الناس بأنك كتبت إلى(٢) عاملك بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشخص منها مضحكا لتلهو به، فقال : امسكوا امسكوا، فإنها وصمة عظيمة، ثم قال بيتا زعموا أنه لم يقل قط بيتا غيره، ويقال إنه تمثل به :(٣)

[الطويل]

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقالُ

فقال المدائني : رأى عبد الملك بن مروان كأن ابن هشام بن إسماعيل فلقت رأسه، فلطعت منه عشرين لطعة، فغمَّه ذلك، فأرسل إلى سعيد بن المسيب من قصَّها عليه ، فقال : تلد غلاما يملك عشرين سنة، فولدت له هشاما .

وقال المدائني : كان هشام يتكلم بكلمات في العيدين في خطبة لا يقولهن

(١) الأبيات من قصيدة في ديوان أبي النجم العجلي ص ٢٣٥ جمع علاء الدين أغا، ط، الرياض ١٩٨١م

(٢) في الأصل : على عاملك .

(٣) البيت لهشام في تاريخ الخلفاء ص ٢١٠ وسير أعلام النبلاء ٥ / ٣٥٢ .

في غير هذين اليومين، ثم يخطب بعد ذلك : « الحمد لله الذي ما شاء صنع، وما شاء أعطى، وما شاء منع، ومن شاء خفض، ومن شاء رفع، ومن شاء ضر، ومن شاء نفع ». وقال المدائني وغيره : قال مسلمة بن عبد الملك لهشام ، وتلاحيا في شيء : كيف ترجو الخلافة وأنت جبان بخيل ، فقال : لأني عفيف حليم. وقال المدائني : كان المنصور يذكر هشاما فيقول : كان رجل القوم . قال: وبعث هشام إلى أبي حازم الأعرج[١]، فأبطأ عليه، ثم أتاه فقال : ما منعك من إتياني، قال : والله لولا مخافة شرِّك ما أتيتك، قال : ما ترى في إنفاق هذا المال، قال : إن أخذته من حلِّه ووضعته في حقِّه سلمت، وإلا فهو ما تعلم. قال : وكان هشام إذا حدَّث قال : القوا عنِّي مؤونة التحفظ. قال : وكان المنصور إذا ذكر بني مروان يقول : أما عبد الملك فكان جبَّارا، لا يبالي ما أقدم عليه، وأما الوليد فكان مجنونا [ص ٢٩١] ، وأما سليمان فكان همُّه بطنه وفرجه، وأما عمر بن عبد العزيز فكان أعور بين عميان، ورجل القوم هشام .

قالوا : وكان الجعد بن درهم[٢] مؤدب مروان بن محمد ومعلمه، وكان

---

(١) أبو حازم الأعرج : سلمة بن دينار المخزومي، عالم المدينة وقاضيها وشيخها،فارسي الأصل، كان زاهدا عابدا، بعث إليه سليمان بن عبد الملك ليأتيه فقال : إن كانت له حاجة فليأت، وأما أنا فما لي إليه حاجة، قال عبد الرحمن بن زيدان : ما رأيت أحدا الحكمة أقرب إلى فيه من أبي حازم، أخباره كثيرة، توفي سنة ١٤٠ هـ .

(تهذيب التهذيب ٤ /١٤٣، تذكرة الحفاظ ١ /١٢٥، المعارف ص ٢١٠، صفة الصفوة ٢ /٨٨، حلية الأولياء ٣ /٢٢٩)

(٢) الجعد بن درهم : من الموالي، مبتدع له أخبار في الزندقة، سكن الجزيرة الفراتية، وأخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة أيام هشام بن عبد الملك فنسب إليه، وكان الجعد مؤدبه في صغره، ومن أراد ذم مروان لقبه بالجعدي، قال الذهبي : إعداده في التابعين، مبتدع ضال، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى،فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر،، قيل : وكان الجعد زنديقا يقول بخلق القرآن والقدر، شهد عليه ميمون بن مهران ، فطلبه هشام فظفر به ، وسيره إلى خالد القسري في العراق فقتله سنة ١١٨ هـ .=

دهريا، ويقال له معتزليا، شهد عليه ميمون بن مهران[١]، وعدة شهدوا عند هشام على الجعد بن درهم بالكفر، وطلبه هشام فهرب إلى حرّان، ثم إنه ظُفر به، فحُمِل إلى هشام، فأخرجه من الشام إلى العراق، وكتب إلى خالد بن عبد الله القسري، وهو عامله على العراق بأن يحبسه، فلم يزل محبوسا حينا، ثم إن امرأته رفعت إلى هشام في أمره، تعلمه بطول حبسه وسوء حال عياله، فقال : أو حيٌّ هو ، وكتب في خالد في قتله، فقال خالد في يوم أضحى : أيها الناس، انصرفوا إلى أضاحيكم، فإني مضحٍ بعدو الله الجعد بن درهم . قالوا : وكان غيلان يقول: كلمت جعدا فوجدته مُعَطِّلاً .

قال المدائني : وكان عقال بن شبة يقول : دخلت على هشام ، فدخلت على رجل محشو عقلا. قال البلاذري : بعث يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء، يخرج طرفاها من الكف، وحبة لؤلؤ من أعظم ما يكون من الحب ، قال الرسول : فدخلت على هشام، فدنوت منه فلم أرَ وجهه من السرير وكثرة الفُرش، فلما تناول الحجر والحبة قال : كتب معك بوزنهما، ومن أين يوجد مثلهما ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، هما أجل بأن يكتب بوزنهما، ومن أين يؤخذ مثلهما، قال: صدقت، وكانت الياقوتة لرابعة جارية خالد بن عبد الله القسري اشتراها بثلاثة وتسعين ألف دينار .

= (ابن الأثير ٥ / ١٦٠، النجوم الزاهرة ١ / ٣٢٢، ميزان الاعتدال ١ / ١٨٥، التاج ٢ / ٣٢١، تاريخ الخميس٢ / ٣٢٢ ، لسان الميزان ٢ / ١٠٥، اللباب ١ / ٢٣٠)

(١) ميمون بن مهران الرقي : فقيه من القضاة، كان مولى لامرأة بالكوفة واعتقته، فنشأ فيها، ثم استوطن الرقة (من بلاد الجزيرة الفراتية) فكان عالم الجزيرة وسيدها، واستعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها وقضائها، وهو مؤدب أولاد عمر بن عبد العزيز، وكان على مقدمة الجند الشامي مع معاوية بن هشام بن عبد الملك، لما عبر البحر غازيا إلى قبرص سنة ١٠٨ هـ، وكان ثقة في الحديث كثير العبادة، توفي سنة ١١٧ هـ .

(حلية الأولياء ٤ / ٨٢، ٥ / ٨، تذكرة الحفاظ ١ / ٩٣، المحبر ص ٤٧٨)

ومـات هشام بالذبحة، فروي عن سالم أبي العلاء أنه قال : خرج علينا هشام يوما وهو كـئيب، يُعرف ذاك فـيه ، مسترخي الثياب، قد أرخى عنان دابته، فـقال : ادعوا الأبرش، فدُعي فسار بيني وبين الأبرش، فقال الأبرش : يا أمير المؤمنين ، لقد رأيت منك ما غمّني، قال : ويحك يا أبرش، وكيف [ص ٢٩٢] لا أغتم وقد زعم أهلي أني ميت إلى ثلاثة وثلاثين يوما، قال الأبرش: فلما انصرفت إلى منزلي كتبت : زعم أمير المؤمنين أنه يسافر يوم كذا، فلما كانت ليلة اليوم الذي كمل الثلاثة والثلاثين، أتاني رسول هشام، فقال : أجب واحمل معك دواء الذبحة، وقد كانت الذبحة عرضت له مرة فتداوى بذلك الدواء فانتفع به، قال : فأتيته ومعي الدواء ، فتغرغر به، فازداد الوجع شدة ثم سكن، فقال : قد سكن بعض السكون، فانصرف إلى أهلك، وخلف الدواء عندي، فما استقررت في منزلي حتى سمعت الصراخ، فقالوا : مات أمير المؤمنين ، فلما مات أغلق الخزّان الأبواب، فطلبوا قمقما يسخن فيه ماء لغسله فما وجدوه حتى استعاروا قمقما . وكان الوليد شخص عن الرصافة لكثرة عبث هشام به، وخلف عياض بن مسلم مولى عبد الملك بن مروان، وهو كاتبه بالرصافة، وأمره أن يكتب إليه الأخبار، فعتب عليه هشام فضربه وحبسه، وأفاق هشام إفاقة فطلب شيئا، فمُنِعَه، فقال : أرانا إنما كنا خزّانا للوليد، ثم مات من ساعته، فخرج عياض من الحبس وختم أبواب الخزائن، وأمر بهشام فأنزل عن فرشه وحازها فما وجد له كفن، حتى كفنه غالب مولى هشام، فتبّاً لدنيا متاعها قليل، وعزيزها ذليل، بينما المرء خليفة فإذا به جيفة.

ومن كلام هشام : اثنان يتعجلان النصيب ، ولعلهما أن لا يظفرا بالبغية، الحريص في حرصه، ومعلم البليد مالا يبلغه فهمه .

[ثم] :

١٠٩ - دَوْلَةُ الوَلِيْدِ بنِ يَزِيْدَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ

الجبار العنيد[١]، لقبا ما عداه، ولقما سلكه فما هداه، حقيقة تمهجها، وطريقة تهجمها، فرعون ذلك العصر الذاهب، والدهر المملوء بالمعايب، يأتي يوم القيامة يقدم قومه فيوردهم النار، ويرديهم العار، فبئس [ص٢٩٣] الورد والمورود، والبرد المودي في ذلك الموقف المشهود، رشق المصحف بالسهام، وفسق ولم يخف الآثام، وكُفن وهو يُدعى بالإمام، يسعى بما لم يحمده الله ولا الأنام، وأبرز جارية وطئها لتصلي بالناس في زي غلام، ورضيها استخفافا من بذلك المقام، لكنه كان فتى من فتيان قريش، يرتاح للندى، ويلتاح قمرا إذا بدا، لم يكن في بني مروان أفخم منه وسامة ، ولا أفخر إذا لبس العمامة، يعطي الأُلأف الآلاف ، ولا يبالي في التلاف، جودا خُلق من عنصره، وخلّق وهو نطفة من عنبره، استنشد طوائف الشعراء وأجازهم، واستقدم أهل الغناء ليكمل به مجلسه، وما عازهم، وما سمع بفتاة ذات جمال إلا هام بها ، وهان عليه ما

(١) الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان : أبو العباس ، من خلفاء الدولة الأموية بالشام، كان من فتيان بني أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم، يعاب بالانهماك في اللهو وسماع الغناء ،له شعر رقيق وعلم بالموسيقى، قال السيد المرتضى : كان مشهورا بالإلحاد متظاهرا بالعناد، وقال ابن خلدون : ساء ت القالة فيه كثيرا، وكثير من الناس نفوا ذلك عنه، قالوا : إنها من شناعات الأعداء ألصقوها به . ولي الخلافة سنة ١٢٥ هـ ، بعد وفاة عمه هشام بن عبد الملك، فمكث سنة وثلاثة أشهر، ونقم الناس عليه لحبه اللهو، فبايعوا سرا ليزيد بن الوليد بن عبد الملك، فنادى بخلع الوليد، وكان غائبا في (الأغداف) من نواحي عَمَّان بشرقي الأردن، فجاء ه النبأ، فانصرف إلى البخراء ، فقصده جمع من أصحاب يزيد فقتلوه في قصر النعمان بن بشير، وكان الذي باشر قتله عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، وحمل رأسه إلى دمشق، فنصب في الجامع، ولم يزل أثر دمه على الجدار، إلى أن قدم المأمون دمشق سنة ٢١٥ هـ ، فأمر بحكه، كان مقتله سنة ١٢٦ هـ .
الطبري ٨ / ٦٥، ابن الأثير ٥ / ١٠٣، اليعقوبي ٣ / ٧١، أمالي المرتضى ١ / ١٢٨ ــ ١٣١، الأغاني ٧ / ١، ٩ / ٢٧٤، تاريخ الخميس٢ / ٣٢٠ / المسعودي ٢ / ١٤٥، ابن خلدون٣ / ١٠٦، خزانة الأدب ١ / ٣٢٨)

يبذل بسببها لإفراط ولعه بالقيان، ونزوعه إلى المشاهدة لهن والعيان ، هوى سلمى وسُعدى، وفني بهما تيتما ووجدا، خطبهما في آل عثمان أختين كلف بكل واحدة منهما كلفا، انتهب خلبه، وشغف شغفا سلب من صدره قلبه، حتى كانت تلك الميتة ميتته، وتلك البيتة التي صبح في غداتها بيتته، ولحب عليه الدار، ولحَّت عداته في طلبه بالدمار، فلما علم أن الموت قد أبرز له من خبِّ الضلوع دفائنه، وأنشب به من مدى الأعداء براثنه، تاب حين لا متاب، وعتب حين لا ينفع الإعتاب، ولا يُسمع العتاب، وأخذ المصحف وقعد يقرأ القرآن، ويدرأ الحد بالتظاهر بالإيمان ، وبعد عن نفسه حين لا ينفع نفسا إيمانها، ولا يكفر سيئات إحسانها، ظناً أنه يقيه الإيمان ويقول يوم كيوم عثمان، وهيهات وقد حضرت المنية، ونظرت إلى مواضعها في بيوته الرزية، ونضحت على وريده رشاش البلية، وإنما عوقب بحق واضح، وحوب فاضح، انتهك حرمة الإسلام، فأُخذ تلك الأخذة الرابية .

وحكى ابن الأثير: أن الوليد هذا قال : الغناء يزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وينوب عن الخمر، ويفعل ما لا يفعل السكر، فإن كنتم [ص ٢٩٤] ولابد فاعلين، فجنبوه النساء، فإن الغناء فيه الزنى، وإني لأقول ذلك على أنه أحب إليَّ من كل لذة، وأشهى لنفسي من الماء إلى ذي الغُلَّة، ولكن الحق أحق أن يُتَّبع .

حكى البلاذري قال : وكانت عنده ابنة سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان، فزارتها أختها سلمى بنت سعيد، وكانت من أحسن الناس وجها، فبصر بها الوليد فأعجبته، وذلك قبل الخلافة، فطلَّق أختها، ثم خطبها إلى أبيها، فامتنع عليه وقال : إنك[1] تريد مني أن أتخذك فحلا لبناتي، فكان يهجوه، ثم ما زال

---

(١) في الأصل : إنها ، وهو خلاف المقصود .

يشكو حبَّها حتى افتضح، وفيها يقول :[1]

[الوافر]

تذكر شجوهُ القلبُ القريحُ ... فدمعُ العين منهمل سفوحُ
ألا طوقتك بالبلقاء سلمى ... هُدُوًّا فالمطي بنا جُنوحُ
فبِتُّ بها قرير العينِ حتى ... تكلَّم ناطِقُ الصبح الفصيحُ

وبلغه أن هشاما همَّ بخلعه، واجتثاث أصله وقلعه، فقال :[2]

[الطويل]

خذوا ملككم لا ثبَّتَ اللهُ ملككم ... بيانا يساوي ما حييتُ قِبالا
ذروا ليَ سلمى والطِلاءَ وقينةً ... وكأسا ألا حسبي بذلك مالا
أبالمُلكِ أرجو أن أُعَمَّرَ فيكمُ ... ألا رُبَّ مُلكٍ قد أُزيلَ فَزالا
إذا ما مضى عيشي برملة عالجٍ ... وعانقتُ سلمى لا أريدُ بدالا

قالوا : ولما ولي الخلافة بعث إلى سعيد بن خالد، فقسره على أن زوَّجه بسلمى ابنته، فلما حُملت إليه من المدينة، اعتلَّتْ في الطريق، وماتت ليلة أُدخلت عليه، ولم يزل على هذا حتى وثبت اليمانية فقتلوه ، وبايعو يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وكان على هناته مدره جدال، وندرة رجال، لا يقطع باحتجاج، ولا يقنع بما دون الحجاج . قال له هشام يوما كالعاتب به ، المعير بمدامه، اللابث على شربه : ما شرابك يا أبا العباس؟ قال : شرابك يا أمير المؤمنين وقام مغضبا ، فقال هشام : أهذا الذي تزعمون أنه أحمق، ما هو والله بأحمق، ولكني أظنه على غير الملة .

---

(١) الأبيات في مجموع شعره ص ٣٧ .

(٢) القطعة في مجموع شعره ص٩٢ مع خلاف في الرواية .

ومن حديث المدائني قال : [ص ٢٩٥] دخل الوليد يوما، فجلس [مجلس] هشام ، ثم أقبل هشام، فما كاد الوليد يتزحزح له عن صدر المجلس، فزحل قليلا، وجلس هشام، فقال : كيف أنت يا وليد، قال : صالح، قال : ما فعلت برابطك، قال : معلمه، قال : فكيف ندماؤك ؟ قال : لعنهم الله إن كانوا شرا من جلسائك، فغضب هشام، وقال : أوجئوا عُنُقَه، فلم يفعلوا ، ودفعوه دفعا رفيقا، فقال الوليد :(١)

[البسيط]

أنا الوليدُ أبو العباس قد علمت ... عُليا معدٍ مدى كري وإقدامي
أكونُ في الذروة العلياء إن نُسبوا ... مقابلا بين أخوالي وأعمامي

وقال :(٢)

[الطويل]

أنا ابنُ أبي العاصي وعثمانُ والدي ... ومروانُ جدي ذو الفَعالِ وعامرُ
أنا ابنُ عظيم القريتين وعزِّها ... ثقيفٌ وفهرٌ والرجال الأكابرُ
نبيُّ الهُدى خالي ومن يكُ خالهُ ... نبيَّ الهدى يَعْلُ النهى في المفاخرِ

ولما زاد ضرر هشام به ، ونظر إلى ما يغشاه من قطيعته وسبِّه، كتب إليه يقول :(٣)

[الطويل]

رأيتُكَ تبني جاهدا في قطيعتي ... فلو كنتَ ذا عقلٍ لهدمتَ ما تبني

---

(١) البيتان في شعره ص ١١٥ .

(٢) شعره ص ٦٠ ـ ٦١ .

(٣) البيتان في شعره ص ١٢٥ .

ستترك للباقين عني ضغينةً وويلٌ لهم إن متُّ من شرِّ ما تجني[1]

وقال الهيثم بن عدي : كان الوليد يسمى البيطار، لأنه كان يصيد الحُمُر الوحشية، فيسمها بالوليد، ثم يخليها، فوجدت في أيام السفاح والمنصور موسومة باسمه . وكان يحب دخول الكوفة والحيرة، فخرج كالمسدي[2]، ثم أتى الكوفة، فنادمه سراعة ومطيع بن إياس، وحماد الراوية، وحماد عجرد، واك[3] عبد الله بن مطيع، وكان ممن سمع بها فأعجبه غناء قينتين لعبد الله بن هلال الهجري، المعروف بصديق إبليس،فقال[4] :

[الكامل]

يا أهل بابل ما نفست عليكم من عيشكم إلا ثلاث خلالِ

خمر العراق وليل قَيْظٍ بارد وسماع مسمعتين لابن هلال[ص٢٩٥]

وروى البلاذري عن إسحاق بن محمدقال : دخلت على منصور بن جمهور[5] وعنده جاريتان من جواري الوليد، فقال : اسمع ما يحدثانك به، فقالتا: كنا آثر جواريه عنده، فوطىء هذه، فجاء المؤذن يؤذنه بالصلاة، فأخرجها

---

(١) في الأصل : سترتك للباقين، وهي تحريف .

(٢) المسدي : المهمل .

(٣) كذا بالأصل ولم اجد لها وجها .

(٤) ينسب البيتان لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه ص ٣٧٦، والأغاني ١ / ١٥٣ .

(٥) منصور بن جمهور بن حصن الكلبي : من بني كلب بن وبرة، أمير من الفرسان في العصر الأموي، كان من سكان (المزة) من ضواحي دمشق، وخرج مع يزيد بن الوليد على ابن عمه (الوليد بن يزيد) سنة ١٢٦هـ، ثم سار إلى العراق، فقيل إنه افتعل عهدا على لسان يزيد بإمرة العراق، فحكم بها أربعين يوما، وجعل على شرطته حجاج بن أرطاة ، ثم إنه عزل فسار نحو بلاد السند فغلب عليها مدة، ولما استولى السفاح سنة ١٣٢هـ وجه لقتاله موسى بن كعب فالتقاه، فانهزم منصور، ومات بالمفازة بين السند وسجستان عطشا سنة ١٣٣هـ .

(تاريخ الإسلام ٥ / ٣٠٣، جمهرة الأنساب ص ٤٢٨)

وهي جنب متلثمة، فصلت بالناس . وحكى أن نقش خاتمه كان : (أؤمن بالله مخلصا)، وإنه كان يقول عقب كل حوب : استغفر الله .

قال البلاذري : كان الوليد شديد البطش، طويل أصابع اليدين والرجلين، توتد له سكة الحديد وفيها خيط، ويشد الخيط في رجله، ويؤتى بالدابة فيثب عليها، فينزع السكة، ويركب ما يمس الدابة بيده . وروى مسلمة بن محارب، أن أيوب السختياني قال حين بلغه مقتل الوليد : ليتهم تركوا لنا خليفتنا فلم يقتلوه .

قلت : وإنما قال ذلك خوفا من الفتنة. وقال المهدي يوما وقد ذكر الوليد رحمه الله، ولا رحم قاتله، فإنه قد كان إماما مجمعا عليه، فقيل له إن الوليد كان زنديقا، فقال : إن خلافة الله عز وجل [أجل][١] من أن يوليها من لا يؤمن به . قلت : ولئن صح أن المهدي قال هذا، مع سوء رأي القوم في أخبار بني أمية ، كيف في شرارهم، فإنما قاله إقامة لحرمة الخلافة أن تنتهك .

وللوليد :[٢]

[الطويل]

وأقسم ما أدنيت كفّي لريبةٍ ... ولا حملتني نحو فاحشةٍ رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبةٌ ... من الدهر إلا قد أصابتْ فتى مثلي

[ثم] :

(١) الزيادة يقتضيها السياق، وهي في تاريخ الخلفاء ص٢١٣ .

(٢) شعر الوليد بن يزيد ص ١٠٦ .

١١٠ - دَولَةُ يَزِيْدَ بنِ الوَلِيْدِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ

أبي خالد[١]، وكان أقبل وأمه ساهقريد بنت فيروز بن يزدجر بن شهريار، مقابل في المُلْك بين أبيه وأمه، وعربه[٢] وعجمه، تطرف بجلبابي تقى ونسك، وخلافة وملك، يحاذيه طرفا شرف، حل فيهما وما حل في طرف [ص٢٩٧] وكان يلقب بالناقص، لأنه نقَّص في العطاء، وغصَّص على البعداء والخلطاء، وما أراد إلا مناقضة الوليد ومعارضة سفاهته بالرأي السديد، فكره على عظيم شرفيه، وكريم فخاره الملتقيين من طرفيه، وما كان موسوما به من الجمال الفائق، ومعلوما منه من الكمال اللائق، ومعروفا به من النسك والتأله، وموصوفا به من التخلق بأخلاق السلف الأول والتشبه، فأداه فعله إلى خلاف ما يريد، وعداه الغرض في الاقتصاد إلى التسديد[٣]، وإفراطه في التواضع، حتى كأنه ما امتاز عن الناس، ولا حاز ما يشمخ بدونه الراس، على أنه تذكر يوما سلفه، فذكر شرفه فقال[٤] :

(١) يزيد بن الوليد بن عبد الملك : أبو خالد ، من خلفاء الدولة الأموية بالشام، مولده ووفاته في دمشق، ثار على ابن عمه (الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك) لسوء سيرته، فبويع بالمزة، واستولى على دمشق، وكان الوليد بتدمر، فأرسل إليه يزيد من قاتله في نواحيها، وقُتل الوليد فتم ليزيد أمر الخلافة في مستهل رجب سنة ١٢٦هـ ، ، قال اليعقوبي : كانت ولايته خمسة أشهر والفتنة عامة في البلاد. وكان يزيد من أهل الورع والتقوى والصلاح، قيل : ولم يكن في بني أمية مثله ومثل عمر بن عبد العزيز، كان لقبه الشاكر لأنعم الله، ويقال له : الناقص، لأن سلفه الوليد بن يزيد كان قد زاد في أعطيات الجند، فلما ولي يزيد نقص الزيادة، وكان أسمر نحيفا مربوعا خفيف العارضين، فصيحا شديد العجب، ومات في ذي الحجة بالطاعون، وقيل مات مسموما ويقال إن مروان الجعدي لما ولي نبش قبره وصلبه، كانت وفاته سنة ١٢٦هـ .
(ابن الأثير ٥/١١٥، الطبري حوادث سنة ١٢٦هـ، تاريخ الإسلام ٥/١٨٨، اليعقوبي ٣/٧٤، ابن خلدون ٣,١٠٦، النجوم الزاهرة ١/١٢٦ ـ ٣٠٠، البداية والنهاية ١٠/ ١١)

(٢) في الأصل : وعرمه، ولعلها عربه .

(٣) قوله : فأداه فعله ..... إلى التسديد ، خرجة من الحاشية .

(٤) الشطران في تاريخ الخلفاء ص ٢١٤، والطبري ٧/٢٩٨ ومروج الذهب ١/١٧٢ .

[الرجـز]

أنا ابنُ كسرى وأبي مروانُ وقيصرُ جدي وجدي خاقان

قلت : وإنما جعل قيصر وخاقان جديه، لأن أم فيروز بن يزدجرد بن كسرى شرويه أم أبيه، وأمها ابنة قيصر، وأم شيرويه ابنة خاقان ملك الترك، ذكره ابن الأثير[١]، وكان أبوه الوليد بن عبد الملك يذكر ولده فيقول : " عبد العزيز سيدهم، والعباس أفرسهم، ويزيد ناسكهم، ، وروح عالمهم، وعمر نجلهم، وبشر فتاهم .

ولقي يزيد بن الوليد أيوب السختياني في السنة التي حج فيها، فكتب عنه، وكان كثير الصلاة طول الليل . وقال ابن الأثير عنه : قيل إنه كان قدريا، وكان أسمر طويلا صغير الرأس جميلا، وقال : إنه أول من خرج بالسلاح يوم العيد، خرج بين صفين عليهم السلاح، وقال : وكان آخر ما تكلم به، يعني عند موته ، واحسرتاه وأسفاه . وكان نقش خاتمه (العظمة لله) .

ولما ولي الخلافة عاتبته امرأته هند الكلبية، التي تدعى بنت الحضرمية، فقالت : أوسع علينا، فقال لها : لقد فسدت عليَّ فيمن فسد، أما لو علمت أنكم تميلون إلى الدنيا هذا الميل، لكان أن أخرَّ من السماء إلى الأرض أحبُّ إليَّ من أن أتلبَّس بما تلبستُ به، وما لكِ في هذا المال إلا ما لسوداء أو حمراء من المسلمين، ولكن أيتيني بثيابي، فجاءت تنحب ، فقال لها : هذه ثيابٌ كنت أتزين بها، فشأنك فخذيها [ص ٢٩٨] فإنه لا حاجة لي اليوم بها، فأما مال المسلمين، فلا حق لي ولكِ فيه إلا مثل ما للمسلمين .

ولما ولي خطب الناس فقال :« أيها الناس ، إني والله ما خرجت بطرا، ولا

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ٤ / ٤٩٩ .

حرصا على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وما أقول هذا إطراء لنفسي، إني لظلوم لها إن لم يرحمني ربي، ولكن خرجت غضبا لله ودينه، وداعيا إلى الله وكتابه، وسنة نبيه، لما هدمت معالم الدين، وعفا أثر الحق فأطفأ نور الهدى، وظهر الجبار العنيد، المستحل لكل حرمة، الراكب لكل بدعة، مع أنه والله ما كان يصدق بالكتاب، ولا يؤمن بيوم الحساب، وإنه لابن عمي في النسب، وكفيٌّ في الحسب، فلما رأيت ذلك، استخرت الله في أمره، حتى أراح الله منه، بحول الله وقوته، لا بحولي وقوتي، أيها [الناس] إن لكم أن لا أضع حجرا على حجر، ولا لبنة على لبنة، ولا أكري فيكم نهرا، ولا أبني قصرا، ولا أكنز مالا، ولا أوثر به زوجة ولا ولدا، ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد، حتى أسد ثغره، وخصاصة أهله بما يغنيهم، فإن فضل فضلٌ، نقلته إلى البلد الذي يليه، مما هو إليه أحوج، وعليكم أن لا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادكم، وعندي إدرار عطاياكم في كل سنة، وأرزاقكم في كل شهر، حتى تستدر المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم كأدناهم، فإنْ أنا وفيت لكم بما قلت، فعليكم السمع والطاعة، وحسن المؤازرة، وإنْ أنا لم أفعل، فلكم أن تخلعوني».

ثم لما مات يزيد بن الوليد، انبثقت البيوق(١)، وكثرت الخوارج، ودعا كلٌّ إلى نفسه.

١١١ - دَولَةُ إبراهِيمْ بنِ الوَلِيْدِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ

أبي إسحاق(٢)، وكان مُغَلَّبا لا يغلب، ومضعَّفا لا يرغب ولا يرهب، عدما

(١) البيوق: السرقات والفساد والدواهي، يقال: باقوا على فلان: إذا اجتمعوا عليه فقتلوه ظلما، وباق الشيء: سرقه.

(٢) إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك: أبو إسحاق، أمير أموي، كان مقيما في دمشق، ولما مات أخوه=

في ذي وجود، ومُعدما في مثل ذي مال وجنود، بايعه الناس لما ولي أخوه يزيد بالعهد بعده ، وعقدوا له عُقده ، وما أحكموا شده، فلما مات يزيد، جُدِّدت له بيعة ما تمَّت، وجُنِّدتْ له قلوب ما خصَّت مولاتها ولا عمَّت، وكان [ص٢٩٩] بدمشق ما نفذ له أمر وراء سورها، بل ولا جاز فناء دورها، وكان يخاطب تارةً بالخلافة، وتارةً بالإمارة، وهو كالبعيرلا عير لديه ولا نكير ، ولا رمح صرير، ولا سيف شهير، ولا اتباع مأمور، ولا متابعة أمير .

وقد كان حين وثب أخوه على الوليد حصاة لا يستلينها نفس بازغ، لكنه مُني بعوائق الخذلان، ورمى سوابق الخلاَّن، خذله أصحابه، وهزله أربابه، فما هَمَّ بأمر، فقدر عليه، ولا قهر سواه، حتى وصل إليه، ولم تكن متابعته إلا شقوة طبع بطابعها، وهفوةً ضربت عنقه بأسياف مطامعها، ودام ملك بني أمية على هذا الهوان، حتى ملك مروان ورفع بالسيف هذا العار، ونزع ما جللهم من شبه هذا الرداء المعار .

وقال البلاذري ، قالوا : بويع إبراهيم ــ وهو المخلوع، وأمه أم ولد ــ بالخلافة في أول سنة سبع وعشرين ومائة، بعد موت يزيد أخيه الناقص، وكان نقش خاتمه (إبراهيم يثق بالله)، وكان مروان بن محمد بن مروان حين قتل الوليد، قدم الجزيرة فدعا إلى نفسه سرا، وسُمي الوليد الخليفة المظلوم، وأظهر أنه يطلب بدمه، وقال : إنما قتلته قدرية غيلانية، فبايعه خلق من أهل الجزيرة، ثم أظهر

= يزيد بن الوليد، قام بعده بالأمر سنة ١٢٦هـ ، وكان ضعيفا مغلوبا على أمره، تارة يسلم عليه بالإمارة وتارة بالخلافة، فمكث سبعين يوما، فثار عليه مروان بن محمد بن مروان، وكان واليا على أذربيجان، ودعا لنفسه بالخلافة، وقدم الشام فاختفى إبراهيم واستولى مروان، فأمَّن إبراهيم فظهر وقد ضاعت خلافته، وقتل مع من قتل من بني أمية حين زالت دولتهم ، وقيل : غرق بالزاب سنة ١٣٢ هـ .

(الطبري ٩ / ٤٦، ابن الأثير٥ / ١١٤ ــ ١١٩ ، اليعقوبي ٣ / ٧٥، ابن خلدون٣ / ١١٢)

أمره بعد بيعة إبراهيم بنحو شهر بحرّان[١]، وقال : أمري شبيه بأمر معاوية، حين طلب بدم الخليفة المظلوم عثمان، ثم إنه سار بأهل الجزيرة وقنسرين وحمص يريد إبراهيم ، وبعث إلى الناس أن انهضوا لمحاربة هذا القدري أخي القدري الغيلاني، المبتز لأمور الناس بالبدعة والضلالة، فإن جهاده واجب على كل مسلم، فقد كنت على مجاهدة أخيه، فسبقني به أجله، فوجه إليه إبراهيم أخويه بشرا ومسرورا ابني الوليد، فأسرهما وفض عسكرهما، فوجه إليه إبراهيم بن سليمان بن هشام بن عبد الملك [ص٣٠٠] في خيول أهل دمشق، فالتقيا بعين الجر[٢] من البقاع من عمل بعلبك، في صفر سنة سبع وعشرين، فتناوشوا يومهم، ثم بكروا على الحرب، فاقتتلوا أشد قتال، فانهزم سليمان ومن معه فلحق بإبراهيم. وكتب مروان إلى وجوه أهل دمشق يعلمهم أن الذين بايعوا يزيد الناقص شرارهم ورعاعهم وغواتهم، ودعاهم إلى طاعته ووعدهم ومناهم على الوفاء والإحسان، فانتقضوا على إبراهيم، ونزل مروان بن محمد الغوطة[٣]، فخرج إليه خلق فبايعوه، فلما رأى ذلك عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، ويزيد بن خالد بن عبد الله القسري، أخذا عثمان والحكم ابني الوليد فقتلاهما في محبسهما، وخافا أن يتخلصا، فكان الناس يقولون : يا معشر الفتيان أين الحكم وعثمان، وقال الشاعر حين أقبل مروان :

---

(١) حران : مدينة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم، وبين الرقة يومان ، وهي على طريق الموصل والشام والروم، فتحت حران في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه .(ياقوت : حران)

(٢) عين الجر : موضع معروف بالبقاع، بين بعلبك ودمشق .(ياقوت : عين الجر)

(٣) الغوطة : هي الكورة التي منها دمشق، استدارتها ثمانية عشر ميلا تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها، تمد الجبال الغوطة في عدة أنهر، فتسقي بساتينها وزروعها، ويصب باقيها في أجمة هناك وبحيرة، والغوطة كلها أشجار .

(ياقوت : الغوطة)

[الرجز]

أتاك مروانُ شبيه مروان يجرُ جيشاً غضباً للرحمنْ

بتغلب الغلبا وقيسِ عَيْلانْ

ووهن أمر إبراهيم واستخفى، ثم أخذ له الأمان، وظهر فكان مع مروان في طاعته، ولم يزل حياً حتى قتله عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس[١]، مع من قُتِل من بني أمية .

وكانت أيام إبراهيم أربعة أشهر، ويقال ثلاثة أشهر، وبعضهم يقول : أربعين يوما. ولما دخل مروان دمشق، طلب عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد القسري، فظفر بهما فقتلهما، بعثمان والحكم، وصلبهما على باب الجابية[٢]، أو باب الفراديس[٣] .

١١٢ - دَوْلَةُ مَرْوَانَ بنِ مُحَمَّدٍ

أبي عبد الملك[٤] المنبوز بالجعدي، وبالحمار، أما قولهم الجعدي، فنسبة إلى

(١) عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس : أمير، هو عم الخليفة أبو جعفر المنصور، وهو الذي هزم مروان بن محمد بالزاب ، وقد مرت ترجمته مع الدولة العباسية .

(٢) الجابية : قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان، قرب مرج الصفر في شمالي حوران، وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع ، ويقال لها : جابية الجولان ، أيضا .
(ياقوت : الجابية)

(٣) باب الفراديس : الفراديس موضع بقرب دمشق، وباب الفراديس باب من أبواب دمشق، والفراديس: موضع قرب حلب بين برية خُساف وحاضر طيء من أعمال قنسرين .
(ياقوت : الفراديس)

(٤) مروان بن محمد بن مروان بن الحكم : أبو عبد الملك، ويعرف بالجعدي وبالحمار، آخر خلفاء بني أمية في الشام، ولد بالجزيرة وكان أبوه متوليها، ولاه هشام بن عبد الملك على أذربيجان وأرمينية والجزيرة سنة ١١٤ هـ فافتتح فتوحات وخاض حروبا كثيرة، ولما قتل الوليد بن يزيد وظهر ضعف الدولة بالشام دعا الناس وهو بأرمينية إلى البيعة له، فبايعوه فيها، وزحف بجيش كثيف في أيام=

الجعد بن الدرهم، لأنه كان على مثل رأيه المبهم، وأما قولهم الحمار، فقيل: لشدة في الحرب، تشبيها بحمار الوحش، إذ كان أحمى حامٍ لسربه، ومحامٍ عن أجمة [ص ٣٠١] الغرايب له في شُربه .

وكان مروان بن محمد رجل الدهر، إلا أنه خانه، وبطل الكتيبة، إلا أن الحظ ما أعانه، كان بالجزيرة ورعى كلأها، وهو بأطراف الأسنة وبيل وحمى ملأها، وما لمدارج الرياح إليها سبيل ، ثم كان بأرمينية يسد ثغرها، وهو يهتمه ويشد أمرها وهو يهدمه، ثم آب إلى دمشق وفي ظنه لمٌ شعثها، ويرُمُّ منتكثها، حتى تفرقت بها الآراء المجتمعة، وتمزقت الأمراء في طلب الدعة، وقوي هيج الرعايا للرعاع، وموج الثعالب الحقيرة لأكل السباع .

وكان أبو جعفر المنصور إذا ذكره شكره وقال : هو فحل القوم، وإنما غلبناه بالجَد لا باليد . وكان عبد الملك بن صالح رجل بني العباس، أمه أم ولد، كانت لمروان بن محمد، ثم صارت إلى صالح بن علي، فولدت له عبد الملك، ويقال : إنها حملت به من مروان وولدته على فراش صالح، فلما كان من توهم الرشيد منه ما كان، قال له يوما كالمعير له : أنت لمروان، لست لصالح، فقال : لا أبالي لأي الفحلين كنت، فلما غاب عنه قال الرشيد : لعمري إنه لا يبالي لأيهما كان .

= إبراهيم بن الوليد، قاصدا الشام، فخلع إبراهيم واستولى على الخلافة سنة ١٢٧هـ ، وفي أيامه قويت الدعوة العباسية، وتقدم جيش قحطبة بن شبيب الطائي إلى طوس، يريد الإغارة على الشام، فسار إليه مروان ونزل بالزاب (بين الموصل وإربل) وتقاتل الجمعان ، فانهزم جيش مروان، ففر إلى الموصل، ومنها إلى حران فحمص فدمشق ففلسطين، وانتهى إلى (بوصير) من أعمال مصر، فقتل فيها، وحُمل رأسه إلى السفاح العباسي، وكان مروان حازما شجاعا، ويقال له الحمار لجرأته في الحروب، ويقال له الجعدي، نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم، خلافته مدة خمس سنين واشهر، قتل سنة ١٣٢ هـ .

(الطبري ٩ / ٥٤، ١٣٣، ابن الأثير ٥ / ١١٩، ١٥٨، ابن خلدون ٣ / ١١٢ ,١٣٠،تاريخ الخميس ٢ / ٣٢٢، اليعقوبي٣ / ٧٦، تاريخ الإسلام ٥ / ٢٩٨)

وقدم مروان دمشق، وقد تضرمت فتنها وتضررت بحمل الحقود إحنُها، فهدى به اضطرابها، وبالغت به بنو أمية وبدا اقترابها، ولكن بعد دماء طَلَّها، ودأماء[1] ساوى بالقتلى مطلها، فلما ظن أن السيف له قد دوخ، والمغيرعليه قد نوَّخ، واطمأنَّ به وساده القلق ، وعفي بالمسالمة عن جفنه الأرق، ثارت عليه من خراسان تلك الثائرة، وانقلبت عليه تلك الدائرة، وأظلت عليه الرايات العباسية، ليالي تطلع بدورا، ولمم شبيبة تتلألأ بها الوجوه نورا، فتراكم بسواد الشعار العباسي السيل، وأدبر بياض العلم المرواني في النهار، لإقبال الليل .

قال البلاذري : أم مروان كردية، أخذها أبوه من عسكر [ص ٣٠٢] ابن الأشتر، وكان مروان بخيلا، ، وبويع لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وعشرين ومائة. وكان أبيض أحمر أزرق، أهدل الشفة، لا يخضب، ولم يكن بالذاهب طولا، وكنت إذا استدبرته ظننت أن على كتفيه رجلين جالسين، واسع الصدر. وكان يقول : اللهم لا تبلني بطلب ما لم تجعل لي فيه رزقا، وكان يقول في خطبته : اللهم اعلم بولينا وعدونا منا ، فكن لنا وليا وحافظا، وكان غيورا جدا، وجد كتابا إلى جارية له من أمها، فقال : من أدخل هذا الكتاب، فقال خصي له : أنا ، رحمت أمها لبكائها، فأخذت كتابها، فقطع يد الخصي . وعرض الجند ، فشكوا في حلية رجل فأسقطه، فقال : هلا بعين الجر خليتني، لما توافى القوم في الخندق فأجازه، وهو أول من حلى الجند، وفيه يقول الشاعر :

[الرجز]

يا أيها السائلُ عن مروانا ... دونك مروان بعسقلانا[2]

يجيد ضرب القوم والعطانا ... حتى ترى قتلاهمُ ألوانا

---

(١) الدأماء : البحر .

(٢) عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فسلطين على ساحل البحر، بين غزة وبيت جبرين، ويقال لها=

قال البلاذري : لما سار مروان بجند أهل الجزيرة، وتفرق أصحاب بشر ومسرور من غير قتال، وجه إبراهيم المخلوع سليمان بن هشام[(١)]، فنزل بعين الجر في خلق كثير، فنزل مروان بدير الأبرش، في زهاء سبعين ألفا، وبينهما ثلاثة أميال، وكتب مروان كتابا منه إلى أهل فلسطين : « إني نزلت بدير الأبرش، وسليمان بعين الجر، وطالعت عسكره بنفسي، فرأيت جمعا كثيفا، وأنا متوجه إليكم في طريق كذا » ، ودفع الكتاب إلى رجل وقال له : تعرض لهم، ففعل ، فأُخِذ وأُتي به سليمان، فلما قرأ الكتاب قال : أنا أبو أيوب، هرب مروان ، والله لأحولن بينه وبين ذلك، وقال مروان لابنه : إني مرتحل غدوة، فان ارتحل سليمان من هذا المنزل ، فانزله وخلفه في غيضة هناك، كامنا في ألفين، وأصبح مروان يوم الأربعاء قعدا متوجها في طريق العرب، وخرج سليمان زعم يبادره إلى الطريق التي ذكر مروان في كتابه [ص ٣٠٣] أنه يسلكها، وأقبل ابن مروان فنزل معسكره، وسرح إلى أبيه رسولا يعلمه ذلك، فلما أعلمه الرسول، رجع وقد سار ستة أميال ، فصار في عسكر سليمان ، فقال سليمان : مكر بنا مروان ، وإنما فعل مروان ذلك، لأن عسكر سليمان أخصب وأحصن وأكثر مياها ، فقاتلهم مروان فظفر بهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، يقال : عشرة آلاف، ومضى

= عروس الشام، وكذلك يقال لدمشق أيضا .

(ياقوت : عسقلان)

(١) سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان : أمير من بني أمية ، نشأ في دمشق، وغزا في زمن أبيه أرض الروم وافتتح إحدى مدنها، وحج بالناس سنة ١١٣ هـ ، ولما مات أبوه حبسه الوليد بن يزيد، فلما قتل الوليد خرج من السجن، وولاه يزيد بن الوليد بعض حروبه، ولما ظهر مروان بن محمد، جمع سليمان جيشا، وطمع في الخلافة، فهزمه مروان، فلحق بالضحاك بن قيس الخارجي وهو في (نصيبين) بعدد كبير من أهل بيته ومواليه، ثم لما ولي السفاح العباسي أقبل عليه سليمان ، فأمر به السفاح فقُتل سنة ١٣٢ هـ. (ابن الأثير ٥ / ١٣٢، تهذيب ابن عساكر ٦ / ٢٨٦، المسعودي ٦ / ٣٣، ٤٧، نسب قريش ص ١٦٨)

سليمان منهزما إلى دمشق، فأخذ مالها وقسمه، ثم كان ما كان من انتهاء الأمر من يد المخلوع إبراهيم إلى مروان، وكان دخوله دمشق من باب الجابية، وأتاه إبراهيم وخلع نفسه، فأمّنه، وجاء سليمان بن هشام فأمّنه، ثم حمل مروان ما كان بدمشق من الأموال، وتحوّل إلى الجزيرة، فنزل حران، وأقام بها ثلاثة أشهر أو أربعة، ثم بلغه أن ثابت بن نعيم عامله على فلسطين قد خلع، فسار يريده .

قالوا : وكان[١] سبب خلع ثابت بن نعيم ، أن عطية بن الأسود[٢] قال :

[البسيط]

يا ثابت بن نعيم دعوة جمعت ... عقّتْ أباها وعقّت أمها اليمنُ

أتاركٌ أنت مال الله تأكله ... عير الجزيرة والأشراف تُمْتَهَنُ

أوقدْ على مضرٍ نارا يمانيةً ... تشفي العليل وتحيا بعدها السننُ

قلت : وأقبل ثابت في زهاء خمسين ألف من لخم وجذام وغيرهم ، فحضروا طبرية مدينة الأردن[٣]، وبها الوليد بن معاوية بن مروان بن عبد الملك عامل مروان، فسار إليه أبو الورد، فلما التقوا خرج إليهم الوليد عامل طبرية في أهل الأردن، فهزموا ثابتا وقتلوا أصحابه، وتفرق من بقي منهم عنه، ومضى ثابت إلى فلسطين وأتبعه الورد، ولحق ثابت بجبال الشراة[٤]، فظفرت به خيل

---

(١) في الأصل : وكانت .

(٢) عطية بن الأسود الكلبي : شاعر شامي من موالي بني أمية ، نظم أبياتا يهجو بها مروان بن محمد ويحرض اليمانيين على الثورة ، فقتله مروان بن محمد سنة ١٣٠ هـ . (المرزباني ص ٢٩٧)

(٣) طبرية : بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهي في طرف جبل، وجبل الطور مطل عليها، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، وكذلك بينها وبين القدس . (ياقوت : طبرية)

(٤) الشراة : جبل شامخ مرتفع في السماء من دون عسفان، وهو لبني ليث خاصة، ولبني ظفر من سليم، وهو عن يسار عسفان .(ياقوت : الشراة)

لمروان، قد كان وجهها مادة لأبي الورد، فأخذوه وأتوا به مروان، وهو بدير أيوب، فقتله ، وأفلت ابنه رفاعة.

ثم كانت من أحوال مروان المتناقضة وأموره المتعارضة، وخلافته المحلولة المعاقد، ومملكته المتجاذبة بأيدي الثواير، وجنوده المختلفة الآراء ، وبنوده [ص ٣٠٤] المنكسة بالخذلان ما كان ، حتى ابتزت منه الدولة العباسية الخلافة قهرا بالسيف .

وحكى الحسن بن زيد بفرغانة(١) ، قال : بلغني أن مروان بن محمد، مر على راهب في صومعة، وهو هارب من جيش أبي مسلم، فأشرف عليه الراهب، فسلم عليه فقال له : يا راهب، هل عندك علم بالزمان؟ قال : نعم، عندي من تلونه ألوان، قال : هل تبلغ الدنيا من الحر أن تجعله مملوكا ؟ قال : نعم، قال : كيف؟ قال : هل تحبها ؟ قال: نعم، قال: فأنت مملوك لها، قال : فكيف السبيل إلى العِتْق ؟ قال : تبغضها والتخلي منها، قال:

هذا ما لا يكون، قال الراهب : أما تخليها منك فسيكون، فبادر بالهرب منهاقبل أن تبادرك، قال : هل تعرفني ؟ قال : نعم أنت ملك العرب مروان، تقتل في بلاد السودان، وتدفن بلا أكفان، ولولا أن الموت في طلبك لدللتك على موضع هربك .

قلت : ولمروان شعر ، يروى منه :(٢)

[**الطويل**]

وما زال يدعوني إلى الصبر ما أرى فآبى ويدنيني الذي لك في صدري

(١) فرغانة : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر ، متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل، كثيرة الخير واسعة الرستاق، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخا .(ياقوت : فرغانة)

(٢) البيتان من قطعة في العقد الفريد ٥ /٤٠٧ ، البداية والنهاية ١٠ /٤٧ .

سأبكيك لا مستبقيا فيض عبرة ولا طالبا بالصبر عاقبة الصبرِ

ويقال : إن نقش خاتمه كان : (رضيت بالله العظيم)، وقُتِل مروان ببوصير[١] ، وصار آخره إلى ذلك المصير على ما هو ملمح في ترجمة أبي العباس السفاح[٢] وملمع بخلوق دمه درع ذلك الصباح، وبهزيمة مروان على الزاب[٣] زال عن جمهور المعمور ميسم بني مروان، وطالما افترَّ بدولتهم مبسم الزمان، إلا أنها الأيام لا يطمئن إلى خداعها، ولا يوثق بعواري متاعها، لا تُبقي أحدا ولا تثبت على حالة أبدا، ومهما نوَّلت في اليوم، سلبت غدا، فسبحان الباقي بلا زوال .

ولما قُتِل مروان قصد عامر بن إسماعيل قاتله الكنيسة التي فيها حرم مروان، وكان قد وكل بهن مروان خادما له وأمره أن يقتلهن بعده، فأخذه عامر، وأخذ نساء مروان وبناته فسيرهن إلى صالح بن علي، فلمادخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت : يا عم أمير المؤمنين [ص٣٠٥]، حفظ الله من أمرك ما تحب أن تُحفظ، نحن بناتك، وبنات أخيك وابن عمك، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا، قال : إذاً لا أستبقيَنَّ منكن واحدةً، ألم يقتل أبوك ابن أخي إبراهيم الأشتر، ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين ، وصلبه في الكوفة، ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان، ألم يقتل

---

(١) بوصير: اسم لأربع قرى بمصر، بوصير قوريدس، وبها قُتل مروان بن محمد، وبوصير القوريدس من كورة البوصيرية .(ياقوت : بوصير)

(٢) ينظر ما سبق في ترجمة أبي العباس السفاح في الدولة العباسية .

(٣) الزاب : أنهر هي : الزاب الأعلى ، بين الموصل وإربل، والزاب الأسفل، مخرجه ما بين شهرزور وأذربيجان، بينه وبين الزاب الأعلى مسيرة يومين أو ثلاثة، وبين واسط وبغداد زابان آخران أيضا يسميان الزاب الأعلى والزاب الأسفل، ويوم الزاب بين مروان بن محمد وبني العباس، كان على الزاب الأعلى بين الموصل وإربل .(ياقوت : الزاب)

زياد الدعي مسلم بن عقيل، ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي، ألم يخرج إليه بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا، فوقفهن موقف السبي، ألم يُحمل إليه رأس الحسين فقرع دماغه، فما الذي يحملني على الإبقاء عليكن، قالت : فليسعنا عفوكم، قال : أما هذا فنعم، وإن أحببت زوجتك ابني الفضل، قالت : وأي حين عرس هذا، بل تلحقنا بحران، فحملهن إليها مكرمات، فلما دخلنها ورأين منازل مروان ، رفعن أصواتهن بالبكاء .

قلت : وهيهات البكاء، والبكاء لا يرد الغائب، ولا ينقع الغليل، فأُفٍّ للدنيا، وتبّاً لخدع الغرور، مرت ببني مروان ونسفت ملك آل أبي سفيان ، وخضبت دما شيبَ عثمان، وفعلت ببني آمنة ما فعلت وتفعل بسائر أبناء الزمان .

وإذا انتهينا إلى آخر دولتهم التي لم يبق لهم بعدها إلا ما برقت لهم به بارقة بالأندلس، فنقول وبالله التوفيق :

ثم كانت :

الدولة الأموية بالأندلس

نهض غدها وهو عاثر، ونظم عقدها وهو متناثر، وأضاء خلل الرماد لها وميض جمر(١)، وأطل لها نهوض أمر، وذلك بدخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إلى الأندلس، مصمما، كالمشير بالعضب، متمما رقى ذلك الهضب، بهمّة لو قذف بها البحر لما عبَّ زاخره، أو الفلك الأعلى لما دارت دوائره،

---

(١) هو من قول نصر بن سيار ينذر مروان بن محمد بتحرك جيش أبي مسلم الخراساني :

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرامُ

ينظر قيام الدولة العباسية من هذا الكتاب وابن الأثير ٥ / ٣٣ .

ووجد بالأفق العربي مواليه، ومن مر النسب العزي من يواليه، من صدم بهم صدور الخيل الشزَّب، حتى أدفا صدور الرحال العُزَّب، واجتلى النصر [ص ٣٠٦] تبرق أسرته، وتحدق مسرته، وتعبق بأطراف الأسنة رائحته، وتعلق بأطراف الأعنة بساتينه، واقتطع من المعمورة، ذلك الإقليم الجليل، وصيَّره له دار خلافة، طالت ذوائبها، وصالت كتائبها، ودان له أهل تلك الجهة وذلت له مناكبها، وظلت تقدم لها منابرها، ويعلن باسمه خاطبها، خلافة ابتزَّها من بني العباس، قهراً بالأيدِ وقسراً بالكيدِ ، ونصرا لم تحتج إلى سلم ، ولم يحتج إلى زيد ولا عمرو، أخذها غصبا من أفواههم الفاغرة، ونهبا من أيديهم وأعناقهم صاغرة، بعزائم ما فلَّت السيوف ضرابها، ولا ملَّت السيول غلابها، حتى اجتمعت له دائرتها، وارتفعت به نائرتها، وخشعت الدولة العباسية خوفا لا تهب الدولة الأموية وتثور ثائرتها .

وها أنا أذكر هذه الدولة ما زخر به في الأندلس بحرها، وفخر بما تحلى به من مآثرهم نحرها، وأولها الباني لها، وموج المنايا حولها متلاطم، وفوج الرزايا ببابها متزاحم، المنقض بأفقها عقابه القشعم، المنبت بأرضها شجاعُه الأرقم .

هي :

١١٣ - دَولَةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ مُعَاوَيَةَ بنِ هِشَامِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوَانَ

الداخل(١) الحق المطرَّف، رجل العالم، وبطل بني آدم، خلص من لهوات

(١) عبد الرحمن الداخل : عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن هشام، الملقب بصقر قريش، مؤسس الدولة الأموية بالأندلس، وأحد عظماء العالم، ولد في دمشق ونشأ يتيما (مات أبوه وهو صغير) فتربى في بيت الخلافة، ولما انقرض ملك الأمويين في الشام، وتعقب العباسيون رجالهم بالقتل والأسر، أفلت عبد الرحمن، وأقام في قرية على الفرات، فتتبعته الخيل، فأوى إلى بعض الأدغال، حتى أمن، فقصد المغرب، فبلغ أفريقية، فلج عاملها (عبد الرحمن بن حبيب الفهري) بطلبه، فانصرف إلى مكناسة، وقد لحق به مولاه بدر بنفقة وجواهر كان قد طلبها من=

القواضب، وهفوات العدو المغاضب، وعبر الفرات يشقها عوما بذراعه، ثم الفلاة يقطعها فردا من أصحابه وأتباعه، حتى أتى المغرب، وبلغه اختلاف المضرية واليمانية بالأندلس، فبعث بدراً مولاه، ليستميل أي الفريقين وآلاه، فأتى اليمانية إثر نوبة كانت للمضرية عليهم، فاستمالهم، ووعدهم عنه، ومنّى آمالهم، ولما أراد الحرب عقد نقيبه عبد الله بن خالد لواءه، وكان أبوه خالد عقد لواء مروان بن الحكم يوم المرج، فكشف لأواه فتيمن بتلك النقيبة ولهذا خص بعقد اللواء نقيبه . وخرج يوسف بن عبد الرحمن[2] فيمن بقي من طاعته،

= أخت له تدعى (أم الإصبع) ثم تحول إلى منازل نفزاوة وهم جيل من البربر، وأمه منهم، فأقام مدة يكاتب من في الأندلس من الأمويين، وبعث إليهم بدرا مولاه، فأجابوه، وسيروا له مركبا فيه جماعة من كبرائهم، فأبلغوه طاعتهم له، وعادوا به إلى الأندلس، فأرسى بهم مركبه سنة ١٣٨هـ، في المنكب، وانتقلوا إلى أشبيلية، ومنها إلى قرطبة، فقاتلهم والي الأندلس (يوسف بن عبد الرحمن الفهري) ، فظفر عبد الرحمن الداخل ، ودخل قرطبة واستقر، وبنى فيها القصر وعدة مساجد، وجعل الخطبة للمنصور العباسي، فاطمأن إليه أهل الأندلس، ولما انتظم له الأمر ووثق بقوته قطع خطبة العباسيين، وأعلن إمارته استقلالا، والمنصور العباسي أول من لقبه بصقر قريش، ولقب بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من خلفاء الأمويين، وكان حازما سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، لا يخلد إلى راحة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ولا ينفرد برأيه، شجاعا مقداما شديد الحذر، سخيا لَسناً شاعرا عالما، يقاس بالمنصور في حزمه وشدته وضبطه للأمور، بنى الرصافة بقرطبة تشبها بجده هشام باني رصافة الشام، وتوفي بقرطبة ودفن بقصرها سنة ١٧٢هـ .

(ابن الأثير ٥ / ١٨٢، ٦ /٣٧، نفح الطيب ١ /١٥٥، ٢ /٧٠١، البيان المغرب ٢ /٤٩، ابن خلدون ٤ / ١٢٠، الحلة السيراء ص٣٢، الاستقصا ١ /٥٣، ٥٤)

(٢) يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري : أمير الأندلس، أحد القادة الدهاة، كان مقيما قبل الإمارة بالبيرة، ومولده بالقيروان، ولما توفي (ثوابة بن سلامة) بقرطبة ، اختلفت المضرية واليمانية فيمن يولونه الإمارة، وكلا الفريقين يريد أن تكون الولاية له، ثم اتفقوا على يوسف الفهري، فكتبوا إليه يذكرون له إجماعهم على تأميره ، فجاءهم سنة ١٢٩هـ وأطاعوه، وخرج عليه بعض الأمراء بأربونة وباجة وسرقسطة، فقضى على ثورتهم، واستمر إلى أن دخل عبد الرحمن الأموي، فقاتله يوسف سنة ١٣٩هـ فانهزم أصحابه ، وقتله بعضهم في طليطلة، وحمل=

ووفى بأس التفرق من جماعته، وكان الزمان ربيعا [ص٣٠٧] جاء إثر جدب ، ما مر النسيم على مخلصه، ولا رم شعث الناس إلا ما كل نقله، وسارا على نهر أشبيلية[١]، كل منهما على ضفة منه، ثم تقابلا مقابلة كادت تكون اجتماعا وتراسلا، لا لشيء إلا خداعا، وكان ذلك يوم عرفة، فبات يوسف بن عبد الرحمن همُّه ذبح الجزر وتهيئة الطعام، وعبد الرحمن الداخل همُّه في تسوية الصفوف، وإثارة القتام، فلما أصبح يوم الأضحى جازت خيل عبد الرحمن النهر، وجادت بالحديد مثقلة الظهر، وتناوش الفريقان الحرب، يشعبون شعب رماحهم، ويهيجون شعب صفاحهم .

وكان عبد الرحمن على فرس سابق، فخاف أهل معسكره أن ينهزم،[٢] وحار من كان له بينهم، وقالوا : شاب غر وتحته فرس يرمي به المرامي، نخاف إن عضت الحرب أن يطير عليه على بعض الموامي، فلما نمي إليه هذا الخبر، استدعى بغلا أشهب كان معه، وركب عليه لايفارق موضعه، فاطمأنوا إلى الثبات، وارجحنوا كالجبال لولا الوثبات، فانهزم يوسف هزيمة لم يُرَ بعدها جدا مقبلا، ولا حدا إلا مقللا، ودخل الداخل قرطبة، وحل بها صدر المرتبة، ثم كان آخر أمر يوسف بن عبد الرحمن مع عبد الرحمن أنه انتظم في جنده، وارتطم بالأرض خضوعا تحت بنده .

= رأسه إلى عبد الرحمن فنصب بقرطبة سنة١٤٢ هـ .

(ابن الأثيره /١٧٦، نفح الطيب ١ /١٥٥، ١٥٦، ابن خلدون ٤ /١٢٠ ــ ١٢١، التنبيه والإشراف ص ٢٨٦ ــ ٢٨٧، البيان المغرب ٢ /٣٨، ٤٤ ــ ٥٠ ، الحلة السيراء ص ٥٣)

(١) أشبيلية : مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس أعظم منها، وبها قاعدة ملك الأندلس، وبها كان بنو عباد، وعملها متصل بعمل لبلة وهي غربي قرطبة، بينهما ثلاثون فرسخا، وأشبيلية قريبة من البحر يطل عليها جبل الشَّرَف، وهو جبل كثير الشجر والفواكه، وهي على شاطيء نهر عظيم ، قريب في العظم من دجلة والنيل . (ياقوت : أشبيلية)

(٢) في الأصل : لا ينهزم .

قال صاحب المقتبس: ولما كان يوم المضارة واستحر القتل، مشى العلاء بن جابر العقيلي إلى الصميل بن حاتم[١]، وكلاهما من عسكر يوسف بن عبد الرحمن، فقال له: يا أبا جوشن، اتقِ الله، فوالله ما أشبه هذا اليوم إلا بيوم المرج[٢]، وإن عاد ذلك لباقٍ علينا إلى اليوم، وإن الأمور لنهتدي إليها بالأشباه والأمثال، أموي وفهري، وقيس ويمن ، ووزير الفهري ذلك اليوم قيسي وهو زفر بن الحارث، ووزير هذ اليوم أنت، وأنت قيسي، ويوم عيد في يوم جمعة، ويوم المرج يوم عيد في يوم جمعة، الأمر والله علينا ما أشك فيه، فاتقِ الله واغتنم بنا تلافيه، فلم يفد كلامه .

وفي هذه الوقعة يقول ابن السنبسية :

[الكامل]

أهداكَ ربك رحمةً لعبادهِ ... لما تضَرَّمَتِ البلادُ وقودا[ص ٣٠٨]

فسلقتَ أطرافَ الأسنة في العدى ... حتى روينَ فما يرونَ مزيدا

والخيلُ تعثرُ بالقنا وكأنما ... فوق السنابكِ إذ حنينَ قيودا

والمشرفيةُ لن تبيد صقالُها ... مثل الكواكبِ يتَّقدنَ وقودا

حتى أطرنَ جماجماً مكنونةً ... تحتَ المغافرِ فانكفأنَ سجودا

(١) الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن الضبابي : شيخ المضرية في الأندلس، وأحد الأمراء الدهاة الشجعان الأجواد، قدم الأندلس في إمداد الشام أيام بني أمية، فرأس بها، وأساء إليه عاملها أبو الخطار، فثار أصحاب الصميل، وقبضوا على أبي الخطار، وولوا ثوابة بن سلامة، ثم غيره، والسلطة والنفوذ للصميل، وأقام على ذلك إلى أن دخل الأندلس عبد الرحمن الأموي، وكان أميا، وله شعر، توفي الصميل في سجنه سنة ١٤٢ هـ . (الحلة السيراء ص ٤٩ ، التاج ٤٠٨/٧)

(٢) المرج : هو مرج راهط ، بنواحي دمشق ، وكانت فيه الوقعة المشهورة التي قتل فيها الضحاك بن قيس، واستقام الأمر لمروان بن الحكم . (ياقوت : المرج)

كان عبد الرحمن يدعو إلى أبي جعفر المنصور، حتى دخل الأندلس عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم، ووافى عبد الرحمن فآواه وعززه وكرم مثواه، فلما حضر له الجمعة وسمع الدعاء لأبي جعفر المنصور أنكره، وقال: إن من الحكم جهلا، وأي هوادة بيننا وبين هؤلاء عدوا علينا فلم يرقبوا إلاً ولا ذمة، واستحلوا منا كلَّ حرمة، وأخرجونا من أرض الله الواسعة فألجأوا فلَّنا إلى هذه القاصية الشاسعة، ثم ها نحن الآن نسايرهم فيها ونمد لهم خيط باطلهم بالدعاء لهم، أعطي الله عهدا، لئن لم تحول الدعوة لهم إلى البراء ة منهم، لأنقلبن على وجهي مبادرا في هذه الأرض العريضة، وقد كان من هوى عبد الرحمن الداخل، إلا أنه آثر الأناة إلى أن استضاء برأي ابن عمه، فترك الخطبة لأبي جعفر وتفرد بالدعاء لنفسه، وذلك بعد سنة من دخوله الأندلس .

ثم شرع في تعظيم قرطبة[١]، فجدد مغانيها وشيد مبانيها، وحصَّنها بالسور حتى أشرف بناؤه، وابتنى بها قصر الإمارة والمسجد الجامع، وكان سلف المسلمين قد اقتصروا عند افتتاحهم لقرطبة، حتى اتخاذهم مسجدهم الجامع، فيما خصهم من سطر الكنيسة العظمى بها المعروفة بشنت، بحيث كما كان بدمشق، ودام الأمر على هذا تهالك الولاة بالأندلس على الإمارة، وهويهم في ضلال الشحناء إلى أن جمع شتاتهم عبد الرحمن الداخل، وسمت نفسه إلى ما تسمو إليه أنفس الخلفاء، فصالح النصارى على شطرهم بمواضع مما كان أخذ

---

(١) قرطبة : مدينة عظيمة بالأندلس، وسط بلادها، وكانت سريرا لملكها وقصبتها، وبها كانت ملوك بني أمية ومعدن الفضلاء والنبلاء من ذلك الصقع، بينها وبين البحر خمسة أيام، قال ابن حوقل: وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة، وهي حصينة بسور في حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور إلى طريق الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعالي البلد، متصلة بأسافله من ربضها، وخربت قرطبة بالجور عليها، فعمرت أشبيلية ببني عباد، وخربت قرطبة وصارت كإحدى المدن المتوسطة .(ياقوت : قرطبة)

بالعنوة من كنائسهم، وذلك سنة تسع وستين ومائة ، ثم لما وسع قناء ه ، ووسع بناء ه، تخطى بنظره إلى مساجد الكور بالأندلس، ثم ابتنى منية الرصافة[١] متنزها له ، تشبها [ص٣٠٩] بجده هشام، واتخذها قصرا حسنا، ودحا بها جنانا واسعة، نقل إليها غرائب الغراس وأكارم الشجر، من كل ناحية مما أتت به رسله من الشام، فمثلت أشجارا معتمة أثمرت بغرائب الفواكه، وعجائب الثمرات، ورأى أول ما نزل هذه الرصافة نخلة فذة ذكرته باغترابها غربتَهُ، وبنأيها عن أشباهها أحبته، فقال :[٢]

[الطويل]

تبدَّتْ لنا وسْطَ الرصافةِ نخلةٌ ... تناءتْ بأرض الغربِ عن بلد النخلِ

فقلتُ شبيهي في التغربِ والنَّوى ... وطول انتنائي عن بنيٍّ وعن أهلي

نشأتُ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمثلكِ في الإقصاءِ والمنتأى مثلي

سقتْكِ غوادي المُزنِ من صوبها الذي ... يسحُّ ويستمري السماكين بالوبلِ

وحكى صاحب المقتبس ما معناه : أن عبد الرحمن الداخل في سنة ثلاث وستين ومائة، أشاع الرحيل إلى الشام لانتزاعها من يد الدولة العباسية وإدراك ثأره، وذكر أن كتب جماعة ممن بها من أهل بيته ومواليه وشيعته، توالت عليه بضعف المسوَّدة، وفتور فورتهم ، ونقل ذلتهم على الناس، فعمل على أن يستخلف ابنه سليمان الأندلس في طائفة، ويذهب بعامة من أطاعه وكمل من ضروب المماليك أربعين ألفاً، فاختُرِم دون ذلك .

---

(١) منية الرصاف : منية مضافة إلى أسماء كثيرة ليس من بينها الرصافة، والرصافة هنا : هي رصافة قرطبة بناها عبد الرحمن الداخل في قرطبة ، تشبيها برصافة هشام بن عبد الملك في الشام غربي الرقة .(ياقوت : الرصافة)

(٢) الأبيات في كامل ابن الأثير ٥ / ٢٨٠ ــ٢٨١ ومعجم البلدان : الرصافة .

وتوفي يوم الثلاثاء لستة بقين من ربيع الآخر سنة سبعين ومائة، وهو ابن سبع وخمسين سنة وأربعة أشهر، ومولده قريب تدمر[١] من الشام سنة ثلاث عشرة ومائة، ولبث من يوم بويع إلى أن مات ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام، ودفن في القصر، وصلى عليه ابنه عبد الله بن عبد الرحمن المولود ببلنسية[٢]، وكان يقال له صقر قريش، وكان أصهب خفيف العارضين، بوجهه خال، طويل القامة، نحيف الجسم، له ضفيرتان . وحكى الحافظ أنه كان أخشم، لا يشم رائحة .

١١٤ - دَولَةُ ابنه هشَامِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ [ص٣١٠]

أبي الوليد[٣]، وولد بالأندلس، ووجد أبوه به الأنس، وكان يفضله على ولده الأكبر سليمان، وكان سليمان ممن ولد بالشام، وقدم الشام إلا أنه لم يطال

(١) تدمر : مدينة قديمة مشهورة في برية الشام، بينها وبين حلب خمسة أيام .
(ياقوت : تدمر)

(٢) بلنسية : كورة ومدينة مشهورة بالأندلس متصلة بحوزة كورة تدمير، وهي في شرقي تدمير، وشرقي قرطبة، وهي برية بحرية ذات أشجار وأنهار، وتعرف بمدينة التراب، وتتصل بها مدن تعد في جملتها . (ياقوت : بلنسية)

(٣) هشام بن عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك : أبو الوليد، ثاني خلفاء الدولة الأموية بالأندلس، ولد بقرطبة ، وولاه أبوه ماردة، وبويع بعد وفاة أبيه (سنة ١٧٢ هـ)، فحسنت سياسته، وكان حازما شجاعا شديدا على الأعداء ، راغبا في الفتح موفقا، بنى عدة مساجد، وتمم بناء جامع قرطبة، وكان أبوه قد بدأ به، وكان يبعث إلى الكور من يسأل أهلها عن سيرة عماله فيها، وأحبه الناس لعدله، وأهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبد العزيز، توفي بقرطبة سنة ١٨٠هـ.

(ابن الأثير ٦ / ٤٩ ، المعجب ص ١٩ ، البيان المغرب ٢ / ٦١، نفح الطيب ١ / ١٥٨، ابن خلدون ٤ / ١٢٤، جذوة المقتبس ص ١١)

همَّــة هشام، ولما مات أبوه عـبد الرحـمن حـتى ذكـره، وحُني من ورق الحـديد الأخضر نصره، ونازعه أخواه، فلم يجدا في قوسه منزعا، ولا في قوله الفصل مطمعا، حتى أتاه الأمر طائعا، ووافاه سرير الملك وقد مد عنقه خاضعا، واستهل ذلك الجو سحابا دوى الأوام، واستقل في ذلك الأفق بدرا ينجاب عنه الظلام ، وجرت له أمور، ووجبت عليه نذور لموافقة السعادة لمراده، ومؤازرة النصر لأمداده، ومسارة الصواب لنجوى فؤاده، فكان لا ينقض إبرامه مريرته، ولا ينقل مرامه عن الحسنى سريرته، فكان يعد من خير أملاكهم حظا سعيدا، ولفظا سديدا، تسع الدنيا همَّــة العوال ويجمع النعماء بعض ما تهبه من النوال، وكان على هذا كله تقي الورع ، نقي المجتمع، لا تحضر مجلسه الغيبة، ولا تحل ملبسه الريبة، مع رأي أسد من السهم نفاذا، وأشد من الوهم بالضمير ملاذا، وكان أبوه عبد الرحمن بن معاوية يحضره مشورته، وينظره من الرأى صورته، وربما تكلم بين يدي أبيه فقال صوابا، وقاس الأمور على أشباهها فبرع جوابا، ولهذا كان أبوه يقدمه ويثقفه تثقيف السمهري ويقومه، ويؤاخذه في الأمور وما يريد إلا أنه يبصره ويفهمه .

حكى صاحب المقتبس ما مضمونه، أنه كان عند وفاة أبيه عبد الرحمن بمدينة باردة، وكان أخوه بمدينة طليطلة، وكان أخوهما عبد الله البلنسي حاضرا بقرطبة ، فشهد موت أبيه دونهما، وشد الأمر بعده، وبادر بالكتابة لأخيه هشام، يعلمه أن أباه مات وعهد إليه، وحثه على البدار نحوه، فخرج من فوره إلى قرطبة، وتسلم الملك، وبويع على الإمارة، وكان أول من بايعه أخوه عبد الله على زعل نواه، وغلٍّ بين جوانحه طواه .

وحكى محمد بن حفص : أنه لما انكشف وجه هشام من غمة حروبه مع أخويه سليمان وعبد الله [ص ٣١١] صفت له الأندلس جميعا، واجتمع له

طاعة أهلها طُرّاً، وكانت يومئذ أكثر ما كانت، فسما لجهاد عدوهم سمواً استفرغ فيه وسعه، فأعطى فيهم نصرا لا كفاء له، وافتتح مدينة أربونة[١]، وبلغ من تحكمه فيهم أن اشترط على المعاهدين من أهل جليقية[٢] لما سألوه المسالمة، نقل عدد من أحمال التراب من سور أربونة إلى باب قرطبة، فلما أكمل نقل هذا التراب، ابتنى منه مسجدا قدام باب الجنان[٣]، وهو الذي كان يصلي فيه من حضر باب السلطان.

قلت: وأربونة كانت فتحت قبل هذا الفتح، ودامت بأيدي بلاد الإسلام حتى عبد الرحمن الداخل، وأقر عليها عبد الرحمن بن علقمة اللخمي، عامل يوسف بن عبد الرحمن الفهري، ثم غلب عليها العدو، واجتذبها من يد الإسلام إلى أن فتحت هذا الفتح.

وحكى محمد بن عمر بن القوطية كلاما ما معناه: أن هشاما سأل الضبِّي المنجم عما تقتضيه النجامة من أمره، وكان الضبي بطليموس عصره حذقا وإصابة، فسأله الإعفاء، فلم يجبه، فلما لم يجد بدا من إخباره قال له: نعم، أصلح الله الأمير، سوف يستقر ملكك سعيدا، وجدك لمن ناواك إلا أن مدتك تكون ثمانية أعوام، فأطرق هشام ساعة ثم رفع رأسه وقال: يا ضبّي، ما أخوفني أن يكون النذير كلمني بلسانك، والله لو كانت المدة كانت في سجدة واحدة لله لقلّت طاعةً له، ووصل الضبي وصرفه، ثم شمَّر هشام للعمل

---

(١) أربونة: بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس، وهي الآن بيد الإفرنج، بينها وبين قرطبة ألف ميل. (ياقوت: أربونة)

(٢) جيليقية: ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب، وهي في بلاد لا يطيب سكناه لغير أهلها. (ياقوت: جيليقية)

(٣) باب الجنان: باب من أبواب مدينة الرقة، وباب من أبواب مدينة حلب، وهذه باب من أبواب قرطبة، ولم يذكر الأخيرة ياقوت.

لمعاده، وضمَّر بطنه لتحصيل زاده، حتى مضى وهو على جهاده .

وكانت وفاته بمرض سوداوي لحقه ليلة الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من صفرسنة ثمانين ومائة، وكان ابن تسع وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام، لبث بها خليفة سبع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام . وكان أبيض مشربة حمرة، بعينيه حول ، وقال بكر الكتاني يرثيه :

[**الطويل**]

لقد فجع الإسلامَ موتُ هشامِ ... نجيبِ قرومٍ منجبين كرامِ
هشامٌ لعمري كان للدين راعيا ... بعينِ مراعاةٍ وحدِّ حُسامِ[ص ٣١٢]
إذا صال كان الليث يحمي عرينه ... وغيثاً إذا ما كان يوم سلامِ

١١٥ – دَولَةُ ابنِهِ الحَكَمِ بنِ هِشَامٍ الرَّبَضيِّ (١)

وكان حميَّ الأنف(٢)، عزما يتوقد صرامة ابى الآبقة عدا(٣) لا يستسهل

(١) في الأصل : المرتضى، وهو تحريف ، وصوابه : الربضي .

(٢) الحكم الربضي : الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الأموي، أبو العاص، من أفحل ملوك بني أمية بالأندلس، وأول من جعل للملك أبهة، وأول من جند بها الأجناد، وجمع الأسلحة والعدد، وارتبط الخيول على بابه، وهو الذي مهد الملك لعقبه في تلك البلاد، كان يباشر الأمور بنفسه، شديدا جبارا ضابطا لأمر مملكته، يلقب بالربضي لإيقاعه بأهل الربض (وهي محلة متصلة بقصره) نمي إليه أنهم يريدون مكيدة للإيقاع به فقتلهم وهدم ديارهم، مولده ومنشؤه بقرطبة، وولي الأمر بعد أبيه سنة ١٨٠هـ ، وقامت في أيامه فتن فاشتغل في حسمها، فجاء ه أن مجاوريه من الفرنج أخذوا يفسدون في الثغور، فسار إليهم بنفسه سنة ١٦٩هـ ، فافتتح الحصون وخرب النواحي العاصية، وعاد إلى قرطبة ظافرا، وهابه الناس، فاستقر له الأمر إلى أن توفي بقرطبة، وكان كثير العناية بالأدب والعلم خطيبا، له شعر ينفكه بنظمه، توفي سنة ٢٠٦ هـ .

(ابن خلدون ٤ / ١٢٥ ، ابن الأثير ينظر الفهرست، المغرب في حلي المغرب ص ٣٨ ـ ٤٤ ، فوات الوفيات ١ /١٤٦)

(٣) كذا بالأصل .

مرامه، لا يستلان له جانب، ولا يستهان به إلا دهياً أو مقانب بصوارم فللت الصفوف[١]، ومكارم قللت الألوف، فكلما أتاه جمع عدوٍ ولا مالٍ إلا فرَّقه، ولا قاواه جلد وطيش، ولا لبس إلا مزَّقه، وسعد جده المقبل ، وصعد رفده على الغمام المسبل ، ولم يبق له معاند إلا احترق بناره، أوصادف جدوله فغرق في تياره، في عدة نوب عدمت البصيرة فيها حذارها ثم قدمت السهام إليها ارتدادها، ثم أقدمت السيوف وأبلت فيها عذارها ، وخفقت فيها أعلامها الأموية بريحها التأييد، ويصبحها النصر مستطيرا من برق الحديد، في حروب منها ما باشره، ومنها ما قعد عنه ، وعُقد له لواء لم يكن سواه ناشره، فما عادت عساكره إلا وقد شفَّت مناه، وكفت همة ما عناه، حتى أودع بطون الثرى أعداه، وودع القيام، فما استسقى لمنابت الرماح أنداه، وصفا له الأندلس من شوائب الأعداء ، ونوائب الإعداد للأعداء ، واستقر سريره لا يقلقل له إلا في دور ملكه مضجع، ولا يقلِّب له إلا بين جواريه ذهاب أو مرجع، واستوفد إكرامه طوائف العلماء ، واستبيح كرمه قرائح الشعراء، فغصَّت أبوابه بالوفود، وقصَّت أجنحة زواره ، وما قصها سوى الجود، وكان أول أموي باح في الأندلس بمكنون سره، ومضمون ما كان يلجلج في فكره، ولم يخش دولة بني العباس أن ترمي إليه مدنها، أو ترسي عليه سفنها، وما راعه سواد ذلك العلم، ولا أقلقه تبكي ذلك الألم، ولا خاف أن تصيبه من العراق سهم أصاب وراميه بذي سلم[٢] كل هذا مع بصيرة بالعواقب، كأنما ناجته بما يكون وسريرة لا تراقب، إلا ما لم يألف من السكون، لكن الأقدار

---

(١) في الأصل : فللت الصوف، وهو تحريف

(٢) هو صدر بيت للشريف الرضي وتمامه : [البسيط]

سهم أصاب وراميه بذي سلم من ... بالعراق لقد أبعدتِ مرماكِ

(الدر الفريد ٣ / ٣٧٠)

ما أسعفته بتمام هذا الأمل، ولا [ص٣١٣] كمَّلت له، ومن ذا الذي تم أمره أو كمل. وكان ذا دولة خدمتها الأكابر، وما منهم إلا من أغدق كرمه وشرق وغرَّب مدحُه، فمنهم عبد العزيز بن أبي عبدة، وفيه يقول بكر بن قيس:

[الطويل]

ألكني إلى عبد العزيز أخي الندى ... ثناءً وقولا قلتهُ متعرِّقا
لعمري لنعمَ المستغاثِ وجدتُهُ ... لدن جئته صفراً من المالِ مملقا
لأضحى وزيراً للخليفةِ حاجباً ... ترى رأيهُ رأياً إذا قال صدَّقا
فهذا يرى وجه النصيحة قوله ... وهذا يرى قول النصيحة موثقا
لفازت بنو حسان منه بسابقٍ ... هنيئاً مريئاً أن يفوز ويسبقا

ومنهم عبد الكريم بن مغيث، وهو الذي أمن طليطلة[1]، وبذل لأهلها مع القدرة من غير مسألة، إلا أنه اشترط عليهم شروطا خافوا منها العنت، لكتاب جاء ه من الحكم، جاريه فيما احتكم، وفيه يقول غربيب بن عبد الله :

[البسيط]

يا فارس الناس في الهيجا ومعقلهم ... هنَّاكَ ربُّكَ ما أعطى وأولاكا
حفظت في نسله قيساً وحطتهم ... كأنَّ قيساً بنا إذ مات أوصاكا
إن كان سرَّك ما جاء البريدُ به ... فلا لعمر أبي ما سرَّنا ذاكا
بل سرَّنا منك نعماء بدأتَ بها ... ما كان ضرَّك لو أتممتَ نعماكا

وفي أيامه في سنة سبع وتسعين ومائة كانت الشدة التي عمَّت أرض

(١) طليطلة : مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس، يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الأندلس، وهي غربي ثغر الروم بين الجوف والشرف من قرطبة، وهي على شاطىء نهر تاجه، وعليه القنطرة التي عجز الواصفون وصفها. (ياقوت : طليطلة)

الأندلس أجمعها، ومات منها أكثر الخلق ، واجتاز بعضهم البحر إلى العدوة لانتجاع خصبها، وارتجاع ما فاتها بأرض الأندلس من جدبها .

قال صاحب المقتبس : وكان المقلّون يطوفون الأيام دون تعلل بطعام، وفي سنة اثنتين ومائتين كانت الوقعة العظمى بقرطبة، وهي المعروفة بوقعة الربض، وهي نوبة كانت من أهل قرطبة، هاجوها يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان غب أحقاد حملوها على الحكم بن هشام، فحملوا السلاح بغتة، وزحفوا إلى قصره جُملة، فلم يتزحزح عن سريره، وإنما بعث مواليه وأهل ولائه فقاتلوهم [ص٣١٤] حتى هزموهم، واستمروا بالطلب لهم ولزموهم، وأمسك منهم خلقا كثيرا[١]، وصلب منهم ثلاث مائة رجل صفوفا أمام قصره، وأعظم فيهم الحادثة، وأفشى المثلة، ثم أمر بالكف، ونادى فيهم بالجلاء فتفرقوا في بلاد الأندلس أيدي سبأ، وعبر إلى بر العدوة ، منهم فلٌ ممن لا قُتِل ولاسبي، وقال الحكم في ذلك :

[**الطويل**]

رأيتُ صدوع الأرض بالسيف راقعاً ... وقدماً لأمت الشعب مذ كنتُ يافعا
فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرة ... أبادرها مستنضي السيف دارعا
وسائل على الأرض الفضاء جماجما ... كأحقافِ شريان الهبيد لوامعا
يُنبيك أني لم أكن في قراعهم ... بوانٍ وقدماً كنتُ بالسيف قارعا
وإني إذا حادوا جزاعاً عن الردى ... فما كنتُ ذا حَيْدٍ عن الموتِ جازعا
حميتُ ذِماري فاستبحتُ ذِمارهم ... ومن لا يحامي ظل خزيان ضارعا
ولما تساقينا سجال حروبنا ... سقيتهمُ سجلاً من الموتِ ناقعا

---

(١) في الأصل : كثيرة .

وهل زدتُ أن وفيتهم صاعَ قرضهم فلاقوا منايا قُدِّرت ومصارعا

فهاك سلاحي إنني قد جعلتها مهادا ولم أترك عليها منازعا

وحكى عامر بن المنبّي النحوي المؤدب قال : قدم علينا بعد الوقعة عباس بن ناصح قرطبة أيام عبد الرحمن بن الحكم ، فاستنشدني شعر الحكم بن هشام في الهيج، فأنشدته إياه ، فلما بلغت قوله :

وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم البيت

قال عباس : لو أن الحكم حوبي للخصومة بينه وبين أهل الربض لقام بعذره فيهم هذا البيت .

وقال أبو بكر بن القوطية : لم يتملَّ الحكم حلاوة العيش بعد وقعة الربض، وامتحن بعلة صعبة طاولته أربعة أعوام في آخر عمره فلَّت غَرْبَه، وأطالت ضناه، واحتجب فيها آخر مدته، واستناب ولده عبد الرحمن في تدبير ملكه، فمات أسيفا على توبة من ذنوبه، وندم على ما اقترف، وعرضت له رقَّة شديدة ألانت صلابته، وطفق يكثر الذكر ويفزع إلى استقراء القرآن، ويأنس بالتلاوة إلى أن مات على حاله [ص ٣١٥] تلك، فكانوا يرجون[١] له خيراً .

ولما أحسَّ بدنو المنية، عهد إلى ولديه: عبد الرحمن والمغيرة عهداً أشهد عليه الأشهاد، ثم نزل المغيرة لأخيه عبد الرحمن عن طيب نفس وإذعان، ونقل الحكم ابنه عبد الرحمن إلى القصر، وقام بالأحكام معه ودونه.

وأول ما أحدثه وأبوه حي أن صلب ربيع بن ندار رأس النصاري بقرطبة، وكان جديرا بالصلب والمثلة، لسوء أثره في المسلمين، فقال في ذلك عبد الله بن

(١) في الأصل : يرجوا ، وهو لحن .

الشمر النديم :

[**الرمل**]

يا ولي الأمر من بعد الحكم ... بك جاد الصنع للخلق وتَمْ
خذ بشكرٍ نعمةَ اللهِ التي ... هي من خير العطايا والقِسَمْ
واشكر اللهَ على نعمتهِ ... إنَّ في الشكرِ مزيداً للنعمْ
فلقد قربتَ قربانا به ... تلجُ الفردوسَ من طاغي العَجَمْ
كافراً سلَّمهُ أشياعُهُ ... وبهِ حَلَّتْ من اللهِ النِّقَمْ

ثم تخلَّى له أبوه الحكم عن النظر في أمور الخلافة، وأراد أن يُخلي له قصر الإمارة فأبى ابنه عبد الرحمن، وقال : بل أكتفي بالقعود على باب السدة مقعد صاحب المدينة، فاستحسن رأيه، وبدأ بتغيير المنكر، وأمر بهدم الفندق السلطاني المعد لبيع الخمور وسكن المومسات الخواطي، فهدمت بنيته، وصُبَّت أشربته، وكسرت آنيته، وخليت من العواهر أفنيته، فضجَّ الناس بالدعاء له وعلت أصواتهم حتى سمعها الحكم، فارتاع وسأل عماأوجب ضجيج الرعاع، فلما أعلم بما صنع ابنه سكن وقال: هو أعلم بما صنع .

وتوفي الحكم يوم الخميس لأربع بقين من ذي الحجة سنة ست ومائتين ، ومولده سنة أربع وخمسين ومائة، ومدة خلافته نحو ست وعشرين سنة وشهر ونصف شهر، وسِنُّه ثلاث وخمسون سنة، وصلى عليه ابنه عبد الرحمن ،[وكان] طوالا أشم نحيفاً لا يخضب .

١١٦ - دَولَةُ ابنِه عَبْد الرَّحْمَنِ بن الحَكَمِ

أبي المطرف[1] [ص ٣١٦]، كان أثيرا عند أبيه الحكم ، كثيرا مما يظهر به من

(١) الحكم بن عبد الرحمن بن هشام الأموي : أبو المطرف، رابع خلفاء بني أمية في لأندلس، ولد في=

الحكم أشبه في حكمته بالمأمون، وفي حرمته هارون، وتطلّب الكتب القديمة، وتطبّب بها من عدوى الأفهام السقيمة ، وطالع كتب الأوائل، وطالب بإقامة الدلائل، وبعث إلى العراق في طلب الكتب الحكمية، وغالى في أثمانها ، ووالى في ذخائر البيوت استخرج جمانها رغبة في إقامة براهينها وإدامة الوقوف على قوانينها، حتى نأى بها إلى الأندلس عن أوطانها، ورأى بالعقل أنه لا ينفذ إلا بسلطانها، فغلب بحججها القاطعة وبلغ الغاية بأنوارها الساطعة .

وكان هو أول من أدخل الحكمة، وبثها في أقطارها، ومد إليها بعثها حتى جاس خلال ديارها، فأعاد عصر الأوائل جديدا، وعصر الفضائل زاد ضحى قريبا بعيدا، بل زاد حتى سطا بأرسطاطاليس، وفلّ إفلاطون بجيش لا يفله الخميس، فما جاء معه أبقراط بقيراط، وبطل بطليموس فيما أحاط به علما ومالا أحاط، فذكت قريحته ، وزكت صبيحته ، وكان أبوه الحكم لما سمع كلامه في هذه الدقائق، وعرف مرامه في معرفة هذه الحقائق، يتضاعف به سروره ، ويتماثل لديه أموره، ولهذا انتعش لديه حظه من خاطره، وجاد أفقه صوب ماطره، فكان

= طليطلة (وكان أبوه واليا عليها قبل ولايته الملك)، بويع بقرطبة سنة ٢٠٦ هـ بعد وفاة أبيه ، وهو أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة، وكسا الخلافة أبهة الجلالة، فشيد القصور ، وجلب الماء العذب إلى قرطبة، وبنى مصنعا كبيرا يرتاده الناس، وبنى الرصيف وعمل عليه السقائف، وبنى المساجد في الأندلس، ومنها جامع أشبيلية وسورها، وعمل السقاية على الرصيف، واتخذ السكة (النقود) بقرطبة، وضرب الدراهم باسمه ولم يكن ذلك فيها مذ فتحها العرب، ونظم الجيش واستكثر من الأسلحة والعدد، واحتجب قبل موته مدة ثلاث سنوات، لعلة أضعفت قواه، وكانت أيامه أيام سكون وعافية، وكثرت عنده الأموال، وكان عالي الهمة له غزوات كثيرة، أديبا ينظم الشعر، مطلعا على علوم الشريعة، يشبّه بالوليد بن عبد الملك في سياسته وتأنقه، ومدة ولايته إحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر، ووفاته بقرطبة سنة ٢٣٨ هـ .
(ابن الأثير ٧ / ٢٢، ابن خلدون ٤ /١٢٧، البيان المغرب ٢ / ٨١، المغرب في حلي المغرب ١ / ٤٥ـ ٥١، الحلة السيراء ص ٦١، جذوة المقتبس ص ١١، نفح الطيب ١ /١٦٣)

لا يبرح يحبوه من الشكر بعاطره، ويجلوه في حلل اغنته عنها فطره، هذا مع استقلال بجنوده، صاب نوؤه وأصاب سدد الظلام ضوؤه .

قال الرازي : عبد الرحمن بن الحكم ، أول من فخَّم الملك بالأندلس من خلفاء بني مروان، وكساه أبهة الجلالة للأعمال، واستوزر الأكفأ، فعظم شأنه، وكاتبته ملوك البلاد، ثم شيَّد القصور، واتخذ المصانع وجلب الماء .

وحكى معاوية بن هشام : أنه كان يتشبه بالوليد بن عبد الملك في شرف نفسه، وعلاء همَّته، وفخامة سلطانه، ودعة أيامه ، وما شاد من البناء ، وشق من الأنهار، وغرس من الأشجار، وزاد في المسجد الجامع، وفيه قال عبد الله بن الشمر :

[**الطويل**]

بنى مسجدا لم يُبْنَ في الأرضِ مثلُه　　　وهل مثلُهُ في حوزةِ الأرضِ مسجدُ[ص٣١٧]
لـه عُمدٌ حُمْرٌ وخُضْرٌ كأنَّما　　　تلوحُ يواقيتٌ بها وزبرجَدُ

قال الرازي : وفي أيامه أحدث بقرطبة وغيرها من بلاد الأندلس الطرز لأنواع الكسوة والوطاء، واستنبطت فيها الأعمال، وتدرج فيها إلى التجويد في ذلك، وقال الرازي : وفيها اتخذت بقرطبة السكة، وقام فيها ضرب الدراهم، ولم يكن فيها دار ضرب منذ فتحها العرب، وإنما كانوا يتعاملون بما يحمل إليهم من دراهم أهل المشرق .

قلت : وهذا أوان صارت الأندلس مصرا، وصارت تعد بستانا، وقصرا بعد أن مضت برهة من الدهر لايوصف إلا بأنه يصفق في جنباتها النهر . وكان عبد الرحمن أشم أقنى أسود العينين طوالاً ضخماً مسبلا عظيم اللحية.

١١٧ - دَولَةُ ابنِهِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

وهي المتصرمة[١] عن افتراق الجماعة، المقسمة في آخرها بفراق الطاعة المسلمة من يده إلى الإضاعة المحومة لا إلى منهل عذب، المحولة رداها لا بمنصل عضب، بل يتحوم النفاق بكل جهة، وعدم الوفاق على ما تكون به السرائر مرفهة لقضاء سبق علمه لا لاقتضاء بسوء فعل، إلا أنه قسمه، وقد كان ذا كرم غمر اليدين، وهمم تسع صدر الفرقدين، وبصيرة ثاقبة، وسريرة لله مراقبة، إلا أنها الأقدار لا تعاند، والأسرار لا تبيد ذممها ولا تعاهد.

استخلف يوم مات أبوه، ودخل القصر على ملأ من الناس، وحَماء ممن يريد هدَّ ذلك الأساس، وقيل : بل دخل متخفيا، ثم أصبح على السرير جالسا، ثم علا صهوة المنبر فارسا، وتولى أخذ البيعة له ابن شهيد[٢]

---

(١) محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي : أبو عبد الله من خلفاء الدولة الأموية بالأندلس، مولده ووفاته في قرطبة، ولي الملك بعد وفاة أبيه سنة ٢٣٨هـ ، وصفت له أيامه، وكان كثير الإحسان للرعية عاقلا عادلا، أحبه أهل البلدان المستقلة في عصره، حتى كان (بنو مدرار) بسجلماسة، ومحمد بن أفلح صاحب (تاهرت) لا يقدمون ولا يؤخرون في أمورهم ومعضلاتهم إلا برأيه، وكان كثير المغازي والغارات على الإفرنج، وقال ابن الأبار في وصفه : كان أيمن الخلفاء بالأندلس ملكا، وأسراهم نفسا، وأكرمهم تثبتا وأناة، يجمع إلى هذه الخلال الشريفة البلاغة والأدب، خلف نيفا وخمسين ولدا، وفي المؤرخين من يشير إلى أن وزيرا اسمه (هاشم بن عبد العزيز) أساء السيرة فضاعت هيبة الدولة في آخر أيامه، توفي سنة ٢٧٣ هـ .

(ابن الأثير ٧ / ١٤١، ابن خلدون ٤ / ١٣٠، الحلة السيراء ص ٦٤، المغرب ١ / ٥١ ـ ٥٣، البيان المغرب ٢ / ٦٣ ـ ١١٣، جذوة المقتبس ١١، الوافي بالوفيات ٣ / ٢٢٤)

(٢) ابن شهيد الأندلسي : عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد القرطبي، وزير من أعلام الأندلسيين ومؤرخيها وندماء ملوكها، له كتاب في التاريخ كبير ، وجمع شعره في ديوان ، توفي سنة ٣٩٣ هـ (الصلة ٣٤٩، المغرب ١ /١٩٨)

بمشهده، واستناب يده له عن يده، وقام لـديه مؤمن بن سعيد[1] منشدا :

[**الطويل**]

تهلَّـلَ بطـنُ الأرض لمـا ثـوى بـهـا إمـامُ الهدى الشـاوي بها بطـنُ ملحدِ
وزلـزلـهــا مـــوت الإمــامِ وفـقْـدُه فقال لـهـا الله اسكني بمحمَّدِ[ص٣١٨]

ثـم كـان من أكثر القـوم تأنيـاً، وأوفـر لما في النفـوس تمنياً، وصـفـا العيش في ظل خـلافتـه، وكـفـى المسيء اعـتـذارا فـضلُ رأفتـه ، وكـان له في مـدته الآ ثـار الجميلة، والفتوح العظيمة، والعناية التامة بمصالح المسلمين، والاهتمام بالثغور وحفظ الأطراف، والتحرز من قبل البحر .

قال الرازي : كـانت لا تجري في بحـره جارية إلا عن مـعرفتـه . قـال : وهـو الذي قسم مراتب أهل الخدمة، وإعلاء رتبة الوزارة، ورجَّح أهـل الشام على أهل الأندلس، وأعلى رتبة الوزراء منهم في الجلوس ، انتهى كلامه .

قـال صـاحـب المقـتـبس : وزاد في توسعة الجـامع بقـرطبـة، فـقـال العـبـاس بن فرناس[2] :

(١) مؤمن بن سعيد بن إبراهيم بن قيس : مولى الأمير عبد الرحمن المرواني الداخل، فحل شعراء قرطبة في عصره، كان يهاجي ثمانية عشر شاعرا فيعلوهم، ورحل إلى المشرق فلقي أبا تمام، وروى عنه شعره، ومات في سجن قرطبة سنة ٢٦٧ هـ . (العقد الفريد ٢ / ٣٤١ ، المغرب ١ / ١٣٢)

(٢) عباس بن فرناس : أبو القاسم، مخترع أندلسي من أهل قرطبة، من موالي بني أمية، وبيته في برابر (تاكرتا)كان في عصر الخليفة عبد الرحمن الثاني بن الحكم، له أبيات في ابنه محمد بن عبد الرحمن ، وكان فيلسوفا شاعرا له علم بالفلك، وهو أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وصنع (الميقاتة ٩ لمعرفة الأوقات، ومثَّل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها ، وأراد أن يطير فكسا نفسه بالريش، ومد له جناحين طار بهما في الجو مسافة بعيدة، ثم سقط فتأذى في ظهره، لأنه لم يعمل له ذيلا، ولم يدرِ أن الطائر إنما يقع على زمكه، فهو أول طيار اخترق الجو، توفي سنة٢٧٤ هـ .
(المغرب في حلي المغرب ص ٣٣٣، بغية الملتمس ٤١٨ المقتبس لابن حيان ١٤٤)

[البسيط]

محمدٌ خيرُ مسترعى ومؤتمنٌ للمسلمين جميعاً حيثُ ما كانوا
بنى لهم مسجدا جلَّتْ عجائبُهُ لولا السماء لما ضاهاهُ بنيانُ

قال : وكان مجبول الطباع على حب البنيان، مسعوفا بتشييد مبانيه، مبالغا في إتقانه، سخيا بالإنفاق عليه، منه قصور قرطبة والرصافة، وفيها يقول أحمد بن عبد ربه :(١)

[الطويل]

ألمّا على قصر الخليفة وانظرا إلى منيةٍ زهراء شيدتْ لأزهرا
مزوَّقةً يستودع النجم سترها فتحسبهُ يُصغي إليها لتُخْبِرا
بناءٌ إذا ما الليلُ حلَّ قناعَهُ بدا الصبحُ من أعرافهِ الشُّمِّ مُسْفِرا
ترى المُنْيَةَ البيضاء في كل شارقٍ تلبس وجه الشمس ثوبا معصفرا
ودونك فانظرْ هل ترى من تفاوتٍ بهِ أو رأتْ عيناك أحسن منظرا
تذكر بالفردوس من كان لاهياً وتلهي عن الفردوس من قد تذكَّرا
كأنَّ السماء استوهبت لون أرضها وأنجمها من نورها حين نوَّرا

وكان ممدَّحاً . ومما قال فيه عمار بن المنبي :

[الطويل]

غدا في أسارير الأمير محمدٍ إمام الهدى بدرٌ وفي كفه بحرُ

---

(١) ابن عبد ربه : أحمد بن محمد بن عبد ربه : الأديب صاحب العقد الفريد ، من أهل قرطبة ، كان شاعرا مذكورا ، فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها، له شعر كثير ، أصيب بالفالج قبل وفاته بأيام وتوفي سنة ٣٢٨ هـ .
(ابن خلكان ١ / ٣٢، يتيمة الدهر ١ / ٣٦٠، ٤١٢، بغية الملتمس ١٣٧، البداية والنهاية ١١ / ١٩٣)

فلو مَلَّكَ اللهُ الرعيةَ عمرها   لكان له من ذلك العمر الشطرُ [ص٣١٩]
إذا ذخر الأملاكُ مالاً فما لهُ   سوى المجدِ فالمعروفُ كنزٌ ولا ذخرُ
مهيبٌ إذا أبصرتَ غُرَّةَ وجههِ   تكادُ لهُ من هيبةٍ يصدع الصدرُ

وكان كثير الخروج إلي الصحراء للتنزه في نواحيها، والتوسع في سعة ضواحيها، وكان معجبا بدربد وهو مكان قتلى أشبيلية، مرج أخضر كأنه زمرد شارب، ونهر يتكسر ماؤه كأنه عسل ممزوج لشارب، فابتنى به أبنية رفيعة، إلا أنها خيام، وقَرّض هناك قراره إلا أنه هيام، فقال الوزير تمام بن أحمد :

[**الطويل**]

لعمري لما يوم من الدهر كله   بأنعم من يومٍ حللنا بدَرْبد
لدن روضةٍ خضراء ما أن تخالها   لعمرك إلا معدناً للزمرد

ودام في بلهنية من المُلْك إلى أن ثارت إليه الثوايرُ، ودارت عليه الدواير، وسار إلى مغالبته كل ساير ، وطار لمواثبته في البر والبحر كل طاير، ولم يكفه انفتاق الفتوق، وانبثاق البثوق، واختلاف كلمة أهل ملكه، حتى قصدته ملوك الكفار، وأجهدته بالنهود إلى الأسفار، وما رُمي بأهل الصليب على انفرادهم، حتى مُني بالمجوس من أقصى بلادهم ، وكان في هذه النوائب تارة وتارة، ومرة ومرة، آونة حلاوة، وآونة مرارة ، وفي بعض غزواته التي أثخن فيها في أهل الخلاف، وأمعن في زيادة الاختلاف، قال مؤمن بن سعيد :

[**البسيط**]

دعِ اللُهى يفنها محمدها   أسنى بني غالبٍ وأمجدها
أشياع لبٍ سنابل خشعت   أعناقها فالسيوفُ تحصدها
دانوا له وهو وارد بهم   حياض حتفٍ يعافُ موردها

كــعــابـد النار وهي تحرقه بعداً لمثواهُ حين يعبدها
ساؤوا ملوكا هم لهم خَولٌ وهل يسامي الملوكَ أعبدها
أضحوا أحاديثَ للمواسمِ عن ظبى السيوف استفاض مسندها

وعارضه محمد بن عبد العزيز القيسي فقال :[ص ٣٢٠]

[**البسيط**]

دعِ الوغى لم يزل محمدها يوقدُ نيرانها ويخمدها
فليس تروى السيوف إن ظمئت إلا إذا علَّها محمَّدُها
سيفُ هُدى تشهدُ السيوفُ له يوم الوغى أنه مهنَّدها
تقيلُ في ظله المنون إذا هاجرة الحرب حار موقدها
فتلك دار العدو خاليةٌ أو حين نور الأنيس معهدها
أطفأ عنا بسيفه فتناً أوقدها في البلاد أعبُدُها

ثم طغت الفتنة ومرد النفاق ، وانبعث الفساد، ودبَّ الوهن في أقطار الدولة، حتى وهت أركانها، وهوت أقمارها، وعمي المبصر ، وصم السامع، وخرس الناطق، وعم الأندلس بلاء أطل سحابه، وعظم شتاتٍ ، لم يدرِ له امرؤ كيف ذهابه .

ثم توفي محمد بن عبد الرحمن ليلة لخميس، لليلة بقيت من صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين(١) ، ومولده في ذي القعدة سنة سبع ومائتين، وبلغ من السن خمسا وخمسين سنة وثلاثة أشهر، منها مدة خلافته نحو أربع وثلاثين سنة وأحد عشر شهرا، وكان أبيض مشربا حمرة، مستدير الوجه، ربعة تام اللحية أصهبها به شيء من وقصٍ(٢)، يخضب بالحناء والكتم .

(١) في الأصل : ومائة ، وهو وهم ،والصواب ومائتين .

(٢) الوقص : قصر العنق خلقة .

١١٨ - دَولَةُ ابنه المُنْذِرِ بنِ مُحَمَّدٍ

استفتح خلافته بالإحسان[١]، واستمنح رأفته كل إنسان، فاستصبح الهلال بجبيته، واستصلح الاختلال بجود يمينه، واستقبح مقابلته العدو خوفا، وما أصحر ليثه من عرينه، زمانه ما طال، وليانه ما جلا فجره الكاذب من مطال على أنه منذ ولي شد نطاقه، واحتزم وجدَّ انطلاقه، واعتزم حتى كاد يستقيم الأود، ويستديم صلاح ما فسد، وكان على نقص حظه من الأدب، يكرم أهله الكرام إكراما تتطامن له الأقدار، وتتفاطن به الأغمار، لكرم كان عليه مجبولا، وجود كان به [ص ٣٢١] كلفا متبولا .

قدم قرطبة بعد موت أبيه، فصح المعتل ، وصلح المختل، وخضع من كان رفع رأسه، وخلع نجاده من تقلد السيف، وقرث أفراسه[٢]، وبويع البيعة العامة، وتتبع التبعة الطامة، وبقي ينقب عمن قصد عنادا، وقصَّر على البغي مرادا، وكان يتدفق مروَّة، أحدق ببني مروان موكبها، وأشرق من عبد شمس لعبد شمس كوكبها، فما ورثها من آبائه الغطاريف الألى، عن كلالة ولا استحقها إرثا بالولا .

---

(١) المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام الأموي : أبو الحكم، من خلفاء الدولة الأموية بالأندلس، ولد بقرطبة، ولما شبَّ سيَّره أبوه للغزو والفتح، فكان مظفرا، ولي الأندلس بعد وفاة أبيه سنة ٢٧٣ هـ ،ففرق العطاء في الجند، وتحبب إلى أهل قرطبة، وأسقط عن الرعية عشر ذلك العام ، وكان جوادا يصل الشعراء ، ويحب الأدب ، إلا أنه ــ كما يقول صاحب المغرب ــ شكس الأخلاق، مرّ العقاب، ولم تطل مدته في الإمارة، توفي محاصرا لعمربن حفصون أمام قلعة ببشتر، وانقرضت ذريته، وفاته سنة٢٧٥ هـ .

(ابن الأثير ٧ / ١٤١ــ ١٤٥، نفح الطيب ١ / ١٦٦، البيان المغرب ٢ / ١١٣، جذوة المقتبس ١٢، ابن خلدون ٤ / ١٣٢، المغرب في حلي المغرب ١ / ٥٣ ــ ٥٤، بلغة الظرفاء ص ٣٢)

(٢) قرث أفراسه : كدها وأتعبها .

قال صاحب المقتبس: وكان سبب وفاته أنه افتصد يوم السبت للنصف من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين، وهو يوم العنصرة مهرجان الأندلس، وكُتم موته، وأبردوا بريدا إلى أخيه عبد الله بن محمد، فوافى سريعا، وبادر بدفن أخيه المنذر بن محمد، وكانت خلافته سنتين إلا خمسة عشر يوما، وكان سنه ستا وأربعين سنة، وكان أسمر طوالا ، جعد الشعر ، كث اللحية ، بوجهه آثار جدري ، يخضب بالحناء والكتم .

١١٩ - دَولَةُ أخِيْهِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مُحَمَّدٍ

أتاه نعي أخيه وهو غائب[١]، ووافاه الطلب بالخلافة وهوآيب، فلما فشا في العسكر موت أخيه الذاهب، تفرقت أهواؤهم، وشقشقت أنواؤهم، ورام كل منهم أمراً قصيا لم يدرك تمامه، وراض صعبا أبيا لم يملك زمامه، ولم يبق إلا من نزا به شيطانه، ونزل بداره سلطانه، ظناً هَوَوا في أوديته، وحووا سوء الذكر في أنديته، حتى أشار عليه بعض نصحائه، بغض برحائه[٢]، ومواراة أخيه

(١) عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام : من خلفاء بني أمية في الأندلس، بويع له بقرطبة يوم وفاة أخيه المنذر سنة ٢٧٥هـ ، وكثرت الثورات في أيامه، وكان مقتصدا كارها للسرف، كثير الصدقات والمبرات ورعا، متفننا في العلوم، بصيرا بلغات العرب، فصيحا يقول الشعر ويرويه، ابتنى ساباط قرطبة بين القصر الجامع، وكان يقعد فيه قبل صلاة الجمعة وبعدها، فيرفع الحجاب، ويإذن لكل متظلم، وكان يجلس على بعض أبواب قصره في أيام معلومة، فترفع إليه الشكايات، وتصله الكتب من باب يضع فيه أصحاب الظلامات كتبهم وعرائضهم، يعده المؤرخون من أصلح الأمويين في المغرب، وأمثلهم طريقة، وأتمهم معرفة، وخصه ابن حيان بجزء من تاريخه المقتبس، توفي بقرطبة سنة ٣٠٠ هـ .

(ابن الأثير ٨ / ٢٤، ابن خلدون ٤ / ١٣٢، البيان المغرب ، ينظر فهرسته، الحلة السيراء ص ٦٥، نفح الطيب ١ / ١٦٦، المقتبس ص ٦٨٦)

(٢) البرحاء : الشدة .

الهالك هنالك، واللحاق بقرطبة مسرعا، والسباق إليها قبل أن لا يجد موضعا، فقال : هيهات أن أتدنَّس بهذه الدنيَّة، وأتلبَّس بقبح هذه المزية، ثم سار ومعه جُثَّة أخيه على أتانه، واستقام أمره على هناته، ودخل قرطبة وصلى [ص ٣٢٢] على أخيه بها، وأودع ذهبه المكنوز في تربها، ودفنه في القصر بالروضة مقبرة الخلائف، ومأ ثرة تلك اللطائف، ثم بويع البيعة التي استقامت له على ظلعها، واستدامت على ولعها، وأخذ في حسم أدواء الخلاف، وحصد رؤوس منهم أينعت لقطاف[١]، وكان أمر الفتنة قد استحكم واستفحل داؤه فلم، يُحسم، وكثرت على مثل أولئك وأشباههم ، وكبرت منها كلمة تخرج من أفواههم، فأعيا سقمها الطبيب المداوي وأعدى فيها ذا الرشد الغاوي، ويتيح لها في كل نائحة نائح، إلا أنه العاوي ، ونضنض أفعى[٢]، إلا أنه مما لا يدخل في سلة الحاوي .

وذكر صاحب المقتبس عن الرازي عن أبيه قال : كانوا يعدون عبد الله من أصلح خلفاء بني أمية بالأندلس، وأمثلهم طريقة، وأتمهم معرفة، وأمتنهم ديانة، كان يتهجد بالليل، ويقوم ليالي شهر رمضان بالنافلة مع الأئمة المرتبين لها بالمسجد الجامع، وكانت نيته في ذلك نية المخبت[٣] الورع الراغب في الخير .

حكي عن بعض الفتيان الخاصة أنه كان كثير التلاوة للقرآن، متأ ثرا على درسه ، محبا لمن حفظه، قال : وكان لا يقدم أمراً ولا يؤخره، إلا عن مشورة أهل العلم والفقه. قال أبو صالح أيوب بن سليمان : أنه كان متصرفا في فنون العلم، محققا للسان العرب، بصيرا بلغاتها وأيامها، حافظا للغريب، آخذا من الشعر

---

(١) يقتبس هنا قول الحجاج في تهديد أهل العراق : إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، جمهرة خطب العرب ٢ / ٢٨٩ .

(٢) نضنض : استخرجه شيئا فشيئا .

(٣) المخبت : الخاشع الورع .

بنصيب، ولم يسمع أحد مثل إنجازه إذا أمَّل، ولا مثل بلاغته إذا [تمثَّل][1]، وكان على كمال فضائله مسرعا إلى سفك الدماء، حتى من ولديه وأخويه، وخاصة صحبه .

وتوفي في مستهل شهر ربيع الأول سنة ثلاث مائة، لبث منها خليفة خمسا وعشرين سنة ونصف .

١٢٠ - دَوْلَةُ ابنِ ابْنِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مُحَمَّدٍ النَّاصِرِ

ولي بعد جده[2]، ووطيء أسارير مهده، ووافق زمانه زمان المقتدر،

(١) في الأصل : نقص في الكلام، وما بين المعقوفتين إضافة لتتمة الكلام .

(٢) الناصر الأموي : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكم الربضي ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل، أبو المطرف المرواني الأموي، أول من تلقب بالخلافة من رجال الدولة الأموية بالأندلس، ولد وتوفي بقرطبة، ونشأ يتيما (قُتل أبوه وعمره ٢١ يوما فرباه جده) وبويع بعد وفاة جده سنة ٣٠٠ هـ ، كان عاقلا داهية مصلحا طموحا، انصرف إلى تسكين القلاقل، وصفا له الملك، وظهر له ضعف المقتدر العباسي بالعراق، فجمع الناس وخطب فيهم، ذاكرا حق بني أمية في الخلافة، وأنهم أسبق إليها من بني العباس ، فبايعوه بها سنة ٣١٦هـ ، وتلقب بالناصر لدين الله، فجرى ذلك فيمن بعده، وكان أسلافه يسمون بني الخلائف، ويخطب لهم بالإمارة فقط، كان كبير القدر كثير المحاسن، محبا للعمران، مولعا بالفتح وتخليد الآثار، أنشأ مدينة الزهراء ، وبنى بها قصر الزهراء المتناهي الجلالة، حكم خمسين سنة وستة أشهر، وهو أطول خليفة حكم في الإسلام، كان حريصا على الملك يقظا صارما، اتصل به أن ابنا له اسمه عبد الله، سمت نفسه إلى طلب الخلافة، وتابعه قوم، فقبض عليهم جميعا وسجنهم، إلى أن كان يوم عيد الأضحى سنة ٣٣٩هـ ، فأحضرهم بين يديه، وأمر ابنه أن يضطجع له فاضطجع، فذبحه بيده، والتفت إلى خواصه فقال : هذا ضحيتي في هذا العيد، وليذبح كل منكم أضحيته، فاقتسموا أصحاب عبد الله فذبحوهم عن آخرهم، وكان يكتب في دفتر أيام السرور التي كانت تصفو له من غير تكدير، فلم تتجاوز أربعة عشر يوما، توفي سنة ٣٥٠ هـ .

(ابن الأثير ٨ /١٧٧، ابن خلدون ٤ /١٣٧، الحلة السيراء ص ٩٩، المعرب في حلي المغرب ١ /١٧٦ ـ ١٨١، طبقات السبكي ٢ / ٢٣٠، أزهار الرياض ٢ /٢٥٧ ـ ٢٨٤)

وقد[ص٣٢٣] ضعفت الخلافة ببغداد، ووهت قواها، ووهنت الدولة العباسية، حتى طمع فيها من سواها، فابرز عبد الرحمن ما عنده وباح، ومال علوه وكشف الغطاء واستراح، وأظهر التسمية بالخلافة، وسُمي بأمير المؤمنين، وهو أول من تسمَّى في الأندلس بها، وسما بالتحلي بلقبها، وكان رجل حزم، ورجل عزم، وبارق مضاء ، وسابق قضاء، وبطل إقدام ، وعطل مقدام، وسيف جلاد، وطيف رعب تجنه ضمائر بلاد، فلهذا قدح لهذا الرأي زنده، وفتح الباب لمن جاء بعده، ولم يكن في سباقه(١) من كشف هذا الغطاء ، ولا كف عن ذروة السرير هذا الامتطاء ، وإنما كان الواحد منهم، وإن عظم شأنه، وكرم سلطانه، لا يزيد في التسمية على الأمير، ولا يريد أكثر من هذا الخطاب المميز حتى اتخذها هذا الناصر عبد الرحمن عليه معلما، وأنطق بها لسانا وقلماً، وسيرها في الآفاق كلماً ، وصيرها في الأندلس شبيهة بالعراق معلما(٢) .

وقد ترجم له صاحب المقتبس وقال : ذكر الدلالة على عظم شأن الخليفة الناصرفي سلطانه، وإجرائه إلى الإيفاء على من تقدمه من الخلفاء، وجده في جمع الأموال وبذله لها في ابتغاء دول الآمال وتوسعه في إنجاب طبقات الرجال، وانتقائه منهم لجلة الوزراء المشاركين في الحال، وقسره لعويص الأشياء، وتفخيمه لصنائع البناء ، وشد الفروج دون الأعداء، وتوقله لقلل الاعتداء، وكان لا يهيب خطرا يركبه، ولا يستكثر شيئا يهبه، وبنى المباني العجيبة، والمنارة البديعة، وشيد الخلافة بقرطبة، وعمل الناعورة(٣) المحكمة الصنعة المضروب بها المثل، والبيضاء والزهراء وغير ذلك مما ذكره، وفي ميزة هذه الناعورة قال أبو نهمان

(١) كذا بالأصل ، ولعلها من سبقه .

(٢) في الأصل : مثلما، ولا معنى لها .

(٣) الناعورة : دولاب ذو دلاء أو نحوها يدور بدفع الماء أو جر الماشية فيخرج الماء من البئر أو النهر إلى الحقل

عبيد الله بن يحيى :

[الطويل]

تبوَّأ بين الحزنِ والسهلِ منزلا بأفيحَ فضفاض البساط على النهرِ
تصعَّد في ساحته الخضر ماؤه تصعد أنفاس المتيَّمِ بالذكرِ[ص٣٢٤]
ترقّى بها في الجو ثم تعيده إلى مستقر الأرض ناعورة تجري
تردد تغريد الطيور وتارة ترجع ترجيع الأهازيج في الزمر

وكان ممدحا، فمما قال فيه أبو عثمان هذا، وقد رآه في موقف حرب ، أبانَ فيه قمرا من وجهه يغطي ضوء القمر ويُخفيه :

[الكامل]

أغمامة بين البوارقِ تهمعُ أم شارقٌ وسطَ الكتائبِ يلمعُ
أم غُرَّةُ القمر المنيرِ يحفها زهرُ النجومِ أم الهصورُ الأروعُ
لا بل هو الملك الذي في درعه ونجاده هذي الصفاتُ الأربعُ

وتوفي الناصر عبد الرحمن في شهر رمضان سنة خمسين وثلاث مائة .

١٢١ - دَوْلَةُ ابْنِهِ الحَكَمِ المُسْتَنْصِرِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ

أبي العاص(١)، وهو الحكم العادل، والعلم الذي لا تطاوله الجنادل، والكرم

(١) المستنصر الأموي : الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله، خليفة أموي أندلسي، ولد بقرطبة ، وولي الخلافة بعد أبيه سنة ٣٥٠هـ ، فطمع به ملك الإسبان(أردون بن ألفونس) فتهيأ للإغارة على قرطبة، فسبقه المستنصر وغزا الإسبان بنفسه، فعاقدوه على السلم، واشترط على (كُنْت برشلونة) وسائر أمراء الكَتَلان دك حصونهم القريبة من ثغوره، وعاهدوه على أن لا يمالئوا عليه أحدامن ملوك المسيحيين الذين يدخلون معهم في حرب، فقوي وكثرت فتوحاته،=

الذي لا يصغي إلى قول العاذل، ولا يبغي طاقة الباذل، ونطق منذ كان صبيا بالحكم، وصُدِّق فكان في بيته يؤتى الحكم(١)، ونفقت في أيامه سوق الفضائل، ووثقت بأنعامه الطآيل [كذا]، ولم يكن فيه عيب إلا قصر أيامه، وقصور مدته عن مرامه، وأهل الأندلس تعده من أصلح خلفائها، وأرجح أهل وفائه بها، ولم يكن من أهل الفضل إلا من يزدلف إليه بما لديه، ويقرب كرمه السابغ عليه من يديه، وكان الناظر لا يكاد يرى إلا عالما ومعلما، أو مقدما أو متقدما، وما بقي من رعاياه إلا من رعاه حرمه، ودعاه كرمه، فلم يدع منهم إلا راضيا عن زمانه، أو قاضيا له منه بأمانه، ثم مازال مزيدا في الصلاح، ومتجددا به عموم الفلاح، حتى أتاه اليقين، وأراه موضعه في أماكن المتقين، وأجرى مرة خيله للسباق، فأحرز قصباته، وغبر في وجوه السباق، فقال محمد بن حسين الطبني :(٢)

[الرجز]

أعارض عجلان في البحر خفقْ   أم نفس الريح تجاري واستبقْ [ص ٣٢٥]

= وكان عالما بالدين ملما بالأدب والتاريخ، ضليعا في معرفة الأنساب، يُروى له شعر، محبا للعلماء يستحضرهم من البلدان النائية فيستفيد منهم ويحسن إليهم، جماعا للكتب، قيل : إن مكتبته بلغت مائة ألف مجلد، دامت ولايته خمسة عشر عاما، وألف له أبو علي القالي كتاب الأمالي، وعليه وفد، توفي بقرطبة مفلوجا سنة ٣٦٦ هـ .

(نفح الطيب ١ / ١٨٠، المغرب ١ / ١٨١، ابن الأثير ٨ / ٢٢٤، ابن خلدون ٤ / ١٤٤، أزهار الرياض٢ / ٢٨٦ــ ٢٩٤، جذوة المقتبس ص ١٣)

(١) في بيته يؤتى الحكم، هو مثل ينظر مجمع الأمثال ٢ / ٧٢، جمهرة الأمثال٢ / ١٠١ .

(٢) محمد حسين الطبني التميمي الأندلسي : شاعر مكثر وأديب متفنن، كان في أيام الحكم المستنصر، وله علم بأخبار العرب وأنسابهم ، وفد على المنصورمن طبنة (قاعدة الزاب) واستوطن قرطبة، وهو أصل بني الطبنة فيها، توفي سنة ٣٩٤ هـ .(المغرب في حلى المغرب ص ٢٠١)

أم الجيادُ أحضرت بلا عنق ... تطلب عند البعد ثارا بحنق
وطارت الحصباء عنهن فلق ... وثار مجموع الغبار وافترق
يرفع ثوب الصدع من ثوب الغسق ... لو خطرت على لياهٍ لاحترق (١)
من لهب الشدّ وحر المنطلق ... حتى إذا ما سكبت ماء العرق
وسرنَ سير الطير ينفضن اللثق ... قد بلغت من زيد أسنى البلق (٢)
وانغمس الأدهمُ في لون نهق ... كالورق المنسوج أمثال الورق (٣)
وماح منهن اللواء والتصق ... وازدحمت فيه عليهن الحدق (٤)
من زمن لو سابق الريح سبق ... طِرْفٌ كلحظ الطَّرْفِ أوهى فرتق
أو لحظة البرق مع الريح برق ... أو خطفة الجني للسمع استرق
أو سرعة الطيف إذا الطيف طرق ... من نازح يعدي الكرى على الأرق
لعبشمي كان بالسبقِ أحق ... كأنما غرتُه نورُ الفَلَق
نواله في الناس فيض ودفق ... ممسكه من كل نفسٍ برمق
للمرتجي أمنٌ وللمالِ فرق ... وبأسه أشبهُ شيءٍ بالصعق
إذا تدافعن الرماح والدرق ... كأنما ماذيه إذا نطق
يبثُّ في الناسِ أفانينَ العبَق ... مستنصر بالله يرعى من خلق
لخيله فضلٌ على الخيلِ نسق ... كفضلِ ما بينَ الملوكِ والسوق

وحكى صاحب المقتبس عن المستنصر هذا سعادة فيما يطلبه من الأمور، وما عقد له به لواء الظفر والتأييد، وأنشد كثيرا مما مدح به في وقائعه التي كان له

---

(١) في الأصل : لياه غير معجمة ولم أهتدِ لمعناها .

(٢) البلق : التحير والدهشة .

(٣) لون نقه : أي لون الجرجير البري، المسمى بالأيهقان .

(٤) ماح : مال وتبختر .

فيها الغلب، وبان لأعين النظارة له فيها حسن المنقلب، فمنها قول محمد بن المحاسن :

[الطويل]

أقمتَ حدود الله حتى تحددت ... معالمه فينا وأشرق نورُها
وألبست دنياك شبابا وبهجة ... فراقَ جمالاً سوؤها وسرورُها
نهجتَ لغاويها الطريقَ فلم يَحُدْ ... ولا ضلَّ أعماها فكيف بصيرها[ص٣٢٦]
وجرَّدْتَ سيفَ الحقِّ في كلِّ بدعةٍ ... تعفِّي على آثارها وتبيرها
وثقنا مذ استنصرتَ بالله إنه ... نصيرُكَ مما تتَّقي ونصيرُها
عن الله ترمي فهو عنك مدافعٌ ... ودائرةُ السوء على من يديرُها

ومنها قول سعيد بن عبد الملك :

[الطويل]

إمامٌ جلا عن أرضنا الظلمَ عدلُه ... فعاد إلى معناه من كان جاليا
إذا ما بدا يوما لعينٍ فقد رأتْ ... به كلَّ شيءٍ تملأ العينَ باديا
من العبشميين الذين أكفُّهم ... سحائبُ تنسيك السحاب الغواديا
لقاؤهمُ يُغنيكَ إنْ كنتَ مملقا ... وبشرهمُ يرويكَ إن كنتَ صاديا

ومنها قول محمد بن شخيص :

[الطويل]

كأنك اليوم المعجل للعدى ... بوضع الحبالى أو تشيب المراضعُ
تواضعتَ كي تزدادَ عزّاً وإنَّما ... يقدم عند الله عز التواضعِ
وقمتَ بما أدَّى عن الله أحمدٌ ... وأدَّيتَ حقاً ضائعا غيبر ضائعِ

ومنها :

رأى ولد الفاروق بيعةَ جده فبايعَ تبصيرا لمن لم يبايعِ
وقد زمَّها مروان في يوم راهط برأيٍ لأهواءِ الجماعةِ جامعِ
وراية شورى لو أعيدت لما دعت لدعوته الآذان دعوى منازعِ
ولا شاع في مصرٍ لصحب محمدٍ أذىً لم يكن من قبلُ فيها بشائعِ

ومنها قول يوسف بن هارون الرقاشي ملمحاً في بعض أغزاله، وملمحاً بها لحلو مقاله ، وقد أبرز للقاء جعفر المفارق لمعد صاحب أفريقية جيشاً أبرقت مناصله، وبرزت سهامه، كأنها لواحظ أغيد لا تُخطي مقاتله، وهو :

[الكامل]

ولقد عجبتُ لغفلةِ المستنصرِ إذ أبرز الجيشُ الهمامُ لجعفرِ
ولو أن من أهواه يبرز وجهه قامت لواحظُهُ مقامَ العسكرِ[ص٣٢٧]

وقد ذكر صاحب بلغة الظرفاء الحكم المستنصر، وأورد له شعرا ورد به منهل الشعرى، وهو قوله :

[الطويل]

ألسنا بني مروان كيف تبدَّلتْ بنا الحالُ أو دارتْ علينا الدوائرُ
إذا وُلِدَ المولودُ منّا تهللتْ لهُ الأرضُ واهتزتْ إليهِ المنابرُ

بويع المستنصر في رمضان سنة خمسين وثلاث مائة، وولد مستهل رجب سنة اثنتين وثلاث مائة، وتوفي في صفر سنة ست وستين وثلاث مائة، وكانت مدته نحو ست عشرة سنة، وكان أبيض طوالا، شثن اليدين جسيما وسيما، أسود العينين ، أصهب عظيم اللحية ، يخضب بسواد .

١٢٢ - دَوْلَةُ ابْنِه هِشَامِ المُؤَيَّدِ بنِ الحَكَمِ

امتدت الأيدي لمبايعته[١]، وسنه لعشرة أعوام وغصنه ما أميطت من تمائمه الأكام، قوى عزيمة أبيه الحكم على العهد إليه النساء والخدم، فعهد إليه ثم داخله الندم، فما استحسن أن يخلع عن معطفيه ذاك الرداء ، ولا أن يقطع عن المنابر من اسمه ذاك النداء ، وقد كانت طوائف الشعراء عرَّضت بذكر هشام لأبيه تقرباً إلى خاطره، وتجنباً إليه أن لا يخرج عنه شطر مشاطره، فمنها قول محمد بن حسين الطنبي، مما يخاطب به أباه :

[الكامل]

حَسِّنْ به دينَ النبيِّ محمدٍ ... وأقِمْ بهِ أودَ الزمانِ الأعوجِ
لهجتْ ببيعتهِ النفوسُ فأخذُها ... من أوجبِ الأشياءِ لو لم تلهجِ
عودُ النبوةِ والخلافةِ عودُهُ ... فالفرعُ من تلك العروقِ الوشَّجِ

---

(١) المؤيد الأموي : هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، أبو الوليد ، المؤيد الأموي، من خلفاء الدولة الأموية بالأندلس، ولد بقرطبة، وبويع يوم وفاة أبيه سنة ٣٦٦، فاستأثر بتدبير مملكته وزير أبيه محمد بن عبد الله الملقب بالمنصور بن أبي عامر، ثم ابن المنصور عبد الملك الملقب بالمظفر، ثم ابنه الثاني عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر، واستمر المؤيد خليفة في قفص، إلى أن طلب منه عبد الرحمن هذا أن يوليه عهده فأجابه، وكتب له عهدا بالخلافة من بعده، فثارت ثائرة أهل الدولة لذلك، فقتلوا صاحب الشرطة وهو في باب قصر الخلافة بقرطبة سنة ٣٩٩ هـ، ونادوا بخلع المؤيد، وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله ، ولقبوه (المهدي بالله)، وقتلوا عبد الرحمن الوزير، ثم كانت فتن انتهت بعودة المؤيد إلى ملكه في أواخر سنة ٤٠٠ هـ، والثورات قائمة، فقُتل المهدي، واستمر سنين وشهورا لم يهدأ له فيها بال، وقُتل سرا بقرطبة ، بعد أن امتلكها سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين بالله، وكان المؤيد ضعيفا مهملا، فيه انقباض عن الناس، وميل إلى العبادة ، ومات عقيما سنة ٤٠٣ هـ .

(ابن الأثير ٨ / ٢٢٤، ابن خلدون ٤ / ١٤٧، نفح الطيب ١ / ١٨٧، البيان المغرب ٢ / ٣,٢٥٣ / ٣ ـ١١٣، ١٩٧، جذوة المقتبس ص ١٧، النبراس ص ٢٢)

وإذا تبلَّجَ وجهُ صبحٍ مقبلٍ فالشمسُ تحتَ ضيائه المتبلِّجِ
هو زهرة الدنيا وبابُ سرورها فاعهدْ وسُرَّ به البريةَ وابهجِ
وارمِ المشارقَ باسمهِ فليفتحَنْ ما بين مصر إلى بلاد الزنَّجِ
يا ربِّ بلِّغْهُ جميعَ رجائهِ لأبي الوليدِ وزِدهُ مالم يرتجِ[1] [ص٣٢٨]
ليدُمْ سراجُ اللهِ في هذا الورى فضياؤهُ من نورِ[ه] المسَرِّجِ

وفيه يقول أيضا :

[الكامل]

وأشِدْ بذكرِ أبي الوليدِ فشِدْ به مجداً هشامياً وعزّاً أغبطا
ما فوق بيعتهِ مدى أمنيةٍ فيمن تسامى في المنى وتشطّطا
نعمَ الذخيرةُ للعزائمِ ينتضى دونَ الخلافةِ والمنابرِ تُمتطى
نظرتْ قريشٌ في كريمِ نظامها فرأتهُ منها في القلادةِ أوسطا
هي بيعة الرضوان تحيي كل من أصفى ويقبلُ سعيها من خلَّطا
اربط به الأيدي فإن قلوبنا مكفيَّةٌ بودادِها أن تُربطا
شرطت محبَّتُه على أهلِ النُّهى ما لا يكادُ موثق أن يشرطا

ثم لما مات الحكم المستنصر، وبويع ابنه هشام المؤيد، لان جانبه حتى ذلَّ ، وكثر حلمه حتى قل، وعقد انتقامه بالعفو فحل واستقام بقدمه على منهج المسالمة، فزلَّ على أنه أول من بويع بالخلافة، كان يخلط بالعسل صابه، وبالشفاء أوصابه، وفيه قال محمد بن شخيص :

[الطويل]

وجدنا هشاما للأئمةِ عاشراً إذا كمل التسعين فالملك تاسعُ

---

(١) في الأصل : لم يرتجي، وهو لحن .

أتانا بتصديق الرواية مُذْ أتى ... به أوَّلَ الشهب الدراري رابع
فسارت بأعراق النجابة إذ سرتْ ... من الحَكَمِ المهدي فيه طبائعُ
يحلُّ به نجمٌ على أنجم الدُّجى ... منيفٌ ومن شرخ الخلافة طالعُ
ومن فخره أن العبيد بظله ... ملوكٌ كما أن الملوك صنائعُ
وشافعُ آمال البريةِ إنها ... إلى عهده المأمول صورٌ نوازعُ

وكان المؤيد هشام مغلباً منذ ولي استحجب المنصور أبا عامر محمد بن عامر(١)، فحجبه وقام دونه، ثم استحجب ابنه المظفر عبد الملك بن محمد بن عامر، فسلك سبيل أبيه، ثم استحجب أخاه عبد الرحمن، وكان ثالثهما، وغزا أسابية، وأوغل في بلاد الجلالقة، فلم يقدم ملكها على لقائه، وتحصن منه في رؤوس الجبال، ولم[ص٣٢٩] يقدر عبد الرحمن على اتباعه لزيادة الأنهار، وكثرة الثلوج، فأثخن في البلاد التي وطئها، وخرج موقورا، فبلغه في طريقه ظهور محمد بن هشام(٢) بن عبد الجبار بن الناصر بن عبد الرحمن بقرطبة، وأخْذه

(١) المنصور أبو عامر : محمد بن عبد الله بن عامر القحطاني المعافري، أمير الأندلس في دولة المؤيد الأموي، وأحد الشجعان الدهاة، أصله من الجزيرة الخضراء، قدم قرطبة شابا طالبا للعلم فبرع، واستخلف على قضاء كورة (ريه)، ثم عهد إليه وكالة السيدة صبح (أم هشام المؤيد)، فولي النظر في أموالها وضياعها، وعظمت مكانته عندها، وولي الشرطة والسكة والمواريث وأضيف إليه القضاء بأشبيلية، ولما مات المستنصر الأموي، كان المؤيد صغيرا، وخيف الاضطراب، فضمن ابن أبي عامر لأم المؤيد سكون البلاد واستقرار الملك لابنها، وقام بشؤون الدولة، ودامت له الإمرة ستة وعشرين سنة، مات في إحدى غزواته بمدينة سالم سنة ٣٩٢ هـ .

(ابن الأثير ٩ / ٦١، ابن خلدون ٤ /١٤٧، الحلة السيراء ص ١٤٨، البيان المغرب ٢ / ٣٠١، تاريخ قضاة الأندلس ص ٨٠، نفح الطيب١ / ١٨٩، الوافي بالوفيات ٣ / ٣١٢، بغية الملتمس ص١٠٥)

(٢) محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الأموي: أمير من بيت الملك بالأندلس، خرج على المؤيدبالله بقرطبة سنة ٣٩٩ هـ، وبايعه الناس فتلقب بالمهدي بالله، وملك قرطبة وحبس المؤيد في القصر، ثم أظهر أنه مات، واستقر أمره إلى أن انتقض عليه سليمان بن الحكم،=

المؤيد أسيرا، ففرق عنه عسكره، ولم يبق إلا في خاصته، فسار إلى قرطبة ليلا قي ذلك الخطب ، فخرج عسكر محمد بن هشام فقتلوه وحملوا رأسه إلى قرطبة، وطافوا به، ثم صلبوه، وكان ظهور محمد بن هشام بن عبد الجبار ومعه اثنا عشر رجلا، فبايعه الناس، وتلقب بالمهدي، وملك قرطبة، وأخذ المؤيد وتركه في محبسه حيث لا جليس سوى رجع نفسه ، وقام هذا محمد بن هشام بن عبد الجبار بالأمر مستبدا لرأيه، مستمدا إلى أن قُتل تلك القتلة الشنيعة، وكانت مدة استيلائه ستة عشر شهرا بَزَّ بها سرير الملك قهرا، ونجسه لو لم يجد له نجاء الماضيات طُهرا .

حكى ابن الأثير[١] : أن محمد بن هشام[٢] بن عبد الجبار أخذ المؤيد وحبسه معه في القصر، ثم أخرجه وأخفاه، وأظهر أنه مات، وقد كان مات

= وتغلب عليه، فاختفى ابن عبد الجبار وسار إلى طليطلة، فجمع عسكرا وعاد إلى قرطبة فاستولى عليها، وجدد البيعة بها لنفسه، فدخل عليه جماعة من الغلمان فأسروه وأخرجوا المؤيد فاجلسوه مجلس الخلافة وبايعوه، وأحضروا ابن عبد الجبار بين يديه، فأمر بقتله ، وطيف برأسه في قرطبة، ومدة ولايته منذ قام إلى أن قتل سبعة عشر شهرا، وانقرض عقبه، مقتله سنة ٤٠٠ هـ .

(ابن الأثير ٨ / ٢٢٥ ، جذوة المقتبس ص ١٨ ، المعجب ص ٤٠ـ٤٣ ، البيان المغرب ٣ / ٥٠)

(١) الكامل ٧ / ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

(٢) في الأصل : ابن محمد بن هشام، والصواب هو محمد بن هشام نفسه وليس ابنه. وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الأموي، أمير من بيت الملك بالأندلس، خرج على المؤيد بالله بقرطبة سنة ٣٩٩هـ، وبايعه الناس فتلقب بالمهدي بالله، وملك قرطبة فحبس المؤيد في القصر، ثم أظهر أنه مات، واستقر أمره إلى أن انتقض عليه سليمان بن الحكم، وتغلب عليه، فاختفى ابن عبد الجبار وسار إلى طليطلة، فجمع عسكرا وعاد إلى قرطبة فاستولى عليها وجدد البيعة بها لنفسه، فدخل جماعة من الغلمان فأسروه وأخرجوا المؤيد، فاجلسوه مجلس الخلافة، وأحضروا ابن عبد الجبار بين يديه، فأمر به فقتل، وطيف برأسه في قرطبة، ومدة ولايته منذ قيامه إلى أن قتل سبعة عشر شهرا، وانقرض عقبه ، قتل سنة ٤٠٠ هـ .

(ابن االأثير ٨ / ٢٢٥، جذوة المقتبس ص ١٨، المعجب ص٤٠ ـ ٤٣، البيان المغرب ٣ / ٥٠)

إنسان نصراني يشبه المؤيد، فأبرزه للناس في شعبان، وذكر لهم أنه المؤيد، فلم يشكوا في موته، وصلوا عليه ودفنوه في مقابر المسلمين، ثم إنه أظهره على ما نذكره، وأكذب نفسه، وكانت مدة المؤيد هذه إلى أن حبس ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر .

وخرج هشام بن سليمان بن الناصر عبد الرحمن ، لأن أهل الأندلس أبغضوا ابن عبد الجبار، فأخرجوه من داره وبايعوه ولقبوه بالرشيد، في شوال سنة تسع وتسعين، واجتمعوا بظاهر قرطبة، وأحضروا ابن عبد الجبار، وترددت الرسل بينهم ليخلع ابن عبد الجبار من الملك، على أن يؤمنه وأهله، ثم إن ابن عبد الجبار جمع أصحابه، وأخذ هشاما أسيرا فقتله ابن عبد الجبار، وكان عم هشام، ثم إن سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر، وهو ابن أخي هشام المقتول ، خرج وتلقب بالمستعين، ثم تلقب بالظاهر ، وساروا إلى النصارى فأنجدوهم، وساروا معهم إلى قرطبة، فاقتتل هو وابن عبد الجبار بقنتيج(١) وهي الوقعة المشهورة عزوا إليها، وقتل[ص٣٣٠] ما لا يحصى ، فانهزم ابن عبد الجبار، وتحصن بقصر قرطبة، ودخل سليمان القصر، وبايعه الناس بالخلافة في شوال سنة أربع مائة، وبقي بقرطبة أياما وكان عدة القتلى بقنتيج نحو خمسة وثلاثين ألفاً، ثم لما أخفى ابن عبد الجبار سار سراً إلى طليطلة، وأتاه واضح العامري في أصحابه، وجمع لهم النصارى وسار بهم إلى قرطبة، فخرج إليهم سليمان ، فالتقوا بقرب عقبة الورق، واقتتلوا أشد قتال، فانهزم سليمان ومن معه منتصف شوال سنة أربع مائة . ومضى سليمان إلى شاطبة ودخل ابن عبد الجبار قرطبة، وجدد البيعة لنفسه، وجعل الحجابة لواضح، وتصرف بالاختيار .

---

(١) قنتيج : كذا وردت ولم أجدها ، ولعلها قنتيش : اسم جبل عند وادي الحجارة من أعمال طليطلة.

ثم إن جماعة من الفتيان العامرية، منهم عنبر وعمرون وغيرهما كانوا مسلمين، فأرسلوا إلى [ابن] عبد الجبار يطلبون قبول طاعتهم، وأن يجعلهم في جملة رجاله، فأجابهم إلى ذلك، وإنما فعلوا هذا مكيدة به ليقتلوه، فلما دخلوا قرطبة واستمالوا واضحا، فأجابهم، فلما كان تاسع ذي الحجة سنة أربع مائة اجتمعوا بالقصر فملكوه وأخذوا ابن عبد الجبار أسيرا، وأخرجوا المؤيد من محبسه، وأجلسوه في صدر مجلسه، وبايعوه بالخلافة بيعة ثانية، وتابعوه سرا وعلانية، وأحضروا ابن عبد الجبار بين يديه، فعدد ذنوبه عليه، ثم قتله وطيف برأسه في قرطبة، وكان عمره ثلاثا وثلاثين سنة.

قلت: وهذه الأخبار شرطها كان أن تذكر مفصلة، وقد ذكرناها الآن مجملة، لتعلق بعضها ببعض، وسأذكر ما تخلل في أنباء دولة هشام المؤيد بتراجم مفردة، ثم ألمُّ بذكر هشام المؤيد ثانيا، حيث عادت دولته، وأنبهت إليه في الملك ثانيا نوبته.

حكى ابن الأثير في حوادث سنة أربع مائة، وقد ذكر عود هشام المؤيد ما معناه: وكان عوده تاسع ذي الحجة، وكان الحكم في دولته إلى واضح العامري، وأدخل إليه أهل قرطبة، فوعدهم ومناهم، وكتب إلى بربر سليمان بن الحكم، ودعاهم إلى الطاعة فلم يجيبوه، فأمر بالاحتياط، ثم شعر بأن نفرا من الأمويين، قد اجتمعوا فركب هشام إليهم، فعاد البربر واستنجدوا بملك الفرنج، فأرسل يعلم هشاما بذلك ويستنزله [ص ٣٣١] عن حصون تجاوره، ففعل، فيئس البربر من إنجاد الفرنج، فنزلوا قرب قرطبة، وجعلت خيلهم تغير يمينا وشمالا، فعمل هشام على قرطبة أمام السور الكبير سورا وخندقا، ثم نازل سليمان قرطبة، ثم الزهراء، فسلمه بعض الحفظة باب الزهراء[1]، فملكها، واشتد الأمر بقرطبة، وظهر في

(١) الزهراء: مدينة صغيرة قرب قرطبة بالأندلس، اختطها عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم. (ياقوت: الزهراء)

هذه المدة بطليطلة عبيد الله بن محمد بن عبد الجبار، وبايعه أهلها، فسير إليهم هشام جيشا، فعادوا إلى الطاعة، وأُخذَ عبيد الله، وقُتل في شعبان سنة إحدى وأربع مائة، ثم قاتل هشام البربر، فقتل منهم أمماً، وغرَّق في النهر مثلهم، فرحلوا إلى أشبيلية، فجهز هشام جيشا فحماها، فسارت البربر إلى قلعة رباح[1]، فملكوها وغنموا ما فيها، واتخذوها دارا، ثم عادوا إلى قرطبة فحضروها وملكوها ، ودخلها سليمان بن الحكم عنوة، وأُخرِج هشام من القصر، وحُمِل إلى سليمان في منتصف شوال سنة ثلاث وأربع مائة. وبويع سليمان ، ثم جرت لهشام المؤيد معه قصص طويلة، ثم خرج إلى شرق الأندلس، فكان آخر خبره ونهاية أمره ، ثم عمَّيَ الخفاء على أثره، وها أنا أذكر :

١٢٣ - دَوْلَةُ مُحَمَّدِ المُهْدِيِّ بنِ هِشَامِ بنِ عَبْدِ الجَبَّارِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ

المتخللة لدولة المؤيد هشام[1]، المخلة بشروط الوفاء والذمام، قد كدنا نأتي على المقصود منها في تلك الترجمة، ونُجلي بصباح البيان أمورها المظلمة، كان هذا محمد المهدي خفيف العقل طائش الرأي ، لا يتمسك بدين ، ولا يتنسك كالمهتدين . قال ابن الأثير عنه ما معناه : إنه اتخذ النبيذ في بيته ، حتى سُمِّي نبَّاذا، وتصرمت أيامه وهو على هذا، وابتز الملك ، وما هُني بملبسه، ولا هيء له إلا المأ ثم ليلة عرسه، وبما تقدم اكتفاء لمن أراد الوقوف على خبره، وجلاء البصيرة من لم يره حقيقة ببصره، وكان خليقا أن لا يذكر مستقلا، ولا يذكر إلا في بعض حوادث دولة هشام، بل لا، وأما ما كان بعد هشام المؤيد

---

(١) قلعة رباح : مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة، استولى عليها الإفرنج منذ سبعين سنة أو نحوها، وهي غربي طليطلة وبين المشرق والجوف وقرطبة. (ياقوت : قلعة رباح)

(٢) مرت ترجمته مع المؤيد الأموي هشام بن الحكم .

فسأذكره بمشيئة الله تعالى، فأقول : [ص ٣٣٢]

١٢٤ - دَوْلَةُ سُلَيْمَانَ بنِ الحَكَمِ المُسْتَنْصِرِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ

قد قدمنا ما كان(١) بينه وبين هشام من نُوَب الأيام، ثم لما كانت له هذه الكرة، ودانت له قرطبة هذه المرة، وهي ولايته الثانية، وإيالته الدانية، تلقب بالمستعين، وتغلب بعدما غلب بعد حين، وكانت ولايته هذه منتصف شوال سنة ثلاث وأربع مائة، وبايعه الناس بيعةً عنوةً لا عناية، وخافوا تبعة السيف، تصريحا لا كناية، وكان أديبا خطيبا شاعرا، فاتكا باتكا داعرا، خرج إليه أهل قرطبة للسلام عليه، فلما مثلوا لديه، ابتدأ مميلا، وأنشد متمثلا :(٢)

[الطويل]

إذا ما رأوني طالعا من ثنية ... يقولون من هذا وقد عرفوني

يقولون لي أهلا وسهلا ومرحبا ... ولو ظفروا بي ساعة قتلوني

---

(١) سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر : أبو أيوب، من خلفاء الدولة الأموية بالأندلس، بويع بعد مقتل عمه هشام بن سليمان سنة ٣٩٩ هـ ، وتلقب بالمستعين بالله، ودخل قرطبة سنة ٤٠٠ هـ ، فتلقب فيها بالظافر بحول الله، مضافا إلى المستعين بالله، وظهر المؤيد بن الحكم في أواخر السنة فخرج المستعين إلى شاطبة، فجمع جيشا من البربر وهاجم قرطبة، فحصنها المؤيد، ولم يزل المستعين يقوى إلى أن امتلك الزهراء وسرقسطة وقرطبة سنة ٤٠٣ هـ، وكان في جملة جنوده القاسم وعلي ابنا حمود، فولى القاسم الجزيرة الخضراء ، وولى عليا طنجة وسبتة، فلم يلبث عليٌّ أن استقل وزحف إلى مالقة فتملكها، ثم إلى قرطبة، فدخلها وقتل المستعين بيده، وبمقتله انقطع ذكر بني أمية على منابر الأندلس مدة سبع سنين، وكان أديبا شاعرا، قتل سنة ٤٠٧هـ.

(جمهرة الأنساب ص ٩٣، المعجب ص٤٢ـ ٤٥ ، البيان المغرب ٣ / ٩١، جذوة المقتبس ص ١٩، فوات الوفيات ١ / ١٧٥)

(٢) البيتان لجميل بثينة من قصيدة في ديوانه ص ٢١٨ـ ٢١٩ ط عالم الكتب، بيروت ١٩٩٦ .

ثم تمت له المبايعة، وانقادت له أهل قرطبة بأنفس طائعة، ونخوة أحماها ما كانت بالكف قانعة، وبالصغار تحت غاء الذل مصانعة .

وقد حكى صاحب بلغة الرفاء أنه تلقب أولا بالمستعين ، ثم تلقب بالظافر بحول الله، وأنشد قول هارون الرشيد رحمه الله :

[**الكامل**]

ملك الثلاث الآنسات عناني وحللنَ من قلبي بكل مكانِ
ما لي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني

فقال سليمان المستعين :

عجباً يهابُ الليثُ حدَّ سنانِ وأهابُ لحظ فواتر الأجفانِ
وأقارعُ الأهوالَ لا متهيبا منها سوى الإعراض والهجرانِ
وتملكتْ نفسي ثلاثٌ كالدُّمى زُهْرُ الوجوه نواعمُ الأبدانِ
ككواكب الظلماء لُحنَ لناظرٍ من فوق أغصانٍ على كثبانِ
هذي الهلال وتلك بنت المشتري حُسْناً وهذي أخت غصنِ البانِ[ص ٣٣٣]
حاكمتُ فيهن السلوَّ إلى الصبى فقضى لسلطانٍ على سلطاني
فأبحنَ من قلبي الحمى وثنينني عن عز ملكي كالأسير العاني
لا تعذلوا ملكا تذلل في الهوى ذُلُّ الهوى عزٌّ وملكٌ ثانِ
إنْ لم أطع فيهن سلطان الهوى كلفاً بهنَّ فلستُ من مروانِ

قلت : وخلا المستعين هذا يوما بلذاته، واقتصر على لداته، وقد برز الجو في ممسك طرازه قوس قزح، والنور قد قلد جنده من لؤلؤ الطل سُبَح، وقد مد الغمام ستارة طرزت رفرفها البروق، وطرفت جانبي يومها كؤوس الصبوح

والغبوق، ثم وافى الليل فصدم جيشه كتائب تلك السحائب فمزقها، ولطم بحره أفواج تلك الأمواج ففرقها[١]، وتوقدت لوامع النجوم للاقتباس، ولاح الهلال كأنه سطر طوق في جيد زرقاء اللباس، فقال :

[الكامل]

عرَّى النهارَ الليلُ ملبسَ دجنةٍ وغزا غمائمه بجيشٍ مُقبلِ
عجباً له من سيفِ يومٍ مذهبٍ لولا الظلامُ يدوسه لم ينجلِ
أو ما ترى زُهْرَ النجومِ كأنَّها هي والهلالُ أسِنَّةٌ في قسطلِ

قال ابن الأثير ما ملخصه : إن خيران[٢] العامري لم يكن راضيا بولاية سليمان بن الحكم ، لأنه كان من أصحاب هشام المؤيد، فلما ملك انهزم، وكاتب له كاتبُه، ثم أتى شرق الأندلس، فكثر به جمعه وقاتل البربر، وملك المرية[٣]، وتراسل هو وعلي بن حمود العلوي صاحب سبتة[٤]، ووافقه على أن المؤيد كان قد عهد إليه، ودعا له بولاية العهد، فعبر علي بن حمود إليه، وأتى

(١) في الأصل : ففرها، ولا تستقيم مع السجعة .

(٢) الكلمة في الأصل غير معجمة ، وهو خيران العامري الصقلبي من موالي آل أبي عامر، أمير داهية، له حروب ووقائع في أيام المؤيد والمرتضى بالأندلس، وكان قائدا محنكا أطاعه فتيان العامريين، ورأى أمراء البلاد يستقل كل واحد منهم بما تحت يده بعد خراب الخلافة، فوثب على مدينة المرية وأعمالها واستقل بها، إلى أن مات فيها سنة ٤١٩ هـ .
(البيان المغرب ٣/١٦٦)

(٣) المرية : مدينة كبيرة من كورة البيرة من أعمال الأندلس، وكانت هي وبجاية بابي الشرق ، ومنها يركب التجار ، وفيها تحل مراكب التجار، وفيها مرفأ ومرسى للسفن والمراكب .
(ياقوت : المرية)

(٤) سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربرتقابل جزيرة الأندلس، وهي مدينة حصينة تشبه المهدية التي بأفريقيةعلى ما قيل ، لأنها ضاربة في البحر ، وبين سبتة وفاس عشرة أيام . (ياقوت : سبتة)

مالقة(١) فسلمها إليه عامر بن فتوح ، ثم سار خيران إليه، وتلاقيا بالمثلث سنة ست وأربعمائة، وبايعوا علي بن حمود على طاعة المؤيد هشام الأموي، فلما بلغوا غرناطة(٢)، وافقهم أميرها وساروا إلى قرطبة، فخرج [ص ٣٣٤] إليهم سليمان بالبربر، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم سليمان فأُخذ أسيراً، فحُمل إلى ابن حمود، ودخل ابن حمود قرطبة في المحرم سنة سبع وأربع مائة، وداروا القصور طمعا أن يكون بها المؤيد فلم يجدوه، ورأوا قبرا منبوشا وجدوا به جثة ميت، قالوا إنه المؤيد، ولم يكن به، إنما قالوه خوفاً من علي بن حمود، لأنه طمع بالاستقلال، فأخذ ابن حمود سليمان بن الحكم فقتله، واستولى ابن حمود على قرطبة، وبُدِّلتْ الخلافة الأموية بالخلافة العلوية(٣)، على ما ذُكر في مكانه، ثم أنّهُ تنكر لخيران، فتنكر له خيران، وأظهر عليه الخلاف، وأرسل يسأل عن بني أمية، فدُلَّ على عبد الرحمن بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، وكان قد خرج إلى حبَّان، وكان أصلح بني أمية، فبايعه خيران ولقبه المرتضى، وراسل شرفاء قرطبة(٤) والثغر الأعلى وشاطبة(٥) وبلنسية وطرطوشة(٦)،

(١) مالقة : مدينة بالأندلس عامرة من أعمال ريَّة، سورها على شاطىء البحر، بين الجزيرة الخضراء والمرية . (ياقوت : مالقة)

(٢) غرناطة : هي أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس، وأعظمها وأحسنها وأحصنها، يشقها النهر المعروف بنهر قلزم في القديم، ويعرف الآن بنهر حدارَّة، بينها وبين البيرة أربعة فراسخ، وبينها وبين قرطبة ثلاثون فرسخا . (ياقوت : غرناطة)

(٣) الصواب أن يقال: بدلت الخلافة العلوية بالخلافة الأموية، لأن الباء تكون مع المتروك .

(٤) في الأصل : شرف طه، وهو تحريف .

(٥) شاطبة : مدينة شرقي الأندلس، وشرقي قرطبة ، وهي مدينة كبيرة قديمة .
(ياقوت شاطبة)

(٦) طرطوشة : مدينة بالأندلس، تتصل بكورة بلنسية وهي شرقي بلنسية، وهي على نهر ابرُه، ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد في جملتها، تحلها التجار وتسافر منها إلى سائر الأمصار .
(ياقوت : طرطوشة)

فأجابوا إلى بيعته، ثم ساروا إلى صنهاجة على قصد غرناطة، وحصل من المرتضى إعراض عن خيران، فتخلى عنه، وانجلى حصارهم لغرناطة عن هزيمتهم، وقُتل المرتضى، ثم استقل علي بن حمود، ثم أخوه القاسم، ثم يحيى بن علي ابن حمود، ثم عادت دولة بني أمية على ما نذكره، فكان أولها بعد الدولة العلوية :

١٢٥ - دَوْلَةُ الْمُسْتَظْهِرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ هِشَامٍ

ابن عبد الجبار[١] بن عبد الرحمن الناصر، أبي المطرف، وكان سبب ملكه ما قدمناه، وموجب تقديمه التيمن بسناه، وحب أهل قرطبة لبني أمية، الحب الذي تمكن في حشاهم وملأهم به شغفا وحشاهم، فلما غشيهم موج الفتنة وغشَّاهم، وأرحل [ص ٣٣٥] ذلاً فوارسهم ومشَّاهم، صافحوا بالبيعة يمناه، ونافحوا من حال دون ما تمناه، هوى أمويا علقوه، وجوىً خفيا عاهدوا الله عليه لو صدقوه.

بويع في شهر رمضان سنة أربع عشرة وأربع مائة، وعمره اثنتان وعشرون سنة، واختان القدر ملكه وما مكنه، وأظن الأدب أدركه بحرفته، وأملكه بذنب معرفته، لأنه كان شاعرا مجيداً رقيق الطبع، لا تبلى بأيدي من دموعه الربع، ولم تتم ولايته، ولم تقم للخلافة حوايته، وكانت مدته شهرا واحدا وسبعة عشر

(١) المستظهر الأموي : عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، أبو المطرف المستظهر بالله، أحد من ولي إمارة قرطبة في أيام ضعف الدولة الأموية بالأندلس، بويع بالخلافة سنة ٤١٤ هـ، وثار عليه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر، مع طائفة من الغوغاء ، فقتلوه بعد ٤٧ يوما من ولايته، لم ينتظم له فيها أمر ولا تجاوزت دعوته قرطبة، قال مؤرخوه :كان عفيفا رقيق النفس، حسن الفهم، أديبا يجيد الشعر، ختم به فضل أهل بيته، قتل سنة ٤١٤ هـ .

(البيان المغرب ص ١٣٥، ١٣٩، المعجب ص ٣٥، الذخيرة ١ /٣٤، جذوة المقتبس ص ٢٤)

يوما، ثم قُتِل ، ورُد عهده بعد أن قُتل ، وكانت جالبة حِمامه، وخالبة روحه باعتلاق سمامه، جهالة أركبه الشيطان غرورها ، وأكسبه محذورها ، وكان السبب أنه أخذ جماعة من أعيان قرطبة فسجنهم لميلهم إلى سليمان بن المرتضى عبد الرحمن بن محمدبن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، وأخذ أموالهم، فسعوا عليه من السجن، وصدعوا حباله مزقاً كالعهن، وألّبوا الناس عليه ، وتأهبوا لاستلال روحه من جنبيه، فأهانهم صاحب شرطته فأهين، وجُرِّع كأس ردائه في الحين، وكان ممن وافقهم على فعلتهم وواثقهم على مثل مثلتهم أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن الأموي، في جماعة كثيرة، وطاعة جعلت إلى الأمر مصيره .

وكان أبيض أشقر أعين العين شثن الكفين رحب الصدر .

١٢٦ - دَوْلَةُ مُحَمَّدِ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ

أبي عبد الرحمن المستكفي[١] ، ولم يكن من رجال بيته في شيء من الأشياء، ولا كان إلا ميتا في صورة الأحياء ، لعدم ضِرامه، وعظم خمود

(١) المستكفي الأموي : محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر الأموي، أبو عبد الرحمن، صاحب قرطبة ، من خلفاء الأمويين بالأندلس، ثار بطائفة من الغوغاء على سلفه المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام، فقتلوه وتولى الأمر بعده سنة ٤١٤ هـ ، وساءت سياسته وأقام سبعة عشر شهرا، وعلم أهل قرطبة بزحف يحيى بن علي الحمودي عليهم من مالقة، فدخلوا على المستكفي وخلعوه وأخرجوه إلى ظاهر المدينة، فلحق بالثغور، وتوفي مقتولا أو مسموما في قرية شمنت (قرب مدينة سالم)، قال ابن حزم : كان المستكفي في نهاية الضعة والسقوط والضعف والتاخر، كان مقتله سنة ٤١٦ هـ .

(جذوة المقتبس ص٢٥، جمهرة الأنساب ص ٩٢، البيان المغرب ٣ / ١٤١، ابن الأثير ٩ / ٩٥، الذخيرة ١ / ٣٧٩، المغرب في حلي المغرب ص ٥٤)

لشهامه[ص ٣٣٦] كأنه ما مر مروان من أمامه(١)، ولا قدم عبد الرحمن الداخل قدامه، ولا عُدَّ من هذا البيت هشامه، عدا عبد الملك فعلاً ومعاوية فضلاً، وكان همُّه فرجه وبطنه ، وعزمه عينه وأذنه ، لا يفكر في شيء إلا ما يهمه، ولا يلم إلا بما لا يفارقه ملمه، إلا أنه ممن أقامه الحظ السابق على من تقدمه، حتى تأخر لامتداد الأجل وقدمه.

بويع في ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربع مائة، وبقي سنة وأربعة أشهر وأياما، ثم خلعوه خلع الحذاء ، ودفعوه دفع الذباب عن الغداء، فخرج في جماعة ممن حفظ عهده المضاع، ولحظ وده ملاحظة الطفل لأيام الرضاع، فأتى بهم مدينة سالم(٢)، وأقام بها غير مسلَّم ولا مسالم، فضجر منه بعض أصحابه ممن هجر، أو أن اتساع رحابه فعمد إلى دجاجة فحميٰ فشواها، وعمل فيها سُمَّاً رمى بها مهجته فأصاب شواها، فأراح الدنيا من تخلفه وخفف أثقالها بما كانت تحمله من تكلفه .

وكانت وفاته في ربيع الآخر سنة سبع وأربع مائة، وكان ربعة أشقر أزرق مدور الوجه ضخم الجسم ، قارب في العمر الخمسين سنة، ثم أقيمت الدعوة ليحيى بن علي بن حمود، ثم آل أمره إلى أن قطعت دعوته ، ومُنعت أن تستجاب لها دعوته، ثم أعيدت الدولة أموية، وحمدت(٣) عهودها المذكورة بسحب الدموع الروية ، وها أنا أذكرها فأقول :

---

(١) في الأصل العبارة مضطربة ، هكذا: ما كأنه قد مر مروان أمامه .

(٢) سالم : مدينة بالأندلس تتصل بأعمال باروشة، وكانت من أعظم المدن وأشرفها، وأكثرها شجرا وماء، وكان طارق بن زياد لما افتتح الأندلس ألفاها خرابا، فعمرت بعد الإسلام .

(ياقوت : سالم)

(٣) في الأصل : وحيدت ، تحريفاً .

١٢٧ - دَوْلَةُ هِشَامِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ

أبي بكر(١)، قام بنصرة أبي الحزم جهور(٢)، وقام بالحزم وما تهور، راسل أهل الثغور المتغلبين فوافقوه، ورأوا رأيه وما واقفوه، [ص٣٣٧] وكتبوا ببيعتهم إلى هشام بن محمد، وكان مقيما ببعض الثغور منذ قُتل أخوه الرضى، وقيل : قد أغمد سيفه المنتضى ، ثم أصفقت أيدي الناس ببيعته ، وصانت عهده المحفوظ

(١) المعتدُّ بالله : هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، أبو بكر، آخر خلفاء بني أمية بالأندلس، كان مقيما في حصن البونست من ثغورقرطبة، وبويع بعد وفاة المستكفي بالله سنة ٤١٨ هـ، فكان يخطب له في قرطبة وهو بالبونست عند عبد الله بن قاسم الفهري، وتنقل في بعض الثغور، والفتن قائمة في البلاد، لا قدرة له على قمعها، ودخل قرطبة في أواخر سنة ٤٢٠ هـ، فأقام قليلا، وثارت به طائفة من الجند فخلعوه وأخرجوه من قصره، هو ونساؤه وخدمه سنة ٤٢٢ هـ فلجأ إلى جامع قرطبة بمن معه، وأقام أياما يعطف عليه الناس بالطعام والشراب، ثم أُخرج من قرطبة، ونودي فيها وفي أرباضها : (لا يبقى أحد من بني أمية ، ولا يكنفهم أحد)، فقصد الثغور، ولحق بابن هود(المستعين بالله سليمان بن محمد صاحب تطيلة وسرقسطة ولاردة وطرشوشة) فأقام عنده إلى أن مات عقيما في جهة لاردة، وانقرضت به الدولة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٨ هـ .

(البيان المغرب ٣ / ١٤٥، المعجب ص ٥٧، ابن الأثير ٩ /٩٧، جمهرة الأنساب ص ٩٣، جذوة المقتبس ص ٢٦، المغرب في حلي المغرب ١ / ٥٥، بلغة الظرفاء ص٤٣

(٢) أبو الحزم جهور بن محمد : صاحب قرطبة، كان بنو جهور أهل بيت وزارة مشهورة في الأندلس، دخلوها قبل (عبد الرحمن الداخل) بمدة، يقال : أصلهم من الفرس، وقيل : بل هم كلبيون، وأبو الحزم هذا أمجدهم وأنجدهم، ولي الوزارة في أيام الدولة العامرية إلى أن انقرضت، فاعتزل العمل مدة، ثم استمال إليه فريقا من أهل التقوى والوجاهة، ودعاهم إلى مبايعة هشام(المعتد بالله) فوافقوه واستولوا على قرطبة بعد فتن كثيرة، واضطرب أمر المعتد بالله فخلعوه، وانقضت به الدولة الأموية سنة ٤٢٢ هـ، واستقل أبو الحزم بقرطبة ، وانتظمت له شؤونها ، ودرأ عنها ملوك الفتنة، فعمها الأمن والرخاء، واستمر إلى أن توفي، وكان حازما يعد من الدهاة، وله أدب وحلم ووقار ، توفي سنة ٤٣٥ هـ .

(ابن خلدون ٤ / ١٥٩، المغرب في حلي المغرب ص ٥٦، مطمح الأنفس ص١٦، البيان المغرب ٣ /١٨٥، جمهرة الأنساب ص٩٣، بغية الملتمس ص ٢٤٤، الذخيرة ١ /١١٧)

من ضيعته، ولُقِّب بالمعتمد، وكان أسنَّ من أخيه المرتضى ، وأشد منه في كل مقتضى، فنهض إلى الثغور ، وطلع فيها نجمه لا يغور، وجرت له فيها فانعقدت بالسماء عنان عجاجتها ، وعلقت في مجرى الأسماء بنان مجاجتها، وقوي هنالك هيج الاضطراب، وأخذ موج السيوف في الضراب، ثم ساروا إلى قرطبة وسالوا في تلك الشعاب، سيلان جيش قحطبة ، فأتاها مثل أوله، ووافاها حالا في صدر منزله، وأقام منذ بويع نحو خمسين سنة، حتى خُلِع رداؤه، وقُطِع عن مسامع المنابر نداؤه، وكان موجب النقمة عليه سوء تدبير وزيره أبي العاص سعيد لأنه أخذ أموال التجار وأعطاه البربر، فنفرت خواطر أهل قرطبة لهذا وأنكروه، ووضعوا عليه أناسا قتلوه، ثم خلعوا هشاما ، ونبذ عهده فريق منهم ، واتخذ عهده الوثيق ما رفعه قلم التكليف عنهم، وقام ابنه عبد الرحمن بن هشام في جماعة من الأحداث فتسوروا القصر، وعلوا شرفاته، وتصوروا له أمرا أدركه وفاته، وبايعه كثير من سواد الناس، ونهض بهم ، فما قام منهم جسد بلا رأس، فقال له بعض أهل قرطبة : نخشى عليك أن تقتل في هذه الفتنة، فإن السعادة قد ولَّت عنكم، فقال : بايعوني اليوم واقتلوني غدا، فأنفذ أعيان قرطبة إليه وإلى ابنه المعتمد بالخروج عن قرطبة، فأودع المعتمد أهله، وخرج إلى حصن ابن الشوب، فاعتقلوه، ثم أخرجوه [ص ٣٣٨] إلى حصن آخر فحبسوه فيه ، فتحيَّل للخروج حتى خرج منه ليلاً،[وولج والخمول يسحب عليه ذيلا](١) وسار إلى سليمان بن هود(٢)، وبقي عنده حتى مات في صفر سنة ثمان

---

(١) ما بين المعقوفتين خرجة من الحاشية .

(٢) سليمان بن محمد بن هود بن عبد الله بن موسى : مولى أبي عبد الله الجذامي، أبو أيوب، مؤسس دولة آل هود، من ملوك الطوائف في الأندلس، كان مقيما في تطيلة معدودا من كبار الجند، فلما اضطرب أمر الأمويين استولى عليها سنة ٤١٠ هـ ، وتلقب المستعين بالله، وملك لاردة ثم سرقسطة سنة ٤٣١ هـ، وانتقل إليها، وانتظم له الأمر، وضخم ملكه، فقسم بلاده على=

وعشرين وأربع مائة، ودفن في ناحية لاردة[1]، وسكن بها صوت سحبه الراعدة، وماتت دولة بني أمية في الأندلس وسائر أقطار الأرض بموته، وخمد حسها بخمود صوته، فسبحان الحي الباقي وكل شيء هالك، الملك الدائم ملكه، بعد ذهاب [ما] ملكه الملوك، والممالك تعوذ به ، وتتوكل عليه، ونسأله من خير ما لديه، إنه لا حول ولا قوة إلا به .

وقال ابن بسام وقد ذكر قِصَر مدة المستظهر عبد الرحمن الذي تقدم ذكره : لم تنشر له فيها طاعة، ولا تتامت جماعة، وكان على حدوث سنه ذكيا يقظا لبيبا أديبا حسن الكلام حاد[2] القريحة، يتصرف فيما شاء من الخطاب بذهنه ورويته، ويصوغ قطعا من الشعر مستجادة، بطهارة أثواب وعفة وبراء ة من شرب النبيذ سرا وعلانية، وكان نسيج وحده، وبه ختم فضلاً أهل بيته الناصريين .

ومن شعره :

[مجزوء الرمل]

طال عمرُ الليلِ عندي ... مذْ تولعتُ بصدٍّ

يا غزالا نقض الود ... دَ ولم يوفِ بعهدِ

أنسيتَ العهدَ إذْ بتْـ ... ـنا على مفرشِ وردِ

واجتمعنا في وشاحٍ ... وانتظمنا نظمَ عقدِ

وتعانقنا كغصنيـ ... ـنِ وقدَّانا كقَدٍّ

= أبنائه، فجعل لكل منهم ولاية، وكانوا خمسة، واستمر إلى أن مات سنة ٤٣٨ هـ .
(ابن خلدون ٤ /١٦٣، المعجب ص ٧١، البيان المغرب ٣ / ٢٢١)

(١) لاردة :مدينة مشهورة بالأندلس، شرقي قرطبة ، تتصل أعمالها بأعمال طرّكونة، منحرفة عن قرطبة إلى ناحية الجوف، ينسب إلى كورته عدة مدن وحصون .(ياقوت : لاردة)

(٢) في الأصل : حد .

ونجـــومُ الـليـــلِ تحـكـــي ذهَـــبَـــاً فـــي لازوردِ

قال محقق الجزء الرابع والعشرين : انتهى هذا السفر، ويبدو أن هناك صفحة أوصفحات ناقصات بدليل أن نهاية هذه الصفح رقم ٣٣٨ في آخرها تعقيبة الصفحة التي تليها وهي قوله بداية الصفة المفقودة : [وقد تقدم] ولذلك لا يعرف اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ .

مصادر التحقيق

- إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ـ عبد الرحمن بن زيدان.

ط الرباط ١٣٤٧ـ١٣٥٢هـ.

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفا ـ المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ . . طبع مصر ١٣٦٧هـ .

- الإحاطة في أخبار غرناطة ـ ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن سعيد (ت٧٧٦هـ).

طبع منه جزآن في مصر ١٣١٩هـ، وأعيد طبع المجلد الأول سنة ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

- أخبار الراضي بالله والمتقي بالله من كتاب الأوراق ـ الصولي : أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٦هـ)

طبع مصر ١٩٣٥ .

- الأخبار الطوال ـ الدينوري : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ) .

ط مصر ١٣٣٠ هـ .

- أخبار القضاة ـ وكيع : محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦) . .

ط مصر ١٣٦٦ـ ١٣٦٩ هـ .

- أخبار مصر ـ ابن ميسر : محمد بن علي بن يوسف) ت ٦٧٧ هـ) .

ط القاهرة ١٩١٩ م

- أزهار الرياض في أخبار عياض ـ المقَّري : أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ).

ط مصر ١٣٥٨ ـ ١٣٦١ هـ .

- أسد الغابة في معرفة الصحابة ــ ابن الأثير : علي بن محمد الجزري الشيباني (ت ٦٣٠ هـ) .

مصر ١٢٨٠ هـ .

- أسماء المغتالين من الأشراف ــ ابن حبيب : محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ) .

طبع ضمن نوادر المخطوطات تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة

- الإشارة إلى من نال الوزارة ــ ابن الصيرفي : علي بن منجب بن سليمان (ت٥٤٢ هـ).

ط مصر ١٩٢٤ م .

- أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ــ الصولي : أبو بكر محمد بن يحيى (ت٣٣٥هـ) ،

وهو جزء من كتاب الأوراق ، نشر هيورث دن، ط مصر ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.

- الإصابة في تمييز الصحابة ــ ابن حجر : أحمد بن علي العسقلاني (ت٨٥٢هـ).

ط السعادة مصر ١٣٢٩هـ ، وتحقيق علي محمد البجاوي ، ط مصر ١٩٧١ م .

- الأعلام ــ الزركلي : خير الدين بن محمود بن محمد (ت ١٣٩٦ هـ) .

الطبعة الثالثة ، بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م .

- أعلام المؤلفين الزيدية ــ عبد السلام بن عباس الوجيه .

- أعلام النساء ــ كحالة : عمر رضا .

ط دمشق ١٣٥٩هـ .

– أعيان الشيعة ـ محسن الأمين : محسن بن عبد الكريم بن علي (ت ١٣٧١هـ).

طبع منه ٣٥ جزءا في دمشق ابتداء من ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م .

– الأغاني ـ الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين الأموي (ت ٣٦٠ هـ) .

ط دار الكتب المصرية ،و ط ساسي ، وط دار الكتب العلمية، بيروت .

– ألف باء ـ البلوي : يوسف بن محمد بن عبد الله بن يحيى (ت ٦٠٤ هـ).

ط مصر ١٢٨٧هـ .

– أمالي المرتضى ـ المرتضى : الشريف علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ) .

تحقيق أبي الفضل إبراهيم ، ط القاهرة ١٩٥٤م .

– إمتاع الأسماع ـ المقريزي : أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) .

تحقيق محمود محمد شاكر ، ط مصر ١٩٤١م .

– أمراء البيان ـ كرد علي : محمد بن عبد الرزاق (ت ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م) .

ط مصر ١٣٥٥هـ / ١٩٣٧ م .

– إنباه الرواة على أنباه النحاة ـ القفطي : جمال الدين علي بن يوسف (ت٦٤٦هـ).

ط دار الكتب المصرية ٥٠ ـ ١٩٥٥ م .

– ابن إياس = بدائع الزهور

– البدء والتاريخ ـ المقدسي : مطهر بن طاهر (ت ٣٥٥ هـ) .

طبع في شالون ١٩١٦م .

- البداية والنهاية ـ ابن كثير : الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت٧٧٤ هـ).

ط السعادة، مصر ١٩٣٢م ، و ط مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٦ م .

- بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ابن إياس : محمد بن أحمد بن إياس الحنبلي (ت ٩٣٠ هـ) .

- الثلاثة أجزاء الأولى ط مصر ١٣١١هـ، والرابع والخامس ط في استانبول ٣١ـ١٩٣٢ م .

- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ـ الضبي : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت٥٩٩ هـ)

ط في مجريط ١٨٨٤م ، و ط دار الكتاب العربي ، القاهرة١٩٦٧ م .

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاةـ السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ)

ط مصر ١٣٢٩هظـ ، وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ م .

- بلغة الظرفاء في ذكر تواريخ الخلفاء ـ الروحي : علي بن محمد بن أبي السرور ط مصر ١٣٢٧هـ .

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـ الألوسي : محمود شكري (ت١٣٤٢هـ).

بعناية محمد بهجة الأثري ، ط القاهرة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م .

- بلوغ المرام في شرح مسك الختام، فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام ـ العرشي : حسين بن أحمد (ت ١٣٣٠هـ) . ختم حوادثه سنة ١٣١٨هـ،

وزاد عليه الأب أنستاس ماري الكرملي فأوصله إلى ١٣٥٨هـ، ط مصر ١٩٣٩م.

– البيان والتبيين ــ الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) .

تحقيق عبد السلام هارون ، ط مكتبة الخانجي، مصر ١٩٦٨ م .

– البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ــ ابن عذاري المراكشي : محمد بن محمد (ت ٦٩٥ هـ) .

أربعة أجزاء، طبع الأول والثاني في ليدن ٤٨ ــ ١٩٥١م، والثالث في باريس ١٩٣٠م، والرابع في تطوان ١٩٥٦م.

– تاج التراجم ــ قاسم بن قطلوبغا الحنفي

ط ليبسك ١٨٦٢م .

– تاج العروس من جواهر القاموس ــ الزبيدي : محب الدين محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ) .

ط الوهبية ، مصر ١٢٨٦ هـ .

– تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام ــ الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ)

ط السعادة ، مصر ٦٧ ــ ١٩٦٩م .

– تاريخ بغداد ــ الخطيب البغدادي : أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) .

ط مصر ١٣٤٩هـ ، وط دار الكتاب العربي ، بيروت .

– تاريخ التراث العربي ــ فؤاد سزكين .

الترجمة العربية، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض

١٩٨٣ م.

- تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) ـ ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ)

ط مصر ١٢٨٤هـ، و ط مصر ١٣٥٥هـ .

- تاريخ الخلفاء ـ السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر الشافعي (ت ٩١١ هـ) .

تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ١٩٩٣م.

- تاريخ الطبري ـ الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .

ط الحسينية ، القاهرة ١٩٣٩م ، وتحقيق أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف مصر ٦٠ـ١٩٦٩ .

- تاريخ العراق بين احتلالين ـ العزاوي : عباس بن محمد ثامر (ت١٣٩١هـ/ ١٩٧١م).

ثمانية أجزاء ، ط بغداد ١٣٥٣ ـ ١٣٧٦ هـ .

- تاريخ الكوفة ـ البراقي : حسين بن أحمد بن الحسين (ت ١٣٣٢هـ)

ط النجف ١٣٥٦هـ .

- تاريخ ابن الوردي (تتمة المختصر في أخبار البشر)ـ ابن الوردي : عمر بن المظفر (ت ٧٤٩ هـ) .

ط مصر ١٢٨٥ه ، و ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٦م .

- تاريخ اليمن ـ الواسعي : عبد الواسع الواسعي .

ط مصر ١٣٤٦هـ .

– تذكرة الحفاظ ـ الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) .

ط حيدرآباد ١٣٣٣ ـ ١٣٣٤هـ.

– التعازي والمراثي ـ المبرد : محمد بن يزيد الثمالي (ت ٢٨٥ هـ).

تحقيق محمد الديباجي ، ط مجمع اللغة الربية، دمشق ١٩٧٦م

– التنبيه والإشراف ـ المسعودي : أبو الحسين علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ).

ط مصر ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م .

– تهذيب تاريخ دمشق (تاريخ دمشق لابن عساكر) ـ ابن هبة الله : أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٥٧١ هـ)

بعناية عبد القادر بدران ، ط دمشق ١٣٢٩ـ١٣٥١هـ .

– تهذيب التهذيب ـ ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أحمد بن علي (ت٨٥٢ هـ).

ط حيدر آباد ، الهند ٢٥ ـ ١٣٢٧هـ .

– تواريخ آل سلجوق ـ جزء مشتمل على كتاب زبدة النصرة ونخبة العصرة ـ عماد الدين الأصفهاني

اختصار الفتح بن علي البنداري الأصفهاني، ط ليدن ١٨٨٩م .

الجداول المرضية في تاريخ الدول الإسلامية ـ دحلان : أحمد بن زين دحلان المكي (ت١٣٠٤هـ)

ط مصر ١٣٩٦هـ .

– جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ـ الحُميدي : محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي (ت ٤٨٨ هـ)

ط مصر ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م .

– جزيرة العرب في القرن العشرين ـ حافظ وهبة

ط مصر ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م .

– جمهرة الأنساب (جمهرة أنساب العرب) ـ ابن حزم الأندلسي : علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ

ط مصر ١٩٤٨م ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط دار المعارف، مصر ١٩٧١م.

– حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة ـ الموستاري: علي فهمي .

ط الآستانة ١٣٢٤ رومية .

– حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ـ السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ) .

ط مصر ١٢٩٩هـ .

– الحلة السيراء ـ ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر البلنسي (ت٦٥٨ هـ)

قطعة منه طبعت في ليدن ١٨٣٧ـ ١٨٥١م ، وحققه حسين مؤنس ، ط القاهرة ١٩٦٣م .

– الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ـ منسوب للسان الدين ابن الخطيب : محمد بن عبد الله بن سعيد (ت ٧٧٦ هـ).

ط تونس١٩١١م ، وأعيد طبعه في الرباط ١٩٣٦م .

– حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ــ الأصبهاني : أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠ هـ) .

ط مصر ١٣٥١هـ .

– حلية المحاضرة ــ الحاتمي : محمد بن الحسن (ت ٣٨٨ هـ)

تحقيق جعفر كتاني ، ط بغداد ١٩٧٩م .

– الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ــ ابن الفوطي : عبد الرزاق بن أحمد (ت ٧٢٣ هـ) .

طبع قسم منه في بغداد ١٣٥١هـ .

– الحور العين ــ نشوان الحميري : أبو سعيد نشوان بن سعيد اليمني (ت٥٧٣هـ) .

ط مصر ١٩٤٨م .

– الحيوان ـ الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) .

تحقيق عبد السلام هارون ط مصر ١٩٦٥ م .

– خريدة القصر ــ العماد الأصفهاني : محمد بن محمد (ت ٩٥٧ هـ) .

قسم شعراء مصر ، ط مصر ١٩٥١م ، قسم شعراء الشام ، ط دمشق ١٩٥٥م ، قسم شعراء العراق ،

ط بغداد ١٩٥٥م .

– خزانة الأدب ــ البغدادي : عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ)

ط السلفية مصر ١٣٤٧هـ، وتحقيق عبد السلام هارون ط مصر ١٩٦٨م .

- خطط المقريزي = المواعظ والاعتبار .

- خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال ـ الخزرجي : أحمد بن عبد الله بن أبي الخير (ت ٩٢٣ هـ) .

ط مصر ١٣٢٢ هـ .

- خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ـ أحمد بن زيني دحلان المكي (ت١٣٠٤هـ) . .

ط مصر ١٣٠٥هـ .

- الخلاصة النقية في أمراء أفريقية ـ المسعودي : أبو عبد الله محمد التونسي الباجي (ت ق ٣ هـ) .

ط تونس ١٢٨٣ هـ .

- دائرة المعارف الإسلامية ـ نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي ، وأحمد الشنتناوي، وإبراهيم زكي خورشيد، وعبد الحميد يونس، توقفوا عند حرف العين ، ط مصر ١٩٥٧م .

- الدر الفريد وبيت القصيد ـ محمد بن أيدمر(ت النصف الثاني من القرن السابع هـ).

مخطوط، تصوير معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت ٨٨ـ١٩٨٩ م .

- الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ـ زينب فواز : زينب بنت علي بن حسين (ت ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) .

ط مصر ١٣١٢هـ .

– دول الإسلام ـ الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) .
ط حيد آباد، الهند ١٣٣٧هـ .

– الديارات ـ الشابشتي : علي بن محمد (ت ٣٨٨ هـ) .
تحقيق كوركيس عواد، ط بغداد ١٩٥١م .

– ديوان الأحوص الأنصاري ـ تحقيق عادل سليمان، ط القاهرة ١٩٩٠م ، و ط بيروت ١٩٩٤م .

– ديوان الأعشى ميمون بن قيس ـ نشر أدولف هلز هوسن، ط بيانة ١٩٢٧م، تصوير بيروت ١٩٩٣م .

– ديوان جرير بن عطية بن الخطفى ـ ط دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٤م .

– ديوان الحماسة (حماسة أبي تمام الطائي) ـ تحقيق عبد الله عسيلان ، ط الرياض ١٩٨١م .

– ديوان زهير بن أبي سلمي ـ ط دار الكتب المصرية ١٩٤٤ م .

– ديوان الراعي النميري ـ تحقيق راينهر فايبرت ، ط بيروت ١٩٨٠م .

– ديوان أبي العتاهية ـ ط دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٩٧م .

– ديوان كثير عزة ـ تحقيق إحسان عباس ، ط دار الثقافة بيروت ١٩٩٨١م وط دار الجيل ، بيروت ١٩٩٥ م .

– ديوان مروان بن أبي حفصة ـ ط دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٩٣م .

– ديوان ابن المعتز ـ تحقيق يونس السامرائي ، ط عالم الكتب ، بيروت ١٩٩٧م.

– ديوان أبي النجم العجلي ـ جمع وتحقيق علاء الدين أغا، ط الرياض

١٩٨١م.

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ــ ابن بسام : علي بن بسام الشنتريني الأندلسي (ت ٥٤٢ هـ) .

أقسام منه في ثلاثة أجزاء ، ط مصر ٥٨ ــ ١٣٦٤ هـ ، وتحقيق إحسان عباس، ط بيروت ١٩٧٩م .

- الذريعة إلى تصانيف الشيعة ــ أغا بزرك الطهراني : محمد بن محسن (ت ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م)

ط النجف بداية من سنة ١٩٣٦بعد توقف ثم واصلت إلى سنة ١٩٧١م ظهرت تسعة أجزاء، ثم وصلت إلى عشرين جزء ا .

- ذيل الروضتين ــ أبو شامة المقدسي : عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي (ت٦٦٥ هـ) .

ط مصر ١٣٦٦هـ .

- ذيل المذيل في تاريخ الصحابة والتابعين ــ الطبري : محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)

مختارات منه طبعت في مصر ١٣٢٦ هـ في آخر كتابه تاريخ الأمم والملوك .

- رغبة الآمل من كتاب الكامل ــ سيد بن علي المرصفي (ت ١٣٤٩هـ) .

ط مصر ٤٦ ــ ١٩٤٨م ، وط٢ صورتها مكتبة البيان ، بغداد ١٩٦٩م .

- رقم الحلل في نظم الدول ــ لسان الدين بن الخطيب : أبو عبد الله محمد بن سعيد (ت ٧٧٦ هـ) . .

ط تونس ١٣١٧هـ .

– الروض الأنف، في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام ــ السهيلي : عبد الرحمن بن

عبد الله الخثعمي (ت ٥٨١ هـ).

ط مصر ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م .

– سمط اللآلي ــ البكري : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٧٨هـ).

تحقيق عبد العزيز الميمني، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٦م.

– السلوك لمعرفة دول الملوك ــ المقريزي : أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) .

طبع الجزء الأول في مصر ٣٤ ــ ١٩٣٩م والقسم الأول من الجزء الثاني في مط ١٩٤١م.

– سير أعلام النبلاء ــ الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ). طبع الجزء الأول والثاني في مصر

– السير(في رجال الأباضية) ــ الشماخي : أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت ٩٢٨ هـ) . .

طبع على الحجر بقسنطينة ، الجزائر .

– السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون) ــ الحلبي : علي بن إبراهيم بن أحمد (ت ١٠٤٤هـ). ط مصر ١٢٩٢هـ .

شرح المقامات الحريرية ــ الشريشي : أحمد بن عبد المؤمن القيسي (ت٦١٩هـ) .

ط مصر ١٣٠٠هـ .

– شرح المعلقات العشر ــ الشنقيطي : أحمد بن الأمين (ت ١٣٣١هـ) .

ط دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٨٥ م .

– شعر أشجع السلمي ـ تحقيق خليل بنيان،ط بيروت ١٩٨١ م .

– شعر ربيعة الرقي ـ تحقيق يوسف بكار، ط دار الأندلس، بيروت ١٩٨٤ م.

– شعر زياد الأعجم ـ تحقيق يوسف بكار ، ط وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٣م

– شعر أبي الشيص الخزاعي(أشعار أبي الشيص الخزاعي وأخباره).

ـ جمع عبد الله الجبوري ، ط النجف١٩٦٧ م .

– الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ)،

ط ليدن ١٩٠٢م ، وتحقيق أحمد شاكر، ط دار المعار، القاهرة ١٩٦٦م .

– شعر الوليد بن يزيد ـ جمع حسين عطوان ، ط عمان ١٩٧٩ م .

– شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ـ الفاسي : محمد بن أحمد التقي (ت٨٣٢هـ)..

ط مصر ١٩٥٦م .

– صبح الأعشى ـ القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ). ط مصر ١٣٣١ ـ ١٣٣٨هـ .

– صحيح مسلم ـ مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ) .

تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط الحلبي ، مصر ١٩٥٥م .

– صفة الصفوة ـ ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧ هـ) ،

ط حيدر آباد ، الهند ١٣٥٥هـ .

- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ــ ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨ هـ) .

ط مجريط ١٨٨٢ م ، وط الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر ١٩٦٦ م .

- صلة تاريخ الطبري ــ عريب بن سعد القرطبي (ت ٣٦٩ هـ) .

ط مصر ١٣٢٦ه باسم الجزء الثاني عشر من تاريخ الطبري، و ط ليدن ١٨٩٧م.

- طبقات السبكي = طبقات الشافعية .

- طبقات ابن سعد (الطبقات الكبير) ــ محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ)

تحقيق سخاو ، ط ليدن ١٩٠٤م، صور في بيروت ١٩٥٧ م .

- طبقات الشافعية الكبرى ــ السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن عليبن عبد الكافي (ت ٧٧١ هـ) .

ط مصر ١٣٢٤هـ .

- طبقات الشعراء ــ ابن المعتز : أبو العباس عبد الله بن المعتز العباسي (ت٢٩٦هـ) .

تحقيق عبد الستار فراج، ط دار المعارف، مصر ١٩٥٦ م .

- طبقات فحول الشعراء ــ الجمحي : محمد بن سلام (ت ٢٣٢ هـ) .

تحقيق محمو دمحمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٧٤ م .

- عريب = صلة تاريخ الطبري

- العقد الفريد ــ ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت٣٢٨هـ).

ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٥٩ــ ١٣٧٢هـ / ١٩٤٨ـ١٩٥٠م.

– العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ـ الخزرجي : علي بن الحسن (ت ٨١٢ هـ) .

ط مصر ١٣٢٩هـ / ١٩١١ م .

– عنوان المعارف وذكر الخلائف ــ الصاحب : إسماعيل بن عبَّاد بن العباس (ت٣٨٥ هـ) .

ط النجف ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م في المجموعة الأولى من نفائس المخطوطات.

– العيني = المقاصد النحوية .

– عيون الأخبار ـ ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) .

ط دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٧م .

– الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ـ ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ) .

ط مصر ١٣٤٠هـ ، و ط صادر بيروت ١٩٦٦ م .

– الفهرست ـ ابن النديم : محمد بن إسحاق (ت ٣٨٠ هـ)

ط فلوجل ، ليبسك ١٨٧١م، وط رضا تجدد، طهران ١٩٧١م .

– فوات الوفيات ــ ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر الحلبي (ت٧٦٤هـ) .

تحقيق إحسان عباس ، ط بيروت ٧٣ ـ ١٩٧٤ م .

– الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير : عز الدين علي بن محمد الشيباني

(ت٦٣٠هـ) .

ط صادر ، بيروت ١٩٦٥ ، و ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٥ م .

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ـ أبو شامة : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (ت ٦٦٥ هـ) .

ط مصر ١٢٨٧ هـ .

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (١٠٦٧ هـ) .

ط استانبول ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م .

- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ـ المناوي : عبد الرؤوف بن تاج العارفين (ت ١٠٣١هـ)

ط مصر ١٣٥٧هـ .

- اللباب في تهذيب الأنساب ـ ابن الأثير : عز الدين علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠ هـ)

ط مصر ٥٦ ـ ١٣٦٩هـ .

- لسان العرب ـ ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت ٧١١هـ)

ط صادر، بيروت ١٩٦٨ م .

- لسان الميزان ـ ابن حجر العسقلاني : أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ)

ط حيدر آباد ، الهند ١٣٣١هـ ،

- مجمع الأمثال ـ الميداني : أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت٥١٨هـ) .

ط السعادة، مصر ١٩٥٩م .

- المحبر ـ ابن حبيب : محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي (ت٢٤٥ هـ)

ط دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد ، الهند ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢ م .

- المختصر في أخبار البشر (ويعرف بتاريخ أبي الفداء) ـ أبو الفداء : الملك - المؤيد إسماعيل بن علي بن محمود صاحب حماة (ت ٧٣٢ هـ) .

ط مصر ١٣٢٥هـ.

- مرآة الجنان ـ اليافعي : عبد الله ن أسعد (ت ٦٧٨ هـ)

ط بيروت ١٩٧٠م .

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ـ سبط ابن الجوزي : يوسف بن قزا أوغلي (ت٦٥٤ هـ)

طبع المجلد الثامن وهو الأخير في حيدرآباد، الهند ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م .

- المرزباني = معجم الشعراء

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ المسعودي : أبو الحسن علي بن أبي الحسن (ت ٣٤٦ هـ)

- ط باريس ١٩٣٠م ، وط محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٨م .

المستقصى في أمثال العرب ـ الزمخشري : جار الله محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ)

ط دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد، الهند ، صورتها دار الكتب العلمية ،

بيروت ١٩٨٧م.

- مطالع البدور في منازل السرور ـ الغزولي : علاء الدين علي بن عبد الله البهائي (ت ٨١٥ هـ) .

ط مصر ١٢٩٩ـ ١٣٠٠هـ .

- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ـ الفتح بن خاقان : الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي (ت ٥٢٩ هـ) ط الجوائب ١٣٠٢هـ ، وط بيروت ١٩٨٣ م ..

- المعارف ـ ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) .

ط مصر ١٩٣٤ م

- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ـ العباسي : عبد الرحيم بن عبد الرحمن (٩٦٣ هـ) . أحمد

ط مصر ١٣٧٦هـ .

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ المراكشي : عبد الواحد بن علي التميمي (ت ٦٤٧ هـ)

ط مصر ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩ م ، وط دار الكتاب، الدار البيضاء ، ١٩٨٠م .

- معجم الأدباء ـ ياقوت الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ) .

ط دار المأمون ، مصر ١٩٣٦م ، وتحقيق إحسان عباس، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣ .

- معجم البلدان ـ ياقوت الرومي الحموي (السابق)

ط صادر ، بيروت ١٩٥٧ م .

- معجم الشعراء ـ المرزباني : أبو عبيد محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ)

تحقيق عبد الستار فراج ، ط الحلبي ، القاهرة ١٩٦٠م .

- المعرَّب من الكلام الأعجمي ـ الجواليقي : أبو منصورموهوب بن أحمد (ت٥٤٠ هـ) .

تحقيق أحمد شاكر ، ط القاهرة ١٣٦١هـ .

- المغرب في حلي المغرب ـ ابن سعيد المغربي : أبو الحسن علي بن موسى (٦٨٥ هـ) .

ط الجزآن الأول والثاني في مصر ١٩٥٣، ١٩٥٥، ، وطبع جزء منه وهو السابع في ليدن ١٨٩٨م ، وطبع جزء منه بمصر ١٩٥٣م بعنوان : الجزء الأول من القسم الخاص بمصر تحقيق شوقي ضيف ، ط دار المعارف، مصر ١٩٦٤ م .

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ـ ابن واصل : محمد بن سالم المازني (هـ٦٩٧ هـ) .

ط مصر ٥٣ ـ ١٩٥٧ م الجزآن الأول والثاني .

- مقاتل الطالبيين ـ أبو الفرج الأصفهاني : علي بن الحسين الأموي (ت٣٦٠هـ) .

ط النجف ١٣٥٣هـ ، و تحقيق أحمد صقر، ط مصر ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م .

- المقاصد النحوية ـ العيني : محمود بن أحمد (ت ٨٥٥ هـ) .

طبع على هامش خزانة الأدب للبغدادي، مصر ١٢٩٩ هـ .

- المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ـ ابن حيان : حيان بن خلف بن حسين القرطبي (ت ٤٦٩ هـ) .

ط باريس ١٩٣٧م، وطبعت القطعة الثانية منه في بيروت ١٩٧٣م .

– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم – ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت ٥٩٧ هـ) .

ط دائرة المعارف العثمانية ، حيد آباد، الهند ١٣٥٧هـ .

– منهاج السنة – ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت٧٢٨هـ).

ط بولاق مصر ١٣٢١هـ .

– الموسوعة العربية الميسرة– بإشراف محمد شفيق غربال .

ط دار الشعب ١٩٦٥م .

– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (يعرف بخطط المقريزي) – المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي

(ت ٨٤٥ هـ) . مطبعة النيل ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .

– مورد اللطافة – ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت٨٤٧هـ) .

طبع جزء منه في كيمبرج ١٧٩٢م

ميزان الاعتدال في نقد الرجال – الذهبي : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ) .

ط البابي الحلبي مصر ١٣٢٥هـ .

– النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس – ابن دحية : عمر بن الحسن بن علي الكلبي (ت ٦٣٣ هـ) .

ط بغداد ١٣٦٥هـ .

– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٤٧ هـ) .

ط دار الكتب المصرية ١٩٣٠م .

– نزهة الألباء في طبقات الأدباء ـ الأنباري :أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧ هـ)

ط مصر ١٢٩٤ هـ و تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط القاهرة ١٩٦٧ م . .

– نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس ـ الموسوي : العباس بن علي بن نور الدين (ت ١١٤٨ هـ) .

ط مصر ١٣٩٣هـ .

– نسب قريش ـ الزبيري : المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦ هـ) .

ط دار المعارف، مصر ١٩٥٣ م .

– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ المقَّري : أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ).

ط دوزي وآخرين ، ليدن ١٨٦١م، ، وتحقيق إحسان عباس ، ط صادر، بيروت ١٩٦٨ م . .

– النقائض (نقائض جرير والفرزدق) ـ أبو عبيدة : معمر بن المثنى التيمي (ت ٢١٠ هـ) .

ط ليدن ١٩٠٥ ـ ١٩١٢م .

– نكت الهميان في نكت العميان ـ الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك

(ت ٧٦٤ هـ).

تحقيق أحمد زكي، ط مصر ١٣٢٩هـ / ١٩١١ م .

- الوزراء والكتاب ـ الجهشياري : أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ).

تحقيق السقا والأبياري وشلبي، ط مصر ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م .

- وفيات الأعيان ـ ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ).

ط مصر ١٩٤٨م ، وتحقيق إحسان عباس ، ط دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣م.

- وقعة صفين ـ نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢ هـ) .

تحقيق عبد السلام هارون، ط مصر ١٣٦٥هـ / ١٩٤٥ م ..

- الولاة والقضاة ـ الكندي محمد بن يوسف بن يعقوب (ت ٣٥٠ هـ) .

ط بيروت ١٩٠٨ م .

- يتيمة الدهر ـ الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري (ت٤٢٩ هـ).

ط القاهرة ١٩٥٦م ، وط بيروت ١٩٨٣م .

فهرس الموضوعات

مقدمة التحقيق

ذكر بني طباطبا :

الهواشم :

[دولة الزنجي]

[دولة القرامطة]

[الخلفاء العباسيين في مصر]

الدولة الأموية

الدولة الأموية بالأندلس